هنري لورَنس

مسألة فلسطين

المجلد الأول
١٧٩٩-١٩٢٢:
اختراع الأرض المقدَّسة



الكتاب الثاني
١٩١٤-١٩٢٢
أصل فلسطين ما تحت الانتداب

ترجمة: بشير السباعي

المشروع القومي للترجمة
المركز القومي للترجمة
1027

مسألة فلسطين

الكـــتاب الثانـي

١٩١٤ـــ١٩٢٢

المشروع القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفــور

ـ العدد: ١٠٢٧
ـ مسألة فلسطين (المجلد الأول ١٧٩٩-١٩٢٢)
اختراع الأرض المقدسة
الكتاب الثاني: أصل فلسطين ما تحت الانتداب (١٩١٤ـ١٩٢٢)
ـ هنري لورنس
ـ بشير السباعي
ـ الطبعة الأولى: ٢٠٠٦

تم نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون (قسم الترجمة) التابع لـسفارة فرنسا بجمهورية مصر العربية في إطار مشروع دعم النشر (طه حسين) التابع لوزارة الـشئون الخارجية الفرنسية.

شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة ـ القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel: 7352396 **Fax**: 7358084 **Email**: egyptcouncil@yahoo.com

هنري لورنس

مسألة فلسطين

المجلد الأول

١٧٩٩ ـ ١٩٢٢

اختـــراع الأرض المقدســـة

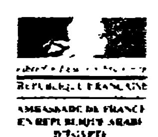
الكتاب الثاني

أصل فلسطين ما تحت الانتداب

١٩١٤ ـ ١٩٢٢

ترجمة

بشير السباعي





القاهرة
٢٠٠٦



بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

لورنس ، هنرى

مسألة فلسطين/هنرى لورنس ؛ ترجمة بشير السباعى .- ط ١-

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦

٢ مج ٥٤٨ ص ، ٢٤ سم

المحتويات : ط ١٧٩٩ - ١٩٢٢ اختراع الأرض المقدسة - جـ٢ أصل فلسطين ما تحت الإنتراب ١٩١٤ - ١٩٢٢

١ فلسطين - تاريخ - العصر الحديث - الإحتلال البريطانى ١٩١٧ - ١٩٤٨ ٢. ٩٥٦,٩ أ العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٦/١٨١٧٠

الترقيم الدولى I.S.BN. 977 - 437 - 035 - X

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

صورة الغلاف : لويد چورج وويلسون وكليمنصو فى ڤرساى

تصميم الغلاف : هبة حلمى

الكتاب الثاني

أصـــل فلسطـــين

ما تحت الانتداب

١٩١٤ ـ ١٩٢٢

الفصل الثامن

الفرنسيون والإنجليز في الشرق الأدنى

"القدس مدينة قذرة، جعلت منها جميعُ الديانات السامية مدينة مقدسة. فالمسيحيون والمسلمون يجيئون إليها للحج؛ وإليها تتطلع أنظار اليهود في سعيهم إلى المستقبل السياسي لجنسهم. والحال أن قوى الماضي المجتمعة هي من الحيوية بحيث إن المدينة إنما تفتقر إلى الحاضر: فسكانها، فيما عدا استثناءات نادرة، يشبهون خدم الفنادق من حيث تفاهة قيمتهم، ويرتزقون من حشد الزائرين العابرين. وتواريخ العرب والقوميات غريبة عنهم غربة نظام المعدنين [الذي يجعل لكل من النقود الذهبية والفضية قوة إبراءٍ مطلقة بعد تحديد النسبة بينهما] عن حياة تكساس — ولو أن دراية مسلمي القدس بالخلافات فيما بين المسيحيين، عندما تعبر حميتهم المذهبية عن نفسها بأقوى قوة، قد قادتهم إلى احتقار (ومقت) الأجانب في عمومهم.

"أمّا بيروت فهي مدينة جديدة تمامًا. وكان من الممكن لها أن تكون بكاملها، في مشاعرها ولغتها، ابنة غير شرعية لفرنسا، لولا مرفأها اليوناني وكلّيتها الأميركية. والرأي العام فيها هو رأي التجار المسيحيين، وكلهم من أصحاب النفوذ الذين يرتزقون من التبادلات التجارية، لأن بيروت نفسها لا تُنتج شيئًا. وبعد التجار، يتألف مكونها الرئيسي من طبقة المهاجرين الذين عادوا إلى الوطن والذين يحيون من استثمار مُدّخراتهم في المدينة السورية التي يعتبرونها الأكثر شبهًا بالواشنطون آڤنيو، حيث كانوا قد حققوا "النجاح". وبيروت هي ميناء سوريا، حيث يوجد منفذ مشرقي تتغلغل عبره في سوريا أشكال النفوذ القادمة من الخارج بصحبة حانوتيّها القذر. وبيرت ممثّلة لسوريا تمثيل سوهو للكونتيّات الإنجليزية؛ على أننا نجد في بيروت، بالنظر إلى موقعها الجغرافي ومدارسها والحرية المتولدة عن العلاقات مع العديدين من الأجانب، نواةً من الناس، من المسلمين، القادرين على الكلام والكتابة والتفكير كالموسوعيين المذهبيين الذين مهدوا السبيل أمام الثورة في فرنسا، وقد تغلغلت أقوالهم، في داخل البلد، لتصل إلى بعض الأوساط المحيِّدة للاتجاه إلى الفعل. وبفضلهم (كثيرون منهم يعتبرهم العربُ الآن شهداء)، وبفضل قوة بيروت المستندة إلى

الرخاء، كما بفضل صوت بيروت العالي والمؤثر بشكل زائد عن الحدّ، أصبحت بيروت مدينة يتوحب عمل حساب لها.

"أمّا دمشق وحمص وحماه وحلب فهي المدن الأربع القديمة التي تتباهى بها سوريا. وهي تأخذ شكل سلسلة على امتداد وديان الداخل الخصيبة، بين الصحراء والتلال؛ وبالنظر إلى موقعها، فإنها تدير ظهرها للبحر وتنفتح على الشرق. وهي عربية وتعرف أنها عربية".

توماس إدوارد لورانس
سوريا، المعلومات الأولية(١)

الفرنسيون والبريطانيون في مواجهة الحرب

الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى تأخذ الدول العظمى على حين غرّة. فمعارك صيف عام ١٩١٤ كانت ما تزال تسمح بتصور أن الحرب سوف تكون قصيرة ومقصورة على الساحات الأوروبية. وغداة معركة المارن والتسابق على البحر الذي أعقبها، يتضح للجميع أن ما نحن بإزائه هو انخراط في حرب كلية تتناسب مع مرحلة تطور الاقتصاد الصناعي الغربي. وعندئذ تتجه الدول إلى تعبئة كاملة لمجمل موارد ولمجمل طاقات الأمم المتحاربة كما تتجه إلى البحث عن حلفاء جدد.

والدولة العثمانية تشكل جزءًا من النظام الأوروبي بشكل مباشر، ويظهر دورها جوهريًا لاسيما أنها تسيطر على طريق الاتصال الأهم بين دول الوفاق العظمى وروسيا الإمبراطورية. ويتمثل صالح فرنسا وبريطانيا العظمى وإمبراطورية القياصرة في صون حياد الدولة العثمانية. وعلى العكس من ذلك، نجد أن إمبراطوريتي وسط أوروبا، [ألمانيا، النمسا ــ المجر]، تريان أن دخول العثمانيين الحرب من شأنه أن يعني عزل روسيا وإمكانية استخدام سلاح الجهاد ضد الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية اللتين يتألف معظم سكانهما من المسلمين. وبالرغم من بعض الاتجاهات المعاكسة، تميل قيادة جماعة تركيا الفتاة إلى التحالف مع ألمانيا. فمنذ ٢ أغسطس/ آب ١٩١٤، كان قد تم عقد معاهدة دفاعية بين القسطنطينية وبرلين تستهدف روسيا. وهدف هذه المعاهدة،

علاوة على الحماية ضد العدو التاريخي المتمثل في روسيا، هو استرداد عدد كبير من الأراضي على امتداد جميع أطراف الدولة العثمانية واستعادة استقلال داخلي حقيقي من شأنه إنهاء السيطرة المشتركة التي تمارسها الدول العظمى[٢] على هذه الدولة.

وفي ٨ سبتمبر/ أيلول، يلغي الباب العالي من جانب واحد الامتيازات مع كل ما تستتبعه من هياكل حقوقية وحصانات مختلفة. وفي ٢٩ أكتوبر/ تشرين الأول، تبدأ الأعمال الحربية في البحر الأسود. وفي ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني، تدخل روسيا الحرب ضد الدولة العثمانية. وفي ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني، تعقبها فرنسا وإنجلترا. ومنذ ذلك الشهر، وبما يتماشى مع قرار كان قد تم اتخاذه قبل ذلك بوقت طويل، تنزل إلى البصرة القوات البريطانية القادمة من إمبراطورية الهند سعيًا إلى القضاء على التهديد الذي تتعرض له المصالح البريطانية في الخليج، ويعلن السلطان ــ الخليفة جهاد جميع المسلمين ضد دول الوفاق.

وبالنسبة للندن كما بالنسبة لباريس، تتمثل الضرورة الأكثر إلحاحًا في مواجهة خطر نشوب حرب مقدسة. فتنطرح على الفور المسألة التي سوف تظل مقيمة إلى ما بعد الحرب العالمية: كيف يمكن استعادة الوصاية الضمنية ــ لأنها تُبقي على السيادة العثمانية ــ ولكن الفعلية للدول العظمى على الولايات العربية للدولة العثمانية؟ ومنذ خريف عام ١٩١٤، وسعيًا إلى تهدئة مخاوف مسلمي الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية، كانت فرنسا وبريطانيا العظمى قد أعلنتا عزمهما على أن تُبقيا خارج العمليات العسكرية كما خارج أطماعهما الإلحاقية، بلد مدينتي الإسلام المقدستين، الحجاز، الذي يحكمه بشكل مشترك وال عثماني وأمير مكة، والملقب بالشريف الأعظم. وهكذا فإن بلاد العرب، وهي أرض ذات حدود غير محدَّدة، إنما تحصل على وعد بالاستقلال، بالرغم من وجود طموح في الاحتفاظ فيها بنفوذ فرنسي وبريطاني قوي[٣].

ومنذ أواخر عام ١٩١٤، ندخل من ثم في أجمة متشابكة، في متاهة انتهت إلى اكتساب دلالة في حد ذاتها وما تزال إلى اليوم أيضًا موضع سجالات دائمة، هي دلالة تعهدات الدول المتحالفة في الحرب العالمية الأولى. والحال أن وفرة غزيرة من الأدبيات قد كُرِّسَت لهذه الدلالة، وقد انتهت إلى أن تزيد من صعوبة

التفسير الذي يجب تقديمه لهذه الأحداث. واعتبارًا من مستهل عشرينيات القرن العشرين، فُسِّرَت هذه النصوص وجرى التعليق عليها من زاوية المجريات الواقعية الجديدة التي كانت آخذة بالتشكل في شرقٍ أدنى تَعرض للانقلاب. وقد استعيدت شروط هذه النصوص كما لو أنها تحوز الدلالة التي اكتسبتها في تلك اللحظة. والحال أن تغير المعجم السياسي والجغرافي، والتغيرات في معنى التسميات العرقية، إنما تترجم واقعًا أساسيًّا: فمن عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢٣ (معاهدة لوزان)، ننتقل بسرعة، من حالة عدم تحديد وتشوُّشٍ للهويات وللمفاهيم التي تسمح بتعريفها إلى حالة أخرى اتخذت فيها الأماكن والمناطق والشعوب تعريفا محددًا من الناحية الحقوقية. فقبل عام ١٩١٤، كانت تعبيرات كالعرب والسوريين والفلسطينيين ذات معنى غامض ومتغير. وبعد عام ١٩٢٣، توجد فلسطين وسوريا، بل وعالم عربي، يمكن تحديدها بقدر عظيم من الدقة، حتى وإن كان التحديد النهائي للحدود سوف يتطلب عدة عقود أخرى.

وفي هذه التحولات الجارية، ستلعب فرنسا وبريطانيا العظمى دورًا عظيمًا. إن مصالحهما هناك استراتيجية بالدرجة الأولى، وذلك من زاوية مجرى العمليات العسكرية. وهذه المصالح لا تنفصل عن مشاريع جيوسياسية أوسع. ففي المقام الأول، بالنسبة لباريس، بالنظر إلى الشمال الأفريقي، كما بالنسبة للندن، بالنظر إلى الهند، تعد هذه الحرب حربًا للسيطرة على الإسلام. وقد وضع العثمانيون والألمان هذا البُعد في الصدارة. لكن الفرنسيين والبريطانيين لم يختاروه. وفي مرحلة ثانية، يسعى الفاعلون الفرنسيون والإنجليز إلى الاستفادة من الوضع التاريخي ــ انهيار الدولة العثمانية، الواضح منذ عقود ــ لإنجاز عملهم الاستعماري والإمبريالي، حيث تمتزج الرغبة في صون مكانة عالمية والأطماع الاقتصادية والحرص على حماية وتوسيع مجال تراث ثقافي يوجد تعلق عميق به.

وإذا كانت مرامي الفرنسيين والبريطانيين ذات طبيعة واحدة، فإن الأسلوب الذي يرى كل طرف منهما وجوب اتباعه لتحقيق هذه المرامي إنما يتباين تباينًا عظيمًا مع الأسلوب الذي يراه الطرف الآخر. وأيًّا كانت أسس الإمبريالية، أكانت أعلى مراحل الرأسمالية أم إسقاطًا عالميًّا لعلاقات القوى بين الدول

العظمى، فإنه يبقى مع ذلك أن واقع ممارسات هذه الدول إنما يحيل إلى نماذج خاصة يتواجد تفسيرها خارج الظاهرة الاستعمارية نفسها.

فكما في عصور أخرى وأماكن أخرى، لا يمكن بالفعل تفسير السياسات الفرنسية والبريطانية في الشرق الأدنى خلال الحرب العالمية الأولى إلاً إذا أخذنا بعين الاعتبار واقع أن هذه السياسات إسقاطات لحقائق أنثروبولوجية لحضارات متروبولية[٤]. فالثقافة الفرنسية تعتبر نفسها استيعابية وإدماجية. وميلها الذي تختص به نفسها هو أن تفرنس بلا هوادة ضمن ثقافة مشتركة جماعات سكانية ذات أصول متباينة. والحال أن هذه النزعة العالمية المتحركة قد اتخذت الرسالة التمدينية شعارًا لها. وفي مواجهة المجريات الواقعية الإسلامية في الشمال الأفريقي كما في أفريقيا السوداء، وجدت السياسة الاستعمارية الفرنسية نفسها في وضع توتر دائم بين الممارسات الناجمة عن علاقة بين شعب سائد وشعب مسود ورغبة قائمة في الاستيعاب، ومن هنا الأرق الدائم الذي نرصده في الأدبيات الاستعمارية. فالإمبراطورية والجمهورية كانتا حقيقتين من المستحيل التوفيق بينهما. وبالمقابل، في الشرق الأدنى، نجد أن التمدن المشرقي يبدو مشروعًا ناجحًا تمامًا وذلك بفضل التبني الحر من جانب النخب الشرقية من جميع الطوائف لثقافة فرانكوفونية آخذة في توسع سافر. وفي مستهل الحرب، كان بوسع المسئولين الفرنسيين أن يفكروا بالفعل في أن يجعلوا من مجمل الولايات السورية "فرنسا مشرق" واسعة قائمة على القبول الحر من جانب السكان المعنيين. وفيما يتعلق بالعالم اليهودي، نجد أن التحالف الإسرائيلي العالمي، بشبكة مدارسه، إنما يمثل النموذج الناجز للطموح الفرنسي.

وإذا كان المشروع الفرنسي يعتبر نفسه عالميًا واستيعابيًا، فإن المشروع البريطاني إنما يطرح نفسه بوصفه مشروعًا يعترف بالاختلافات ويحترم ثقافة الأهالي. وعلاوة على مجرد السيطرة السياسية وحماية المصالح الاقتصادية، يعتبر البريطانيون أنفسهم مسئولين عن تطور للسكان يؤدي إلى صعودهم إلى الحداثة مع احتفاظهم بأصالتهم الأصلية. و"عبء الرجل الأبيض" هذا إنما يعني أن الإنجليز يحتفظون بمسافة تفصلهم عن الأهالي، الذين يجب عليهم إبداء

الامتنان على كل ما يجري عمله لأجلهم. وهذه المهمة الطويلة الأمد سوف تتطلب عدة أجيال قبل أن يتمكن المسودون من حكم أنفسهم بأنفسهم.

وكما اعترف بذلك اللورد كرومر في **مذكراته**، فإن واحدة من أعظم المصاعب التي يواجهها البريطانيون في الشرق الأدنى إنما تنبع من واقع أن الحضارة الفرنسية أكثر جاذبية بكثير بالنسبة للآسيويين وللمشارقة من الحضارة الإنجليزية والحضارة الألمانية: ولا يحتاج المرء إلاّ إلى أن يقارن تهيب البريطاني وتحفظه الانعزالي بحيوية الفرنسي ونزعته الكوزموبوليتية لكي يدرك إلى أي مدى يمكن للثاني أن يجتذب صداقة الشرقي على الفور. والأول لا ينجح في إفهام الآخرين احترامه لما هو أهلي، في حين أن الثاني غالبًا ما يؤدي تمثيلية عديمة النزاهة. وبالمثل، على المستوى الفلسفي، نجد أن الإنجليزي ينبذ كل تفكير قَبْلِيٍ ولا يهتم إلاّ بالحقائق، قاصرًا استنتاجاته على ما أمكن إثباته، في حين أن الفرنسي، الذي يستند إلى قليل من العناصر، يسارع إلى طرح تعميمات في روح من الثقة. وشبه المتعلم يفضِّل بشكل طبيعي النسق الفرنسي، الذي يوفر له يقينيات فورية، بدلاً من أن يتبنى السبيل البريطاني الذي يلتزم بالحقائق الملموسة وليس بالأفكار. والنتيجة مأساوية: فالشرقي يتبنى أسوأ ما في الثقافة الغربية وينبذ أفضل ما فيها. وبالرغم من جدارة الحضارة الفرنسية بالإعجاب، فإنها لا يمكن أن تكون ملائمة إلاّ لبلد أوروبي. أمّا "فرنسة" النخب الشرقية فهي عقبة إضافية في طريق تقدمها الحقيقي(ج).

وهذه المصاعب، التي قابلها البريطانيون في مصر منذ عام ١٨٨٢، تتواجد أيضًا على طول الساحل الشرقي العثماني للبحر المتوسط. فالثغور المشرقية الكبرى، حيث يهيمن النموذج الكاثوليكي والفرنسي، إنما تعد عقبات مقيمة في وجه فعل بريطاني. فعلى المستوى السياسي كما على المستوى الثقافي، يظهر المشرق بوصفه الموقع المميَّز للنفوذ الفرنسي. وفي حين أن الفرنسي يُقَدِّرُ، بإعجاب تارة وبتنازلٍ تارة أخرى، هذه الفرانكوفونية الشرقية، فإن البريطانيين إنما يرون فيها هرطقةً. والحال أن متخصصين في الشرق الأدنى سوف تكون لهم مسئوليات مهمة خلال الحرب، شأن ت. إ. لورانس أو السير مارك سايكس أو د. ج. هوجارث، إنما يشجبون في كتاباتهم قبل عام ١٩١٤ الانحطاط

المعنوي الذي يمثله المشرقي. فهم يرون أن من ليسوا مسلمين قد وقعوا ضحية للمؤثرات الإفسادية القوية الموجودة في الثقافة الغربية. واليوم، يبدأ المسلمون في مكابدة هذا التطور نفسه: فجماعة تركيا الفتاة، إذ تتمسك بنزعة وضعية مستعارة من أوجست كونت، إنما تمثل المرحلة القصوى للروح المشرقية، وذلك بإلحادها وبانتمائها إلى الماسونية وبتبنيها للخصال الغربية[٦].

وإحياء الشرق، أي حدوث تطور من شأنه صون أصالة شعوبه، سوف يتم، ليس على أيدي سكان الساحل الفاسدين، وإنما على أيدي السكان الذين صانوا شمائل الأسلاف: وفي المقام الأول العرب البدو ـــ وهم العرب الحقيقيون الوحيدون ـــ، والسكان شبه المستقرين وسكان المدن الكبرى غير الساحلية. وهكذا، ففي حين أن الرحالة الفرنسي يتأثر عميق التأثر إذ يسمع أطفال مدرسة مسيحية أو مسلمة أو يهودية وهم يقصون عليه حكايات لافونتين، فإن نظيره البريطاني إنما يتحمس لدى اتصاله بالعرب الأُباة الذين يحيون تحت الخيمة.

يمكننا من ثم أن نعاين، منذ ما قبل عام ١٩١٤، وجود أسلوبين للنظر إلى مستقبل الشرق الأدنى: أسلوب فرنسي، ينطلق من الساحل ويتجه إلى الداخل ناشرًا الثقافة المشرقية الساحلية، وأسلوب بريطاني، يحبذ أصالة سكان الداخل ويسعى إلى الاعتماد عليهم لكي يتجه إلى الساحل. وبالمثل، يرى البريطاني في الصهيونية عين البرهان على أن بالإمكان استعادة الأصالة الأصلية، عن طريق تحرك إرادي، بينما يعتبر الفرنسيُ الصهيونية آلة حرب ضد نفوذ فرنسا الثقافي.

وطالما ظلت الدولتان العظميان متمسكتين بمبدأ الدفاع عن وحدة أراضي الدولة العثمانية، فإن تعارضهما لا يتميز بحاليةٍ. أمّا مع دخول الدولة العثمانية الحرب، فإن الأمر إنما يكف عن أن يكون كذلك.

فلسطين في الحرب

المفاوضات بين دول الوفاق والحركة العربية لا تنفصل عن العمليات العسكرية، والتي تفسر فترات تسارعها أو تراخيها. ومنذ شهر سبتمبر/ أيلول ١٩١٤، تصبح فلسطين مسرح عمليات تتركز فيه القوات العثمانية. ويلجأ

البريطانيون، من جهتهم، إلى ترك سيناء لكي يقيموا خط دفاعهم على طول قناة السويس. فبالنظر إلى الافتقار إلى القوات اللازمة في مستهل الحرب، نجد أن المسئولين الإنجليز إنما يعتمدون على الحاجز الطبيعي الذي تمثله الصحراء التي تفصل مصر عن فلسطين؛ وسوف يسمح وجود السفن الحربية في القناة باستخدام مدفعية بحرية قوية قادرة على تدمير قوة غزو. وهذا هو ما يحدث في أوائل فبراير/ شباط ١٩١٥ حيث يؤدي الفعل المشترك من جانب قوات بريطانية وسفن إنجليزية وفرنسية إلى تحطيم الهجوم العثماني الذي شنه جمال باشا.

والحال أن التواريخ العامة للحرب العالمية الأولى إنما تعالج الجبهات الشرقية على أنها مسرح ثانوي، حيث إن الأعمال الحاسمة الحقيقية قد حدثت على الجبهة الأوروبية. وهذا مما لا جدال فيه، بيد أنه يؤدي إلى غض النظر عن الدمار الذي أصاب مجمل الشرق الأدنى باتساع غير معروف في أوروبا. فإذا كانت الخسائر البشرية الرئيسية في الغرب سوف تنزل بالعسكريين، فإن الأمر لن يكون كذلك في الشرق، حيث ستصل أرقام الوفيات من المدنيين إلى مستويات مخيفة، بل كارثية إلى أبعد حد: فبالنسبة للأناضول، سوف يموت عدة ملايين، من الأرمن خاصة (وهم الجماعة الأكثر تأثرًا بالخسائر بما لا يقارن) وإن كان أيضًا من المسلمين، وذلك عبر المجازر والمجاعات وانتشار الأوبئة.

ولن تعرف فلسطين خرابًا مماثلاً، بيد أن أعمال التدمير فيها ستكون جسيمة. فمنذ شهر أغسطس/ آب ١٩١٤، تعرض النشاط الاقتصادي في فلسطين للشلل من الناحية العملية وذلك مع توقف النشاطات المصرفية الرئيسية[٧]. ويؤدي انخفاض النقد المتداول إلى ارتفاع قوي للأسعار سوف يتواصل عبر تضخم مستديم خلال مجمل سنوات الحرب. والإعلان عن التعبئة يثير الخوف في صفوف السكان. ويجري إلغاء العديد من الإعفاءات وتنشط الشرطة في مطاردة الفارين من التجنيد[٨].

والحال أن جمال باشا، أحد قادة جماعة تركيا الفتاة، إنما يُكلَّفُ بحكم الولايات السورية وبإدارة العمليات العسكرية. وهو عازم على إنهاء جميع التدخلات الخارجية. وكانت الامتيازات قد ألغيت و، بعد إعلان الحرب، جرى

طرد المشمولين بالحماية من جانب القنصليات ورعايا الدول المعادية للدولة العثمانية. والجماعة الأكثر تأثرًا بهذا القرار هي السكان اليهود: فعدة آلاف من الأشكيناز ذوي الجنسية الروسية قد تأثروا بهذا القرار، بيد أن تلك هي أيضًا حالة سيفارديي الشمال الأفريقي رعايا فرنسا. وهذه الموجة الأولى من اللاجئين تستقر في مصر. ويدشن جمال باشا في التو والحال مناخ رعب. ويفكر في ترحيل اليهود إلى خارج فلسطين، إلى الأناضول، وفق النموذج الرهيب الذي جرى فرضه على الأرمن(٩). ويثنيه عن ذلك المسئولون اليهود المحليون، آرثر روپّين وخاصةً ألبير عنتيبي الذي لا يعرف الكلل(١٠)، والذين يساعدهم الدبلوماسيون الألمان والنمساويون والأميركيون. ويمنحهم جمال باشا وظائف رسمية في حاشيته سعيًا إلى إحكام السيطرة عليهم، قبل أن يطردهم في نهاية الأمر إلى القسطنطينية. وبالمقابل، يجري إعفاء چاكوب تون، مساعد روپّين، من هذا الإجراء.

ويلحق ضرر فادح باقتصاد **اليشوف**، إلاَّ أنه سوف يجري الحفاظ على قدر من المساعدة الخارجية خلال الحرب وذلك بفضل النشاطات الإنسانية من جانب المنظمات اليهودية الأميركية الكبرى. وسوف تنجح المستوطنات الزراعية في البقاء بفضل ارتفاع أسعار السلع الغذائية الزراعية، الأمر الذي سيسمح لها بالقضاء على صور العجز المزمنة التي تصيب هذا النوع من الاستثمارات.

والجماعة السكانية المسلمة هي الأكثر تأثرًا بالحرب: فأولاً، كان تجنيد الرجال أعلى نسبيًا عند المسلمين مما عند غير المسلمين. وبالرغم من إنهاء الإعفاء من التجنيد والذي قرره نظام جماعة تركيا الفتاة منذ استيلائها على السلطة، فإن غير المسلمين إنما يتمتعون بإمكانيات لدفع بدليات عن التجنيد لم تكن متاحة لغيرهم. وأولئك الذين لم يتمكنوا من دفع بدليات عن التجنيد [من غير المسلمين] كانوا يوزَّعون عمومًا على القوات غير المحاربة في المؤخرة، حيث كانوا يتعرضون لإساءة معاملة جسيمة، بيد أن حالهم قد تبدو مصدر حسد وذلك بالقياس إلى مكابدات وخسائر الوحدات المقاتلة.

وتقدم عائلات الأعيان ضباطًا، في حين أن الأوساط الشعبية سوف ترسل

بالآلاف مشاة سيخدمون في صفوف سلاح المشاة العثماني ذاك الشهير الذي سوف يذهل الحلفاء خلال الحرب. وفي ١٩١٥ ــ ١٩١٦، سوف ينزل قمع جمال باشا بقسوة على رءوس دعاة الحكم الذاتي العرب الذين جرى التعرف عليهم على نحو مناسب. والحال أن الانتماء إلى حزب اللامركزية العثماني سوف يصبح مدعاة للحكم بالإعدام. وسوف تقدم العائلات المسلمة الكبرى حصتها من الشهداء للقضية القومية العربية. ويجعل الشيخ أسعد الشقيري من نفسه متحدثًا بلسان العرب المحليين لدى الدولة العثمانية. وهو واحد من المقربين إلى جمال باشا الذي يكلفه بالدفاع عن عمله لدى القسطنطينية بعد السلسلة الأولى من إعدامات دعاة الحكم الذاتي العرب(١١). وخلال هذين العامين نفسيهما، وبالرغم من القمع، تواصل الجمعيات السرية العربية تجنيد أنصار لها في فلسطين: وهكذا ينتمي عزة دروزة، الذي سيصبح من أحد الناشطين فيما بعد، إلى الجمعية العربية الفتاة.

وأحد القرارات الأولى لدول الوفاق هو فرض حصار لا هوادة فيه على مجمل السواحل العثمانية، بما يؤدي إلى شلل طرق المواصلات الرئيسية للمشرق. والنتيجة المباشرة لذلك هي إزحام شبكة المواصلات الداخلية. وعندئذ تصادر السلطات العسكرية حيوانات الجر التي يملكها الفلاحون، الأمر الذي يؤدي إلى تدهور للإنتاج الزراعي وإلى تزايد معاناة السكان. وبالمثل، فإن مزارع الحمضيات إلى جانب احتياطيات غابية أخرى للبلد سوف تقدم الوقود اللازم لسكة الحديد، خاصة سكة حديد الحجاز، ومن هنا تدمير المورد الاقتصادي الرئيسي للبلد. وحتى قبل أن تصبح فلسطين مسرحًا للعمليات، فإنها تتحسس بقسوة آثار الحرب. والمناطق الساحلية هي الأكثر تأثرًا، ذلك أن المناطق الداخلية كانت تتمتع بحالة غذائية أفضل. وترتفع نسبة الوفيات العامة، وإن كان دون أن تصل إلى مظهر الإبادة الذي يعرفه لبنان المجاور للأسباب عينها. ويشير التعداد البريطاني لعام ١٩٢٢ إلى تراجع طفيف للسكان المسيحيين والمسلمين قياسًا إلى الأرقام الرسمية لعام ١٩١٤. ولا نحوز حسابًا للخسائر البشرية العسكرية العربية في الجيش العثماني لمجمل سنوات الحرب ونعرف أن المشاركة العربية كانت الأكثر أهمية في معارك الدردنيل والقوقاز

اعتبارًا من عام ١٩١٥ (وقد نجت القوات العربية من الكارثة القوقازية في شتاء ١٩١٤ ــ ١٩١٥).

نحو اقتسام الدولة العثمانية

منذ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٤، يفكر الفرنسيون والبريطانيون في مستقبل المنطقة. والحال أن مذكرة لحكومة بوردو تطرح بوضوحٍ الأهداف الفرنسية:

> إيجاد سوريا مستقلة متحررة من كل ارتهان تركي ــ ألماني، مع إقامة حكومة تتألف من مسلمين ومسيحيين على أساس المحاصصة النسبية، الأمر الذي يعد بالنسبة لنا عربون سلام مع مسلمينا في أفريقيا[١٢].

ومفهوم الاستقلال هذا يجري فهمه على أنه انفصال عن الدولة العثمانية لا على أنه حرية حقيقية ممنوحة للشعوب المعنية. والمقصود به، بشكل أو بآخر، هو استعادة نظام أشكال النفوذ الذي سمح قبل الحرب بممارسة سيطرة حقيقية على المنطقة. وهذا الالتباس يتواجد أيضًا في تصريح بريطاني صادر بتاريخ ٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٤ وموجّهٍ إلى "أهالي بلاد العرب والولايات العربية": إن هدف الحلفاء ليس ضم هذه المناطق؛ وهم ليسوا أعداء للإسلام؛ وهم مستعدون للاعتراف باستقلال العرب، تحت شكل خليفي في نهاية المطاف. وهذا النداء يخص بالدرجة الأولى العرب بوصفهم أفضل المسلمين حتى لا يشاركوا في الجهاد[١٣].

ولحظة إعلان الحرب على ألمانيا، كان اللورد كيتشنر موجودًا في لندن. وفي ٤ أغسطس/ آب ١٩١٤، يصبح وزيرًا للحربية. وبالرغم من مهامه الجسام، فإنه عازم تمامًا على لعب دور رئيسي في شئون الشرق الأدنى، المجال الذي يميل إلى التركيز عليه. وبعد فترة إنابةٍ، يقوم بتعيين السير هنري ماكماهون مندوبًا ساميًا في مصر، وهو رجل شخصيته باهتة نسبيًّا، كان قد قضى الجانب الأعظم من فترة خدمته في الهند. والحال أن هذا الأخير، بما أنه لا يعرف المنطقة، إنما يعتمد اعتمادًا وثيقًا على آراء ونصائح مستشاريه، وهم

مجموعة غير متجانسة من "الخبراء" الذين جمعتهم في القاهرة صروف الحرب. والشخصيتان الأهم هما رونالد ستورس، السكرتير الشرقي للمندوب السامي، وكلايتون، وهو عسكري كان قد خدم في إدارة السودان[١٤]. ويسارع هذا الأخير إلى تنظيم جهاز استخبارات بمساعدة من شبان كلورانس وولي، وهما باحثان عن الآثار كانا قد قاما بأعمال تنقيب في سوريا (وأستاذهما العلمي، هوجارث، لا ينضم إليهما إلاَّ في وقت متأخر)، وبمساعدة من لويد چورچ وأوبري هربرت، وهما عضوان في البرلمان وديبلوماسيان سابقان في القسطنطينية. وإذا كانت هذه المجموعة تعمل بكفاءة وبنشاط، فإنها إنما تحتفظ مع ذلك بسمعة خطيرة كمجموعة من الهواة، الأمر الذي يضعهم في مواجهة محترفي حكومة الهند المسئولين عن الخليج.

والحال أن مشروع ما قبل الحرب ــ النزول على مؤخرات القوات العثمانية والمصحوب بانتفاضة عربية ــ إنما تجري دراسته على الفور. وهو يبدو ضروريًا للدفاع عن مصر. ويجري تحديد الأماكن الأنسب للإنزال، فهي حيفا أو الإسكندرون[١٥]. وتناضل أوساط الإنجليز في مصر بقوَّةٍ من أجل هذا الإنزال الذي، علاوة على أهميته العسكرية، ستتميز فائدته في إضعاف مواقع فرنسا في المسألة السورية. والاتصالات التي يجري استئنافها مع شوام مصر تبين لهم أن العرب المسلمين، كما قبل ١٩١٤، معادون لوجود فرنسي في حين أن بإمكانهم أن يقبلوا، على مضض بالتأكيد، وصاية بريطانية[١٦]. بيد أن الفرنسيين لا يبقون سلبيين: إن دوفرانس، المتزوج من مشرقيةَ، إنما يكثف العلاقات مع شوام مصر ويدفع من جانبه إلى تكوين جماعة ضغط من المحبين لفرنسا. والحال أن الفرنسيين والإنجليز، في مراسلاتهم مع عاصمتيهم المتبادلتين، يتبادلون الاتهام بالإقدام على مناورات ودسائس دنيئة.

وما تتوحد عليه آراء الفرنسيين والبريطانيين هو أن انتفاضة سورية على أثر إنزالٍ ويتلوها تنصيب خليفة إنما تبدو السلاح الأفضل ضد الدولة العثمانية. والمرشح المثالي لا يمكن إلاَّ أن يكون شريف مكة، الذي هو

> [...] عربي، سليل النبي، حر ومستقل في الحجاز. وسوف تكون هذه الحرية جلية تمامًا. والحكم الذاتي العربي لسوريا، المستقلة من الناحية القانونية، سيكون في الواقع تحت

سيطرة الدول العظمى، والحال أننا لا يجب أن ننسى أن دمشق هي ضابط حركة مكة.

وبدلاً من زعيم عسكري أو ديني، فإننا إنما نجد أنفسنا عندئذ بإزاء بابا للإسلام، جد مستقل في أعين المؤمنين، لكنه ملزم في الواقع بأن يراعي كل المراعاة جميع أشكال النفوذ الأوروبية.

ولا حاجة هناك إلى التشديد على مزايا حل كهذا من شأنه أن يكفل إلى الأبد الأمن الديني في البلدان الإسلامية المنتمية إلى إمبراطوريتنا الاستعمارية المترامية الأطراف(١٧).

وسعيًا إلى موازنة الأمور، يرتأي الفرنسيون إيجاد خلافة ثانية، تدعى خلافة "الغرب"، وتُمنح لسلطان المغرب الأقصى وتكون لها الهيمنة الدينية على "الإسلام الفرنسي".

ويرتاب كل طرف في النوايا المفترضة لشريكه. ففي ٣٠ و٣١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٤، يلتقي المبعوثون الفرنسيون نظراءهم البريطانيين لكي يناقشوا مشروع الانتفاضة العربية. ويبدو ماكماهون مراوغًا بشكل خاص ويُوحي بأنه يجب ترك العرب يتصرفون وحدهم(١٨). ويشتبه الفرنسيون بأنه يريد التصرف دون إخبارهم بذلك ويقررون مراقبة نشاطات إنجليزيي مصر باهتمام. ولا يخفي هؤلاء الأخيرون مقاصدهم. ففي محادثة مع موكورب(١٩)، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية، يتحدث لويد جورج عن رغبته في أن يجعل من إنجلترا حامية للإسلام وفي أن يكفل لها فتح العالم العربي على الأقل:

بالرغم من أنهم لا يمكنهم المطالبة بسوريا كلها، مراعاةً لجانبنا، إلاّ أنهم عازمون على أن يقيموا بين مصر وبلاد الرافدين نوعًا من جسر يشمل فلسطين والمناطق المسلمة أساسًا من سوريا الجنوبية.

ويخشى الفرنسيون والبريطانيون من أن تضطر روسيا، بسبب عزلتها الجغرافية، إلى الانسحاب من الحرب، الأمر الذي من شأنه أن يسمح للألمان بأن يشنوا الهجوم بإمكانات معزّزة في فرنسا كما في مصر. ويجري التخلي عن مشروع الإنزال في الإسكندرون، والذي يجازف بخلق توتر بين فرنسا وإنجلترا، فيتم تبني فكرة شن هجوم بحري على مضيق الدردنيل من شأنه فتح

الطريق إلى القسطنطينية. والسبب المطروح هو استحالة سحب قوات من الجبهة الفرنسية. وسعيًا إلى طمأنة باريس طمأنة أفضل فيما يتعلق بالمسألة السورية، يحصل الأسطول الفرنسي على مهمة فرض الحصار على السواحل السورية من يافا إلى الإسكندرون (حيث تمارس فرنسا القيادة البحرية العليا في البحر المتوسط).

وتبدأ العملية البحرية ضد الدردنيل في الأيام الأخيرة من شهر فبراير/ شباط ١٩١٥. والأنباء الأولى طيبة، بيد أن تعريف مسرح العمليات إنما ينطوي على خيار سياسي حاسم. وفي الأول من مارس/ آذار، تطلب روسيا من شريكتيها أن يتم منحها القسطنطينية ومنطقة المضائق، عند التسوية النهائية. وفي المقابل، فإنها مستعدة لأن تقابل بالتعاطف نفسه المخططات التي قد تصوغها حليفتاها في مناطق أخرى من الدولة العثمانية كما في غيرها[٢٠].

وفي ١٠ مارس/ آذار، تناقش وزارة الحرب البريطانية مستقبل الدولة العثمانية. والحال أن لويد جورج إنما يرى أن بريطانيا العظمى، بدلاً من أن تدخل في نزاع مع فرنسا، يجب أن تكتفي بأخذ فلسطين وأن تترك الإسكندرون لفرنسا. وهو لا يريد أن يترك الأماكن المقدسة لدى الجماعةِ المسيحية لفرنسا لا أدرية وملحدة. ويعترض كتشنر على ذلك. فهو يرى، مذكرًا بخبرته في البلد الذي كان قد استكشفه في شبابه لحساب صندوق الاستكشاف الفلسطيني، أن فلسطين ليست لها أي قيمة وأن الإسكندرون ضروري لتأمين وصول إنتاج بترول بلاد الرافدين (الممكن) إلى البحر المتوسط. والجميع يرون أن من الواجب قبول المطالبة الروسية بالقسطنطينية، وهي المطالبة التي أعطت إشارة البدء لهذا الاقتسام للأسلاب[٢١].

وفي ١٨ مارس/ آذار ١٩١٥، نجد أن الأسطول الفرنسي ـــ البريطاني في الدردنيل إنما يضطر، بعد خسائر فادحة، إلى التراجع. ويجري اتخاذ قرار باستئناف العملية، مع إنزالٍ بريٍّ هذه المرة. وعندئذ تبدأ تداعيات رهيبة. ففي ٢٥ أبريل/ نيسان ١٩١٥، يحدث الإنزال في غاليبولي. وبثمن جد فادح من الخسائر البشرية، لا ينجح المهاجمون إلاّ في الصمود على الحدود المباشرة للشواطئ. وتبدأ معركةُ خنادقٍ جديدةٌ.

وفي تلك الأثناء، يفكر الفرنسيون في مصير الدولة العثمانية. ويتألف ردهم على المذكرة الروسية بشأن القسطنطينية من المطالبة بسوريا[٢٢]. ثم إنه ما يزال يتعين تحديد حدودها. وفي ١٦ مارس/ آذار ١٩١٥، يستقبل القيصرُ نيكولاي الثاني سفير فرنسا لدى بتروجراد[٢٣]. وما تطالب به فرنسا هو سوريا كبرى: فهي تمتد امتدادًا واسعًا في الأناضول التاريخية وتشمل فلسطين، وذلك باسم الوحدة التاريخية والجغرافية للبلاد السورية. والقيصر مستعد لقبول المطالب الفرنسية، بما في ذلك فيما يتعلق بفلسطين ــ سوريا الجنوبية، لكن سازونوف، وزير الشئون الخارجية الروسية، يطرح على الفورِ مسألةَ الأماكن المقدسة ويذكرُ بالتعارض بين الكاثوليك والأرثوذكس كما يذكرُ بحرب القرم. وهو ما يرد عليه الفرنسي بالعلمانية الفرنسية، الملائمة وحدها لضمان معالجة مناسبة للمسائل الدينية، وبالحقوق التاريخية لفرنسا، وريثة مملكة أورشليم الفرنجية في زمن الحملات الصليبية.

وعلى الجانب البريطاني، يشكل رئيس الوزراء ايسكويث لجنة رفيعة المستوى، برئاسة السير موريس أوف بانسن، مهمتها دراسة مستقبل الشرق الأدنى (٨ أبريل/ نيسان ١٩١٥). وتسلمُ اللجنة استنتاجاتها في ٣٠ يونيو/ حزيران. وقد جرى تصور عدة حلول: تقسيم الدولة العثمانية إلى مناطق نفوذ، اقتسامها فيما بين الدول المتحالفة، الإبقاء على الوضع القائم أو فرض لا مركزية جد واسعة. وهذا الحل الأخير يبدو الحل المنشود أكثر من سواه. وفي كل خيار من الخيارات، نجد ثابتين واضحين: استعادة نظام أشكال النفوذ الذي أضرت به الحرب، والسيطرة على الموارد البترولية لبلاد الرافدين وعلى المدخل اللازم لهذا البترول إلى البحر المتوسط. وبالنسبة لحكومة حزب الأحرار التي يرأسها اسكويث، والحريصة على الحفاظ على الوضع العالمي لما قبل عام ١٩١٤ قدر الإمكان، فإن توسعًا ترابيًّا جديدًا للإمبراطورية البريطانية ليس واردًا في جدول الأعمال. ويجري تفضيل مقاربة غير مباشرة من شأنها أن تكفل السيطرة على محور بلاد الرافدين ــ البحر المتوسط هذا والذي يعتبر حيويًّا.

مراسلات حسين ـ ماكماهون[٢٤]

هذا البرنامج غير القصوي هو برنامج إنجليز الهند والجماعات المهتمة بالمسألة البترولية (القيادة البحرية البريطانية في المقام الأول). أما إنجليز مصر فقد كانوا يتمنون أيضًا ضم سوريا إلى مصر التي أصبحت محمية بريطانية في أواخر عام ١٩١٤. والحال أن السلطان حسين كامل، الذي حل محل الخديوي عباس حلمي الذي خلعه الإنجليز، قد فقد كل مصداقية سياسية. ومن الصعب أن يتسنى جعل من بدا صنيعة خاضعة للندن خليفةً جديدًا للإسلام. بيد أن مسألة الخلافة إنما تظل واردة في جدول الأعمال، في عام ١٩١٥ هذا.

ومنذ خريف عام ١٩١٤، حاولت أجهزة القاهرة الدخول في اتصال مع دعاة الحكم الذاتي العرب. وإذا كان قد أمكن الاتصال بالمنفيين السياسيين العديدين في مصر وفي أوروبا، فإن من الأصعب بكثير معرفة مايدور في داخل الدولة العثمانية، لاسيما أن الفرنسيين هم الذين يسيطرون على الدخول إلى سوريا العثمانية. ويترافق الحصار البحري الفرنسي مع إنشاء جهاز استخبارات كفء يتخذ من جزيرة أرواد السورية قاعدة له بينما يتمتع بقاعدة في المؤخرة في بورسعيد. وجهاز الاستخبارات التابع للبحرية في المشرق إنما يتمتع بشبه احتكار مفروض على المعلومات الواردة من سوريا. وفي القاهرة، توجد دراية غير دقيقة بوجود جمعيات سرية عربية منغرسة في الوسط العسكري العثماني وفي وسط الأعيان. والحال أن الرهان العربي، مع الدردنيل، إنما يصبح متزايد الأهمية باطراد.

فمن ناحية، تؤدي المقاومة الظافرة التي تبديها القوات العثمانية إلى تعزيز هيبة سلطان ـ خليفة القسطنطينية في مجمل العالم الإسلامي. ومن الناحية الأخرى، فإن العثمانيين، كيما يواجهوا التهديد الذي يستهدف عاصمة الدولة، قد سحبوا قواتهم من سوريا، والمدافعون عن غاليبولي هم في معظمهم من العرب، ويمكن تصور أن من شأن تمرد عربي توجيه ضربة حاسمة إلى الجيش العثماني.

ويتعين استئناف هذا المشروع. ومن ثم فسوف يدشن ماكماهون مفاوضات مع الشريف حسين الذي أصبح من شبه المؤكد الآن أنه على اتصال بالجمعيات

السرية العربية. ويعتمد المندوب السامي البريطاني بالطبع على المعلومات التي يقدمها له خبراؤه، ويعتمد بالأخص على مذكرة أعدها ت. إ. لورانس، ضابط الاستخبارات، الذي يتميز بمأثرة صياغة تركيب للمقاربة البريطانية للمسائل العربية.

وهذا النص، **سوريا، المعلومات الأولية**[٢٥]، إنما يقدم نفسه على أنه لوحة جغرافية لسوريا. وهو يشير إلى توزعها، الراجع إلى تباين التضاريس. ويحدد حدودها الدقيقة في الشمال، حيث يتوقف مجال النطق بالعربية لصالح النطق بالتركية. وتنقسم سوريا، من حيث ساكنيها، إلى منطقتين كبريين: المنطقة الأولى هي منطقة العرب، وأنقى ممثليهم هم البدو، ثم يتلوهم أشباه المستقرين ويتلوهم في النهاية السكان الحضريون في مدن الداخل الكبرى؛ أمّا المنطقة الثانية فهي منطقة سكان الساحل المشارقة. وهذا التقابل يرمز إليه تقابل المدن: فالقدس ليست غير فندق كبير لحجاج غرباء بالكامل عن أي مشروع قومي؛ وبيروت مدينة جديدة، ابنة غير شرعية لفرنسا، وهي "بوابة سوريا، مع منفذ مشرقي تنتشر عبره في سوريا أشكال النفوذ القادمة من الخارج مع حانوتيها القذر"؛ ودمشق هي العاصمة القديمة والحتمية لسوريا، وهي "القطب الجاذب الذي ينجذب إليه العرب بشكل طبيعي كما أنها مدينة لن تقدم خضوعها لجنس أجنبي إلاّ بصعوبة"؛ أمّا حماه وحمص "فهما أكثر تمسكًا بأصالتهما من أي مدينة سورية أخرى"؛ وأمّا حلب، بالرغم من نزعتها الكوزموبوليتية، فإنها تظل قومية بفضل "نفوذ أحياء كبرى عربية تمامًا، تمتد إلى حدودها، كما بفضل قرى لأشباه الرحل سرعان ما سوف تتسع". ولا يمكن إلاّ لسلطة ملكية سنية ناطقة بالعربية أن تفرض سلطتها على هذا الكيان المتنافر.

وعندما ننقل إلى الخارطة إشارات ت. إ. لورانس، فإننا نجد نوعًا من خط يفصل المشرقية عن العروبة التي تقع على بعد عدة عشرات من الكيلومترات من الساحل.

ومن ثم فإن ماكماهون، لكي يتفاوض مع الشريف، إنما يحوز ثلاثة عناصر رئيسية: الرغبة البريطانية في السيطرة على بلاد الرافدين مع مدخل تال إلى البحر المتوسط، ضرورة مراعاة المطالب الفرنسية فيما يتعلق بسوريا،

مع السعي إلى تغطية قناة السويس بمنطقة فلسطينية حاجزة سيجري استبعاد الفرنسيين منها، وأخيرًا، تعريف ذرائعي للعروبة يضعها في مواجهة المشرقية.

وقد حاول البريطانيون في عدة مناسبات تقديم عروض إلى الشريف. وهم لن يتلقوا ردًا إلاَّ في شهر أغسطس/ آب١٩١٥، تاريخه ١٤ يوليو/ تموز١٩١٥[٢٦]. وفي هذه الرسالة، يطرح حسين نفسه بوصفه متحدثًا بلسان الأمة العربية ويطالب بمجمل آسيا العربية مع جنوبي الأناضول. وسوف تأخذ الدول العربية شكل خلافة عربية. وستحصل بريطانيا العظمى، في عرض متكافئ، على حق الأولوية بالنسبة لجميع المشاريع الاقتصادية، بيد أن الامتيازات سوف تظل ملغاة. وهذه الرسالة تستثير قدرًا من الإحباط في القاهرة: إذ يبدو أن الشريف يبدي نزعة قصوية كانت بالفعل نزعة بعض من اتصل بهم البريطانيون من العرب كرشيد رضا (الأمر الذي يجعل البريطانيين يشتبهون بوجود اتصالات سرية). والحال أن البريطانيين على دراية جيدة جدًّا بالتنافسات بين الزعماء العرب في داخل شبه الجزيرة العربية بحيث يصعب عليهم تصديق أن أمير مكة مفوض من جانبهم. وهم يقررون الرد عليه متجاهلين المسألة الترابية، فهي موضوع سابق لأوانه، مع قبولهم مبدأ الخلافة العربية (رسالة ماكماهون الأولى إلى حسين بتاريخ ٣٠ أغسطس/ آب ١٩١٥).

وفي شهر سبتمبر/ أيلول، يؤدي فرار ضابط عربي من الدردنيل، هو الفاروقي، إلى تأكيد المعلومات السابقة. وهو يطرح نفسه بوصفه المتحدث بلسان منظمة سرية من الضباط العرب في الجيش العثماني (العهد) ويطرح عين المطالب العربية التي يطرحها الشريف. والحال أن هذا الواقع إنما يعطي هذا الأخير أهمية كبرى. وفي ٢٢ سبتمبر/ أيلول، يؤدي دخول بلغاريا الحرب إلى جانب ألمانيا والدولة العثمانية إلى تعزيز موقع إمبراطوريتي وسط أوروبا اللتين تتمتعان الآن بتواصل ترابي. وسعيًا إلى صون الاتصال بالقوات الصربية، يضطر الفرنسيون والبريطانيون إلى النزول إلى سالونيك (في اليونان المحايدة من الناحية النظرية)، الأمر الذي يضطرهم إلى إخلاء جبهة الدردنيل.

وقد أدى الفشل في غاليبولي إلى إضعاف الموقع البريطاني. ومنذ شهر مايو/ أيار ١٩١٥، تشكو القيادة الإنجليزية في مصر من نقص الجنود: إن

مصير مصر إنما يتقرر في الدردنيل[٢٧]. ويؤدي تفاقم الموقف العسكري إلى تعزيز موقع حسين. ويخشى البريطانيون من أن يتحول العرب المستاءون إلى الانحياز إلى صف ألمانيا والعثمانيين. وفي صحراء مصر الغربية، تنخرط الطريقة الصوفية السنوسية الليبية الكبرى في الجهاد ضد الحلفاء، بما يفتح جبهة ثانية ويعيد إطلاق التكهنات حول تمرد واسع للمسلمين في الإمبراطوريات الاستعمارية.

والحال أن الشريف، في رسالته الثانية، المؤرَّخة في ٩ سبتمبر/ أيلول، إنما يعتبر الخلافة أمرًا مفروغًا منه ويلح على تسوية المسألة الترابية. ويرد عليه ماكماهون، بعد التشاور مع لندن، برسالته المصيرية المؤرخة في ٢٤ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٥. وكان قد تعين عليه أن يراعي في آن واحد متطلبات اللحظة (تبدو مصر في هذه اللحظة عرضة لتهديد جسيم من جانب هجوم عثماني جديد) ومطالب إنجليز الهند والفرنسيين. وكان الفريق المساعد له قد زوده بوسيلة للخروج من هذا المأزق باللعب على التعارض بين العروبة والمشرقية، الداخل في مواجهة الساحل:

> إن ولايتي مرسين والإسكندرون وتلك الأجزاء من سوريا الممتدة إلى غرب ولايات دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن اعتبارها عربية بصورة خالصة، ويتوجب استبعادها من الحدود المطلوبة.
>
> ومع هذا التعديل، ودون الإساءة إلى معاهداتنا مع الزعماء العرب، فإننا نقبل هذه الحدود.
>
> وفيما يتعلق بالمناطق الواقعة في داخل هذه الحدود، حيثما يكون بوسع بريطانيا العظمى التصرف بحرية دون الإساءة إلى حليفتها فرنسا، فإن بوسعي، باسم حكومة بريطانيا العظمى، أن أقدم لكم التأكيدات التالية وأن أقدم لكم الرد التالي على رسالتكم:
>
> ١. في إطار التعديلات المشار إليها آنفًا، فإن بريطانيا العظمى مستعدة لأن تعترف باستقلال العرب ولأن تدعمه في جميع المناطق الواقعة في داخل الحدود التي يطالب بها شريف مكة.
>
> ٢. ستضمن بريطانيا العظمى الأماكن المقدسة ضد أي عدوان خارجي وسوف تعترف بحرمتها.

٣. عندما تكون بريطانيا العظمى على صلة بالظرف، فإنها سوف تقدم للعرب نصائحها وسوف تساعدهم في إنشاء ما قد يبدو أنه الأشكال الأنسب للحكم في هذه الأراضي المتباينة.

٤. من المفهوم من جهة أخرى أن العرب قد عقدوا العزم على طلب مشورة وتوجيه بريطانيا العظمى وحدها، وأن المستشارين الأوروبيين والموظفين الذين قد يكونون ضروريين لتكوين شكل جيد للإدارة سوف يكونون بريطانيين.

٥. فيما يتعلق بولايتي بغداد والبصرة، سوف يعترف العرب بأن موقع بريطانيا العظمى القائم ومصالحها تتطلب ترتيبات إدارية خاصة لأجل حماية هذه الأراضي من أي عدوان أجنبي ولأجل حفز تطور رفاهية السكان وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة.

والحال أن هذا النص الشهير سوف يتسبب في عدة التباسات: وأشهر هذه الالتباسات هو مصطلح "district"، **ولاية** بالعربية **(فلايت بالتركية)**. فهو لا يتطابق في شيء مع الخارطة الإدارية العثمانية: وصحيح أن هناك ولاية لدمشق وولاية لحلب، إلاّ أنه لا وجود هناك لولاية لحمص ولحماه. ومن ثم فلا يمكن فهم هذا النص إلاّ بمعنى مجازي سعيًا إلى تحديد الخط الفاصل بين العروبة والمشرقية. ومن هنا الالتباس الثاني اللاحق: إن مصالح فرنسا لا تصان في الواقع إلاّ في داخل الأراضي العربية بصورة خالصة؛ فليس المقصود، كما سوف يجري التأكيد على ذلك فيما بعد، هو المناطق الساحلية لأن هذه الأخيرة ليست "عربية بصورة خالصة"، ومن ثم فهي مستبعدة تلقائيًا من العرض المُقدَّم إلى الشريف. وفي تفكير ماكماهون ومستشاريه، فإن فلسطين، المعرَّفة على أنها المجال الواقع بين البحر المتوسط ونهر الأردن، ليست "عربية بصورة خالصة". وهي، في هذا، شبيهة بالساحل اللبناني وجبله المجاور.

وهذا التمييز له قوة وضوح ضخمة في نظر خبراء القاهرة بحيث إنهم لا يستشعرون الحاجة إلى أن يذكروا بوضوح وبشكل مميَّز مصطلح "فلسطين". وما يجري اقتراحه على حسين هو "بلاد عرب"، بمعنى شبه الجزيرة العربية، بعد توسيعها لتشمل المناطق الداخلية من الهلال الخصيب، وإن كانت لا تملك أي منفذ إلى البحر المتوسط[٢٠].

ومن الواضح أن هذا التصور البريطاني للعروبة غير مفهوم بالنسبة للشريف. وفي رده المؤرخ في ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٥، يحاول تقديم تفسير صائب لرسالة ماكماهون:

> إن ولايتي حلب وبيروت ومطلاقهما الساحلية هما ولايتان عربيتان بصورة خالصة وما من فارق هناك بين مسلم عربي ومسيحي عربي: فهما ينحدران كلاهما من جَدٍّ واحد.

من جهة، يعتمد حسين على الحقائق الإدارية العثمانية، و، من جهة أخرى، يذكِّرُ بعين أساس الهوية العربية بحسب التصور الأقدم: فالعربي هو من يتحدر من سلالة عربية. ومن ثم فإنه يقبل استبعاد المناطق الناطقة بالتركية ولا يمكنه التسليم بالخلط المستديم الذي يجريه الغربيون بين "المسلم" و"العربي". فالحال أن العرب المسيحيين، في الدراسات الخاصة بالنماذج البشرية والتي قام بها الخبراء في مستهل القرن العشرين، كانوا يُعَرَّفون بالأحرى على أنها "مشارقة" أو "سوريون". ومن ثم يشدِّدُ الشريف على مساواة في الوضعية بين المسلمين وغير المسلمين مستحضرًا القول المأثور المنسوب إلى الخليفة عمر: **لهم ما لنا وعليهم ماعلينا**، والذي يعني المساواة في الحقوق والواجبات. وفيما يتعلق بالعراق، يؤكد حسين عروبته وإن كان يبدو مستعدًا لقبول إدارة بريطانية مؤقتة.

والحاصل أن ماكماهون، في رده المؤرخ في ١٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٥، وهو آخر رد يتحدث عن المسائل الترابية، إنما يسجل الاتفاق فيما يتعلق بالمناطق ذات السكان الأتراك ويشير إلى الارتياح الذي تسببه له الإشارة إلى القول المأثور للخليفة عمر. وإذ يدخل هذه المرة التباسًا، فإنه يستعيد كلمات الشريف:

> فيما يتعلق بولايتي حلب وبيروت، استوعبت حكومة بريطانيا العظمى تمامًا وسجلت باهتمام ملاحظاتكم، إلاّ أنه بما أن مصالح حليفتنا، فرنسا، معنية في هاتين [الولايتين(٢٩)]، فإن المسألة إنما تستحق دراسة متأنية وسوف نطلعكم على هذا الأمر في الوقت المناسب.

وهذه المرة، لا نجد إشارة إلى ما هو "عربي بصورة خالصة" و"ما ليس عربيًا بصورة خالصة" ولا يرد ذكر لخط دمشق ــ حمص ــ حماه ــ حلب. ولا تجري الإشارة إلى منطقة نفوذ فيها مصالح لفرنسا إلاّ فيما يتعلق بولايتي حلب وبيروت: ولا يخص البند الحصري فلسطين بوصفها سنجق القدس.

ومن ثم فإن التشوش كامل فيما يتعلق بمصير فلسطين لأن البريطانيين في عام ١٩١٥ مقتنعون، بحسن نية، بأنهم لم يعدوا الشريف بها(٣٠)، في حين أن هذا الأخير، بحسن نية مساوٍ، يفهم أنه قد جرى منحها له. ويمكن القول بالرطانة الحديثة أننا هنا بإزاء عجز في الاتصال فيما بين الثقافات.

الفرنسيون والإنجليز

تعرف فرنسا، دون أن يخبرها البريطانيون رسميًا بذلك، بوجود مفاوضات بين حسين وماكماهون. ويجري بحث المسألة في الأوساط الحاكمة في القاهرة، وتنزعج باريس من دعاوي الانفراد الموجودة لدى إنجليز مصر. فيقوم بول كامبون، سفير فرنسا لدى لندن، بتقديم اعتراضات إلى الحكومة البريطانية. وتلقى هذه الاعتراضات تفهمًا من جانب وزارة الخارجية البريطانية التي تجد أن ماكماهون إنما يتسامح في الواقع مع عدم انضباط مرءوسيه(٣١). ويتابع الفرنسيون باهتمام انتقال المبعوثين بين مصر والحجاز، وذلك دون صعوبة لاسيما أن حاملي الرسائل يستقلون السفن الفرنسية التي تشارك في حصار البحر الأحمر(٣٢).

ويتصل الانزعاج الفرنسي الأول بمسألة الخلافة. وكان التفكير قد تطور منذ بداية العام. وفي مذكرة مهمة، كان ليوتي قد اعترض على منح الولاية الأولى في الإسلام لشريف مكة(٣٣): فهذا من شأنه أن يكون "أسوأ الحلول". وينبع عدم النجاح النسبي لإعلان الجهاد من جانب سلطان ــ خليفة القسطنطينية من أن جماعة تركيا الفتاة لا مصداقية لها: فنزعتها الحداثية الشرسة إنما تجعل من اللجوء إلى السلاح الديني أمرًا ضعيف النزاهة في أعين مسلمي العالم بأسره. ولن يكون الأمر كذلك مع الشريف: فهذا الأخير سيكون بوسعه أن يجعل من خلافته قوة روحية حقيقية، مشابهة لقوة البابا الروحية بعد إلغاء

الولايات البابوية. ومن شأن هذه القوة التي سيستخدمها البريطانيون بما يتماشى مع مصالحهم أن تشكل خطرًا بالنسبة للإمبراطورية الإفريقية التي تحكمها فرنسا. ومن ثم فهو يدفع إلى إعلان خليفته الغربي [المغربي]، أو، في الحد الأدنى، إلى الإبقاء على الوضع القائم. وفي منطق استعماري صحيح، نجد أن حكومة الجزائر العامة ومقر المعتمد الفرنسي في تونس يعارضان مشروع الخلافة الذي يطرحه ليوتي، والذي من شأنه أن يجعلهما تابعين للمغرب الأقصى. وهما يطوران حججًا تاريخية لكي يثبتا أن سلطان المغرب الأقصى لم يتم الاعتراف قط بسلطته الخليفية خارج مملكته(٣٤). ويميل الاستنتاج الذي توصلت إليه التحكيمات إلى صون الوضع القائم مع تحبيذ اقتسام العالم الإسلامي(٣٥).

وفي ٢١ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٥، يقوم سكرتير الدولة لوزارة الخارجية، السير إدوارد جراي، بإطلاع بول كامبون على الخطوط العريضة للمفاوضات [بين حسين وماكماهون]. وتعبر فرنسا عن شكوك فيما يتعلق بأهمية نشوب تمرد عربي بيد أنها تبدو مفتونة ببدء المناقشات لتحديد مستقبل سوريا بشكل مشترك(٣٦). وفي الوقت نفسه، يقدم ماكماهون لدوفرانس الخطوط العريضة لمراسلاته مع الشريف(٣٧). وفي جميع هذه الاتصالات، يشدد البريطانيون على مخاطر الوضع الحاضر: فهناك خطر في أن ينحاز العرب إلى صف ألمانيا وقد تنضم إليهم فارس وأفغانستان. وإذا ما أعلن الشريف الجهاد ضد الحلفاء، فإن الوضع سوف يصبح حرجًا في مصر وفي أفريقيا الشمالية الفرنسية. والثمن الذي يجب دفعه لتفادي هذا الخطر هو قبول مبدأ بلاد عرب مستقلة ستكون حدودها سيناء (مع استبعاد سيناء نفسها) والبحر الأحمر. وفي جميع الأحوال، فإن الفوضى القَبَلية سوف تكون جد قوية بحيث يصعب أن تسمح بقيام دولة قوية.

وفي مستهل نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٥، تختار الحكومة الفرنسية چورچ بيكو، قنصل فرنسا العام السابق في بيروت، للتفاوض مع البريطانيين حول مستقبل سوريا. والتعليمات الصادرة إليه واضحة(٣٨): إن عليه عمل كل ما بوسعه لتجنب طرح مسألة الخلافة والاقتصار على تناول المسألة السورية.

وليس المقصود هو صياغة برنامج مطالب وإنما فقط تحديد الحدود المشتركة بين "ممتلكاتنا القادمة" و"السيادة العربية الجديدة"، تحديد ما يسمى في لغة ذلك العصر بـــ"سوريا" و"بلاد العرب"، وإحداهما تتمايز بوضوح عن الأخرى. وبالنسبة للحكومة الفرنسية، فإن المقصود هو سوريا كاملة لا تتجزأ، تشمل سوريا الجنوبية، أي فلسطين، وكذلك ولاية الموصل الواقعة في بلاد الرافدين، على أن تؤول بقية بلاد الرافدين إلى بريطانيا العظمى.

ومشكلة الخلافة تُسَوَّى بالفعل. ففي مذكرة مؤرخة في ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٥، يوضح سفير جلالة الملك [جورج الخامس] لدى باريس أن من المهم عدم ذكر هذه المسألة. وبموجب اتفاق مشترك، ترى الحكومتان أن من الخطر جدًّا على الدولتين اتخاذ مبادرات في هذا المجال[٣٩].

والحال أن اللورد كتشنر، منذ توليه مهامه الوزارية في لندن في أغسطس/ آب ١٩١٤، كان حريصًا على مواصلة اهتمامه بشئون الشرق الأدنى. وفي مارس/ آذار ١٩١٥، أدخل في فريقه برلمانيًا شابًّا، متخصصًا في شئون الدولة العثمانية، هو السير مارك سايكس. وكانت مهمته الأولى أن يمثل كتشنر في لجنة بانسن. وبسرعة فائقة، يظهر بوصفه واحدًا من أنشط الشخصيات وأوسعها نفوذًا في مجال المسائل الشرقية. وهذا "الهاوي" اللامع يتمتع بموهبة طرح الصيغ والمشاريع الجسورة، كما يتمتع بمقدرة عظيمة على تحقيق الفوز لآرائه. وخلال صيف وخريف عام ١٩١٥، يجري إيفاده إلى شرق البحر المتوسط وإلى شبه الجزيرة العربية بتكليف من وزارة الحربية سعيًا إلى الإطلاع على المشكلات وجمع آراء الموجودين في الساحة. وهكذا يكتسب خبرة فريدة، لكونه الوحيد الذي التقى بمجمل آخذي القرار البريطانيين.

وهو يبدو منذ البداية مؤيّدًا لشن انتفاضة عربية من شأنها أن تفضي إلى تكوين خلافة. وخلال مروره بالقاهرة، تبنى آراء إنجليز مصر حول ضرورة أن يكفل البريطانيون لأنفسهم السيطرة على سوريا. إلاّ أنه قد أدرك أيضًا ضرورة التوصل إلى اتفاق مع الفرنسيين. ومنذ يوليو/ تموز ١٩١٥، ينفتح فيما يتعلق بهذا الأمر على ممثل البعثة العسكرية الفرنسية في مصر دوانيل دو سان ــ كينتان[٤٠]: فهناك مجال للدولتين في سوريا، ويمكن تصور تقسيم لمناطق

نفوذ. ويتعين على إنجلترا تأمين طرق مواصلاتها مع إمبراطورية الهند عن طريق السيطرة على الطريق البري بين بلاد الرافدين والبحر المتوسط: فمن غير الممكن مد طريق السكك الحديدية من بغداد إلى العقبة وذلك بسبب الطبيعة الصحراوية للمناطق التي سيمر بها هذا الطريق؛ ولابد من منفذ عند مسافة أبعد شمالاً؛ ولايمكن لهذا المنفذ أن يكون يافا، وذلك بسبب الطبيعة الرديئة لمرفأها؛ أمّا حيفا، التي لا تضاهي الإسكندرون، فمن الممكن أن تكون أسوأ حل يمكن قبوله. وفي جنوب حيفا، سيتم تدويل فلسطين سعيًا إلى كفالة أمن مصر الاستراتيجي. وسوف تتمتع فرنسا بمجال واسع في سوريا الشمالية وفي الأناضول. أمّا بقية المنطقة فسوف تترك للدولة العثمانية (اقتراح لجنة بانسن) بيد أنها سوف يتم تقسيمها في واقع الأمر إلى منطقتين، فرنسية وإنجليزية، توضع كل واحدة منها تحت رئاسة أمير عثماني "سوف يتعين عليه اتباع آراء "المستشارين" الذين سنضعهم على رأس مختلف الإدارات. وسوف يتعين على إدارتنا العسكرية أن تقتصر قدر الإمكان على قيادة ميليشيات محلية".

وهذه الوثيقة غير العادية إنما توضح أن سايكس، حتى قبل أن تبدأ مراسلات حسين ــ ماكماهون، كان قد بلور بالفعل مجمل سمات الاتفاق الذي سوف يحمل اسمه.

ولدى عودة سايكس إلى لندن، بعد رحلة دامت ستة شهور، فإنه يظهر أمام وزارة الحرب البريطانية، حيث يخلف انطباعًا قويًا. فهو يصل في لحظة كانت فيها المحادثات بين پيكو والإنجليز قد استثارت في لندن قدرًا من الإحباط. والحال أن اللورد كتشنر، بعد أن فحص الوضع في الدردنيل، كان قد شدَّدَ على ضرورة إنزال في الإسكندرون[٤١]: وإلاّ، فإنه لا يرى كيف سيتمكن الحلفاء من وقف زحف الجيش التركي على مصر، والذي من شأنه أن يفجر انتفاضة كل الشرق المسلم والشمال الأفريقي[٤٢]. وتعترض الحكومتان الفرنسية والإنجليزية على هذا الاقتراح بسبب قلة الإمكانات[٤٣]. ولكونهما أكثر اهتمامًا بالمسائل البلقانية، فإنهما ترميان غالبية القوات المتوفرة في أتون حملة سالونيك. ويترتب شيء من العزاء على الانسحاب الناجح من الدردنيل، دون خسائر من الناحية العملية، في أواخر ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٥ وأوائل يناير/ كانون الثاني

١٩١٦. وعندئذ يطلب كتشنر إرسال أربع عشرة فرقة للدفاع عن مصر[٤٤]. ويجري الاكتفاء بإرسال قوات أقل، تتألف في معظمها من جنود أرهقتهم مكابدات الدردنيل.

وفي هذا السياق، فإن أول لقاء بين پيكو ومحاوريه في لندن إنما يكشف عن كون البريطانيين في مركز ضعف[٤٥]. ويتحسس الممثل الفرنسي "انطباعًا حقيقيًا بالذعر"[٤٦]. وهو يذكِّرُ بأهمية المصالح الفرنسية في الدولة العثمانية: وسوف تكون فرنسا هي الخاسرة في حالة التقسيم. ومن المناسب أن تحصل على تعويض، "وإلاّ فإن النتيجة الوحيدة لهذه الحرب سوف تتمثل بالنسبة لها في اختزال ملحوظ للنفوذ، وهو أمر سيرفض الرأي العام الفرنسي قبوله. وفي سوريا، فإن سوريا الكبرى تبدو بوصفها التعويض الممكن الوحيد".

وعندما يجري الاعتراض على پيكو بالحديث عن مخاطر نشوب انتفاضة مسلمة، فإن الفرنسي إنما يشدد على تفوق سياسة فرنسا حيال المسلمين، والتي تكفل لها ولاء أهالي الشمال الأفريقي، وهو ما لا ينطبق على حالة البريطانيين في مصر. والتضحية المطلوبة من فرنسا هي أن تقبل سيادة إسمية للشريف على سوريا في مقابل الاعتراف بمجال للنفوذ، مع مزايا اقتصادية مقصورة عليها ومستشارين لدى القادة المحليين و"جميع مزايا الحكم الفعلية". ويحصل پيكو فورًا على فصل لبنان عن هذا الكيان السوري الكبير. ويحدث الشيء نفسه فيما يتعلق بفلسطين. وحدود الأرض الممنوحة للشريف هي أيضًا صيغة دمشق، حمص، حماه، حلب الشهيرة. وپيكو يعترض على ذلك:

> إن تقديم الوعد للعرب بأن يشكلوا بذلك دولة كبرى، إنما يعني ذر الرماد في العيون. فمثل هذه الدولة لن تتكون أبدًا. ولن تتمكنوا من أن تجعلوا من حشد متناثر من القبائل كُلاً واحدًا قادرًا على الحياة، وإذ تضمون إلى بلاد العرب مناطق نائية وغير مرتبطة بها، كبغداد والبصرة، مأهولة بالشيعة، فإنكم لن تفعلوا سوى زيادة المصاعب. وكيف يمكنكم أن تتخيلوا أن سكان هذه المناطق الغنية سوف يوافقون في أي يوم من الأيام على إرسال أموالهم إلى أمير بعيد وعلى الخضوع لسلطته؟

وتدعم الحكومة الفرنسية موقف پيكو[٤٧]. وتُراعَى بالفعل صعوبة إدارة

سوريا الفرنسية القادمة، والتي من شأنها أن تنطوي على تكاليف إدارية وعسكرية باهظة. وسيكون الحل الأمثل هو الامتلاك كليٌّ السيادة لمركز المناطق السورية (ولاية بيروت وجزء من سنجق القدس مع نظام خاص لكبرى الأماكن المقدسة في فلسطين)، بينما سيجري ترك المحيطات لحمايات مفروضة على زعماء محليين مرتبطين هم أنفسهم بالشريف عبر آصرة فيديرالية. وبشكل مميز، فيما يتعلق بسوريا، يفكر البريطانيون في دمشق بينما يهتم الفرنسيون ببيروت:

بما أننا نحن أنفسنا سنكون [...] ميالين إلى عدم إدارة المناطق السورية إلاّ عبر حماية، فإن المراعاة التي يجب أن نوفرها لحلفائنا البريطانيين إنما تجعل من الصعب علينا أن نستبعد فورًا مطلبهم الخاص بتوفيق هذه الحماية المسلَّم بها مع تضامن عربي تحت النفوذ الأعلى لشريف مكة. وبالرغم من أنه يبدو من الصعب التوفيق بين سيادة باريسية وسيادة مكية مزدوجة، وبالرغم من أن مشروع إقامة إمبراطورية عربية جديدة يبدو لنا مشروعًا طوباويًّا، إلاّ أن علينا أن نتجنب إزعاج القادة البريطانيين بتشدد مبدئي.

والحال أن قبول المطلب البريطاني الخاص بالإمبراطورية العربية سوف يجري تعويضه بمد الحماية الفرنسية إلى ولاية الموصل سعيًا إلى تأمين الحصول على الموارد البترولية لحوض كركوك.

سايكس وبيكو

سايكس مساعد للفريق الإنجليزي الذي يستأنف المناقشات في ٢١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٥[٤٨]. ويعلن بيكو أن فرنسا تقبل ترك مدن دمشق وحمص وحماه وحلب الأربعة ضمن "بلاد العرب" تحت النفوذ الفرنسي. وهذا يعيد الارتياح إلى البريطانيين الذين روعتهم نبرة كلامه الحاسمة خلال الجلسة السابقة[٤٩]. ويبدو سايكس بوصفه محرِّك مناقشات اللجنة البريطانية، ويقترح ترك ساحل طرطوس في الإسكندرون لفرنسا. وحيال احتجاجات بيكو، الذي يذكِّرُ بأن الإنجليز كانوا قد قبلوا ترك لبنان خارج المنطقة العربية، يقترح سايكس أخذ رأي اللبنانيين عن طريق الاستفتاء. ويرفض بيكو ذلك بشكل قاطع:

فذلك يهدد بإثارة فتن طائفية.

وفي هذه اللحظة بالتحديد يحدث صدع في التفكير البريطاني، أو بالأحرى خلاف في تقدير العروبة بين إنجليز مصر وفريق لندن:

> آكد السير مارك سايكس أن المنطقة الواقعة في جنوب طرطوس، فيما عدا الساحل اللبناني، كانت مأهولة بالعرب وحدهم، وأن بلاد العرب بحاجة إلى موانئ وإلاّ فإنها سوف تكون تحت تبعية وثيقة للفرنسيين، وأن بيروت خاصة، وهي المركز الثقافي للبلد، حيث درست النخبة العربية كلها للتوّ في المدارس الفرنسية، تعد ضرورية لها بصورة مطلقة. وقد أضاف أن جميع العرب الذين يفكرون إنما يعترفون بأنه سوف يتعين عليهم تجنيد قادتهم من صفوف طلاب مدارسكم، إلاّ أنه، كيما يتسنى لهم عمل ذلك، يتعين أن يكون هؤلاء موجودين في أرض عربية بالاسم على الأقل.

والحال أن البريطانيين، إنما يعيدون دمج فلسطين من طرف خفيٍّ في مجال العروبة، وذلك دون أن يلحظوا ذلك، عند اعتراضهم على المواقف الفرنسية سعيًا منهم إلى توفير منفذ إلى البحر للدولة العربية القادمة. بيد أن مسألة الموصل ومسألة فلسطين قد تُركتا، ذلك اليوم، لمناقشات لاحقة.

وفي توازٍ مع المناقشة الجارية، يبلغ البريطانيون الفرنسيين بمضمون مراسلات حسين ــ ماكماهون[٥٠]. وبوجه عامٍ، لا يستاء الفرنسيون: إذ يبدو أن حقوقهم قد تم الحفاظ عليها. غير أنهم يجدون أنهم قد قدموا تنازلات مهمة قياسًا إلى تصريح ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٢، وأن سيادة أمير مكة على سوريا قد تكون مزعجة، وأن البريطانيين قد تكون عندهم حسابات مثيرة للقلق: فالأراضي الممنوحة لفرنسا تتطابق في معظمها مع منطقة النفوذ التي كان قد تم الاعتراف بها لألمانيا قبل الحرب؛ وفي حالة صلح ملائم لألمانيا، فسوف تضطر فرنسا إلى رد هذه المناطق، بينما سيجري الاعتراف لإنجلترا بحقوق جديدة. فتجري المطالبة بإخضاع الاعتراف بالحصة البريطانية للتحقيق الكامل لحصول فرنسا على حصتها[٥١]. وتبدو الشواغل البريطانية مدفوعةً أكثر بالرغبة في جعل المنطقة الفرنسية ساحة عازلة بين المجالين الإنجليزي والروسي. واستنادًا إلى اتفاق مشترك، يجري تكليف سايكس وپيكو بمواصلة المفاوضات.

وينكبان فورًا على تناول المسألتين الباقيتين تحت التحفظ، فلسطين ومنطقة الموصل[٥٢]. وتقبل فرنسا مبدأ أن تُمنح لـ"بلاد العرب" المدنُ السورية الكبرى وأن يُمنح لبريطانيا العظمى مدخلٌ على البحر عبر ميناء حيفا، لكن فرنسا ترفض أن تكون فلسطين إنجليزية. وقد أوضح سايكس بجلاء أن الإنجليز لا يريدون الفرنسيين جيرانًا لمصر واقترح تدويل فلسطين فيما عدا ميناء حيفا. ويقترح بيكو إنشاء نظام فرنسي ـ إنجليزي مختلط لهذا الميناء وتقسيم الأرض المقدسة إلى ثلاث حصص:

الأولى فرنسية وتتكون من منطقة حيفا والناصرة وبحيرة أريحا والسامرة ويافا حيث خط السكك الحديدية فرنسي؛ وحصة ثانية تتكون من القدس وبيت لحم والبحر الميت، وهي حصة دولية لتلبية الرغبات الروسية والأميركية والإسبانية والإيطالية؛ وأخيرًا، كل الجنوب بدءً من غزة إلى الحدود المصرية، تحت السيادة الإنجليزية.

وسيجري اقتسام ولاية الموصل والموارد البترولية. وبوجه عام، يسعد الفرنسيون بالتنازلات البريطانية ولا يريدون أن يبدوا مفرطي التشدد كي لا يغامروا بخسارة المزايا الملحوظة التي فازوا بها.

وفي الجلسات التالية[٥٣]، يشدد سايكس على ضرورة منفذ حر لبلاد العرب إلى البحر. ويرفض بيكو قبول تقسيم المنطقة المباشرة الفرنسية إلى جزءين. ويتم التوصل إلى تراضٍ: إن العرب سوف يناقشون بشكل مباشر مع الفرنسيين مسألة المنفذ. ويجري إدراج حوران مع المنفذ إلى بحيرة طبرية في منطقة الاهتمام الاقتصادي والسياسي المخصصة لفرنسا. وبعد أن اقترح بيكو دون جدوى جعل غزة الميناء الذي يطالب به الإنجليز، فإنه يقبل تدويل فلسطين، التي يجري تقديم تعريف ترابي جديد لها:

لقد بدا لي، في هذه الظروف، أن إطالة الجدل إلى أجل غير مسمى قد أصبحت عديمة الجدوى ولا تمدد إلاّ تسميم هذا الجدل دون نتيجة مرجَّحة. ومن ثم فقد كان من المناسب قبول تضحيات لا مفر منها، مع اختزال خطورة المشروع الإنجليزي إلى أدنى حد. ولهذا الهدف، وقبل كل شيء آخر، فقد كان من المرغوب فيه أن نتجنب الاستعاضة بحد آخر بين الإنجليز وبيننا عن حدود الصحراء التي تخلق عازلاً بين البلدين، أفضل من أي ممر

أو حتى من أي خط من المرتفعات. ومن ثم فقد طرحت ضرورة أن لا تتجاوز إنجلترا أيضًا حدود الصحراء، في حالة موافقتنا على أن نترك لها حيفا. وإذ نفعل ذلك بعد اتفاق عام ١٩١٤ مع تركيا، فإننا إنما نتنازل فيما يتعلق بنقطة نتمتع فيها بحقوق أكيدة، ومثل هذا التجرد من جانبنا سيكون من الصعب حتمًا قبوله من جانب الرأي العام عندنا. ولم يكن بوسعنا السير إلى ما هو أبعد من ذلك.

ومن ثم فقد قبلتُ أن أعرض الحل التالي على الحكومة الفرنسية: إن حيفا وخليجها مع عكا سوف تُسَلَّمُ إلى الإنجليز، وفلسطين، بدءً من الساحل إلى مسافة ١٥ ميلاً عند شمال حيفا إلى بحيرة طبرية وإلى نهر الأردن وإلى البحر الميت وإلى غزة، سوف يجري تحييدها تحت سيطرة إدارة دولية تشمل ممثلين لفرنسا وإنجلترا وروسيا وإيطاليا وممثلين للمسلمين. وسيكون لإنجلترا في هذا الجيب حق المرور عبر خط للسكك الحديدية ستقوم ببنائه بنفسها وسيكون بوسعها نقل قواتها عن طريقه عندما ترى ذلك مناسبًا لها.

والحال أن السير سايكس، بعد أن تشاور مع مختلف الإدارات المعنية، قد أعلن ارتياحه إلى هذا الحل.

وبعد محادثاتهما، يحيل المتفاوضان الأمر كل إلى حكومته، فتقومان بملاحظات وتطلبان بعض التغييرات. وهذا يأخذ عدة أسابيع. ولا يتصل الأمر بتغيير الإطار الذي تم تحديده بقدر ما يتصل بتحديد المصالح الاقتصادية للطرفين (الجمارك، السكك الحديدية...) في المناطق المحدَّدَة. ويطلب كتشنر بوجه خاص زحزحة الحدود الفلسطينية باتجاه الشمال سعيًا إلى دمج مناطق حوران الزراعية في منطقة الحماية الإنجليزية. وكما يلاحظ ذلك بيكو فإنه يؤكد بشكل متعاقب على أنها مناطق غنية ضرورية للإنجليز وشبه صحراوية غير مهمة بالنسبة للفرنسيين[٥٤]. ويتم التراضي فيما يتعلق بإمكانية مرور خط السكك الحديدية البريطاني عبر الأرض الفرنسية، إذا ما بدا ذلك ضروريًا. ويجري تحديد نقطتين جوهريتين: ضرورة الحصول على موافقة الحكومة الروسية والطابع المشروط لتطبيق الاتفاق التالي، المرتبط بالمساعدة الفعالة من جانب العرب.

وهذه الإضافة الأخيرة إنما يفسرها اعتراض إنجليز الهند على مضمون

مفاوضات حسين ماكماهون: فلعجزهم عن تهديد القرارات المتَّخَذَة، توصلوا إلى أن التعهدات البريطانية لن يتم تنفيذها إلاّ إذا قدم العرب مساهمة فعالة في المجهود الحربي. ومن المفهوم أن الشريف لم يجر اطلاعه على هذا البند الشرطي.

وفي فبراير/ شباط ١٩١٦، يتحسن الوضع العسكري. ففي اليوم السادس عشر، يستولي الروس على أرضروم، مجبرين العثمانيين على إرسال قواتهم التي أحرزت النصر في الدردنيل إلى جبهة القوقاز وليس إلى جبهة فلسطين. وفي اليوم السادس والعشرين، في صحراء مصر الغربية، يلحق البريطانيون الهزيمة بالسنوسيين. ويؤدي غياب إمكانات النقل وتحفظات الفرنسيين وذكرى الدردنيل الأليمة إلى نبذ مشروع الإنزال في الإسكندرون مرة أخرى. وفي ١٩ مارس/ آذار ١٩١٦، يحقق البريطانيون أخيرًا وحدة قيادة قواتهم المرابطة في مصر ويشكلون قوة الحملة المصرية تحت قيادة أرشيبالد مَرّاي. وفي مواجهة تهديد عثماني جديد على القناة، يجري القتال على موقعي قطيه وروماني، على بعد عدة كيلومترات أمام بورسعيد. فيتقهقر البريطانيون في البداية، ثم يعيدون احتلال مواقعهم (أواخر أبريل/ نيسان ١٩١٦)(٥٥). ويقررون التغلغل تدريجيًا في داخل سيناء، بانين طرق إمداد عبر السكك الحديدية وخطوط أنابيب للمياه. على أن الرهان الأوروبي أكثر أهمية بكثير ــ ففي ٢١ فبراير/ شباط بدأت معركة ڤردان ويستعد البريطانيون لشن هجومهم في السوم، والذي يبدأ في ٢٥ يونيو/ حزيران ــ، ولا تعود جبهات مصر وبلاد الرافدين ذات أولوية.

ويزور سايكس، ثم بيكو، روسيا سعيًا إلى الحصول على موافقة حكومة بتروجراد في مقابل التنازل لروسيا عن جزء من ساحل البحر الأسود ومناطق كردية(٥٦). ويسعى الأول إلى أن يكوِّن لنفسه رؤية عامة عن الوضع الروسي. وهكذا فإنه يزور القوقاز. وهو ينزعج من نقص أسلحة الجيش القيصري (نقص البنادق) ويخشى من نشوب حركة ثورية على أثر وقوع هزائم جديدة. وهو يحث على شن هجوم إنجليزي في سيناء سعيًا إلى تقليل الضغط على جيش القوقاز. على أنه يعرف أن بريطانيي بلاد الرافدين على حافة هزيمة جسيمة: فطابورهم المتقدم، بقيادة الچنرال تاونسند، يطوقه العثمانيون في كوت، كما أنه

على حافة الاستسلام، وهذا نبأ ينال من الهيبة البريطانية بعد هزيمة الدردنيل(٥٧). وهو يأمل في أن المناقشات بين الفرنسيين والروس سوف تقود الأوائل إلى تخفيف موقفهم فيما يتعلق بمنفذ الدولة العربية القادمة إلى البحر (وهو منفذ لا يمكنه، بالطبع، أن يكون في فلسطين وإنما في منطقة فرنسية قادمة)(٥٨).

ويهتم بيكو على نحو أخص بمصير فلسطين، ويحصل من الحكومة الروسية على دعمها للمناقشات القادمة حول الموضوع(٥٩).

وتحت ضغط للانتهاء من الأمر، يوجه بول كامبون، في ٩ مايو/ أيار ١٩١٦، إلى جراي مذكرة تتضمن كل بنود الاتفاق. وفي اليوم الخامس عشر من الشهر نفسه، يطلب جراي تحديدات إضافية. ويرد عليه كامبون على الفور(٦٠). وفي ١٦ مايو/ أيار، يقبل جراي الاتفاق مع اشتراط وفاء العرب بالشروط وحصولهم على مدن حمص وحماه ودمشق وحلب(٦١).

وإذا كان من الواضح أن سايكس وبيكو هما المتفاوضان على الاتفاق الذي يحمل اسميهما، فإنهما ليسا الموقعين عليه. فموقعان عليه شخصيتان أكثر أهمية بكثير، بول كامبون وإدوارد جراي. وعلى خارطة تقسيم الدولة العثمانية، تصبح فلسطين "المنطقة السمراء [حيث] سيجري إنشاء إدارة دولية سيتوجب اتخاذ قرار بشأن شكلها بعد التشاور مع روسيا، و، بعد ذلك، بالاتفاق مع الحلفاء الآخرين وممثلي شريف مكة". وتحصل فرنسا على بقية المناطق الساحلية السورية ومنطقة عربية مميَّزة تمتد إلى الموصل. وتحصل بريطانيا العظمى على جيب حيفا وعكا، وجنوبي بلاد الرافدين ومنطقة عربية مميَّزة ثانية بين فلسطين وبلاد الرافدين. والحال أن شاغلهما المتواصل هو التمكن من مد خط للسكك الحديدية من بغداد إلى البحر المتوسط في منطقة تحت نفوذهما. وهذه النتيجة غير المباشرة للنزاع على خط سكة حديد بغداد ما تزال تميز إلى اليوم خارطة الحدود بين الدول في الشرق الأدنى.

ويرى متخذو القرار الفرنسيون والبريطانيون أنه لا تناقض هناك بين مراسلات حسين ـــ ماكماهون واتفاق مايو/ أيار ١٩١٦: ففي إطار المفاوضات، تنازل البريطانيون للفرنسيين عن مجرد حقوق إبداء النصيحة

والتي كان الشريف قد منحها لهم. والهدف هو إنشاء "دولة أو اتحاد دول عربية" مستقلة ستكون تحت النفوذ الفرنسي أو البريطاني، وهو حل لبق يسمح باستعادة نظام السيطرة غير المباشرة الذي كان قائمًا قبل عام ١٩١٤ مع تلبية ضرورات إثارة العرب على الأتراك.

وآخر مفاوضات بين الحلفاء تتعلق بإيطاليا. فهذه الأخيرة، التي دخلت الحرب ضد النمسا ـ المجر، كان قد جرى استبعادها من التسوية الخاصة بالشرق الأدنى. ويتوجب عليها إعلان الحرب على ألمانيا وعلى الدولة العثمانية وإرسال قوات إلى سالونيك لكي يكون لها الحق في المشاركة في اقتسام الأسلاب[٦٢]. فتجري مناقشة المسألة في مؤتمر سان ـ چان ـ دو ـ موريين في يومي ١٩ و٢٠ أبريل/ نيسان ١٩١٧. وتحصل إيطاليا على منطقة في آسيا الصغرى في مقابل تأييدها للاتفاقات الفرنسية ـ البريطانية التي تم التوصل إليها في ٩ و١٦ مايو/ أيّار ١٩١٦. وبالمقابل، تفشل محاولتها الرامية إلى الحصول على مساواة في الوضعية مع فرنسا فيما يتعلق بالأماكن المقدسة في فلسطين. على أن إيطاليا تفوز بالاعتراف لها بدور شريك في تدويل فلسطين.

التمرد العربي[٦٣]

في بداية الحرب، كان المعارضون العرب للنظام العثماني قد ارتأوا تمردًا سوريًا يكون متزامنًا مع إنزال قوات الحلفاء على الساحل[٦٤]. وبسرعة فائقة، توافرت معلومات لدى السلطات العسكرية العثمانية عن هذه المشاريع وعن هذه الاتصالات بالحلفاء. وفي مرحلة أولى، يقرر جمال باشا اللعب بالورقة العربية ويرفض استخدام الوثائق التي تم ضبطها في قنصلية فرنسا في بيروت، والتي تتحدث عن الاتصالات بين دعاة الحكم الذاتي العرب والفرنسيين في الشهور السابقة للحرب. ويتخذ مظهر الداعي إلى التعاون فيما بين العرب والأتراك، بيد أنه يقوم من جهة أخرى بدسائس معقدة مع الحلفاء، موحيًا بأن من الوارد أن ينحاز إلى قضيتهم.

وبعد فشل محاولته في فبراير/ شباط ١٩١٥ ضد قناة السويس وأمام الدلائل المتزايدة على سخط السكان السوريين بسبب التدهور السريع لظروف

المعيشة، يعدّل سياسته تعديلاً جذريًا. فاعتبارًا من صيف عام ١٩١٥، يدشن نظام إرهاب سعيًا إلى منع كل حركة تمرد. والحال أن الذاكرة الجماعية سوف تتذكره باسم جمال "الدموي". وفي أغسطس/ آب ١٩١٥، يجري الحكم بالإعدام على سلسلة أولى من دعاة الحكم الذاتي ويجري شنقهم. وتتلوها سلسلة ثانية في مايو/ أيّار ١٩١٦. ويتأثر بهذه الإعدامات جل العائلات الكبرى للأعيان السوريين واللبنانيين والفلسطينيين (إذ يجري إعدام واحد من آل عبد الهادي وواحد من آل النشاشيبي مثلاً). وعلاوة على الإعدامات، يمكننا رصد عدد كبير من الاعتقالات والاحتجازات. وبحسب القاعدة العثمانية القديمة، يجري ترحيل المجموعات المشتبه بها ونفيها إلى الأناضول (عدة آلاف من الأشخاص).

وتجتمع مع القمع السياسي أزمة غذائية بالغة الحدة اعتبارًا من عام ١٩١٦. والحال أن ولاية بيروت والجبل اللبناني خاصة هما اللذان يتأثران بهذه الأزمة: ففي المناطق الساحلية، يتحول القحط إلى مجاعة رهيبة تؤدي إلى موت ما بين ٣٥٠.٠٠٠ و٦٥٠٠٠٠ نسمة، أي حصة جد ملحوظة من السكان (التقدير الأرجح يمكن أن يكون ٥٠٠٠٠٠ حالة وفاة). ويبدو أن فلسطين قد أفلتت نسبيًا من هذه المجاعة، فيما عدا جزءها الشمالي (منطقة حيفا)[٦٥].

وهذا الوضع الرهيب يجعل من المستحيل نشوب أي انتفاضة بيد أنه يفجر قطيعة سافرة بين العرب والأتراك. فتنضم الجمعية العربية الفتاة المدنية السرية إلى جمعية العسكريين (العهد) للسعي إلى كسب أنصار في صفوف الضباط العرب في الجيش العثماني، مع الدخول في اتصال مع فيصل، الابن الثاني للشريف حسين. وبعد انسحاب وحدات الجيش العثماني العربية من سوريا، فإن الأمل الوحيد إنما يكمن في حركة يجري شنها من الحجاز.

وإذ ينزعج حسين من تعزز الوجود العسكري الألماني ـــ العثماني في شبه الجزيرة، فإنه يقرر تقديم الموعد المحدَّد لإعلان التمرد. وفي ٦ يونيو/ حزيران ١٩١٦، ينطلق من يسمون بـــ"الأشراف" إلى الهجوم على القوات العثمانية في الحجاز. فيسيطرون على مكة وجدة، لكن العثمانيين يسيطرون سيطرة راسخة على المدينة [المنوَّرة]، المحطة الأخيرة لسكة حديد الحجاز. وفي اليوم نفسه، يموت اللورد كتشنر غريقًا، ذلك أن السفينة التي أقلته إلى روسيا قد تم نسفها

بطوربيد. والحال أن البريطانيين إنما يدينون له بسياستهم العربية. وفي مجلس الوزراء في باريس، يجري إعلان الترحيب بنبأ التمرد بوصفه بشيرًا بانتفاضة "العالم الإسلامي" ضد الأتراك، ويتم اتخاذ قرار بتقديم إعانات للشريف حسين(٦٦).

وفي الشهور الأولى، يحرز التمرد شبه نجاح على المستوى العسكري. فالعرب، الذين يعوزهم التنظيم والمدفعية، لا يتمكنون من زحزحة العثمانيين عن مواقعهم الحصينة. ويتساءل الفرنسيون والإنجليز عما إذا لم يكن من الواجب عليهم إرسال قوات إلى الحجاز سعيًا إلى تقديم غوث لحليفهم الجديد. ومن الناحية الاستراتيجية، يضع التمرد نهاية للتهديد العثماني على البحر الأحمر ويعوض عن استسلام القوات البريطانية في كوت. وحاميات اليمن، بوجه خاص، معزولة. والكسب الأهم كسب سياسي ــ ديني. فالشريف قد تمرد باسم الإسلام بأكثر مما باسم القومية العربية: فهو يتهم جماعة تركيا الفتاة بخيانة الإسلام. ويتراجع خطر نشوب انتفاضة من جانب المسلمين في الإمبراطوريتين الفرنسية والإنجليزية: ويتسنى في التوّ والحال تنظيم حج مسلمي الإمبراطوريتين إلى مكة، بما يشكل رمزًا ملموسًا لـ"الدولتين" العظميين "المأهولتين بسكان مسلمين" في ذلك الوقت.

وكان إنجليز مصر قد تم اطلاعهم بشكل غير وافٍ على الاتفاق الفرنسي ــ البريطاني. وعندما تم اطلاعهم على مضمونه الكامل، تملكهم سخط قوي. فعلاوة على رغبتهم في الحد من النفوذ الفرنسي في الشرق الأدنى أو القضاء عليه، نجد أنهم إنما يخشون من أن يؤدي كشف نوايا الحلفاء إلى تقارب عربي ــ تركي كارثي. ومن ثم يجري اتخاذ قرار بالحفاظ على السرية المطلقة لهذه النوايا. وعندما يحلل هوجارث مضمون المفاوضات، فسوف يقطع شوطًا أطول ويعبر عن أمل مجمل فريق "الخبراء" في القاهرة:

إن الاتفاق سوف

> [...] يعتبر من جانب حكومتنا ساعتها إجراءً انتهازيًّا بشكل خالص مع التحفظ العقلي الذي يذهب إلى أن هناك حاجة إلى إدخال تعديل ملحوظ عليه إن عاجلاً أم آجلاً. لأنه يتضمن عدة خصائص لا تبشر بأي حل نهائي لمسألة الشرق الأدنى(٦٧).

فالطابع المشروط للوعود المقدَّمة إلى العرب، والمتوقفة على قدرتهم على الاستيلاء على مدن الداخل السورية الأربع الكبرى، إنما يشكل هاجسًا مؤرِّقًا بالنسبة لإنجليز مصر. والحال أن ألمع شخصية في المجموعة، الآثاري السابق ت. إ. لورنس، والذي كان قد جعل من التمرد العربي مغامرته الشخصية، إنما يقرر إبلاغ الأشراف بالأمر. وبوصفه أستاذًا في مجال الدسائس البيروقراطية، فإنه ينجح في أن ينأى بنفسه ويذهب إلى الحجاز. فيدرس بعناية شخصيات مختلف أبناء الشريف، علي وعبد الله وفيصل وزيد. ويقع اختياره على فيصل. وفي فبراير/ شباط ١٩١٧، يطلعه على الاتجاه العام للاتفاق، ويحثه على أن يكون البادئ بدخول دمشق وعلى الفوز بالسيطرة على منفذ على البحر خارج لبنان[٦٨].

وفي تلك الأثناء، يتحسن الوضع العسكري. فقد قام الأشراف بتوسيع ساحة عملياتهم العسكرية، مجبرين العثمانيين على بعثرة قواتهم سعيًا إلى حماية سكة حديد الحجاز ومانعينهم بذلك من اتخاذ مبادرات. ويقوم لورانس بالتنظير لهذا الواقع: فمن غير المفيد للعرب أن يسعوا إلى الاستيلاء على المدينة [المنوَّرة]، لأن ذلك إنما يشكل عملية باهظة التكاليف ومحفوفة بالمخاطر. ويتوصل عبد الله وعلي إلى نتيجة مساوية فيصيبان العثمانيين بالشلل في مواقعهم. وسيكون بوسع فيصل عندئذ أن يوجه قواته إلى الشمال السوري. ويعترف الجميع بأهمية سكة حديد الحجاز: وبما أن من غير الوارد القيام بإنزال للحلفاء على السواحل السورية للبحر المتوسط، فإن باريس تقترح عملية مشتركة للاستيلاء على العقبة سعيًا إلى الانطلاق لقطع خط سكة الحديد[٦٩]. ويحاول بريمون، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في الحجاز، حفز هذا المشروع. لكن لورانس ورفاقه يعترضون عليه: فمن شأن وجود قوات فرنسية في العقبة أن يهدد بمنع الأشراف من الزحف على سوريا.

وفي تلك الأثناء، كان الهجوم الإنجليزي في سيناء قد بدأ. وتدفع القوات البريطانية العثمانيين إلى التقهقر إلى داخل سيناء، بما يضع نهاية لتهديد مصر وقناة السويس. وتتقدم هذه القوات ببطء إلى مشارف العريش. وتظل منظوراتها دفاعية. فالمقصود هو مجرد تعزيز أمن مصر. والجانب الرئيسي في العمل

لوچيستي: إذ يجري التقدم بسرعة في بناء خط للسكك الحديدية ومد خط لأنابيب المياه، أي مسافة ١٥ ميلاً في الشهر. وبدلاً من تدمير البلد وتحويله إلى قفر، يجري تحويل الصحراء إلى ورشة عمل ضخمة[٧٠].

بدء فتح فلسطين

في ٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٦، يشكل لويد چورچ حكومة ائتلاف بين حزب الأحرار وحزب المحافظين. أمّا أسكويث، رئيس الحكومة السابق، فيضم حوله المعارضة الليبرالية. ويحل بلفور محل جراي في وزارة الشئون الخارجية. والحال أن الحكومة الجديدة لها رؤية أكثر إمبريالية بكثير من سابقتها. فلويد چورچ ينتمي إلى جماعة "الشرقيين" [*Easterners*] الذين يرون أنه سيكون بالإمكان كسب الحرب بفضل شن هجمات على مسارح عمليات كانت تعتبر إلى ذلك الحين ثانوية. وهو يحث مرّاي على أن يكون أكثر حيوية، بيد أنه لا يمكن له أن يرسل إليه تعزيزات وذلك بسبب الحاجات الملحة للجبهة الأوروبية. ومنذ شهر ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٦، يمكن، في فرنسا كما في إنجلترا، اعتبار أن الاستيلاء على العريش يعني بدء فتح فلسطين. فتنطرح مسألة الوضعية الإدارية التي يجب إعطاؤها لها: ويجري اقتراح أن يصبح پيكو وسايكس المندوبين الساميين المكلفين بالإدارة المؤقتة للأرض[٧١]. وفي ٢٣ ديسمبر/ كانون الأول، ينسحب العثمانيون دون قتال من المدينة الرئيسية في سيناء. وفي ٤ يناير/ كانون الثاني، يصل خط السكك الحديدية إلى العريش.

وفي مؤتمر لندن، في ٢٨ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٦، بين لويد چورچ وريبو، رئيس الحكومة الفرنسية، يجري تناول المشاركة الفرنسية في فتح فلسطين[٧٢]. ويتحدث ريبو عن إرسال قوات فرنسية قادمة من چيبوتي. ويسأله كيرزون عما إذا كانت هذه القوات مسلمة. ويعتقد الفرنسي أنها قوات مؤلفة من سنغاليين "فيتيشيين" [يعبدون الفيتيشات]:

> اللورد روبرت سيسيل: سيكون من الأفضل ألاّ يجري إرسال فيتيشين إلى فلسطين لكي يمثلوا فرنسا، إذا كان بالإمكان العثور على سواهم. وسيتعين بوجه خاص أن يكون هناك ممثل سياسي لفرنسا: وهذا أهم بكثير من إرسال كتيبة أو كتيبتين.

السيد ريبو: نحن على اتفاق معكم فيما يتعلق بضرورة إرسال ممثـــل سياســـي إلى فلسطين. أمّا فيما يتعلق بالقوات، فبوسعنا أن نستقدم من تونس قناصة مسلمين.

وفي يناير/ كانون الثاني ١٩١٧، تبلغ الحكومةُ البريطانية الفرنسيين بعزمها على أن تمد بعد الحرب خط أنابيب للزيت (بفرنسية العصر، "tuyautage") بين بلاد الرافدين وحيفا، وسوف يتبع هذا الخط خط السكك الحديدية الممنوح بالفعل للإنجليز. ويرى كامبون في ذلك على الفور فرصة لكي تشارك فرنسا في استغلال بترول بلاد الرافدين[٧٣]. ويجري تكليف پيكو وكامبون بالتفاوض على هذا الاتفاق مع البريطانيين[٧٤].

والحال أن الإعلان عن وصول سايكس وپيكو الوشيك إلى الشرق الأدنى إنما يحزن جماعة القاهرة إلى أقصى حد. فإنجليز مصر، الذين لا يرون أي تعارض بين الاستقلال العربي ووصاية بريطانية، يعتبرون أفعال سايكس خيانة للعرب. على أن هذا الأخير ليس بعيدًا جدًّا عن مواقفهم. فهو، شأنهم، متحمس لفكرة نهضة ــ إحياء لشعوب الشرقِ ضمن إطار نظام نفوذ بريطاني. وقد كان أول من شدَّد على ضرورة منح العرب منفذًا حرًّا على البحر المتوسط، وهو ما لم تفكر فيه مراسلات حسين ــ ماكماهون، التي هي من عمل خبراء القاهرة. ويكمن الخلاف الحقيقي في العلاقة مع فرنسا. فسايكس مدرك لضرورة الحفاظ على وحدة عمل وثيقة بين الدولتين العظميين، أكان في أوروبا أم في الشرق الأدنى. وبعيدًا عن أن يعتبر الفرنسيين خصومًا ممكنين أو فعليين، فإنه يسعى إلى ضمهم إلى مشروعه الكبير. وآراؤه تلقى ترحيبًا في صفوف الجماعة الصغيرة جد المتلاحمة من المسئولين الفرنسيين في القاهرة، الذين سوف يسارعون إلى توحيد عملهم بعمل پيكو. وبشكل استرجاعي، يمكن اعتبار سايكس صاحب بصيرة سياسية أعظم من بصيرة رجل مثل ت. إ. لورانس.

ويجري تعيين پيكو مندوبًا ساميًا لفرنسا في الأراضي المحتلة في سوريا وفلسطين. ويُضَمُّ إلى بعثته مسئولان "سياسيان"، ديبلوماسيٌّ، هو كولوندر، ومستشرق، هو لويس ماسينيون[٧٥]. ويتلقى پيكو رسالة التعليمات الصادرة إليه في ٢ أبريل/ نيسان ١٩١٧ (هو نفسه الذي حرَّرَها بنفسه)[٧٦]. فيجري تكليفه،

هو ووحدة القوات الفرنسية المرافقة له، بأن "يظهروا لأعين السكان الوفاق المطلق القائم بين الحلفاء، وبأن يقوموا في الوقت نفسه بتأكيد وحدة العمل الذي يجري الاضطلاع به في هذه المناطق". ويجب أن يضمنوا لفرنسا مكانة مساوية لمكانة إنجلترا في جميع العلاقات مع الأهالي:

بما أنكم تجيئون لتخليص سكان فلسطين وسوريا من الاضطهاد التركي ولأجل دعوتهم إلى الحرية، فسوف يكون من المناسب، لتنظيم الأراضي المحتلة، أن تعتمدوا، بشكل حصري، على العناصر الأهلية وأن تحترموا، بكل قدر ممكن، التقاليد والأعراف المحلية. فالواقع أن لا شيء سيكون بوسعه أن يرسّخ بشكل أكثر جلاءً الاتجاه الذي نريد أن نواصل فيه عملنا، سوى مثل هذا التجرد. ثم إن البلد سوف يوفر لكم جميع العناصر الضرورية التي سيسهل عليكم اللجوء إليها، عبر اجتهادكم في أن تراعوا في كل حالة خاصة، سعيًا إلى بث خياراتكم، العناصر العرقية والدينية التي سيتعلق الأمر بحكمها. [...]

ثم إن الاتفاقات الموقعة مؤخرًا إنما تحدد لكم الخطوط العريضة للسياسة التي يتوجب عليكم اتباعها حيال العرب. فما نريد عمله هو تحرير شعب طال استعباد الأتراك له، بأن نعيد إليه الامتيازات التي هي من حقه. وعلى خلاف حكام القسطنطينية الذين اضطهدوا الأنع بين العرب وسعوا إلى تحريم لغتهم التي هي لغة الكتب المقدسة نفسها، فإن عملنا يجب أن يميل إلى أن يرد إلى حضارة، لم تكن دون عظمة، ما كان لها من مجد. وعليكم إيضاح هذه المشاعر في البيان الذي سوف يكون عليكم توجيهه إليهم. وسوف تشدّدون خاصة على هذه النقطة وهي أن الأمر لا يتعلق بفرض حكام أجانب عليهم، بل بمجرد مساعدتهم في تزويد أنفسهم بمؤسسات قومية قادرة على أن تكفل لهم تسيير أمورهم بصورة منتظمة.

وموقف فرنسا الرسمي هذا قريب من موقف البريطانيين كما عرضه الجنرال مود، عند الاستيلاء على بغداد، في ١٩ مارس/ آذار ١٩١٧. فالنص، الذي حرره سايكس، يتحدث أيضًا عن الاضطهاد التركي ونهضة المؤسسات القومية العربية:

يا أهالي بغداد، تذكرون أنكم على مدار ستة وعشرين جيلاً عانيتم بسبب طغاة أجانب حاولوا دومًا تأليب عائلة عربية على أخرى سعيًا إلى الاستفادة على نحو أفضل من

شقاقاتكم. ومن ثم فقد تلقيت الأمر بأن أدعـوكم إلى أن تـشاركوا، عـبر أعيـانكم وشيوخكم وممثليكم، في تسيير شئونكم المدنية، بالتعاون مع الممثلين السياسيين لبريطانيـا العظمى، سعيًا إلى أن تتمكنوا من توحيد أنفسكم مع بني جنسكم في الشمال والـشرق والجنوب والغرب لتحقيق أمانيهم[٧٧].

وما يهدف إليه سايكس هو منع إنجليز الهند من اتباع سياسة "عبء الرجل الأبيض" والتي من شأنها أن تدفع العرب إلى الارتماء في أحضان فرنسا[٧٨]. وفي الساحة، لا يغير رجال حكومة الهند سياستهم. فهم يرون في هذا النوع من البيانات مناورة دعائية، لا تعديلاً لسياسة في الأمد الطويل.

وبما أنه قد تم فتح سيناء، فإن البريطانيين يحاولون التغلغل في فلسطين. وتسفر معركة غزة الأولى في ٢٦ مارس/ آذار ١٩١٧ عن هزيمة فادحة: مصرع أو إصابة أو أسر ٤٠٠٠ بريطاني. أما المعركة الثانية، في ١٩ أبريل/ نيسان، فهي تؤكد دروس المعركة الأولى: إذ ترتفع الخسائر البريطانية إلى ٦٠٠٠ رجل. فالعثمانيون، كعادتهم، قد أثبتوا قدراتهم في حرب الخنادق. ولأول مرة جرى استخدام الدبابات، بيد أنها كانت قليلة الفعالية، بالرغم من الآمال الكبيرة التي أوحت بها[٧٩]. وتتجمد جبهة فلسطين من جديد. ويعزز كل معسكر سلسلة خنادقه.ولا تنسب الإخفاقات إلى نوعية القوات المنخرطة، وإنما إلى عيوب القيادة[٨٠]. والحق ان مرّاي، القائد العام البريطاني، كان يقود العمليات من مقر قيادته في القاهرة (فقد كان عليه مواجهة السنوسيين في الغرب، ومتابعة شئون الحجاز، والتأكد من الأمن الداخلي لمصر تحت الأحكام العرفية واستخدام البلد كقاعدة مؤخرة لحملة سالونيك).

ويقرر لويد جورج إعفاء مرّاي من قيادته. ويجري اقتراح سمتس، من جنوب أفريقيا، لخلافته، بيد أنه يرفض: فبسبب الثورة الروسية لا يتسنى منحه الإمكانات الضرورية لشن الهجوم الكبير الذي يأمل في قيادته[٨١]. وأخيرًا، في ٢٨ يونيو/ حزيران، تعين الوزارة الجنرال أللنبي، ذي الطاقة الأسطورية. و"يُطلب" إليه "تقديم القدس كهدية أعياد الميلاد للأمة البريطانية". ومن شأن هجوم في فلسطين أن يقود إلى تقليل المخاطر التي يتعرض لها جيش بلاد

الرافدين من جانب القوات العثمانية العائدة من القوقاز على أثر الثورة الروسية. وبوجه عام، ينجح لويد جورج، خلال شهور الصيف، في أن يفرض على القيادة العليا البريطانية المتحفظة وجوب إعطاء الأولوية لحملات فلسطين وبلاد الرافدين[٨٢].

وفي مايو/ أيّار ١٩١٧، يزور سايكس وبيكو جدة سعيًا إلى إجراء محادثات مع شريف مكة[٨٣]. وبدلاً من أن يوضحا الموقف الديبلوماسي، فإنهما ينجحان في زيادة تعقيده. ويحصل بيكو على تعادل بين الوضع الفرنسي في سوريا ووضع البريطانيين في بلاد الرافدين. والحال أن الشريف، المقتنع على أساس مراسلات حسين ــ ماكماهون بأن هذا الوجود مؤقت، إنما يقبله. ويواصل حسين المطالبة بسوريا برمتها، المسيحية والمسلمة على حد سواء، ويرد عليه بيكو بالحديث عن تحرير العرب. وعندئذ يُدخل الشريف مصطلحًا جديدًا، هو مصطلح "سوريا المسلمة"، ويتنصل من عمل بعض السوريين الذين سعوا إلى إعلانه "مَلِكًا للعرب" في سوريا. فهو لا يريد إرباك عمل الحلفاء:

> بالنص على عمل مقصور على سوريا المسلمة وبقبول نظام آخر متعادل في المناطق الفرنسية وفي بغداد، حرى تقدم تنازل بالغ الجدية لرغباتنا، وهو تنازل يؤكد رفض الملك تسهيل دسائس بعض أنصاره السوريين (المقصود خاصة، فيما قيل لي، هو رشيد رضا)[٨٤].

وبالمثل،يقبل الشريف مبدأ وجود مستشارين فرنسيين في سوريا المسلمة هذه. ويصبح من الواضح عندئذ أنه لم يفهم قط التعريف الجغرافي للمجال الذي منحته له المراسلات مع ماكماهون والذي يسعى إلى إدخاله في معجم محاوريه بتفسيره ما هو "غير عربي بصورة خالصة" على أنه "المسلم". وبالمقابل، نجد أنه قد رصد تزحزح الموقف البريطاني الذي تنازل للفرنسيين عن جزء من احتكار "المستشارين". وترجع مرونته أيضًا إلى انزعاجاته حيال مواقف قادة آخرين لشبه الجزيرة العربية، يرفضون الاعتراف بسيادته أو بصدارته حتى ولو كانت أدبية بصورة خالصة. وهو يخشى بشكل خاص من وهابيي نجد الذين يقودهم ابن سعود (خلال المحادثات، يطرح فيصل مباشرةً هذه المسألة أمام

سايكس).

وفيما يتعلق بـــ"المناطق المسيحية"، يدرك بيكو أن فرنسا سوف يكون بوسعها إنشاء دولة محمية فيها بشرط احتلالها قبل الحرب. ومن ثم فالشروط كلها مجتمعة لسباق سرعة بين الفرنسيين والأشراف خلال العمليات العسكرية الأخيرة.

ويستثير معنى تعبير "سوريا المسلمة" مراسلات بين بيكو والكيه دورسيه [وزارة الخارجية الفرنسية]. فهذه الأخيرة تسعى إلى معرفة ما إذا كان المقصود به هو منطقة نفوذ فرنسا أو "جميع الأراضي السورية التي يسكنها مسلمون، أي سوريا كلها، فيما عدا لبنان"(٨٥). ويطمئنها بيكو:

> فيمايتعلق بتعبير "سوريا المسلمة" المستخدم هناك، فإذا كان من الوارد أنه يدعو إلى شيء من الالتباس، فسوف أجد صعوبات جسيمة في السعي من الآن إلى تحديـــده. وإذا كنا نريد الاستفادة يومًا ما من اتفاقاتنا الخاصة بآسيا الأمامية، فمن المؤكد أننا ســـوف نضطر عاجلاً أم آجلاً إلى احتلال بيروت والساحل. وفي ذلك اليوم، سيكون كل شيء سهلاً بالنسبة لنا مثلما هو سهل الآن بالنسبة للإنجليز، لأن العرب ينحنون دومًا أمام الأمر الواقع وقد اعترفوا لي بذلك بسذاجة في مناسبات مختلفة خلال رحلتي الأخيرة(٨٦).

على أن الكيه دورسيه تنزعج مع ذلك من خطر التمهيد لإساءة فهم بسبب عدم تعريف تعبير "سوريا المسلمة"(٨٧). فإذا ما وجد الشريف نفسه في مركز قوة على أثر نجاحات عسكرية، فسوف يكون بوسعه الاستناد إلى الالتباس المقصود للمصطلح سعيًا إلى المطالبة بالمزيد. والنتيجة(٨٨) أن الممثلين الفرنسيين في الحجاز، في حالة سؤال الأشراف لهم، يتعين عليهم قول إن تعبير "سوريا المسلمة" لا يمكن أن ينطبق على المناطق الساحلية حيث تختلط الأجناس والديانات، حتى وإن كان غير المسلمين لا يشكلون الأغلبية. وفي أواخر يونيو/ حزيران(٨٩)، يجري تقديم تدقيقات: إن الفرنسيين لا يجب عليهم استخدام تعبير "لبنان" أو "لبنان الكبير" لأن هذا سيكون بالغ التقييد فيما يتعلق بتعريف المناطق الساحلية حيث تحتفظ فرنسا لنفسها بـــ"رسالة ضمان تحرير وتقدم" السكان.

ويكشف الجنرال أللنبي عن كونه استراتيجيًّا عظيمًا. ومنذ الأسابيع الأولى

لقيادته يعد لفتح فلسطين. فيتعين عليه مضاعفة المجهود المبذول في مد سكة الحديد وأنابيب المياه قبل شن أي عملية. ويدرك على الفور استحالة القيام باجتياح أمامي مباشر للمواقع العثمانية، التي أصبحت جد قوية، وعندئذ يعد لحركة التفاف واسعة قائمة على الهجوم على النقطة الضعيفة في انتشار العدو، ألا وهي بئر سبع، في النقب. ويهتم بمد خطوط سكة الحديد في هذا الاتجاه، و، خلافًا لسلفه، الذي كان قد بقى في القاهرة، يقيم مقر قيادته العامة في خان يونس، على مداخل فلسطين(٩٠). ويتعزز موقعه بفضل غارة جسورة ينظمها لورانس وتنجح في الاستيلاء على العقبة في ٦ يوليو/ تموز ١٩١٧. وسوف تشكل قوات التمرد العربي الجناح الأيسر لجيشه في شرق الأردن وتشل وحدات عثمانية مهمة في اللحظة التي سيشن فيها أللنبي هجومه الكبير.

وعبر العقبة، يتدفق السلاح والمال لصالح جيش فيصل. ويقدم المستشارون العسكريون البريطانيون مساعدة ثمينة ويسيطرون على تحركات القوات العربية. وهم لا يسمحون بأي عمل في داخل فلسطين نفسها، والتي تعد المجال المقصور على أللنبي، وذلك دون أن يعبروا بشكل سافر عن حظر مثل هذا العمل. ويدرك الفرنسيون جيدًا أنه إذا كانت فلسطين مستبعدة فعليًا من ساحة التمرد العربي، فإن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بالشمال السوري(٩١).

وتعني الهزائم البريطانية أمام غزة إرسال تعزيزات ملحوظة لاستئناف الهجوم. وبما أنه من غير الوارد إخلاء الجبهة الفرنسية، فإن البريطانيين إنما يطلبون سحب الفرق البريطانية من سالونيك. وهم يصطدمون بمعارضة فرنسا التي ترى أن سالونيك يجب أن تلعب دورًا أكثر أهمية، وذلك بالنظر إلى الشلل الروسي.

ويجري تناول تعزيز المجهود الحربي في الشرق في مؤتمر الحلفاء المشترك في باريس في يومي ٢٥ و٢٦ يوليو/ تموز ١٩١٧. ويبدأ الفرنسيون في الانزعاج من الإشاعات التي تتحدث عن تهديد الاتفاقات المعقودة في العام السابق ويتعين عليهم في الوقت نفسه التكيف مع الرطانة الجديدة للعلاقات الدولية: فتضطر الحكومة الفرنسية إلى نفي وجود أي تفكير إمبريالي وإلى تصوير عملها على أنه واجب "يقع على كاهلها قوامه تخليص أراضي سوريا

وقيليقيا من استبداد جماعة تركيا الفتاة، وهي أراضي مارست فيها [فرنسا]، على مدار التاريخ، عملها التمديني وتأثيرها"[٩٢]. وفي باريس، يجري وضع الثقة في سايكس وبيكو فيما يتعلق بالحفاظ على وفاق وثيق، بين الدولتين الحليفتين، فيما يتعلق بشرق البحر المتوسط.

وفي المؤتمر، يحث البريطانيون محاوريهم على قبول سحب فرقة إنجليزية من سالونيك، على أن يتم إرسالها إلى فلسطين. ويرفض الحلفاء الآخرون ذلك: فهذا يعني إفهام العدو أنه لا توجد نية لشن هجوم في البلقان، وسيؤدي هذا إلى إضعاف هذه الجبهة بشكل ملحوظ. ويرد لويد چورچ بأن سحب الفرقة سيكون محدود الأثر للغاية. فيقترح الإيطاليون والفرنسيون إرسال قواتهم هم في مقابل إبقاء الفرقة البريطانية [في سالونيك]. ويجري الرد عليهم ردًا مهذبًا بأن لوچيستيك سيناء لا يسمح بنقل ثلاثة أنواع مختلفة من الأسلحة[٩٣]. وتنتهي هذه المناقشة دون اتخاذ قرار وتؤثر على الخواطر[٩٤]. وفي نهاية الأمر، خلال لقاء ثان ينعقد في لندن في يومي ٧ و٨ أغسطس/ آب، يلقى الطلب البريطاني ردًا إيجابيًا: وتتعهد بريطانيا العظمى بألا تسحب المزيد من القوات من سالونيك وتقبل إرسال قوات فرنسية أو إيطالية إلى فلسطين فيما بعد[٩٥]. ويظل هذا أمرًا نظريًا إلى حد بعيد، لأن الدولتين في حالة نقص في القوات (في أواخر العام، يرى بيتان اختزال عدد الفرق الفرنسية سعيًا إلى الحفاظ على أعداد الجنود المناسبة لهذا النوع من الوحدات). والحال أن بريطانيا العظمى، إذ تتوصل إلى الموافقة على سحب قوات بريطانية من الجبهات الأوروبية دون الاستعاضة عنها بقوات للحلفاء، إنما تكفل لنفسها بذلك، على نحو حاسم، موقفًا سائدًا في الشرق الأدنى.

ويعد أللنبي بعناية لعملياته. وقد حصل على تعزيزات ملحوظة من الجنود والمدافع والطائرات. وبحسب المراقبين الفرنسيين، فإن "خدمات مؤخرته وإمداده منظمة تنظيمًا رائعًا"[٩٦]. وهو يحوز مائة ألف جندي معنوياتهم عالية وتدريبهم ممتاز، أسرتهم شخصية قائدهم الاستثنائية. وبما أن فن الحرب بسيط لكن المهم هو التنفيذ، بحسب الممارسات العريقة للاستراتيجيين العظماء، فإن أللنبي يشن عملية تخدير واسعة يشرف عليها رئيس جهاز استخباراته

ماينرتزهاجن. فهو يوحي بأن البريطانيين ينوون مهاجمة غزة: الإكثار من عمليات الاستطلاع [على هذه الجبهة]، إرسال سفن مهمتها الإيحاء بأن هناك استعدادًا لإنزال قوات، ضياع مفكرة صغيرة للأركان العامة تشير إلى استحالة مهاجمة بئر سبع بسبب مصاعب الإمداد بالمياه، فبركة شائعات كاذبة[٩٧].

وفي أواخر أكتوبر/ تشرين الأول، يكسب أللنبي معركة بئر سبع. على أن القوات العثمانية تنسحب في نظام جيد وتخوض معارك تعطيل شرسة. لقد بدأ فتح فلسطين. بيد أن مصير الأرض المقدسة لا يمكن فهمه من زاوية التغيرات الخاصة بالشرق الأدنى وحدها، فهو قد أصبح غير قابل للانفصال عن تطور المسألة اليهودية خلال الحرب.

الفصل التاسع

المسألة اليهودية في الحرب العالمية

"الكاثوليك، في مجملهم، ليسوا عديمي التأييد لنا، ولو أن الچيزويت [اليسوعين] قد انحازوا كرجل واحد إلى صف پروسيا، وخسروا من جراء ذلك جانبًا من نفوذهم... اليهود يفضلون القيصر [قيصر ألمانيا]، وسيكون من الضروري عقد صفقة. ومنذ موت مورجان، فإن البنوك اليهودية هي التي تصنع القانون هنا، وقد استولوا على وزارة الخزانة... فائزين بتعيين [اليهودي] الألماني واربورج في الـFederal Reserve Board [بمجلس الاحتياطي الاتحادي]، حيث يهمين كسيد. والحكومة نفسها منزعجة من ذلك بالأحرى، وقد ردد الرئيس [الأميركي] على سمعي الآية التي تقول إن "حارس إسرائيل لا يجب أن ينعس ولا أن ينام". وقد استولى اليهود على الصحف الرئيسية، ودفعوها إلى الانحياز إلى صف ألمانيا، صحيفة بعد الأخرى".

سيسيل سپرنج ـــ رايس، سفير بريطانيا العظمى لدى واشنطون،

إلى السير إدوارد جراي، ١٣ نوڤمبر/ تشرين الثاني ١٩١٤.

"لا يكل ديرنبورج[١] وجماعته من العمل، وقد شكل رجال البنوك اليهود ـــ الألمان كتيبة قوية تعمل على هلاكنا. وهم يستولون على صحف نيويورك الرئيسية، صحيفة بعد الأخرى، وقد علمت اليوم أن صحيفة **نيويورك تايمز**، التي كان يقودها يهودي شجاع دافع ببسالة عن قضية الحلفاء، قد اشتراها من الناحية العملية كوهن ولويب وشركاه، وشيف، اليهودي المتطرف والمحمي الخاص للقيصر [قيصر ألمانيا]. أمَّا واربورج، وثيق الارتباط بكوهن ولويب وشيف، والذي هو شقيق لواربورج الهامبورجي الشهير، شريك بالين، فهو عضو في مجلس الاحتياطي الاتحادي، أو بالأحرى عضوه الوحيد. وهو يسيطر في الواقع على السياسة المالية للإدارة [الأميركية]، ومعه تحديدًا يجب أن يتفاوض پايش وبلاكيت. وغني عن القول أن هذا يعني التفاوض مع ألمانيا. والنتيجة، أن

جميع الترتيبات قد جاءت مواتية للبنوك الألمانية، بما يشكل إزعاجًا كبيرًا للبنوك المسيحية".

هو نفسه، إلى ڤالنتاين شيرول، في اليوم نفسه[٢]

"سوڤييت بتروجراد جهاز غير مُعْتَمَد إلاّ لدى نفسه، وهو يتألف من مثاليين ومنظِّرين وفوضويين... وأغلبهم يهود أمميون غوذجيون، وليس بينهم تقريبًا أي عامل أو جندي؛ وبعضهم معروفون بأنهم عملاء للألمان [...]".

التايمز، في ١١ سبتمبر/ أيلول ١٩١٧[٣].

"[...] منذ البداية، كان النفوذ الألماني في السوڤييت شبه سافر تمامًا. وقبل وقت قصير، نشرنا قائمة بأسماء عدد من أعضاء هذا المجلس اللافت الذين رأوا أن من المفيد تغيير أسمائهم. وكان عددهم ملحوظًا. ومن الواضح أن هؤلاء المتآمرين يهود روس من أصول ألمانية، ونخشى أن يقال الآن إن اليهود الروس قد خانوا روسيا. وكان قد قيل في الماضي إن اليهود الإسبان قد طردوا من إسبانيا لأنهم فتحوا الأبواب أمام المسلمين: والحق إنه سيكون من المؤسف ليهود العالم بأسره أن يجوز القول الآن أن اليهود الروس قد فتحوا أبواب روسيا أمام الألمان".

المورننج بوست، في ٩ نوڤمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧[٤].

الصهيونية والمسألة اليهودية

الحرب العالمية الأولى هي أول حرب كلية في التاريخ المعاصر. ومن يخوضونها يعبئون كل مواردهم الاقتصادية والبشرية، بيد أنهم يلجأون أيضًا إلى كل موارد الحرب الدعائية، أكانِ في الداخل أم في الخارج. وسرعان ما تبدو الدول المحايدة في مظهر المحكمين الضروريين: فعونها الضروري ودخولها فيما بعد إلى ساحة الحرب من شأنهما قلب علاقة القوى واستتباع الانتصار النهائي لمعسكر على الآخر.

وإذا كان لا يمكن، خلافًا للحال مع الحرب العالمية الثانية، الحديث عن دول شمولية ـــ فبهذا القدر أو ذاك من النجاح، تحتفظ الأطراف المتحاربة

بإطار دول القانون –، إلاّ أن الحرب الدعائية إنما تتحول إلى مواجهة إيديولوچية. ففرنسا وانجلترا تعرِّفان نفسيهما على أنهما مدافعتان عن الحضارة والحرية في مواجهة النزعة العسكرية السلطوية المميزة لألمانيا. ويساعدهما في ذلك انتهاك الحياد البلچيكي في بداية الحرب، "قصاصة ورق عديمة القيمة"، بحسب التعبير سيئ الحظ الذي استخدمه المسئولون الألمان ولم يكف دعائيو دول الوفاق عن الإشارة إليه. بيد أن دعوى الحلفاء إنما يضعفها صون الأوتوقراطية الروسية والمصير غير العادل الذي حل بالسكان اليهود في أوروبا الشرقية (ثم، في الإطار البريطاني، المسألة الأيرلندية، والتي كان لها أصداء قوية على الرأي العام الأميركي).

ومنذ أواخر عام ١٩١٤، ظهر أن دور الولايات المتحدة من الممكن أن يصبح رئيسيًا في تطور الحرب. ومن الناحية الاستراتيچية، يعتبر الحلفاء في وضع أفضل من وضع خصومهم: فالحصار البحري الصارم الذي يفرضونه إنما يمنع إمبراطوريتي وسط أوروبا [ألمانيا والنمسا–المجر] من تزويد نفسيهما بأي شيء قادم من القارة الأميركية، ورساميل الحلفاء وكذلك صلاتهم المالية تسمح لهم بالحصول على إمدادات من الولايات المتحدة، وهو أمر ليس ضمن قدرات ألمانيا الاقتصادية بالمرة. بيد أن مواردهم ليست غير قابلة للنفاد، والقيام بمشتريات من الولايات المتحدة إنما يمر لا محالة بتطبيق تمويل من نوع خاص قائم على منح قروض ائتمانية من بنوك خاصة، كما يمر بالتعاون من جانب السلطات الأميركية.

ومنذ القرن التاسع عشر، كانت هناك مماهاة بين اليهود ورأس المال المصرفي الدولي الكبير، الذي كان عدد معين من الجماعات الممثلة له منحدرًا من ألمانيا. وفي أميركا، نجد أن عدة عائلات كبرى من رجال البنوك قد استمدت أصولها من الطوائف اليهودية الألمانية واحتفظت بعلاقات مع بلدها السابق. وطبيعي أنها كانت لديها تحفظات حيال تقديم قروض ائتمانية للدول الحليفة لروسيا المضطهِدة لليهود. وبالمثل، بالنسبة لألمانيا، كان اجتذاب تعاطفات الطوائف اليهودية الأميركية وسيلة ممكنة لعرقلة أو لوقف انجرار الولايات المتحدة إلى معسكر الحلفاء.

ومن المؤكد أن دخول روسيا الحرب إنما يترافق مع تفاقم ملحـوظ لقَـدَرِ طوائفها اليهودية. وبالرغم من تجنيد عدد كبير من المجندين اليهود، فإن حكومة بتروجراد كانت ترى أن اليهود إنما يظلون أجانب ومن الممكـن أن يكونـوا خونة. وقد جرى ترحيلهم بمئات الآلاف إلى خارج منطقة المعارك، كما جرى تنفيذ الإعدام في عديدين منهم بتهمة التجسس لحساب ألمانيا. وانسحاب الجيوش الروسية، الذي ترافقه تهجيرات اضطرارية، إنما يضع نهاية في الواقع، وإن لم يكن في القانون، لمنطقة الإقامة [اليهودية]. وبالمقابل، في المناطق التي تحتلها الجيوش الألمانية والنمساوية، يتجه الاحتلاليون إلى تحرير فعلي حقيقي، فيلغون تدابير تمييزية مختلفة: إذ يجري إلغاء الحد المفروض على قبول التلاميذ اليهود في المدارس ويجري السماح بتمثيل اليهود في المجالس البلدية. وهكـذا يتـابع الألمان الدور الذي كانت قد لعبته الجيوش الثورية والنابوليونية قبل مـا يزيـد قليلاً عن قرن من الزمان. ومن الواضح أن الدعاية الألمانيـة تـستخدم هـذه الأحداث لكي تشيد بليبرالية الألمان المضادة لاستبداد الروس. ويجري إنـشاء منظمة لتلعب دور الوسيط بين يهود شرقي أوروبا والسلطات الألمانية. ويشارك عدد من الصهيونيين الألمان البارزين في هذه المنظمة(٥).

وعشية الحرب، تبدو الحركة الصهيونية قريبة سياسيًا من ألمانيا. والحـال أن كوادرها القيادية كانت، في غالبيتها العظمى، من الألمان أو من ذوي الثقافة الألمانية. على أن المنظمة الصهيونية، من حيث كونها مؤسسة دولية، لا يمكنها الانحياز في الحرب العالمية. فتنتقل جانبًا من مقرها المركزي في بـرلين إلـى كوبنهاجن وتعلن حيادها التام. وهذا الموقف يقود إلى عجز من المستحيل التغلب عليه. وفي الممارسة العملية، تقوم كل جماعة صهيونية بعملها الخاص. وبشكل لا مفر منه، فإن البعض والبعض الآخر يماهون تحقيق المشروع الـصهيوني بمصالح الدول العظمى التي ينحدرون منها.

وعند جميع الأطراف المتحاربة، نجد أن الطوائف اليهودية، خاصة إذا كان هناك اشتباه بعدم ولائها، إنما تبدي نزعة قومية محتدمة. وفي فرنـسا، يـؤدي الاتحاد المقدس إلى وضع نهاية مؤقتة للهجمات اللفظية التي يقوم بها المعادون للسامية: وبالنسبة للإسرائيليين الفرنسيين، فإن الحرب معركة ضد البلد الـذي

ابتدع المعاداة الحديثة للسامية؛ وهم يرون أن النزعة الجرمانية ومعاداة السامية مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا فيما بينهما وسوف تهلكان معًا. أمّا اليهودية البريطانية، المرتبطة باليهودية الألمانية، عبر العديد من الصلات، فإنها تتعرض لضغط قوي: فتحوم الشبهات حول عدد معين من الشخصيات الأنجلو ــ ألمانية في المجال المالي[٦]. وعلى غرار فصيل من الأرستقراطية البريطانية يجد نفسه في الوضع نفسه ــ في المقام الأول العائلة المالكة، التي تهجر اسم هانوفر لتتبنى اسم وندسور ــ، فإن اليهود ذوي الأصل الألماني يعيدون صياغة أسمائهم صياغة إنجليزية. وهذا الاشتباه الذي ينذر بأن يتسع ليعم مجمل طائفتهم إنما يقودهم إلى المزايدة في التعبير الوطني والقومي. وفي لحظة يعد فيها التحالف مع روسيا حيويًا بالنسبة لكل من بلديهما، فرنسا وانجلترا، يضطر اليهود الفرنسيون والإنجليز إلى كتم انتقاداتهم للمعاداة الروسية للسامية.

وفي ألمانيا، يماهي الصهيونيون قضيتهم مماهاة عميقة بقضية إمبراطوريتي وسط أوروبا. وهم الأنشط بما لا يقارن وذلك لأن بوسعهم، في آن واحد، الهجوم على روسيا وأن يكونوا الأوصياء الفعليين على يهود فلسطين. وإذا كانت ألمانيا الإمبراطورية لاتعترف بإلغاء الامتيازات من جانب الدولة العثمانية، فإن ضرورات التحالف مع العثمانيين إنما تضطر ألمانيا إلى عدم الكلام كثيرًا عن هذا الموضوع. ومن غير الوارد بالنسبة لها أن تأخذ على عاتقها مهمة الرعاية الرسمية لليهود العثمانيين والتي كانت مهمة الفرنسيين. بيد أن الألمان أكثر حضورًا بكثير في فلسطين مما في الأناضول، حيث ستدور أحداث المأساة الأرمنية. ومنذ دخول العثمانيين الحرب، فإن من شأن الحماية الفعالة للييشوف، بالتعاون مع الولايات المتحدة، أن تكون ميزة سياسية لا سبيل إلى نكرانها. وهكذا يتم إعفاء كوادر المنظمة الصهيونية من الواجبات العسكرية، وذلك بقرار من السلطات الألمانية، التي تصرح أيضًا بأن تقيم على أراضيها شخصيات من الصهيونية الروسية كتشيلنوف وسوكولوف. ويتم الاضطلاع بعمل دعائي مباشر لدى الصهيونيين الأميركيين.

والحال أن ڤانجنهايم، السفير الألماني لدى القسطنطينية، إنما يتعاون تعاونًا وثيقًا مع الممثل الصهيوني في العاصمة العثمانية، ألاَ وهو ليختايم. وهو يطرح

نفسه بوصفه حامي يهود الدولة العثمانية. وعمله يتواصل مع عمل مورجنتاو، سفير الولايات المتحدة.

الصهيونية الأميركية وألمانيا وفلسطين

يعمل مورجنتاو بكفاءة منذ خريف عام ١٩١٤ سعيًا إلى السماح بوصول أموال أميركية خاصة موجهة إلى تقديم الغوث إلى يهود فلسطين الذين يواجهون أزمة مالية سافرة. وهذا يعني خرقًا للحصار الذي يفرضه الحلفاء. وبناءً على طلب من واشنطون، تقبل فرنسا وانجلترا تعليق الحصار كيما يتسنى لسفينة حربية أميركية تقديم الأموال والإمدادات إلى يافا لصالح **الييشوف** وحده. ومثل هذا الخرق للحصار لن يتم قبوله عندما يتعلق الأمر بتقديم الغوث إلى السكان اللبنانيين ضحايا المجاعة. ويشير عمل مورجنتاو إلى الأهمية التي تتخذها في نظر الأميركيين مسألةُ الصهيونية ويهود فلسطين، ويترجم موقف الحلفاء حرصهم على مراعاة اليهود الأميركيين. وتستخلص الأطراف المتحاربة من ذلك نتائجه السياسية.

والحال أن ظهور الصهيونيين الأميركيين هذا على المسرح السياسي سوف يكون له أثره الملحوظ على مسلسل الأحداث التالي. وقد وُجدت، منذ مستهل القرن، جماعات صهيونية أميركية تجند أنصارها من المهاجرين القادمين من روسيا خاصةً. وكان المقصود قبل كل شيء هو خلق مواقع للقاء، خلق شكل من أشكال الاختلاط الاجتماعي، لا بلورة عمل سياسي. وسوف تظل أهمية هذه الجماعات هامشية إلى اللحظة التي سوف تتحد فيها تحت قيادة شخصية استثنائية، لويس برانديز. وشأن جميع كبار وجهاء الطائفة، ينتمي براندايز[٧] إلى وسط العائلات القادمة من البلدان الجرمانية في القرن التاسع عشر. وكان جده الكبير وجده من الفرانكيين. أمَّا الجيل التالي فقد انتقل إلى اليهودية الليبرالية دون أن يفقد اتصاله بأوروبا. ومع أن لويس برانديز قد ولد في الولايات المتحدة، إلاّ أنه قد أجرى جانبًا من دراساته الثانوية في ألمانيا قبل أن يلتحق بكلية الحقوق في هارفارد في عام ١٨٧٥، في التاسعة عشرة من عمره. وهذا الطالب المتميز تميزًا خاصًا إنما يصبح قانونيًّا شهيرًا، إذ يجمع بين الأداء

العملي أمام المحاكم والتدريس في هارفارد. ويترافق نجاحه المهني مع عمل سياسي في اتجاه "النزعة التقدمية"، بما يجعل منه مناضلاً محبذًا للديموقراطي ويلسون خلال الانتخابات الرئاسية في عام ١٩١٢. وهو أحد محرري برنامجه السياسي.ويفكر ويلسون للحظة في تعيينه مدعيًا عامًا (وزيرًا للعدل)، بيد أنه يتخلى عن ذلك حيال معارضة المحيطين به (إذ يبدو برانديز تقدميًا أكثر من اللازم وانتماؤه إلى اليهودية عقبة). فيجعل الرئيس في البداية من هذا القانوني أحد مستشاريه الأكثر تمتعًا بالإصغاء إليهم. وفي عام ١٩١٦، سيقوم ويلسون بتعيين برانديز في المحكمة العليا (وهو أول يهودي يصعد إليها) وسوف يمارس برانديز تأثيرًا ملحوظًا على التطور القانوني للولايات المتحدة على مدار عدة عقود.

وهو منذ زمن بعيد لديه تعاطفات صهيونية، و، في صيف عام ١٩١٤، يدخل إلى حقل النشاط السياسي في هذا المجال. وفي ٣٠ أغسطس/ آب، ينظم اتحاد الصهيونيين الأميركيين (Federation of American Zionists, FAZ) مؤتمرًا استثنائيًا يجمع مجمل اتجاهات الحركة الصهيونية الأميركية. ويتم تأسيس لجنة تنفيذية مؤقتة للشئون الصهيونية العامة (Provisional Executive Committee for General Zionist Affairs, PZEC) يرأسها برانديز. وعلى الفور، يسعى إلى إقامة تعاون مع المنظمة الخيرية اليهودية القوية، المؤتمر اليهودي الأميركي American Jewish Congress (AJC، والذي يعد النظير الأميركي للتحالف الإسرائيلي العالمي)، الذي يقوده لويس مارشال. وهذا الأخير يمتنع عن ذلك في البداية.

والحال أن إرسال الأموال إلى فلسطين، وهو العمل الذي نظمه مورجنتاو، إنما تكفله تبرعات من جانب فاعلي خير إنساني أغنياء: چاكوب شيف، ناثان شتراوس واللجنة التنفيذية المؤقتة للشئون الصهيونية العامة. وتُراعى ضرورة جمع أموال أهم، سعيًا إلى تخفيف ألوان شقاء يهود البلدان المتحاربة. وبعد كثير من المساومات، فإن لجنة التوزيع المشتركة اليهودية الأميركية (American Jewish Joint Distribution Commitee)، المكلفة بتنسيق النشاطات الخارجية لمختلف الجماعات اليهودية، إنما يجري تشكيلها تحت القيادة الفعالة من جانب

فيليكس واربورج (زعيم الفرع الأميركي من عائلة واربورج).

والدور النشيط الذي تلعبه اللجنة التنفيذية المؤقتة للشئون الصهيونية العامة في جمع الأموال إنما يجعل منها منظمة مهمة، لها انغراسها في جميع الولايات المتحدة. وشخصية براندیز تسمح بتحقيق الاتحاد بين البورچوازية ذات الاستقرار الأسبق والمهاجرين الجدد. وتنتمي كوادر الحركة إلى المجموعة الأولى بالأحرى، بينما ينتمي المناضلون إلى المجموعة الثانية. وينخرط براندیز في مشروع مؤتمر يوحد مجمل اليهود الأميركيين ويهدف إلى وضع برنامج مشترك يستعيد تيمات الصهيونية. وتصبح المناقشات عنيفة و، كما في البلدان الأخرى، تتشكل كتلتان: كتلة الصهيونيين وكتلة غير الصهيونيين. وتعترض المنظمات غير الصهيونية على الجذرية القومية، بيد أنها تضطر إلى تقديم تنازلات كيما يتسنى لها الحفاظ على مرتكزاتها السياسية. وهكذا يضطر المؤتمر اليهودي الأميركي إلى خفض جناحيه في أواخر عام ١٩١٦. وتبدأ التحضيرات للمؤتمر في الشهور التالية (انتخاب المندوبين)، لكن دخول الولايات المتحدة الحرب يرجئ انعقاده إلى ما بعد الحرب.

وهذا النشاط الواسع يترك انطباعات قوية لدى المراقبين الأجانب المكلّفين بمتابعة تطور اليهودية الأميركية. وهكذا تصبح الصهيونية جد مؤثرة، برغم أنها تظل اتجاه أقلية في صفوف اليهود الأميركيين. والدول المتحاربة تدرك ذلك وتميل إلى اعتبار دور الصهيونيين في الحياة السياسية الأميركية كبيرًا.

وينجح السفيران الألماني والأميركي لدى القسطنطينية في التخفيف من حدة التدابير المتخذة من جانب العثمانيين ضد **الييشوف**. بيد أنهما لا يمكنهما مع ذلك منع طرد اليهود الأجانب ومختلف التدابير الصارمة. ويسمح عمل العثمانيين لأنصار الوفاق باستعادة نفوذهم لدى اليهود الأميركيين: فأجهزة الحلفاء تنشر الشائعة التي تتحدث عن وقوع مذابح لليهود في فلسطين من جانب الجرمانو ـ عثمانيين. وهؤلاء الأخيرون يكذّبون هذه الشائعة، بيد أنهم يضطرون إلى مراعاة الأهمية المعطاة **للييشوف** على المستوى الدولي. وفي هذا السياق، يتم التخلي عن مشروع ترحيل المسئولين اليهود إلى الأناضول، وهو المشروع الذي كان قد فكر فيه جمال باشا في وقت من الأوقات. وفي ٢٦

مارس/ آذار ١٩١٥، نجد أن روبّين يمكنه أن يعبر، محقًا، عن امتنان **الييشوف** للسفيرين اللذين أنقذاه من وضع لا يمكن التسامح معه[٨].

وهذان الأخيران لا يمكنهما قطع شوط أطول. فإذا كانا قد نجحا في تجنيب **الييشوف** عملاً حادًا من جانب السلطات العثمانية، فإنهما لا يمكن لهما الحصول على موافقة الباب العالي على تحويل المشروع الصهيوني إلى واقع ملموس، ذلك أن جماعة تركيا الفتاة تسعى تحديدًا في الحرب إلى إلغاء جميع أشكال الحكم الذاتي التي تضمنها الدول الأجنبية. ويقتصر عملهما على تقديم غوث مادي إلى يهود فلسطين، و، سياسيًا، على صون الوضع القائم. على أن بعض الدوائر السياسية الألمانية ترى في الهجرة اليهودية إلى الدولة العثمانية حلاً للمسألة اليهودية في أوروبا الشرقية التي تديرها ألمانيا الآن من الناحية الفعلية. وبعد أن فكر المسئولون الألمان في الحكم الذاتي للشعوب (وليس للأراضي) في داخل المناطق المنتزعة من الإمبراطورية الروسية - الأمر الذي من شأنه أن يعطي للأمة اليهودية مكانها - تحولوا إلى فكرة تكوين بولنده تحت نفوذ ألماني. وآخذين بعين الاعتبار معاداة البولنديين الصارخة للسامية، درسوا إمكانية ترحيل أقصى عدد ممكن من اليهود إلى فلسطين، حيث يمكن للمعيشة أن تكون أنسب لهم بكثير مما في بولنده مستقلة[٩].

والمنفيون اليهود من فلسطين الذين تجمعوا في مصر يناضلون بنشاط لصالح الوفاق. ويجري تدشين مشروع تكوين قوة مسلحة يهودية: فاشتراك اليهود في المعارك من شأنه أن يسمح لهم بكسب ود الحلفاء، بل بالمشاركة في التسوية الدبلوماسية النهائية التي ستتلو انتهاء الحرب. ويبدو الإنجليز متحفظين. وفي نهاية الأمر، يتم تجنيد كتيبة من قائدي البغال مهمتها نقل الذخيرة. وهذه الكتيبة التي يقودها ضباط بريطانيون وجوزيف ترمبلدور، البطل العسكري اليهودي الشهير في الحرب الروسية - اليابانية في عام ١٩٠٥، إنما تشارك في معركة الدردنيل. ومع أن جنودها الذين يبلغ عددهم ٦٥٠ رجلاً لا يتعرضون للنيران بشكل مباشر، إلاّ أنهم يتصرفون بشجاعة وكفاءة في ظروف خطرة خطورة خاصة. وبعد الجلاء عن شبه الجزيرة، يود البريطانيون إرسال الكتيبة إلى أيرلنده للمشاركة في قمع الانتفاضة التي نشبت للتوّ. بيد أن أفرادها

يرفضون ذلك، فتأمر السلطات بحل هذه الوحدة.

وچابوتينسكي هو الإيديولوچي الرئيسي لهذا المشروع الخاص بتكوين "فيلق يهودي". فهذا الرجل الذي أحبطته المقترحات البريطانية، يزور أوروبا والولايات المتحدة لكي يجند رجالاً من بين صفوف المهاجرين الجدد. وتيمته الدعائية هي: "لابد للدم اليهودي من أن يسيل في سبيل تحرير أرض إسرائيل"(١٠). وينضم إليه بنحاس روتنبرج، الاشتراكي الثوري الروسي ذي الأصل اليهودي.والحال أن هذا الأخير هو الذي كان قد كلف باغتيال الأب جابون، المسئول عن الأحد الدامي الروسي الشهير في عام ١٩٠٥. وتعترض المرجعيات الصهيونية على هذه الفكرة الخاصة بتكوين وحدة عسكرية يهودية لأنها تعتبرها خطرة: فهذه الوحدة العسكرية إنما تنطوي على خطر استتباع تدابير قمع سيكون ضحاياها يهود فلسطين الباقون تحت السيطرة العثمانية. وبالرغم من مواهب چابوتينسكي التنظيمية فإن مشروعه يمنى بالفشل: فيهود أوروبا وأميركا يرفضون القتال في سبيل المعسكر الذي توجد فيه روسيا، والتيارات الاشتراكية المختلفة غير الصهيونية تتهم چابوتينسكي بـ"النزعة العسكرية". وعندما يجري في عام ١٩١٦ فرض التجنيد على البريطانيين (إلى ذلك الحين كانت الجيوش تتألف من متطوعين)، تسعى الحكومة إلى مده ليشمل اليهود الروس المقيمين في الجزر البريطانية. ففي الأوساط الشعبية الإنجليزية، تعد العداوة قوية ضد هؤلاء السكان اليهود الذين لا يدفعون ضريبة الدم. ويبدو اليهود المهاجرون أكثر اهتمامًا بأفكار چابوتينسكي، إلاَّ أنه يتعين الانتظار إلى عام ١٩١٧ كيما يتسنى للمشروع أن يتجسد ضمن إطار تجنيد إجباري.

وفي الولايات المتحدة، نجد أن بن جوريون وبن زفي، المطرودين من فلسطين من جانب العثمانيين بسبب أفكارهما الاشتراكية، يقومان هما أيضًا بحملة، في الأوساط العمالية الصهيونية، من أجل تجنيد "جيش شغيلة"، بيد أنه إلى صف العثمانيين هذه المرة. فالواقع أنهما مقتنعان ببقاء السلطة العثمانية في الشرق الأدنى بعد الحرب ويأملان في أن الباب العالي، في مقابل مساعدة مهمة من جانب الصهيونيين، سوف يمنحهم حكمًا ذاتيًا محليًا في فلسطين مع حرية كاملة في الهجرة إليها. وآنذاك يرى بن جوريون أن الشيء الأكثر أهمية هو

كسب الأرض وليس تكوين دولة. وهو يرى أن هناك مجالا لعدة ملايين من السكان في فلسطين كبرى تمتد إلى شرق الأردن. ويرى أن المعارضة العربية إنما تنبع أساسًا من الأوساط الحضرية، المسيحية بشكل خاص (ومن هنا انزعاجه فيما يتعلق بسيطرة فرنسية على هذه المنطقة، من شأنها أن تعتمد على المسيحيين). وهو يرى أن الكتلة الكبرى من الفلاحين العرب، كما يثبت ذلك الفولكلور ــ خاصة الفولكلور الديني ــ وأسماء الأعلام وأصول أسماء الأماكن، إنما تنحدر من عبرانيي العصر القديم وسيكون بالإمكان استيعابها تدريجيًا في التوطين اليهودي[١١]. على أن محاولة التجنيد تمنى بالفشل.

والمساهمة المباشرة الأخرى لليهود في مجهود الحلفاء الحربي هي تكوين شبكة تجسس في **النيلي** لصالح البريطانيين. وهذا هو عمل المهندس الزراعي آرونسون، الذي يتمتع بحرية واسعة في الحركة، وذلك بفضل تعيين جمال باشا له كمفتش عام لعمليات مكافحة الجراد في سوريا. ويجري عقد الاتصال مع بريطانيي القاهرة، وتلقى الشبكة تقديرًا عظيمًا من جانب مصلحة الاستخبارات في مصر، والتي سوف تصبح فيما بعد المكتب العربي. وتمر الاتصالات عبر الطريق البحري، وذلك، بين سبل أخرى، عن طريق استخدام السفن الحربية الفرنسية المكلفة بحصار السواحل[١٢] (ومصلحة الاستخبارات التابعة لسلاح البحرية في المشرق الفرنسي ربما كانت تشكل، بفضل اتصالاتها البحرية، أهم أجهزة الحلفاء الاستخبارية العاملة خلف الخطوط العثمانية). وسوف تعمل مجموعة أرونسون من يونيو/ حزيران ١٩١٥ إلى نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧ قبل أن يتمكن العثمانيون من كشفها والقضاء عليها في ظروف مثيرة. وسوف يجد آرونسون الوقت الكافي لكي يهرب وسيعمل كوكيل دعاية[١٣] لصالح البريطانيين مع تعميمه للأفكار الصهيونية في الدوائر الحاكمة.

إدراك الحلفاء للعامل اليهودي

المسار التاريخي المعقد الذي يقود إلى تصريح بلفور لا يمكن فهمه، على مايبدو، إلاّ عبر الإدراك التدريجي من جانب القادة الفرنسيين والبريطانيين لوجود عامل يهودي في تطور الأحداث، من شأنه أن يؤدي إلى تحول جذري

لعلاقات القوى. ويكمن التفسير الرئيسي في حضور الأفكار المعادية للسامية والتي ضخمت من دور القطبين المتعارضين اللذين رأت أنهما يتمثلان في اليهودية الأميركية (من حيث كونها رأسمالية وبلوتوقراطية) واليهودية الروسية (من حيث كونها قوة ثورية هدّامة). وإلى هذين العاملين التفسيريين المركبين تضاف المماهاة – التي كانت ما تزال قوية لدى الديبلوماسيين الفرنسيين والبريطانيين – بين الصهيونية والنزعة الجرمانية ووجود نزعة إنجيلية في البروتستانتية الأنجلو – ساكسونية يمكن أن تفضي إلى تحقيق النبوءات. وسوف تقدم ويلسونية ١٩١٧–١٩١٨ إلى كل ذلك الصبغة الإضافية لـ"ربيع شعوب" شرقية يشهد النهضة المتناغمة للعرب والأرمن واليهود والأكراد على أنقاض الدولة العثمانية وفي مراعاة للمصالح الأساسية للدولة البريطانية. وبشكل استرجاعي، بالنسبة للمؤرخ، يمكن لكل هذا أن يأخذ ملمحًا واضحًا ومنظمًا، بيد أن عليه ألاَّ يهمل جسامة التعرجات التي سبقت اتخاذ القرار السياسي، وخاصة العدد الكبير لأخطاء التقدير ولإساءات الفهم والتي تشكل جوهر الفعل، خاصة في مجال العلاقات الدولية.

وفي ٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٤، لحظة دخول الدولة العثمانية الحرب، أدلى اسكويث، رئيس الوزراء البريطاني، بخطاب يعلن نهاية العثمانيين: "إن الحكومة العثمانية، لا نحن، هي التي قرعت جرس انتهاء السيطرة العثمانية، ليس فقط في أوروبا، وإنما أيضًا في آسيا". ولم يكن ذلك الكلام في تلك اللحظة غير مجرد بيان بلاغي، لأن الحكومة لم تكن قد اتخذت بعدُ أي قرار حول مصير المنطقة – سوف يتعين لأجل ذلك انتظار لجنة بانسن ومعارك الدردنيل. على أن مثل هذا الإعلان إنما يدفع زانجويل وڤايتسمان، كلاً من جانبه، إلى المطالبة بتكوين فلسطين بريطانية مفتوحة لليهود. لكنهما لم يجدا أصداء مهمة لمطالبتهما في الدوائر الحاكمة في لندن.

وجاذبية المشروع الصهيوني الضعيفة في بداية الحرب تجد نفسها من جديد في ردود الفعل التي يستثيرها برنامج هربرت صمويل. فهذا السياسي المهم في حزب الأحرار، وهو أول يهودي غير متنصر يصعد إلى منصب وزاري في بريطانيا العظمى، إنما ينتمي إلى عائلة مونتاجو – صمويل المهمة[١٤]. وإلى ما

قبل الدخول في الحرب، نجهل الاهتمام الذي كان يوليه لتوطين اليهود في فلسطين. وهو يلتقي عندئذ بڤايتسمان وسوكولوف وتشيلنوف ويتحدث مع زملائه في الحكومة، خاصة لويد چورچ وجراي، عن الفائدة التي يمكن لبريطانيا العظمى استخلاصها من إقامة دولة يهودية في فلسطين. ونتيجة لذلك، يجري، في مستهل عام ١٩١٥، تسليم مذكرة إلى الحكومة حول "مستقبل فلسطين". ويتحدث صمويل عن الأهمية التي تمثلها عودة ملايين يهود العالم الاثنتي عشرة إلى أرضهم التاريخية. وهو مدرك للأهمية العددية للأغلبية العربية: ومن ثم فمن غير الوارد الشروع فورًا بإنشاء دولة يهودية، فهذا قد يستغرق قرونًا أيضًا. ويتألف الحل من ضم فلسطين إلى بريطانيا العظمى، التي ستسمح بهجرة وباستيطان يهوديين منظَّمين في أناة إلى أن يفضي ذلك إلى تكوين أغلبية يهودية، وهي أغلبية سيكون بوسعها آنذاك التمتع بالحكم الذاتي. ومن شأن هذه السياسة أن تخدم المصالح الاستراتيجية لبريطانيا العظمى وأن تتماشى مع الاتجاهات العميقة للبروتستانتية بشأن عودة اليهود إلى فلسطين وأن تكون تجليًا جديدًا للدعم الذي قدمه البريطانيون للجماعات القومية التي ترزح تحت ضروب من المعاناة (تجري الإشارة إلى اليونانيين والإيطاليين كمثال على ذلك). والنتيجة المنطقية هي رفض تدويل فلسطين، الذي هو مصدر لدسائس سياسية مستديمة، أو ضمها إلى فرنسا (التي ستكتفي ببقية سوريا) أو إلى مصر. وحتى عندما لا يكون بوسع فلسطين استقبال الملايين من يهود أوروبا الشرقية، فإن الارتقاء بالشخصية اليهودية عبر العمل الاستيطاني سوف يضع نهاية للتداعيات الدنيئة التي تخطر بالبال عندما يدور الحديث عن اليهود.

واقتناع اسكويث بهذه الحجج ضعيف: فهو يشير، خلال اجتماع في ٩ مارس/ آذار ١٩١٥، إلى رفض لويد چورچ قيام الملحدين الفرنسيين بالاستيلاء على الأماكن المقدسة المسيحية وإلى الطابع محدود الجاذبية لمقترحات صمويل. وفي مايو/ أيار ١٩١٥، يجري استبعاد صمويل من الحكومة خلال تعديل وزاري، و، خلال المناقشات حول مستقبل الشرق الأدنى في عام ١٩١٥، لا يتحدث المسئولون البريطانيون عن العامل الصهيوني.

وما يشغل بال الحلفاء هو نتائج السياسة الروسية. وفي هذا المجال، يلعب

لوسيان وولف دورًا رئيسيًا[١٥]. فهذا الصحافي واسع النفوذ، والمتخصص في المسائل الدبلوماسية، إنما يتمتع بشبكة علاقات مهمة في وزارة الخارجية، وهو، بشكل مواز، محرك للجنة الخارجية المشتركة لليهود البريطانيين (Conjoint Foreign Committee of British Jews)، وهي منظمة مشتركة لهيئة نواب اليهود البريطانيين (Board of Deputies of British Jews) (تأسست في عام ١٧٦٠)، والمكلفة بتمثيل الطائفة اليهودية البريطانية لدى الحكومة، كما أنه محرك الجمعية الأنجلو - يهودية (التي تأسست في عام ١٨٧١)، والتي تعد النظير البريطاني للتحالف الإسرائيلي العالمي. والحال أن اللجنة المشتركة، التي تأسست في عام ١٨٧٨ بمناسبة مؤتمر برلين، إنما تتمثل مهمتها في القيام بعمل دبلوماسي لصالح اليهود المضطهَدين في العالم.

ومنذ بداية الحرب، تقيم اللجنة المشتركة تنسيقًا وثيقًا مع التحالف الإسرائيلي العالمي، بالرغم من أن المنظمتين تراعيان المصالح المتباينة لفرنسا ولبريطانيا العظمى في بعض أجزاء العالم، خاصة في الشرق الأدنى، وبالرغم من استعدادهما للامتثال للقرارات التي تتخذها حكومتاهما. والحال أن رئيس التحالف الإسرائيلي العالمي، چاك بيجار، وصديقه سيلڤان ليڤي، وهو متخصص شهير في الدراسات الهندية، إنما يعدان من المقربين لإدمون دو روتشايلد، وهما يسعيان إلى مناغمة المصالح اليهودية مع مصالح فرنسا وذلك عبر مراعاة أهمية انحياز هذا البلد إلى صف كاثوليك المشرق. وكانت قد أجريت اتصالات مع مجموعة "القوميين السوريين" في باريس: مجموعة مؤثرة من المنفيين السوريين، معظمهم من المسيحيين، كانوا يدعون إلى تكوين سوريا كبرى تحت حماية فرنسية. بل إن إدمون دو روتشايلد قد فكر في تمويل المشروع[١٦].

والتفاقم المثير لوضع يهود روسيا يدفع المنظمتين إلى التدخل لدى السلطات الفرنسية والبريطانية. ولا يجري الإصغاء إليهما، اعتمادًا على التقارير المهدِّئة التي ترسلها البعثات الدبلوماسية والعسكرية الفرنسية والبريطانية في روسيا والتي تنفي وجود اضطهادات وتتهم يهود روسيا بخدمة القضية الألمانية عن طريق التجسس والتخريب. وكان للأمور أن تتوقف عند هذا الحد لولا وجود العامل الأميركي.

والحال أن البعثتين الدبلوماسيتين الفرنسية والبريطانية لدى الولايات المتحدة إنما تقدمان بصورة منتظمة معلومات مزعجة عن ميول اليهود الأميركيين المؤيدة للألمان. ويسعى وولف إلى اغتنام فرصة هذا الوضع بالتشديد على واقع أن تحسين حالة يهود روسيا هو الشرط الذي لا غنى عنه لإدراج أقوى للأميركيين في الحرب. فتضطر الحكومتان إلى التشديد في هذا الاتجاه لدى سلطات بتروجراد وإلى تذكيرها بأن القروض الائتمانية المالية الخارجية لروسيا تعتمد اعتمادًا وثيقًا على رأس المال المصرفي اليهودي الدولي. والممولون اليهود الأميركيون كچاكوب شيف يحظرون على فرنسا وعلى بريطانيا العظمى إفادة الإمبراطورية الروسية ولو بدولار واحد من الأموال التي تطلبان الحصول عليها من الولايات المتحدة. وترد الحكومة القيصرية بمعسول الكلام، بيد أنها لا تغير البتة مسلكها، بالرغم من أن مسألة تحرير اليهود تصبح رهانًا رئيسيًّا في السياسة الروسية: فالليبراليون (خاصة الحزب الدستوري ـ الديموقراطي) [الكاديت] يجعلون من أنفسهم أنصارًا لهذا التحرير(١٧).

وتقرر الدبلوماسية الفرنسية مواجهة العمل الألماني في الولايات المتحدة بإرسال رجال دعاية إلى الساحة. وأولهم ناحوم سلوش، وهو متخصص في اليهودية السيفاردية كان قد تعاون مع مجلة **ريڤي دي موند ميزيلما** وكان ليوتي قد استخدمه في إعادة تنظيم الطوائف اليهودية في المغرب الأقصى(١٨). وناحوم سلوش نصير نشيط للصهيونية. وهو يصل إلى الولايات المتحدة في مستهل خريف عام ١٩١٥.

وفي تقريره عن بعثته(١٩)، والمؤرَّخ في ٢٢ مارس/ آذار ١٩١٦، يشدّدُ على نجاح الولع بألمانيا بين اليهود الأميركيين ويتباهى بأنه قد قام بعمل فعال لمواجهة هذا الولع. وهو يطور الفكرة التي تذهب إلى أن المطلبين الرئيسيين في هذه الأوساط هما:

١. الاعتراف بالمساواة لليهود في روسيا وفي رومانيا وفي الشرق. وجميع الطبقات اليهودية متفقة على هذه النقطة.

٢. الاعتراف للشعب اليهودي بحقوق تاريخية في فلسطين. فهذا المطلب الأخير الذي لم يكن يعترف به إلى الآن غير الصهيونيين قد أصبح اليوم مطلب غالبية يهود أميركا. ولا يعارضه غير الاشتراكيين الأمميين (الذين تتلقى صحيفتهم ڤورڤارتس من جهة أخرى شعارات من برلين) وبعض رجال المال. والحال أنني يخامرني الاقتناع بأن هؤلاء الأخيرين سوف ينتهون إلى التراجع عن موقفهم بشأن هذه النقطة، وذلك خوفًا من المخاطرة بفقدان المساندة من جانب العديدين من الناخبين اليهود الذين يؤيدون العمل الرامي إلى خلق مستعمرة استيطانية يهودية في فلسطين.

وهو يطور خطة كاملة للاستيطان اليهودي لفلسطين ويؤكد أن تعيين برانديز في المحكمة العليا هو الدليل على النفوذ الذي كسبته الجماهير اليهودية في السياسة الأميركية.

وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٥، تنشئ الكيه دورسيه اللجنة الفرنسية للإعلام وللعمل بين يهود البلدان المحايدة، والتي يرأسها جورج ليج، وهو عضو مهم في لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب. وهذه اللجنة إنما تعد إلى هذا الحد أو ذاك كيانًا منبثقًا عن التحالف الإسرائيلي العالمي.

والمبعوث الفرنسي الثاني، في يناير/ كانون الثاني ١٩١٦، هو ڤيكتور باش، وهو مناضل من أهم مناضلي الدريفوسية خلال محاكمة ران وأحد الشخصيات الرئيسية في عصبة حقوق الإنسان التي سوف يصبح رئيسًا لها بعد الحرب[٢٠]. وهذا الرجل المتعاطف مع الصهيونية صديق لماكس نوردو دون أن يكون قد ناضل لصالح هذه الحركة. وهو مكلف من الناحية الرسمية بجولة محاضرات. أمّا مهمته الحقيقية فهي القيام بالدعاية في صفوف اليهود الأميركيين بالتشديد على جسامة المعاداة الألمانية للسامية. ومن المصرَّح له بأن يقول في جلساته ولقاءاته المغلقة بأن فرنسا وبريطانيا العظمى لن تنسيا حماية المستوطنات اليهودية في فلسطين كما لن تنسيا توسيع وحرية هذه المستوطنات.

وهو، في جميع لقاءاته، يلمس العداوة التي تواجهها قضية الحلفاء بسبب بقاء، بل واحتداد، معاداة الدولة الروسية للسامية. ويُجري مفاوضات حقيقية مع رجل البنوك صاحب النفوذ جاكوب شيف ومع لويس برانديز: أن تتولى فرنسا

وانجلترا قضية اليهود في فلسطين وأن تكفلا لهم حرية ممارسة ديانتهم ولغتهم وعاداتهم، وأن تقدم روسيا بادرة حسن نية تجاه يهودها، على أن يقدم اليهود الأميركيون دعمهم إلى الحلفاء.

وإذ يعلم وولف عن طريق التحالف الإسرائيلي العالمي بهاتين البعثتين فإنه يغتنم فرصتهما لكي يعاود تحركاته لدى وزارة الخارجية البريطانية. وهو يشدِّدُ على أهمية اليهود الأميركيين ويقترح اتخاذ بلاده موقع قوة بضم فلسطين (هذا الرجل الذي يجري اتهامه بالولع بألمانيا يثبت بذلك وطنيته) التي يطمع فيها الفرنسيون. ومع أن هذا ثانوي في منظوراته (فهو يعطي الأولوية لمصير يهود روسيا)، إلاّ أنه يشير إلى أن فرنسا بسبيلها إلى كسب موقع قوة في المسألة بفضل عملها في صفوف اليهود الأميركيين. وفي مارس/ آذار ١٩١٦، يقترح إرسال صيغة تصريح من جانب الحلفاء إلى باريس. ولدهشته، فإن هذه الصيغة إنما يرفضها الفرنسيون[٢١]، على الأرجح لأن جراي قد أضاف إلى برنامج الحد الأدنى المقبول من اليهود غير الصهيونيين، والذين يعد وولف المتحدث بلسانهم، مشروع السير هربرت صمويل[٢٢].

بموجب مذكرة بتاريخ ١٢ مارس/ آذار، تود سفارة صاحب الجلالة ملك بريطانيا إطلاع وزارة الشئون الخارجية على اقتراح جرى تقديمه إلى السير إدوارد جراي، يتعلق بإمكانية ترتيب يتصل بفلسطين، سعيًا إلى التلبية الكاملة لتطلعات اليهود. ويرى ملهمو هذا المشروع أن تحقيقه، بالرغم من اللامبالاة التي يبديها عدد ملحوظ من الإسرائيليين حيال الصهيونية، سوف يجري النظر فيه بتأييد كبير من جانب جزء ملحوظ وقوي من الطائفة اليهودية، كما أن طابعه من شأنه أن يعود على الحلفاء بتعاطفات من جانب يهود أميركا والشرق وأقطار أخرى، والذين كسبتهم الآن الدولتان الجرمانيتان في غالبيتهم العظمى.

فقد قَدَّم السيد لوسيان وولف إلى السير إدوارد جراي العرض التالي للتطلعات اليهودية فيما يتعلق بفلسطين:

إن بريطانيا العظمى وفرنسا، في الحالة التي تصبح فيها فلسطين، على أثر الحرب، مندرجة ضمن مجال نفوذهما، سوف يتعين عليهما مراعاة المصالح التاريخية للطائفة اليهودية في ذلك البلد.

ويتوجب أن يكون مكفولاً للسكان اليهود التمتع بحقوق سياسية مساوية لحقوق بقية السكان، والتمتع بالحرية المدنية والدينية وبامتيازات بلدية رئيسية في المدن والأماكن الأخرى المأهولة باليهود، إلى جانب التمتع بتسهيلات معقولة في مجال الاستيطان والهجرة.

وفي هذا الصدد، يعبر السير إداورد جراي عن الرأي الذي يذهب إلى أن هذا المشروع يمكن أن يكون له أثره السعيد على غالبية اليهود إذا ما تسنى لهم أن يتوقعوا أنه، عندما يصبح مستوطنوهم أقوياء بما يكفي في فلسطين لأن يكونوا موضع حسبان على قدم المساواة مع السكان العرب، سيكون بوسعهم أن يتولوا الإدارة اللاحقة للمنطقة، إلاّ فيما يتعلق بالقدس والأماكن المقدسة. وسكرتير الدولة الأول للشئون الخارجية مستعد لأن ينظر نظرة إيجابية إلى حل للمشكلة، مع أن لديه مبررات للاعتقاد بأن من شأن حماية دولية أن تلقى معارضة من جانب قسم مؤثر من الرأي العام الإسرائيلي. وهدفه الوحيد هو اكتشاف حل يسمح بالتوصل إلى ترتيب يرضي غالبية اليهود ويكفل بذلك للحلفاء دعم الطائفة اليهودية.

إن رئيس المجلس، وزير الشئون الخارجية، قد وقف باهتمام على هذا الإخطار الذي يقدر أهميته. على أن هناك مجالاً للتساؤل عما إذا كان المشروع الذي عرضه السيد لوسيان وولف سيكون له بالفعل على مشاعر الطائفة اليهودية الأثر المتوقع، وذلك بالنظر إلى واقع أن موقف أطراف هذه الطائفة المعادين للحلفاء نابع من دوافع لا يجمعها شيء بالتطلعات الصهيونية وإلى أن تحقيق هذه التطلعات لن يؤدي إلى تبديد هذه الدوافع.

ولا يتصل الرفض الفرنسي بالجوهر بقدر ما يتصل بالشكل. وتشتبه باريس بوجود مخططات خفية لبريطانيا بشأن فلسطين وتستخدم العامل اليهودي في المرحلة النهائية من مفاوضات سايكس ــ بيكو. كما تستفيد الدبلوماسية الفرنسية من موقع القوة نفسه كما في المسألة العربية: فالإنجليز يبدون طارحي دعاوى، ومحاوروهم يطيلون أمد المفاوضات سعيًا إلى الحصول على الحد الأقصى من التنازلات.

وواقع أن فرنسا بعيدة عن إهمال المسألة اليهودية إنما يجد برهانًا واضحًا عليه في المفاوضات التي أجراها سايكس وبيكو في روسيا. وفي بتروجراد، نجد أن سايكس يرد بحيويته الفكرية المعهودة على المشروع الذي طرحه

وولف، وهو رجل يعتبره سايكس صهيونيًا. وفي ذلك الوقت كان سايكس ما يزال بعيدًا عن أن يكون قد تحول إلى الصهيونية وهو بالأحرى مدفوع بضرورة مراعاة قوة اليهود الخفية في العالم: فيقترح تكوين شركة ناشئة بامتياز من أجل تسهيل الاستيطان اليهودي لفلسطين. وإذا ما أمكن بذلك إرضاء الصهيونيين، فسوف يبذلون كل ما في وسعهم لتسهيل انتصار الحلفاء، الأمر الذي يعني تسكينًا للمطالب اليهودية في روسيا، والتشاؤم في ألمانيا، وزخمًا جديدًا في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، والحماسة في الولايات المتحدة. وبالمقابل، في حالة عدم عمل شيء، فسوف يحدث صدام مع "جموع اليهود الكبرى" (*Great Jewry*)[٢٣]. وتطلب إليه لندن أن يحتفظ بآرائه لنفسه، بيد أنه يبلغها لبيكو، موضحًا أن بريطانيا لا تريد فلسطين لنفسها.

ونظيره الفرنسي يناقش المسألة بشكل مباشر مع المسئولين الروس. وعلاوة على الموافقة على مشروع سايكس ــ بيكو، يجري عقد مذكرةٍ مساعدةٍ في ١٧ مارس/ آذار ١٩١٦ لتحديد تفاصيل عمل فرنسا وروسيا في مناطق نفوذ كل واحدة منهما[٢٤]:

> ٣. فيما يتعلق بفلسطين، سوف **تتمسك** الحكومة الروسية **بكل** مشروع يكفل طابعه لجميع المنشآت الأرثوذكسية الموجودة في الأرض المقدسة الممارسة الحرة لعبادتها وكذلك الحفاظ على الحقوق والامتيازات المكتَسَبة، ولن تثير أي اعتراض مبدئي على دخول مستوطنين إسرائيليين إلى البلد.

وتعليق الدبلوماسية الفرنسية على مغزى هذه الفقرة واضح:

> الكلمات المشدَّدُ عليها في هذا النص يجب أن تفهم على أن روسيا، شريطة احتفاظ المنشآت الأرثوذكسية في الأرض المقدسة بحقوقها وامتيازاتها، سوف تقبل **كل** مشروع لتنظيم فلسطين يناسب فرنسا.

وهكذا، فإذا كانت الصهيونية غائبة تمامًا عن مراسلات حسين ــ ماكماهون، فإنها تظهر في هوامش مفاوضات سايكس ــ بيكو، و، في ذلك الوقت، تبدو بالأحرى كورقة في اللعبة الدبلوماسية الفرنسية.

دخول الصهيونية المسرح: ڤايتسمان

الدور الذي لعبه حاييم ڤايتسمان في تاريخ الصهيونية، عمومًا، وفي منشأ تصريح بلفور، خصوصًا، يطرح مرة أخرى مسألة العلاقة بين البطل والتاريخ[٢٥]. والكتابة التاريخية الغزيرة المكرَّسَة لڤايتسمان تميل إلى أن تجعل منه مركز الأحداث: فهي تذهب إلى أن التوصل إلى التصريح الشهير إنما يرجع الفضل فيه إلى مواهبه السياسية الاستثنائية، وتذهب إلى أن مواهبه في الإقناع هي التي انتزعت من المسئولين البريطانيين هذا الاعتراف المنشود بأعلى درجات التوق. كما تذهب إلى أنه ما كان يمكن لشيء أن يحدث لولا ڤايتسمان. ومنذ بضع سنوات، تميل رؤية تصحيحية إلى اختزال دوره، وتشدِّدُ على اضطرار البريطانيين إلى اللجوء إلى الصهيونية سعيًا إلى إضعاف المواقع الفرنسية في فلسطين وإلى التأثير على اليهود الأميركيين والروس. ووفقًا لهذه الرؤية فإن طارحي الدعوى لم يكونوا ڤايتسمان والحركة الصهيونية وإنما الدوائر الحاكمة البريطانية.

وفي عام ١٩١٤، كان ڤايتسمان بالفعل شخصية مهمة في الحركة الصهيونية. وهو يتمركز في قيادة المنظمة الصهيونية كما أنه نائب رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني. وقد حصل على الجنسية البريطانية وأصبح عالم كيمياء شهيرًا يقيم في مانشستر. وخبرته السياسية عظيمة بالفعل: فلاعتياده منذ شبابه الكفاحي على صراع الاتجاهات والأجهزة المميز للحركات السياسية الحديثة، أصبح مناورًا ذكيًّا في النزاعات الداخلية للصهيونية؛ وإذ يتخذ مظهر "الصهيوني التركيبي"، فإنه يحتل موقعًا وسطيًّا يسمح له بالاستناد إلى التيارات الإيديولوچية والبرنامجية الكبرى في الصهيونية: وبشكل قصدي، يضع نفسه تحت رعاية أحاد هاعام الفكرية مع تصوره لوجود يهودي في فلسطين يكون أكثر أهمية بكثير من مجرد مركز روحي، وهو يجعل من نفسه المدافع عن الإنجازات العملية في فلسطين. ومع عدم تردده في الهجوم الكلامي على الأوليجاركية اليهودية ونزعتها الخيرية الإنسانية، كان قد أدرك منذ وقت بعيد ضرورة التصالح مع أولئك الذين كانوا خصومًا لهرتسل، وفي المقام الأول بينهم إدمون دو روتشايلد؛ وبعيدًا عن أن يرفض الصهيونية السياسية، فإنه

يستعيد تراثها ويجعل من نفسه مواصلاً حازمًا لها في عقد علاقات سياسية مع الشخصيات الأوسع نفوذًا في العالم السياسي الغربي. وأخيرًا، فـإن شخـصيته المزدوجة كيهودي من شرقي أوروبا صار جامعيًّا بريطانيًّا شهيرًا إنما تجعـل منه همزة الوصل بين عالمي اليهوديـة الأوروبيـة. وفـي نظـر محاوريـه البريطانيين، الذين يترك في نفوسهم انطباعًا عظيمًا، فإنه يبدو فـي آن واحـد غرائبيًّا بما يكفي وإنجليزيًّا بصورة عميقة.

وحدسه السياسي الرئيسي، في أواخر عام ١٩١٤ ــ وسيكون هذا الحـدس هو محرك نجاحه ــ إنما يتمثل في جعل المطالب الصهيونية أداة تخضع تمامًا وبشكل حصري لخدمة متطلبات الوضع البريطاني في العالم. وإذ يكبت جميـع التنافرات الممكنة، يعرض بذلك على الدوائر الحاكمة في لندن إمكانيـة عمـل براجماتي ومفيد يسير في اتجاه قضية نبيلة. وهكذا تصبح قدرته على الإقنـاع ملحوظة: إشباع السير في اتجاه المصالح البريطانية وإشباع دعم لمشروع قومي وإحياء مستديم للبصمة التوراتية القوية على ثقافة بريطانيا العظمى بعد العصر الڤيكتوري.

وهذا الخيار الاستراتيجي يعني الشروع فورًا، ودون اضـطراب نفـسي، بوضع الصهيونية في خدمة لندن. ومنذ خريف عام ١٩١٤، تحـدث القطيعـة الفعلية مع القيادة الصهيونية الموجودة في كوبنهاجن وبرلين. وهو يلقى دعمًـا كتومًا من جانب أحاد هاعام، ويتعزز موقعه بوصول سوكولوف إلى لندن فـي أواخر عام ١٩١٤. وبالرغم من أن هذا الأخير قد يشكل منافسًا محتملاً له فـي اللعبة الدبلوماسية، إلاّ أنه إنما يوفر له شرعية قوية صادرة من يهود روسيا.

وخلال الشهور الأولى للحرب، يكثف ڤايتسمان اتصالاته السياسية. وهـو يلتقي زانجويل و وولف دون أن ينجح في إقناعهما بـصواب آرائـه. وفـي ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٤، يتمكن من الفوز بلقاء مع بلفور، رئيس الوزراء المحافظ السابق، والذي كان قد دخل للتوّ وزارة أسكويث للحرب. وينقل إليـه بلفور آراءه حول المسألة اليهودية: وكان قد ناقشها مع كوزيما ڤاجنر وهو متفق معها حول معظم آرائها المعادية للسامية. ويرد عليه ڤايتسمان بأنه يوافق على آراء المعادين الثقافيين للسامية، بيد أنه يرفض تشخيصها وتنبؤاتها(٢٦):

سأذهب إلى حد القول بأن بوسعي أن أكون على اتفاق معها [أي مع كوزيما ڤاجنر] فيما يتعلق بالحقائق الواقعية، بيد أنني على خلاف كامل مع الاستنتاجات التي تستخلصها من هذه الحقائق الواقعية. إن النقطة الرئيسية التي أهملها معظم غير اليهود والتي شكلت أساس المأساة اليهودية هي أن أولئك اليهود الذين يهبون كل طاقتهم وكل ذكائهم للألمان إنما يفعلون ذلك بوصفهم ألمانًا، يحققون الثراء لألمانيا وليس لليهودية التي يتخلون عنها. ولا وجود هناك لأي اتصال، أيًّا كان، بين الأرستقراطيين اليهود في ألمانيا والشعب اليهودي. ويضطر هذا الشعب إلى التستر على يهوديته كيما يتسنى السماح له بوضع ذكائه وقدراته في خدمة الألمان. فهو منخرط في الشموخ الألماني إلى حد بعيد. والمأساة في هذا كله هي أنه بينما لانعتبرهم نحن يهودًا، نجد أن السيدة ڤاجنر لا تعتبرهم ألمانًا؛ و، بحكم هذا الواقع، نظل الشعب الأكثر تعرضًا للاستغلال والأكثر تعرضًا لعدم فهمه بين جميع الشعوب.

وقد صُدِمَ السيد بلفور بهذا الرأي وتساءل كيف سيكون بوسعي حل هذه المشكلة. فحاولت أن أشرح له كيف أن من شأن فلسطين وتكوين أمة يهودية من الداخل بإمكاناتها الخاصة وبتقاليدها الخاصة إيجاد وضعية لليهود وخلق شخصية يهودية مائة بالمائة. وقد بينت هذا الكلام بنشاطاتنا الاستيطانية وعملنا التعليمي التربوي وقدمت له عرضًا موجزًا للمعركة التي دارت العام الماضي من أجل اللغة العبرية. وأشرت إلى أنني لا أشير إلى هذه المسألة لأن الأمر يتعلق باللغة الألمانية التي كافحناها؛ فقد كان من الوارد أن نناضل بالشكل نفسه تمامًا ضد اللغة الإنجليزية إذا كانت الظروف مماثلة؛ والواقع أننا لم نكافح ضد لغة ما إيًّا كانت، وإنما كافحنا من أجل اللغة العبرية. وقد تفهم تمامًا هذا الموقف ووافق عليه بشكل كامل. ثم انتقلت المحادثة إلى وضع اليهود في روسيا وإلى موقف من يسمون بالقادة اليهود كالسيد كلود مونتفيوري واللورد روتشايلد؛ فأعرب عن استغرابه من الفارق بين الآراء التي طورها هؤلاء اليهود والآراء التي نطرحها نحن. وقال إنه يأسف لأنه لم يعرف غير نموذج واحد لليهود. كما قال إن كثيرًا مما بدا له قبل ثمانية أعوام خلت على أنه حلم غائم إنما يبدو الآن أكثر واقعية. وفي النهاية، سألني ما إذا كنت أريد شيئًا ملموسًا. فأجبته بالنفي، مشدِّدًا على واقع أنه لا يمكن عمل شيء ما دامت المدافع تدوي. وعندما يصبح الوضع العسكري أكثر وضوحًا، سأعود إلى لقائه إذا ما سمح بذلك. فقال: "ليكن معلومًا لديك أنك ستعود، فهذه قضية عظيمة تعمل في سبيلها؛ إنني

مهتم عميق الاهتمام بأن تعاود زيارتي بصورة منتظمة، كما أن هذا يروق لي"(٢٧).

وهناك علاقة أخرى ثمينة بالنسبة للمستقبل هي تلك المعقودة مع جيمس دو روتشايلد، أحد أبناء إدمون. فهذا الرجل الشاب الذي يبلغ السادسة والثلاثين من عمره كان قد واصل رسالة أبيه لصالح يهود فلسطين. وكان قد تزوج من إنجليزية، هي دوروثي بنتو. وهما يُدخلان ڤايتسمان إلى مجتمع علية القوم اليهود، خاصة الفرع الإنجليزي لآل روتشايلد. وإذا كان ناثانيال مائير، اللورد روتشايلد الأول، قد اتخذ موقفًا متحفظًا حيال الصهيونية، فإن أبنائه أقل تحفظًا. وليونيل والتر، الذي يصبح اللورد الثاني في عام ١٩١٥، يصبح نصيرًا ثابتًا لڤايتسمان.

وفي ٢٨ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٤، يلتقي ڤايتسمان إدمون دو روتشايلد ويعرض عليه تحركاته. ويجيبه هذا الأخير بأن

المسألة برمتها نشأت بالنسبة لنا على نحو أسبق بزمن يتراوح بين خمس وعشر سنوات. وعندما أنشأت مستوطناتي في فلسطين، كنت أرنو إلى الوقت الذي سيصبح فيه مصير فلسطين مطروحًا، وسيضطر العالم فيه عندئذ إلى أخذ وجود اليهود بالحسبان. وقد فعلنا الكثير في هذه السنوات العشر، الخمس عشرة الأخيرة؛ وسيكون علينا عمل المزيد في السنوات القادمة. وقد فاجأتنا الأزمة الأخيرة في معمعان النشاط، ويجب أن نكون مدركين لذلك. وسوف يتعين علينا الآن اغتنام فرصة من الأرجح أنها لن تتكرر بعدُ أبدًا. وقد لَفَتَ انتباهي إلى المخاطر التي يطرحها الموقف الحالي. فهذه المخاطر قد تصدر أولاً عن الكاثوليك الذين سيفعلون كل ما في طاقتهم لمنع استقرار اليهود في فلسطين. وهذا الخطر يعد أكثر جدية وذلك بقدر ما أن موجة نزعة كاثوليكية تجتاح الآن فرنسا. وقد يصدر الخطر الثاني عن يهود من نوع مونتفيوري وأنصاره. وقد قال إن هؤلاء الناس قد فعلوا دومًا كل ما في وسعهم لأجل عرقلة نشاطاته في فلسطين. فعندما كان على وشك أن يموت وكان يرغب في تأمين وضع المستوطنات بتحويلها إلى إيكا، اصطدم بمقاومة شرسة يحركها اليهود الإنجليز أساسًا. ولهذا السبب فقد اقترح أن نعمل الآن ضمن إطار لجنة جد صغيرة، دون أن نكشف خططنا بأي شكل من الأشكال. إذ يستعين علينا أن نجتهد في تمهيد الساحة، وفي السعي إلى معرفة ما تتوقعه الحكومة البريطانية بالضبط منّا،

وفي ألاّ ندخل الساحة السياسية إلاّ عندما تكون خططنا على ما يرام. وعلى هذا الأساس، عارض القيام بأي جولة في أميركا لأنه رأى أنه سيكون من المستحيل التحرك هناك بسرّية. كما نصحنا بأن ندع جانبًا الشخصيات اليهودية البريطانية؛ فهي لم تعد ذات ثقل، حيث إن مواقعها قد تزعزعت. وقد رأى أن المنظمة الوحيدة القادرة على مواجهة الموقف الحالي هي المنظمة الصهيونية: وعلى قيادة المنظمة الصهيونية أن تتابع الآن العمل. وعندما تجيء لحظة العمل العلني، فسوف يكون بوسع الصهيونيين أن يجدوا دون صعوبة عونًا فعالاً من جانب اليهود الذين يستشعرون الآن — دون أن يتماهوا مع الصهيونية — تعاطفًا حقيقيًا مع هذه القضية (شأن ابنه وزوجة ابنه، ومورجنتاو، إلخ). وسوف يشكلون لجنة فعالة وسيتم دمج قيادة المنظمة الصهيونية في هذه اللجنة. كما رأى أن اليهود الأميركيين سوف يقدمون دعمهم بالتأكيد. وقد قال إنه هو نفسه سوف يتحرك عندما يتضح الوضع الديلوماسي والعلاقات بين فرنسا وإنجلترا فيما يتعلق بفلسطين. وأنه سيكون بالإمكان مواصلة فكرة هرتسل عن الميثاق. وقد سمحت لنفسي بأن أقول للبارون إدمون إنني، دون أن أناقش تفصيلات ستكون قابلة بالطبع للتعديل بحسب الظروف، أرى أن خطته جديرة بالإعجاب حقًا. وإنني يخامرني الأمل في أن قيادة المنظمة الصهيونية التي كنت سأجتمع بها قريبًا سوف تتقاسم هذا الرأي دون تحفظ. إلاّ أن الحكومة البريطانية، في تلك الأثناء، قد تسألنا عما إذا كنا قادرين على تقديم ضمانات جادة تؤيد قدرتنا على إنجاز مهمة على هذه الدرجة من الأهمية كمهمة إدارة بلد.

وقد رد البارون إدمون: "أنا مسئول عن نفسي". وفيما يتعلق بالآخرين، فقد رأى أن دعمهم سوف يجيء. ومن النافل القول إن البارون كان مسرورًا. وقد طلب إليّ أن أبقيه على اطلاع على كل ما سوف يحدث، وهو ما قمت به عن طيب خاطر(٢٨).

واللقاء أقل إثمارًا مما يعتقد ڤايتسمان. فالبارون حريص على المصالح السياسية الفرنسية في الشرق الأدنى ويجري اتصالات بالأوساط السورية المسيحية المحبة لفرنسا. ومن غير الوارد بالنسبة له أن يرضخ لمتطلبات السياسة البريطانية. ومن جهة أخرى، فإنه إذا كان يريد بالفعل إجراء نقاش مع الصهيونيين، فإنه إنما يريد لهذا النقاش أن يكون نقاش أنداد، وهو يرى أن المنظمة الصهيونية ليست غير أحد المتدخلين اليهود في فلسطين (وهو ما

يتماشى مع الحالة الفعلية للوضع في فلسطين آنذاك).

ويسعى ڤايتسمان إلى مقابلة لويد چورج، عبر وساطة أصدقائه في مانشستر. والحال أن لويد چورج، بالغ الانشغال، إنما يحوله إلى هربرت صمويل، الذي يحثه على التوصل إلى اتفاق مع الممثلين الآخرين لليهود البريطانيين.

وإذا كانت جميع هذه الاتصالات تعد مثمرة بالرغم من كل شيء، فإن هذا لا يقلل من حقيقة أن وولف، في مستهل عام ١٩١٥، وليس ڤايتسمان، هو المحاور الرئيسي للسلطات البريطانية فيما يتعلق بالمسائل اليهودية.

وسوف يتوصل ڤايتسمان إلى تعزيز موقعه بفضل عمله العلمي لصالح المجهود الحربي. ففي مستهل القرن العشرين، كان تفوق الصناعة الكيميائية الألمانية على الصناعات الأجنبية ساحقًا. وبعد تحقيق الاستقرار على الجبهات، في أواخر عام ١٩١٤، ووجه جميع المتحاربين بندرة في الذخيرة، خاصة فيما يتعلق بالمدفعية. والفرنسيون والبريطانيون المتحالفون يشنون هجمات مكلفة في الجنود سعيًا إلى تخفيف الضغط الذي تمارسه ألمانيا على روسيا. والعسكريون يلقون بالمسئولية عن المجزرة البشرية على نقص القذائف. وبين المكونات الضرورية لصنع المتفجرات يوجد الأسيتون، الذي تفتقر إليه بريطانيا العظمى افتقارًا عظيمًا. وكان ڤايتسمان قد عمل بالفعل قبل الحرب على تركيب الأسيتون وعلى وسيلة إنتاجه صناعيًا. وتستخدم القيادة البحرية البريطانية ڤايتسمان لتطوير أسلوبه (وكان بلفور، واهتمامه بكل ما هو علمي معروف، قد خلف للتوّ تشرشل، الملوم على الفشل الذي حدث في الدردنيل). والحال أن لويد چورج، وقد أصبح وزيرًا للذخيرة، إنما يتابع الموضوع ويقوم بضم ڤايتسمان إلى وزارته في سبتمبر/ أيلول ١٩١٥. وضرورة استخدام مقادير ملحوظة من المواد الأولية النباتية إنما تقود السلطات البريطانية إلى نقل صنع الأسيتون إلى كندا بدلاً من جلب هذه المواد إلى الجزر البريطانية (وذلك بسبب الحرب تحت سطح البحر وبسبب نقص السفن). وبالرغم من بعض المصاعب، فإن ڤايتسمان، بفضل أصدقائه في المواقع الرفيعة، إنما ينجح في إذاعة أبوته لأسلوبه، الأمر الذي يعود عليه بيسر مالي حقيقي كان يفتقر إليه فيما سبق.

وهو الآن معروف جيدًا لدى الدوائر الحاكمة. والخدمة التي قدمها فعليـة، وإن كان لا يجب التهويل من قدرها (فأسلوب ڤايتسمان قد قدم نسبة ٩,٦% من إنتاج البريطانيين الإجمالي للأسيتون خلال الحرب)(٢٩). وبعد الحـرب، رَوَّج لويـد چورج في تساهلٍ الأسطورة التي تذهب إلى أنه قد تحول إلى الصهيونية بفضل الأسيتون. ويظل صحيحًا مع ذلك أن نشاطات ڤايتسمان العلمية، مضافا إليهـا نشاطيته السياسية، قد جعلت منه شخصية جد مقبولة.

وتحول سايكس إلى الصهيونية، والذي يـشكل تحـولاً حقيقيًـا للـسياسة البريطانية، إنما يحدث لدى عودته من روسيا. وهو يسعى إلى التعـرف علـى المسألة اليهودية، فنجد أن هربرت صمويل، الذي عاد إلى الحكومة، يوجهه إلى جاستر، الحاخام السيفاردي الأكبر للإمبراطورية البريطانية، والذي يعد مناضلاً صهيونيًا منذ اللحظة الأولى، وهو مشتبك إلى هذا الحد أو ذاك مع ڤايتـسمان. وإذ يكتشف سايكس معنى واتجاه الصهيونية، فإنه يطلب إلـى پيكـو مقابلـة جاستر. فيقبل الفرنسي(٣٠)، لأنه كان على علم "من مصدر موثوق به بـالجهود التي يبذلها بعض الإنجليز للدخول في علاقات مع الصهيونيين ولاحتكار القوى التي يمثلونها لصالح بلدهم". ويعرض عليه الحاخام ضرورة قيام الحلفاء بتحرير الشعب اليهودي عبر تسليم فلسطين له: وبهذا الثمن، سيصبح اليهودي مواطنـا كالآخرين. وفي المقابل، سيجري الاطمئنان إلى امتنـان واحـدة مـن أكثـر الجماعات نفوذا. فقد أكد أنه "سرعان ما سيتم تحسس الثمن، أكان في البلـدان المتحالفة أم في الدولِ المحايدة، بل وطرف الأعداء". ويدعوه پيكو إلى تحديـد مطالبه عبر جمع مجموعة من الشخصيات اليهودية المؤهَّلة، القـادرة بعـض الشيء على إلزام جنسها.

وتتوقف الاتصالات مع الفرنسيين، بالرغم من أن هؤلاء الأخيرين يعلمون بوجود "اجتماعات سرية" بين مختلف الشخصيات اليهودية المقيمة في بريطانيا العظمى. وچيمس دو روتشايلد هو منظِّم هذه الاجتماعات خلال صـيف عـام ١٩١٦. ويدور النقاش حول الجوهر: هل الصهيونية مجرد مشروع ثقافي يمكن قبوله من جانب المستوعَبين من أمثال وولف، أم أنها مشروع سياسي وقومي؟ ويعترض وولف على ڤايتسمان وجاستر فيما يتعلق بمسألة الجنسية اليهوديـة:

فالمشروع الصهيوني، إذا ما تم قبوله، سوف يزعزع موقف اليهود المستوعَبين الذين سيتم الاعتراف لهم بوجود جنسية أخرى غير الجنسية التي يتمتعون بها بالفعل. الأمر الذي سيبطل جدوى عمل الاستيعاب الذي مر عليه أكثر من قرن؛ وسيؤدي ذلك إلى الإساءة إلى مساعي تحرير يهود شرقي أوروبا. ثم إن من غير الجائز أن يطالب اليهود المضطهَدون في أوروبا بوضعية مميَّزة على حساب سكان فلسطين العرب؛ فإذا ما جرى فرض أشكال تفرقة حيال العرب، ناهيك عن السعي إلى طردهم من أراضيهم، فكيف سيكون بالإمكان الاعتراض على تدابير لها هذا الطابع نفسه ضد اليهود من جانب البولنديين والروس والرومانيين؟ وبالرغم من مساعي التوفيق التي يقوم بها چيمس وإدمون دو روتشايلد، فإن القطيعة إنما تعد عميقة بين الاتجاهين الموجودين في وسط اليهود.

ويعقب ذلك سكون، إلى حين وصول آرونسون إلى بريطانيا العظمى. وهو يترك انطباعًا قويًا في نفس سايكس وفي نفوس محاوريه البريطانيين الآخرين، الذين يبدو لهم بوصفه البرهان على إحياء الجنس اليهودي في فلسطين (أكتوبر/ تشرين الأول ـ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٦). فمعه، يصبحون بعيدين عن أي مشرقية.

وخلال مجمل عام ١٩١٦، يشن فريق من يهود وغير يهود مانشستر حملة ضخمة في صفوف الرأي العام تنادي بضم فلسطين من جانب البريطانيين وبإنشاء دولة يهودية تحت حمايتهم. وثقل الحملة كبير لاسيما أن لسان حالهم هو صحيفة **المانشستر جارديان** ذات النفوذ، والتي يعد رئيس تحريرها، سكوت، صديقًا للويد چورچ. وهو يدعم ڤايتسمان منذ وقت طويل، بيد أنه يتحرك مستقلاً عنه، الأمر الذي يؤدي أحيانًا إلى سخط الزعيم الصهيوني.

عنصر آخر في الملف: في ٢١ مايو/ أيَّار ١٩١٦، نجد أن مورجنتاو، الذي ترك سفارته في القسطنطينية لكي يعمل على إعادة انتخاب ويلسون، يعلن في خطبة في سينسيناتي أنه قد اقترح مؤخرًا على السلطات العثمانية بيع فلسطين لليهود بعد الحرب. وقد بدا الباب العالي مهتمًا بالأمر، بل إنه قد جرى طرح أرقام[٣١]. وهذا التصريح يربك إلى حد بعيد المسئولين الفرنسيين

والبريطانيين، الذين يتساءلون من جديد عن التواطؤ الخفي بين اليهود وجماعة تركيا الفتاة. وقد تكون ألمانيا وراء مناورة كهذه. والواقع أن هذه الأخيرة، التي تسعى إلى تحسين ظروف وجود اليهود في فلسطين، إنما يزعجها هي أيضًا هذا التصريح، لأنه يؤدي إلى تشدد موقف جماعة تركيا الفتاة(٣٢).

وفي تلك الأثناء، يحل لويد چورچ محل كتشنر في وزارة الحربية (يونيو/ حزيران ١٩١٦). وفي فرنسا، تستعر معارك ڤردان والسوم الرهيبة: ويصبح من المؤكد أنه لن يكون من الممكن إحراز نصر حاسم على جبهة الغرب. ولويد چورچ مقتنع بأن النجاحات المهمة ممكنة في الشرق، بيد أنه يضطر إلى مواجهة اعتراض من جانب القيادة العليا، التي تتمسك بمعركة فرنسا. وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٦، يفجر لويد چورچ أزمة حكومية تؤدي إلى انشقاق حزب الأحرار. وينتقل أسكويث وصمويل إلى صفوف المعارضة، بينما يشكل لويد چورچ حكومة ائتلاف بين المحافظين والفصيل الإمبريالي في حزب الأحرار. والحال أن الرئيس الجديد للحكومة، بعد أن أصبح يملك الآن إمكانات فرض آرائه، إنما يحث على فتح فلسطين. ومثل هذا الهدف لن تكون له قيمة إذا ما جرى بعد ذلك إنشاء فلسطين مدوّلة في مشرق تسيطر عليه فرنسا. ومن ثم فهو عازم على تهديد الاتفاق الفرنسي ــ البريطاني. ويجري تصعيد سايكس إلى وضعية السكرتير المساعد في وزارة الحرب. وهو يتمتع بالثقة الكاملة من جانب لويد چورچ في تهديد الاتفاق الفرنسي ــ البريطاني. وفي الأسابيع التالية، يشكل فريقًا مع أورمسبي ــ جور وأيمري، وهما عضوان آخران في البرلمان جرى تعيينهما سكرتيرين مساعدين مثله(٣٣). والثلاثي عازم تمامًا على عمل كل شيء من أجل انتقال فلسطين تحت السيطرة البريطانية: وفي المقابل، ستحصل فرنسا على سوريا(٣٤). وبما أن الحديث يستمر عن قضية الحلفاء، فليس هناك شعور بالتنكر لتعهدات جرى أخذها بالفعل.

الاتصال بالصهيونيين

إذا كان البريطانيون يجدون لديهم كل المبررات لعدم الثقة بالويلسونية من حيث كونها شجبًا للإمبريالية، فإن نبذ الدبلوماسية السرية إنما يتناسب في التوّ

والحال مع تطلعهم إلى التوصل إلى إلغاء الاتفاقات الفرنسية ـ البريطانية، والتي يجري البدء بالتقليل من قيمتها عبر تسميتها باتفاقات "سايكس ـ بيكو" وليس اتفاقات "كامبون ـ جراي". ومنذ ٢٢ مارس/ آذار ١٩١٧، يقوم بلفور، الذي حل محل جراي في وزارة الشئون الخارجية، بإبلاغ ويلسون بمضمون الاتفاقات[٣٥]. وفي تلك اللحظة، تعد المسألة أكاديمية لأن البريطانيين إنما يواصلون المراوحة في مكانهم أمام غزة.

ومنذ أواخر عام ١٩١٦، يتعلق الأمر بمعرفة ما إذا كان اتجاه ڤايتسمان أو اتجاه وولف هو الممثل الحقيقي للمصالح اليهودية لدى السلطات البريطانية وسلطات الحلفاء. وفي أكتوبر/ تشرين الأول ـ نوفمبر/ تشرين الثاني، يحرر سوكولوف مشروع مذكرة، راجعه ڤايتسمان وجاستر وبنتڤيتش (وهو صهيوني بريطاني قريب من ڤايتسمان)[٣٦]: إن فلسطين يجب الاعتراف بها كمقام قومي يهودي. ويجب منح يهود جميع البلدان حرية كاملة في الهجرة. وسيتمتع اليهود في فلسطين بالحقوق القومية والسياسية والمدنية. وسيجري منح امتياز لشركة يهودية لأجل تنمية فلسطين. وسيجري الاعتراف باللغة العبرية بوصفها اللغة الرسمية للولاية اليهودية. والحال أنه يجري تداول الوثيقة بين المسئولين المعنيين بمصير الشرق الأدنى، دون أن يكون قد تم تسليمها رسميًا إلى الحكومة.

ويتصل الجدل حول أصل تصريح بلفور بمسألة ما إذا كان ڤايتسمان هو الذي حصل عليه بفضل مواهبه السياسية، أو ما إذا كان البريطانيون، في مستهل عام ١٩١٧، هم الذين كانوا بحاجة إلى محاور صهيوني، حتى ولو تطلب الأمر اختراعه لعدم عثورهم على محاور[٣٧]. والمسلسل الزمني غني بالمعلومات: إن وولف والفرنسيون هم الذين لفتوا انتباه البريطانيين إلى المسألة اليهودية؛ إن سايكس هو أول من سعى إلى الاتصال بالصهيونيين، جاستر ثم آرونسون. وقد عنى وصول لويد چورچ إلى السلطة في التوّ والحال اتخاذ القرار الخاص بفتح فلسطين عسكريًا (٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٦). وفي ٩ ديسمبر/ كانون الأول، يبلغ پول كامبون باريس[٣٨]:

إذا كان من الوارد أن يبدو أن من المرغوب فيه تجنب قيام الجيش البريطاني بالتغلغل

في المناطق التي تهمنا، فإنه يبدو من المستحيل منعه من مطاردة الأتراك في يهودا، بل وفي سوريا إن لم يواجه مقاومة. بل إن هذه الحرية في الحركة قد بدت لكثيرين في هذا البلد بوصفها مبرر وجود وتبرير الاتفاقات الأخيرة التي تجرِّدُنا من أي دافع لاشتباه مشروع.

وفي ٢٤ ديسمبر/ كانون الأول، تعين باريس پيكو مندوبًا فرنسيًّا سعيًا إلى ضمان التعاون الفرنسي ـ البريطاني[٣٩]. ويجري إبلاغ الإنجليز بذلك في أواخر الشهر. وهو مكلَّف بالتمسك في كل مكان بمساواة في الوضعية بين الفرنسيين والبريطانيين، وذلك بالرغم من تفاوت الإمكانات العسكرية المستخدمة (فوحدة عسكرية فرنسية صغيرة هي التي تشارك في العمليات). وفي تلك اللحظة، ومن خلال وسيط، يلتقي سايكس لأول مرة بڤايتسمان، في ٢٨ و٣٠ يناير/ كانون الثاني ١٩١٧. والحال أن الإنجليزي إنما تأسره على الفور شخصية محاوره، لاسيما أن هذا الأخير يشجب منذ البداية كل سيطرة مشتركة للحلفاء على فلسطين[٤٠]. ويجري اتخاذ قرار بعقد لقاء موسع مع زعماء صهيونيين آخرين، على أن يتم هذا اللقاء يوم ١١.

وهو ينعقد في منزل جاستر[٤١]، بحضور اللورد والتر روتشايلد وچيمس دو روتشايلد وهربرت صمويل وسوكولوڤ وڤايتسمان وبنتڤيتش وچوزيف كاون وهاري ساشر. ويعبر الصهيونيون بشكل واضح عن معارضتهم لأي شكل لسيطرة الحلفاء المشتركة على فلسطين أو لتدويل فلسطين (في ذلك الوقت، كانوا يجهلون مضمون الاتفاق الفرنسي ـ الإنجليزي، ما عدا صمويل، المقيد بسرية المداولات الحكومية)، ويشددون على الأهمية الاستراتيچية لهذا البلد بالنسبة للبريطانيين، ويقترحون أن تحصل بريطانيا العظمى ـ التي ستعترف بمطلب الشعب اليهودي ـ على السيادة على فلسطين. وسيُعهد بتنمية البلد إلى شركة منشأة بامتياز وتتدرج في اختصاصاتها مسائلُ الديانة والثقافة والهجرة. ويقدم سايكس نفسه على أنه إنما يتحدث بصفة شخصية (الشيء الذي لا يصدقه محاوروه) ويشدِّدُ على المعارضة المحتملة من جانب روسيا وإيطاليا والحركة القومية العربية و، خاصة، فرنسا، المدفوعة من حيث الجوهر

باعتبارات قومية وإكليركية (خلافًا لبريطانيا العظمى التي تستلهم اعتبارات إنسانية وخيرية). ويسأله چيمس دو روتشايلد ما إذا كانت بريطانيا العظمى قد أخذت تعهدات بالفعل فيما يتعلق بفلسطين. فيدعي أن هذا لم يحدث. وبعد ساعتين من نقاش تحدث فيه ڤايتسمان لأول مرة عن فكرة أن اليهود سيذهبون إلى فلسطين لتكوين أمة يهودية مائة بالمائة وليس لكي يصبحوا عربًا أو دروزًا أو إنجليز، يقترح سايكس تكليف أحد ما بعرض الآراء الصهيونية على پيكو. وبناءً على اقتراح من چيمس دو روتشايلد (الذي من الأرجح أنه قد اتفق سلفًا مع ڤايتسمان على استبعاد جاستر)، يجري اختيار سوكولوڤ. وفي نهاية الاجتماع، يشدِّدُ صمويل على الأهمية الاستراتيچية لفلسطين بالنسبة لبريطانيا العظمى.

وبصحبة سايكس، يلتقي پيكو سوكولوڤ في ٨ و٩ فبراير/شباط. وهو يعتقد أن أمامه المحاور الرئيسي في المفاوضات مع الإنجليز(٤٢). ويجري تناول مصير يهود شرقي أوروبا في المقام الأول. فيتحدث پيكو عن إمكانية تحرير ـ استيعابٍ في پولنده وروسيا الجديدتين. ويعتقد سوكولوڤ أن معاداة السامية ستكون مقيمة وأن اليهود جد متعلقين بثقافتهم الخاصة بحيث يصعب عليهم الذوبان. وليس هناك من حل للمسألة اليهودية سوى الحل القومي. فيسأله پيكو، كيف يتصور اليهود تنظيم أنفسهم كأمة في فلسطين:

> أجابه السيد سوكولوڤ بأنهم سوف يستقرون بالشكل نفسه الذي استقر به الإنجليز والفرنسيون في كندا أو البوير في جنوبي أفريقيا، أي بالاستقرار كمزارعين. ويتوجب بناء الأمة كنهرم، على قواعد عريضة وأسس وطيدة. والأسس هي الأرض؛ وما يجب أن نفكر فيه في البداية هو الطبقة الزراعية.

ويعبر سايكس وپيكو عن إعجابهما بعمل المزارعين اليهود في فلسطين. ونصل من ذلك إلى المحور السياسي. فيرتأي سوكولوڤ فلسطين تحت سيادة بريطانية.

> أعلن السيد پيكو أنه يرى أنه ليست هناك أي إمكانية لأن تتخلى فرنسا بالكامل عن طموحاتها في فلسطين لصالح بريطانيا العظمى. فنسبة ٩٥٪ من السكان الفرنسيين تحبذ

بقوة ضم فلسطين إلى فرنسا. وفيما يتعلق به، فإنه يعد ببذل كل مساعيه من أجل التعريف بأهداف الصهيونية.

ويسأله بيكو عن مصير العرب:

أجاب السيد سوكولوف بأن فلسطين ليست المركز القومي للعرب، وذلك بحيث إنهم لن تكون لهم نوايا سيئة بالمرة ضد اليهود، فيما يتعلق بهذه النقطة. كما أنه يود أن يحصل العرب بالمثل على إمكانية إنماء مركز قومي خاص بهم. أمّا فيما يتعلق بالأماكن المقدسة، فإن اليهود لا ينوون التدخل فيها.

وبينما يرجع بيكو إلى باريس، يواصل سايكس النقاش مع الصهيونيين. وهو ينزعج من دعاوي مجموعة مانشيستر التي تدعو إلى فلسطين كبرى تمتد إلى شمالي صيدا، وتضم منطقة دمشق وحوران وكل شرق الأردن إلى ما وراء سكة حديد الحجاز. فهو يرى، حتى وإن كان يرى يهودًا في كل مكان[٤٣]، أن الأمر يتعلق ببناء حركة واسعة قائمة على التعاون بين اليهود والعرب والأرمن، على أنقاض الدولة العثمانية، لصالح الإمبراطورية البريطانية ومع مراعاة جانب فرنسا. ومثل هذه التصريحات إنما تجازف بتهديد كل شيء. فيطلب من ڤايتسمان رد مجموعة مانشستر إلى الصواب، الأمر الذي يحدث بالفعل. بيد أن عددًا معينًا من الصهيونيين يرى أن سايكس مستعد للتضحية بمصالحهم لصالح العرب. وفي أواخر فبراير/ شباط، يلتقي سايكس سوكولوف ويطلب إليه العثور على سبيلٍ وسطٍ بين المطالب اليهودية والمصالح التقليدية للعناصر السياسية والدينية في المنطقة[٤٤]. وهكذا يتوصلان من ذلك إلى اختزال مطالب الصهيونيين الترابية إلى نسبة الثلثين في الشمال والجنوب والشرق. أمّا مسألة الأماكن المقدسة فسوف تسوى عن طريق نوع من التدويل حيث تكون للديانات المختلفة كلمتها.

ولا يمكن أن يُعرض على فرنسا أو إنجلترا أخذ سيادة على فلسطين الصغيرة هذه، فهذا سيصبح مصدر نزاعات بين الدولتين الحليفتين. والنظام الدولي لا أهلية له على مساحة جد عظيمة:

سيُنتج هذا لا محالة فوضى وشقاقات، لأنه في مجال إدارة الضرائب والقضاء أو تقديم الامتيازات، ستكون هناك خلافات مستديمة ستتصل بكل تفاصيل الإدارة.

وقد يكمن الحل في تكليف دولة محايدة: ولا يمكن لبلچيكا أن تكون مناسبة، فهي جد لاتينية. وموظفوها نزاعون بسرعة إلى الاستغلال المالي. وسويسرا بها مكون چرماني جد مهم. أمّا إسبانيا والدول السكنديناڤية فهي غير مُرضية. وبالمقابل، تمثل الولايات المتحدة حلاً عمليًا:

الولايات المتحدة ليست منحازة إلى صف فرنسا ضد بريطانيا العظمى أو إلى صف بريطانيا العظمى ضد فرنسا. ومن شأنها أن تكون محايدة بشكل صارم في المسائل المرتبطة ارتباطًا أصيلاً بالمجادلات الدينية والعرقية، واحتلالها العسكري للبلد لن تكون له أهمية ولا عواقب سياسية أو استراتيچية يمكننا أن نخشى منها.

ويضيف سايكس هذا التعليق الموجه إلى پيكو:

إذا ما استشعرت قوة اليهود الكبرى أن مطالبها قد عوملت بإنصاف سعيًا إلى تحقيقها الملموس، فسوف يكون هناك أمل عندئذ في التوصل إلى بلاد عرب وشرق أوسط منظّمة ومتقدمة. أمّا إذا ما استشعرت هذه القوة أن هناك دفعًا بعدم جواز الاستماع إلى مطالبها بسبب الظروف وأن هذه المطالب محكوم عليها بأن تظل آمالاً مؤلمة، فإنني أرى عندئذ قليلاً من المستقبل أو لا أرى أي مستقبل لآمالنا.

وفي هذه المرحلة الأولى من المفاوضات، يبدو تمامًا أن سايكس قد تصرف بمبادرة شخصية منه، دون أن يكون قد تلقى تعليمات من وزارة الخارجية[٤٥]: فموقعه في وزارة الحرب يمنحه هذه الحرية في التصرف. والمراسلات المتبادلة بين الوزارتين الفرنسية والبريطانية في تلك اللحظة يبدو أنها تشير إلى رغبة بريطانية في التعاون الوثيق بين البلدين في مسألة فلسطين. واستراتيچية سايكس واضحة بما يكفي: إن الصهيونية هي إحدى الحجج المستخدمة لأجل وضع نهاية لمشروع تدويل فلسطين. والحل الأميركي إنما يظهر كخطوة انتقالية تمهيدًا للسيطرة البريطانية. والشيء الجوهري هو البدء في تفريغ الاتفاق

الفرنسي – البريطاني من معناه.

وفي بداية عام ١٩١٧ هذه، كانت الحملة الصحافية بشأن فلسطين،والتي استأنفها عدد كبير من الصحف البريطانية، قد وضعت المسألة في جدول الأعمال. ويدلي زانجويل بمداخلة لافتة[٤٦]: إن إعادة التنظيم القادمة لأوروبا سوف تتم على أسس قومية، ولا يمكن ترك اليهود في وضع من شأنه أن يشكل قطيعة مع هذه القاعدة ومن شأنه أن يشكل خطرًا بالنسبة لتوازن الصلح؛ وبما أن الاتجاه المميز لـ"عالم اليوم غير العقلاني" هو الاعتراف بـ"مطالبتهم التقليدية بفلسطين" بدلاً من أماكن فارغة غير أوروبية، فإنه يتعين تناول الجانب العربي للأمور بواقعية:

> إذا كان بالإمكان القيام بمصادرة عرب فلسطين الذين يبلغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ نسمة، مع دفع تعويضات لهم، أو إذا كان بالإمكان دفعهم إلى الهجرة إلى بلاد العرب، لأنهم يتنقلون بسهولة، فسوف يكون هذا هو الحل الأصعب أمام الصهيونية. وإلاّ فإن الهيمنة العربية ستكون حتمية، الأمر الذي سيؤدي إلى تفريغ فكرة العودة اليهودية من أي مضمون. وأي جبل لا يتمخض عمدًا عن فأر. بل إن السيطرة المشتركة [الكوندومينيوم] سوف تكون حبلى بصدامات مقيمة.

وفي هذه الأيام الأولى من شهر مارس/ آذار، تهز ثورة فبراير/ شباط الروسية العالم. ويتمثل أحد التدابير الأولى لحكومة كيرينسكي المؤقتة في وضع نهاية للتشريعات المعادية للسامية. وفي عواصم الحلفاء، يظهر أن اليهود يشكلون مكونا رئيسيًا من مكونات الحركة الثورية الروسية. وهذا بعيد جدًا عن أن يكون صحيحًا: إن البروليتاريا اليهودية، المحجوزة في منطقة الإقامة [اليهودية]، إنما تتواجد خارج المناطق الكبرى للتركز الصناعي. ومنظمتها السياسية، البوند، إنما تقوم بتجنيد أنصارها من عالم الورش الصغيرة والصناعة الصغيرة والحرف. والقوى السياسية الحقيقية في لحظة الثورة تجيء من الطبقة العاملة الروسية أساسًا في بتروجراد وموسكو. وإذا كانت بعض الشخصيات يهودية الأصل تشارك في الأحداث، فإنها شخصيات من المثقفين الاشتراكيين أنصار الاستيعاب. وخلال عام ١٩١٧، سيكون تأثير يهود روسيا على الأحداث

تافهًا، بينما في الخارج ستجري رؤية دورهم الخفي في جيشانات الثورة.

وبالنسبة للصهيونيين، تشكل الثورة الروسية أيضًا لحظة لمواجهة الحقيقة: فمن ناحية، سوف تتيح لهم الثورةُ حرية عمل ودعاية كانت إلى ذلك الحين غائبة، بيد أن الثورة، من الناحية الأخرى، إنما تهدد بأن تقود إلى استيعاب جماعي ليهود روسيا. وإذا ما أصبحوا روسًا حقيقيين، فسيكون ذلك نهاية لتيار الهجرة إلى البلدان الأخرى، وهو تيار كانت تتمثل مأثرته في منع الطوائف الأخرى [اليهودية غير الروسية] من إخصاء نفسها بالكامل ومحو نفسها في ليبرالية الاستيعاب المؤدي إلى القضاء على اليهودية(٤٧).

سوكولوف والفرنسيون

في مستهل شهر أبريل/ نيسان ١٩١٧، يزور سوكولوف باريس ويقدم نفسه على أنه مفوض "من المنظمات اليهودية في روسيا والولايات المتحدة ومن الاتحاد الصهيوني في إنجلترا بهدف التفاهم مع الحكومتين الإنجليزية والفرنسية فيما يتعلق بتحقيق آرائنا المتعلقة بفلسطين"(٤٨). وهو يسلم مشروعًا يتماشى مع الخطوط المتفق عليها مع سايكس ويوحي بأن الحكومة البريطانية قد وافقت عليه بالفعل: يجب حكم فلسطين من جانب دولة عظمى تكفل الحد الأقصى من الحكم الذاتي للسكان اليهود وتبيح الهجرة والاستيطان دون قيود. وهذه الدولة يمكن أن تكون في نهاية المطاف فرنسا. ويحاول محاوروه في الكيه دورسيه التحقق من كون نفوذه واقعيًا. وبعد ذلك ببضعة أسابيع، يشرح بيكو عملهم(٤٩):

> يتعلق الأمر بالقيام، تحت سيادة دولة عظمى، بتكوين نوع من جماعة قومية يهودية في فلسطين عبر تمكين الإسرائيليين من الاستقرار في البلد ومن حيازة الأراضي. والتأييد المقدم من جانب الإنجليز لهذا المشروع لا يُنْهي بعد المسألة برمتها. فالمسألة التي تعتبر مطروحة علينا من الآن فصاعدًا لم تعد مسألة ما إذا كان من المرغوب فيه قيام الاستيطان المقترح، بل بالأحرى مسألة ما إذا كان مناسبًا لنا، في اللحظة الراهنة، أن نعارض جهارًا نهارًا جميع العناصر اليهودية، بإعلان أننا خصوم لمطالبها ومن ثم بأن نجازف بأن نجد يومًا ما على أبواب سوريا أعداء لا يمكن قهرهم.

والحال أنه في هذه الظروف، وافق السيد چول كامبون، في ٩ أبريل/ نيسان، على

> مقابلة السيد سوكولوف في حضور السيد دو مارچيري وحضوري، لأجل إبلاغه بأن الحكومة الفرنسية لا يمكنها أن تنظر بعين غير راضية إلى مطالب تميل إلى تحرير جنس مضطهَد. وعلى أثر اللقاء، جرى إرسال برقيات إلى بتروجراد وإلى واشنطون لإذاعة هذا التصريح[٥٠]. وتعرفون معاليكم أن تعاطفات الإسرائيليين قد أصبحت، منذ ذلك الحين، أكثر إيجابية في ميلها إلى صف الوفاق. ولم يخطئ أعداؤنا في رصد ذلك الواقع وأعمال الاضطهاد التي جرت مؤخرًا في فلسطين هي النتائج الأولى لدخول اليهود في حملة تبدو آثارها قادرة على أن تكون مهمة إلى حد بعيد بالنسبة لتتمة الحرب.

وفي حين أن القادة البريطانيين لم يتخذوا أي موقف رسمي، فإن نظراءهم الفرنسيين هم أول من يتحدثون علنًا عن دعمهم الممكن للمطالب الصهيونية. والحال أن سايكس، الذي ينتظر سوكولوف، إنما يسره ذلك. وهو يبلغ لندن في التوّ والحال بأن فرنسا قد بدأت تتزحزح أمام الضغط: إنها مستعدة للاعتراف بالنزعة القومية اليهودية، الأمر الذي يمهد الطريق أمام إنجلترا لاختيارها "راعية" لفلسطين[٥١]. وكلما زادت الحقوق الممنوحة لفرنسا في سوريا وفي لبنان كلّما قل اهتمامها بفلسطين[٥٢].

وبناءً على اقتراح من محاوري سوكولوف الفرنسيين، يزور الأخير إيطاليا، حيث كان سايكس قد رتب له سلسلة من اللقاءات. وفي مايو/ أيّار، يستقبله البابا بينوا الخامس عشر وعدة كاردينالات ورجال دولة إيطاليون. وهو يستخلص من ذلك انطباعًا بأنه إذا كانت الكنيسة تبدو حازمة فيما يتعلق بمسألة الأماكن المقدسة، فإنها تحس في المقابل بالتعاطف مع المشروع الصهيوني. ويبدو السياسيون الإيطاليون مرحبين، ولكن دون أن يقدموا أي تعهد. وما يهمهم في الصهيونية هو إمكانية زعزعة موقع فرنسا القوي في فلسطين، خاصة حمايتها الكاثوليكية[٥٣]. ويجري إرسال سلسلة جديدة من البرقيات إلى روسيا وإلى الولايات المتحدة.

ولدى عودة سوكولوف إلى باريس، يقدم تقريرًا للكيه دورسيه عن نتائج رحلاته[٥٤]. وهو يوضح أن عليه الذهاب بسرعة إلى بتروجراد، "حيث يمكن لعمله أن يكون أكثر فائدة للحلفاء من أجل دفع يهود روسيا في اتجاه تأييد

مواصلة الحرب". وهو يتساءل من ثم عما إذا كان من الوارد صدور تصريح عام من وزارة الشئون الخارجية [الفرنسية] يشار فيه إلى تعاطفات الحكومة الفرنسية مع استيطان فلسطين:

يرى مدير الشئون السياسية والتجارية أنه بالنظر إلى علاقات السيد سوكولوف الوثيقة مع وزارة الخارجية [البريطانية] والاستقبال الذي قوبل به في إيطاليا من جانب رئيس الحكومة الإيطالية، فسوف يكون من المفيد لقضيتنا في فلسطين وعلاوة على ذلك للعمل الذي سيكون بوسع السيد سوكولوف ممارسته وسط إخوته في الديانة أن يتفضل السيد ريبو بمقابلته وأن يصرح، تحت توقيع السيد جول كامبون مثلاً، بأن يتم إرسال رسالة إلى السيد سوكولوف يتم التعبير فيها عن تعاطفات الحكومة الفرنسية مع الاستيطان اليهودي في فلسطين.

وبعد اجتماع سوكولوف برئيس المجلس، يحصل على تصريحه الرسمي[٥٥]:

وزارة الخارجية

مكتب الوزير

باريس، ٤ يونيو/ حزيران ١٩١٧

السيد،

لقد تفضلتم بأن تعرضوا عليّ المشروع الذي تكرسون له جهودكم والذي يهدف إلى تنمية الاستيطان اليهودي في فلسطين. وأنتم ترون إنه إذا ما سمحت الظروف بذلك وإذا ما تمت كفالة استقلال الأماكن المقدسة من جهة أخرى، فإنه سيكون بمثابة عمل من أعمال الإنصاف والتعويض أن تجري المساعدة، من خلال حماية من جانب الدول المتحالفة، على إحياء الجماعة القومية اليهودية، على تلك الأرض التي كان شعب إسرائيل قد طرد منها قبل قرون عديدة.

والحال أن الحكومة الفرنسية التي دخلت الحرب الراهنة دفاعًا عن شعب تعرض ظلمًا للهجوم، والتي تواصل النضال لتأمين انتصار الحق على القوة، لا يمكنها إلاّ أن تشعر بالتعاطف مع قضيتكم التي يرتبط انتصارها بانتصار قضية الحلفاء.

ويسرني أن أقدم لكم هنا التأكيد على ذلك.

وتقبلوا، سيدي، تأكيدي على بالغ احترامي.

(التوقيع) ج. كامبون

وبالنسبة للفرنسيين، فإن هذا الاتخاذ لموقف رسمي له مقابل راسخ: تعهد الصهيونيين بممارسة كل نفوذهم على يهود روسيا في اتجاه إبقاء روسيا في الحرب. وبالنسبة للصهيونيين، يعد ذلك انتصارًا ملحوظًا. فقد حصلوا لأول مرة على تأكيدات رسمية من جانب دولة عظمى، وهو ما امتنعت بريطانيا العظمى عن عمله إلى الآن.

وينزعج ڤايتسمان انزعاجًا مضاعفًا من المفاوضات التي قام بها سوكولوف. فالدور الذي لعبه من يعتبره نائبه إنما يهدد بزعزعة الصدارة التي فاز بها مؤخرًا عالم الكيمياء في صفوف الصهيونية البريطانية (في فبراير/ شباط ١٩١٧، صار رئيسًا للاتحاد الصهيوني البريطاني). وتنعقد أواصر صداقة حقيقية بين سايكس وسوكولوف، وهما من رجال الأدب والثقافة، الأمر الذي لا ينطبق على ڤايتسمان. ويبدو سوكولوف له شديد المراعاة للمصالح الفرنسية والكاثوليكية، الأمر الذي يهدد باختزال قيمة الرصيد الذي يمثله الصهيونيون في أعين القادة البريطانيين. وعبقريته السياسية تجعله يدرك أن من الضروري بصورة مطلقة مماهاة المطالب الصهيونية بالمشاريع السياسية لحكومة لندن والتمسك بهذا الخط تمسكًا صارمًا، ومن هنا وجود قدر من التوتر، يتزايد وضوحًا باطراد، في علاقاته بچيمس دو روتشايلد وخاصة بإدمون دو روتشايلد. وبما أن ڤايتسمان بالغ الاعتداد بنفسه، فإنه يعتقد أن بوسعه إقناع محاوريه ودفعهم إلى أن يقدموا هم أنفسهم مقترحات جذابة بالنسبة للصهيونيين. والواقع أنه يتحدث إلى أناس مقتنعين بالفعل بأن الصهيونية هي في آن واحد أداة لإيجاد "فلسطين بريطانية" ولكسب حسن نوايا يهود أوروبا الشرقية وأميركا. على أن ڤايتسمان يخشى مع ذلك أن تتعرض التطلعات الأوسع للصهيونية للخطر عبر إخضاع المسألة اليهودية للمسألة العربية. والتصريح الذي أدلى به الچنرال مود، وإن كان سايكس هو الذي حرره، عند دخول البريطانيين بغداد في ١١ مارس/ آذار ١٩١٧، إنما يجعله يشعر

بالخطر: فاليهود لم يجر ذكرهم في حين أنهم يشكلون جانبًا مهمًا من سكان المدينة وفي حين يجري الحديث [في التصريح] عن تحقيق التطلعات القومية العربية(٥٦). ويفكر ڤايتسمان في الذهاب إلى فلسطين عند احتلالها من جانب البريطانيين سعيًا إلى إظهار وجود مباشر قوي. وتجري مناقشة هذه الفكرة لبعض الوقت، بيد أن الإخفاقات العسكرية البريطانية أمام غزة إنما تجعل من مثل هذا الذهاب شيئًا عديم الجدوى.

وفي ٢٢ مارس/ آذار، يستقبل بلفور ڤايتسمان. ويتفق الرجلان فورًا على واقع أن فرنسا لا حقوق لها في فلسطين وأن الحل الأفضل إنما يتمثل في فرض حماية أنجلو ــ أميركية(٥٧). وفي ٣ أبريل/ نيسان، يقابل ڤايتسمان لويد چورچ على مائدة الإفطار. ويقول له رئيس الوزراء إن حملة فلسطين هي الجزء المهم الوحيد في الحرب. وهنا أيضًا، يتفق الرجلان على استحالة فرض سيطرة فرنسية ــ إنجليزية مشتركة. ثم يجتمع لويد چورچ بسايكس ــ الذي سيسافر إلى شرق البحر المتوسط ــ ويشدِّدُ على أهمية نمو الصهيونية تحت إشراف بريطانيا: ويجب الامتناع بصورة مطلقة عن تقديم أي تعهد إلى العرب فيما يتعلق بفلسطين(٥٨). وفي ذلك الوقت، يبدو من الواضح أن المسئولين البريطانيين، وليس سايكس وحده، عازمون على تهديد الركن الفلسطيني في الاتفاق الفرنسي ــ البريطاني. وبالنسبة للويد چورچ، فإن الحجة الأهم ليست الصهيونية، بل مجرد واقع أن القوات البريطانية هي التي تحتل البلد، بما يؤدي إلى خلق أمر واقع.

ولا يجري إبلاغ الصهيونيين بمضمون اتفاق سايكس ــ پيكو إلاّ في منتصف أبريل/ نيسان ١٩١٧. والإفضاء لا يصدر من جانب السلطات البريطانية وإنما من جانب الفرنسيين. فالحال أن من ينقل المعلومة إلى سكوت هو روبير دو كيه، المتحدث بلسان الحزب الاستعماري الفرنسي وزعيم "السوريين"، أي أولئك الذين يريدون فرض حماية فرنسية على سوريا(٥٩). والأرجح أن مقصده هو ثني الصهيونيين عن مواصلة حملتهم. وهذا يعزز رغبة ڤايتسمان في التمسك بعمل على المستوى البريطاني أساسًا: فالمفاوضات بين سوكولوف والكيه دورسيه من شأنها أن تسمح للفرنسيين بأن يقولوا

للبريطانيين إنهم على اتفاق مع الصهيونيين وإنهم مستعدون لأن يتصرفوا، بالشكل نفسه الذي يتصرف به محاوروهم، لأجل صالح الصهيونيين: وهذا سيعني انتهاء مشروع فلسطين البريطانية، الأمر الذي سيكون في صالح تدويل فلسطين[٦٠]. وسيفضي ذلك إلى عودة قوية لليهود غير القوميين كاللجنة المشتركة أو المؤتمر اليهودي الأميركي أو التحالف الإسرائيلي العالمي أو جمعية مساعدة اليهود الألمان: فهؤلاء الأوليجاركيون سوف يعارضون الصهيونية باسم العدالة مبرزين حماية مصالح السكان العرب وسيصبحون بذلك في مركز قوة[٦١].

وترجع قوة ڤايتسمان في آن واحد إلى قدرته على التحليل السياسي وإلى المعرفة العملية: فهو يجيد العثور على الكلمات الضرورية لأن يفهمه البريطانيون. والشيء الكاشف بشكل خاص في هذا الصدد هو لقاؤه في ٢٥ أبريل/ نيسان ١٩١٧ باللورد روبرت سيسيل، سكرتير الدولة لوزارة الخارجية بالنيابة (إذ كان بلفور في رحلة إلى الولايات المتحدة)[٦٢]: إن الأمر يتعلق فيما يخصه بأن يوضح أن الحل العملي الوحيد هو الحماية البريطانية على فلسطين. ومن ثم يتعين عليه هدم الدعاوى الفرنسية: سوف تعتمد فرنسا بالضرورة على السوريين وعلى المسيحيين العرب، أي بشكل أعم على المشارقة؛ والمشرقي ليس شخصية إنسانية جذابة؛ فهو قد فقد فضائل العرب البدائية ولم يحز فضائل الحضارة الغربية؛ وهو لا يملك من الهوية الفرنسية غير طلاء خارجي سطحي؛ ولا يمكن الاعتماد عليه في تعاون مفيد. ويخيل لمن يسمع هذا الكلام أنه يستمع إلى كرومر أو إلى ت. إ. لورانس (لم يكن ڤايتسمان قد التقى بعد بهذا الأخير). ويحثه سيسيل على الاستطراد في هذا الاتجاه، فيواصل ڤايتسمان الكلام موضحًا أن الفرنسيين قد سعوا دومًا إلى فرض **الروح الفرنسية**[٦٣] على سكان مستعمراتهم وأن إدارتهم أقل كفاءة من إدارة البريطانيين، وأن الصهيونيين قد قاموا في فلسطين بعمل أكثر فائدة من العمل الذي قام به الفرنسيون في تونس.

ولا يعود هناك سوى منازعة الاقتسام الترابي الذي يتحدث عنه الاتفاق "المفترض" بين البريطانيين والفرنسيين. إنه غير عادل ومن شأنه أن يخلق نزعة وحدوية يهودية متشددة تطالب بالجليل وببحيرة طبرية[٦٤]؛ والجيب

البريطاني حول حيفا لا معنى له إن لم تؤمّن بريطانيا العظمى لنفسها السيطرة على المناطق الداخلية. وبالمقابل، سيكون بالإمكان أن يُعهد بفلسطين إلى البريطانيين كوديعة (*in trust for*) لصالح اليهود. ومنذئذٍ، سيكون مثل هذا المطلب متماشيًا مع المبادئ التي أعلنها الحلفاء والخاصة بعدم الضم وبحق الشعوب. ويطلب إليه سيسيل أن يضغط يهود العالم بأسره من أجل منح فلسطين لبريطانيا العظمى.

والمسألة ليست مسألة محض كلام: ففي هذه الأيام الأخيرة من شهر أبريل/ نيسان ١٩١٧، تدخل الولايات المتحدة الحرب.

دخول الأميركيين المسرح

الثقل المهم بالفعل والمنسوب لليهودية الأميركية يتعزز بدخول الولايات المتحدة الحرب في أبريل/ نيسان ١٩١٧. وهذا الدخول لا يعني بالضرورة انخراطًا قويًّا لهذا البلد في الحرب. ويشدِّد ويلسون على واقع أن أميركا ليست غير "شريك" وليست حليف الفرنسيين والبريطانيين. وهي غير ملزَمَة بالاتفاقات السرية المعقودة بين شريكتيها. على العكس تمامًا، فهي تضع في الصدارة مبدأ سياسيًّا جديدًا من شأنه وضع نهاية للإمبريالية ولمناطق النفوذ وللديبلوماسية السرية. ذلك أن "حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها" يجب أن يصبح المبدأ الجذري الجديد للعلاقات الدولية. وفي الأوضاع الصعبة التي يمر بها الحلفاء على المستوى العسكري، فإن من شأن مشاركة فعالة من جانب الأميركيين في المعارك أن تصبح شيئًا حيويًّا؛ والحال أن اليهودية الأميركية إنما تبدو كالعادة محبة لألمانيا وجد مؤثرة على القرارات الحكومية.

وفي عين اللحظة التي تدخل فيها الولايات المتحدة الحرب، يصبح من المعلوم أن السلطات العثمانية قد قررت، على أثر معركة غزة، طرد السكان اليهود من منطقة يافا ــ تل أبيب. والأنباء التي تروجها أجهزة دعاية الحلفاء مروِّعة:

> خلال عيد الفصح، جرى نفي سكان يافا اليهود كلهم إلى الشمال وتعرضت منقولاتهم وأغراضهم للنهب وجرى تجريد السكان الهاربين من كل شيء، وذلك بموالسة

من جانب السلطات التركية، أمّا اليهود الذين قاوموا النهب فقد جرى شنقهم، والآلاف لا مأوى لهم، وقد تُركوا يلاقون الموت من الجوع على الطرق دون أي عون، بينما يهيمن البؤس والمرض على القرى، وقد جرى ترحيل جماهير من شبان القدس اليهود باتجاه الشمال إلى جهات غير معلومة؛ ويوشك أن يحدث إخلاء قسري للمستوطنات؛ وتؤيد السلطات البريطانية تشكيل لجنة محلية خاصة لجمع التبرعات سعيًا إلى غوث السكان اليهود الذين يدعو وضعهم إلى الرثاء(٦٥).

والتدابير العثمانية تتميز بفظاعة أكيدة، إلاّ أنه سرعان ما يتم تخفيف حدتها من جراء التدخل النشيط من جانب السلطات العسكرية والمدنية الألمانية والنمساوية(٦٦). ولا تجري معاملة من تم ترحيلهم بالشكل الذي عومل به الأرمن المُرَحّلون كما لم يجر إرسالهم إلى بادية الشام. ويحدث ارتياح إلى إعادة توطينهم في القدس وفي مستوطنات الجليل. على أن الفرنسيين والبريطانيين إنما يشدّدون على خطر إبادة يهود فلسطين: والواقع أن الرهان أكثر أهمية من مصير السكان اليهود. فالولايات المتحدة قد قررت عدم الدخول في حرب ضد الدولة العثمانية. وآخر سفيرين في القسطنطينية، مورجنتاو وإيلكاس، كانا قد أدليا بخطابات تعد في نهاية الأمر جد مؤاتية للقضية العثمانية، وهذا، على الأقل، هو ما يجري اعتقاده في باريس ولندن. ومن شأن شن حملة دولية للدفاع عن يهود فلسطين أن يجبر الولايات المتحدة على اتخاذ موقف أكثر حزمًا في مسائل الشرق الأدنى وأقرب إلى موقف شريكتيها(٦٧). ولا يشار إلاّ قليلاً إلى أن جانبًا من السكان العرب قد عرف المصير نفسه.

وفي ذلك الوقت، كان اهتمام ويلسون بالصهيونية محدودًا. وكان قد التقى للتوّ ببرانديز الذي حدّثه عنها على مدار ساعة إلاّ ربعًا. وقد أعرب عن تأييده لوطن (*homeland*) للشعب اليهودي في فلسطين تتم كفالته من الناحية القانونية. بيد أنه يترقب تطور الوضع في فرنسا لكي يعلن على الملأ تأييده للصهيونية في اللحظة التي تبدو له مناسبة. ويبدو أنه يميل إلى فكرة الحماية البريطانية(٦٩).

وبالنسبة لبرانديز، الذي ينسق جهوده مع ڤايتسمان، يعتبر هذا نجاحًا. وهو على علم بأهمية لوبي المبشرين البروتستانت عند ويلسون، المنبثق من الوسط

الاجتماعي نفسه (پروتستانت الساحل الذين قاموا بدراسات في جامعات لها مكانتها). وهم جد منخرطين في شئون الشرق الأدنى، خاصة في أرمينيا والقسطنطينية وسوريا (الكلية البروتستانتية السورية في بيروت). وبما أنهم متأثرون تأثرًا عميقًا بالمحنة الأرمنية، التي كان كثيرون من رعاتهم [الدينيين] ضحايا لها، فإنهم إنما يترددون بين سياسة تدخل نشيط يقود إلى حملة عسكرية في الشرق وسياسة مداراة للعثمانيين، سعيًا إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه. وقد انخرطوا في أوسع مشروع إنساني جرى الاضطلاع به عبر التاريخ إلى هذه اللحظة، وهو مشروع قوامه غوث سكان الشرق الأدنى ضحايا الحرب. والحال أن حظر القيام بتبشير مسيحي بين صفوف السكان المسلمين، والذي فرضه الباب العالي باسم صلاحيات خليفية، إنما يدفعهم إلى تعليق آمالهم على الحركة العربية، التي يعرفونها معرفة أفضل بحكم أن كثيرين من تلامذتهم السابقين في بيروت يشتركون فيها. بيد أن طموحاتهم قد تكون أوسع: فهم يتذكرون أن جزر هاواي قد جرى ضمها إلى الولايات المتحدة بفضل عمل المبشرين، وبعضهم يفكر في فرض حماية أميركية على جزء من الشرق الأدنى أو عليه كله بعد انتهاء الحرب. وسفراء مثل مورجنتاو وإيلكاس يحتفظون بعلاقات ودية معهم. وممثلوهم، تشارلز كرين أو كليفلاند دودج أو چيمس ل. بارتون، لهم مداخلهم إلى البيت الأبيض ولهم نفوذ خاص في وزارة الخارجية. والتاكتيك التحايلي الذي دشنه سايكس من أجل تدمير الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني، أي الحماية الأميركية على فلسطين، يمكن أيضًا أن يرتد ضد الصهيونيين إذا ما أُخذ حرفيًا من جانب المبشرين الذين، خلافًا لبعض الكنائس البروتستانتية في داخل الولايات المتحدة، لا يتقاسمون الأمل في رؤية تحقق للنبوءات ويعادون بالأحرى عودة اليهود إلى الأرض المقدسة. ويمكننا أن نفهم اهتمام برانديز بدعم دخول مشروع فلسطين بريطانية ساحة الملعب، سعيًا إلى وضع حد للنشاط المزاحم الذي تقوم به الإرساليات التبشيرية. وقد تدخل في هذا الاتجاه لدى بلفور، الذي كان في بعثة إلى الولايات المتحدة، بينما يميل الوزير البريطاني إلى إدارة مشتركة، أميركية ـ بريطانية، لفلسطين.

وبرانديز على علم برغبة ويلسون في ألاّ يشعر بأنه مُلْزَمٌ بالاتفاقات السرية

المعقودة فيما بين الحلفاء. وهو يدرك أن الرئيس يريد أن يقدم نفسه خلال التسوية النهائية على أنه في حلٍ من أي تعهد. ويرى برانديز ضرورة عدم الإفراط في ممارسة الضغوط وضرورة ترقب اتخاذ ويلسون بنفسه موقفًا علنيًّا مؤيّدًا للأطروحات الصهيونية. ويترتب على ميل ويلسون إلى التمهل أثر مهم يتمثل في أن جهاز الدولة، أكان المستشار المتنفذ في البيت الأبيض، وهو الكولونيل هاوس، أم وزير الخارجية لانسنج، لا يعلم بوجود التأكيدات الخاصة التي قدمها الرئيس إلى برانديز. وفي هذا السياق، سوف يتصرفان بحسن نية متمسكين بخط عدم التعهد وداعمين لمطالب المبشرين.

هزيمة اللجنة المشتركة

يصبح وضع فايتسمان صعبًا. فالفشل العسكري البريطاني أمام غزة إنما يرجئ إلى فترة لاحقة قرارًا بريطانيًّا بشأن مصير فلسطين. وسايكس وبيكو في الشرق الأدنى، في طريقهما إلى مقابلة الشريف حسين. وهو منزعج من الآثار الممكنة لمحادثاتهما مع المسئولين العرب. ثم إن سايكس يحذره، من القاهرة، من الإفراط في الدعاية كي لا يفاقم وضع يهود فلسطين الذين من الوارد أن يكونوا هدفًا للعقاب العثماني(٧٠). وأخيرًا فإنه يجد نفسه مضطرًّا إلى مواجهة هجوم غير متوقع من جانب اللجنة المشتركة.

لقد فقد وولف وأنصاره احتكار التمثيل السياسي لليهود لدى الحكومة. والتحالف الإسرائيلي العالمي هو الذي يبلغه بمفاوضات سوكولوف في باريس، قائلاً له إن فرنسا وإنجلترا توشكان على قبول البرنامج "القومي" للصهيونية، وهو كلام يعد مبالغة في تقدير الأمور(٧١). وفي النقاش الداخلي في صفوف الطائفة الأنجلو ــ يهودية، يبدو أساسيًّا لهم أن يعرضوا وجهة نظر المجموعة المهمة التي يمثلونها. فتنشر اللجنة المشتركة في التايمز في ٢٤ مايو/ أيار ١٩١٧ موقفًا مؤرَّخًا في ١٧ مايو/ أيار(٧٢): إن اللجنة تعترف بأهمية فلسطين بالنسبة لليهود وتذكرُ بأنها قد ارتأت دومًا سياسة "ثقافية" للوجود اليهودي في فلسطين؛ كما يشار إلى مشروع مارس/ آذار ١٩١٦: المساواة في الحقوق بين اليهود وغير اليهود؛ تسهيلات معقولة للهجرة وللاستيطان؛ حريات بلدية

للتجمعات السكنية اليهودية.

وما لا يمكن للّجنة المشتركة التسليم به هو تطلع الصهيونية القومي، ليس عبر التكوين الممكن مستقبلاً لأمة يهودية محلية في فلسطين، وإنما بالأصالة عن كل الشعب اليهودي:

إن المطالب الراهنة إنما تذهب إلى ما هو أبعد بكثير. فهي تشكل جزءًا لا يتجزأ من مفهوم صهيوني أوسع، يرى أن جميع الجماعات اليهودية في العالم إنما تشكل جماعة قومية لا وطن لها، وعاجزة عن الاندماج بالكامل، أكان من الناحية الاجتماعية أم من الناحية السياسية، في الأمم التي تحيا في صفوفها؛ فيجري الزعم بأنه لابد من أن يوجد لهذه الأمة التي لا وطن لها مركز سياسي ووطن فعلي في فلسطين.

وتقف اللجنة المشتركة بقوة ضد مثل هذه النظرية. فاليهود المحرَّرون في هذا البلد إنما يعتبرون أنفسهم طائفة دينية قبل أي شيء آخر؛ وقد دعموا دوماً مطالبهم الخاصة بالمساواة في الحقوق السياسية بالاستناد إلى هذا المفهوم وإلى ما يترتب عليه، ألاَ وهو أنهم ليست لديهم تطلعات قومية خاصة بالمعنى السياسي للكلمة. وهم يرون أن اليهودية مذهب ديني، لا يجمعه شيء بوضعيتهم السياسية، ويؤكدون من جديد أنهم، بوصفهم مواطنين في البلدان التي استقروا فيها، قد اندمجوا بالكامل وبكل إخلاص في الروح القومية لهذه البلدان وفي مصالحها. ويترتب على ذلك أن تكوين جماعة قومية يهودية في فلسطين، استنادًا إلى نظرية غياب أي وطن لليهود، سوف ينجم عنه اعتبار اليهود أجانب في بلدانهم الأصلية وتهديد وضعهم كمواطنين ورعايا لهذه البلدان. وهو وضع كسبوه بمشقة. والأكثر من ذلك أن الجماعة القومية اليهودية السياسية، بدفعها إلى نتيجتها المنطقية، سوف تشكل في الحالة الراهنة للعالم شيئًا مفارقًا من الناحية التاريخية بالفعل. وبما أن المعيار الأكيد الوحيد لليهودي هو الديانة اليهودية، فإن من شأن الجماعة القومية اليهودية أن تستند بالضرورة إلى أساس الدين وأن تقتصر عليه. ولا يمكن التسليم للحظة بأن بوسع جماعة ما من اليهود أن تتطلع إلى دولة مبنية على أساس ديني وتقتصر على مسائل حرية الضمير؛ وأيًا كان الأمر، فهل يمكن لأي جماعة قومية دينية أن تكون لها صيغة سياسية أخرى ما؟ إن البديل الوحيد من شأنه أن يتمثل في إنشاء جماعة قومية يهودية زمنية، مبنية على بعض المبادئ الغامضة الخاصة بالجنس وبالخصوصيات الإثنوغرافية؛ بيد أن أمة يتم تصورها على هذا النحو لن تكون يهودية بالمعنى الروحي للكلمة؛ وقيامها في فلسطين

سيشكل نفيًا لكل مثل أعلى؛ لجميع الآمال التي تسترشد عودة الحياة اليهودية من خلالها في هذا البلد بضمير اليهودية ومشاركتها الوجدانية. والحال أنه لأجل هذه الاعتبارات ترفض اللجنة المشتركة بأقوى شكل مقترحات الصهيونيين القومية.

والنقطة الثانية محل الرفض هي المطالبة بامتيازات ليهود فلسطين. فهي تشكل انتهاكًا للمبدأ الأساسي الخاص بالمساواة في الحقوق وتشكل خطرًا على كل يهود العالم.

ويستثير نشر هذا الموقف سيلاً من الاحتجاجات الصادرة عن كل أطياف الطائفة اليهودية. وفي ١٧ يونيو/ حزيران ١٩١٧، تجري الإطاحة بقيادة هيئة النواب عبر اقتراح بسحب الثقة؛ وفي اليوم التالي، تنسحب الهيئة من اللجنة المشتركة. وتلك نهاية للمعارضة المنظمة للصهيونية في أوساط الطائفة اليهودية البريطانية. ويواصل وولف عمله داخل الجمعية الأنجلو ــ يهودية. ويتدخل بشكل فعال لصالح يهود بغداد، ويركز جهوده بشكل خاص على تحسين ظروف يهود أوروبا الشرقية، خاصة يهود رومانيا وبولنده. وتدرك القيادة الجديدة للهيئة أنها تفتقر إلى الصلاحيات الضرورية لممارسة مثل هذا العمل الخارجي: وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧، يعاد تكوين اللجنة المشتركة، ولكن على أسس جديدة. وما كان قد أدين في يونيو/ حزيران ١٩١٧ كان في نهاية الأمر احتكار التمثيل السياسي الذي تمثله أوليجاركية من كبار الوجهاء بأكثر مما كان البرنامج في حد ذاته.

لقد خاض ڤايتسمان حملة ظافرة ضد اللجنة المشتركة[٧٣]. وقد صَوَّرَ نفسه على أنه مدعوم من جانب حكومة صاحب الجلالة. وعَرَضَ خط عمله هو: إن الهدف إنما يتمثل في خلق كومونويلث يهودي في فلسطين، بيد أن هذا هدف في الأمد الطويل، ويجب أن يمر تحقيقه عبر سلسلة كاملة من المراحل الانتقالية التي تتمثل واحدة من أوائلها في الحصول على حماية من جانب بريطانيا العظمى. وفي هذه المرحلة برمتها، يمتنع الصهيونيون بحكمة عن استخدام مصطلح الدولة مستخدمين بدلاً من ذلك مصطلحات أكثر غموضًا مثل *home* (مقام) أو **كومونويلث**، وهو مصطلح لا يعني دولة بالضرورة. ويستخدم الصهيونيون الأميركيون مصطلح *homeland* (وطن).

وإذ يرتاب ڤايتسمان الآن في سايكس، الذي يعتبره مبالغاً في مراعاته للمصالح العربية، فإنه – هو الذي يعرف أن لندن تسعى إلى فرض حماية بريطانية على فلسطين – إنما يمحور دعايته على مسألة يهود روسيا[٧٤]. فهو يعلن في كل مكان أنهم موالون للصهيونية وأنهم سوف يلعبون دورًا جوهريًّا في إبقاء روسيا في معسكر الحلفاء. وهنا أيضًا، يتعارض ڤايتسمان مع وولف الذي تؤكد تقارير السفارة البريطانية في بتروجراد تأكيداته. فرجل اللجنة المشتركة يذكِّرُ بأهمية البوند وواقع أن مجمل المنظمات الاشتراكية، يشمل ذلك الصهيونيين، إنما تعارض مواصلة المجهود الحربي. وبالرغم من المعلومات الواردة من العاصمة الروسية حول ضعف اليهود السياسي، فإن حكومة صاحب الجلالة تواصل اقتناعها بأن الثورة الروسية هي إلى حد بعيد من عمل عناصر يهودية مختلفة.

ويشدِّدُ ڤايتسمان على خطر قيام ألمانيا باستخدام الصهيونيين الألمان في التحريض على الدعاية الداعية إلى السلم في روسيا. وهو يتحدث عن التحالف الموجود، في العالم كله، بين قوى رأس المال المصرفي اليهودي الكبير المتطرفة[٧٥] واليسار الاشتراكي المتطرف، الذي لا يعتبر أقل يهودية، لصالح صلح مؤات لألمانيا، في حين أن غالبية اليهود الساحقة موالية للصهيونية: والحال أن فلسطين تحت حماية بريطانية إنما تعد هي وحدها القادرة على السماح بمواجهة هذا الخطر[٧٦].

بعثة مورجنتاو

عندما يتهجم ڤايتسمان على رأس المال المصرفي اليهودي الكبير، فإنه إنما يفكر بشكل خاص في مورجنتاو[٧٧]. ويعرف السفير السابق لدى القسطنطينية أن الحلفاء كانت لهم، بشكل دوري، مباحثات مع العثمانيين، تحت غطاء تبادل الأسرى، سعيًا إلى حث الباب العالي على الانسحاب من الحرب. وهو نفسه يتباهى بأن له علاقات صداقة مع أنور باشا[٧٨]. وقد أكد خَلَفُهُ، إيلكاس، رغبة بعض المسئولين العثمانيين، القلقين على مصير الدولة العثمانية، في الانسحاب من الحرب. والحال أن مورجنتاو، الواثق من الفوز بدعم المبشرين، إنما يقتنع

ويلسون المتحفظ بأن يدعه يقوم ببعثة استطلاعية في هذا الاتجـاه (٢٨ مـايو/ أيّار ١٩١٧). والذريعة المستخدمة كغطاء هي تنظيم غوث يهـود فلـسطين. فالسفير سوف يزور مصر ثم فلسطين، حيث سيلتقي أنور لكي يقتـرح عليـه الإبقاء على الدولة العثمانية التي لن تكون لها بعدُ غير سيادة إسمية على سوريا وأرمينيا. والحال أن بلفور، الموجود آنذاك في الولايـات المتحـدة، لا يـرى اعتراضًا على ما لا يعدو أن يكون مجرد اتصال.

والحاصل أن بعثة مورجنتاو إنما تعد الكاشف للأهمية التي يتخذها العامل اليهودي في عام ١٩١٧ هذا. فالسفير، بالرغم من كونه غير صهيوني، قد حمى يهود فلسطين بالشكل نفسه الذي تولى به الدفاع عن المصالح التبشيرية. وهـو يطلب ضم شخصية صهيونية أميركية إلى وفده. فسوف يكون بوسعه عندئذ أن يتحدث باسم الصهيونيين ويصبح المحاور الذي لا غنى عنه فيما يتعلق بمسألة فلسطين. وهو يفكر في استعادة مشروعه الخاص بشراء فلسطين مـع طمأنـة الفرنسيين على مصير سوريا(٧٩).

والحال أنهم يقترحون عليه الحاخام وايز، والذي تعد نشاطيته مـن أجـل الحركة معروفةً للجميع، أو رجل قانون شابًا ولامعًا، هو فيليكس فرانكفـورتر. ويقع الاختيار على هذا الأخير.

وتقدم الحكومة الفرنسية موافقتها على المشروع. وهنا أيضًا، يجري اختيار إسرائيلي لتمثيل دولة متحالفة: إنه السيد ڤيل، المدير السابق لشركة التبـغ فـي القسطنطينية، والذي كانت له علاقات ممتازة مع مورجنتاو(٨٠). وهذا الأخيـر يعلن أنه سعيد بذلك(٨١).

وعندما يرجع بلفور من الولايات المتحدة، يقـوم بمراجعـة موقفـه. إن الحكومة البريطانية عازمة تمامًا على فرض سيادتها على فلسطين. وفـي ١٩ يونيو/ حزيران، يلتقي اللورد روتشايلد وڤايتسمان ويطلب إليهما أن يقدما إليـه مشروع تصريح. وتصبح بعثة مورجنتاو عبئًا مزعجًا. والحال أن هـذا إنمـا يتماشى مع رغبة ڤايتسمان الذي يجهل النوايا الأميركية الحقيقية: إنه يرى فيـه المتحدث بلسان المحبين للأتراك في لندن وواشنطون والذين يحرصون علـى صون وجود الدولة العثمانية. فيقوم بحملـة نـشيطة لـدى وزارة الخارجيـة

البريطانية ضد البعثة. ويتّهم مورجنتاو بالعمل لحساب برلين: والألمان يمارسون هيمنة ضخمة على السلطة العثمانية بحيث إنه من غير الوارد بالمرة أنهم لم يقدموا موافقتهم على اتصالات كهذه؛ ومن ثم فإن هذا لا يمكن إلاّ أن يكون ضارًّا بالنسبة لبريطانيا العظمى[٨٢].

وتقترح لندن على واشنطون إلغاء البعثة، لكن الأميركيين يرفضون. ويجري اتخاذ ڤايتسمان ممثلاً بريطانيًا. وهذا من شأنه أن يسمح أيضًا بتقدير حجم النفوذ الواقعي الذي يتباهى بأنه يتمتع به. ويتحدد جبل طارق مكانًا للّقاء، حيث يتعين التقاء جميع أعضاء البعثة. وتبدأ المباحثات في ٤ يوليو/ تموز: فيقوم مورجنتاو، على ضوء معلومات أخيرة حصل عليها، بعرض الوضع الكارثي الذي تجد الدولة العثمانية نفسها فيه، بيد أنه يبدو غامضًا فيما يتعلق ببرنامج عمله. والحال أن ڤايتسمان حازم في موقفه ويجد نفسه مدعومًا من جانب فرانكفورتر، بينما يبدو ڤيل مبتعدًا عن الجدل بالأحرى. ويجري لوم مورجنتاو على أنه لا يملك شروطًا محددة يمكنه عرضها على العثمانيين، بينما يشدِّد ڤايتسمان بقوة على واقع أن الصلح مع تركيا، بالنسبة لبريطانيا العظمى، إنما يمر بالضرورة بفصل أرمينيا وبلاد الرافدين وسوريا وفلسطين عن بقية الدولة العثمانية[٨٣]. ويعترف مورجنتاو بأن الأتراك لم يتخذوا الخطوات الأولى وبأن الوفاق إنما يجد نفسه، فجأة، في موقع طارح الدعوى، ومن ثم في موقع ضعف في المفاوضات. فيقترح عملاً عسكريًا أنشط من جانب الحلفاء في بلاد الرافدين وفي فلسطين وفي أرمينيا لتركيع العثمانيين. فيرد عليه المندوبون الإنجليز والفرنسيون بأن الحلفاء لا يمكنهم إرسال قوات جديدة إلى الشرق الأدنى. ويقترح مورجنتاو أن تستعد أميركا لتحمل جانب مهم من الحملة بإرسال قوة خاصة يتراوح حجمها بين ٥٠٠٠٠ و١٠٠٠٠٠ رجل: وعندئذ ستضطر تركيا إلى الانصياع، وهذه المشاركة الأميركية

> [...] ستستثير في الولايات المتحدة حماسة عارمة تعد مرغوبة خاصةً وأن أسباب دخول الحرب، في هذا البلد مترامي الأطراف والذي ما يزال قليل التجانس، لم يجر فهمها جيّدًا في جميع المناطق. وسوف تصبح فكرة حملة صليبية أميركية فكرة ذات شعبية في التوِّ والحال: فالمسيحيون واليهود سوف يقدمون العديد من المتطوعين لأجل حملة هدفها رفع

العلم الأميركي في "أرض الكتاب المقدس"[٨٤].

والحاصل أن مورجنتاو، إذ يطالب بتكثيف المجهود الحربي مع اضطراره إلى الاعتراف بأن الولايات المتحدة ليست إلى الآن في حالة حرب ضد الدولة العثمانية، إنما يسلم بأن مشروعه يتميز بكونه ما يزال سابقًا للأوان. فيتخلى عن بعثته وتتفق الأطراف كافة على ترقب اللحظة المناسبة للقيام، عبر سويسرا، باستئناف الاتصالات مع العثمانيين. ويتخلى الأميركي عن فكرة الذهاب إلى مصر ويقضي بضعة أسابيع في فرنسا قبل أن يرجع إلى الولايات المتحدة.

وفي اجتماع مع بول كامبون، في ٩ يوليو/ تموز[٨٥]، يُرجع بلفور تغيير الموقف البريطاني إلى أشكال انعدام التحفظ التي كان مورجنتاو مسئولاً عنها: "لقد استنتجت من ذلك أنه قد جرى الانخراط في التحدث إلى الولايات المتحدة وقد أوضحت أنني لم أعد مستعدًا للتورط في أي شيء. وبوسع السيد مورجنتاو أن يذهب إلى مصر أو إلى أي مكان ويواصل المحادثات مع جماعة تركيا الفتاة، لكننا سنظل غريبين عن هذه المحادـــ وبما أن القوات البريطانية هي القوات الأهم في محاربة العثمانيين، فإن هذا إنما يؤدي بالفعل إلى جعل بعثة مورجنتاو فارغة من المعنى. ولا يصدق سفير فرنسا هذه الرواية الرسمية ويلقي بالمسئولية عن انقلاب الموقف البريطاني على عمل اللجان الصهيونية والأرمنية:

> إن واحدًا من أنشط الصهيونيين ألاَ وهو السيد ڤيتزمان [كذا]، هو الذي كان قد جرى إرساله إلى جبل طارق لكي يرافق السيد مورجنتاو إلى مصر. ووجوده بحد ذاته إنما يشكل برهانًا على أن وزارة الخارجية [البريطانية] قد غيَّرَت بالكامل خط مسلكها وأنها لن تدع السفير الأميركي السابق يجري المفاوضات وفقًا لآرائه هو. وبالنظر إلى العلاقات جد الوثيقة المتصلة بين هذا الأخير والسيد شيف ومجموعات نيويورك التي توجد لها صلات بالألمان، فإنه لا يمكن إلاّ أن يكون مهمًّا بالنسبة للوفاق أن يحصل على ضمان ما.

ويؤدي نجاح ڤايتسمان في جبل طارق إلى تعزيز موقعه بشكل ملحوظ أكان في داخل الحركة الصهيونية أم لدى السلطات البريطانية.

تصريح بلفور

خلال غياب ڤايتسمان، يجتمع سوكولوڤ وصهيونيو لندن لإعداد مشروع التصريح الذي طلبته السلطات البريطانية منهم(٨٦). فيدور نقاش حار لمعرفة ما إذا كان يتوجب لمصطلح الدولة اليهودية أن يظهر [في التصريح]. ويعترض سوكولوڤ على ذلك: فإذا ما طالب المرء بالكثير جدًا فإنه لن يحصل على شيء. ويتم التوصل في ١٢ يوليو/ تموز إلى صيغة تشكل حلاً وسطًا:

> إن حكومة صاحب الجلالة، بعد أن تدارست أهداف المنظمة الصهيونية، إنما تقبل مبدأ الاعتراف بفلسطين كمقام قومي للشعب اليهودي، وبحق الشعب اليهودي في بناء حياته القومية في فلسطين تحت حماية يتوجب إنشاؤها عند عقد الصلح على أثر نهاية سعيدة للحرب.
>
> وترى حكومة صاحب الجلالة أن من الضروري لتحقيق هذا المبدأ ضمان حكم ذاتي داخلي للجماعة القومية اليهودية في فلسطين وضمان حرية الهجرة لليهود وضمان إنشاء شركة قومية يهودية للاستيطان وذلك لأجل إعادة التوطين ولأجل التنمية الاقتصادية للبلد.
>
> وترى حكومة صاحب الجلالة أن شروط وأشكال الحكم الذاتي الداخلي وكذلك الامتياز الذي يكفل الشركة القومية اليهودية للاستيطان يجب تحديدها وبلورتها بالتفصيل مع ممثلي المنظمة الصهيونية(٨٧).

ويجري نقل هذا النص إلى اللورد روتشايلد الذي يبلغه بشكل شبه رسمي إلى سايكس وإلى زميله السير رونالد جراهام. ويرى الرجلان أن النص طويل جدًا، أي مفرط في إلزام البريطانيين. فيتفق سوكولوڤ وجماعته في ١٨ يوليو/ تموز على صيغة أقصر:

> ١. تقبل حكومة صاحب الجلالة مبدأ إعادة تكوين فلسطين كمقام قومي للشعب اليهودي
>
> ٢. ستبذل حكومة صاحب الجلالة كل مساعيها لأجل ضمان تحقيق هذا الهدف وسوف تناقش مع المنظمة الصهيونية الطرائق والسبل الضرورية لذلك(٨٨).

ومصطلح "إعادة التكوين" يعني الاعتراف بالصلة التاريخية بين الشعب اليهودي وفلسطين، ومصطلحا "مقام قومي" و"الطرائق والسبل الضرورية" يشكلان، بشكل ضمني، قبول وجود حقوق خاصة لليهود. والحال أن المسئولين البريطانيين، مع حرصهم على أن يكفلوا لأنفسهم الفوز بدعم من جانب اليهود الأميركيين والروس، إنما يرون أن النص ما يزال مُفرطًا في إلزامه. ثم إن سكرتير الدولة الجديد لشئون الهند، إدوين مونتاجو (وهو أحد أبناء خالة هربرت صمويل)، إنما يسعى إلى معارضة مشروع التصريح: وهو يفعل ذلك في آن واحد باسم هموم وزارته (فهو يخشى من موجة ثورة بين صفوف المسلمين الهنود إذا ما جرى منح فلسطين لليهود) وباسم اليهود البريطانيين الذين سيجدون أنفسهم وقد اعتبروا أجانب في بلدهم إذا ما اعترفت حكومة صاحب الجلالة بوجود شعب يهودي. فيقترح بدوره صيغة لا تتضمن أي إشارة إلى وجود أمة يهودية:

> ستكون الحكومة مستعدة لبذل كل ما في وسعها من أجل الحصول لليهود في فلسطين على حرية كاملة في الاستقرار والمعيشة على أساس المساواة مع سكان هذا البلد الذين يتبنون معتقدات دينية أخرى.

والحال أن اعتراضات البعض والبعض الآخر إنما تقود اللورد ملنر، رجل الدولة البريطاني، إلى تعديل نص سوكولوف تعديلاً جذريًا:

> تقبل حكومة صاحب الجلالة مبدأ اغتنام أي فرصة لإيجاد مقام للشعب اليهودي في فلسطين، وسوف تبذل كل مساعيها لأجل تحقيق هذا الهدف وستكون مستعدة لأن تأخذ بعين الاعتبار جميع الاقتراحات التي قد ترغب المنظمة الصهيونية في عرضها عليها فيما يتعلق بهذا الموضوع(٨٩).

وهكذا يختفي الاعتراف بحقوق تاريخية والاعتراف بالشعب اليهودي، بينما يجري تعديل وضع فلسطين تعديلاً جذريًا: إذ يجري الكف عن تحويلها إلى مقام، فهذا المقام إنما يتواجد في داخلها (الأمر الذي قد يعني أن المسألة لا تتعلق بكل فلسطين).

والرهان الآخر في الفترة نفسها هو تكوين وحدات عسكرية يهودية بشكل خالص. وڤايتسمان مؤيد لذلك، بيد أن غالبية رفاقه معادون لذلك، خوفًا من أن تحل بيهود فلسطين تدابير انتقامية. ويضطر ڤايتسمان إلى التهديد بالاستقالة سعيًا إلى استعادة صدارته في داخل الحركة.

وفي أواخر أغسطس/ آب ١٩١٧، يعرض سايكس في مذكرة حول مستقبل الشرق[٩٠] آراء توضح إلى أي مدى أمكنه استيعاب أهمية المنظورات الجديدة التي خلقها العام ١٩١٧؛ إذ يجب إلغاء أي إحالة إلى معجم الإمبريالية والاستناد أساسًا إلى مبدأ القوميات، ومن هنا مراجعة اتفاقات عام ١٩١٦: إذ يجب الاعتراف بالحجاز كدولة ذات سيادة تحت إشراف بريطانيا العظمى؛ ويجب وضع فلسطين تحت وصاية بريطانيا العظمى، على أن تدير فرنسا المصالح الكاثوليكية، وتتولى لجنة دولية حكم القدس وبيت لحم؛ ويجب للعرب أن يحوزوا حيفا كمنفذ إلى البحر؛ وأمّا فيما يتعلق بمناطق النفوذ الفرنسية والبريطانية في سوريا وبلاد الرافدين، فمن غير الوارد ضمها بل مجرد إدارتها من جانب الدولتين في تناغم مع الأماني التي يعبر عنها السكان. وإذا ما اعترفت فرنسا اعترافًا شجاعًا بالقوميتين الأرمنية في الشمال والعربية في الجنوب، فإنها لن تخسر شيئًا وستربح كل شيء. وبالمقابل، فإنها إذا ما عارضت النزعات القومية ستجد نفسها وقد تصدى لها الصهيونيون والعرب والأرمن في سوريا. وفي حالة تخلي فرنسا عن سياسة الضم، سترى إيطاليا نفسها وقد حرمت من أي مشروعية في مطالبتها بمناطق نفوذ في الأناضول. والخلاصة:

> إنني أريد أن أرى وفاقًا أنجلو ــ فرنسيًّا مستديمًا، متحالفًا مع اليهود ومع العرب ومع الأرمن. ومن شأن هذا الوفاق أن يجعل نزعة الجامعة الإسلامية غير مؤذية وأن يحمي الهند وأفريقيا من المناورات التركية ــ الألمانية التي، أعتقد، أنها سوف تستمر بعد زوال آل هوهنزوليرن.

ونجد هنا مفردات اليوتوبيا العزيزة على سايكس (وإن لم تكن عزيزة عليه وحده، فتلك هي الحالة أيضًا مع ت. إ. لورانس أو ماسينيون)، التناغم الممكن

بين القوميات والإمبراطوريات الاستعمارية التي ستعيد تعريف أشكال نفوذها. كما يجري تعريف شروط المرجعية التي ستكون شروط مرجعية البريطانيين خلال مؤتمر الصلح: استخدام سلاح القوميات سعيًا إلى زعزعة الموقع الفرنسي في الشرق الأدنى. وفي اللحظة المباشرة، لا يعد ذلك غير ورقة إضافية في الملف.

وفي ٣ سبتمبر/ أيلول ١٩١٧، تدرس وزارة الحرب البريطانية مسألة الصهيونية، في غياب بلفور ولويد جورج. ويتوصل مونتاجو إلى موافقة على عدم تشكيل أفواج يهودية بل مجرد كتائب مندمجة في الجيش البريطاني دون أن تحمل علامات يهودية مميِّزة: وهو يبرز حساسية اليهود البريطانيين العاملين في صفوف قوات بلدهم، والذين يجازفون بتهديد سمعتهم كمقاتلين استنادًا إلى مسلك فوج يهودي بشكل متميز. وتجري مناقشة مضمون مشاريع التصريح، بما أن أهمية العامل اليهودي معروفة للجميع. ودون تهديد أساس هذا التوجه السياسي، باستثناء مونتاجو، يجري اتخاذ قرار بمشاورة الحلفاء، وفي المقام الأول أهمهم، الولايات المتحدة[٩١]. وفي صباح اليوم التالي، يرسل سيسيل برقية إلى الكولونيل هاوس يطلب فيها قيام ويلسون بتوضيح موقفه بشكل رسمي فيما يتعلق بإصدار تصريحٍ متعاطفٍ مع الحركة الصهيونية[٩٢].

والحال أن الكولونيل هاوس، المعادي بالأحرى، إنما يرى أن اللحظة ليست مناسبة بعد لاتخاذ قرار كهذا. فأخذ تعهد حازم سوف يكون من شأنه تهديد الخط السياسي الأميركي بإبقاء ملفات ما بعد الحرب مفتوحة طالما أن الأعمال الحربية لم تنته. وبعد التشاور مع الرئيس، يرد على البرقية في هذا الاتجاه في ١٠ سبتمبر/ أيلول[٩٣]. وتعتبر الحكومة البريطانية رسالة هاوس اعتراضًا أميركيًا.

وإذ يعلم ڤايتسمان متأخرًا بالوضع، فإنه يسارع إلى مخاطبة برانديز سعيًا إلى تغيير موقف الولايات المتحدة[٩٤]. وبعد التشاور مع هاوس، يبلغ برانديز ڤايتسمان في ٢٤ سبتمبر/ أيلول بأن ويلسون مؤيد بالفعل لمشروع التصريح وأن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة توقيت. وإذ يجد ڤايتسمان نفسه مزوَّدًا بهذه العناصر، فإنه يتمكن من طرح المسألة من جديد على لويد جورج. وهو يستخدم

الحجة الجديدة المتمثلة في أن الألمان بسبيلهم إلى التحضير لإصدار تصريح يعود عليهم بالدعم من جانب العالم اليهودي. ويتعلق الأمر في الواقع بحملة صحافية في ألمانيا تطلب قيام الباب العالي بمنح حكم ذاتي يهودي في فلسطين تحت السيادة العثمانية كيما تتمكن إمبراطوريتا وسط أوروبا من الفوز بدعم اليهودية العالمية التي هي بسبيلها إلى الانحياز إلى صف دول الوفاق. والحكومة الألمانية أكثر تحفظاً، لأنها مضطرة إلى مراعاة جانب العثمانيين[٩٥] (فهي عليمة بمحاولات الصلح المنفرد بين القسطنطينية والحلفاء، وهي محاولات دورية). كما يتهجم ڤايتسمان على مونتاجو، هذا القومي الهندي الخصم للنزعة القومية اليهودية[٩٦]. فهذه المعارضة إنما تنبع من رأس المال المصرفي الكبير الكوزموپوليتي اليهودي المستوعَب الذي فقد منذ زمن طويل كل اتصال بالحياة وبالأفكار اليهودية[٩٧]. ويتمتع ڤايتسمان بدعم نشيط من جانب سايكس، الذي يوجه مذكرة جديدة إلى الوزارة: إن الصهيونيين لا يريدون مدينة القدس العتيقة ولا الأماكن المقدسة المسيحية والإسلامية؛ وهم لا يسعون إلى إقامة دولة يهودية ويرفضون الفوز بوضعية مميزة في فلسطين؛ فما يريدونه هو حكم ذاتي قومي يجمع في اتحاد فيديرالي "وحدات"هم المختلفة ويكون مفتوحًا لجميع المستوطنين اليهود. وهو يرى أن المسألة الفلسطينية جد حساسة ولابد من مراعاة جميع العوامل (الأماكن المقدسة، الجماعة السكانية المحلية، الطموحات الصهيونية): فإذا ما جرى تجاهل عامل من هذه العوامل، سوف تترتب على هذا التجاهل مشكلات[٩٨].

وفي ٤ أكتوبر/ تشرين الأول، تدرس وزارة الحرب من جديد المسألة. وهذه المرة، يحضر لويد چورج وبلفور الاجتماع. وأخذًا بعين الاعتبار اعتراضات مونتاجو، يجري قبول صيغة جديدة، حررها ملنر وإيمري:

> تنظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف إلى القيام في فلسطين بإيجاد مقام قومي للجنس اليهودي وسوف تبذل كل مساعيها لأجل تيسير تحقيق هذا الهدف، على أساس أن من المفهوم بشكل واضح أنه لن يجري القيام بشيء من شأنه إلحاق ضرر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين. ولا بالحقوق والوضعية السياسية التي يتمتع بها في بلد آخر اليهودُ الراضون تمامًا بجنسيتهم ومواطنتهم الراهنتين[٩٩].

ويقدم بلفور دعمًا حازمًا للمشروع. وهو يستند إلى مخاطر سبق الألمان [للبريطانيين] وإلى الدعم الذي قدمته فرنسا لسوكولوف وإلى موافقة الرئيس ويلسون[١٠٠]. ويعترض مونتاجو على ذلك. أمَّا اللورد كيرزون، النائب السابق للملك في الهند واللورد الرئيس الحالي للمجلس، والذي يتمتع بسمعة أنه خبير في الشئون الشرقية، فهو يتدخل للمرة الأولى مبرزًا اعتراضات عملية: إن فلسطين بلد فقير، قليل الملاءمة لتوطين جماعي لليهود. فكيف سيمكن عندئذ التخلص من أغلبية المسلمين الراهنة لوضع اليهود في مكانها؟ والأهلية الاقتصادية مسألة مشكوك فيها: فبالرغم من إنفاقات تعد من أكثر الإنفاقات أهمية، نادرًا ما أصبحت المستوطنات اليهودية القائمة مكتفية ذاتيًّا. والقدس مدينة جد مهمة في نظر المسلمين والمسيحيين بحيث يتعذر تركها لليهود وحدهم: ولا يمكن تخيل مستقبل يتم فيه استبعاد المسلمين من المدينة المقدسة، والخليل مكان لا يكاد يكون أقل قداسة بالنسبة للمسلمين. والصهيونية لا تهم غير أقلية من يهود العالم. ومن الواضح أنه لابد من وجود إدارة أوروبية لفلسطين من شأنها أن تكفل الاعتراف بمساواة في الحقوق المدنية والدينية ليهود فلسطين[١٠١]. ومن جديد، يجري اتخاذ قرار بمخاطبة ويلسون،وسوف يتم إجراء استقصاء في صفوف الأوساط اليهودية البريطانية الممثلة لليهود. ويُعهد بهذه المهمة إلى هانكي، سكرتير وزارة الحرب.

ويناقش هاوس مع الرئيس الأميركي مصير الدولة العثمانية، في ١٣ أكتوبر/ تشرين الأول. فيواصلان التمسك بسياسة الإبقاء على السيادة العثمانية ضمن إطار إدارة لا مركزية تستند إلى إساس عرقي. وبعد مغادرة هاوس، يقرأ ويلسون المذكرة التي تتضمن النص الأحدث لمشروع التصريح. فيوجه رسالة إلى هاوس يبلغه فيها بأنه يخشى من أنه لم يقل له إنه قد شارك في وضع الوثيقة[١٠٢]. وفي ١٦ أكتوبر/ تشرين الأول، يبلغ هاوس لندن بموافقة الرئيس، بيد أنه يبلغها أيضًا برغبته في عدم اتخاذ موقف رسمي الآن حول الموضوع[١٠٣]. ويتوصل الصهيونيون الأميركيون إلى استبدال مصطلح "الشعب اليهودي" بمصطلح "الجنس اليهودي"، كما يتوصلون إلى تعديل لتعبير "اليهود الراضون تمامًا بجنسيتهم الراهنة"، لأنه قد يوحي بأن الصهيونيين الأميركيين

غير راضين عن وضعهم في الولايات المتحدة. أمّا فايتسمان فهو يطالب باستبدال تعبير "إيجاد" بتعبير "إعادة إيجاد"، كما يطالب بالتصويبات الأخرى المشار إليها بالفعل[١٠٤]. ويجري شن حملة قوية في صفوف الرأي العام سعيًا إلى التعبير عن دعم مجمل اليهود البريطانيين للمشروع الصهيوني. وفي وزارة الحرب، يعرف فايتسمان أن بوسعه الاعتماد الآن على سمتس، من جنوبي أفريقيا، والذي صار نصيرًا سافرًا للصهيونية[١٠٥].

وبما أن مونتاجو في زيارة إلى الهند، فإن كيرزون إنما يظل المعارض المهم الوحيد. وهو يستأنف توجيه انتقاداته في مذكرة حول مستقبل فلسطين مؤرَّخة في ٢٦ أكتوبر/ تشرين الأول. وتتصل هذه الانتقادات بالطابع الملتبس لتعبير "مقام قومي"، والذي قد يؤدي أو قد لا يؤدي إلى تكوين دولة، كما تتصل بعدم قدرة فلسطين على استقبال عدة مئات من الآلاف من المستوطنين، وغالبيتهم من غير المؤهلين للقيام بنشاطات اقتصادية منتجة، خاصة في الزراعة. والحال أن سايكس، بعد التشاور مع آرونسون، إنما يرد بوثيقة أخرى، في ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول، يؤكد فيها أن سكان فلسطين يمكن أن يتضاعف عددهم في سبع سنوات إذا ما جرى توفير الأمن والمرافق الضرورية.

وفي ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول، يجري عرض الملف من جديد على الوزارة. والحال أن الغالبية العظمى من الشخصيات اليهودية التي جرى الاتصال بها إنما تبدو مؤيدة للمشروع. ويشدِّدُ بلفور على أهمية كسب تعاطفات اليهود الأميركيين والروس. فيستعيد كيرزون حججه المعروفة بالفعل. ويرد عليه بلفور بالاستناد إلى مذكرة سايكس. أمّا فيما يتعلق بالمقام القومي، فإنه يتعين فهمه على أنه يعني شكلاً من أشكال الحماية يمارسه البريطانيون أو الأميركيون أو أمة أخرى، ويحصل اليهود بفضله على إمكانات العمل على خلاصهم وإمكانات بناء مركز حقيقي للثقافة وللحياة القوميتين، عبر التعليم والزراعة والصناعة. ولا يعني هذا بالضرورة الإقامة الفورية لدولة يهودية، قد تنبثق تدريجيًا بحكم القوانين العادية للتطور السياسي.

ويرضخ كيرزون لضرورات العمل الدبلوماسي: إن تحفظاته إنما تتصل،

على أي حال، بالمستقبل ومن ثم فهي لايمكن أن تكون موضع شواغل مباشرة من جانب الحكومة البريطانية. ويجري تعديل النص مرة أخرى لمراعاة التعديلات التي اقترحها الصهيونيون الأميركيون، إلاّ أنه لا يجري الأخذ بمصطلح "إعادة إيجاد". ثم تتم الموافقة على النص[١٠٦].

ولدى خروج سايكس من الاجتماع، يخاطب ڤايتسمان الذي كان ينتظر على مقربة: "دكتور ڤايتسمان، مبروك، جالك ولد!".

وبما أن ڤايتسمان كان غائبًا عند بداية العملية، فإلى اللورد روتشايلد، الذي كان المشروع الأول للنص قد أُرسل باسمه، يوجه بلفور، في ١٢ نوڤمبر/ تشرين الثاني، النص الرسمي للتصريح:

عزيزي اللورد روتشايلد

من بالغ سروري أن أوجه إليكم من طرف حكومة صاحب الجلالة التصريح التالي، المتعاطف مع التطلعات اليهودية الصهيونية، وهو التصريح الذي، بعد عرضه على الوزارة، تمت الموافقة عليه من جانبها.

"تنظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف إلى القيام في فلسطين بإيجاد مقام قومي للشعب اليهودي وسوف تبذل كل مساعيها لأجل تيسير تحقيق هذا الهدف، على أساس أن من المفهوم بشكل واضح أنه لن يجري القيام بشيء من شأنه إلحاق ضرر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات[١٠٧] غير اليهودية الموجودة في فلسطين، ولا بالحقوق والوضعية السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر".

وسوف أكون ممتنًّا لكم لو أبلغتم الاتحاد الصهيوني بهذا التصريح.

وفي ٩ نوڤمبر/ تشرين الثاني، تنشر الصحافة البريطانية نص التصريح.

أصول تصريح بلفور

كان آرثر چيمس بلفور[١٠٨] واحدًا من كبار رجال الدولة البريطانيين. وكان دوره مهمًّا في الحياة السياسية لبلاده في أواخر القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين. وقد مارس وظائف مهمة ــ رئيسًا للوزراء ووزيرًا للشئون الخارجية في وزارة الحرب في السنتين الأخيرتين للحرب العالمية

الأولى. كما أن هذا الأرستقراطي المتميز شخصية مثقفة، ومؤلف أعمال في الفلسفة. وحتى مع كونه يُبدي مظهرًا معينًا قوامه اللامبالاة وأخذ الأمور مأخذ الهواية، فإنه يعرف ملفاته، وإن كان بدرجة أقل من كيرزون، منافسه. ولكونه بروتستانتيًّا، فقد كان يشعر دومًا بقدر من الارتياب حيال الكاثوليكية، المعتَبَرَة إلى هذا الحد أو ذاك شكلاً من أشكال التجهيلية. وثقافته التوراتية ــ الإنجيلية، شأن ثقافة لويد چورچ، ثقافة لافتة: فهو يعرف أين تقع دان وبئر سبع.

وبالرغم من العدد الملحوظ للأعمال التي قام بها، فإننا لا نتذكر اليوم سوى التصريح الشهير الذي يحمل اسمه. والحق أن ما عداه لا يهم عمليًّا غير المتخصصين في التاريخ البريطاني.

وهناك طريقتان للنظر إلى تصريح بلفور. وتستند الطريقة الأولى إلى التاريخ البريطاني وإلى تاريخ الحرب العالمية الأولى. فيصبح التصريح حدثًا طفيف الأهمية نسبيًّا في عالم مضطرب بشكل خاص يشهد نجاح الثورة الروسية وصعود الولايات المتحدة إلى دور القوة العظمى العالمية. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧، نجد أن الشاغل الرئيسي لوزارة الحرب البريطانية ليس مصير فلسطين بل التحضير لمؤتمر الحلفاء المشترك في راباللو وضعف فرنسا النسبي الذي سوف يقود إلى صعود كليمنصو إلى السلطة.

والطريقة الثانية قوامها إعادة وضع التصريح في التاريخ اليهودي وفي تاريخ الشرق الأوسط. فالتصريح هو أول اعتراف رسمي، من جانب دولة عظمى، بوجود شعب يهودي، كما أنه بداية المواجهة بين اليهود والعرب من أجل امتلاك فلسطين. وشأن كثير من الأحداث، فإن تصريح بلفور إنما يتخذ معناه الحقيقي، ليس في سياق وضعه، وإنما في سياق ما ترتب عليه من نتائج.

بيد أن أصل تصريح بلفور إنما تتوجب دراسته في حد ذاته، لأنه غني بالدلالات. فالمواجهة فيما بين الدول المسيحية في الحرب العالمية تقود إلى مراعاة قوى ذات إمكانات لا توجد دراية جدية بها، كالإسلام السياسي (نزعة الجامعة الإسلامية والخلافة) واليهودية السياسية (النزعة الأممية الخفية والصهيونية). ويجري السعي إلى استخدام كما إلى صرف هذه القوى التي تعتَبرُ تهديدات، بشكل خاص.

والعام ١٩١٧، وهو العام الثالث في المذبحة الدائرة، إنما يتخذ طابعًا ألفيًّا يذكِّر بالأعوام الأخيرة للثورة الفرنسية (العام ١٧٩٩ بشكل خاص)؛ وفي عالم معلمَن، يتخذ التوق إلى أزمنة أفضل أشكالاً متناقضة: أممية الأمل العظيم الذي يشرق في الشرق، وربيع شعوب جديد على أطلال إمبراطوريات طال عمرها (الإمبراطورية الألمانية والنمساوية ـ المجرية والروسية والدولة العثمانية التي تزعم كلها، بأشكال مختلفة، انتسابها إلى الإمبراطورية الرومانية). وهذه الآمال ممتزجة بالخوف: فالعام ١٩١٧، في كل المعسكرات الماثلة، إنما يشهد صعودًا قويًّا لمعاداة السامية[١٠٩]، والتي تقدم مفتاحًا تفسيريًّا للتحولات الجارية.

والنقاش حول أصل تصريح بلفور ربما كان مسرفًا في تركزه على دور الرجال، ڤايتسمان خاصةً، دون أن يتركز بما يكفي على السياق العام. ومن وجهة النظر البريطانية، فمن الأرجح أنه ليس لويد چورچ أو بلفور هما اللذان قاما باللعبة، حتى وإن كانا هما اللذان اتخذا القرار النهائي من زاوية المصالح البريطانية (تهديد الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني، الدور المفترض لليهوديتين الروسية والأميركية)؛ ومن نجده منذ بداية المسألة إلى نهايتها هو سايكس، الحاضر دومًا في كل لحظة رئيسية. ولا جدال في أنه، من الجانب البريطاني، المسئول الحقيقي عن النص، أكان من حيث أصله أم من حيث كتابته.

ومن جانب الصهيونية، فمن الطبيعي أن الدور الرئيسي هو دور ڤايتسمان، حتى وإن كان لا يجب التقليل من دور سوكولوف، المسئول عن النجاحات الديبلوماسية الأولى. بيد أن النجاح إنما يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالاستغلال الواعي أو غير الواعي للسياق. وحدس ڤايتسمان الأول هو الانحياز الوثيق إلى صف المصالح الإمبراطورية لبريطانيا العظمى. ومنذ بداية الحرب، يجعل ڤايتسمان من نفسه المدافع القوي عن فرض حماية بريطانية على فلسطين. وحدسه الثاني هو أن يطرح نفسه باعتباره الممثل الوحيد للعالم اليهودي. وهذه الأعوام كلها إنما تعد معركة ضد المنظمات الإنسانية الخيرية الكبرى، ليس لأنها تهتم بفلسطين، وإنما على العكس من ذلك لأنها تقترح فيما يتعلق بها مشروعًا بديلاً للصهيونية بالمعنى الدقيق للمصطلح: إن وولف ومورجنتاو إنما يتحركان لأجل التوصل إلى وجود يهودي في فلسطين قائم على المساواة في الحقوق مع أهل

البلد. أمّا الزعيم الصهيوني، الأكثر واقعية، فهو يعرف أن تحقيق المشروع يجب أن يمر، لكي ينجح، بمنح وضع مميَّز للعنصر اليهودي.

ومثلما يحوز ڤايتسمان في آن واحد ما يتوجب توافره من الغرائبية والألفة لكي يتمكن من إغراء محاوريه البريطانيين، فإنه يعرف بشكل متزامن في الوقت نفسه كيف يقدّمُ نفسه إلى أعلى الوجهاء اليهود مكانةً (آل روتشايلد بشكل خاص) وكيف يقدم نفسه بوصفه المتحدث بلسان الجماهير اليهودية المحرومة في أوروبا الشرقية. وهو وحده الذي يمكنه أن يخاطب بالشكل التالي اللورد روتشايلد الذي يأخذ عليه "عدم تسامحه" في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٦:

> كلانا أبناء **جالوت** (المنفى) إن لم يكن الجيتو، بيد أن أغلالك من ذهب وأغلالي من حديد: و**جالوتك** جميل و**جالوتي** قذر وقاس. وقد يكون هذا هو السبب في أنني أقل أريحية، أقل تسامحًا، أقل انفتاحًا(١١٠).

وبوصفه تلميذًا جيدًا لأحاد هاعام، فإن معركته تدور ضد معاداة السامية كما ضد الاستيعاب. وهكذا يشجب، في عدة مناسبات، اليهودية الفرنسية، التي يرى أنها بسبيلها إلى الاختفاء التام، وردود فعله على الثورة الروسية ــ التي تهدد بالقضاء على المعاداة الروسية للسامية ومن ثم بالقضاء على النزعة القومية اليهودية ــ لها دلالتها.

وكما قال ذلك بلفور في مستهل الحرب، فإنه ليس بعيدًا عن الموافقة على جانب لا بأس به من الاتهامات المعادية للسامية. وهذا الموقف إنما يسمح له بأن يستعيد لحسابه التعبيرات الأكثر رواجًا لمعاداة السامية: فهو لا يتردد في وصف وولف أو مورجنتاو بأنه المتحدث بلسان رأس المال المصرفي اليهودي الكوزموپوليتي الكبير، في حين أن هذين "المستوعَبين" كانا يعتبران نفسيهما بريطانيين أو أميركيين قبل كل شيء.

وعندئذ، يمكننا أن نفهم بشكل أفضل الاستخدام المستديم للإطار المرجعي لمعادة السامية في عمله السياسي: إن اليهود الأميركيين يسيطرون على رأس المال المصرفي الأميركي، و، عبر برانديز، يستمع إليهم رئيس الولايات المتحدة؛ واليهود الروس يمارسون نفوذًا رئيسيًّا على الحركة الثورية في بلدهم؛

وإذا لم يجر فعل شي، فإن العالم اليهودي في عمومه سوف يميل إلى معسكر إمبراطوريتي وسط أوروبا[١١١].

وبقدر ما أن الإحالات الروسية والأميركية تتمم أو تضاف إلى الرغبة الإنجليزية في تهديد الاتفاق الفرنسي ـ الإنجليزي لعام ١٩١٦ حول فلسطين، فإن ڤايتسمان إنما يحوز جميع العناصر اللازمة لإقناع المسئولين البريطانيين، في نهاية عام ١٩١٧ هذه، بإصدار تصريح تعاطف مع الحركة الصهيونية. وكل هذا هو من قبيل الخديعة إلى حد بعيد: فاستيلاء البلاشفة على السلطة في الأسبوع نفسه الذي صدر فيه تصريح بلفور سوف يضع نهاية لكل عمل سياسي منظم للنزعة القومية اليهودية في روسيا؛ وتمويل الولايات المتحدة لمجهود الحلفاء الحربي سوف يكف عن المرور عبر رأس المال المصرفي الكبير وسيتم تنظيمه عبر قروض حكومية. والتأثير الفعلي لليهودية العالمية على مسار الأحداث سوف يميل إلى التلاشي بسرعة. والحال أن هذا التأثير كان، على أي حال، من قبيل الوهم المعادي للسامية ولم يكن شيئًا واقعيًا. وستبقى من ذلك، لدى المسئولين البريطانيين، فكرة أنهم قد حصلوا على مساعدة مهمة من جانب العالم اليهودي، بيد أنهم إنما يعجزون عن تحديد ماهيتها بشكل ملموس.

الفصل العاشر

الاحتلال العسكري البريطاني

"فيما يتعلق بموضوع يهود فلسطين، يوافق فيصل على عدم شن عمليات عسكرية أو التحرك في غربي خط [وادي] عربة ــ البحر الميت ــ الأردن أو في جنوبي خط حيفا ــ بيسان...

"ومن الواضح أنكم على علم بالتباينات الأساسية بين يهود فلسطين والمستوطنين اليهود: فالشيء المهم في نظر فيصل هو أن الأوائل يتكلمون العربية بينما يتكلم الأخيرون اليدِّية. وهو على اتصال باليهود العرب (فمعقلهم في صفد وفي طبرية يقع في منطقته). وهم يبدون نفورًا قويًا من اليهودي المستوطن. بل إنهم قد أوحوا باتخاذ تدابير قمعية ضده. وإلى الآن، كان فيصل يجهل هذا وسوف يستمر في جهله به. ومحاولاته الرامية إلى الدخول في اتصال مع اليهود الاستيطانيين لم تكن جد موفّقة. فهم يقولون إنهم على اتفاق مع الدول العظمى، وإنهم لا يريدون أي اتصال بالطرف العربي. وهم لن يساعدوا لا الأتراك ولا العرب.

"والآن يريد فيصل أن يعرف (من الأفضل أن تصل المعلومات المرسلة إليه إليّ، لأنني، عمومًا، أحب اتخاذ قراراتي قبله) ماهية الاتفاق المعقود بين اليهود المستوطنين (الذين يسمون أحيانًا بالصهيونيين) والحلفاء... ما الذي وعدتم الصهيونيين به، وما برنامجهم؟

"لقد رأيت آرونسون في القاهرة، وقد قال على الفور إن اليهود ينوون شراء حقوق ملكية الأراضي في كل فلسطين من غزة إلى حيفا، وأن يتمتعوا فيها بالاستقلال. فهل يجب هذه الحيازة أن تكون شراءً نزيهًا أم أنها ستتم عبر البيع الإجباري والمصادرة؟ إن الفلاحين الحاليين من المزارعين الموسميين هم الحائزون الأحرار السابقون؛ وقد يكونون مضطهدين من جانب مُلاّك أراضيهم المسلمين، بيد أن عقود إيجاراتهم مضمونة. وبوجه عام، لا تستخدم المستوطنات اليهودية عربًا. فهل ينوي اليهود إنجاز طرد الفلاحين العرب أم ينوون اختزالهم إلى عمال مياومين؟

"إنكم تعرفون إلى أي درجة يتشبث العرب ولو بأرض رديئة، وأنتم تعرفون أنه في

حين أن آراء العرب لا أهمية لها في ظل الحكم التركي [...] فإن الأحوال سوف تكون مغايرة إلى أبعد حدٍّ إذا ما قامت في شمال وفي شرق وفي جنوب الدولة اليهودية دولة عربية جديدة، مستقلة وبالأحرى ظافرة. وبوسعي أن أتخيل نشوء وضع قد لا يكون فيه تأثير النفوذ اليهودي على المالية الأوروبية كافيًا لثني الفلاحين العرب عن رفض الرحيل ـــ أو ما هو أسوأ!".

رسالة ت. إ. لورانس إلى سايكس
بتاريخ ٧ سبتمبر/ أيلول ١٩١٧،
لم ينقلها كلايتون إليه[1].

دخول القدس

يتم إقرار تصريح بلفور، في ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧، ضمن السياق العسكري الذي أحدثه اختراق الجبهة العثمانية أمام بئر سبع، في ٣٠ و ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول. وفي الأيام التالية، تتميز المعارك بعنف بالغ. والعثمانيون، الذين يفلتون من مناورة تطويق، ينجحون في الانسحاب بنظام جيد. وخلال عشرة أيام، يتقدم البريطانيون نحو ٨٠ كيلومترًا. وقد خسروا ٦٠٠٠ رجل (ما بين قتيل وجريح) في مقابل ١٠٠٠٠ رجل خسرهم العثمانيون[2].

وهذه الأحداث مزامنة لتفاقم الوضع العسكري في أوروبا الغربية (الهزيمة الإيطالية في كابوريتو). وخلال خريف عام ١٩١٧ هذا، تترافق مصاعب الحلفاء مع اضطراب أكيد تسببت فيه عروض إمبراطوريتي وسط أوروبا غير المباشرة والتي تسير في اتجاه صلح يكون مؤاتيًا لهما. وفي فرنسا، بعد الفشل الدامي في شوما دي دام، تعين تولي زمام الجيش بيد قوية، في حين أن الأوساط الاشتراكية تبدو مؤيدة للفكرة ـــ الصادرة من روسيا ـــ والداعية إلى صلح دون ضم. وكان صعود المشاعر "الانهزامية" قد أدى إلى صعود كليمنصو إلى السلطة، والرجل هو الوحيد القادر على بث زخم جديد في المجهود الحربي في اللحظة التي تصبح فيها علاقة القوى مؤاتية بشكل متزايد باطراد لألمانيا، التي يمكنها أن تنقل إلى الجبهة الغربية جزءًا من قواتها التي لم تستخدم إلى

ذلك الحين في روسيا.

وكليمنصو عازم على تكريس كل شيء للحرب. وإذا كان عداؤه السابق للاستعمار لا يدفعه إلى انتهاج سياسة توسع فرنسي في آسيا، فسوف يكون من المفارق تاريخيًا أن نعتبره داعية إلى تصفية الاستعمار. وهو لا يكتفي بعدم إرسال قوات إلى فلسطين، بل إنه مستعد أيضًا للتضحية بالمصالح الفرنسية في هذا الجزء من العالم. وبما أنه يتبع نهجًا شخصيًا تمامًا في إدارة الحرب، فإنه يوحي للبريطانيين بأنه قد يتنازل عن كل شيء، فيما يتعلق بالمسائل المشرقية. وهكذا، ففي ٢٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧، يلتقي لويد چورج ويعلن أنه يؤيد صلحًا بأي ثمن كان مع تركيا: فهو لا يريد سوريا لفرنسا. وبما أن لويد چورج يشدِّدُ على هذه النقطة، فإنه يؤكد أنه لن يرفض حماية فرنسية من شأنها إدخال سرور كبير على أفئدة بعض "الرجعيين"، لكنه لا يولي أهمية خاصة لهذا الملف. ويحصل لويد چورج على موافقته على عدم ترك فلسطين للعثمانيين[٣]. وسوف يتم إجراء مفاوضات سرية مع هؤلاء الأخيرين بيد أنها ستكون عديمة الجدوى.

وإذا كان كليمنصو قلما يهتم بمستقبل سوريا، فإن الأمر ليس كذلك عند جهاز الدولة الفرنسية. فالاستعماريون، من العسكريين والديبلوماسيين، سوف يدافعون بشراسة عن فرنسا المشرق ضد البريطانيين الذين يخامرهم، بحكم هذا الواقع، انطباع متباين فيما يتعلق باتجاه السياسة الفرنسية. فكل احتجاج فرنسي إنما يجري رده إلى جماعة الضغط الإكليريكية، التي تتصرف دون تصريح من رئيس المجلس[٤]. وفي تعفف، يقوم البريطانيون أيضًا بتجريم المصالح المالية الفرنسية ويشعرون بأنهم مستعدون لحماية الأهالي منها. فالعبء الأول للرجل الأبيض هو تخليص السكان من الإكليريكية والرأسمالية الفرنسيتين.

وتلك مشكلة ذلك الضرب من الكوميديا الديبلوماسية الذي يرافق دخول الإنجليز القدس والذي ستترتب عليه نتائج غير متوقعة.

إن الرهان المباشر إنما ينتمي ما يزال إلى القرن التاسع عشر: فالأمر يتعلق بوضعية الأماكن المقدسة، و، بعد ذلك، بتطبيق اتفاق سايكس ـ پيكو فيما يتعلق بتدويل فلسطين. وفي منتصف نوفمبر/ تشرين الثاني، وبحكم تقدم

الجيش، تقوم السلطات البريطانية بتعيين حاكم القدس القادم، الكولونيل بورتون، وهو إداري كفء كان قد عمل في مصر وفي السودان. وبما يشكل أول تغيير قياسًا إلى المشروع الأصلي، لن يكون هناك ممثل لشريف مكة ــ الذي كان قد أصبح منذ وقت قصير ملكًا على الحجاز ــ في إدارة الأماكن المقدسة الإسلامية في القدس. فهذا من شأنه أن يشكل اعترافًا له بسلطة ذات طابع خليفي، وهو أمر يمتنع الحلفاء الآن عن القيام به[٥]. وبما أن تعيين "إنجليزي من الهند" في وظيفة الحاكم من شأنه أن يهدد بأن يجري تفسيره على أنه امتداد للإدارة البريطانية لمصر، فإن لندن إنما تقرر أن تفصل بقدر الإمكان بين إدارة الأراضي العثمانية المحتلة وإدارة القاهرة[٦].

وتحتج الكيه دورسيه فورًا حيال تعيين بورتون وتطالب بتعيين مدراء فرنسيين على أن يؤدوا وظائفهم تحت سلطة أللنبي. وبما أن بيكو في طريقه إلى الشرق الأدنى، فإن الحكومة الفرنسية تكلف دوفرانس بتمثيلها خلال الدخول القادم إلى القدس[٧]. وتصدر لندن تعليمات بمنع أي دخول من جانب دوفرانس إلى المنطقة العسكرية.

وفي ٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني، يوقع لويد جورج تعليماته النهائية[٨]: سوف يتوجب على أللنبي دخول المدينة المقدسة ماشيًا على قدميه، وذلك بهدف إظهار احترامه لهذه الأماكن المقدسة. وستحصل الأماكن المقدسة الرئيسية على حرس مكون من جنود ينتمون إلى الديانات المعنية: وهكذا فإن مسجد عمر سوف يحميه جنود مسلمون. أمَّا الوضعية العامة للمدينة فسوف يحددها القانون العرفي. والحال أن سايكس هو الذي حدَّدَ مجمل البرنامج وهو الذي يسعى إلى إظهار تواضع الإنجليز الاحترامي بدخولهم سيرًا على الأقدام إلى المكان الذي كان ڤلهلم الثاني قد دخله بالطبل والزمر على صهوة جواده قبل ذلك ببضع سنوات. وبصرف النظر عن الديكور الذي جرى رسمه بهذا الشكل، فإن الخيار الذي حددته الإدارة العسكرية إنما يتماشى مع مرحلة جديدة في عمليتها الرامية إلى تمزيق الاتفاقات الفرنسية ــ الإنجليزية المعقودة في العام السابق، على الأقل فيما يتعلق بفلسطين.

وفي ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني، يعرف دوفرانس أنه لا يمكنه الدخول إلى

المنطقة العسكرية دون تصريح صريح من أللنبي[٩]. وفي اليوم التالي، يبلغه أللنبي من خلال الجنرال كلايتون، ضابطه السياسي، بأن دخوله إلى المنطقة العسكرية مشروط بتصريح لا يمكن أن يقدمه له سوى المندوب السامي البريطاني في مصر، وينجيت[١٠]. وهذا الأخير متوعك ولا يمكنه استقباله في التوِّ والحال. ويجري نقل المذكرة إليه كتابةً ويعبر وينجيت عن استغرابه، فالمسألة من اختصاص أللنبي. وسيكون هناك ممثلون عسكريون فرنسيون وإيطاليون عند الدخول[١١]. على أن المسألة أقل إلحاحًا، وذلك لأن الزحف البريطاني يتباطئ.

وبشكل موازٍ، ينقل بلفور إلى پول كامبون المعلومة نفسها[١٢]: إن الحكومة البريطانية على وعي تام بالأهمية التي توليها الحكومة الفرنسية لوجود ممثل فرنسي برفقة الجنرال أللنبي عند دخوله القدس. على أنه، بما أن الجنرال أللنبي سيدخل بوصفه قائدًا عسكريًا، فإن حكومة صاحب الجلالة ترى أن الممثل المناسب لفرنسا يجب أن يكون قائد الوحدة الفرنسية. وسوف تظل القدس لبعض الوقت مسرحًا للعمليات، وترى حكومة صاحب الجلالة أن الوقت لم يحن بعد لإدخال مسئولين مدنيين إليها. ويرى بلفور أنه سيكون بالإمكان التوصل إلى حل مناسب في الساحة بين الممثل الفرنسي والكولونيل بورتون، وأن پيكو، الذي سيصل قريبًا إلى مقر القيادة العامة البريطانية، سيكون بوسعه التوصل إلى اتفاقٍ مرضٍ مع كلايتون.

على أن دوفرانس إنما يشدِّدُ[١٣] على أن دخوله القدس أمر يفرض نفسه ليس بوصفه ممثلاً لفرنسا في مصر، وإنما بوصفه يمارس نيابةً عن پيكو صلاحيات المندوب السامي لفرنسا في سوريا وفي فلسطين والمكلَّف بتطبيق اتفاق تدويل فلسطين. ويرد وينجيت مؤكدًا أن الامتناع عن السماح بدخول دوفرانس له أسباب عسكرية بشكل محدَّد[١٤]. وفي ٢٤ نوفمبر/ تشرين الثاني يعاود دوفرانس الهجوم: إن المسألة ليست عسكرية بل سياسية[١٥]. وفي اليوم نفسه، يبلغ وينجيت لندن بأن إدارة فلسطين يجب أن تكون عسكرية بشكل خالص، فهذه هي الطريقة الوحيدة لتفادي التدخلات الفرنسية[١٦].

ويوم ٢٥، نجد أن سان كينتان، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في

القاهرة، إنما يتوصل إلى اتفاق شفاهي مع كلايتون: يقبل البريطانيون حضور بيكو عند دخول القدس(١٧). وتؤكد وزارة الخارجية البريطانية هذا الاتفاق، فيجري التصريح لبيكو بزيارة فلسطين، إلاَّ أنه يجب عليه الامتناع عن التدخل في شئون الإدارة العسكرية(١٨).

ويوم ٢٧، نجد بيكو في القاهرة حيث يتحادث مع البريطانيين. وهو لا يقبل فكرة إدارة عسكرية، ولو مؤقتة ـ الأمر الذي يشك فيه في أعماق نفسه(١٩). أمّا سايكس، المتواجد في لندن، فهو حريص على تهدئة الفرنسيين مع قيامه بلعبته هو. فهو يسعى إلى تحويلهم إلى قبول ربيع الشعوب الشرقية، الذي يتحدث عنه، تحت وصاية فرنسا وبريطانيا العظمى: إذ يجب على فرنسا أن تتخذ موقفًا رسميًا مؤيدًا لتحرير شعوب الدولة العثمانية، السوريين والأرمن والصهيونيين، وألاَّ تقتصر على حماية اللبنانيين وحدهم(٢٠). ويرى الفرنسيون في ذلك دعوة بريطانية إلى إجراء تنظيم فرنسي ـ بريطاني للشرق الأدنى(٢١). وفي ٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني، ترسل باريس إلى بيكو مشروع تنظيم إداري لفلسطين حررته وزارة الحربية التي تسعى إلى توفيق المبدأ العسكري مع الاتفاقات الفرنسية ـ البريطانية واتفاقية لاهاي. ويدعو المشروع إلى قيام أللنبي بحكم المنطقة على أن يكون سايكس وبيكو نائبين له، مندوبين ساميين يرأسان لجنة إدارية؛ بحيث يتولى البريطانيون المسئولية المباشرة عن قضائي الجليل وغزة، القريبين من مصر، بينما يتولى الفرنسيون المسئولية المباشرة عن قضائي يافا والقدس(٢٢).

والحال أن توماس إدوارد لورانس، في **أعمدة الحكمة السبعة**، قد خلّد اللقاء بين أللنبي وبيكو(٢٣): فالفرنسي قد قال بصوته الضعيف إنه، منذ غداة الدخول، سوف يتخذ التدابير الضرورية لإقامة إدارة مدنية. ويعقب ذلك صمت يشبه الصمت الذي يسبق فتح الختم السابع في رؤيا يوحنا اللاهوتي قبل أن يعلن القائد العام أن السلطة الوحيدة في المنطقة العسكرية هي سلطته وأنه هو المنوط باتخاذ القرار فيما يتعلق بمتى سيكون بالإمكان إيجاد نظام مدني. أمّا رواية بيكو فمن الواضح أنها أكثر تفصيلاً(٢٤)؛ فهو قد طالب بإدارة فرنسية ـ بريطانية مشتركة:

> فسارع الجنرال إلى الرد: ولكن لن تكون هناك إدارة. فنحن في حرب؛ وقد حققتُ نجاحًا أوصلني إلى شمال يافا وإلى ضواحي القدس، بيد أن وضعي محفوف بالمخاطر. وفي مثل هذه الظروف، هناك شيء واحد ممكن: القانون العرفي الذي يطبقه المندوبون العسكريون المتمتعون بثقتي الشخصية. والحال أن فلسطين كلها إنما تعد الآن واقعة في منطقة الجبهة، وهي صغيرة جدًّا بحيث لا يمكن أن تكون في وضع آخر.

ويوضح الفرنسي أن حالة على غرار الحالة المصرية، حيث خاضت فرنسا حربًا قانونية منهكة ضد البريطانيين من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٠٤، إنما تجازف بأن تنشأ:

> عندئذ نَبَّه السيد بيكو إلى أنه إنما يجد نفسه حيال وضع مختلف تمامًا عن الوضع الذي كان متوقعًا عند إيفاده وأنه سوف يبلغ حكومته بذلك. وقد أضاف أن طريقة الجنرال أللنبي في النظر ربما تكون قد فرضت نفسها خلال العمليات، غير أنه إذا استمر هذا النظام، فإن ذلك سوف يكون في تعارض تام مع اتفاق الحكومتين. ونحن جد قريبين من مصر بحيث يتعذر علينا نسيان ما قد يفضي إليه الوضع المؤقت وأنا متمسك جدًّا بالتفاهم الموجود بين بلدينا بحيث لا يمكنني الامتناع عن تذكر ما ترتب عليه.

ولا يشك بيكو في نزاهة أللنبي، لكنه يعتقد أن المحيطين به، وهم استعماريون، إنما يغتنمون الفرصة لكي يتخلصوا من الوجود الفرنسي في فلسطين(٢٥).

وتجري تسوية التفاصيل الملموسة لدخول القدس باسم الفرنسيين من جانب الكابتن لويس ماسينيون. فهو يحصل على موافقة بمشاركة الوحدة الفرنسية وبرفع العلم الفرنسي على عدد معين من البنايات(٢٦).

وفي ١١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧، يدخل أللنبي القدس ماشيًا على قدميه بحسب المراسم التي رتبها سايكس. ويتلوه في صف متأخر بيكو وماسينيون. وأمام قلعة المدينة، يأمر بتلاوة إعلان القانون العرفي بعدة لغات: إن المدينة والمناطق المجاورة لها سوف تبقى تحت الإدارة العسكرية طالما فرضت الظروف ذلك. ووضع مجمل الأماكن المقدسة لن يطرأ عليه تعديل.

ولم يستغرق هذا كله سوى نصف ساعة. وبحسب رواية پيكـو[٢٧]، "إن عـددًا قليلاً من السكان، يكاد يتألف بشكل حصري من غير المسلمين، قد أبدى ارتياحه دون أن ينهمك على أي حال في التظاهرات المعتادة في الشرق".

وفي فرنسا[٢٨]، تأمر حكومة الجمهورية بإنشاد تسبيحة شكر في كاتدرائية نوتردام في باريس لخلاص القدس من نير الأتراك وبتلاوة صلاة شكر مهيبـة في الساعة نفسها من اليوم نفسه في مسجد نوچان "للتحرر مـن النيـر نفـسه [والذي فازت به] هذه المدينة المقدسة الإسلامية التي تضم مسجد عمر". وفـي كثير من البلدان الأوروبية، في فرنسا وبريطانيا العظمى بوجه خاص، يجـري الاحتفال علنًا بدخول قوات الحلفاء المدينة المقدسة بوصفه انتقامًـا للحمـلات الصليبية، الأمر الذي يؤدي إلى قلق الحكومة الفرنسية. فيرسل وزير الـشئون الخارجية تعميمًا إلى جميع المراكز المعنية في العالم الإسلامي، خاصـة فـي شمالي أفريقيا، لكي يوضح أن الأمر لا يتعلق بانتصارٍ مسيحيٍ بشكل خالص، بل يتعلق أيضًا بتحرير المسلمين العرب من نير الأتراك[٢٩].

وحرص السياسة الإسلامية هذا يتجسد بتحركات متكررة من جانب پيكـو لأجل التوصل إلى مشاركة جنود مسلمين فرنسيين في حراسة مسجد عمر. وهو يتوصل في أواخر شهر ديسمبر/ كانون الأول إلى الحصول على موافقة مـن جانب الحاكم الجديد للقدس[٣٠]. والحال أن السلطات البريطانية، التي أدركـت على الأرجح الأهمية السياسية لمنصب الحاكم، كانت قد اسـتبدلت بالكولونيـل بورتون، رونالد ستورس، السكرتير الشرقي السابق للمكتب البريطـاني فـي القاهرة وأحد واضعي السياسة العربية لبريطانيا العظمى، حيث منحتـه رتبـة الليوتنانت كولونيل المؤقتة (٢٨ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧)[٣١].

ولا يجب لرواية هذه الأحداث أن تحجب أهمية الرهان: ففي غضون بضعة أيام، تمكن أللنبي، تنفيذًا لتعليمات من حكومته، من الحيلولة دون تدويل فلسطين ومن منع مشاركة الحجاز في إدارتها. وفي هذا الفرض للنظام العسكري، لـم تكن الصهيونية وتصريح بلفور واردين في أي لحظة، فالخصم رقم واحد هـو فرنسا، برغبتها في تطبيق اتفاق سايكس ـ پيكو وصون حمايتها على الكاثوليك والأماكن المقدسة. والحال أن البريطانيين، بفرضهم النظام العـسكري، إنمـا

يضعون فلسطين تحت حماية اتفاقيات لاهاي، التي تحظر أدنى تغيير في الوضع السياسي والاقتصادي والعقاري القائم، قبل أي تسوية سياسية نهائية. وسيجد تصريح بلفور نفسه غير قابل للتطبيق، وسرعان ما سيتطور نزاع لا هوادة فيه بين الصهيونيين والإدارة العسكرية. والحاصل أن الضباط البريطانيين، المتورطين بسرعة في زوبعة سياسية لم يهيئهم شيء لمواجهتها، سوف يتحصنون وراء الفصل الرابع عشر القسم ٨ من كتاب القانون العسكري المستخدم في جيشهم.

ردود الفعل الأولى على تصريح بلفور

في أعوام الحرب هذه، يوجد المركز الإيديولوجي للعمل السياسي العربي في مصر، حيث نجد، منذ بداية الحرب، أن الجماعة القديمة بالفعل من سوريي حزب اللامركزية قد أضيف إليها سيل من المنفيين العرب الذين تمكنوا من الإفلات من إعدامات جمال باشا. ويتابع الفرنسيون والإنجليز ببالغ الاهتمام التطورات السياسية لهذا الوسط الذي سينجب على الأرجح جانبًا مهمًّا من الطبقة السياسية في الدول العربية التي ستنشأ في المستقبل. ويقدم البريطانيون أنفسهم على أنهم حُماتهم ويشكون من "الدسائس" الفرنسية. وتصدر من الجانب الفرنسي اتهامات مماثلة. وهكذا، فقبل بضعة أيام من صدور تصريح بلفور، نجد أن الرقابة البريطانية تحظر القيام في مصر بتوزيع صحيفة **المستقبل** التي يصدرها بالعربية في باريس سوريون محبون لفرنسا، وذلك بسبب مقال نشرته حول "الصهيونية ومستقبل سوريا"[٣٢].

وفي ٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧، تنشر الصحافة البريطانية تصريح بلفور. وفي اليوم نفسه، تنشر الصحافة المصرية خلاصته[٣٣]. وترصد الممثلية الفرنسية على الفور "انطباعًا طاغيًا وغير مؤات إلى حد بعيد [أحدثه التصريح] بين جميع المسلمين وجميع السوريين أيًّا كانت ديانتهم [كذا]"[٣٤]. وقد قال شيخ الأزهر، المرجعية الدينية الأعلى للإسلام المصري، لواحد من أصدقائه:

> [...] لن يكون بوسع مسلمي العالم بأسره أن يقبلوا أبدًا أن تكون القدس يومًا من

الأيام في أيدي اليهود ولا حتى في أيدي المسيحيين بينما يجري استبعاد المسلمين منـــها. ولابد من تشجيع هذا الموقف إذا ما توصل اليهود إلى الأهداف التي يتوخاها الصهيونيون عبر الاستحواذات على الأراضي والهجرة والجاذبية[٣٥] التي يمارسونها على الأوروبيين.

فشيئًا فشيئًا سوف تنتظم معارضةٌ طرفَ المسلمين وسنشهد يومًا ما حروبًا صـــليبية جديدة لكنها ستكون بين المسلمين والإسرائيليين. وبالنسبة للإسلام، تعد دمشق والقدس كالمدينتين المقدستين في بلاد العرب أو كمصر وطرابلس، فهـــي تنتمـــي كلـــها إلى دار الإسلام، ولابد من تطبيق الشريعة فيها تحت سيادة إسلامية. والأراضي الأخرى التي يحيا فيها المحمديون دار حرب ومن حق أقواهم الاستيلاء عليها، وتلك حالة المغرب أو الهند أو تركيا.

ولن يكون بوسع المسلمين السوريين، وهذا هو ما سوف يحدث لا محالة، أن يقبلوا باختزالهم ليصبحوا عمالاً لدى الصهيونيين الذين سيجردونهم من أراضيهم متخـــيلين أن ذلك لن يستثير رد فعل من جانب الإسلام[٣٦].

وتلاحظ البرقية نفسها أن أنصار الأشراف يشعرون بالمرارة ويتحدثون عن خطر استيلاء اليهود على القدس وطرد المسلمين منها، بل وهدم مسجد عمـــر كيما يتمكنوا من إعادة بناء الهيكل.

وفي ١١ نوفمبر/ تشرين الثاني، يعقد الصهيونيون المـــصريون اجتماعًـــا ضخمًا في الإسكندرية. ويحضر الاجتماع محافظ المدينة ويهنـــئ المـــشاركين بالتنازلات المشروعة التي حصلوا عليها للتو[٣٧]. وفي تلك الأثناء، يبدأ شـــوام مصر في تنظيم حركة احتجاج. فهم يتهمون الصهيونيين بالرغبة فـــي محـــو وطرد العرب من فلسطين[٣٨]. بيد أننا نجد من جديد، في الوقت نفسه، الانقسام العربي المقيم مع نتائجه المعروفة جيدًا:

إن الشيخ رشيد رضا، رئيس تحرير مجلة **المنار**، وهو سوري الأصل، قد أعرب عـــن سروره لفكرة أن استقرار اليهود في فلسطين سوف يحكم بالشلل على مساعي الملك الذي يعتبر نفسه مختلفًا معه، كما هو معروف، في زحفه على سوريا. وقد قال إن هـــذا إنمـــا يشكل نهاية لحلم الشريف حسين في أن يحيي على حساب سوريا الحجاز، هذا البلد القفر والبور[٣٩].

ولدى وصول بيكو إلى مصر، يدرك على الفور المصلحة التي ستجنيها فرنسا بابتعادها عن الصهيونية سعيًا إلى الفوز بنقاط في صفوف الرأي العام السوري على حساب البريطانيين[٤٠]. وفي إنجلترا، لا يجهل سايكس الأصداء السلبية التي استثارها نشر تصريح بلفور. وهو يسعى إلى توضيح الموقف عبر تنظيم اجتماع ضخم في مانشستر يوم ٥ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧[٤١]، من شأنه أن يسمح، في تصوره، بتهدئة المخاوف العربية. وفي الوقت نفسه، يسعى إلى التحضير لتنظيم لجنة لندنية، تضم ممثلين لليهود والعرب والأرمن، بحيث تتسنى لها مناغمة المواقف ضمن إطار وصاية أبوية من جانب فرنسا وإنجلترا. ويجري طرح مشروع آخر: إرسال لجنة صهيونية من البلدان المتحالفة إلى فلسطين مهمتها دراسة حالة ومستقبل الطائفة اليهودية.

ويصور الاجتماع المصاعب الأولى التي أوجدها تصريح بلفور: إن نجاح المشروع الصهيوني إنما يستوجب بالضرورة مروره عبر تفاهم بين اليهود والعرب. وفيما يتعلق بهذا المصطلح الأخير، فإنه لا يجري أي تمييز دقيق بين السوريين وأهل بلاد الرافدين أو غيرهم، وديانة كل منهم قليلة الأهمية. ذلك أن العرب، بالرغم من تدفق دماء طورانية أو إيرانية أو صليبية في عروقهم، إنما يعدون ساميين بنسبة ٨٥%: "لقد ربطت بينهم وأفقرتهم وفرّقتهم الدسائسُ التركية وعزلتهم الأحداث. فهل هم موتى؟ كلاً بالمرة! إنكم تعرفون أن السامي ينام، لكنه لا يموت أبدًا" (تصفيق متواصل)".

والناس الذين هم من دم عربي مستعدون لاسترداد مجد وحضارة أسلافهم:

> العرب اليوم "قوميون". وهم مرتبطون فيما بينهم بأواصر الدم واللغة. وعددهم يصل إلى سبع أو ثماني ملايين وهم كثيرو الإنجاب. ونحن هنا بإزاء اجتماع لإنجابية عظمى ولأرض بكر ولآبار بترول ولروحِ سعيٍ واجتهاد. فما الذي سينجم عن ذلك بحلول عام ١٩٥٠؟ سينجم عن ذلك لا محالة أن الملايين السبع أو الثماني من العرب سوف تصبح عشرين مليونًا، وأن شبكة ترع بلاد الرافدين سيعاد بناؤها؛ وأن سوريا ستصبح شونة غلال أوروبا؛ وأن بغداد ودمشق وحلب ستكون مدنًا مهمة أهمية مانشستر؛ وأن جامعات وصحافة مهمة ستولد بدورها.

ولابد لكل شيء من أن يمر عبر التعاون العربي ــ اليهودي:

إن الحضارة العربية سوف تأتي هناك؛ ولن يتمكن أي سلطان، أي قيصر، من منعها؛ وعندما تأتي هناك، فإن أي إمبريالي، أي رجل دولة من رجال المال، لن يتمكن من توجيهها بالشكل الذي يحلو له. وبحكم المصير، يرتبط اليهود ارتباطًا حميمًا بالنهضة العربية، والتعاون وحسن النية منذ البداية ضروريان، وإلاَّ فإن كارثة نهائية سوف تسحق اليهودي والعربي في آن واحد. وهذا هو السبب في أنه يريد دعوة اليهود إلى أن ينظروا إلى الأمور عبر نظّارات عربية (صيحات: **"سنفعل ذلك، سنفعل ذلك"**).

ويستعيد سايكس الحجاج الصهيوني:

ما تخاوف العربي؟ إنه يخاف من الشركات المالية، يخاف من أن تجعل فلسطين محورًا لها ومن آن تحكم سوريا وبلاد الرافدين. إنه يخاف من أن تقوم الشركات بشراء أرض فلسطين، ويخشى بذلك من أن يصبح بروليتاريًا يفلح الأرض لحساب سادة أجانب. إنه يخشى من أن يرى مستوطني فلسطين وقد تركوا مستوطناتهم الزراعية وذهبوا إلى سوريا وإلى بلاد الرافدين كسماسرة، ومن ثم يجعلون حياته مستحيلة. ومن الضروري أن يدرك الصهيونيون هذا الخطر وأن يعملوا على مواجهته. وإذا كان يجرؤ على قول هذا الكلام، فما ذلك إلاّ لأنه يعرف أنها حركة مثالية وليست مناورة مالية (**تصفيق متواصل**). وسوف يتوجب على العرب أن يدركوا أن اليهود لا يسعون إلى امتلاك أراضٍ لا توجد رغبة في بيعها؛ وأن جميع الأراضي التي سيشترونها سوف تجري الاستفادة منها باليد العاملة الإسرائيلية (**تصفيق متواصل**)؛ وأن المستوطنين سوف يكونون مستوطنين حقيقيين، وأن اليهود يريدون أخذ فلسطين، ليس بالمناورات المالية، وإنما بعرق جبينهم (**تصفيق متواصل، جانب كبير من الحضور يقفون ويصفقون**). إن التعاون فيما بين الجنسين إنما يفتح مثل هذه الآفاق أمام البشرية، أمّا العداوة فيما بين الجنسين فهي تعني، على العكس من ذلك، مأساة جد مروِّعة بحيث أنه يعتقد أن من واجبه أن يقدم لهما هذا التحذير.

كما يقدم تحذيرًا ثانيًا:

والتحذير التالي الذي أجاز لنفسه تقديمه هو التحذير التالي: إن على الصهيونيين أن

يتذكروا أن القدس مكان مقدس ثلاث مرات، فهي مقدسة عند المسيحي وعند اليهودي وعند المسلم؛ وفيما يتعلق به، بوصفه كاثوليكيًّا، فإنه قَبَّلَ صخرة القبر المقدس، وهو يعرف من ثم ما لابد أن يشعر به المسلم حيال مسجد عمر وما لابد لليهودي أن يشعر به عندما يضع كفه على حجارة حائط المبكى. لقد أضاءت القدس التاريخ: لقد كانت ساحة قابلة للاشتعال إلى أقصى درجة، ومن شأن كلمة أو إيماءة تبدر سهوًا إحراق نصف قارة. ولن تصبح الحركة الصهيونية واقعًا بمجرد الديبلوماسية أو الكياسة أو النعومة أو فضائل سياسة الصالونات. فالقدس تتطلب خصالاً أخرى. والقدس لا تتطلب التسامح، بل تتطلب التعاطف وحسن التفاهم والتراحم والتضحية، التعاطف مع المسلم، والذي يعد مسجد عمر بالنسبة له أقدس مكان في الأرض؛ والتفاهم مع المسيحي الذي يشعر، مثلي، أنه إذ يهب إلى نجدة الصهيونية إنما يسهم في إصلاح حيف عظيم. فلتتخلوا عن كل شعور بالانتصار، عن كل ذكريات مظالم الماضي القديمة وعالجوا المسألة، ليس بروح التسامح، وإنما بروح الإخاء والمحبة.

وفيما يتعلق به، فإنه يرى أن الصهيونية، إذا ما اندرج المرء في هذه الحركة بالروح المناسبة لها، سوف تكون سببًا في مصالحة عظمى، ليس في انصهار، وإنما في صداقة طيبة بين المؤمنين بالديانات الثلاث وذلك بحكم أصلها المشترك.

وإلا،

[...] فإن الصهيونية المساء فهمها قد تصبح بداية لصراع هو الصراع الأكثر دموية بين الصراعات التي عرفها العالم إلى الآن. والخوف هو الدرب الذي يقود إلى الكارثة؛ ومن ثم يتوجب عليهم النظر إلى الأمور بشجاعة. وهو يرى في تحقيق مثلهم الأعلى ضمانة لسلام العالم. وهو يراهم متعاونين كحماة وضامنين أخلاقيين للدول الصغيرة، بما أنهم الأصغر والأعظم في آن واحد. ويراهم وهم بسبيلهم إلى تضميد الجراح الدينية التي فصلت الأفضل بين جميع العقول على مدار قرون. وسوف تصبح القدس قلبًا كبيرًا وعامرًا بالحياة، وبذلك ستندمل جراح أوروبا وستولد آسيا من جديد **(تصفيق متواصل).**

ثم يأخذ ڤايتسمان الكلمة مؤكدًا أن هذه التحذيرات ليست ضرورية بالمرة:

لأنه أليس جوهر الصهيونية عينه هو ألاَّ نفعل هذه الأشياء الثلاثة التي أراد السيد

مارك سايكس تحذيرنا منها؟ ألم نناضل باستمرار، نحن الصهيونيين، ونحن أعضاء حركة دمقراطية، ضد المضاربين الماليين اليهود الدوليين؟ إن هذا النموذج الخاص من اليهودي كان على الدوام عدو الصهيونية اللدود. ومن أين جاء الاعتراض على الصهيونية؟ إنه لم يجيء من الجيتّوات حيث ما تزال التقاليد اليهودية موجودة. وهو لم يجيء من أولئك المستعدين للذهاب إلى فلسطين وللاستقرار فيها. إن الاعتراض على الصهيونية إنما يجيء خاصة من اليهودي الكوزموبوليتي الذي لا نريد أن نكون مسئولين عن أفعاله وحيله، لأننا نزدريها. وأنا أعتقد أنه لا خطر هناك في أن يأخذ أول قطار متجه إلى أورشليم(**ضحك**).

والأرض تصبح يهودية ليس بشرائها وإنما بفلاحتها، ومن هنا الاستعاضة عن اليد العاملة العربية باليد العاملة اليهودية، والتي لا تستهدف العرب في حد ذاتهم. فاليهود الذين عانوا كثيرًا لا يمكنهم سوى تفهم واحترام الآخرين. والترك هم الذين خلقوا أشكال سوء التفاهم بين العرب واليهود. وستجري في فلسطين إعادة حكم العدالة والقانون، واليهودي، الذي كان الضحية دائمًا، لا يمكنه أن يصبح فجأة معتديًا.

ويذكرُ سوكولوف بدوره بالقرابة السامية بين اليهود والعرب ويؤكد أنه سيكون هناك ما يكفي من المكان في فلسطين للشعبين وذلك بفضل إثراء البلد، المترتب على عمل الصهيونيين. وهو يتناول المسألة الدينية:

أود أن أضيف الآن بضع كلمات إلى موضوع المسألة الدينية. لقد شرفت بأن يستقبلني رئيس الكنيسة الكاثوليكية، البابا (**تصفيق**). وقد أدليت له بتصريح يمكنني أن أكرره لكم هنا. نحن الصهيونيين نحتقر كلمة التسامح، وقد قدم السير مارك سايكس حقًا التعليق الصحيح عندما شجب هذه الكلمة. إننا لا نحب التسامح المحض والبسيط الصادر عن أولئك الذين ليسوا يهودًا ولا نريد أن يكونوا **مشمولين بالتسامح** بدورهم. إننا نعرف أن فلسطين عامرة بالعتبات وبالأماكن المقدسة، وبأماكن مقدسة لدينا نحن. وسوف يكون من العمى ألاّ نرى أن فلسطين بها هذه الأماكن التي تتمتع بالإجلال وبالخشوع أمامها. وفلسطين هي عين الأرض التي يجب أن تختفي منها كل النزاعات الدينية. فهي المكان الذي يجب أن نلتقي فيه كأخوة، وهي المكان الذي يجب أن نتعلم فيه أن نحب بعضنا البعض الآخر (**تصفيق**). هذا ما قلته لرئيس الكنيسة الكاثوليكية وما يمكنني أن أكرره لكم هنا.

إيطاليا والفاتيكان وتصريح بلفور

الواقع أن الفاتيكان يبدو، في ذلك الوقت، بوصفه فاعلاً مهمًا على المسرح السياسي الفلسطيني وذلك بسبب عين الوضعية الحقوقية للأرض المقدسة. وقد يكون سوكولوف قد خامره الانطباع بوجود إصغاء إيجابي من جانب البابا وسكرتارية الدولة. بيد أن الوضع إنما يعد في الواقع أكثر تعقيدًا بكثير جدًا. فالفاتيكان كان تقديره في نهاية الأمر قليلاً للحماية الكاثوليكية التي تمارسها فرنسا، وهي حماية من شأن الاختفاء التالي للدولة العثمانية أن يؤدي إلى تهديدها. وهو ما يعني عندئذ الدخول في المجهول. ومنذ بداية الحرب، تنتهج البابوية سياسة حياد بين المتحاربين، ومن هنا الاتهام الذي يوجهه الفرنسيون على نحو منتظم بوجود ميول موالية للألمان [لدى البابوية]. وكانت موضوعات المواجهة عديدة مع فرنسا، بين أن تقدم بريطانيا العظمى، الدولة البروتستانتية، لم يكن فيه هو الآخر ما يجذب كورية كنيسة روما الكاثوليكية. وبالمقابل، نجد أن تحالفًا موضوعيًا كان قد تشكل، منذ عدد معين من السنين، بين البابوية والدولة الإيطالية المهتمتين كلاهما بتهديد الحماية الكاثوليكية التي تمارسها فرنسا.

وتسعى باريس إلى التعرف بسرعة على ردود فعل روما على تصريح بلفور وعلى الاستيلاء على القدس[٤٢]. وتحتفل الصحافة الإيطالية بنجاح الحملة الصليبية الجديدة وتشدِّد على حقوق إيطاليا المكتسبة في الشرق الأدنى وفي فلسطين. أمَّا الصحافة الكاثوليكية فهي أكثر تحفظًا، وذلك بسبب عين سياسة الحياد. وتعبر صحيفة **لوسيرفاتوري رومانو** عن الأمل في أن تتمكن الليبرالية الإنجليزية من التجاوب مع مصالح الكنيسة الكاثوليكية، وتشكر العناية الإلهية على عدم سماحها بسقوط القدس في إيدي إمبراطورية القياصرة السابقة. ويجري الاحتفال بالاستيلاء على المدينة المقدسة بتسبيحات شكر، بيد أن الفاتيكان لا يتخذ موقفًا رسميًا من الحدث.

وإلى الدبلوماسية الفرنسية، يجري تقديم رواية للحديث بين سوكولوف وممثلي الكنيسة تختلف تمامًا عن رواية الصهيونيين[٤٣]: لقد كان قد تم تلقي رسالة من اللورد روتشايلد تعبر عن قلقه على مصير "مواطنيه" في فلسطين خلال العمليات العسكرية وتطلب تدخلاً إنسانيًا من جانب الفاتيكان:

وقد أبلغته سكرتارية الدولة أنها لا ترى مبررًا في الوقت الحالي لتدخلٍ له هذا الطابع:
على أنها أضافت أنها لن تمتنع عند أي اقتضاء عن تقديم عونها الحميد إلى الإسرائيليين في فلسطين، كما لن تمتنع عن تقديمه إلى أي شعب أو جزء من شعب يطلب عونها الإنساني.
ووفقًا للمصدر نفسه، فإنه يبدو أن هذا التأكيد الأفلاطوني قد عاد إلى روما عبر صحف أميركية وقد تحول إلى "تأييد" من جانب الكرسي الرسولي لإعادة تكوين طائفة عبرية في فلسطين.

والحال أن الڤاتيكان، عبر المونسنيور پاسيللي، القاصد الرسولي في باڤاريا، قد تدخل بالفعل لدى السلطات الألمانية لصالح السكان اليهود والمسيحيين في فلسطين كيما لا يكونوا موضع تدابير تشدُّدٍ خلال معارك خريف عام ١٩١٧[٤٤].

ويعبر الڤاتيكان عن تحفظاته حيال استخدام ذكرى الحملات الصليبية[٤٥]. فالإنجليز لهم اعتبارات أقل "روحانية" بكثير للتواجد في فلسطين، وقد أكثروا من الوعود المقدَّمة إلى العرب وإلى اليهود. ولا تملك الكنيسة توقع الكثير منهم فيما يتعلق بالإدارة الجارية للأماكن المقدسة.

ومن ثم يظل الڤاتيكان على موقف ترقب حذرٍ، قائم على رغبته في عدم الانحراف عن سياسته المحايدة، بيد أنه قائم أيضًا على عدم ثقته بالأطراف الرئيسية.

رسالة هوجارث

تحتِّمُ التطورات الجديدة للوضع استئناف المباحثات السياسية مع الشريف حسين، الذي أصبح ملكًا على الحجاز. وهذا الأخير منشغل على نحو خاص بتدهور علاقاته مع وهّابيي نجد وباتصالاتهم الواردة مع البريطانيين. وهكذا، فعندما يصل هوجارث، ممثل المكتب العربي، إلى جدة، توشك الأزمة على الانفجار بسبب الوصول غير المتوقع لسان چون فيلبي، الموظف بحكومة الهند والذي جرى إرساله إلى العراق وتكليفه بالاتصال بابن سعود. وقد حقق للتوِّ مأثرة رياضية حقيقية: العبور من شرقي إلى غربي شبه الجزيرة العربية

للوصول إلى الحجاز. ومن ٧ إلى ١٤ يناير/ كانون الثاني ١٩١٨، يعقد هوجارث عشر اجتماعات مع الملك[٤٦]، الذي يعبر عن غضبه بعبارات قليلة التهذيب حيال بعثة فيلبي.

ومسألة فلسطين ليست غير واحد من الموضوعات التي يتم تناولها في هذه المحادثات، والتي تتطرق أيضًا إلى مستقبل التمرد العربي وإلى الوضع السياسي الداخلي في شبه الجزيرة العربية. أمّا مصير بلاد الرافدين فتجري من الناحية العملية تنحيته جانبًا.

ويدرك هوجارث أن حسين ما زال يفكر في دولة عربية كبرى لصالحه، ومن هنا غضبه على "خيانة" ابن سعود وعدم ثقته بالنوايا الفرنسية. ومن هذه الزاوية، فإنه لن يقبل أبدًا قيام دولة يهودية مستقلة في فلسطين. ويبلغه محاوره البريطاني بمضمون الرسالة في عدة نقاط جرى تكليفه بنقلها إليه:

١. إن دول الوفاق عازمة على أن يحصل الشعب العربي على الإمكانية التامة والكاملة في إعادة تكوين نفسه كأمة، وهو ما لا يمكن التوصل إليه إلاّ عبر توحيد يحققه العرب بأنفسهم؛ وسوف تراعي سياسة إنجلترا وفرنسا تحقيق هذا الهدف.

٢. فيما يتعلق بفلسطين، لا نريد أن يكون شعب خاضعًا لشعب آخر، وإنما

أ) يجب أن يكون هناك نظام خاص ومقبول من العالم بأسره لإدارة الأماكن المقدسة، مع مراعاة واقع أن فلسطين بها عتبات مقدسة، في بعض الحالات لدى المسلمين وحدهم ولدى اليهود وحدهم ولدى المسيحيين وحدهم، وفي حالات أخرى لدى اثنتين من هذه الجماعات الدينية أو لدى الجماعات الثلاث؛ لا سيما أن هذه الأماكن لها جماهير إنسانية ضخمة خارج فلسطين وخارج بلاد العرب.

ويبرر هوجارث مشروع تدويل فلسطين استنادًا إلى التحفظات التي تضمنتها مراسات حسين ـ ماكماهون بشأن مراعاة المصالح الخاصة لبريطانيا العظمى، وخاصة مصالح فرنسا. والحال أن الملك إنما يقاطعه مشيرًا إلى أزمة فاشوده، والتي تسمح له بالشك في دوام العلاقات الطيبة بين البريطانيين والفرنسيين. ويرد هوجارث عليه مؤكدًا تطابق مواقف الحكومتين في المسائل العربية. وهذه المواقف تسير في اتجاه خطط فيصل والآراء التي جرى التعبير

عنها في أميركا والخاصة بحق الشعوب في اختيار الحكومة التي ترغب فيهـا، وهو ما يعني، في هذه الحالة المحدَّدة، حكومة مستقلة في سوريا.

ونحن هنا بإزاء تفسير حر للنقطة الثانية عشرة من النقاط الأربع عـشرة التي أعلنها الرئيس ويلسون في شهر يناير/ كانون الثاني ١٩١٨ هذا نفسه[٤٧]:

سوف يتوجب ضمان السيادة والأمن للمناطق التركية من الدولة العثمانية الحاليـة؛ بيد أنه سوف يتعين ضمان أمن مطلق في الوجود للأمم الأخـرى الواقعـة الآن تحـت السيطرة التركية وضمان الإمكانية التامة لتطورها بشكل مستقل دون أي مساس بها.

وتتصل تتمة رسالة هوجارث بالحرم الشريف:

ب) فيما يتعلق بمسجد عمر، سوف يعتبر موضع اهتمام إسلامي بشكل حـصري ولن يخضع لا بشكل مباشر ولا بشكل غير مباشر لأي سلطة غير مسلمة.

ويوافق الملك على هذه النقطة ويشبه العمل البريطاني بعمل الخليفة عمر، الذي امتنع، عند الفتح العربي للقدس، عن المساس بالأماكن المقدسة المسيحية. وهو يقترح توجيه تصريح إلى العالم الإسلامي حول هذا الموضوع بـشرط أن يسحب البريطانيون الإشارة إلى نظام الإدارة الدولية.

ويجري التطرق إلى الصهيونية:

٣. بما أن الرأي العام اليهودي في العالم مؤيد لعودة لليهود إلى فلسطين، وأن هـذا الرأي العام سوف يظل عاملاً مستديمًا، وأن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تحقيق هذا الطموح، فإن حكومة صاحب الجلالة عازمة على ألاّ توضع أي عقبة علـى الطريق المؤدي إلى تحقيق هذا المثل الأعلى، وذلك بقدر ما أن ذلك يتماشى مـع حريـة السكان الحاليين السياسية والاقتصادية في آن واحد.

والنص الذي ينقلـه هوجـارث مختلـف بـشكل ملحـوظ عـن نـص تصريح بلفور: حيث لا نجد ذكرًا للمقـام القـومي اليهـودي ونجـد تـشديدًا على الحرية السياسية للسكان الحاليين. التي جـرى الحـرص علـى حـذفها في نص ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧. وتـسعى الرسـالة إلـى توضـيح

ضرورة اجتذاب حسن نوايا يهود العالم:

ضمن هذا الأفق، فإن تعاطف اليهودية العالمية مع القضية العربية إنما يعني دعمها في كل مكان يتمتع فيه اليهود بنفوذ سياسي. وقادة الحركة الصهيونية عازمون على تأسيس نجاح الصهيونية على الصداقة والتعاون مع العرب، ومثل هذا العرض لا يجب رفضه دون تروٍ.

ويشدِّدُ هوجارث، لفظيًا، على هذه الفكرة كما يشدِّدُ على الضمانات المقدمة إلى سكان فلسطين العرب. والحال أن حسين، الذي يتصور أن المسألة مجرد مسألة حرية للهجرة اليهودية إلى البلدان العربية، دون عواقب سياسية، إنما يوافق بحماس. وعندئذ يحثه هوجارث على إرسال مندوبين إلى لندن للمشاركة في لجنة عربية ـ يهودية ـ أرمنية موسعة. فيسأله الملك ما إذا كانت هذه اللجنة ستكون لها سلطة اتخاذ قرارات. فيجيبه محاوره بأنها لن تملك غير وظيفة استشارية. ويعبر الملك عن عدم ثقته بالشخصيات التي تتألف منها هذه اللجنة.

والحاصل أن رسالة هوجارث إنما تشكل نموذجًا ناجزًا للأسلوب الذي يجري به إبلاغ ملك الحجاز بنوايا الحلفاء، وهو أسلوب يزيد من تعقيد تشوش التصريحات المتضاربة جزئيًا. كما أن الرسالة بداية لمناورة هدفها إقناع العرب بأهمية اجتذاب النوايا الحسنة لهاتين القوتين اللتين لا يعرفونهما جيدًا: اليهودية العالمية والولايات المتحدة. وبعد ذلك بعشرين سنة، عندما يتعرض الانتداب البريطاني للأزمة، سوف يشير البريطانيون في رياء إلى هذا النص، الذي تعرض للنسيان في تلك المدة، لكي يتبرأوا إلى هذا الحد أو ذاك من تصريح بلفور.

ردود فعل جديدة على تصريح بلفور

قوة اليهود الدولية ليست موضع اهتمام من جانب الإنجليز والعرب وحدهم. فالألمان يأخذون مأخذ الجد أيضًا وجود اليهود المشتبه به في داخل الحركة الثورية الروسية، عند ابتداء مفاوضات بريست ـ ليتوفسك. وهم يخشون من

أن ينتقل الرعايا اليهود في إمبراطوريتي وسط أوروبا إلى معسكر الحلفاء. ويظهر من الضروري مواجهة دعاية الحلفاء: فيجري الإيحاء بأن الدولة العثمانية قد قبلت، بناءً على اقتراح من ألمانيا، مبدأ حرية كاملة للهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وتدرك الحكومة العثمانية الضرورة الديبلوماسية المتمثلة في تقديم مبادرات لها دلالتها في هذا المجال. ففي ٢٣ يناير/ كانون الثاني ١٩١٨، يجتمع الصدر الأعظم بممثلي المنظمات اليهودية الألمانية الكبرى الموجودين في القسطنطينية: لقد اعترف الباب العالي منذ وقت طويل بأن فلسطين "مركز ديني يهودي" وسوف يترك للجمعيات اليهودية الألمانية تولي تنظيم الوجود اليهودي في هذا البلد[٤٨]. ويجري على الفور تفويض روبّين لإعداد خطة شاملة في هذا الاتجاه. وسوف تتلو ذلك مفاوضات بين الصهيونيين الألمان والعثمانيين ستستمر إلى نهاية الحرب.

وفي هذا العام الأخير للحرب العالمية، تحاول ألمانيا الإمبراطورية دومًا تصوير نفسها في صورة المدافع عن المصالح اليهودية في العالم. ففي ٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧، كانت رومانيا، حليفة فرنسا وإنجلترا، قد اضطرت إلى عقد هدنة مع إمبراطوريتي وسط أوروبا بحكم خروج روسيا من الحرب. فتتدخل الجماعات الصهيونية والمنظمات اليهودية في ألمانيا والنمسا ـ المجر لدى حكوماتها مؤكدةً أنه في هذه المناسبة يمكن أخيرًا تحقيق تحرير يهود رومانيا. والحال أن المؤسسات اليهودية في البلدان الأوروبية المحايدة وفي الولايات المتحدة إنما توافق على هذه المطالب. ويتطرق الألمان والنمساويون إلى هذه المسائل خلال مفاوضات الصلح، لكنهم لا يجعلون منها رهانًا جوهريًا. ومع ذلك، فإن معاهدة بوخارست المؤرخة في ٧ مايو/ أيّار ١٩١٨ إنما تستعيد شروط المادة ٤٤ من معاهدة برلين لعام ١٨٧٨ بالنص على أن اليهود، الذين كانوا يعتبرون إلى ذلك الحين أجانب، يجب أن يحصلوا على الجنسية الرومانية. وكما هو متوقع، فإن البرلمان الروماني يقوم، خلال صيف عام ١٩١٨، بوضع قانون معقد حول تجنيس اليهود مكثرًا من الحالات الخاصة، وذلك سعيًا إلى تجنب احترام التعهدات التي جرى إعلان التقيد بها. بيد أن تطور الأحداث على

الجبهة الغربية إنما يشير بالفعل إلى أن المسألة سوف يعاد طرحها في مؤتمر الصلح القادم[٤٩].

وتبدي الحكومة الفرنسية اهتمامًا أكبر بالقوة المفترضة لليهود الأميركيين مما بالقوة المفترضة ليهود روسيا. والحال أن أندريه تارديو، ممثلها في نيويورك، والذي سيصبح شخصية سياسية كبرى في الفترة التالية، إنما يناشد باريس مراعاة هذا العامل المهم. بيد أن الجمهورية الثالثة يتعين عليها مراعاة ضرورات سياستها الإسلامية. ومن ثم يجري إبلاغ المندوب السامي الفرنسي في نيويورك[٥٠] بأن بوسعه أن يؤكد لمحاوريه الصهيونيين أن الحكومة الفرنسية ليس لديها أي اعتراض على الصهيونية وأنها ستبدو مستعدة للاعتراف بـ"مقام قومي". بيد أنها لا يمكنها أن تمضي إلى ما هو أبعد من ذلك في هذا الاتجاه، لأن إسرائيليي فرنسا معادون في غالبيتهم العظمى "لأي تنظيم من شأنه إعادة خلق تنظيم يهودي" ولأن ملايين المسلمين في شمالي أفريقيا وبلاد العرب ومصر "يعتبرون إنشاء دولة يهودية إجراء اغتصاب حتمي حيال إخوتهم في الدين في فلسطين":

وإذا ما أمكن للصهيونيين أن يطلبوا ما قد يمكن منحه لهم بشكل معقول، فإنهم لن يجدوا فرنسا ضدهم، إلاّ أن الأكثر تقدُّمًا بين صفوفهم قد طرحوا في صخب شديد، لسوء الحظ، تحت تأثير زعماء ممالئين لألمانيا، نظريات تنزع إلى تكوين، ليس مجرد مقام، وإنما دولة يهودية حقيقية في فلسطين. وهذه التجاوزات في اللغة إنما تزعج مسلمينا؛ وقد أطلعَنا ولاتنا في شمالي أفريقيا على احتجاجات السكان المسلمين، وبالمقابل، فإن يهود الجزائر لم يُظهروا اهتمامًا أكثر قوة بالصهيونية.

إن الصهيونيين "الممالئين لألمانيا" هم الذين يطالبون بدولة يهودية، وسوف تناقش الكيه دورسيه موقفًا أكثر معقولية مع سوكولوف، الذي يتعين عليه الوصول قريبًا إلى فرنسا. ومع مراعاة التحفظات التي جرى التعبير عنها بذلك الشكل، وإن كان أيضًا مع مراعاة المخاوف من قيام الألمان باستعادة زمام المبادرة في مسألة السياسة اليهودية، فإن وزارة الشئون الخارجية تقوم بطبخ تصريح يعد نموذجًا للالتباس الديبلوماسي:

الجمهورية الفرنسية

وزارة الشئون الخارجية

إدارة الشئون السياسية والتجارية

باريس، ١٤ فبراير/ شباط ١٩١٨

السيد،

إعمالاً للاتفاق الذي تم التوصل إليه خلال اجتماعنا يوم السبت ٩ من الشهر الجاري، فإن حكومة الجمهورية، سعيًا إلى تحديد موقفها تجاه التطلعات الصهيونية، والتي ترمي إلى إيجاد مقام قومي لليهود في فلسطين، قد نشرت بلاغًا في الصحافة.

وإذ أبلغكم بهذا النص، فإنني أسارع إلى اغتنام هذه الفرصة لكي أحييكم على الإخلاص النبيل الذي تتوخون به تحقيق أماني إخوتكم في الديانة، ولكي أشكركم على الحماسة التي تبدونها في إبلاغهم بمشاعر التعاطف التي توقظها مساعيهم في بلدان الوفاق وخاصة في فرنسا.

وتقبلوا، سيدي، أكيد احترامي.

(توقيع) پيشون.

السيد سوكولوف

أوتيل موريس، باريس

وإذا كان مصطلح "المقام القومي" يستخدم في هذه الديباجة دون أن تتحمل الحكومة الفرنسية مسئولية عنه، فإن الحديث لا يدور في البلاغ إلاّ عن "إقامة":

إن السيد سوكولوف، ممثل المنظمات الصهيونية، قد جرى استقباله هذا الصباح في وزارة الشئون الخارجية من جانب السيد ستيفان پيشون، الذي أسعده أن يؤكد له أن التفاهم تام بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية فيما يتعلق بمسألة إقامة يهودية في فلسطين.

والتصريح الفرنسي موجه أساسًا إلى الرأي العام الأميركي. ويجري التفكير في تهدئة سخط المسلمين الجزائريين الوارد عبر تدابير تعتزم الجمهورية اتخاذها في اتجاه مشاركة أوسع من جانبهم في الحياة السياسية (قوانين جونار التي ستصدر فيما بعد)(٥١).

وسوف تتخذ إيطاليا موقفًا بشكل أكثر تأخرًا بعض الشيء وذلك عبر وضع صيغة تحذو حذو صيغة تصريح بلفور، وإن كان مع الفارق المهم المتمثل في الإشارة إلى الحقوق "السياسية" للسكان غير اليهود:

رسالة السيد إمبريالي إلى السيد سوكولوف (تصريح الحكومة الإيطالية)

لندن، ٩ مايو/ أيار ١٩١٨

بما يتماشى مع تعليمات صاحب الفخامة البارون سونينو، وزير شئون خارجية صاحب الجلالة، يشرفني إبلاغكم بأنه، فيما يتعلق بمطالبكم، يُسْعِدُ حكومة صاحب الجلالة تأكيد التصريح الذي أصدرته من خلال ممثليها في واشنطون وفي لاهاي وفي سالونيك والذي سيقوم هؤلاء بمقتضاه ببذل كل ما في مستطاعهم لتيسير إقامة مركز قومي إسرائيلي في فلسطين، على أساس أن من المفهوم تمامًا أن الحقوق المدنية والسياسية للجماعات غير اليهودية في فلسطين، وكذلك الوضعية القانونية والسياسية لليهود في البلدان الأخرى، لن يطرأ عليها تعديل من جراء ذلك[٥٢].

وما يوضح جيدًا الطابع الواهم جزئيًا لدوافع الحلفاء، هو واقع أن الدولتين المفترض أنهما واقعتان على نحو مباشر تحت نفوذ القوة اليهودية هما تحديدًا الدولتان اللتان لا تتخذان موقفًا مؤيدًا للمقام القومي اليهودي. ففي روسيا، تعد السلطة الثورية الجديدة معادية للصهيونية في حين أن الحركة القومية اليهودية التي تشهد إعادة تنظيم سافرة لها سرعان ما سوف تغرق في إعصار الحرب الأهلية. أمّا المبادرة المهمة الوحيدة للسلطة الجديدة في موسكو فسوف تتمثل في نشر مضمون الاتفاقات الفرنسية ــ الإنجليزية ــ الروسية لعام ١٩١٦، بشكل مبتور، وهو نشر سيؤدي إلى قدر من شعور الحلفاء بالضيق لأن الدعاية الألمانية ــ العثمانية سوف تستفيد من ذلك لكي توضح للعرب مخاطر انحيازهم إلى القضية الفرنسية ــ البريطانية.

وفي الولايات المتحدة، كان الرئيس ويلسون قد لعب دورًا كبيرًا في اتخاذ البريطانيين موقفهم النهائي. على أن انعدام وجود تعهد علني من جانب الرئيس إنما يترتب عليه أن الموظفين الأميركيين يجهلون التوجه المتخذ. وفي ١٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧، نجد أن لانسنج، وزير الخارجية، يشكو من

الضغوط التي يمارسها الصهيونيون على وزارة الخارجية. وهو يوصي بعدم المسارعة إلى التورط في هذه المسألة الحسَّاسة، وذلك حرصًا على عدم الظهور في مظهر من يوافق على سياسة اقتسام للدولة العثمانية التي لا تعد الولايات المتحدة في حالة حرب معها، كما يوصي بعدم التدخل في الشئون الداخلية اليهودية لأن هناك معارضة قوية للصهيونية في صفوف اليهود أنفسهم، ويوصي كذلك بعدم استثارة سخط الأوساط المسيحية المهتمة بالأرض المقدسة. وفي ١٤ ديسمبر/ كانون الأول، يوافق ويلسون على مذكرة لانسنج مع إضافة أنه إنما يفعل ذلك على مضض، لأنه يشعر بأنه قد وافق على تصريح بلفور (٥٣).

ويرصد البريطانيون الترددات الأميركية لكنهم يعتمدون على نفوذ برانديز على الرئيس الأميركي لدفعه إلى تقديم دعمه إلى السياسة البريطانية. ويتمسك ويلسون بسياسة عدم تورط في الشئون الشرقية ويرفض الشعور بأنه مرتبط بالاتفاقات الفرنسية ــ البريطانية. وقبول تصريح بلفور من شأنه أن يعني الانجرار إلى وضع لا تكون فيه اليد [الأميركية] حرة عند طرح مسألة الشرق الأدنى في مؤتمر الصلح القادم.

وخلال مجمل عام ١٩١٨، تبدو وزارة الخارجية معادية كالعادة للصهيونية. ويعارض لانسنج مشاركة أميركية في اللجنة الصهيونية المقرر زيارتها فلسطين (٥٤). ويتشاور ويلسون مع الصهيونيين الأميركيين، مخلصًا نوعده. وفي ٢٧ أغسطس/ آب ١٩١٨، يلتقي الحاخام ستيفان وايز، وهو شخصية نشيطة بشكل خاص في الحركة. ويشرح له وايز مضمون المشروع الصهيوني استنادًا إلى المؤتمر الصهيوني الاول (برنامج بال) الذي لا يتحدث إلاّ عن مقام يهودي في فلسطين يتم الاعتراف به وضمانه دوليًا: وهكذا يجري ترك مسألة السيادة جانبًا إلى حين انعقاد مؤتمر الصلح (٥٥).

وعلى أثر هذا اللقاء، يذيع ويلسون رسالة موجهة إلى وايز بتاريخ ٣١ أغسطس/ آب ١٩١٨: وهو يعبر فيها عن ارتياحه إلى تقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة وفي البلدان المتحالفة منذ تصريح بلفور، الذي يستشهد بشروطه، كما يعبر عن ارتياحه إلى عمل اللجنة الصهيونية في فلسطين (٥٦).

وبالرغم من تشجيعاته، فإن ما نحن بإزائه ليس بعدُ التأييد العلني لتصريح بلفور، وهو التأييد الذي يسعى الصهيونيون إلى الحصول عليه.

بدايات الإدارة العسكرية

المهمة الأكثر إلحاحًا أمام المديرين الجدد لجنوبي فلسطين هي ببساطة تامة تأمين الإمدادات لجماعة سكانية أفقرتها الحروب ومعزولة عن المصادر التقليدية التي كانت تزودها بالحبوب (شرق الأردن أو ميناء يافا). ويبدو أن العسكريين البريطانيين أكفاء بالرغم من تشكيلهم بشكل تدريجي إدارة متمايزة. ومن الضروري من الناحية السياسية التبكير قدر الإمكان بفصل فلسطين عن مصر، كيلا يصدر اتهام بوجود مشاريع إلحاقية. ومن يناير/ كانون الثاني إلى أبريل/ نيسان ١٩١٨، يخول أللنبي للبريجادير ــ جنرال ج. ف. كلايتون، الضابط السياسي الرئيسي، إدارة المنطقة المحتلة[٥٧]. ويساعده حكام عسكريون في مناطق التجمعات السكانية الرئيسية. ويستلهم النظام التجربة العثمانية: "لامركزية إدارية مجتمعة مع رقابة مركزية قوية".

وفي أبريل/ نيسان، تنشأ الإدارة المؤقتة، تحت اسم إدارة أراضي العدو المحتلة (Occupied Enemy Territory Adminstration [OETA])، تحت قيادة الميجور ــ جنرال السير آرثر ماني، المدير الرئيسي الذي لا يتبع إلاّ أللنبي، بينما يظل كلايتون ضابطًا سياسيًا رئيسيًا على اتصال مباشر بوزارة الحربية وبوزارة الخارجية البريطانيتين. والحال أن هذين الشريكين، بالرغم من تداخل الاختصاصات، سوف يعملان في تناغم إلى منتصف عام ١٩١٩ وذلك بفضل علاقاتهما الشخصية الممتازة[٥٨].

والشخص الأكثر عرضة للتحدي هو ستورس، الحاكم العسكري الجديد للقدس، والذي يتعين عليه مواجهة رغبة بيكو في إظهار الوجود الفرنسي مهما تطلب ذلك. وبيكو مدعوم من وزارته التي كانت قد تلقت تأكيدات من سايكس حول المشاركة الفرنسية في إدارة فلسطين[٥٩]. وتبدأ الاحتكاكات الأولى حول مسألة تحويل العملة العثمانية: فيقترح بيكو أن تقدم البنوك الفرنسية سعر صرف مفيدًا للسكان[٦٠]. أمّا السلطات البريطانية فهي تجري التحويل باتخاذ القرش

المصري أساسًا، بسعر صرف يشكل خفضًا بنسبة ١٠% من العملة الفرنسية(٦١). ويوضح ستورس أن هذا هو سعر الصرف المصري، فيعترض عليه الفرنسي بأن "فلسطين ليست مصر على نحو ما يبدو أن البعض يحلو لهم أن يتصوروا ذلك". وفي اليوم التالي، يتراجع ستورس ويقبل سعر الصرف الذي اقترحه بيكو (٣٠ ــ ٣١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧). وفي ٢ يناير/ كانون الثاني، يذكرُ الحاكم البريطاني بالطابع المؤقت لإدارته وبالتدويل الذي سيحدث للبلد في المستقبل(٦٢). وعندئذ يبذل الفرنسيون كل جهدهم لتأمين الاعتراف بحمايتهم الكاثوليكية.

ومن يبدأ العداوة هم الإيطاليون، فهم يحتجون على التشريف الطقسي الممنوح لبيكو خلال احتفالات عيد الميلاد في بيت لحم: فهذا التشريف إنما يؤكد استمرار الحماية الكاثوليكية التي تمارسها فرنسا، وهي حماية تعترض عليها الحكومة الإيطالية(٦٣). ويرد بيكو بالاعتراض على وجود جنود إيطاليين في حراسة كنيسة القبر المقدس(٦٤): فباسم الحماية الدينية وليس باسم الاحتلال يشارك الفرنسيون في حراسة الأماكن المقدسة. ويرد ستورس بأننا بإزاء عملية حراسة بسيطة هدفها منع الجنود من دخول الكنائس خارج الخدمات الدينية(٦٥).

ويجر الرهان الكاثوليكي إلى انقسام للمؤسسات الكنسية الموجودة: فالهيئة الفرنسيسكانية القيِّمة على الأرض المقدسة تنحاز إلى الموقف الإيطالي (رجال الدين هؤلاء هم أنفسهم إيطاليون)، بينما تدعم البطريركية الكاثوليكية الموقف الفرنسي. ويسعى بيكو إلى الاستفادة من ذلك فيقوم بترتيب تسبيحة شكر في كنيسة القبر المقدس يحصل خلالها الفرنسيون على صدارة التشريف، لكن ستورس، وهو ليس كاثوليكيًا رومانيًا، إنما يرفض الحضور ويأمر مرءوسيه بأن يحذوا حذوه(٦٦). وفي ١٩ يناير/ كانون الثاني ١٩١٨، تعلن الهيئة القيِّمةُ أن جماعتها ترى أن الحماية الفرنسية قد انتهت بانتهاء السيطرة التركية(٦٧). فيبدي بيكو رفضًا قاطعًا.

ومنذ دخول القدس، ينتهج الفرنسيون سياسة "وخز بالأشواك"، مثلما سبق لهم أن فعلوا في مصر من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٠٤، وهو ما ترك ذكريات جد سيئة لدى البريطانيين. وإذ ينتاب الغضب أللنبي، فإنه يجتمع ببيكو في ٢٥

يناير/ كانون الثاني ١٩١٨[٦٨] ويُطلِقُ غضبةً من غضباته التي جعلته أسطوريًا في الجيش البريطاني. وهي غضبة يترجمها بيكو لباريس بلغة ديبلوماسية بأنها "صفاقة الجندي الفظة التي تتناسب مع شخصيته". فالچنرال يطالب باحتكار السلطات:

> ليس لك الحق في أن تدخل في علاقات هنا مع أحد سوى الچنرال كلايتون، وليس بوسعك إصدار أوامر. وأنا لا أسمح بوجود أي قنصل فرنسي ولا إيطالي. إن الچنرال أللنبي هو وحده الذي يمثل جميع الحلفاء، ويركز جميع السلطات القنصلية ويحمي جميع الطوائف المسيحية أو المسلمة، وإذا ما كان هناك تشريف يجب تقديمه [...] إلى الدول الحامية، فإليه هو يجب تقديمه. إنك لست سوى مستشاري للشئون العربية والسورية. لا أكثر من ذلك.

ويظل بيكو متشبثًا بمواقفه كمدافع عن الحقوق القديمة والجديدة لفرنسا. فيلجأ أللنبي إلى التهديد بطرده من القدس فيحيل الفرنسي الأمر إلى حكومته.

وموقف بيكو يؤرق كلايتون، الذي يوضح الأمر لسايكس في رسالة في اليوم التالي[٦٩]: لا يمكن الاعتراف للفرنسيين بدور في إدارة فلسطين، وبيكو، بموقفه، إنما يجازف بإثارة المتاعب. ومنذ شهر ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧ والضابط السياسي البريطاني منزعج من عداوة العرب للصهيونية[٧٠]، وبيكو، في لقاءاته مع الأهالي، يبدو قليل التعاون: فهو لا يدعم مشروع التعاون اليهودي ــ العربي ــ الأرمني ولا يعمل إلاّ في اتجاه المصالح الفرنسية، دون أن يراعي المصاعب الملحوظة التي تواجهها الإدارة العسكرية في إعادة البلد إلى استئناف مسيرته.

ويزور سايكس باريس لكي يحاول إنهاء الأزمة[٧١]. وهو يردها إلى مناورات الأهالي الذين يسعون إلى وضع الفرنسيين في مواجهة البريطانيين ويقترح إنشاء مكتب لتلقي الشكاوي يديره كلايتون وبيكو في آن واحد. ويرد بيكو بأن الأهالي لا يد لهم في الحوادث مثار الجدل[٧٢]. وفرنسا لا تملك إمكانات لمعارضة السياسة البريطانية في فلسطين. ويتوجب التمسك بدفاع صارم عن الوضع القائم وعن الطابع المؤقت للإدارة البريطانية[٧٣]. وتوافقه باريس على

ذلك وتشير إلى أن سايكس قد اعترف بأن التشريف الطقسي جزء من الوضع القائم[٧٤]. وفي ٨ فبراير/ شباط، تقبل لندن مبدأ التشريف، ولكن دون أن يكون من شأن ذلك خلق حقوق خاصة لتدخل الفرنسيين في إدارة فلسطين[٧٥].

وإذا كان تعايش هش ينشأ في القدس بين الفرنسيين والإنجليز، فإن موقف الفاتيكان إنما يصبح الموضوع الرئيسي لقلق الدبلوماسية الفرنسية[٧٦]: فالباباوية، بكفها عن الاعتراف بالحماية الفرنسية، قد انحرفت عن سياستها المحايدة التي كانت فرنسا تعتبرها معادية لها بالفعل. ويرى پول كامبون في هذا الموقف المحزن محصلة سياسة كارثية جرى انتهاجها منذ الفصل بين الكنيسة والدولة[٧٧]. ويقترح سفير فرنسا في روما حث الكاثوليك الفرنسيين على التدخل لدى البابا[٧٨]. على أن الفاتيكان يقبل، في أواخر مارس/ آذار، الإبقاء على التشريف[٧٩]. وهكذا يتم الإبقاء مؤقتًا على وضع فرنسا، بالرغم من أن المسئولين الفرنسيين يشعرون أنهم محاصرون بمختلف الدسائس البريطانية والإيطالية والفاتيكانية والتي تهدف إلى إنهاء النفوذ الفرنسي في فلسطين.

والنزاع حول الأماكن المقدسة والتشريف الطقسي ليس فيه ما هو من قبيل الطرائف. فهو يسهم إسهامًا كبيرًا في تثبيت الوضعية الحقوقية لما سرعان ما سوف يصبح الأوايتا [OETA]، التي تنزع إلى منح احتكار إداري للبريطانيين بشرط إلا يغير هؤلاء الأخيرون الوضع القائم، بما يشكل فكرة كانت صالحة إلى الآن بالنسبة للأماكن المقدسة لكنها تمتد الآن لتشمل كل فلسطين المحتلة.

وهذا الوضع المؤقت ليس من شأنه إلاَّ أن يدفع البريطانيين إلى نقض اتفاق سايكس – پيكو. وهذا هو ما يقترحه على سايكس مساعده أورمسبي – جور في مذكرة ترجع إلى أواخر يناير/ كانون الثاني ١٩١٨[٨٠]: إن تطور الوضع العسكري والتمرد العربي في شرق الأردن وتصريح بلفور وموقف الفاتيكان المناوئ للحماية التي تفرضها فرنسا على الكاثوليك وسياسة عدم الضم التي ارتآها الرئيس ويلسون إنما تجعل التعهدات المتخذة في عام ١٩١٦ تعهدات بالية أكل الدهر عليها وشرب. وليس من شأنها سوى إثارة المتاعب من جانب المسيحيين غير الكاثوليك والعرب والصهيونيين. وتصريح بلفور لا يتماشى مع تدويل فلسطين. وفي منتصف فبراير/ شباط، يدرس معاونو سايكس الحجج التي

يمكن تقديمها لنقض الاتفاق[81]. ويرى سايكس أن روسيا قد انسحبت فعليًا من الحرب وأن موقف الولايات المتحدة قد جعل من المستحيل انتهاج سياسة ضم. ويوضح القانوني الذي جرت استشارته أن روسيا لم تشارك في تبادل المذكرات في مايو/ أيار ١٩١٦، في حين أن إيطاليا قد وافقت على الاتفاق بموجب اتفاق سان ـ چان ـ دو ـ موريين. ولا يمكن نقض الاتفاق دون أن يسب الفرنسيون البريطانيين على سوء نيتهم. والنتيجة نفسها من شأنها أن تترتب على التقدم إلى الفرنسيين بعروض لإعادة نظر تالية في الاتفاق. ولا يفعل البريطانيون شيئًا وينهمكون في التصرف كما لو أن الاتفاق لم تعد له صلاحية.

وفي اللحظة المباشرة، فإن الأرض الوحيدة المعنية هي فلسطين، لأنها الوحيدة الواقعة جزئيًا في أيدي الحلفاء. ومسألة سوريا ليست في جدول أعمال الساعة. ولأجل تهديد تدويل الأرض المقدسة، يحتاج البريطانيون إلى العرب والصهيونيين والأميركيين. لكن العلاقات بين اليهود والعرب ليست على تلك الدرجة من التناغم التي بَشَّرَ بها سايكس.

اليهود والعرب

تشير برقيات كلايتون إلى وجود انزعاج عربي قوي في فلسطين وذلك بسبب سياسة بريطانيا العظمى حيال الصهيونية، بيد أن الخواطر منشغلة أساسًا، في شهور الاحتلال الأولى، بالمسائل الأكثر إلحاحًا والخاصة بتوفير المؤن وتدشين إعادة إعمار البلد الذي خربته المعارك[82]. وعلى الجانب الصهيوني، يحرز ثون وهوفيين تقدمًا في إعادة تنظيم مؤسسات الطائفة اليهودية، وذلك بالرغم من اعتراض يهود القدس من غير الصهيونيين[83].

وطقس الشتاء السيئ، حيث يتكرر هطول الأمطار والثلوج، إنما يزيد من صعوبة المواصلات.

وضمن عين منطق الإدارة المؤقتة ومنطق الوضع القائم المميز للإدارة العسكرية، فإن سادة البلد الجدد يستعيدون سياسة أعيانٍ تجعل من القضاة المدنيين والدينيين محاوري من يديرون البلد. وهكذا، ففي القدس، نجد أن ستورس يعين في منصب عمدة المدينة موسى كاظم الحسيني، وهو موظف

عثماني كبير كان قد عمل في عدة ولايات عربية. وهو يحل في هذا المنصب محل أخيه حسين الحسيني الذي مات للتوّ.

وكما لو أننا بإزاء تكرار متسارع لمعطيات تاريخ القرن التاسع عشر، فإن الأسابيع الأولى للإدارة العسكرية قد عرفت بالأخص، من الناحية السياسية، استئناف المواجهات الطائفية والدولية حول وضعية الأماكن المقدسة، حيث تتمثل الأطراف المشاركة الرئيسية، علاوة على المؤسسات الكنسية المعنية، في البريطانيين والفرنسيين والإيطاليين. ويطلب پيكو إرسال قوات عسكرية مهمة لإظهار حقوق فرنسا. بيد أن الوضع العسكري لا يسمح بذلك: ففي شهور شتاء ١٩١٧ ــ ١٩١٨ هذه، يجري انتظار الأميركيين والدبابات، ومن المعروف أن الألمان، وقد أصبحوا يتمتعون بتفوق عددي مؤقت، سوف يشنون في الربيع عمليات حاسمة. والبريطانيون أيضًا يعرفون ذلك. وبالرغم من نجاحات أللنبي، الذي وسّع المنطقة الخاضعة له حول القدس واستولى على أريحا، فإنهم قد استدعوا قوات لإرسالها إلى فرنسا، حيث ستدور المعركة الحاسمة. وعندما يفكر الفرنسيون في إرسال تعزيزات إلى فلسطين، فإن الإنجليز إنما يكثرون من الاعتراضات التقانية[٨٤]: فمن غير الممكن إنشاء منظومة إمداد مستقل للوحدة الفرنسية والشبكة اللوچستية البريطانية لا يمكنها تحمل أعباء إضافية...

وتستمر الريبة، ولندن مستعدة لمطالبة باريس بسحب پيكو إذا ما وُجِدَ أنه متورط في إثارة شقاقات[٨٥]. بيد أن كلايتون يطمئن حكومته: إن پيكو يبدو مخلصًا وهو يلعب دورًا مفيدًا في تهدئة الخواطر[٨٦]. وهو وكلايتون يشرحان للعرب تصريح بلفور استنادًا إلى معناه الحرفي ومشدِّدين على حماية حقوق كل طائفة. وينتظر الضابط السياسي بنفادِ صبرٍ اللجنة الصهيونية التي ستضع الأمور في نصابها وستقود إلى تعاون بين اليهود والعرب. وهذه المؤشرات الجديدة إنما توضح أن المخاوف العربية تتحدد في مستهل شهر مارس/ آذار.

ولكي نعثر على تأمل سياسي منظم حول مستقبل فلسطين من الجانب العربي، لابد من العودة إلى مصر حيث يوجد الجانب الرئيسي من الطبقة السياسية للولايات العربية للدولة العثمانية. والحال أن التباس مواقف الحلفاء قد خلق انزعاجًا قويًا أجبر الممثلين الفرنسيين والبريطانيين على الإكثار من

التصريحات العلنية التي تصور تغلغل القوات البريطانية في داخل الأرض العثمانية، ليس على أنه احتلال بل على أنه تحرير. ويبقى أن الالتباس الرئيسي يظل هو المعنى الذي يجب إعطاؤه للتعبيرات المستخدمة، كـ"الاستقلال" و"سوريا" و"بلاد العرب".

ويستعيد الممثلون البريطانيون لازمة التعاون الضروري بين اليهود والعرب والأرمن[٨٧]. بيد أن هذا لا يهدئ انزعاجات العرب، الذين يتحدثون عن الاغتصاب وعن الإخضاع للسيطرة اليهودية[٨٨]. وتستعجل لندن تكوين اللجنة الصهيونية المكلّفة بتقديم ما يهدئ العرب. والحال أن الولايات المتحدة، بعد أن ترددت، إنما تمتنع عن إرسال مندوبين إلى هذه اللجنة: فوزارة الخارجية الأميركية قد أقنعت ويلسون بأن مثل هذه المشاركة سوف تكون متعارضة مع سياسة عدم الانخراط في شئون الشرق الأدنى. والبريطانيون، الذين يريدون مشاركة أميركية، إنما يحثون على إرسال بعثة من الصليب الأحمر الأميركي، لتعريف الجميع بالاهتمام الذي يوليه الأميركيون لمستقبل فلسطين[٨٩]. ويعترض الصهيونيون على هذه المبادرة: فهم يريدون إعطاء الصهيونيين الأميركيين احتكار تمثيل بلدهم في فلسطين، ومن شأن وجود الصليب الأحمر أن يسمح بوجود غير صهيونيين، من اليهود ومن غير اليهود، وإظهار أن هناك سياسة أميركية متمايزة عن سياستهم. وهم يزعمون أن رمز الصليب الأحمر سوف يثير غضب المسلمين[٩٠]... ويتم التساهل فيما يتعلق بإرسال بعثة طبية يهودية، بيد أن وزارة الخارجية تعترض على ضمها شخصيات سياسية، الأمر الذي من شأنه توريط الرئيس الأميركي في اتجاه الموافقة على تصريح بلفور وعلى الصهيونية(٩١). وفي نهاية المطاف، تسافر البعثة عبر المحيط الهندي، في حين أن بريطانيا العظمى كانت قد طلبت مرورها بالجزر البريطانية، ومن هنا استياء لندن حيال هذه المناورات التسويفية.

أمّا المشاركة الفرنسية فهي تفرض نفسها، بيد أنه سيتعين أولاً العثور على صهيونيين فرنسيين... وقد شدّدت وزارة الخارجية الفرنسية لدى سوكولوف على ضرورة وجودٍ فرنسيٍ[٩٢]. وبعد تفكير، تختار الوزارة سيلفان ليفي، أستاذ

الدراسات الهندية بالكوليچ دوفرانس، والعضو القيادي بالتحالف الإسرائيلي العالمي (سوف يصبح فيما بعد رئيسًا له) والمقرب من إدمون دو روتشايلد(٩٣) وعضو لجنة آسيا الفرنسية، لسان حال الحزب الاستعماري. وسوف يصبح مندوب تجمع للإسرائيليين الفرنسيين تكوّن تحت اسم لجنة الدراسات الصهيونية ويرأسه البارون إدمون دو روتشايلد. والحال أن هذا الأخير قد تمكن بدهاء من سحب البساط من تحت أقدام الحركة الصهيونية بتبنيه لحسابه مصطلح الصهيونية في حين أنه قد سعى دومًا إلى التنصل من منظماتها.

وفي برقية من دوفرانس مؤرخة في ٨ فبراير/ شباط ١٩١٨(٩٤)، نجد ملاحظة جد مهمة بالنسبة للمستقبل. فلأول مرة، يستخدم الممثل الفرنسي مصطلح "الفلسطيني"، المتمايز عن مصطلح "السوري"، إن تصريح بلفور

> [...] قد ترك انطباعًا عميقًا في نفوس سوريي مصر (مسيحيين ومسلمين). وكان هذا الانطباع أليمًا بشكل خاص في نفوس اللاجئين الفلسطينيين، غزيري العدد هنا. وقد تساءلوا ما إذا كان الحلفاء سوف يعطون بلدهم فعلاً للصهيونيين لكي يقيموا فيها المملكة اليهودية حد العزيزة على هرتسل.

وهو يقول إن السوريين والفلسطينيين لا يرون أي فارق بين "المقام اليهودي" و"الدولة اليهودية". وموقف صهيونيي مصر، الذين يتحدثون بالفعل عن تسامحهم مع الطوائف غير اليهودية في البلد [فلسطين] كما لو أنهم يعتبرون أنفسهم سادته بالفعل، لا يدع لديهم أي مجال للشك:

> ومن ثم فقد ظهر سخط في صفوف الفلسطينيين.
>
> إنهم لا يمكنهم أن يقبلوا أن مبدأ القوميات، الذي يقول الحلفاء إنهم أنصار له، يمكن أن ينطبق على اليهود فيما يتعلق بفلسطين بدعوى أنهم قد سادوا فيها لمدة أربعمائة أو خمسمائة سنة، قبل عشرين قرنًا خلت، معتبرين أن العالم برمته من شأنه أن ينقلب لو جرى النظر إلى الأمور بهذه الطريقة. وقد استغربوا بالأخص من رغبة الحلفاء في فصل مصير فلسطين عن بقية سوريا وإضافة سبب جديد للشقاق إلى الأسباب، جد العديدة للأسف، والتي تدمر بالفعل هذا البلد.

وبعض الفلسطينيين مستعدون للاعتراف بالمساواة في الحقوق مع اليهود الموجودين بالفعل، بيد أنهم لا يمكنهم قبول هذه المساواة بالنسبة لمئات الآلاف من المهاجرين الجدد. ومن ثم يدور الحديث عن ترتيبات لتقييد الهجرة وانتقال الملكيات العقارية.

والحال أنه في بضع عبارات ترجع إلى أواخر يناير/ كانون الثاني وأوائل فبراير/ شباط ١٩١٨، فإن كل ماسوف يصبح الجدل الأساسي إلى نهاية الانتداب البريطاني، بعد ذلك بثلاثين سنة، إنما يجد نفسه وقد طرح بالفعل. والشيء نفسه ينطبق على الردود البريطانية.

وقد قررت اللجنة السورية بالقاهرة إرسال مذكرة احتجاج إلى لندن، لكن السلطات البريطانية طلبت إليها أولاً تقديمها إلى المندوب السامي وينجيت.

> وفي النهاية دعا الجنرال كلايتون إلى السافوي بعض أعضاء اللجنة السورية وقال لهم إنه من غير الضروري إرسال البرقية المقتَرَحَة؛ وإنما، من جهة أخرى، قد تم إبلاغها للندن بالفعل؛ وإنه مكلَّف بطمأنة العرب فيما يتعلق بأهداف الصهيونية بمعنى أن الحكومة البريطانية ليس لديها أي نية لإقامة إدارة يهودية في فلسطين؛ وإن مشروعها لا يميل إلى ما هو أكثر من منح اليهود حق الإقامة في البلد والحق الانتخابي. وقد أنهى الجنرال حديثه ناصحًا اللجنة السورية باختيار عدد معين من المندوبين، أربعة مثلاً، لكي يدخلوا في اتصال مع عدد مماثل من ممثلي المنظمة الصهيونية في مصر سعيًا إلى التوصل إلى اتفاق بين اليهود والعرب.

وقد اقترح سايكس عليهم المشاركة في اللجنة اليهودية ــ العربية ــ الأرمنية الشهيرة، لكن السوريين رفضوا بأدبٍ هذه الدعوة. وموقف صهيونيي مصر نفسه ليس فيه ما يدعو إلى الاطمئنان البتة:

> في تلك الأثناء، يبدو أن المنظمة الصهيونية قد تلقت، من جهتها، النصيحة الداعية إلى تقارب مع العرب. وقد ناقشت اللجنة السورية مسألة ما إذا كان من المناسب الدخول في علاقة مع الصهيونيين. والحال أن بعض الأعضاء، من المسلمين خاصةً، قد اعترضوا على ذلك بسبب الأطماع غير العادية، بل وحتى المطالب التي عبر عنها أولئك الناس بالفعل. وفي لقاء أول عقدوه مع رئيس المنظمة الصهيونية وأحد زملائه(٩٥)، يبدو أنهم قد تكوَّن لديهم الانطباع بأن الصهيونيين يعتبرون أنفسهم بالفعل سادة فلسطين التي سوف تمتد حدودها، وفقًا لتصريحاتهم، إلى غزة ،

مستوعبة جهة الشرق نصف حوران وكل منطقة شرق الأردن... ولهلعهم من هذه الأطماع، لم تكن لديهم رغبة في التحدث عن أي تعامل مع الصهيونيين. ويبدو أن ما ثبّط همتهم في هذا الموقف هو الأنباء التي تلقوها من فلسطين بشأن هياج الخواطر البالغ العمق الذي أدت إليه هناك أيضًا رسالة اللورد بلفور، وكذلك ما ظنوا أنهم يعرفونه عن مواقف الحكومة الفرنسية في هذا الموضوع. وقد رأوا أنه قبل بدء مفاوضات من أي نوع مع الصهيونيين، فمن المهم على أقل تقدير معرفة رأي الأشخاص المصرح لهم بالتحدث باسم الفلسطينيين وفلسطين.

وقد طلبوا التصريح لهم بإرسال وفد إلى فلسطين ليتسنى لهم استشارة الرأي العام. لكن البريطانيين لم يردوا عليهم.

وبرقية دوفرانس التالية، والمؤرخة في ١٦ فبراير/ شباط ١٩١٨، إنما تقدم تتمة الأحداث[٩٦]. فاللجنة السورية تميز الآن، ضمن أعضائها، الأعضاء الفلسطينيين بشكل محدَّد لأنهم أكثر اهتمامًا من الآخرين بهذه المسألة. وهؤلاء الفلسطينيون يتحدثون عن ضرورة عدم الاقتصار على "الحقوق المدنية والدينية"، وإنما الاهتمام أيضًا وعلى الأخص بـ"حقوقهم التاريخية وحقوقهم السياسية ووحدة ترابهم".

وهناك تيمة أخرى سوف يُكتب لها طول العمر، ألا وهي استحالة الثقة بالصهيونيين:

إن الفلسطينيين ليست لديهم أي ثقة بالوعود الصهيونية، أولاً لأنهم لا يمكنهم نسيان الماضي وثانيًا لأن هذه الوعود لن يكون هناك ما يقرها: فيوم يتحلى الصهيونيون، عندما يصبحون أغلبية، عن الوفاء بتعهداتهم، لن تعاود الدول العظمى الحرب لكي ترغمهم على الوفاء بما وعدوا به، وأيًا كانت هذه الوعود من جهة أخرى، فإنها لن تلغي التناقض الكلي القائم بين أطماع الصهيونيين، غير المحتجبة البتة، والطموحات المشروعة لدى الفلسطينيين. والمسألة بالنسبة لهؤلاء مسألة حياة أو موت، موت بطيء، هذا صحيح، على أمد طويل ربما، لكنه موت أكيد.

ويرى الفلسطينيون اللاجئون في القاهرة أن فلسطين ليست غير جنوبي

سوريا. وإذ يتذكرون المحادثات العربية ـ الصهيونية في ١٩١٣ ـ ١٩١٤، فإنهم يسعون إلى درء خطر اتفاق بين السوريين والصهيونيين على حسابهم:

يجري التأكيد لنا على أنه في مقابل التسهيلات التي سيقدمها السوريون إلى الصهيونيين في فلسطين، سوف يتعهد هؤلاء الأخيرون بوضع كل إمكاناتهم في العمل لأجل تحقيق استقلال سوريا. والحال أن الفلسطينيين يخامرهم انطباع بأنهم إذا ما وافقوا على هذا الترتيب فإنهم سوف يقومون بصفقة مغبون. لأنه إذا لم تصل إنجلترا وفرنسا والحلفاء إلى إعلان استقلال سوريا وإلى تأكيد الاعتراف بهذا الاستقلال، فإن الصهيونيين ليسوا هم الذين سيقومون بذلك. ومن جهة أخرى، فإنه مهما كانت رغبة السوريين في التحرر من النير التركي مشروعة، فإنهم لن يدفعوا الأنانية إلى حد التضحية، لأجل هذا الهدف، بأخوتهم في فلسطين. وعلاوة على ذلك، فإن السوريين هم أنفسهم لن يتأخروا في أن يجدوا أنفسهم في مواجهة الخطر نفسه، وفي غضون جيل أو جيلين على الأكثر سيغامر أحفادهم بأن يجدوا أنفسهم أمام الخيار القاسي الذي يتمثل في هجر بلد آبائهم، دون أي أمل بعدُ في العودة، أو أن يصبحوا عبيداً لسادته الجدد.

وحتى قبل وصول اللجنة الصهيونية إلى مصر، فإن الإشكالية السياسية للعقود التالية إنما يتم بذلك طرحها.

بدايات اللجنة الصهيونية

منذ نشر تصريح بلفور، لم يدخر ڤايتسمان جهداً في تنظيم الحركة الصهيونية. وهو يكثر من النداءات الموجهة إلى يهود روسيا لكي يعملوا على تخريب المصادرات الألمانية في أوكرانيا. ومن الصعب معرفة ما إذا كان ڤايتسمان قد صدق بالفعل أن مثل هذه المصادرات قد حدثت أو ما إذا كان يراهن فقط على واقع أن البريطانيين يتابعون باهتمام مجمل نشاطه.

وقد أرسل آرونسونَ إلى الولايات المتحدة لكي يقوم بتفعيل نشاط الصهيونيين المحليين ولكي يحث على تجنيد فيلق من المتطوعين اليهود. ومع أن الإدارة العسكرية كانت قد حظرت دخول الممثلين الصهيونيين إلى فلسطين، إلا أنه يتابع بصورة منتظمة تطورات الوضع المحلي. وفي منتصف يناير/

كانون الثاني ١٩١٨[٩٧]، يخاطب برانديز لكي يصف له بلغة عنيفة مسلك پيكو، الذي يكثر من الصعوبات في الساحة. أمَّا نشاط "السوريين"، وهم في نظره مسيحيون أساساً، فيجري وصفه بأنه معاد للسامية ومدفوع من رأس المال المصرفي الفرنسي، اليهودي وغير اليهودي، الذي يتمسك بامتيازاته الاقتصادية في الدولة العثمانية. وهو المعادل المحلي لـ"مورجنتاو وإيلكاس" (وهما من اليهود الأميركيين غير الصهيونيين). ويتعلق الأمر بمؤامرة حقيقية، يتواجد فيها الچيزويت [اليسوعيون] أيضاً، فهم يعارضون سيطرة الصهيونيين على فلسطين تحت إشراف إنجلترا. والبولشڤية نفسها تعمل لصالح القوى "الأممية". ويجب الاعتماد على المسلمين العرب التابعين للحجاز والذين يمكن التفاوض معهم. ويجب لبريطانيا العظمى أن تحوز فلسطين، وهذا غير ممكن إلاَّ إذا طالب يهود العالم بذلك وإلاَّ إذا دعمته الديموقراطيات بوقوفها في وجه "النزعة الديموقراطية المزعومة للبلاشفة وللدائرين في فلكهم من اليهود الكوزموبوليتيين". والحال أن ڤايتسمان، إذ يعرض برنامجه بهذا الشكل، إنما يأمل أيضاً في أن برانديز سوف يؤثر على الرئيس ويلسون في هذا الاتجاه.

والمناقشات التي دارت في مصر تزعجه، وهو يطمئن نفسه بتفسيره رسائل سايكس حول التعاون الضروري بين اليهود والعرب على أنها تأكيد جازم على أن الصهيونية أمر واقع[٩٨] وعلى أن سياسة بريطانيا العظمى المعلنة هي سياسة إيجادِ لفلسطين يهودية[٩٩]. ومع دفاعه عن برنامج الحد الأقصى هذا، فإنه يعطي مجالاً محدوداً لمهمات اللجنة الصهيونية: إعادة تنظيم المؤسسات اليهودية، إنشاء الجامعة العبرية، منع المضاربة العقارية[١٠٠].

* وفي منتصف فبراير/ شباط، يكتمل تكوين اللجنة الصهيونية. وسوف يرأسها ڤايتسمان، و، فيما عدا سيلڤان ليڤي وآرونسون، لن تضم غير يهود من أصل روسي ومقيمين في بريطانيا العظمى. وكان قد اختير ضابطا اتصال، هما مساعد سايكس، أورمسبي — جور، وابن إدمون دو روتشايلد، چيمس، الذي يخدم في الجيش البريطاني. وفي ٦ مارس/ آذار، تصل اللجنة إلى باريس[١٠١].

ويعبر إدمون دو روتشايلد عن الآمال التي يعلقها على نشاط اللجنة العملي، لكنه يحذر أعضاء اللجنة من الخطر الذي تشكله طبقة "الأفندية" المسلمين الفاسدين

ومضطهدي الفلاحين، كما يحذرهم من خطر جماعة الضغط التي يمثلها الكاثوليك الذين هم على علاقات وثيقة بالأوساط الحاكمة الفرنسية، حتى وإن كان كليمنصو وبيشون معاديين لهم.

وفي ١٠ مارس/ آذار، تصل اللجنة إلى روما، حيث تلقى استقبالاً طيّباً من جانب أجد أحبار الفاتيكان. ويطمئِنُ ڤايتسمان إلى مساندة الطائفة اليهودية الإيطالية. ثم يركب الفريق البحر من تارانتو ليهبط في الإسكندرية في ٢٠ مارس/ آذار، حيث ينتظره استقبال حار من جانب الطائفة اليهودية المحلية. ويحدث الشيء نفسه لدى وصوله القاهرة في اليوم التالي. وقد جرى اللقاء الأول مع المندوب السامي وينجيت في ٢٢ مارس/ آذار. ويشدِّدُ هذا الأخير على ضرورة عدم استعداء العرب[١٠٢]. فيعبر ڤايتسمان عن دهشته من جهل السلطات المحلية: إذ ليس من الوارد إنشاء دولة يهودية في فلسطين في التوّ والحال[١٠٣]. أمَّا اللقاء الثاني، والذي رتب له سيلڤان ليڤي، فهو مع دوفرانس، الذي يؤكد لهم أن الحماية التي تقدمها فرنسا للمسيحيين لا تتعارض مع المصالح اليهودية في فلسطين. ويؤكد الدبلوماسي الفرنسي لڤايتسمان تعاطفه الشخصي مع هذه الحركة الليبرالية المتمثلة في الصهيونية. وفي تقرير إلى باريس، يتحدث دوفرانس خاصة عن النصائح التي قدمها إلى الصهيونيين والتي حثهم من خلالها على الاعتدال[١٠٤]. وهو ينزعج من خطر حُبِّ ألمانيا الذي سوف يشكله المقام القومي اليهودي وقد حث على أن تؤدي العبرية إلى اختفاء استخدام اليدِّية، جد القريبة من الألمانية. فطمأنه ڤايتسمان على أن هناك نية في إعطاء الفرنسية مكانة ممتازة في فلسطين. وقد فَسَّرَ سيلڤان ليڤي تأكيد ڤايتسمان — إنَّ تكوين دولة يهودية في فلسطين ليس وارداً في جدول الأعمال — على أنه يشكل "تحولاً" حقيقيًّا "من جانبه". والحال أن رجل إدمون دو روتشايلد قد أخذ مأخذ الجد كلمات ڤايتسمان التاكتيكية وهو لا يفكر إلاَّ في التكوين البطيء لمقام يهودي ذي طابع ثقافي أساساً[١٠٥]. ومن ثم يمكن لدوفرانس أن يتصور أن الصهيونية لا تجازف بطرح مصاعب سياسية لأن مطلبها الوحيد هو المساواة في الحقوق بين اليهود وغير اليهود في فلسطين، ضمن إطار توازنات طائفية حكيمة مميزة لهذه المنطقة من العالم.

ويبدأ النقاش بسرعة مع السوريين. وهؤلاء يمثلهم فارس نمر، رئيس تحرير صحيفة **المقطم**، والمدافع التقليدي عن السياسة البريطانية[١٠٦]. وهو يعلن أنه أكثر من مرتاح عندما يجري التأكيد له على أن المقصود ليس تكوين دولة أو إدارة يهودية في التوّ والحال، ولا جعل العبرية اللغة الرسمية ولا إعادة بناء الهيكل في القدس، بل مجرد خلق فلسطين بريطانية. ويحمِّل نمر المسئولية عن المتاعب للسوريين الممالئين لفرنسا والذين قدَّموا رؤية زائفة للصهيونية. ويرى أورمسبي ـ جور أن الشائعة التي تتحدث عن رغبة يهودية في هدم مسجد عمر وإعادة بناء الهيكل ـ وعن التصريح البريطاني بمشروعٍ كهذا ـ هي عمل من أعمال الدعاية الخطرة المعادية للصهيونيين والمعادية للبريطانيين. ويرى ستورس أن سلطان مصر نفسه قد صدَّق هذه الشائعة.

والمحادثات مع حلقة موسَّعة من السوريين تضم الفلسطينيين في اللجنة السورية إنما يبدو أنها تدور على ما يرام أيضاً. وهم يعدون بإبلاغ مراسليهم في فلسطين بالإيضاحات التي جرى تقديمها لهم للتوّ. على أن فلسطينيًّا واحداً، يشتبه بأنه يعمل لحساب الفرنسيين، قد احتج على تصعيد العبرية إلى مستوى لغة رسمية على قدم المساواة مع العربية. بيد أن كل شيء إنما يظل غائماً. وعندما يعد المحاورون العرب بروتوكول اتفاق حقيقيًّا، وذلك على الأرجح لأجل اختبار صدق الكلام الذي قيل لهم، فإنهم إنما يجدون أنفسهم بإزاء لحظة مواجهة الحقيقة.

فمطالب النقة العربية تتضمن حرمة الأماكن المقدسة على أساس الحقوق القائمة ونظام حكم عادلاً قائماً على المساواة في الحقوق بين الطوائف دون اعتبار لأهميتها العددية، وعدم التمييز في تطبيق القوانين، واعتبار العربية لغة رسمية وحيدة مع تدريسها الإجباري في جميع المدارس وإخضاع المهاجرين أيًّا كانت جنسيتهم لقوانين البلد ووقف الصفقات العقارية وذلك بالنظر إلى الإفقار الذي تسببت فيه الحرب، وإنشاء تسليف زراعي تابع للدولة ويقدم قروضاً دون أي تفرقة، وإصدار قانون يحدد حصة من الأراضي غير قابلة للحجز تكون من نصيب الفلاحين المدينين (وهو إجراء مشابه لقانون الأفدنة الخمسة في مصر، والذي يستلهم هو نفسه التشريع البريطاني في الهند) وإتاحة الإمكانية لجميع

عناصر السكان في التمتع بأراضي الدولة، وتكوين لجنة مستقلة عن الحكومة تكون فيها المكونات الثلاثة للسكان على قدم المساواة وتتمثل مهمتها في تسوية الخلافات وإنماء الصداقة والتضامن بين جميع عناصر السكان.

والحال أنه ما أن يقدم العرب مثل هذا البرنامج، فإنهم يكفون عن أن تكون لهم صفة تمثيلية(١٠٧). فمسائل محددة كهذه لا يمكن تناولها إلاً مع ممثلي عرب فلسطين. وفي ٣ أبريل/ نيسان، يتحادث ڤايتسمان مع أللنبي(١٠٨) الذي يعبر عن تعاطفه مع الصهيونية مع إظهار عزمه على تسليم فلسطين في حالة جيدة بعد حكمه لها بحسب قواعد العدل وتفاديه الاحتكاكات قدر الإمكان. وهو يظل هادئ الأعصاب عندما يحادثه ڤايتسمان عن المصلحة التي ستكون للبريطانيين في التمتع بالقوة اليهودية الدولية، في حين أن العرب لا يشكلون غير رصيد مؤقت. وعلى مأدبة العشاء، يشكو أللنبي من بيكو، الذي كان قد أوصاه بمغادرة فلسطين إن لم يخضع لتعليماته. ويبلغه ڤايتسمان بأنه يعتقد أنه لا كليمنصو ولا بيشون يؤيدان ممثلهما في فلسطين.

وفي ٥ أبريل/ نيسان، تصل اللجنة الصهيونية إلى يافا. ويجري رسم قائمة الشكايات الأولى من الإدارة العسكرية: لقد أنشأت بلدية يافا على أساس النسبة الحالية لليهود في المدينة دون أن تأخذ بعين الاعتبار الآلاف من المنفيين اليهود. ومرة واحدة، فرضت البلديةُ العربيةَ بوصفها اللغة الرسميةَ الوحيدة، في حين أن من الواجب أن تتمتع العبرية بمساواة في المعاملة. ثم إن العسكريين البريطانيين قد سارعوا إلى اتهام مستوطنين يهود روس بالتجسس لحساب الألمان والعثمانيين. والحال أن و. ديديس، رئيس استخبارات قوة الحملة البريطانية، وهو صهيوني مسيحي، إنما يصبح على الفور صديقاً للزعيم الصهيوني ويضيف إلى اللجنة إيدوين صمويل، ابن هربرت صمويل، الذي ينتمي إلى جهازه(١٠٩).

ويستعيد لقاء مع بيكو عين التيمات التي جرى عرضها على دوفرانس. إلاً أنه، بعد بضعة أيام، يعبر بيكو عن غضبه من رغبة الصهيونيين في إلغاء تدريس الفرنسية في مدارسهم. فيرى من جديد خطر ممالئة صهيونية للألمان(١١٠): فبما أن الثورة قد وفرت ليهود روسيا وضعاً أرقى بالتأكيد، فإنهم

لن يهاجروا إلى فلسطين، في حين أن سيل المهاجرين سوف يجيء من ألمانيا ومن النمسا اللتين أفقرتهما الحرب.

اللجنة في القدس

بعد قضاء عدة أيام في الاهتمام بالمؤسسات اليهودية في يافا ــ تل أبيب، تزور الجنة القدس في ١٠ أبريل/ نيسان، غداة أعياد الفصح. فيجري على الفور تقديم ڤايتسمان إلى آل الحسيني، وهم أهم أعيان المدينة: فموسى كاظم الحسيني عمدة وكامل بك الحسيني يمارس في آن واحد وظيفتي مفتي وقاضي المدينة[١١١]. وفي ١١ أبريل/ نيسان، يلتقي ڤايتسمان عميد العائلة، إسماعيل بك الحسيني وابن عمه كامل بك. ويستعيد الرئيس خطابه المألوف: المسألة ليست مسألة دولة يهودية، بل مسألة إدارة بريطانية تحكم السكان بإنصاف، وليس هناك طموح صهيوني فيما يتعلق بالأماكن المقدسة، ولا رغبة في مصادرة الأراضي التي يملكها العرب. ويبدو أن الرجلين من الأعيان إنما يسعدهما سماع هذه التطمينات. ولا يبقى ڤايتسمان غير يومين في المدينة المقدسة التي يحبطه مظهرها: فالمرء لا يرى هناك أي مؤسسة يهودية، في حين أن المدينة مغطاة بالمآذن وأبراج أجراس الكنائس والقباب، وهي علامات وجود أجنبي قوي وجائر وتهديدي. أمَّا الحواري اليهودية، المليئة بالأقذار والوَسَخ، فهي تشير إلى الانحطاط الذي يحيا فيه السكان اليهود. وسوف يتطلب الأمر قوة مارد وصبر ملاك لتنظيم هذه المدينة[١١٢].

ويرى ڤايتسمان أن النزعة القومية العربية يمكن أن تكون حليفاً وارداً وذلك بشرط ألاَ تتغلغل في فلسطين. وخلال إقامته في القدس، يقال له إن ستورس قد حضر عرضاً مسرحيًا يهدف إلى جمع تبرعات لدار أيتام مسلمين: وخلال هذا المهرجان الخيري، دعا بعضُ الخطباء الأمة العربية إلى النهوض من سباتها وإلى ألاَّ تبيع شبراً من أرضها. وقد انتهت الخطابات بتعبيرات من قبيل "عاشت الأمة العربية، عاشت فلسطين العربية". وجرى عرض خريطة لفلسطين بالفرنسية تحمل عنوان "فلسطين العربية". وما يزعج ڤايتسمان بشكل خاص هو أن الحاكم العسكري لم يرد على ذلك. فيقوم بتوجيه احتجاجه إلى السلطات من

خلال أورمسبي ــ جور[١١٣]. ويجري نقل مذكرة الاحتجاج هذه إلى ستورس الذي دُعِيَ إلى تفسير موقفه. وهو يكذِّبُ المعلومات التي قدمها بالفرنسية من أخبر ڤايتسمان بالأمر[١١٤]. وصحيح أن الخطباء قد أشادوا بتخلص الأمة العربية من الأتراك، بيد أنهم لم يلمحوا إلى الصهيونيين بالمرة. وعلى العكس من ذلك، قاموا بالإشادة بمآثر البريطانيين والجنرال أللنبي... ونشعر ببداية لغضب الإدارة العسكرية من المراقبة التي يمارسها الصهيونيون لمسلكها ومن الشكايات التي يوجهونها إلى السلطات الأعلى.

وبعد أن مكثت اللجنة ثلاثة أيام في القدس، فإنها تقوم بجولة في المستوطنات الصهيونية. ويجري الاحتفال دوماً بوصولها بصلوات شكر لصالح الملك والعائلة المالكة البريطانية والبارون إدمون دو روتشايلد واللجنة، بحسب هذا الترتيب. كما يجري التعبير عن السعادة بالانتصار البريطاني مع الإكثار في الوقت نفسه من الشكايات ضد المديرين العسكريين، الذين يجري الحكم عليهم بأنهم جد متعاونين مع العرب: فلكونهم قد اعتادوا على مراعاة جانب الأهالي المسلمين في مصر وفي السودان، فإنهم يجهلون النظرة اليهودية إلى الأمور[١١٥]. وتعمل اللجنة على بلورة مشاريع واسعة للهجرة وللاستيطان.

والحال أن البريطانيين شأن الصهيونيين إنما يلقون بالمسئولية عن التوتر المتصاعد بين اليهود والعرب على الجهل بالأهداف الحقيقية للصهيونية. ولابد من تفسير، لاسيما أن الإدارة العسكرية لم تكن قد اتخذت إلى تلك اللحظة موقفاً حول هذا الموضوع. ففي هذه الأيام من شهر أبريل/ نيسان ١٩١٨، تتعين مراعاة الرأي العام الأهلي خاصة وأن النشاط العسكري يركد في فلسطين، في حين أن ضربات [الجنرال الألماني] لوديندورف العنيفة الأولى تهز تماسك الجيوش الفرنسية والبريطانية على الجبهة الفرنسية[١١٦]. والواقع أن المعركة الحاسمة التي تخاض في ربيع عام ١٩١٨ سوف تقرر مصير فلسطين، والجميع يعرفون ذلك. لكن ڤايتسمان يعرف أيضاً أن الولايات المتحدة تملك جانباً من الحلول، وهو يعلن عن قرب زيارته لهذا البلد.

ومن ثم يجري إعداد خطبة كبرى على أن يلقيها ڤايتسمان في القدس. وتجري كتابتها بالاشتراك مع البريطانيين، ويتم إرسال النص إلى بيكو[١١٧]،

الذي يبدي تقديره للرغبة في توضيح "الضرورة التي تفرض نفسها على سكان المشرق والمتمثلة في قبولهم وصاية دولة عظمى قادرة على السير بهم في الدروب الجديدة".

وفي ٢٧ أبريل/ نيسان، يخاطب ڤايتسمان أهم أعيان القدس، المسلمين والمسيحيين، الذين دعاهم ستورس إلى مأدبة العشاء. والحال أنه في ذروة فنه الخطابي بالإنجليزية[١١٨]، بيد أن من المرجح أن المستمعين، الذين لا يعرفون سوى الفرنسية، لم يستفيدوا كثيراً من أسلوبه. ثم يترجم ستورس الخطاب إلى العربية. ولا نعرف ما إذا كان قد اغتنم هذه الفرصة لكي يختزل محتوى الخطاب. أمَّا تيمات المداخلة فهي كلاسيكية: إن اليهود ليسوا أجانب في فلسطين، والمكان كاف في هذا البلد للعرب ولليهود، وليس وارداً أن يستولي الأخيرون على السلطة في نهاية الحرب، وعلى دولة عظمى أن تتولى إدارة البلد إلى أن ينضج السكان لحكم أنفسهم بأنفسهم (*self-government*)، ولا يمكن أن يكون هناك تدويل للبلد، ولابد من قيام تعاون سلمي بين اليهود والعرب، وليست هناك مطالبات فيما يتعلق بالأماكن المقدسة.

ثم يأخذ مفتي القدس الكلمة، ويوجه الشكر إلى الخطيب ويعبر عن الموقف العربي مستعيداً القول المأثور الأساسي الذي يحكم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، والذي كان الشريف حسين قد استشهد به بالفعل في مراسلاته مع ماكماهون: لهم ما لنا وعليهم ما علينا، أي المساواة في الحقوق والواجبات. وهكذا فإن أعيان القدس قد استعادوا موقف ملك الحجاز واللجنة السورية بالقاهرة، دون سابق تنسيق. ومن ثم فلا وجود، في ذلك الوقت، لرفض مطلق للصهيونية: فالعرب مستعدون لقبول شكل من أشكال الوجود اليهودي غير المميز، على غرار ما كان قد حفزه التحالف الإسرائيلي العالمي والبارون إدمون دو روتشايلد.

بيد أن رد المفتي لا يُرضي ڤايتسمان: فهو يرى أنه كياسة يصعب أخذها مأخذ الجد[١١٩]. ولم يكن هدف خطبته مخاطبة العرب بل إشعارهم بأن البريطانيين يؤيدونه. وقد فعل ما طُلب إليه أن يفعله، "**إمَّا قبول هذا برمته أو رفضه برمته**"[١٢٠].

والسلطات البريطانية مرتاحة إلى ارتخاء التوتر بين اليهود والعرب، وهو ارتخاء ترجعه إلى خطبة ڤايتسمان وإلى المساعدة المقدمة لتنظيم الحج الإسلامي إلى النبي موسى، قبل ذلك بوقت قصير[١٢١]. وفي ٨ مايو/ أيَّار، يجدِّدُ رئيس اللجنة الصهيونية العملية أمام أعيان يافا المسلمين[١٢٢]. وفي ذلك الوقت، كان تسيس المدينة الساحلية الكبرى أكثر تقدماً من تسيس القدس: فمنذ عدة أسابيع، كانت قد بدأت تتشكل منظمات تجمع بين مسلمين ومسيحيين. وقد قدم البريطانيون دعمهم إلى هذه "اللجنة المدنية"[١٢٣].

ويستعيد ڤايتسمان حججه المألوفة، لكن رد قاضي المدينة، الشيخ راغب الدچاني، وهو رد باسم المسلمين والمسيحيين، إنما يعد أكثر حسماً: فهو يشدِّد على المساواة الضرورية في الحقوق بين المسلمين والمسيحيين واليهود، ويطالب، خاصة، بمشاركة المسيحيين واليهود في المؤتمر الذي سوف يقرر مصير فلسطين[١٢٤].

وفي ١١ مايو/ أيَّار، يصل إلى القدس وفد سوريي مصر المكلف بالتعرف على حالة الرأي العام في فلسطين[١٢٥]. ويقيم الأعيان احتفالاً بوصول الوفد، وذلك لكي يبرزوا على الأرجح تناظر استقباله مع استقبال اللجنة الصهيونية. ويتحدث الموفدون بنبرة جذرية: فهم إنصار لنجدة الفلاحين العرب وللحيلولة دون سقوطهم تحت سيطرة الصهيونيين، ومن غير الوارد فصل فلسطين عن سوريا. وفي الوقت نفسه، يطالبون بأكبر قدر من الكياسة في التظاهرات العلنية كي لا يتخذ البريطانيون موقفاً عدائيًّا، كما يبرزون بروتوكولهم الخاص بالتفاهم مع الصهيونيين. وهم يحظون في هذا الاتجاه بدعم من ستورس ومن حداد، مساعده. ولا تسفر مداخلاتهم عن شيء، لكنها تسهم في زيادة تشوش الوضوح السياسي: فبما أنهم معروفون بأنهم أنصار مخلصون لبريطانيا العظمى، فإنه إنما يجري التساؤل ما إذا كان البريطانيون قد غيروا سياستهم أم أنهم يسعون ببساطة إلى التفرقة لكي تتسنى لهم السيادة[١٢٦].

ولا يعود أعيان القدس يخفون ريبتهم في البريطانيين وسخطهم عليهم[١٢٧]. على أن هؤلاء الأخيرين يوهمون أنفسهم ويتحدثون دوماً عن الأثر الطيب الذي أحدثته اللجنة الصهيونية والوفد العربي[١٢٨].

واعتباراً من شهر مايو/ أيَّار، تبدأ المنظمات السياسية العربية في اكتساب قوام. ففي يافا، يتصل الأمر بتوحيد المسلمين والمسيحيين. وفي القدس، كما في زمن ثورة تركيا الفتاة، نجد أنفسنا بإزاء جمعيات أدبية عربية. والجمعية الأهم هي جمعية مقتطف الدروس، التي أسسها حسن صدقي الدچاني. وقد قدم لها پيكو دعماً ماليًا لأن برنامجها يتضمن تعليم الفرنسية[١٢٩]. وسيكفي هذا لاعتبارها من جانب الصهيونيين بمثابة وكر ممالئ للفرنسيين. والحق أن الدعم المتواضع الذي لا يزيد عن ٢٥٠ فرنكاً شهريًا، علاوة على التبرع ببضعة جنيهات، سوف يتم الإبقاء عليه في الوقت الذي ستتخذ فيه الجمعية نبرة أكثر وضوحاً في عدائها للصهيونية[١٣٠]. ويتمثل نشاطها السياسي أولاً في الدعاية لصالح التمرد العربي. والحال أن مساعد ستورس، الچنرال حداد، وهو موظف سوري مسيحي كبير كان قد عمل في السودان وفي مصر وكان قد أُرسل إلى القدس منذ الاستيلاء على المدينة، إنما يدعم بوجوده هذا النوع من النشاط الذي يتمثل في الإكثار من الاجتماعات السياسية التي تجمع أعيان القدس للإشادة بملك الحجاز.

وبالنسبة للمراقب ثاقب النظر وهو الأب چوسَّان، الذي عاد إلى القدس في مستهل شهر يناير/ كانون الثاني ١٩١٨ لكي ينظم فيها أجهزة الاستخبارات الفرنسية، فإن تكاثر الاجتماعات السياسية العربية إنما يترجم سخطاً معمَّماً[١٣١]. والحال أن ڤايتسمان، بدلاً من طمأنة العرب، قد عزَّز مخاوفهم، ويبدأ عدد كبير منهم في التعبير عن أسفهم لزوال السيطرة التركية. أمَّا الموظفون البريطانيون، المغرمون بنبل البدو، فإنهم يرون في المواقف المناوئة للصهيونية ثمرة لنشاطات "مثقفين"[١٣٢].

اللقاء الأول بين ڤايتسمان وفيصل

إذا كان يمكن اعتبار اللجنة الصهيونية نجاحاً في إدارة الشئون اليهودية — فهي تؤكد بشكل حاسم سيطرة الحركة الصهيونية —، فإن الأمر ليس كذلك من زاوية الشئون البريطانية والعربية. ومنذ الأسابيع الأولى لإقامة ڤايتسمان، أدرك العقبة الكبرى التي تمثلها الإدارة العسكرية: فالتشديد الموضوع على الوضع

القائم بهدف درء الأطماع الفرنسية إنما ينقلب ضد المشاريع الصهيونية. وطالما ظل النظام العسكري قائماً، فمن غير الوارد الحديث عن انتقالات للملكيات العقارية و، بشكل أعم، الحديث عن أمارات للسيادة اليهودية. ويرى المديرون العسكريون أن ڤايتسمان إنما يزيد من احتداد قضيته إذ يطلب عونهم في الحصول على حائط المبكى(١٣٣)، والذي يشكل جزءًا من الوقف، وهو مجال لا يمكن تجريده من ممتلكاته، كما يشكل جزءًا من الحرم الشريف، حيث يوجد مسجد عمر، في موقع الهيكل القديم. والحال أن كلايتون وستورس، بمساعدة من حداد، إنما يتحدثان في هذا الاتجاه مع رجال الدين المسلمين، الذين يرفضون ذلك بالطبع. ومثل هذه المحاولة لا يمكنها إلاً أن تجدد انزعاجاتهم من المشاريع الصهيونية. والحال أن الوقاحة المزدرية التي كان الصهيونيون قد عاملوا بها مفتي القدس خلال حفل استقبال كانوا قد أقاموه تكريماً لأللنبي كانت قد أثارت غضبهم بالفعل(١٣٤). وكان المفتي قد هدد بالاستقالة ولم يتراجع عن تهديده إلاّ بعد أن طلب إليه ذلك عمدة المدينة والسلطات البريطانية.

ولو كان قد تسنى للأعيان الاطلاع على رسالة ڤايتسمان إلى بلفور المؤرخة في ٣٠ مايو/ أيّار ١٩١٨(١٣٥)، لكان بوسعهم أن يروا نواياه رأي العين. فالرسالة عبارة عن كتالوج شكايات ضد الإدارة العسكرية: فبسبب الوضع العسكري والمزاج العربي الميَّال إلى الغدر، يقوم العسكريون على نحو منهجي بمراعاة جانب العرب معتمدين اعتماداً أعمى على مبدأ الوضع القائم والذي قام جميع المتحاربين، مع ذلك، بانتهاكه منذ بداية الحرب؛ وهم أسرى موظفيهم السوريين والعرب، الفاسدين وعديمي الكفاءة؛ وكلما سعى النظام البريطاني إلى أن يكون أكثر عدلاً، كلما أصبح العرب أكثر غطرسة؛ وفي حين أن الأتراك — الذين كانوا يسخرون من التمثيل الديموقراطي — قد مالوا بالأحرى إلى الاعتماد على اليهود، فإن هؤلاء الأخيرين إنما تجري معاملتهم اليوم كأهالي عاديين. والنتيجة أن حالة الأمور إنما تميل إلى خلق فلسطين عربية في حين أنه لا وجود هناك لشعب عربي في فلسطين، بل جماعة من الفلاحين الذين يستغلهم الأفندية. وخطبته في القدس كانت نزيهة: فهناك مكان لليهود وللعرب في فلسطين؛ والمسألة ليست سياسية، لأن عرب الحجاز وحدهم

هم الذين لهم صفة تمثيلية سياسية، بل مسألة اقتصادية؛ والفلاحون لديهم أراضي كثيرة جدًّا لكنهم لا يحسنون استغلالها: ومن ثم فإن الأراضي العامة أو الأراضي البور يجب التنازل عنها للمستوطنين اليهود. ومن الناحية السياسية، سوف يقدم الصهيونيون عونهم الاقتصادي والسياسي إلى الحجازيين وسوف يدعمونهم في مواجهة دعاوى فرنسا في المشرق. ويمكن التوصل بسهولة، بدعم من البريطانيين، إلى تنازل وديٍّ عن حائط المبكى.

وتكمن عبقرية ڤايتسمان السياسية دائماً في السير في اتجاه تحيزات ومصالح محاوريه البريطانيين. وبعد أن أدرك تماماً أن هؤلاء الأخيرين سيحتاجون إلى اليهود للحيلولة دون تدويل فلسطين، أخذ يدرك الآن أن المنظور الإنجليزي إنما يمتد إلى تهديد مجمل اتفاق سايكس ــ بيكو، فيما يتعلق بالوجود الفرنسي في سوريا. وقد توقع حركة لندن تماماً. وبهذا المنظور، فإنه يستعد للقاء فيصل، ابن الملك حسين، في العقبة. ففي القاهرة أو القدس أو يافا سواء بسواء أدرك أن محاوريه لن يمضوا إلى ما هو أبعد من وضعية مساواة في الحقوق، في حين أنه على وعي بأن مستقبل الاستيطان اليهودي إنما يمر بالحصول على امتيازات خاصة، لاسيما في المجال العقاري.

وقد حدث اللقاء في ٤ يونيو/ حزيران ١٩١٨. ووفقاً للمحضر البريطاني[١٣٦]، فإن ڤايتسمان قد شدّد على ضرورة قيام تعاون بين اليهود والعرب، وقد رد فيصل بأن الأمر إنما يتعلق فعلاً بتعاون ضروري بيد أنه لا يمكنه التحدث ولا اتخاذ تعهد باسم والده. ثم يتحدث ڤايتسمان عن تكوين فلسطين يهودية تقدم عوناً مهمًّا للمملكة العربية، ويرد فيصل عليه بأن المسألة ليست واردة في جدول الأعمال وأن أدنى اتخاذٍ لموقف من شأنه أن يجازف باستخدام الدعاية الألمانية والعثمانية له. وينهي ڤايتسمان حديثه بالإعلان عن زيارته القريبة إلى الولايات المتحدة حيث يمارس اليهود، كما في خارجها، نفوذا قويًّا جدًّا يمكن أن يلعب دوراً لصالح المملكة العربية.

والحال أن المترجم البريطاني[١٣٧]، الكولونيل جويس في غياب لورانس، إنما يخامره الشعور بأن فيصل قد قبل بالفعل مبدأ التعاون اليهودي وبأنه مستعد لقبول فلسطين يهودية إذا ما جرى دعم التوسع

العربي في اتجاه الشمال (سوريا).

وهكذا يندرج ڤايتسمان تماماً في استراتيجية مستشاري فيصل البريطانيين، وأولهم ت. إ. لورانس، الذين يوضحون له أن خصومه الرئيسيين هم الفرنسيون وأن الدعم من جانب الولايات المتحدة، والذي يمكن الحصول عليه بفضل الصهيونيين، إنما يعد ضرورياً له. والحال أن واقع أن فيصل والحجازيين لا يبدو أنهم معنيون مباشرة بفلسطين وأنهم قد يكونون بحاجة إلى العون الصهيوني إنما يعطيهم وضعية المحاورين المحلوم بهم. وقد جرى استقبال ڤايتسمان بحفاوة، وهو يستخلص من ذلك، متسرعاً إلى حدٍّ ما، شعوراً بأن صداقة حقيقية قد نشأت في تلك اللحظة. وفي ذلك الوقت، نجد أن الموقف الرسمي للهاشميين، على نحو ما جرى التعبير عنه في صحيفة **القبلة**، الصادرة في مكة، إنما يبدو أنه متعاطف مع المشروع الصهيوني، على الأقل بالشكل الغامض الذي جرى تقديمه به: إذ يجري الحديث عن اللجنة الصهيونية وكأنها لجنة علمية أوفدت إلى فلسطين لدراسة سبل إنماء البلد، ويجري الثناء على خصال الجنس اليهودي والإعراب عن الأمل في أن يحذوا العرب حذو إخوتهم الساميين في درب التقدم هذا كيما يرقوا إلى مستوى الأمم المتحضرة(١٣٨).

ومن الصعب معرفة ما إذا كان ڤايتسمان قد أسقط على فيصل أفكاره هو. ففي رسالة إلى زوجته مؤرخة في ١٧ يونيو/ حزيران ١٩١٨(١٣٩)، يصف لها الأمير بأنه أول قومي عربي حقيقي يلتقي به وبأنه "قائد" حقيقي: إن فلسطين لا تهمه، وهو يريد دمشق وكل سوريا الشمالية، وهو يتحدث عن الفرنسيين بعداوة كبرى، ويتوقع الكثير من تعاون اليهود ويحتقر الفلسطينيين العرب الذين لا يعتبرهم عرباً أصلاً.

ويمكننا افتراض أن الزعيم الصهيوني، بعد نحو أسبوعين من اللقاء، إنما يخلط بين آماله هو وأقوال الأمير وتحليلات المستشارين البريطانيين العاملين مع الجيش العربي. وفي الأسابيع التالية، سوف يتأكد تفسيره بالكلام الذي يبلغه به المسئولون البريطانيون في الشرق الأدنى كوينجيت(١٤٠).

منظورات بريطانية جديدة

وهكذا فإن التوجه الذي اتخذته السياسة البريطانية إنما يسمح بالرد ردًّا أفضل على الانزعاجات المتزايدة للأوساط العربية والسورية على أثر قيام البلاشفة بنشر مضمون اتفاق سايكس ـ بيكو واستغلال العثمانيين والألمان لهذا الحدث. ففي ١١ يونيو/ حزيران ١٩١٨[١٤١]، يبلغ وينجيبت سوريي القاهرة بتصريح صادر عن الحكومة البريطانية يحيطهم علماً بأن الأراضي العربية المستقلة قبل الحرب (شبه الجزيرة العربية) وكذلك الأراضي التي حرَّرَها التمردُ العربي سوف تتمتع باستقلال تام وذي سيادة بعد الحرب؛ أمَّا فيما يتعلق بالأراضي العثمانية التي يحتلها الحلفاء، فإن تصريح الجنرال مود لدى الاستيلاء على بغداد وتصريح أللنبي لدى الاستيلاء على القدس إنما يحددان مصيرها. ويجري تتويج غموض الصياغة الجديدة بعبارة:

> إن أمنية ورغبة حكومة صاحب الجلالة هي أن يكون الحكم القادم لهذه المناطق مبنيًّا على مبدأ قبول المحكومين وإن هذه السياسة تتمتع وسوف تواصل التمتع بالدعم من جانب حكومة صاحب الجلالة.

وهنا يجري الجمع بين تهدئات للانزعاجات الراهنة والحرص على إرضاء الرئيس ويلسون والرغبة في إضعاف الموقف الفرنسي، ولكن دون مراعاة العاملين الفلسطيني والصهيوني. على أن جوسَّان يرى، في يونيو/ حزيران ١٩١٨،

> [...] إن الاستياء الذي أثاره بين عرب فلسطين الترحيب، جد الحار في رأيهم، من جانب السلطات البريطانية، بالموفدين الصهيونيين إنما يتزايد ويتجسد. واستناداً إلى أعراض أكيدة، فمن السهل أن نرصد، في منشأ سخط المسلمين، استياءً يرجع إلى إحساسهم بالنيل من كرامتهم بأكثر مما يرجع إلى شواغل تتعلق بالمصلحة التجارية. ونجد أنفسنا مدفوعين إلى مقارنة حالتهم الشعورية بحالة صاحب البيت الذي يجرؤ ضيوفه على معاملته كما لو كان دخيلاً[١٤٢].

والنتيجة المترتبة على وضع كهذا هي نشوء روح وطنية فلسطينية حقيقية:

على أننا سوف نكون مخطئين إذا ما رأينا، في العداوة التي يبديها عـرب فلـسطين للصهيونيين، مجرد نوع من الحسد أو مجرد شعور بامتهان الكرامة. فالعرب وخاصة الجزء المثقف من الشبيبة إنما يدركون حقوقهم كجنس أهلي وهذا أمر يستحق أن نتذكره. ومن الوارد أن تكون الصهيونية أداة التفاعل التي سوف تؤدي إلى توحيد الجمعيات العربية في فلسطين.

وفي القدس، نجد أن جمعية مقتطف الدروس هي التي تحاول قيادة الحركة:

في ختام ندوة أقامتها هذه الجمعية، تُليَ على الحضور، بناءً على طلب من عـارف باشا، برنامج عمل يهدف إلى توحيد عرب فلسطين في منظمة هـدفها الـدفاع عـن مصالحهم المشتركة، المادية والأدبية. وهذه هي الخطوط العريضة لهذا البرنامج:

١. اجتماع جمعيات القدس العربية الأربع وجمعيات كل فلسطين (جمعيات القدس الأربع هي: مقتطف الـدروس؛ روضـة المعـارف[١٤٣]؛ جمعيـة الإخـاء والوفـاء الإسلامية[١٤٤]؛ جمعية الإخاء الأرثوذكسية)[١٤٥].

٢. إنشاء مجلس إدارة له رئيس وأمين سر وأمين صندوق.

٣. اشتراك شهري قدره ١٠ قروش.

٤. إنشاء جامعتين عربيتين في القدس، واحدة للبنين والأخرى للبنات.

٥. إنشاء بنك عربي في فلسطين. ويكون لكل مكتتب تصل أسـهمه إلى ٥٠٠٠ جنيه حق العضوية في مجلس الإدارة. على أن يجري توزيع الفوائد بين الجامعتين وحملـة الأسهم.

ويمكن البدء في رصد تباين أجيال وأوساط اجتماعية. والحال أن كلايتون في وقت واحد مع جوسَّان، إنما يشير إلى ذلك[١٤٦]: فالأعيان، أصحاب "العقول المستنيرة "هؤلاء والذين عملوا في النظام العثماني والـذين قـام البريطـانيون بتثبيتهم في وظائفهم، إنما يتمسكون بموقف متعقـل يـدفعهم إلـى أن يقولـوا للبريطانيين إنهم على استعداد لقبول برنامج صهيوني معتدل. وتلك حالة عمدة ومفتي القدس. وبالمقابل، نجد أن الطبقة المتوسطة الأدنى، أو الممثلين الـشبان لعائلات الأعيان، "الأفندية الصغار" والتجار وصغار ملاك الأرض، الذين مـن

الوارد أن يخسروا كل شيء حيال تفوق الصهيونيين الثقافي والتقاني، إنما يحثون الفلاحين على اتخاذ موقف مناوئ لليهود بدفعهم إلى الإيمان بأن هؤلاء الأخيرين يريدون الاستيلاء على أراضيهم وعلى إمكانات عيشهم. ويرفض كلايتون الاعتراف بوجود شعور قومي حقيقي لديهم. فهم لا يتصرفون إلا بدافع من الخوف والحسد.

ويصف الضابط السياسي المعضلة التي طرحتها سياسة الوضع القائم، والتي تسمح بإرضاء العرب لكنها تجازف باستثارة سخط اليهودية العالمية، والتي سوف يكون لموقفها وزنه خلال مؤتمر الصلح القادم. ويتعين العثور على حلول وسط، وذلك، مثلاً، عن طريق تحقيق برنامج زراعي واسع بشأن الأراضي العامة غير المستغلة جيّداً، يكون بمثابة نموذج للتعاون العربي ـ اليهودي تحت إشراف الإدارة العسكرية. وبالمقابل، يرى كلايتون أن مشروع التنازل عن حائط المبكى يجب هجره مؤقتاً وذلك بالنظر إلى خطر انفجار غضب المسلمين. وفي اللحظة المباشرة، فإن إجراءً لا يطرح أي مشكلة إنما يتمثل في التصريح الصادر بإنشاء الجامعة العبرية في القدس.

والحال أن مقاربة كلايتون إنما تصور بشكلٍ ناجزٍ الرؤية البريطانية لمجريات الواقع في الشرق الأدنى. وفي برقية مؤرخة في الأول من يوليو/ تموز ١٩١٨[١٤٧]، يواصل تحليله معمِّماً إياه: إن هذه الطبقة المتوسطة إنما تعد معادية، بدافع من الأنانية، ليس فقط للصهيونيين وإنما أيضاً لحركة الأشراف التي تمكنت من تعبئة البدو لخدمة بريطانيا العظمى. ومن الوارد أن تقع تحت تأثير الفرنسيين. ومن الضروري اللعب بورقة التحالف بين الأشراف والصهيونيين واحتواء نشاط ممثلي الطبقة المتوسطة ـ والذين يشكلون واقعاً جديداً يضاف إلى مشارقة بدايات الحرب ـ إلى حين نجاح التنمية التي يقوم بها الصهيونيون في تهدئة تطلعاتهم. والتحرك الذي قام به ڤايتسمان، والمفيد للبريطانيين، لن يكون فعالاً إلاّ إذا جرى اعتبار اتفاق سايكس ـ بيكو اتفاقاً لم يعد صالحاً.

وفي الأمد الطويل، فإن المنظور الذي يطرحه كلايتون إنما يمر عبر فرضية لا يشكك فيها أحد من البريطانيين، وذلك بحكم أن رؤيتهم لمجريات

الواقع العربية قد أعمتهم: إن فيصل سوف يتعين عليه الاختيار بين الطبقة المتوسطة العربية والصهيونية، وتفضيله للخيار الثاني ليس واضحاً. والحال أن الرطانة البريطانية قد غيرت طابعها بشجبها من الناحية العملية اتفاق سايكس ـ بيكو وبتحدثها بشكل متزايد باطراد عن حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. وكما تثبت ذلك برقيات كلايتون، فإن التمييز بين العرب والمشارقة آخذ بالتلاشي، وذلك لصالح تحليل اجتماعي. والنتيجة أن القراءة البريطانية التي تجعل من فلسطين أرضاً ليست عربية بصورة خالصة ـ ومن ثم لا تندرج في وعود ماكماهون لحسين ـ لا تعود صالحة.

وفي بداية صيف عام ١٩١٨ هذه، ما يزال من المبكر جدًّا الاهتمام بذلك: ففي فرنسا، تصمد جيوش الحلفاء كالعادة بصعوبة في وجه الهجمات المتكررة التي يشنها الجيش الألماني، بيد أنها سرعان ما سوف تكون مستعدة، مع الأميركيين والدبابات، لأن تستأنف الهجوم. وتبقى معرفة ما إذا كان بوسع أللنبي الحصول على قوات جديدة واستكمال فتح الشرق الأدنى أو ما إذا كانت الأولوية المطلقة، كما يطالب بذلك فوش، القائد العام لجيوش الحلفاء، يجب أن تُعطى للجبهة الفرنسية. والحال أن القرار الفرنسي، المتخذ دون تشاور مع البريطانيين، والخاص باتخاذ التدابير الضرورية لهجوم لجيش سالونيك تحت قيادة فرانشيه ديسبيري إنما يفاقم من التعارض الاستراتيجي الفرنسي ـ البريطاني: إذ يرى الإنجليز أن كليمنصو لم يتخذ مثل هذا القرار إلاّ على أثر ضغوط متكررة من جانب أوساط مالية مستترة إلى هذا الحد أو ذاك[١٤٨].

ولا يجري اتِّباع التدابير التي يقترحها كلايتون إلاَّ بشكل ناقص. فسعياً إلى إعادة توجيه تطلعات الطبقة المتوسطة العربية، يجري شن حملة دعاية وتجنيد كبرى في القدس لصالح الأشراف[١٤٩]. وتقدم جمعية مقتطف الدروس عرضاً لمسرحية هاملت تكريماً للمتطوعين العرب، ويستفيد ستورس من ذلك لكي يعلن أن المسألة المطروحة الآن على العرب هي عين مسألة أن يكونوا أو أن لا يكونوا. وبما أن شجاراً قصيراً قد نشب بين متطوعين عرب ومتطوعين يهود مجندين بشكل متوازٍ، فإنه يبدو من الأكثر حكمة عدم المزج بين العمليتين[١٥٠]. ويرى جوسَّان أن عدد العرب الفلسطينيين المجندين يتجاوز الخمسمائة[١٥١].

أمّا الملك حسين، فهو يقدم رأيه حول مسألة فلسطين رداً على استفسار من جانب الكولونيل ويلسون[١٥٢]: إنه لم يكن بمقدوره الرد إلاّ بصفة شخصية على البرقيات التي أرسلها إليه قاضي وعمدة القدس؛ وسوف يتوجب تقسيم فلسطين إلى مجموعات طائفية وإنشاء محكمة مختلطة لتسوية المنازعات. ويشير ويلسون إلى أن ذلك سوف تتم مناقشته في مؤتمر الصلح، ويوافق الملك حسين على ذلك: إنه لم يفعل سوى التعبير عن رأيه الشخصي. وهو يتوقف عند مشروع لجنة القاهرة.

وفي ٢٥ يوليو/ تموز ١٩١٨، يجري وضع حجر الأساس للجامعة العبرية في القدس على جبل سكوبس[١٥٣]. ويوضح چوسّان الرهان الرمزي لهذا العمل:

> من جبل سكوبس، يرى الزائر تحت قدميه مدينة القدس ويكتشف في الصدارة التيراس الكبير للحرم الشريف. وعلى هذه الساحة التي ينتصب وسطها اليوم مسجد عمر كان قد بني في الأزمنة الغابرة الهيكل اليهودي: هيكل سليمان، هيكل إسْدراس، هيكل هيرود. وكان الهيكل اليهودي يجسد فكرة الأمة اليهودية. وتسعى الصهيونية إلى الانغراس في فلسطين، كما لو أنها في بلدها الأصلي، كما تسعى إلى إعادة الأمة اليهودية إليها، في تفكير بعض أعضائها على الأقل: لكنها في اللحظة الحاضرة لا يمكنها إعادة بناء الهيكل في مكانه القديم؛ فسوف يكون ذلك مجازفة حمقاء: إنها تضع حجر الأساس لجامعة تم بالفعل جمع ١٢ مليون دولار لبنائها، فيما يقال، ويحضر وضع حجر الأساس هذا ممثل الإسلام في القدس، بينما يحتفظ الإسلام في حرصٍ بموقع الهيكل القديم المواجه لها.

مستقبل فلسطين

يمكث ڤايتسمان بضعة أسابيع أخرى في فلسطين قبل أن يرحل إلى أوروبا عبر مصر في منتصف شهر سبتمبر/ أيلول. ونجاحه الرئيسي هو إعادة تنظيم الطائفة اليهودية بحسب المبادئ الصهيونية. ومنذ نوڤمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧، كانت المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة قد بدأت في تزويد نفسها بمؤسسات تمثيلية. وفي يناير/ كانون الثاني ١٩١٨، انتخبت لجنة تنفيذية مؤقتة من ٣٦ عضواً، هي الڤاد زماني، تحت قيادة چاكوب ثون. وفي أبريل/ نيسان ١٩١٨، ينجح ڤايتسمان في جعلها تعترف بزعامة المنظمة الصهيونية، ممثّلةً

في اللجنة الصهيونية، مع قبول إشراكها بشكل وثيق في أعمالها. وقد تمكن من الاستخدام القوي لهيبته الشخصية ولواقع أنه يمسك بخيوط التمويل الخـارجي. وقد اعترفت ڤاد زماني باحتكار اللجنة الصهيونية فيما يتعلـق بـــ"العلاقـات الخارجية"، أي العلاقات مع البريطانيين والعرب وبقية العالم. وفي المقابل، نجد أن محاولة الزعيم الصهيوني فرض إصلاح للمـدارس الدينيـة (ييـشيڤوت) لتحديث محتواها التعليمي إنما تفشل بالكامل، بما يجعل **اليِيشوڤ** الديني خصم الصهيونية عديم الثقة بها.

وبعد لقاء ڤايتسمان مع فيصل، أبلغ الأول ڤاد زماني بأن المسألة العربية قد سويت من الناحية العملية، الأمر الذي عاد عليه بالتهنئة من جانب اللجنة. بيـد أن أعضاءها بخبرتهم الطويلة بالحياة الفلسطينية وبتكاثر النزاعات المحلية حول تكوين البلديات أو حول استخدام العبرية قياساً إلى العربية، إنما تعد أوهامهم أقل من أوهام زعيمهم فيما يتعلق بطبيعة الأمور. وهم يميلون إلى التشديد دوماً على استقلالهم كجماعة. وهكذا، فعندما يشكِّل البريطانيون كتيبة من يهود **اليِيـشوڤ** (كتيبة الرماة الملكية رقم ٤٠) المقرر انضمامها إلى الكتيبتـين اللتـين جـرى تجنيدهما بالفعل في أميركا وفي إنجلترا (كتيبة الرماة الملكية رقم ٣٨ و كتيبـة الرماة الملكية رقم ٣٩)، فإن منظمي الكتيبة إنما يهدفون إلى المـشاركة فـي حرب تحرير أرض الأسلاف، سعياً إلى الاستحواذ عليها في المستقبل، وذلـك بما يتماشى مع تصريح بلفور. وسوف ينشئون نواة ميليشيا يهودية سوف تكون جاهزة للدفاعٍ عن البلد بعد الاستيلاء عليه[١٥٤]. ولا يمكن فهم هذه الانعزاليـة المسترئية إلاّ بوصفها مرحلةً قبل المطالبة بالبلد، عندما يصبح اليهـود أغلبيـة فيه.

وفي لندن، درست وزارة الحرب بإيجاز مصير فلـسطين فـي منتـصف أغسطس/ آب خلال تبادل للآراء[١٥٥]. ويميل كيرزون إلى وصـاية ممنوحـة للولايات المتحدة، وإن كان يعتقد أن واشنطون سوف تفضل حل التدويل. ويرى عدة وزراء أنه، بعد التضحيات التي قدمتها بريطانيا العظمى في فـتح البلـد، سوف يكون من المؤسف التنازل عنه لآخرين. أمَّـا ماسـير، رئـيس وزراء نيوزيلنده، ومونتاجو، سكرتير الدولة المسئول عن الهند، فهما يريان أن السكان

المسلمين موفوري الأعداد في الإمبراطورية البريطانية سوف يشعرون بالسخط إذا ما جرى تسليم بلد مأهول بالمسلمين أساساً إلى الولايات المتحدة التي لا تملك أي خبرة في إدارة بلد مسلم والتي ستنتهج سياسة غير مقبولة من جانب المسلمين.

وقد ذهب أورمسبي ـ جور إلى لندن في أغسطس/ آب ١٩١٨ سعياً إلى الدفاع عن القضية الصهيونية. وهو واحد من أوائل وأهم "الصهيونيين غير اليهود" (*Gentile Zionists*). وفي ١٦ أغسطس/ آب، يتحدث أمام اللجنة السياسية الصهيونية اللندنية، التي يرأسها سوكولوف في غياب ڤايتسمان[١٥٦]: وهو يشيد بالمآثر التي حققها الاستيطان اليهودي في السابق ويشيد بمستقبله. وهو يرى أنه لا وجود هناك لمسألة عربية في فلسطين، لأنه لا وجود فيها لعرب حقيقيين، وإنما لمجرد ناطقين بالعربية. وبما أنه قد تمثل إلى هذا الحد أو ذاك خطاب الخبراء، فإنه يؤكد أن الانتلچنسيا السورية تشكل الخطر الحقيقي: فهي لا تملك حضارة خاصة بها وقد تمثلت جميع رذائل المشرق. بل إنها تعارض الطموحات القومية العربية الحقيقية. وقد أثبت الصهيونيون أنهم السادة الطبيعيون للأرض، أفضل سيد لها، وأنهم الأفضل استعداداً لإنماء البلد. وهو ينصح الصهيونيين بأن يذهبوا إلى هناك بشكل سافر دون أن يولوا كثير اهتمام إلى أعداء الصهيونية هنا وإلى المعارضين السوريين في فلسطين.

ويرسم ضابط الاتصال برنامج عمل: فالأولوية يجب أن تُعطى للزراعة؛ والاستيطان يجب أن يتقدم دون بعثرة قواه من السهل الساحلي إلى المرتفعات؛ والأرض التي تجب المطالبة بها في مؤتمر الصلح سوف تتمثل حدودها في نهر الليطاني وبحيرة الحوله وجبل حرمون وكل وادي الأردن، وإن كان دون منفذ على خليج العقبة على ما يبدو. وسوف تُعطى الأولوية للاستحواذ على الأراضي العامة ولتكوين حياة ثقافية تتخذ من العبرية محوراً لها.

ويتحدث أحاد هاعام عن المسألة العربية: فمن الناحية التاكتيكية، لن يكون بوسع الحركة الصهيونية المطالبة بالسيادة على فلسطين قبل أن يصبح اليهود أغلبية، ومن هنا الضرورة العاجلة للمطالبة بحكم ذاتي ثقافي وقومي مع الحرية الكاملة في الهجرة وفي الاستحواذات العقارية. ويتناول المتحدثون الآخرون

مسألة الحدود ووضعية غير اليهود. ويعتقد أورمسبي ـ جور أنه يجب منحهم جنسية مختلفة عن جنسية اليهود. أمَّا فيما يتعلق بالحكم، فإنه يجب أن يكون مشابهاً لحكم مستعمرات التاج (حيث السيادة كلها للسلطة البريطانية)، بينما تكون الطوئف مستقلة نسبيًا في إدارة الشئون المحلية، كالتعليم.

والحال أن التقرير النهائي لبعثة أورمسبي ـ جور والمؤرَّخ في ٢٢ أغسطس/ آب ١٩١٨ إنما يستعيد التوجهات نفسها[١٥٧]. وهو يتحدث عن غياب رؤى واضحة حول مستقبل فلسطين. فالبريطانيون ما يزالون مرتبطين باتفاق سايكس ـ بيكو، الأمر الذي يشل الإدارة العسكرية والحركة الصهيونية على حدٍّ سواء. ويتمثل الخطر في أن يدعم الفرنسيون مطلب سوريا متحدة تضم فلسطين. وهذا من شأنه أن يتماشى مع رغبة فرنسا في فرض حضارتها ولغتها ومصالحها المالية على مجمل المنطقة، ومن هنا ضرورة قيام بريطانيا العظمى بتشجيع الحكم الذاتي الثقافي اليهودي بوصفه عقبة في وجه النزعة التوسعية الفرنسية. أمَّا العداء للصهيونية فهو يستند إلى طبقة الأفندية المسلمين، الأقوياء بشكل خاص في يافا. وهذه الطبقة تشكل مصدر إزعاج بأكثر من كونها تشكل خطراً.

وفي العمل المباشر، يجب إيلاء الأولوية لتكوين **أمور واقعة**[١٥٨] قبل مؤتمر الصلح: احتلال البريطانيين بقية الأراضي الفلسطينية وتنصيب الأشراف في دمشق. وتصبح الحركة العربية قومية ومعادية للفرنسيين بشكل متزايد باطراد؛ وهدفها هو أن تكون مستقلة عن أي وصاية فرنسية وإنجليزية؛ وهي مستعدة للتفاهم مع الصهيونية وللابتعاد بشكل أكثر دوماً عن مشارقة بيروت وسوريي القاهرة.

ويعتقد أورمسبي ـ جور أن توسع الصهيونية سيكون سلميًّا. وهذا ليس رأي هوجارث في مذكرته المؤرَّخة في ٢٤ أغسطس/ آب حول المسألة العربية حيث يرى أن الصهيونية سوف يتعين فرضها **بيد قوية**[١٥٩]. ويختلف أورمسبي ـ جور مع هذا الاستنتاج، فيرد عليه هوجارث بأنه لا يجب أخذ تصريحات ڤايتسمان وسوكولوف بشكل حرفي، بل يجب النظر إلى منطق الأمور: فالصهيونية إنما تعني أن اليهود يجب أن يصبحوا مسيطرين في فلسطين، وهذا

لا يمكن أن يتحقق إلاً بممارسة الإكراه على السكان الموجودين هناك الآن.

وبينما يشتبه البريطانيون بأن الفرنسيين يريدون تكوين ائتلاف مناوئ للصهيونية يجمع السوريين (أو المشارقة) المدعومين برأس المال المصرفي المعادي للصهيونية (أي رأس المال المصرفي اليهودي الكوزموپوليتي)[١٦٠]، فإن هذا الأخير لا يكف عن اعتبار الصهيونية حركة خطرة. والأكثر احتشاداً في هذا الاتجاه هم الإسرائيليون الفرنسيون القريبون من التحالف الإسرائيلي العالمي. وهكذا، فإن سيلفان ليفي، لدى عودته إلى فلسطين، يدعو إلى نهضة يهودية في يهودا[١٦١]، لكنه يرتاب في نزعة قومية يهودية تسعى إلى الانفصال تماماً عن الدين. وهو ينزعج من وصول "سيل جد متسارع من العناصر الجديدة، التي صاغتها روح الفوضى والخسة المتجسدة في البولشفية" إلى فلسطين. فهذا معناه خلق شروط حياة متفجرة مع البيئة المسلمة والمسيحية. ويجب أن يُعهد بفلسطين إلى عصبة الأمم القادمة وأن تكون لفرنسا هناك حصتها المشروعة من النفوذ:

> فهي ليست مجرد الحامية التقليدية للمصالح الكاثوليكية في الشرق؛ وهي لم تخدم فقط قضية الحضارة بجرها إلى الثقافة اللاتينية شعوب البحر المتوسط التي كانت غريبة عنها وعازفة عنها في الأصل؛ ومن الزاوية اليهودية، فإنها ليست مجرد الوطن الأول الذي منح الثقة لليهود الممقوتين؛ وبوسعها أن تمارس على النهضة اليهودية تأثيراً حاسماً. والحال أن اليهودية، عبر جميع أزمانها، إنما تظل دوماً موزَّعةً بين اتجاهين: فالاتجاه الأول، المستمد من موسى، يميل إلى رد الشعب المختار إلى عزلته العرقية، وإلى الإكثار من الحواجز التي تفصله عن الأمم؛ أمَّا الاتجاه الآخر، وريث الأنبياء، فهو يمد يداً أخويةً إلى البشرية بهدف السير معاً وصولاً إلى العدالة الظافرة. والنبوغ الفرنسي، بولعه بالإنسانية العالمية والذي يتجلى في كلاسيكيِّيه كما في ثورته، هو الأقرب انتساباً إلى الروح المسيانية؛ وهو ملاذها الطبيعي ضد العصبويين الذين لم يتخلوا البتة عن الرغبة في خنقه.

وهذا الارتياب حيال الصهيونيين إنما يتقاسمه إدمون دو روتشايلد، الذي يتناول المسألة في الكيه دورسيه[١٦٢]. إذ يجب إنشاء جهاز يكفل الاستيطان اليهودي في فلسطين بأكبر قدر ممكن من الحكم الذاتي وذلك مع درء المخاطر

التي يمكن أن تنشأ من تجاوزات الروح القومية لدى بعض الصهيونيين. وسوف يكون هذا الجهاز شركة منشأة بامتياز. ويجب التحدث عنها مع أكثر رجال الصهيونية تمتعاً بالصفة التمثيلية وبالنفوذ، ألاَ وهو برانديز، و، إيفاد سيلڤان ليڤي إلى أميركا، سعياً إلى هذا الهدف.

وفي ٢٤ يوليو/ تموز، بمناسبة مرور البعثة الطبية اليهودية الأميركية المتجهة إلى فلسطين بباريس، يشدِّدُ إدمون دو روتشايلد على الهدف المطلوب تحقيقه في فلسطين، إنشاء مركز ثقافي فكري. وهو يتجنب، شأن سيلڤان ليڤي، استخدام مصطلح "قومي".

وفي مستهل شهر أغسطس/ آب ١٩١٨، يحدد سيلڤان ليڤي برنامج بعثته إلى الولايات المتحدة[١٦٣]: إن الإنجليز قد جعلوا من الفرنسيين في فلسطين أقارب فقراء. والاستيطان اليهودي في فلسطين سوف يكون أساساً من فعل روس قادمين من روسيا مباشرةً، أو قادمين من روسيا بعد فترة تدريب في إنجلترا أو أميركا. وهذا يشكل خطر تدفق عقول ثائرة، محمومة بالثورة، ولا تملك أي تراث من تراث الروح العامة، ومغرمة بالروح "القومية"، وإن كان دون أي شعور بالكرامة القومية. والحال أن المخاطر السياسية والاقتصادية والدينية (النزاعات مع المسلمين والمسيحيين والدسائس الألمانيّة) إنما تعد جسيمة. ثم إن الإمبريالية البريطانية قد تمكنت من جعل الصهيونية أداة لها، في الوقت الحاضر. ولابد من مناشدة الأميركيين، وخاصة برانديز، لاستعادة التوازن. وسوف يجري اقتراح تكوين لجنة يهودية من البلدان المتحالفة تتولى توجيه الشئون اليهودية في فلسطين، بتفويض من الدول العظمى وتحت إشرافها. وسوف يجري تكوين هذه اللجنة بشكل يكفل تمثيلاً متساوياً لجميع المنظمات اليهودية الكبرى، التحالف الإسرائيلي العالمي وإيكا والصهيونية، وسوف تهتم أساساً بمسائل التعليم والهجرة (الفرز الضروري للمهاجرين) وشراء الأراضي والمؤسسات الخيرية والإعانات المقدَّمة إلى المؤسسات الدينية.

ومع أن الرجلين جد متقاربين، فإن بوسعنا تصور أن سيلڤان ليڤي يهتم خاصةً بالخطر الذي تمثله النزعة القومية بالنسبة للاستيعاب، بينما ينزعج إدمون دو روتشايلد من نقص الروح الدينية لدى الحركة القومية.

ويشتبه البريطانيون بأن السوريين العاملين في خدمة فرنسا، خاصة لجنة شكري غانم المركزية السورية، يرتكبون أسوأ الفضائح. ففي ٣٠ أغسطس/ آب، نجد أن صحيفة [اللجنة] الصادرة في باريس، بالعربية، ألا وهي صحيفة المستقبل، والتي يحظر الإنجليز بشكل منتظم دخولها إلى مصر (كما تحظر دخولها إلى الشمال الأفريقي السلطات الفرنسية، التي ترتاب في إشادتها بالنزعة القومية العربية)، تنشر رسالة من القدس مؤرخة في ٢٦ مايو/ أيَّار ١٩١٨[١٦٤]: وهي عبارة عن هجوم عنيف على الصهيونية وعلى فايتسمان اللذين يريدان الحط من شأن المسلمين، كما يدل على ذلك الحادث الذي وقع مع مفتي القدس. ويجري الهجوم على اليهود، الذين لم يقدموا شيئاً للحضارة، والذين لا يتميز تاريخهم إلاّ بالمذابح والذين يريدون استعادة سلطة دينية في فلسطين مؤكدين بذلك للمستقبل إحياء صفحات الماضي الأسود. وتجري المطالبة بتدويل فلسطين.

وتلك بداية الدعاية العربية المضادة والتي تقلب لغة الخطاب الصهيوني حول إسهامات اليهودية في الحضارة العالمية. ومنذ ذلك التاريخ، سوف يجري تكرار هذه التيمات بشكل متواصل. والحال أن معاداة السوريين عشاق فرنسا للصهيونية إنما تلحق بمعاداة الصهيونية التي يبديها بعض السوريين الجذريين المقيمين بالقاهرة والذين يميلون، لأسباب متباينة، إلى اتخاذ موقف معادٍ للهاشميين. وتلك حالة رجل كرشيد رضا الذي أرسل إلى الرئيس ويلسون رسالة تناشده ألاّ يسمح بأن تقوم إنجلترا، بشكل يتعارض مع المبدأ الذي طرحه الحلفاء، بضم بلاد الرافدين وفلسطين وجزء كبير من بلاد العرب بأسلوب ملتوٍ. وهو يطلب دعمه لإتاحة الإمكانية للعرب لتكوين دولة مستقلة تضم كل بلاد العرب وبلاد الرافدين وفلسطين وسوريا[١٦٥]. ومن ثم فإن المجازفة إنما تكمن في رؤية القوميين المتشددين وقد أقاموا في نهاية المطاف على المواقع نفسها التي يقيم عليها السوريون المحبون لفرنسا.

وغضب البريطانيين قوي لا سيما أنهم يخشون من أصداء هذه المواقف في صفوف السكان العرب في القارتين الأميركيتين. فيخاطب سايكس پيكو[١٦٦]: إن مقال المستقبل هجوم حقيقي على روح التعاون الفرنسي ـ البريطاني؛

والفرنسيون يريدون شن حرب أهلية في مؤخرات الجيش البريطـاني وفـصل الأشراف عن الحلفاء. وإذا لم تفعل باريس شيئاً، فلن يكون هناك وجود سياسي فرنسي في الأراضي السورية المحتلة. وفي ٣ أكتوبر/ تـشرين الأول ١٩١٨، وليس قبل ذلك، يعبر بول كامبون لبلفور عن أسـف فرنـسا لهـذا الحـادث المؤسف[١٦٧]. ويرجع المقال إلى قلم مراسل عَرَضي للصحيفة، التي لا تشاركه استنتاجاته. لكن الدبلوماسية الفرنسية تغتنم هذه الفرصة لكي تذكّر بآرائها: إن هذا النص هو عَرَضٌ واحدٌ من أعراض عديـدة لحالـة ذهنيـة تجعـل مـن الضروري إقامة تفاهم بين الصهيونيين والمسلمين. وسعياً إلى هـذا الهـدف، تقترح باريس تكوين لجنة على أساس دولي تكون هي وحدها المكلفـة بتنظـيم "المقام اليهودي"... وفي أواخر الشهر، يرد البريطانيون بأن هذه اللجنة موجودة بالفعل: إنها اللجنة الصهيونية، حيث يوجد سيلفان ليفي[١٦٨].

الانهيار العثماني

اعتباراً من أواخر مارس/ آذار ١٩١٨، يعرف الجميع أن مصير الحـرب سوف يتقرر في المعارك الكبرى على الجبهة الفرنسية. وفي ١٨ يوليو/ تموز، تبدأ معركة المارن الثانية التي تدشن التقهقر الألماني. وفي ٨ أغـسطس/ آب، "يوم حداد الجيش الألماني"، يدرك المسئولون العسكريون الألمان الطابع الحتمي للهزيمة. وفي أواخر شهر أغسطس/ آب، ينسحب الجيش. وفي ١٥ سـبتمبر/ أيلول، يدخل جيش سالونيك ساحة القتال، مجبراً بلغاريا على طلب الهدنة فـي ٢٨ من الشهر نفسه ومعرِّضاً للخطر الاتصال بين دول وسط أوروبا والدولـة العثمانية.

وإلى أواخر يوليو/ تموز، نجد أن التساؤل عن المـستقبل يـؤرق جميـع الأذهان في فلسطين. وكان أللنبي قد نجح في الحصول على موافقة بعدم سحب قوات إضافية منه لإرسالها إلى أوروبا. وهو ليس محل تهديد جسيم من جانب الجيش العثماني الذي تقطعت أنفاسه والذي تعد أعداد جنوده أقل مـن أعـداد الجنود المتوافرة لديه، بنسبة النصف. والحال أن الجنرال الإنجليزي إنما يوجه ضرباته المفاجئة في المكان الذي لا يتوقعه العدو. وهو يقلب المناورة التي كان

قد لجأ إليها في العام السابق، فيوحي بأنه سوف يوجه مجهوده الحربي إلى داخل الأراضي لكنه يشن الهجوم في ١٩ سبتمبر/ أيلول في المنطقة الساحلية. فيتم اختراق الجبهة العثمانية ويتقهقر الجيش في فوضى. وفي ٢١ سبتمبر/ أيلول، يجري الاستيلاء على الناصرة ونابلس؛ بينما يجيء الدور على حيفا يوم ٢٣.

وبعد أن أخضع أللنبي عمليات قوات التمرد العربي لتحركات جيشه هو، سمح لهذه القوات بتولي السيطرة على دمشق (٣٠ سبتمبر/ أيلول). وفي الأيام التالية، يرحل العثمانيون عن سوريا كلها. وفي ٢٦ أكتوبر/ تشرين الأول، يتم احتلال حلب، وفي ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول، توقع الدولة العثمانية هدنة مودروس.

وقبل بداية هجوم أللنبي، كانت المسألة المهمة الوحيدة في فلسطين متعلقة بحائط المبكى. ففي ١٣ سبتمبر/ أيلول[١٦٩]، يجتمع حداد بك، مساعد ستورس، بالأعيان المسلمين ويقترح عليهم أن يشتري اليهود مجمل الحي المغربي المتاخم لساحة الحرم الشريف: فبهذا المال، سوف يكون بوسع المسلمين إنشاء جامعة منافسة للجامعة العبرية. فيشير الأعيان إلى عدم إمكانية التصرف في ممتلكات الوقف وإلى تصريح أللنبي الذي يؤكد استمرار الوضع القائم. وانزعاجهم قوي. أمَّا فرنسا، التي تتذكر أن الوقف المقصود وقف مغربي، فهي تتساءل عما إذا كان بوسعها التدخل في هذا الموضوع. وفي الأسابيع التالية، يقدم المسلمون عرائض احتجاج إلى السلطة العسكرية. وتنزعج هذه الأخيرة من احتمال نشوب اضطرابات وتمتنع عن أي تدخل في ملف حائط المبكى[١٧٠].

وتقدم جيوش الحلفاء يعيد طرح مسألة الحقوق المتبادلة لفرنسا ولبريطانيا العظمى. فيطلب بيشون من كامبون أن يطالب البريطانيين بتطبيق الاتفاق الذي يجعل من سايكس وبيكو مندوبين ساميين للحلفاء[١٧١]. ويرد بلفور بأنه ليس على علم بهذا الاتفاق وأننا بإزاء مجرد مشروع اتفاق يتوجب إدخال تعديل جوهري عليه[١٧٢]. ويتحدث سايكس عن الضرورة المسبقة لصدور تصريح فرنسي ـ بريطاني مشترك هدفه طمأنة العرب عشية دخول الحليفين دمشق. وعلى الفور، تبدأ المحادثات في لندن بين ممثلين فرنسيين وبريطانيين[١٧٣].

وفي ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول، يتم عقد اتفاق[١٧٤]: ففي المناطق التي نص عليها اتفاق عام ١٩١٦، سوف يجري اعتبار الممثل الفرنسي مستشاراً سياسيًّا للجنرال أللنبي. وهذا المستشار "سيعمل بوصفه الوسيط الوحيد في المسائل السياسية والإدارية بين القائد العام وأي حكومة عربية، دائمة أو مؤقتة، قد تنشأ في المنطقة ألف ويتم الاعتراف بها بموجب شروط بند اتفاق عام ١٩١٦، بشرط ألاّ يجوز تفسير هذا البند بأي شكل على أنه يحرم أي طرف من حق الاتصال المباشر بالقائد العام أو على أنه يمنح المستشار السياسي حق حضور الاجتماعات العسكرية أو التصرف كوسيط في المسائل العسكرية".

وفي ٣ أكتوبر/ تشرين الأول، يعلن فيصل في دمشق، "تشكلت في سورية حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية"[١٧٥]. وقد غادر توماس إدوارد لورانس على الفور دمشق متجهاً إلى لندن لكي يهيئ الساحة أمام فيصل. وهو يستخدم الضمير الشخصي "نحن" عندما يتحدث عن العرب ويدعو إلى نقض اتفاق سايكس ـ بيكو الذي يعد رسمه للحدود عبثياً ومستحيل التطبيق[١٧٦]. فيجري إطلاعه على مشروع التصريح الفرنسي ـ البريطاني الذي يجده مرضياً لاسيما أنه يبدو له متعارضاً مع اتفاق سايكس ـ بيكو.

ويجري عرض المشروع نفسه على الأميركيين[١٧٧]. ويتعرف فيه ويلسون على أفكاره التي كثيراً ما جرى التعبير عنها والخاصة بحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها، بيد أنه يقترح، لتخليص هذه المناطق من نفوذ الدول العظمى، وضعها تحت وصاية دول محايدة صغيرة تحت إشراف عصبة الأمم القادمة. والحال أن انعدام المنطق في موقف الرئيس الأميركي، حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. ووضع هذه الشعوب نفسها تحت الوصاية، سوف يكون أثره كبيراً على تتابع الأحداث وذلك بما سوف يثيره في الأذهان من تشوش.

وفي ٧ نوفمبر/ تشرين الثاني، يجري نشر التصريح الفرنسي ـ البريطاني:

> إن الهدف الذي تتوخاه فرنسا وبريطانيا العظمى في مواصلتهما في الشرق الحرب التي فجرتها الأطماع الألمانية هو التحرير الكامل والحاسم لشعوب تعرضت لزمن طويل

جدًّا للاضطهاد من جانب الأتراك وإنشاء حكومات وإدارات قومية، تستمد سلطتها من مبادرة السكان الأهليين ومن حريتهم في الاختيار.

وتحقيقاً لهذه المقاصد، اتفقت فرنسا وبريطانيا العظمى على تشجيع ومساعدة إنشاء حكومات وإدارات أهلية في سوريا وبلاد الرافدين اللتين تم الآن تحريرهما من جانب الحلفاء أو في الأراضي التي يواصلون فيها التحرير وعلى الاعتراف بهذه الحكومات بمجرد قيامها فعليًّا. وبعيداً عن فرض هذه المؤسسات أو تلك على سكان هذه المناطق، فإنهما لا شاغل لديهما سوى العمل، بمساندتهما وبمساعدة فعالة، على ضمان سير العمل الطبيعي للحكومات وللإدارات التي سيختارها هؤلاء السكان بحرية. تأمين عدالة نزيهة ومتساوية للجميع وتيسير الإنماء الاقتصادي للبلاد بحفز وبتشجيع المبادرات المحلية ودعم نشر التعليم وإنهاء الانقسامات التي استغلتها السياسة التركية لزمن طويل جدًّا، ذلك هو الدور الذي تطالب به الحكومتان المتحالفتان في الأراضي المحرَّرَة.

وفي ذلك الوقت، كانت فلسطين قد شهدت بالفعل مواجهاتها الأولى.

نشأة الحياة السياسية في فلسطين

تسمح انتصارات البريطانيين العسكرية للجماعات السكانية المعنية بالتعبير عن آمالها ومخاوفها، والتي كانت مكبوحة إلى ذلك الحين. ونصل إلى اللحظة الحاسمة التي سيتعين فيها التعبير عن كل شيء.

والعنصر المحرك لأحداث نوفمبر/ تشرين الثاني هو إعلان اللجنة الصهيونية عن عزمها الاحتفال الصاخب بالذكرى السنوية الأولى لصدور تصريح بلفور، يوم ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني١٩١٨[١٧٨]. ويرد مسلمو ومسيحيو القدس بأنهم سيقومون آنئذ بتظاهرة مضادة. ويحظر ستورس هذه التظاهرة مع ممارسته لسيطرة صارمة على التظاهرة الصهيونية. ويحدث كل شيء في هدوء، إلاَّ أنه، عند تفرق التظاهرة، تنشب صدامات لا تتميز بخطورة كبيرة بين متظاهرين يهود وسكان عرب. وفي اليوم التالي، ٣ نوفمبر/ تشرين الثاني، يتظاهر سكان المدينة العرب بدورهم تحت قيادة العمدة موسى كاظم الحسيني: ويجري تسليم عريضة إلى الحاكم، تحتج على تسليم فلسطين لواحدة فقط من

ديانات سكانها الثلاث. ويرى ستورس أن الأمر كله جرى في هدوء، لكن الممثلين الفرنسيين في المدينة يذهبون إلى[١٧٩] أن علمين صهيونيين قد جرى تمزيقهما وأنه كان من الوارد أن تنشب صدامات عنيفة لولا التدخل الكفء والسريع من جانب قوة حفظ النظام البريطانية. وكاد الموقف يقترب جدًّا من انفجار العنف لأن شائعة قد سرت بين صفوف السكان المسلمين مفادها أن اليهود كانوا ينوون اغتنام فرصة الحادث للاستيلاء على الحرم الشريف في القدس وعلى قبر الأنبياء في الخليل.

وفي ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني، يذهب الأعيان المسلمون والمسيحيون بقيادة المفتي والعمدة إلى ستورس ويحتجون على المخططات الصهيونية:

قالوا: "حتى لو تعين علينا إراقة دمائنا، فسوف نعارض أن يصبح اليهود سادة لفلسطين وأن يسيطروا على القدس". وقد سلّموا الحكومة احتجاجاً مكتوباً يتضمن التصريحات التالية:

١. إن العرب الأهالي، مسيحيين ومسلمين، مستعدون لقبول أي شكل للحكم يريد الحلفاء فرضه عليهم؛ لكنهم لن يقبلوا أبداً تسليم فلسطين لليهود.

٢. إن فلسطين بلد مقدس لدى المسيحيين كما لدى المسلمين.

ويجب أن تظل فلسطين ضمن "الوضع القائم" ولا يجب لليهود أن تكون لهم حرية الاستيطان فيها على حساب السكان الحاليين.

ويعد ستورس بنقل هذا الاحتجاج إلى الحكومة. وفي اليوم التالي، يعلن مخاتير القرى المجاورة للقدس عزمهم على التصدي بالقوة، حتى الموت، لتحقيق أحلام الصهيونيين. وهم يحذرون العرب المسلمين والمسيحيين في الحجاز وسوريا من خطر استيلاء اليهود على فلسطين.

والاحتجاج الذي يجري تسليمه للبريطانيين[١٨٠] موقَّع من جانب الأندية الأدبية والجمعيات الخيرية في القدس كما من جانب مائة من الشخصيات. وكما في يافا قبل ذلك ببضعة أسابيع، فإن التقارب بين المسيحيين والمسلمين إنما يتسارع.

وفي لندن، يجري التساؤل عن معنى الأحداث. فيجد البعض أن

الصهيونيين قد أعوزتهم اللياقة حين استفزوا العرب. وينزعج توماس إداورد لورانس على مستقبل مشروعه الكبير الخاص بالتعاون بين الأشراف والصهيونيين للقضاء على اتفاق سايكس ــ بيكو[١٨١]. وهو يسعى إلى التقليل من شأن الأحداث وإلى ممارسة ابتزاز في الاتجاه المقلوب، لحساب فيصل: فمن المؤكد أن عرب فلسطين لا يوافقون على استقلال اليهود بفلسطين، لكنهم سوف يقبلون تسللاً يهوديًا بقدر توافر "ستار" بريطاني وليس توافر "ستار" دولي. وإذا ما جرى السعي إلى تطبيق التدويل الذي نص عليه اتفاق سايكس ــ بيكو، فسوف يطالب فيصل عندئذ بحق فلسطين في تقرير مصيرها بنفسها وسوف يقدم دعمه الأدبي للفلاحين الفلسطينيين في مقاومتهم للمصادرة.

وفي اليوم نفسه، ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨، نجد أن مذكرة صادرة عن إدارة الاستخبارات السياسية بوزارة الخارجية البريطانية، حول التعهدات البريطانية للملك حسين[١٨٢]، تشير إلى حيرة المسئولين البريطانيين. فرؤيتهم للواقع الاجتماعي للشرق الأدنى قد تبدلت تبدلاً عظيماً منذ ثلاث سنوات بحيث إنهم لا يعودون يفهمون المعنى الأصلي لتعهداتهم التي قدموها في عام ١٩١٥ ويرون أن فلسطين تشكل بالفعل جزءاً من الأراضي التي وعدوا بها شريف مكة. ويحال إلى رسالة هوجارث المؤرخة في يناير/ كانون الثاني ١٩١٨ فيما يتعلق بالمستقبل.

وفي ٩ نوفمبر/ تشرين الثاني، تنقل المنظمة الصهيونية مقترحاتها في عشر نقاط إلى الحكومة البريطانية[١٨٣]: فالأمر يتعلق بمواصلة عمل إعادة تنظيم الطائفة اليهودية من جانب اللجنة الصهيونية وخلق أمور واقعة، كالاعتراف بالعبرية كلغة رسمية وإنشاء لجنة عقارية بمشاركة صهيونية تقوم بأعمال المساحة وتُعِدُّ للتنازل عن الأراضي العامة وغير المزروعة للصهيونيين ضمن إطار إصلاح زراعي.

وفي القدس، من باب الخطأ أو من باب الرغبة في تهدئة الرأي العام العربي، كان قد نُشر التصريح الفرنسي ــ البريطاني[١٨٤]. والحال أن الأعيان المسلمين والمسيحيين، المجتمعين في جمعية مقتطف الدروس، إنما يقررون سؤال الحاكم ما إذا كانت فلسطين تشكل جزءاً من سوريا[١٨٥]. فنجد ستورس،

الذي أخذته المفاجأة، يجيبهم بالإيجاب. وهو لا يفهم إلاَّ فيما بعد معنى السؤال، والذي يتمثل في معرفة ما إذا كانَ التصريح ينطبق على فلسطين. فيتراجع عن إجابته الأولى ويحيط الأعيان علماً بأنه ينتظر تعليمات من حكومته حول هــذا الموضوع[١٠٨٦].

وفي ذلك الوقت، تنتهي الحرب في أوروبا وسوف يتحدد مصير العالم في مؤتمر الصلح الذي سرعان ما سوف يبدأ.

الفصل الحادي عشر

باريس والقدس

"الفن القومي، اللغة القومية، الحياة القومية؛ الشعار في كل مكان هو القومي. والطريف في الأمر، إن لم يكن المؤلم، هو أن هذا الشعار إنما يجري إطلاقه وإعلانه وترديده والإشادة به من جانب أناس ليس بمقدورهم أن يفهموا أو أن يخمنوا ما الذي تتضمنه كلمة الأمة. فمشارقة البحر المتوسط أو شرقيو أوروبا القارية هؤلاء قد عاشوا في دول عديمة الشخصية، في مدن تفتقر إلى التماسك العميق، ولدت من صروف الحرب، ومستعدة للانهيار بسبب صروف الحرب؛ وفي مجتمعات كهذه، تعد الأمة قبل كل شيء جماعة طائفية؛ فالأمة اليونانية والأمة اللاتينية والأمة الأرمنية إنما تعد في المشرق عناوين كنائس، تمامًا كما تعني كلمة الروسي الأرتوذكسي وكما تعني كلمة البولندي الكاثوليكي الروماني في شرق بروسيا اللوثرية. وعندئذ ستكون الأمة اليهودية هي جميع المؤمنين الذين يضمهم الكنيس. والواقع أنه، منذ نحو ألفي عام عندما كف اليهود عن تشكيل دولة، كانت وحدة المعتقدات والممارسات هي التي حفظت وحدتهم في الشتات. لكن اليقظة الحالية إنما تتوخى بالفعل عدم الاهتمام بالدين. [...]

"إن مناخ الجيتّوات الديني السابق قد سمح باستمرار ازدهار الفضائل الأسرية التي كانت المصدر الذي لا جدال فيه لاعتزاز إسرائيل بنفسها؛ لكن الاضطهاد والاستعباد اللذين داما لآلاف السنين لا يربيان نفوسًا ذات خصال شجاعة على نحو ما يتطلب بلد حر ذلك من مواطنيه. و لم ينتج المشرق بالفعل سوى وفرة من المجتمعات التي يعد الذكاء فيها حادًّا وقويًّا ومرهفًا، بيد أنه يظل القيمة الوحيدة التي يتحدد تصنيف الناس على أساسها، والمفتوحة أمام جميع الدسائس التي يدفعها الهوى إلى المناورات وإلى المؤامرات، في غياب الثقل المضاد الذي يتمثل في تراث ثابت وفي الكرامة الجماعية. وأنا لا أريد البتة الإيحاء بأن فلسطين اليهودية قد وصلت بالفعل إلى هذه المرحلة. فلدينا في جيوشنا، وعلى أرضنا، الكثير من الشبان الذين هبوا عن طيب خاطر إلى الدفاع عن فرنسا منذ عام ١٩١٤؛ وقد اندرج أكثر من واحد في سجل شهداء الحرب المجيد. ومؤخرًا جدًّا أيضًا،

عندما صرحت الحكومة البريطانية أخيرًا بتجنيد متطوعين يهود في فلسطين، فإن أورشليم ويافا اللتين أدى التيفوس والترحيلات إلى إفراغهما جزئيًا من البشر مع ذلك، قد قدمتا نحو ألف رجل: إن فلسطينيين ويمنيين وفرسًا ومغاربة وبلقانيين ونازحين من بُخارى ومصريين من حيث أصولهم قد قدموا مساهمتهم في الكتيبة العسكرية، وذلك بالرغم من العداوة العمياء التي أبدتها بعض الفصائل. بيد أن هذه الوثبة الشجاعة للروح القومية حقًا إنما تجازف بأن يجري خنقها تحت تدفق جد سريع لعناصر جديدة، صاغتها روح الفوضى والخسة المتجسدة في البولشفية. وسوف يكون الخطر جسيمًا بالنسبة للجميع في فلسطين، وسط حشد مسلم قابل لأن يشهد نهوضًا للتعصب، وعلى مقربة من الأماكن المقدسة، حيث ما زالت باقية إلى حدٍّ ما روح الحملات الصليبية، على شاطئ البحر المتوسط علاوة على ثلاثة أرباع أوروبا، وعلى أبواب مصر الأفريقية وعلى أبواب بلاد العرب وسوريا وبلاد الرافدين الآسيوية.

"وهكذا فإن مسائل فلسطين مسائلٌ عالمية؛ والمأمول هو أن تنجز عصبة الأمم أول مساعيها في هذه الأرض المقدسة التي تنتمي إلى تاريخ وأساطير وديانات الكثير من الشعوب".

سيلفان ليفي، **نهضة يهودية في يهودا**
(القدس، يوليو/ تموز ١٩١٨)[١].

القدس

في القدس، تتسارع سيرورة الوعي السياسي من يوم إلى آخر. وسايكس، الذي يزور الساحة في منتصف نوفمبر/ تشرين الثاني، تحاصره الشكايات[٢]. فاليهود يتهمون الإدارة العسكرية بعدم الاعتراف للصهيونيين بالصدارة وبالسماح بترويج الدعاية العربية. ويحتج العرب على رغبة البريطانيين في إخضاعهم لسلطة يهودية. ويرى سايكس أن القيادة الصهيونية المحلية تعوزها اللباقة والديبلوماسية ويقترح إرسال سوكولوف كمستشار مؤقت للإدارة العسكرية. أمّا فيما يتعلق بثورة الخواطر العربية فهو يرى أنها ترجع إلى أنانية الأعيان الذين يخشون من تهديد مواقعهم كما ترجع إلى النشاط الخفي الذي يقوم به عملاء أتراك ومتشددون ودساسون بطالون. ويجب إفهامهم أن تصريح بلفور

قرار نهائي للحكومة البريطانية تدعمها فيه جميع دول الوفاق.

وإذا كانت عداوة العرب للصهيونية إجماعية، فإن الفرقة والالتباس يبقيان قائمين فيما يتعلق بمستقبل فلسطين[3]. ففريق من المسلمين يؤيد الاستعانة بالأشراف، في حين أن المسيحيين معادون لذلك. وبين هؤلاء الأخيرين، يطالب فصيل بالحماية الفرنسية، بينما يعلن الآخرون مناصرتهم للتدويل.

وفي يافا، نجد أن التقدم صوب وفاق بين جميع مكونات السكان إنما يجد ترجمة له في انبثاق جمعية إسلامية ـ مسيحية. والتاريخ الدقيق لتكوينها غير معروف. ونجد إشارة لوجودها في مستهل شهر نوفمبر/ تشرين الثاني في إرسال احتجاج ضد الاحتفال بالذكرى السنوية الأولى لتصريح بلفور[4]. وهي تنهمك في النشاط خلال الاحتفال بالذكرى السنوية الأولى لوصول البريطانيين، في ١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨. وتتواكب التظاهرة الشعبية[5] مع إرسال عريضة إلى الحكومة البريطانية. ونجد في هذه العريضة[6] إشادات كثيرة بالبريطانيين. ثم يجري التذكير فيها بأن فلسطين بلد عربي وبأن العرب فيها تزيد أعدادهم ثلاثين مرة عن أعداد اليهود وبأن هؤلاء الأخيرين ليس لهم أي حق في البلد. وما الذي يمكن أن يقال لو طالب العرب بالأندلس؟ وتجري المطالبة بالحكم الذاتي (*self-government*)، إلاّ أنه لا يشار إلى نوعية المستقبل المنشود بالنسبة للبلد.

ويبدو أن تكوين هذه الجمعية كان قد لقي تشجيعًا من جانب الحاكم العسكري، الليوتنانت ـ چنرال هابّارد، الراغب في تشكل حزب موال للبريطانيين بشكل سافر[7]. وهو يرفق بأصل العريضة إلى لندن[8] طلبًا بإصدار تصريح يطمئن العرب على أنهم لن يجرَّدوا من أراضيهم ولن يجري إخضاعهم لحكم من جانب اليهود. ويطرح فكرة تكوين لجنة عربية فلسطينية مهمتها تأمين التوازن مع الصهيونيين. ومن الواضح أن الأمر يتعلق هنا بحزب أعيان كانوا قد خدموا العثمانيين ويحاولون استخدام الورقة البريطانية ضد الصهيونية. ويرجع التشجيع البريطاني إلى قدر من ميل الإدارة العسكرية إلى العرب كما إلى الشعور بضرورة خلق حزب معتدل موال للبريطانيين في الوقت الذي تبدأ فيه الحياة السياسية بالتجذر.

وقد ضربت يافا المثل للقدس. فأخذت جمعية مقتطف الدروس للتوّ اسم المنتدى الأدبي، على اسم جمعية أدبية كانت قد لعبت دورًا معيّنًا في القسطنطينية في مستهل ثورة تركيا الفتاة. ويرى ستورس[٩] أن المنتدى قرر توجيه عريضة إلى فرنسا يطلب فيها منها الاعتراف بفلسطين رسميًا كجزء من سوريا، والقيام في الوقت نفسه بإعلان الشريف حسين خليفة في خطبة صلاة الجمعة.

والعريضة موجودة بالفعل في الأرشيفات الفرنسية[١٠]، بيد أنها ليست غير تأويل للتصريح الفرنسي ـ البريطاني ولا تتضمن مطالبة صريحة بالاندماج بسوريا:

بما أن فلسطين تشكل جزءًا من سوريا وبلاد الرافدين، فقد ترقب سكانها بنفاد صبرٍ احتلال البلد كيما يتوصلوا إلى حرية مطلقة.

ونحن إنما نتقدم بهذه العريضة لكي نطالب فعليًا بالمساعدة من جانب الحلفاء ونحصل على الحق في تكوين حكومةٍ بفلسطين، قائمةٍ على الاختيار الحر من جانب السكان الوطنيين، مثلما تقرر عمل ذلك بالنسبة لسكان سوريا وبلاد الرافدين. ونرجو أن تتفضلوا بتقديم مطلبنا هذا، برقيًّا، إلى من يهمه الأمر.

والحال أن البريطانيين والصهيونيين، كعادتهم، إنما يقتنعون منذ ذلك الحين بأن المنتدى الأدبي أداة مؤامرة فرنسية. ولابد من قول إن مخبرًا للحاكم، هو بطريرك القدس اللاتيني، لا يتردد في إقناعه بذلك. على أن فرز الأرشيفات الفرنسية لا يقدم شيئًا في هذا الشأن فيما عدا بعض المساعدات جد العرضية في عام ١٩١٨ لتعليم الفرنسية[١١]. ولن يكون الأمر كذلك فيما بعد.

والمؤامرة الثانية هي مؤامرة الأشراف. وهذا كله غير مقبول بالنسبة للبريطانيين عشية مؤتمر الصلح. وبسبب اختيارهم لفيصل كممثل عربي وحيد، فمن غير الوارد السماح لعرب فلسطين بالتعبير عن أنفسهم. ويوجه ستورس ضربته بسرعة: فهو يجتمع بعمدة القدس، موسى كاظم الحسيني، والمفتي ابن عمه وعارف حكمت النشاشيبي، مدير الأوقاف، ويدعوهم إلى الاختيار بين النشاطات السياسية ووظائفهم الإدارية. ويجري التصرف بالشكل نفسه مع

موظفين من درجات أدنى. وطبيعي أن الجميع يرضخون أمام هذا النوع من الضغوط.

والحال أن ستورس قد عَجَّلَ خاصةً بسيرورة توزيع للمهام في داخل الحركة السياسية العربية. فيصبح المنتدى الأدبي مركز تجمع ناشطين شبان منحدرين من الطبقات المتوسطة ومن فروع أصغر لعائلات الأعيان. وقيادته توضح ارتباطاته ببعض العائلات الكبرى في القدس: جميل الحسيني، حسن صدقي الدجاني، يوسف الخطيب، فخري النشاشيبي، إسحق النشاشيبي، فؤاد النشاشيبي، محمود عزيز الخالدي، صليبا الجوزي(١٢). وقد نشأ المنتدى في القدس وسرعان ما تبنى القضية العربية وقضية الأشراف. ومن الواضح أن التصريح الفرنسي ـ البريطاني قد عجل بالرغبة في الارتباط بسوريا كوسيلة للحيلولة دون تنفيذ تصريح بلفور. ومن الوارد أن هذا التوجه كان، في مرحلة أولى، توجهًا تاكتيكيًا. وفي الوقت نفسه، يوضح تكوين القيادة ارتباطًا جد وثيق بعائلة النشاشيبي. وشيئًا فشيئًا، سيجري تهميش حسن صدقي الدجاني، وسوف يتقارب عندئذ مع الفرنسيين، الذين سيقدمون له بعض التمويلات.

ولا مفر من تحليل التشكيلات السياسية العربية من زاوية المجموعات العائلية. ويرصد ذلك المسيحي خليل السكاكيني في يومياته بتاريخ ٢٦ يناير/ كانون الثاني ١٩١٩(١٣):

> المسلمون في هذه البلاد أو في القدس لا يزالون يعيشون على تقاليدهم القديمة. لكل أسرة إسلامية في القدس تقاليد مركوزة في طباعها يتوارثونها أبًا عن جد. لا يقول الواحد كلمة أو يخطو خطوة إلاّ وهو مراعٍ تقاليده قبل كل شيء: مصلحة أسرته قبل كل مصلحة، ونفوذ أسرته قبل كل نفوذ. فإذا كلَّفتَ أحدًا أن ينتخب عضوًا لمجلس نيابة أو مجلس بلدي أو هيئة معارف أو جمعية وطنية أو غير ذلك انتخب كبير أسرته؛ سواء كان يصلح لذلك أم لا. إسأله من هو أصدق وطنية أو أرقى أخلاقًا أو أوسع علمًا أو أصح رأيًا ذكر أباه أو أخاه أو ابن عمه. وكل جمعية أو هيئة أو حزب لا يكون فيه أحد أفراد تلك الأسرة انقلبت تلك الأسرة عليه وحاولت مقاومته ولو كان فيه الخير. لا يكون الرأي صحيحًا عند أحدهم إلا إذا كان هو صاحب الرأي أو أحد أفراد أسرته.

على أن من غير الممكن التوقف عند الدور الفاعل للانتماءات العائلية: فالتعبئة إنما تتم باسم برامج سياسية وتوجهات إيديولوجية تعكس، لا محالة، التباينات الاجتماعية والجغرافية. وتلك هي الحالة أيضًا مع النادي الثاني الذي يظهر في القدس في الوقت نفسه. وهنا أيضًا، تجري استعادة اسم مؤسسة كانت قد وجدت بالفعل قبل عام ١٩١٤، النادي العربي. ومع أن بالإمكان ربطه بجمعية مقتطف الدروس في مستهل عام ١٩١٨، إلاّ أنه ناشئ خاصة عن اتحاد بين جماعة آل الحسيني وجماعة من الفلسطينيين كانوا قد ارتبطوا بالتمرد العربي. وهذا الاتحاد إنما يستمد قيامه من عمل شخصية رئيسية في التاريخ الفلسطيني، الحاج أمين الحسيني[١٤].

وهو الأخ الأصغر غير الشقيق لمفتي القدس[١٥]. وقد ولد في عام ١٨٩٥، ويندرج تعليمه ضمن استراتيجية تعليم مميَّزة لعائلات الأعيان: فقد تعلم العربية وتلقى تعليمًا إسلاميًّا بالمدرسة الدينية الإسلامية، وتعلم التركية بمدرسة الدولة، ثم تعلم الفرنسية على أيدي رجال الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية وفي مدرسة التحالف الإسرائيلي العالمي (وقد اعتبره ألبير عنتيبي ربيبه([١٦])). ثم أُرسل إلى القاهرة ليستكمل دروسه على يدي رشيد رضا. وقد حج إلى مكة، ومن هنا لقب الحاج الذي يحمله و، عشية الحرب، قام بالتدريس في مدرسة عربية بالقدس.

وفي عام ١٩١٤، ينخرط في الجيش العثماني كضابط ويقضي السنوات الأولى للحرب في الأناضول. وفي عام ١٩١٧، يستفيد من تصريح ويرجع إلى القدس، و، في عام ١٩١٨، يعد واحدًا من منظمي تجنيد متطوعين عرب فلسطينيين لحساب الأمير فيصل. وهو يشارك في عمليات شرق الأردن ويكون في دمشق عندما يشكل الأمير حكومته العربية. وهنا يجد الشاب من جديد عددًا معينًا من الناشطين الفلسطينيين الذين كان الأتراك قد قاموا بنفيهم أو الذين كانوا قد انضموا إلى التمرد العربي. وهم من بين أنشط المناضلين في سبيل القضية العربية. ومنذ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨، يحتج فلسطينيو دمشق علنًا على الصهيونية(١٧) مستخدمين حجة جديدة: فهم لا يفهمون لماذا لا يكون للعرب الحق، شأن الدول الغربية العظمى، "في اتخاذ تدابير تشريعية لتقييد الهجرات الأجنبية عندما تصبح خطرًا قوميًّا أو اقتصاديًّا". وقد جرى اتخاذ هذه المبادرة

دون الاضطرار إلى طلب تصريح بها من الحكومة العربية.

ومن دمشق، يوفد القوميون الحاج أمين إلى القدس لكي ينشئ الفرع المحلي للنادي العربي، ولكي يجعل منه في الواقع تجليًا للجمعية العربية الفتاة السرية. ونجد هنا مثقفين شبان من القدس ومجموعة بأكملها من الناس القادمين من نابلس التي كانت، منذ ما قبل عام ١٩١٤، الموطن الرئيسي للنزعة العربية في فلسطين. ويستند برنامجهم بالفعل إلى فكرة سوريا متحدة، وهم يشدّدون دومًا على واقع أن فلسطين ليست سوى سوريا الجنوبية[١٨].

وبالرغم من أن الناديين السياسيين مختلفان من حيث الأصل، فإنهما إنما يتعاونان، وذلك بسبب التشابه الواضح لبرنامجيهما (الوحدة مع سوريا) وقيامهما بالتجنيد في صفوف الجماعات الاجتماعية نفسها. وهما ينتشران بسرعة في المدن الرئيسية في فلسطين حيث تنشأ لهما فروع جديدة.

وعلاوة على علاقات القرابة، فإن جيل الأعيان السابق إنما يتقاسم العداوة نفسها للصهيونية. وكانت طلقة الإنذار التي وجهها إليهم ستورس قد أثنتهم في اللحظة المباشرة عن اتخاذ موقف مسرف في الولاء للأشراف، وهو ما لم يكن تضحية كبرى بالنسبة لخدمٍ سابقين للدولة العثمانية. وهم لا يريدون أيضًا اتخاذ موقف مناوئ للبريطانيين. فعلى أي حال، ألم يقم الإنجليز بإعادتهم إلى وظيفتهم الرئيسية المتمثلة في قيادة السكان؟

ووفق نموذج يافا، تزود القدس والمدن الفلسطينية الأخرى نفسها بجمعيات إسلامية ــ مسيحية. ويجيء المسلمون من الوسط التقليدي للأعيان الذين كانوا عثمانيين في السابق. وهم لا يريدون الدخول في مواجهة مع البريطانيين. والحال أن المسيحيين، بسبب أهميتهم السياسية وتقدمهم الثقافي، إنما يتمتعون بتمثيل زائد في هذه الجمعيات. ويميل عدد معين بينهم إلى فلسطين تشكل جزءًا من سوريا، وإن كان تحت حماية فرنسية. ولا يبدو أن باريس قد شجعت بشكل مباشر على اتخاذ موقف كهذا، بيد أن من الوارد أن بعض الممثلين الفرنسيين كالأب جوسّان، قد قاموا، في تحرك خاص من جانبهم، بتشجيعهم في هذا الاتجاه.

ويضم الناديان والجمعيات الإسلامية ــ المسيحية عدة مئات من الأعضاء.

وعندما نقارن هذه المؤشرات بالمعطيات المعروفة عن حجم الانتماء إلى الجمعيات عربية النزعة قبل عام ١٩١٤ (أقل من ٢٥ شخصًا)، فإننا ندرك أهمية القفزة العددية التي تحققت في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨.

وترجع هذه التعبئة بالدرجة الأولى إلى الخوف الذي تحركه الصهيونية، والذي يتجدد على نحو متواصل عبر تصريحات يهود فلسطين العديدة والتي يعتبرون أنفسهم فيها سادة للبلد. والمثال الناجز هو مسألة إيرلان. فإيرلان صهيوني يساري، ورفيق قديم لبرنار لازار. وقد ناضل لزمن طويل في سبيل القضية الأرمنية. وهذا المثقف ذو الدعاوى التقدمية ينشر بالفرنسية في يافا في أواخر نوفمبر/ تشرين الثاني بيانًا قصيرًا إلى العرب، **رسالة مفتوحة من صهيوني**[١٩]: فحيال تدهور العلاقات اليهودية ـ العربية، يرى أن من الضروري إفهام المثقفين العرب معنى الصهيونية الحقيقي.

وهو يرى أن الأمة العربية والأمة اليهودية شقيقتان لهما نسب سامي واحد. وقد كان العرب ضحايا للأتراك، الذين انحدروا بهم إلى البربرية البدائية، في حين أن "اليهود، الذين حررتهم الثورة الفرنسية، وامتزجوا امتزاجًا حميمًا بشعوب ذات حضارة راقية عاشوا بين صفوفها، قد كسبوا معارف وخبرة تعوز العرب. فقد أخذ اليهود عن الأميركيين الإجراءات التقانية وعقلية التنظيم وأخذوا عن الإنجليز النبوغ الإداري وأخذوا عن الروس المثالية المتحمسة وأخذوا عن الفرنسيين روح الابتكار. لذا تملك النخبة الصهيونية الموارد الضرورية لاستيطان واسع النطاق".

وبفضل روح المبادرة المتوافرة لدى اليهود، فإنهم سوف يثرون البلد، الأمر الذي سيعود بالفائدة على العرب. والملاك العقاريون وحدهم والذين يستغلون الفلاحين هم الذين يعارضون مثل هذا التقدم. وواجب "كل ديموقراطي عربي هو أن يساعدنا في هذه المهمة". وعلى أي حال، فإن الحرب قد خلقت علاقة جديدة للقوى بتأكيدها حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها:

ولن يكون بوسع أي شعب أن يعارض ذلك أو أن يتهرب منه. ثم، أيمكن منازعة اليهود في حقهم التاريخي في فلسطين التي اقتلعوا منها، قبل ألفي سنة، بالسيف الروماني وحيث لم يكفوا عن الأمل في العودة إليها؟ إن الحقوق التاريخية لا تسقط بالتقادم. وكل

يهودي ليس بوسعه أو لا يريد أن يذوب في الشعوب التي يحيا بين صفوفها، في بلدان المنفى، إنما يملك حق المواطنة في "المقام القومي" اليهودي في فلسطين. وبالمثل، فإن كل عربي، فلسطيني أو غير فلسطيني، إنما يملك حقوقًا لا تسقط بالتقادم في بلاد العرب الواسعة. وهي إمبراطورية أوسع بكثير جدًّا من فلسطين الصغيرة. ويا لها من حقارة من جانب العرب أن يساوموا الإسرائيليين على حقهم في فلسطين! ثم إننا لن نكل من تكرار أن العرب ستكون لهم حقوق اليهود نفسها في فلسطين. ومن ثم، فما جدوى هذه الدسائس المراوغة وهذه التهجمات المرائية؟

والمقاومة مستحيلة، لأن الحرب قد شهدت انتصار الديموقراطية في العالم ولأن الديموقراطية واليهودية شيء واحد:

لكنكم لا يجب أن تفكروا في التصدي لنا بالخديعة أو بالعنف في قيامنا بتحقيق مهمتنا. لأننا إذا كنا لا نبالغ في تقدير قوة اليهودية العالمية فإننا نقدر هذه القوة حق قدرها، وهو قدر ملحوظ. فاليهودية في صعود في جميع بلدان العالم. وبالأمس كانت اليهودية ما تزال مضطهدة في كثير من الدول. وقد وقفت في وجهها قوى الأوتوقراطية والرجعية. وبما أن اليهودية قد حاربت هذه القوى بشجاعة وأسهمت في دك حصونها [كذا]، فإن لها حصتها في النصر. واليهود الذين كانوا بالأمس منبوذين قد صعدوا إلى أوج القوة. والروح اليهودية والأخلاق اليهودية تميلان، بشكل حاسم، إلى الهيمنة في العالم. وأنتم يا من تنتمون إلى جنسنا، أنتم يا من تستلهمون الأخلاق اليهودية، هل ستواتيكم الشجاعة المؤسفة، معتمدين على أناس وعلى أفكار عصر آخر، لكي تقاوموا مطالبنا في الإنصاف والحرية؟

ثم إنكم لن تصطدموا بنا وحدنا. فسوف تجدون في مواجهتكم الحلفاء الظافرين. وفي شعور بوجوب رفع الظلم وبوجوب الإنصاف، وَعَدَنا الحلفاء بتكوين مقام قومي يهودي في فلسطين. ونحن نثق بكلمة الشعوب الأعظم في العالم.

ومن ثم يتوجب على العرب الاختيار بين طريق التعاون السلمي أو طريق "مقاومة بلا أمل، وغير عادلة، وشائنة، ضد الحلفاء وضدنا".

ويستثير بيان إيرلان سخطًا عامًّا في الأوساط العربية. وتحتج جمعية القدس

الإسلامية ـ المسيحية لدى حاكم يافا العسكري: فهي ترفض تهمة البربرية والجهل، وتطالب للعرب بتطبيق حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها، وتنكر أي حق تاريخي لليهود في أراضيهم:

. بالنسبة للعالم بأسره، يستند أساس المبادئ إلى فكرة الحق ونحن لسنا من أولئك الذين يقبلون فكرة أزلوية القوة على الحق. وكل ما يدعيه اليهود، عن نفوذهم الهائل وقوتهم في العالم، لا يربكنا حيال هذه المبادئ الجديدة والعظيمة؛ بيد أن زعمهم بأن التربية والروح اليهودية تهيمنان على العالم برمته إنما يُشَكِّلُ برهانًا على احتقارهم لبقية سكان العالم. ونحن ننفي عن أنفسنا بقوةٍ الدسائس التي تُعزى إلينا.

ويستطرد النص مطالبًا بتوضيح فيما يتعلق بنوايا الحلفاء.

ويجري تحرير تفنيد بالعربية لرسالة إبرلان. وتقوم الشرطة البريطانية في ٦ ديسمبر/ كانون الأول بتفتيش في مقر الجمعية لكي تصادر التفنيد، الذي كان قد طُبع دون تصريح في مطبعة الفرنسيسكان.

ويرصد جوسَّان هياج الخواطر التي لا تفهم لماذا صرَّحت الرقابة بنشر نص إبرلان وحظرت نشر تفنيده:

قال أحد الشيوخ: لقد جرى اعتبارنا متوحشين، جرى اعتبارنا لصوصًا لأننا نحتل أرضًا تخصهم؛ ومن ثم فقد جرى احتقارنا من جانب اليهود، وقد حدث هذا علنًا: ومن ثم فإن لنا الحق في الدفاع عن أنفسنا. والحال أن الحكومة المحلية تحظر علينا نشر ردنا. ومن الواضح أن الإنجليز يريدون محاباة اليهود على حساب عرب فلسطين المسلمين والمسيحيين. ويجب أن نبحث الآن عن وسيلة لإطلاع الأهالي على مشاعرنا، أكان في يافا أم في الخليل أم في نابلس؛ وإذا ما تطلب الأمر، فسوف نذهب إلى دمشق.

وفي فبراير/ شباط ١٩١٩، يتم توزيع تفنيد ثان في الأوساط العربية(٢٠).

لويد چورچ وكليمنصو

أثناء هدنة مودروس، يشعر البريطانيون بأنهم سادة الشرق الأدنى برمته. بيد أن الفرنسيين ينزلون، في ٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٨، في بيروت

ويتخذون موقعًا لهم في جبل لبنان[٢١]. ويحاول أللنبي الحد من آثار هذا العمل مستخدمًا صلاحياته كقائد عام، ولكن دون جدوى[٢٢]. والحال أن الفرنسيين باستيلائهم على الميناء الأكبر في المنطقة إنما يتخلصون بضربة واحدة من السيطرة المحكمة التي يمارسها البريطانيون على نشاطاتهم باسم الضرورات اللوچستية. ويستخلص أللنبي الاستنتاجات مما حدث فيقوم بتقسيم المشرق إلى عدة مناطق محتلة من أراضي العدو:

ـ أراضي العدو المحتلة (أو إيتا) ـ الجنوب: سناجق القدس وعكا ونابلس، أي فلسطين بالمعنى العام للمصطلح.

ـ أراضي العدو المحتلة (أو إيتا) ـ الشمال: المنطقة التي يسيطر عليها الفرنسيون، أي جبل لبنان والساحل من عكا إلى الإسكندرون. وعندما يحتل الفرنسيون قيليقيا، فإن المنطقة القيليقية هي التي ستأخذ اسم أو إيتا ـ الشمال، في حين أن الساحل وجبل لبنان سوف يصبحان أو إيتا ـ الغرب.

ـ أراضي العدو المحتلة (أو إيتا) ـ الشرق: والتي يسيطر عليها الأشراف، أي شرق الأردن وسوريا الداخلية. وللبريطانيين هناك قوات مرابطة.

وكالعادة، فنحن بإزاء نظام مؤقت لا يهدد، من الناحية النظرية، المستقبل، الذي يجب تقريره من جانب مؤتمر الصلح القادم. أمّا من الناحية الفعلية، فإن هذا التقسيم الوظيفي سوف يميز إلى اليوم حدود دول الشرق الأدنى.

ويرى الفرنسيون، الذين لا يتخلفون عن إبلاغ البريطانيين برؤيتهم، أن فلسطين معنية بالتصريح الفرنسي ـ البريطاني[٢٣]:

إن النظام الذي سيجري إخضاع فلسطين له، بموجب اتفاقاتنا، يجب أن يقام بعد التفاهم فيما بين الحلفاء. وتصريحكم من جهة أخرى لا يتحدث عن إعطاء الدول أو الحكومات الناشئة على الأراضي المحرَّرة من النير العثماني سيادة أو استقلالاً سياسيًّا مطلقين. ومن ثم فليس هناك ما يمنع احتمال طموح سكان فلسطين إلى حكم ذاتي تحت المراقبة. بل إنني سوف أذهب إلى ما هو أبعد من هذا، إن وعدًا من هذا النوع كان قد جرى تقديمه ضمنيًّا إلى الصهيونيين عندما وافقت فرنسا وبريطانيا العظمى على تكوين مقام أو مركز يهودي في فلسطين. وهذا الحكم الذاتي الممنوح لليهود لا يمكن حرمان عرب البلد منه ولا يمكن حرمان الطوائف المسيحية منه. ومن ثم فإن صيغة "في الأراضي

المحرَّرة من النير التركي" إنما تنطبق على فلسطين كما على الأجزاء الأخرى من الدولة العثمانية التي من المهم تجنيب سكانها غير الأتراك التجاوزات والإجراءات التعسفية.

وكان لورانس والصهيونيون قد أعدوا بعناية لأرسال الأمير فيصل إلى أوروبا، كممثل للحجاز وللعرب المحرَّرين، دون أن يخطروا الفرنسيين بذلك، الأمر الذي يثير غضبهم[٢٤]. وهم يطالبون بـ"تفسير صريح" لأجل تبديد سوء التفاهم هذا. وفي كل بلد من البلدين، تعد الهيئات الدبلوماسية ملفاتها استعدادًا للمواجهة الشاملة.

وسوف يؤدي حدث مفاجئ إلى إرباك الآلة الدبلوماسية التي جرى تحريكها على ضفتي المانش. ففي الأول من ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨، يزور كليمنصو لندن ويتحادث بشكل مباشر مع لويد جورج. ولن يكون هناك أي محضر رسمي لهذا اللقاء، والشهادة الوحيدة المتوافرة عنه غير مباشرة. وهي شهادة يوميات هانكي، سكرتير وزارة الحرب البريطانية[٢٥]:

السبت [الأول من ديسمبر/ كانون الأول]، كان عليَّ الذهاب إلى المدينة (لا راحة هناك) والتوجه إلى محطة السكك الحديدية لاستقبال مدعوينا. وقد مر كل شيء على ما يرام وحظوا باستقبال عظيم. وبعد ذلك رأيت لويد جورج في ١٠ داوننج ستريت. وقد قال إن كليمنصو قد تأثر كثيرًا بما لقيه من ترحيب طيب. فانتهز لويد جورج الفرصة لكي يطلب منه أولاً الموصل ثم القدس في شروط الصلح. والحال أن كليمنصو، الذي كان مرنا، قد وافق على ذلك وإن كان قد قال: "لكن بيشون سوف يخلق مصاعب فيما يتعلق بالموصل".

وهو يعاود القول في يومياته في ١١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠:

كان كليمنصو وفوش قد اجتازا [البحر] بعد الهدنة وقد جرى استقبالهما استقبالاً عسكريًا وعامًا عظيمًا. ثم ذهب لويد جورج وكليمنصو إلى سفارة فرنسا. [...]. وعندما كانا بمفردهما [...] قال كليمنصو: "حسنًا، عن أي شيء يجب أن نتحدث؟". فأجاب لويد جورج: "عن بلاد الرافدين وفلسطين". فتساءل كليمنصو: "قل لي ما الذي تريدون". فقال لويد جورج: "أريد الموصل". فقال كليمنصو: "ستكون لكم، أليس هناك

شيء آخر؟". فاستطرد لويد جورج: "بلى، أريد أيضًا القدس". فقال كليمنصو: "ستكون لكم. لكن بيشون سيخلق مصاعب فيما يتعلق بالموصل". ولا يوجد البتة أي أثر مكتوب أو مذكرة تم تحريرها في التوِّ والحال وأنا أعتقد أن يومياتي بتاريخ ٤ ديسمبر/ كانون الأول تتضمن الأثر المكتوب الوحيد [...] وهو أثر غير مباشر، لأنه صادر عن لويد جورج، لأنني لم أكن حاضرًا. على أن كليمنصو، الذي كان دومًا عديم المرونة، لم يرجع قط عن كلمته، وذلك بالرغم من ضغوط عظيمة من جانب زملائه ومن جانب كل ضروب الأطراف المعنية، وأنا في موقع يجيز لي القول بأن لويد جورج لم يدع له البتة فرصة لذلك. وهكذا يجري صنع التاريخ.

وهذا المشهد، الذي سيكون أثره شديدًا على مستقبل الشرق الأدنى، إنما يستحق تفسيرات إضافية: فكليمنصو، بحكم مزاجه وبحكم مسيرته السياسية، كان معاديًا دومًا لتوسع فرنسا الاستعماري، دون أن يرفض من جهة أخرى شكل حضور نشيط ذي طابع ثقافي. لكن أغلبيته البرلمانية تضم كل الحزب الاستعماري، ومن الصعب عليه ألاّ يتزحزح حيال بعض مطالب هذا الحزب. ومنذ صعوده إلى السلطة أدرك كل الإدراك أن مسألة المشرق تكدّر العلاقات الفرنسية ــ البريطانية، في الوقت الذي سوف يتقرر فيه مصير أوروبا في مؤتمر الصلح. وهدفه الأكيد، في الأول من ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨، هو التوصل إلى اتفاق مبدئي يسمح بتجنب تأثير التعقيدات الشرقية على ما هو أكثر جوهرية، أي طبيعة معاهدة الصلح مع ألمانيا. كما يتوجب عليه مراعاة ثقل الويلسونية والتوصل إلى تفاهم فرنسي ــ بريطاني قبل وصول الرئيس ويلسون، الأمر الذي سيسمح له بمركز قوة خلال مناقشة الشئون الأوروبية.

وبوسع مجمل هذه التفسيرات أن يقدم رؤية مرضية للحدث. لكننا نرصد أيضًا نشوء عوامل جديدة، أهمها هو تغير طبيعة المصالح الفرنسية في الشرق الأدنى. فإلى الحرب العالمية الأولى، كانت هذه المصالح من نوعين أساسًا. الأول، وهو المصالح "الأدبية"، كان يتألف من ذلك المزيج من السياسة الثقافية المستند إلى الفرانكوفونية ومن الحمايات الدينية للكاثوليك ــ وبشكل إضافي، الحماية الدينية لليهود، من خلال التحالف الإسرائيلي العالمي. أمّا الثاني، فمن

الواضح أنه اقتصادي تمثله هنا أهمية الاستثمارات الفرنسية في المواصلات (الموانئ، السكك الحديدية...) والصناعات المنجمية والتمويلات (الدَين العثماني). وهذه المعطيات الاقتصادية، بالرغم من أنها تشكل جزءًا مهمًّا من الاستثمارات الفرنسية في الخارج، لا يمكن اعتبارها حيوية.

وسيكون الأمر مختلفًا فيم يتعلق بعامل جديد، هو البترول. فخلال الحرب العالمية الأولى يدرك القادة الفرنسيون أن البترول لا غنى عنه لخوض الحرب. ونحن نعرف الأهمية التي لعبها إمداد ڤردان [بالبترول] عن طريق أسطول من الشاحنات خلال المعركة الكبرى. وعندما يصعد كليمنصو إلى السلطة، في العام التالي، فإنه إنما يواجَه على الفور بأزمة جسيمة فيما يتعلق بالإمدادات البترولية: فنحو ١٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧، يجري إبلاغه بأن الطائرات والشاحنات والجرارات تجازف بأن تجد نفسها في حاجة ماسَّة إلى الوقود وذلك بسبب رفض الشركات البترولية الكبرى الأميركية (ستاندارد أويل) والأنجلو ــ هولندية (شل) تقديم الكميات المطلوبة نظرًا إلى عدم توافر سفن شحن بحري تملك القدرة على أداء هذه المهمة. وعندئذ يتعين على الرئيس الجديد للمجلس أن يناشد الرئيس ويلسون التدخل لدى الشركات. والحال أن تارديو، المندوب السامي في نيويورك، إنما يتولى إجراء المفاوضات. وبفضل هذا التدخل، يتم التغلب على جمود الوضع وينشئ الحلفاء جهازًا لاقتسام الموارد. وخلال مجمل عام ١٩١٨، كانت معركة فرنسا قد تميزت بتنقلات مستمرة لوحدات كبرى من الشاحنات من إحدى نقاط الجبهة إلى نقطة أخرى. وهكذا فإن "الحلفاء قد وصلوا إلى النصر محمولين على أمواج من البترول"[٢٦].

ولم يقدم كليمنصو تفسيرًا لاجتماعه في الأول من ديسمبر/ كانون الأول [مع لويد چورچ]، بيد أن مساعده الوفي، أندريه تارديو، قام به بالنيابة عنه، خلال المناقشة البرلمانية الكبرى في عام ١٩٢٠ حول سياسة فرنسا في الشرق، في بدايات وزارة ميللران التي خلفت وزارة كليمنصو[٢٧]. وعلاوة على اعتراض الاشتراكيين (مارسيل كاشان) وفريق من الراديكاليين (دالادييه، في بداية مسيرته السياسية)، فإن عمل كليمنصو إنما يتعرض لنقد قوي من جانب بريان الذي يشيد بمآثر اتفاق سايكس ــ بيكو الذي كان قد جرى عقده خلال

عهد حكومته. وهو يرى أن فرنسا قد حصلت بذلك على منفذ إلى بترول المنطقة: "أتراني بحاجة إلى شرح هذه الكلمة [بترول] لكي تفهموا ما تتضمنه من وعود بالنسبة للبلد الذي يكون محرومًا منه؟". وهو يتّهم كليمنصو بتخريب عمله بتخليه عن فلسطين وولاية الموصل.

ويرد عليه تارديو مقدِّمًا نفسه على أنه "الشارح الأمين لسياسة الرجل الذي عملت معه بحرارة"؛ صحيح أن اتفاق عام ١٩١٦ قد منح الموصل لفرنسا، لكنه لم يمنحها بتروله:

> في تلك اللحظة، وصل السيد كليمنصو إلى لندن، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨. فهل أنتم على ثقة بأنكم إذ تقصرون دور السيد كليمنصو في لندن، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨، هذا الصباح، على دور المنفذ الشريف لصفقة محدودة، كان يجب أن تقتصر على تطبيق الاتفاق الذي ارتأيتموه ووقعتم عليه، هل أنتم على ثقة أيها السيد بريان بأنكم لا تضيقون بشكل تعسفي من المهمة التي كانت مفروضة آنذاك على السيد كليمنصو وبأنكم لا تعطون مجلس النواب انطباعًا غير دقيق عما كان يتوجب أن تكون عليه وعما كانت عليه هذه المهمة.
>
> ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨، كان الرئيس ويلسون قد وصل للتوِّ. وكان السيد لويد جورج سيذهب ليستقل المركب. وما حدث هو محادثة عامة عشية النقاش. وكان المقصود، بالدرجة الأولى، هو التوصل إلى اتفاق مع إنجلترا حول بعض النقاط الرئيسية. فقد كان يتوجب الحصول منها على ما لا تريد تقديمه بأي ثمن: احتلال الضفة اليسرى لنهر الراين. وكان يتوجب الحصول على الفحم من السَّار وأشياء أخرى كثيرة أيضًا. تلكم هي الظروف التي ذهب فيها السيد كليمنصو إلى لندن (**تصفيق**).

ويشدد تارديو على ضرورة التوصل إلى تفاهم مع البريطانيين الذين كانت قواتهم تحتفظ بسوريا كلها. وكان لابد من تقديم تضحيات. لكن فرنسا حصلت، في المقابل، على حصتها من بترول الرافدين.

وهكذا، بحسب تارديو، لم يكن الاتفاق الشفاهي الذي تم في الأول من ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨ غير عنصر واحد بين عناصر الاستراتيجية الاقتصادية الكبرى للحكومات الفرنسية بعد الحرب فيما يتصل بتوفير الإمدادات

من الطاقة والحديد. وهذا المقابل يفسر هجر المطالب الفرنسية في فلسطين و، على مدى أطول، هجر حماية فرنسا للكاثوليك. وكانت هذه التخليات سهلة لاسيما أن المسئولين الفرنسيين كانوا مدركين لضعف مواقعهم في الساحة.

تبقى معرفة ما إذا كنا هنا بإزاء عقلنة بَعْدِيَّة للوقائع أو ما إذا كنا بإزاء حقيقة دوافع رئيس المجلس. والحال أن تارديو، في كتابه الذي يدافع فيه عن معاهدة ڤرساي، والمنشور في عام ١٩٢١، إنما يشدِّد على واقع أن السياسة البترولية كانت قد تقررت قبل انتهاء المعارك. وكانت قد أُبلغت لشركاء فرنسا في ٢ نوڤمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨: إن فرنسا لا يمكنها قبول الاعتماد على حلفائها، وهي تريد التوصل مع الصلح إلى استقلالها البترولي. ومن ثم فهي تطالب بمشاركة على قدم المساواة مع بريطانيا العظمى في جميع موارد البترول المتاحة: غاليسيا، رومانيا، بلاد الرافدين. ويتمثل النجاح العظيم لحكومة كليمنصو في أنها قد حصلت على منفذ إلى بترولٍ بلاد الرافدين الذي لم يكن اتفاق سايكس ــ بيكو قد كفله لها(٢٨). وهو يذكرُ، في مكان آخر، بأنه قد عاد من نيويورك في ٢٠ نوڤمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨ ويشدِّد على أهمية محادثات لندن السرية في ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨[٢٩].

وما هو مؤكد هو أن السياسة الفرنسية سوف تتشبث، في الشهور التالية، تشبثًا قويًّا بمواقفها فيما يتعلق بسوريا الصغيرة وفيما يتعلق بمسألة البترول، موضحة بذلك أن الاتفاق الشفاهي لا يمكن تهديده.

تحديد السياسة البريطانية

صلح ڤرساي صلح بريطاني من حيث الجوهر. ويكفي رصد الدقة التي أعد بها الخبراء الإنجليز المؤتمر وحددوا بها مصالح بلدهم، ومقارنة الأهداف المحدَّدة بالنتائج المتحققة، لكي ندرك ذلك[٣٠]. وفيما يتعلق بالشرق الأدنى والأوسط، فإن لجنة دولية، هي اللجنة الشرقية، برئاسة اللورد كيرزون الذي لا يكلُّ، هي التي تتولى تحضير الأعمال. والحال أن كيرزون، الذي كان قد قام كثيرًا برحلات في هذه البلدان وعكف لوقت طويل على دراسة الملفات المتصلة بها، إنما يتفاخر بأنه خبير ويشكو من هواياتية بلفور الخطيرة. وهكذا فقد كان

لوقت طويل معارضًا للسياسة المؤيدة للصهيونيين ـ وهو يـرى أن تـصريح بلفور ليس غير نزوة شاذة طرأت على صديقه الذي ترجع صداقته معـه إلـى ثلاثين سنة خلت. وهو لا يفهم عمق تعلق بلفور بتحقيق هذه الـسياسة والـذي يتعارض مع الهواياتية التي ينشغل بها رجل الدولة عادة بالأمور[٣١]. والحال أن كيرزون، بالرغم من درايته الفعلية بالموضوعات التي يعالجها، إنما يوهم نفسه، بالمقابل، فيما يتعلق بواقع القوة البريطانية لدى الخروج من الحـرب ويرتـأي توسعًا جديدًا وواسعًا للإمبراطورية البريطانية، ليس من شأنه، في نظره، إلاّ أن يسهم في سعادة الشعوب التي جرى فتح بلدانها حديثًا.

وكانت اللجنة الشرقية قد بدأت عقد اجتماعاتها قبل اللقاء بين لويد جـورج وكليمنصو، ويبدو أن أعضاءها لم يجر إطلاعهم على ما دار في هـذا اللقـاء. ويسعى كيرزون إلى الاستفادة من الوضع لكي يلغي بالكامل مـضمون اتفـاق سايكس ـ بيكو، معتمدًا على مجموعة المستعربين. ففي ٢٩ أكتوبر/ تـشرين الأول، تستمع اللجنة إلى آراء ت. إ. لورانس حول السياسة العربية[٣٢]. والحال أن الكولونيل الشهير، متخذًا مظهر صانع الملوك، إنما يقدم أسماء الأبناء الثلاثة الأصغر للشريف حسين (حيث من المقرر أن يصبح علي، الابن الأكبر، خلفًـا لوالده في الحجاز) ويقترح منح سوريا لفيصل ومنح ولاية الموصل لزيد ومنح بلاد الرافدين لعبد الله؛ ومن حق فيصل أن يرفض المستشارين الفرنسيين الذين يريد بيكو فرضهم عليه. وهو يسعى، ضمن هذا المنظور، إلى الحصول علـى الدعم من جانب الصهيونيين البريطانيين والأميركيين. وهو يعتقد أنه لن تكون هناك أي صعوبة في التوفيق بين العرب والصهيونيين ما أن تبقى إدارة فلسطين في أيدٍ بريطانية.

وفي ٥ ديسمبر/ كانون الأول، يهاجم كيرزون بقوة اتفاق سايكس ـ بيكو، المصدر الدائم لصدامات مع الفرنسيين والعرب. وهو يرى أنه سيكون بالإمكان قصر الوجود الفرنسي على لبنان. بيد أن حدوده مع "فلسطين الحقيقية" لا يمكن أن تكون سوى نهر الليطاني. ويبقى أن الفرنسيين الموجودين في لبنان سـوف يكونون جيرانًا سيئين بالنسبة للبريطانيين كما بالنسبة للعرب على حدٍ سـواء. ويمكن تصور أن الرئيس ويلسون سوف يشدِّد على حق الشعوب فـي تقريـر

مصيرها بنفسها، والذي يتعارض تماماً مع مضمون اتفاق سايكس – بيكو. إلاّ أنه يبقى مع ذلك أن الفرنسيين إنما يمثلون قوة أعظم بكثير من العرب، وأنه في حالة نشوب مواجهة سوف يتوجب الرضوخ.

وفي المفاوضات القادمة، فإن الحجة النهائية سوف تكون حق تقرير المصير، أي حرية اختيار السكان في المطالبة بالحماية البريطانية. والحال أن فلسطين كانت قد أدرجت بالفعل في الوعود التي جرى تقديمها لحسين في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٥. واتفاق سايكس – بيكو يضعها تحت إدارة دولية. لكن كيرزون يراعي الواقع الرئيسي: إن فلسطين قد جرى فتحها وجرت إدارتها من جانب البريطانيين. وهو يبدي ريبته حيال الصهيونيين، الذين يتحدثون الآن عن دولة يهودية والذين أثاروا توترات مع السكان المحليين. وهو يرى أن حدود فلسطين لها مسار "غير علمي". ولابد من نقل هذه الحدود إلى نهر الليطاني وإلى الشمال من خط سايكس – بيكو. وبالمقابل، لابد من مقاومة الأطماع الصهيونية في شرق الأردن. ومن غير الوارد قيام إدارة دولية، فجميع الأمثلة إنما تشير إلى أن هذا النوع من المؤسسات لا يحسن العمل. ويتمثل الحل الأفضل في منح الوصاية على هذه المنطقة لدولة عظمى. والسكان لن يريدوا فرنسا. وقد فكر كيرزون نفسه للحظة في الولايات المتحدة، بيد أنه يرى الآن أن وجود الأميركيين في فلسطين سوف يشكل مصدر إزعاج دائم للبريطانيين في مصر. وفلسطين تعتمد اقتصادياً على بيئتها الإقليمية، و، خصوصاً، على مصر. وهي ضرورية للدفاع عن هذا البلد الأخير:

> الاعتبار الأخير هو التالي: بحسب جميع الشواهد المتوافرة لدينا إلى الآن، فإن عرب وصهيونيي فلسطين يطلبوننا: والبرهان الحاسم هو أن أحدث البرقيات التي وصلت إلينا تضم برقيتين؛ وفي البرقية الأولى، يقترح الصهيونيون على الجنرال كلايتون أن تتولى بريطانيا العظمى وصاية دائمة على فلسطين إلى أن يقرر اليهود والعرب شيئاً آخر بأغلبيات مشروعة. والحال أن الجنرال كلايتون، في برقيته المؤرَّخة في ٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني، قد اقترح نموذج تصريح: "من المأمول فيه أن يصدر قريباً تصريح يؤكد أن الوصاية على فلسطين سوف تستمر إلى أن يقبل يهود وعرب فلسطين بشكل متبادل ضرورة انتهائها. وسوف يتطلب الاتفاق وجود أغلبية لدى اليهود كما لدى العرب على حدٍّ

سواء تؤيد حكمًا ذاتيًا كاملاً، وسوف تستمر الوصاية إذا ما رفض أحد الطرفين هذا الاتفاق". والجنرال أللنبي يوافق على القول بأن هذا التصريح سيكون له أثره الطيب، ما أن يصدر عن دول الوفاق العظمى. ومن الواضح أن من غير الممكن أن يصدر مثل هذا التصريح من جانبنا. وقد يصدر فيما بعد من المؤتمر. وما أشدِّدُ عليه أمام اللجنة هو أننا، عندما نذهب إلى المؤتمر، سنكون، من جانبنا، قد أسقطنا فكرة إدارة دولية قادمة لفلسطين، وأن علينا أن نجد أفضل الحلول الممكنة فيما يتعلق بالحدود، وأخيرًا، أنه إذا ما أصبح ذلك مشكلة بين أميركا وبيننا، فيجب أن نكون مقتنعين في أعماقنا بأن الشيء الأفضل لمصالح الناس من الطرفين هو أن نكون نحن، وليس أميركا، الدولة [المختارة]؛ ويجب أن ندعم بأقصى قوة ممكنة الحجة التي عرضتها عليكم: فباسم مبدأ تقرير المصير لابد للصهيونيين كما للعرب أن يكون بوسعهم التعبير عن أنفسهم.

وينزعج اللورد روبرت سيسيل من حجج كيرزون؛ فإذا كانت هناك حاجة إلى فلسطين للدفاع عن مصر، فسوف تكون هناك حاجة إلى سوريا للدفاع عن فلسطين... وهو يبدو ميَّالاً إلى قبول الوصاية الأميركية، ومن هنا تعزز العناصر المؤيدة للصهيونيين:

الجنرال ويلسون: إذا كنا نعتقد حقًا أننا الأفضل هناك، فإنني أرى عندئذ أنه يتوجب أن نكون هناك.

اللورد روبرت سيسيل: إذا ما تواجدنا هناك فإننا إنما نجازف بألاَّ نستمد من وجودنا كسبًا عظيمًا.

الجنرال ويلسون: كلاَّ.

اللورد روبرت سيسيل: لأننا سوف يتعين علينا مجرد حفظ السلام بين العرب واليهود. ولن نكون هناك لكي نحصل على شيء ما. وأيًا كان من الذي سيتواجد هناك فإنه سوف يمر بلحظة عصيبة.

الجنرال سمتس: هذا سيؤثر على الرأي العام اليهودي واليهود، من حيث كونهم أمة، شعب عظيم.

اللورد روبرت سيسيل: من المؤكد أنهم سوف يتشاجرون مع الدول العظمى الحامية.

الجنرال ويلسون: إذا ما جرت مراعاة جانبهم بالشكل اللائق، فلا أعتقد أن ذلك سوف يحدث.

الجنرال ماكدونوغ: أرى أن الشيء الأهم الذي تجب مراعاته فيما يتعلق بفلسطين ليس علاقتها الطوبوغرافية بسوريا أو ما عداها، وإنما مستقبلها، كما قال ذلك السيد بلفور، من حيث كونها مقامًا للشعب اليهودي، ومن هنا الأهمية التي يوليها لها كل يهود العالم. وأنا أقابل عددًا كبيرًا من الصهيونيين. وقد أفهمني أحدهم قبل البارحة أنه إذا لم يحصل الشعب اليهودي على ما يطلبه في فلسطين، فسوف نشهد انتقال جميع اليهود إلى صف البلاشفة ودعمهم للبولشفية في جميع البلدان الأخرى، مثلما فعلوا في روسيا.

اللورد روبرت سيسيل: أجل، بوسعي أن أتصور قيام آل روتشايلد بقيادة جماهير [يهودية] بولشفية.

اللورد كيرزون: جنرال ماكدونوغ، هل أنت موافق على الخط العام للحجج التي عرضتُها؟

الجنرال ماكدونوغ: بالتأكيد.

وفي أواخر عام ١٩١٨، يصبح الموقف البريطاني واضحًا: إن بريطانيا العظمى سوف تطالب بالوصاية على المناطق التي تديرها بالفعل، لصالح سكان هذه المناطق، كما هو واضح. وفيما يتعلق بالقطاعات الأخرى، بالإمكان الثقة بواقع أن العرب، بحكم عداوتهم للفرنسيين، سوف يطالبون بالحماية البريطانية، وأن لندن، نتيجة لذلك، سيكون بوسعها التذرع بحق تقرير المصير. إلاّ انه إذا أبدت فرنسا مقاومة نشيطة، فسوف يجري التوقف عندئذ عن دعم المطلب العربي.

إن اتفاق لويد جورج ــ كليمنصو قد أبقى بالفعل على اتفاق سايكس ــ بيكو مع إعادة تعريف حدوده، بيد أن إغراء المضي إلى ما هو أبعد إغراء لا يقاوم بالنسبة للدبلوماسية البريطانية. كما يتوجب التمكن من اللعب بورقة التفاهم بين الأشراف والصهيونيين، بهدف حصولها كذلك على الدعم من جانب الأميركيين. ويتوقف كل شيء على مسلك فيصل خلال تواجده في أوروبا.

وتظل القوة الخفية المنسوبة إلى اليهود عاملاً في تحديد التحرك البريطاني.

ففي أواخر ديسمبر/ كانون الأول[٣٣]، يصرح بلفور للكولونيل هاوس، مبعوث الرئيس ويلسون، بأن البولشفية كلها تقريبًا والانحرافات الأخرى كلها تقريبًا من النوع نفسه يمكن أن تعزى بشكل مباشر إلى يهود العالم. ويبدو أنهم عازمون على الفوز بما يريدون، وإلاّ فإنهم سوف يطيحون بالحضارة القائمة. ويقترح هاوس تحميل يهود فلسطين المسئولية عن نظام العالم ومعاقبتهم في حالة حدوث فوضى في العالم. ويوافقه بلفور على ذلك.

فيصل في لندن

إقامة الأمير فيصل في لندن واحدة من أكثر حوادث تاريخ مسألة فلسطين إثارة للجدل. والحال أن الابن الثالث للشريف حسين لا يزيد عمره عن ثلاثة وثلاثين عامًا (ولد في عام ١٨٨٥) عندما يبحر إلى أوروبا بدعوة من البريطانيين، العازمين على أن يجعلوا منه ممثل العرب. ولم يكن قد جرى إبلاغ الفرنسيين بذلك، وهم يستقبلونه بمزاج سيء لدى نزوله إلى مارسيليا ويرفضون أي تفاوض معه ويكتفون بسلسلة من الاستقبالات البروتوكولية. وهو يترك وفده الصغير من المستشارين في فرنسا ويذهب إلى لندن بمفرده، فيصل إليها في ١٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨. وهو يعتمد عندئذ اعتمادًا تامًّا على ت. إ. لورانس، الذي يجعل من نفسه مقدمه ومترجمه لدى الشخصيات البريطانية. وهو لا يتحدث بالإنجليزية، في حين أنه، كعثماني جيد، يعرف التحدث بالفرنسية. وهو يتمسك باستخدام العربية، بينما يقوم لورانس بترجمة — و، في نهاية المطاف، بتحويل — كلامه.

وفي ١١ ديسمبر/ كانون الأول، يلتقي بلفور. وبحسب الرواية التي قدمها في اليوم نفسه وزيرُ الخارجية انطلاقًا من ترجمة لورانس[٣٤]، فهو يدعي أنه معاد للفرنسيين بعنف ومؤيد للبريطانيين تمامًا: فالعرب لا يريدون غير قوة حامية وحيدة، أكان ذلك في بلاد الرافدين أم في سوريا، وهذا القوة لا يمكن أن تكون سوى بريطانيا العظمى؛ ومن شأن حكم قوة أجنبية أن يكون غير محتمل ومن شأن العرب أن يؤثروا حكومة المسلمين السيئة على الحكم الصالح من جانب دولة مسيحية.

والحال أن نشر سليمان موسى لمراسلات الهاشميين إنما يقدم معلومات إضافية. ففي رسالة [من فيصل] إلى أخيه زيد بتاريخ ١٢ ديسمبر/ كانون الأول، لا يتردد في الحديث عن حرب سياسية مع فرنسا ويرى أن كل شيء إنما يتوقف على الرئيس ويلسون(٣٥). وبالمقابل، في رسالة إلى أبيه في اليوم نفسه(٣٦)، يتحدث بمراعاة أكبر بكثير لجانب فرنسا. وقد أوضح له لورانس أنه قد حل محل سايكس، المسئول عن اتفاق عام ١٩١٦، وأن بريطانيا العظمى تدعمه، لكنها لن تعلن الحرب على فرنسا لأجل تحديد مصير سوريا، ومن هنا ضرورة التوجه بنداء العون إلى الرئيس ويلسون. وقد أكد له بلفور التعهدات التي جرى تقديمها بالفعل والتي تقرر أن الأراضي التي يحررها العرب سوف يحكمها العرب. وقد فهم من محادثاته مع لورانس وبلفور أن البريطانيين سيتركون العرب يحكمون أنفسهم بمفردهم على أساس ممالك ثلاث تمنح لعبد الله وزيد وفيصل. والدعم البريطاني لا غنى عنه، بيد أن ذلك الدعم لن يأخذ شكل حماية أو تحويل لهذه الممالك إلى محميات.

والحال أن فيصل ولورانس إنما يلتقيان في اليوم نفسه ڤايتسمان، دون أن يذكر الأمير ذلك لأبيه ولأخيه. والتقرير الوحيد الموجود هو التقرير الذي كتبه الزعيم الصهيوني(٣٧). فيبدأ فيصل اللقاء عارضًا خارطة اتفاق سايكس – پيكو التي ترمي العرب في الصحراء. فيرد ڤايتسمان بأنه قد أوضح عداوته لهذا الاتفاق حتى قبل عقده، معيدًا إلى الوراء بسنة كاملة سلسلة بأكملها من التحركات التي قام بها. وهو يعتمد على الصهيونيين الأميركيين للتأثير على موقف حكومة الولايات المتحدة حول هذا الموضوع. فيرد عليه فيصل بأنه سوف يكون بوسعه هو وجماعته أن يوضحوا لعرب فلسطين أن مجيء اليهود سيكون مفيدًا للبلد وسكانه. وهو يطلب تحديدات بشأن البرنامج الصهيوني. فيرد عليه ڤايتسمان بأن الصهيونيين ينتظرون من مؤتمر الصلح ومن فيصل الاعتراف بالحقوق التاريخية القومية اليهودية في فلسطين، واختيار بريطانيا العظمى كقوة تتولى الوصاية، وإدخال إصلاح زراعي ينتزع الأراضي من أيدي الأفندية، وبرنامج إنماء اقتصادي يسمح بتوطين ما بين أربع وخمس ملايين يهودي في فلسطين، وتأجيل مسألة الحدود والأوقاف إلى موعد تالٍ

للتسوية التي سيقررها مؤتمر الصلح، واحترام اليهود للأماكن المقدسة. فيوضح فيصل أن هناك من الأراضي ما يكفي الشعبين في فلسطين وأنه سيدعم المطالب اليهودية. وسوف يطلب أن تكون بريطانيا العظمى القوة التي تتولى الوصـــاية على "بلاد العرب".

وصدق تقرير ڤايتسمان غير قابل للنقاش. وقد استعاد على الفور عناصره في برقية إلى اللجنة الصهيونية(٣٨).

في هذا الوقت، نجد أن بعض الأمور واضحة. ففيصل ينـــتهج فـــي تلــك اللحظة دبلوماسية انفرادية دون أن يبلغ بها حسين وزيد ولا مستـــشاريه فـــي فرنسا. وقد كان مقتنعًا بضرورة الحصول على تأييد من الأميركيين، ومن ثم، الحصول على مساعدة من جانب الصهيونيين. وشأن رجال حزب اللامركزيـــة قبل الحرب، فإنه يؤمن بالدور الرئيسي للرساميل اليهودية فيما يتعلق بالتنميـــة الاقتصادية للشرق الأدنى. وهو يعرف أن الصهيونيين، شأنه، خصوم شرسون لاتفاق سايكس ــ بيكو. ومن ثم فمن المؤكد أنه قد قال كلامًا مشجعًا لڤايتسمان خلال هذا اللقاء. وبالمقابل، فإن الغموض يظل قائمًا فيما يتعلق بفحوى الترجمة التي قدمها لورانس حول البرنامج الصهيوني وتعهد فيـــصل بدعمـــه. ومـــن المحتمل أن فيصل قد ابتعد كثيرًا عن موقف أبيه أمام هوجارث وعن موقـــف أعيان القدس حول المساواة في الحقوق. لكن الأفكار التي طورها هنا ڤايتسمان إنما تتطابق مع ما يسميه البريطانيون بالفعل بـــ"برنامج صـــهيوني مـــسرف"، ومن غير المرجح أن لورانس قد عرض كل فحواه(٣٩). وأخيرًا، بالنسبة لمجمل محادثات ١١ ديسمبر/ كانون الأول، فإن الغموض إنما يظل قائمًا فيما يتعلـــق بالمقصود بـــ"قوةٍ وصيةٍ بريطانية" (*Great Britain as a Trustee Power*).

وتنشر صحيفة **التايمز** في ١٢ ديسمبر/ كانون الأول تصريحًا لفيصل يؤكد فيه وجود تفاهم متبادل بين فرعي العائلة السامية، العرب واليهـــود. وفـــي ٢١ ديسمبر/ كانون الأول، يقيم اللورد روتشايلد مأدبة عـــشاء تكريمًـــا لفيـــصل، ويحضر المأدبة شخصيات مهمة كاللورد ملنـــر واللـــورد روبـــرت سيـــسيل وهربرت صمويل وڤايتسمان. ويلقي الأمير كلمة بالعربية يترجمها لـــورانس، ويتحدث فيها عن أهداف الصهيونيين والعرب المشتركة(٤٠). وهو يحاول تبديد

الشائعات التي تتحدث عن وجود عداوة بين العرب واليهود[٤١]:

سمعت من بعض الناس الذين يزعمون أنهم متحضرون أن اليهود يرغبون في أن يتخذوا من مسجدنا في القدس هيكلاً لهم وأنهم يرغبون في طرد فلاحي فلسطين. وفيما يخصني، فإنني أعرف أن أي يهودي صادق لا تخامره مثل هذه النوايا. ومثل هذه الإيحاءات لا تؤثر علينا البتة. إننا نطلب الحرية للعرب، ولن نكون جديرين بها إذا لم نتمن، مثلما أتمنى ذلك اليوم، سلامة وصول اليهود العائدين إلى بلدهم وإذا لم نتعاون معهم في الحدود التي تسمح بها الحالة الراهنة للسكان العرب. والمثل الأعلى الذي يتبناه الدكتور ڤايتسمان هو مثلنا الأعلى ونحن نعتقد بأن بوسعنا الاعتماد، دون أن نكون بحاجة إلى أن نطلب مكم ذلك، على دعمكم لنا في المقابل. ولا يمكن لأي دولة أن تبني نفسها في الشرق دون عون الدول العظمى، بيد أن هناك ما هو أكثر من ذلك. إذ يجب أن نأخذ عن أوروبا مثلها الأعلى ومعارفها وعلمها وخبرتها. ولكي نكيف هذا كله مع حاجاتنا، لابد من تحويل هذا من الحضارة الأوروبية إلى الحضارة العربية، ومَنْ الوسطاء في العالم الذين يمكن أن نجدهم والأقدر على تحقيق هذا التحول سواكم؟ فأنتم تملكون كل علم أوروبا، وأواصر الدم تجمع بيننا.

وهذا التصريح لا يقدم أي تعريف واضح لوضعية فلسطين في المستقبل.

وتتزايد ريبة فيصل في الفرنسيين. فهم قد شجعوا إرسال وفد لبناني إلى مؤتمر الصلح. وعندما ترسو الباخرة المقلة لأعضاء هذا الوفد في بورسعيد، قادمةً من بيروت، يهبط هؤلاء الأخيرون، مزودين بجوازات سفر فرنسية وتصاريح بريطانية. بيد أن البريطانيين يلقون القبض عليهم ويحتجزونهم عدة أسابيع في مصر، الأمر الذي يثير عظيم سخط الفرنسيين[٤٢].

وفي ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول، يلتقي مونتاجو فيصل ولورانس. والحال أن سكرتير الدولة للشئون الهندية إنما يظل معاديًا للصهيونية وحريصًا بالغ الحرص على مشاعر مسلمي الهند. ويتناول اللقاء[٤٣] شئون شبه الجزيرة العربية والحركة الوهَّابية (وهي شئون تخص سكرتارية مونتاجو). ويوضح فيصل أنه إذا استولى ابن سعود على الحجاز، فإن من ليسوا وهابيين لن يصبح مسموحًا لهم بعدُ بأداء الحج. كما يقدم الأمير عرضًا تاريخيًا للتمرد العربي ولا

يشير البتة إلى مسألة بلاد الرافدين التي يحتلها إنجليز الهند. والحال أن محاوريه البريطانيين هم الذين يسألونه عن فلسطين. فيوضح فيصل إلى أي مدى يعتَبَرُ العربُ ممتنين للبريطانيين وأنه سوف يكون شيئًا غير مناسب من جانبهم لو تسببوا في مشكلاتٍ في مسألة تعد الحكومة البريطانية الأقدر على النظر فيها. ويعرف العرب إلى أي مدى توجد مصالح متعارضة في فلسطين ويعترفون بحقوق الصهيونيين الأدبية. وهم يعتبرون اليهود أقارب، لهم مطالب عادلة يسعد العرب أن تتحقق. وهو يعتقد أن مصالح السكان العرب يمكن تركها في أمانٍ في أيدي البريطانيين. ومن هذا اللقاء، حيث من المرجح أن لورانس لم يكن المستعرب الوحيد، يمكن تقدير أننا بإزاء الصياغة الأدق لأقوال فيصل فيما يتعلق بفلسطين (ومرة أخرى، فإنه لا يذكر هذا اللقاء في مراسلاته مع أسرته).

وما يسير في هذا الاتجاه هو مذكرة الأول من يناير/ كانون الثاني ١٩١٨ التي يحررها مع لورانس والتي لا يوجد سوى نصها الإنجليزي[٤٤]. والحال أن مصطلح العروبة لا يعود يصاغ من زاوية البداوة: ذلك أن "العرب" مصطلح يشار به إلى الناس المنبثقين مباشرة من أصل سامي، والذين يتكلمون العربية كلغة وحيدة. وهدف النزعة القومية العربية هو توحيدهم في أمة واحدة ضمن إطار سياسي لا مركزي. وسوريا متقدمة بما يكفي بحيث يمكنها إدارة شئونها الداخلية بمساعدة مجلس تقاني أجنبي. أمَّا بلاد الرافدين، الأكثر تأخرًا، فسوف تكون بحاجة إلى "نظام حكم سيتوجب دعمه من جانب الرجال والموارد المادية لدولة عظمى أجنبية"، وإن كان يظل نظامًا عربيًّا من حيث المبدأ والروح. وأمَّا الحجاز، وهو منطقة قبلية ذات حكم أبوي، فسوف يحتفظ باستقلاله التام:

> في فلسطين، تعد غالبية السكان العظمى عربية. واليهود أقارب جد قريبين من العرب بآصرة الدم، وليس هناك تضارب في السمات بين الجنسين. ومن حيث المبدأ، فإننا لسنا غير شعب واحد. على أن العرب لا يمكنهم المجازفة بتحمل المسئولية عن مواجهة صدام أجناس وديانات غالبًا ما كدَّر العالم، في هذا البلد. وهم يريدون أن يكون فوقهم وصي كبير كفء، طالما عمل هذا الأخير بنشاط في اتجاه حفز الرخاء المادي للبلد.

والعرب بحاجة إلى المساعدة الخارجية:

نحن نرى أنه إذا تم لنا نيل استقلالنا وإذا ما تم تأكيد اختصاصنا المحلي، فإن المؤثرات الطبيعية للجنس واللغة والمصلحة سوف تجذبنا كلنا إلى أن نشكل شعبًا واحدًا؛ إلاّ أنه لكي يتحقق ذلك، سوف يتعين على الدول العظمى أن تكفل حدودًا داخلية مفتوحة وسككًا حديدية وشبكات تلغرافية مشتركة، ونظام تعليم موحَّدًا. ولكي يتحقق ذلك، يتوجب [على هذه الدول العظمى] أن تتخلى عن أفكار الأرباح الفردية وعن تحاسداتها القديمة. وبكلمة واحدة، فإننا لا نطلب منكم أن تفرضوا علينا حضارتكم بتمامها، بل أن تقدموا لنا المساعدة في أن نأخذ من خبرتكم ما يخدمنا. وفي المقابل، لن يكون بوسعنا أن نقدم لكم الكثير، فيما عدا امتناننا.

وفي ذلك الوقت، لم يكن فيصل، كالعادة، قد قدم أي تعهد مكتوب. وفي ٣ يناير/ كانون الثاني، يرتب لورانس لقاءً جديدًا بين فيصل وڤايتسمان. فيجري تقديم نص مكتوب بالإنجليزية إليه لكي يوقعه، وهو نص يضع جنبًا إلى جنب فلسطين ذات وضعية غير محددة والدولة العربية القادمة[٤٥]:

صاحب السمو الأمير فيصل، ممثلاً لمملكة الحجاز العربية، والدكتور ڤايتسمان، ممثلاً للمنظمة الصهيونية:

إدراكًا منهما لأصرة القربى في الجنس وللأواصر التليدة القائمة بين العرب والشعب اليهودي، وآخذين بعين الاعتبار أن أضمن وسيلة لتحقيق طموحاتهما القومية هي وسيلة أوثق تعاون ممكن في تنمية الدولة العربية وفلسطين، ورغبة منهما في مزيد من التعزيز لحسن التفاهم القائم بينهما، اتفقا على المواد التالية:

المادة الأولى: إن روحًا ودِّية قوامها حسن النية والتفاهم المتبادل سوف تحكم العلاقات فيما بين الدولة العربية وفلسطين. وسعيًا إلى هذا الهدف، فإن ممثلين عربًا ويهود، معتمدين بالشكل الواجب، سوف يجري تعيينهم وسوف يقيمون في الأراضي المشار إليها.

المادة الثانية: حال انتهاء مؤتمر الصلح (ڤرساي)، سوف يجري تحديد الحدود النهائية بين الدولة العربية وفلسطين من جانب لجنة سيتم تعيينها باتفاق مشترك بين الطرفين.

المادة الثالثة: عند وضع دستور فلسطين، سيجري اعتماد جميع التدابير لتوفير أوفى الضمانات لتنفيذ تصريح الحكومة البريطانية المؤرخ في ٢ نوڤمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧.

المادة الرابعة: سوف يجري انتهاج جميع السبل التي من شأنها تشجيع ومساعدة

الهجرة اليهودية إلى فلسطين، على نطاق واسع، للتوصل، في أقصر مـــدة، إلى اســـتيطان وزراعة كثيفة للأرض. وفي تطبيق هذا التدبير الأخير، فإن المزارعين والفلاحين العرب لا يجب أن يحرموا من حقوقهم، بل تجب مساعدتهم في تقدمهم الاقتصادي.

المادة الخامسة: لن يوضع أي ترتيب ولا أي قانون من شأنهما أن يعرقلا، بأي شكل كان، الممارسة الحرة للديانة دون تمييز أو تفضيل. ولا يمكن التذرع بأي برهان ذي طابع ديني للتمتع بالحقوق المدنية أو السياسية.

المادة السادسة: سوف تدار الأماكن المقدسة الإسلامية مـــن جانـــب الـــسلطات الإسلامية.

المادة السابعة: تقترح المنظمة الصهيونية أن ترسل من جانبها إلى فلسطين لجنة خبراء، مهمتها دراسة الإمكانيات الاقتصادية للدولة العربية وأفضل السبل لإنمائها.

المادة الثامنة: يوافق الطرفان المتعاقدان على العمل باتفاق وتناغم كاملين أمام مؤتمر الصلح (فرساي) فيما يتعلق بجميع المسائل المشار إليها أعلاه.

المادة التاسعة: أي خلاف قد ينشأ بين الطرفين سوف يخضع للتحكيم من جانـــب الحكومة البريطانية.

ويوقع فيصل الوثيقة، بيد أنه يضيف إليها تحفظًا بالعربية، يترجمه لورانس بالشكل التالي:

إذا ما تقرر مصير العرب بالشكل الذي طلبته في مذكرتي المؤرخة في ٤ يناير/ كانون الثاني، والموجهة إلى وزارة الشئون الخارجية البريطانية، سوف أنفذ ما جاء بهذا الاتفاق.

وإذا ما حدثت تغييرات، فلن أكون مسئولاً عن عدم تنفيذ الاتفاق.

وهنا يمكن اتهام لورانس بارتكاب جرم سافر، إن لم يكن بتلاعبه بـــالنص فعلى الأقل بتخفيفه من نبرته، ذلك أن فيصل قد كتب بالفعل:

إذا نالت العرب استقلالها كما طُلب في تقريري المؤرخ/ ٤ كانون ثاني سنة ١٩١٩ المقدم لنظارة خارجية حكومة بريطانيا العظمى فإني موافق على ما ذُكر بباطن هذا مـــن المواد. وإن حصل أدنى تغيير أو تبديل فلا أكون ملزومًا ومربوطًا بأي كلمة كانت، بـــل

تعد هذه المقاولة كلاشيء ولا حكم لها ولاغية ولا أُطالَبُ بأي صورة كانت*.

وبما أنه لا وجود هناك لمذكرة مؤرخة في ٤ يناير/ كانون الثاني، فبوسعنا استنتاج أن المقصود هو المذكرة المؤرخة في الأول من يناير/ كانون الثاني.

تلك هي عناصر الملف. وهي تترك أيضًا الكثير من الالتباسات. وسوف تكشف تتمة الأحداث عن فيصلٍ، في غياب ت. إ. لورانس، يوضح أنه لم يوافق إلاَّ على مساواة في الحقوق بحسب القول المأثور الذي أوردناه بالفعل، بيد أنه سوف يحتفظ في الوقت نفسه باتصالاتٍ منتظمةٍ مع الحركة الصهيونية. على أن جميع الفقرات التي وافق فيها الأمير علَى جميعً المطالب الصهيونية هي نتاج لترجمة لورانس، المعروف بأنه قد زَوَّرَ نصوصًا لهدف سياسي في لحظات أخرى زمن التمرد العربي[٤٦]. ثم إن فيصل، لدى عودته إلى فرنسا، في منتصف يناير/ كانون الثاني ١٩١٩، إنما يدلي بحديث بالفرنسية التي يفهمها، لصحيفة **لافكتوار**، يتحدث فيه عن فلسطين بوصفها جزءًا من سوريا، ويؤكد فيه على أن غايات الصهيونية تقتصر على إقامة "مركز ديني" في فلسطين[٤٧].

وبوسعنا أن ننهج نهج تفسير نيل كاپلان[٤٨]، الذي يرى أن الحقيقة موجودة في منطقة ما بين تلاعب بفيصل من جانب لورانس وإدراك الأمير التام لما قبله عند توقيعه الاتفاق مع ڤايتسمان.

ويبقى مع ذلك أن ما حدث جانب فريد في المسألة. لقد كان البريطانيون والصهيونيون على استعداد للاعتراف لفيصل بسلطة على فلسطين، بشرط أن يتخلى عن كل حق فيها... وكان سيكون من المستحيل عليه تمامًا أن يأخذ على نفسه تعهدات باسم عرب فلسطين الذين ما كانوا ليعتبرونه، في ظروف كهذه، متحدثًا بلسانهم.

كامبون وبلفور وكيرزون

هذا النجاح الجديد يعيد تأكيد موقع ڤايتسمان في داخل القيادة الصهيونية التي تأخذ عليه اتجاهاته "الديكتاتورية". وفي ١٤ يناير/ كانون الثاني ١٩١٩،

* نقلاً عن صورة ضوئية للأصل. — م.

يلتقي بالرئيس ويلسون، في حضور المؤرخ البريطاني ج. تويتبي، أحد خبراء الوفد البريطاني في مؤتمر الصلح(٤٩). وهو يطلب أن يُعْهَدَ بالمسئولية عن فلسطين إلى بريطانيا العظمى، حيث إن الإنجليز هم، بعد اليهود، الأمة الأكثر توراتية في العالم. وهو يهاجم السياسة الفرنسية. ففرنسا لم تجلب إلى هذا البلد سوى باحثين عن الامتيازات وكهنة وشراميط(٥٠). ويوافق الرئيس الأميركي على مجمل كلامه.

وتتخذ فرنسا على المكشوف موقفًا معاديًا للصهيونية. وتحيط باريس لندن علمًا(٥١) بأن موقف يهود فلسطين، العازمين على أن ينشئوا فيها وطنهم بموافقة الدول المتحالفة، إنما ينذر بإثارة قلاقل جسيمة وبحفز الدسائس التي يقوم بها دعاة الوحدة العربية:

> من المهم خاصةً أن تمتنع سلطات الحلفاء عن كل الأعمال أو التصريحات التي من شأنها أن تحفز لدى اليهود آمالاً غير قابلة للتحقيق؛ ولابد لموقف الوفاق بالأخص أن يوضح للصهيونيين مرة أخرى أن من غير الوارد بأي حال تكوين دولة إسرائيلية مستقلة في فلسطين ولا حتى تكوين كيان إسرائيلي ذي سيادة في جزء من هذه المنطقة.

ويبلغ بول كامبون الرسالة إلى المسئولين البريطانيين(٥٢). وفي وزارة الخارجية البريطانية يردون عليه بأن الحديث لا يدور عن دولة يهودية، بل عن "*National Home*"، وهو شيء غير قابل للترجمة في نظر السفير الفرنسي، الذي يضيف هذا التعليق جد الكاشف حول شخصية بلفور وحول المواقف الفرنسية:

> بما أن مسألة الصهيونية سوف تُناقشُ في باريس، فإنني أسمح لنفسي بأن أُشعر معاليكم بالاهتمام الفريد الذي يبدو أن السيد بلفور يوليه للصهيونية. وقلَّما كان من المتوقع أن ترى هذا الفيلسوف في هذه المسألة. على أنه هو بالتحديد الذي كان تدخله فيها التدخل الأكثر وضوحًا والذي ترك الانطباع الأقوى.
>
> وبما أن السيد كامبون قد أعرب عن استغرابه من ذلك، فقد أجابه السيد بلفور مبتسمًا: "سيكون من الممتع جدًا أن نشهد إعادة تكوين مملكة أورشليم".
>
> فقال السفير موضِّحًا: لكن إعادة تكوين مملكة أورشليم، بحسب ما جاء في سفر

الرؤيا، ستكون الإشارة إلى انتهاء العالم.

فأردف السيد بلفور: "حسنًا، سيكون من الممتع أكثر أيضًا أن نشهد نهاية العالم".

وهذه ليست سوى دعابات، لكنها جد مميَّزَة لذهنية الوزير الإنجليزي الهواياتية والانتقائية. وربما يكون قد راق له أيضًا، عبر تأييده للصهيونية، أن يزعج إلى حدٍّ ما أصدقاءه الشخصيين، كبار يهود لندن، الذين يعرف معارضتهم المكتومة لمغامرة فلسطين. وأنا واثق تمامًا بأن موقف السيد بلفور راجع إلى أسباب أخرى أكثر جدية وأنه أراد أن يكفل للحلفاء عون النفوذ الإسرائيلي الذي تمكن من رصد تقدمه في الولايات المتحدة. بيد أن اتجاهاته الخاصة قد دفعته إلى إصدار تصريحات أكثر أريحية من تصريحات معاليكم.

فهذه التصريحات لا تستبعد إنشاء نوع من مواطنة خاصة لليهود في فلسطين. وهذا هو ما ترغب فيه الصهيونية وهو شيء جد خطير لأن شعوبنا، لدى الخروج من الحرب، لن تقبل أن يكون لفئة من المواطنين الحق في التمتع بجنسية مزدوجة وأن يكونوا في آن واحد فرنسيين وصهيونيين أو إنجليز وصهيونيين، إلخ. واليهود، وهم في غالبيتهم مهاجرون في بلدنا، يجب أن يتحاشوا سقوط ظل من الشك على مشاعرهم الوطنية وهذا الهم يزعج كثيرين من الإسرائيليين.

ومن المؤكد أن السيد بلفور عندما حَدَّثَ السيد يول كامبون عن مملكة أورشليم لم يفكر في مسألة الجنسية الصهيونية، على أن هذه المسألة بالغة الخطورة.

ويستتبع بدء مؤتمر الصلح تقسيمًا للعمل الأصلي في داخل الإدارة البريطانية. فيتواجد بلفور في باريس إلى جانب لويد جورج، أي أنه يدعه يفعل ما يريد، في حين أن اللورد كيرزون، رجل الملفات، يتولى شئون وزارة الخارجية في لندن والتي سُحِبَ منها الجانب الرئيسي من مسائل الشرق الأدنى. ولا يقوى كيرزون على الامتناع عن الإفصاح عن رأيه عندما تُعْرَضُ عليه برقية من ڤايتسمان إلى اللجنة الصهيونية، مؤرخة في ١٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨[٥٣]: إنها التعريف الأحدث للأهداف الصهيونية على أثر اللقاءات الأولى بين ڤايتسمان وفيصل في لندن وعلى أثر تقارب المواقف فيما بين الصهيونيين الأميركيين والبريطانيين: إن فلسطين يجب أن تصبح **كومونويلثًا** يهوديًا تحت وصاية (*trusteeship*) بريطانية، ولابد من مشاركة اليهود في الإدارة مع

تمتعهم بأعظم قدر ممكن من الحكم الذاتي (*self-government*)، ويجب للعبرية أن تكون اللغة الرسمية للسكان اليهود ولابد أن تتوافر لليهود أوسع الحقوق في المسائل العقارية، خاصة مسألة مصادرة أملاك الأفندية، ويجب إنشاء كونجرس يهودي في القدس لمعالجة المسائل العقارية ولتشجيع الهجرة والإشراف عليها، وكذلك امتيازات الأشغال العمومية.

ويعد كيرزون[٥٤] ملفًا حقيقيًا يتكون

— من آخر المعطيات الديموغرافية التي قدمها كلايتون: فهناك ٦٦٠٠٠ يهودي في فلسطين في مقابل ٥٧٣٠٠٠ من غير اليهود؛

— ومن تقرير لتوينبي حول اتفاق فيصل — ڤايتسمان يشار فيه إلى أن فيصل قد استعاض عن مصطلح "الدولة اليهودية" بمصطلح "الدولة الفلسطينية"[٥٥]، وإلى أن من الواضح أن ڤايتسمان يسعى بالفعل إلى تكوين دولة يهودية، وإن كانت الوصاية الأجنبية، بما أنه سوف تكون هناك وصاية أجنبية، سوف تتمكن من حفظ توازن بين الأطراف.

— ومن تقرير آخر لأورمسبي — جور يدافع فيه عن ڤايتسمان، باعتباره معتدلاً يتعرض لضغط من جانب زملاء له متطرفين، ويضيف فيه أن الصهيونيين هم اليهود الوحيدون الذين تصرفوا بما يتماشى ومصالح الحلفاء، خلافًا لليهود الذين دعموا جماعة تركيا الفتاة أو ألمانيا أو البلاشفة (پارڤوس، تروتسكي)، وينهيه بالتذكير بنفوذ اليهود الكبير على السياسة الأميركية عمومًا وعلى الرئيس ويلسون خصوصًا.

والحال أن كيرزون إنما يدق ناقوس الخطر مشفقًا على الوصي (*trustee*) القادم على الكومونويلث اليهودي ويتوقع كارثة. وهذه المخاوف، التي جرى التعبير عنها في منتصف يناير/ كانون الثاني، إنما يحييها لقاء بين سوكولوف ولوي ماليه في ٢٠ يناير/ كانون الثاني وإرسال هذا الأخير مذكرة صهيونية جديدة حول "إعادة تكوين مقام قومي يهودي في فلسطين"[٥٦] تضيف إلى المطالب السابق عرضها بالفعل فصل مسألة فلسطين عن مسألة يهود أوروبا وتسليم إدارة الأماكن المقدسة إلى لجنة دولية (الاقتراح صادر عن سايكس) وقيام الدولة الوصية بتعيين يهودي حاكمًا لفلسطين، وهو حاكم يجب أن يستند إلى مجالس تنفيذية وتشريعية ذات أغلبية يهودية. ويضطر أورمسبي — جور

نفسه إلى الاعتراف بأن هذه المطالب تتميز بالشطط وتعتبر خطرة.

وفي ٢٣ يناير/ كانون الثاني، يقترح ضابط الاتصال السابق لدى اللجنة الصهيونية توفيق سياسة المقام القومي اليهودي مع سياسة صون الحقوق المدنية والدينية لغير اليهود، وهو توفيق يمر عبر إعادة تأكيد المساواة في الحقوق بين مختلف العناصر المكوِّنة للسكان، وعبر تكوين جمهور ناخبين يتألف من القادرين على القراءة والكتابة ـ بما يؤدي إلى استبعاد الغالبية الأعظم من المسلمين ـ، وعبر حكم ذاتي واسع للجماعات وللمناطق (إنه يقترح في الواقع إنشاء كانتونات طائفية، قبل أن يظهر هذا المصطلح الأخير إلى الوجود).

وفي اليوم نفسه، يذهب ڤايتسمان إلى وزارة الخارجية البريطانية لكي يشكو من موقف الإدارة العسكرية[٥٧] التي ترفض الاعتراف بالعبرية كلغة رسمية خلافًا للعربية. إن هذا افتقار جسيم إلى المراعاة، في حين أن فلسطين هي المقام القومي اليهودي. ويجري الرد عليه بأنه لا يجب أن يكون نافد الصبر إلى هذا الحدّ البعيد. وفي ٢٦ يناير/ كانون الثاني، يضيف كيرزون مذكرة تحيل إلى برقية ١٧ ديسمبر/ كانون الأول:

والآن، ما **الكومونويلث**؟ لقد نظرت في معاجمي ووجدت التعريفات التالية: "دولة"، "كيان سياسي"، "جماعة مستقلة"، "جمهورية". وانظروا أيضًا إلى بقية البرقية. فما المكسب من إغماض أعيننا عن واقع أن هذا هو ما يطمح إليه الصهيونيون وأن الوصاية البريطانية مجرد ستار سيعملون خلفه على تحقيق هذا الهدف.

والوضع ليس أفضل وإنما أسوأ إذا كان ڤايتسمان يقول هذا النوع من الأشياء لأصدقائه بينما يغني أغنية أخرى تمامًا في العلن.

إلاَّ أنه فيما يتعلق بالشرق الأدنى، لا طائل من إكثار كيرزون من المذكرات، إذ لا أحد ينصت إليه في الدوائر الحاكمة البريطانية، التي تعبت من سماعه وهو يتباهى بدرايته بالبلاد وبالملفات لكي ينتقد الخيارات والتوجهات التي اعتمدتها هذه الدوائر.

سوريا في باريس

في باريس، التقى فيصل من جديد ببقية الوفد العربي. ويتألف الوفد أساسًا من رستم حيدر، وهو شيعي من البقاع، سوف يُعَيَّنُ مندوبًا ثانيًا إلى المؤتمر، وعوني عبد الهادي، وهو عضو في عائلة عبد الهادي الفلسطينية الكبرى في نابلس، ومؤسس الجمعية العربية الفتاة السرية قبل عام ١٩١٤، وكان قد قضى سنوات الحرب في فرنسا. وسوف يكون أحد الشخصيات الفلسطينية الرئيسية في فترة ما بين الحربين العالميتين. وقد خلَّفَ رستم حيدر يوميات مهمة تعد شهادة رئيسية من الجانب العربي بالنسبة لمفاوضات ما بعد الحرب[٥٨]. وهو يعبر فيها عن إيمان شبه مسياني بشخص الرئيس ويلسون، الذي سوف يدشن عهد العدالة في هذا العالم الحقير. وبالنسبة لشهر ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨، يشير الكاتب إلى لقاء بين فيصل واللورد كيرزون، لكنه يجهل أي لقاء مع ڤايتسمان.

والمسألة الأولى التي يجري تناولها في مؤتمر الصلح هي مسألة قائمة البلدان الممثَّلة وعدد مندوبيها. وتتجاوز المسألة كثيرًا مسألة التمثيل العربي لأنها تتصل بوضعية البلدان المنتمية إلى حقل الدومينيون البريطاني[٥٩]. وبفضل الدعم البريطاني، يتم الاعتراف للحجاز بمرتبة دولة محاربة ممثَّلة بمندوبين اثنين، على قدم المساواة مع أستراليا أو الصين أو بولنده. والحال أن لورانس هو الذي يبلغ الأمير بالنبأ السعيد[٦٠]. وهكذا يظهر فيصل في اللوحة الزيتية التي تحتفل بافتتاح المؤتمر. وهو، بردائه الشرقي، يحمل لمسة غرائبية إلى هذا الاجتماع الذي يهيمن عليه غربيون.

ونجد من جديد وزن البلدان المنتمية إلى حقل الدومينيون البريطاني في اتخاذ قرار سوف يكون أثره ضخمًا بشكل خاص على مستقبل الشرق الأدنى: مصير المستعمرات الألمانية. فأفريقيا الجنوبية تطالب بضم جنوبي – غربي أفريقيا، وأستراليا تطالب بضم غينيا الجديدة، بينما تطالب نيوزيلنده بضم ساموا. وتطرح البلدان الثلاثة المنتمية إلى حقل الدومينيون البريطاني حججًا اقتصادية (التنمية) واستراتيجية. ويرى ويلسون أن المطلوب هو الوقف الفوري لمشاريع الضم هذه والتي تهدد بالقضاء على مشروعه الخاص بالصلح العادل. وتتصاعد

النبرة بسرعة بالغة بين ممثلي هذه البلدان والرئيس الأميركي. وتلك هي المواجهة الأولى في المؤتمر. ويقترح ويلسون أن يُعهد بالمستعمرات الألمانية السابقة إلى عصبة الأمم القادمة، التي سوف تحدد دولاً منتَدَبَة لإدارتها إلى أن يتسنى تحديد رغبة السكان الفعلية.

وينجح لويد جورج في إجراء وساطة تتميز بالدهاء وذلك باقتراحه التمييز بين ثلاث فئات من الانتدابات (ألف وباء وجيم) بحسب مستوى تمدنها؛ الفئة ألف: الولايات العربية للدولة العثمانية؛ الفئة باء: مستعمرات وسط أفريقيا؛ الفئة جيم: أفريقيا الجنوبية ــ الغربية وأراضي المحيط الهادئ؛ ويقبل ويلسون مبدأ هذا التمييز مع إحالة المسألة إلى مكتب تحرير ميثاق عصبة الأمم ومع ارتيابه في الشكل الذي سوف يجري به تعيين الدولة المنتَدَبَة القادمة[٦١].

ويجهل الوفد العربي كليًّا مضمون هذه المناقشة المشحونة بالعواقب بالنسبة للمستقبل. وعلى العكس تمامًا، يعلق كل آماله على عصبة الأمم القادمة، حامية الصغار في مواجهة الكبار[٦٢]. وهو لا يفهم تكدر لورانس عندما يجري استخدام تعبير "استقلال سوريا"[٦٣] *.

وهذا الهاجس السوري يفسر المسلك الغريب الذي اتخذه الفلسطيني عوني عبد الهادي الذي يطلب، في ٢٥ يناير/ كانون الثاني، الالتقاء بعضو في الوفد الصهيوني[٦٤]. وهو يعبر عن انزعاجه من المقترحات الصهيونية والتي من شأنها، بحكم وجودها وحده، تعزيز المطالبة الفرنسية بسوريا. وهو يحدد برنامجه بوصفه برنامج استقلال مطلق لسوريا، ربما على شكل اتحاد لبلدان مستقلة لها علاقات وثيقة ــ وإن لم تكن رسمية بالضرورة ــ مع بريطانيا العظمى. وفيما يتعلق باليهود، فإنه يستعيد الصيغة المعتادة حول المساواة في الحقوق والواجبات. فيُرَدُّ عليه بأن مثل هذه المساواة لا تتماشى مع البرنامج الصهيوني، فهو برنامج حركة قومية هدفها أن تجعل من فلسطين بلدًا يهوديًّا. ولا يمكن للصهيونية الاكتفاء بتحرر أو بضمانات ممنوحة لأقلية قومية، الأمر الذي تطالب به بالنسبة للبلدان الأخرى. فيتحدث عوني عبد الهادي عن إمكانية قطع شوط أبعد في درب التنازلات وعن ضرورة التوصل إلى اتفاق فيما بين

---

* ترجمة عن الفرنسية. ــ م.

اليهود والعرب، فهم لهم مصالح مشتركة. فيجري سؤاله عما إذا كان يمثل آراء فيصل، فيجيب بأنه إنما يتحدث دون أن يكون قد حصل على تكليف رسمي بذلك.

ومن الصعب معرفة ما إذا كان عوني قد حصل على تكليف بإجراء مثل هذا اللقاء. أمّا الواقع فهو أنه يبدو أنه يجهل النص الذي وقعه فيصل وفايتسمان قبل ذلك بثلاثة أسابيع.

وفي ٢٩ يناير/ كانون الثاني، يوجه الوفد العربي مذكرة قصيرة إلى المؤتمر يطالب فيها، باسم المبادئ الويلسونية، بالاستقلال وبالسيادة الكاملة للشعوب الناطقة بالعربية في آسيا. ولا يجري ذكر لا فلسطين ولا الاتحاد العربي. لكن عضوًا في الوفد البريطاني يلاحظ، في ٣٠ يناير/ كانون الثاني، بعد لقائين له مع الأمير، أن هدف فيصل هو بالفعل تكوين اتحاد عربي[٦٥]، وهدفه النهائي هو صهر مختلف الدول العربية. والأمير معاد بشكل عنيف لفرنسا ومؤيد جدًّا لتعاون مع البريطانيين. وهو يزكي ترشيح أخيه عبد الله لعرش بلاد الرافدين. ويعتقد أن الحرب حتمية مع وهَّابيي نجد الذين يشبههم بالبلاشفة. وهو يطالب بلبنان باعتباره جزءًا من سوريا و، مع معارضته لقيام فلسطين يهودية، يعتقد أيضًا أنه سيكون من قلة الحكمة قيام حكومة عربية فيها ويفضل أن يرى هناك دولة دولية، من الأفضل أن تحكمها دولة عظمى مهتمة بالدول العربية[٦٦].

وفي ٥ فبراير/ شباط، يجري إعلان النبأ العظيم: إن الوفد العربي سوف يتم الاستماع إليه غدًا من جانب المجلس الأعلى للحلفاء (المسمى بمجلس العشرة). وفي نشاط محموم، يقوم الوفد، بمساعدة من لورانس وسايكس، بالإعداد لظهوره أمام المجلس. ويرى رستم حيدر وجوب طرح مسألة مصير فلسطين. فيثنيه فيصل عن ذلك مشيرًا إلى أن الأميركيين ربما يؤثرون هذه الأرض فيعطون لسوريا حدودًا ليست من صالحها. فيتساءل رستم حيدر لماذا يحرص لورانس إلى هذا الحد على إبعاد الأشراف عن فلسطين. فهو على أي حال، قد نجح في إقناع

الأمير بالابتعاد عن هذا البلد "نظرًا لأهميته الدولية"(٦٧).*

والحال أن لدينا العديد من المرويات والتقارير عن جلسة ٦ فبراير/ شباط ١٩١٩، مكتوبة بعدة لغات. وقد تحدث فيصل بالعربية، وقام لورانس بترجمة ما قاله إلى الفرنسية، لكن الكيه دورسيه، المرتابة، كلفت سي قدّور بن غبريط بالتحقق من أمانة الترجمة التي قام بها لورانس. وفيما يتعلق بفلسطين، أعلن الأمير:

> سأدع فلسطين جانبًا بالنظر إلى طابعها الدولي، فيُسوّى مصيرها من جانب من تعنيهم هذه المسألة. وفيما عدا هذا الاستثناء، فإنني أطالب باستقلال المناطق العربية التي عدّدتها.

وبالنسبة لهذه المناطق، يطلب إجراء استقصاء دولي لتحديد رغبات سكانها. فيسأله ويلسون عما إذا كان يفضّل دولة منتَدَبَة واحدة أم عدة دول منتَدَبَة على الأراضي العربية. والحال أن فيصل، الذي يجهل ما يزال أن القرار كان قد اتخذ بالفعل، إنما يعيد تأكيد مطلب استقلال الشعب العربي الذي، إن كان بحاجة إلى دولة منتَدَبَة، فإنه يفضل أن تكون هذه الدولة واحدة كيما يتمكن من صون وحدته.

وقد ترك فيصل انطباعًا قويًا لدى كليمنصو، إلاّ أن هذا الأخير يذهب إلى أن الرأي العام للمؤتمر إنما يتمثل في أن الأمير "ليس بعيد النظر كثيرًا، وأنه، أيًا كان الأمر، لا شيء يحث، في هذه الأيام الأولى من فبراير/ شباط، على تسوية مسألة على هذه الدرجة من التعقيد كمسألة المشرق. إذ أن هناك مسائل أخرى أكثر إلحاحًا بكثير تتطلب الحل"(٦٨).

ويلاحظ رستم حيدر أن لورانس قد تكلم بصوت خفيض وأن كليمنصو قد اضطر إلى أن يطلب إليه التكلم بصوت أعلى(٦٩). وبعد عدة عقود من ذلك، سوف يتذكر هانكي أن مساهمة الأمير قد شكلت فاصلاً مسليًا موفّقًا وسط المشكلات الأوروبية، أمّا هو فقد كان محزونًا وهو يرى في أحد الأركان سايكس مريضًا ومنهكًا إنهاكًا شديدًا بالفعل(٧٠). والواقع أن هذا الرجل ذا الآراء

---

* ترجمة عن الفرنسية. ـــ م.

اللافتة والذي كان دوره مهمًا في تكوين الشرق الأدنى المعاصر إنما يصاب بنزلة الأنفلونزا الرهيبة تلك التي تجتاح أوروبا. وهو يموت في ١٦ فبراير/ شباط ١٩١٩ من جراء التهاب رئوي[٧١]. ويحدثنا لورانس في **أعمدة الحكمة السبعة** عن سايكس محتضر لكنه تائب، أي وكأنه انحاز إلى آراء المكتب العربي[٧٢]. والأرجح أن هذا غير صحيح، لأن سايكس لم يكن متحول اللحظة الأخيرة في نقض اتفاقٍ أضيف اسمه إليه (الاعتياد البريطاني على ذكر "سايكس – بيكو" كان قد حدث للتهوين من شأن اتفاق كان اللذان وقعاه بالفعل پول كامبون وإدوارد جراي). فالحال أن سايكس، في مذكرته الأخيرة والمؤرخة في ١١ فبراير/ شباط، إنما يعبر عن شواغله حيال الوضع الفلسطيني[٧٣]: إذ لابد للبريطانيين من أن يكونوا منصفين حيال مطالب الصهيونية على أن يتولوا في الوقت نفسه حماية السكان المحليين. وبوصفه واقعيًا، فإنه يرى أن عدالة البريطانيين لن يكون بالإمكان فرضها إلاّ على حساب ما لهم من شعبية لدى الطرفين. بيد أن بعض كبار موظفي وزارة الخارجية البريطانية، كما تبين ذلك مسودة الوثيقة، إنما يتساءلون عن المستقبل: إن دعم المطالب الصهيونية يعني الدخول في خصام مع العالم الإسلامي وفرنسا، لكن معارضة هذه المطالب تعني المجازفة بالدخول في مواجهة مع القوة العالمية اليهودية.

وتهاجم الصحافة الفرنسية الوفد الحجازي وتدافع عن أطروحة سوريا المرتبطة بفرنسا. وقد توصلت الكيه دورسيه إلى الحصول على موافقة بأن يتم الاستماع إلى المتحدث بلسان القوميين السوريين، المحبين لفرنسا، شكري غانم، بدوره[٧٤]. والحال أن البريطانيين إنما يبذلون كل ما في وسعهم لإفقاد هذه الجماعة أي اعتبار. وقد ساعدهم في ذلك المبشرون البروتستانت الأميركيون. فنجد هوارد بليس، رئيس كلية بيروت البروتستانتية السورية (الجامعة الأميركية فيما بعد) يتوجه بالخطاب مباشرة إلى ويلسون لكي يبلغه بانعدام الصفة التمثيلية لجماعة القوميين السوريين هذه وبضرورة فرض وصاية أميركية أو بريطانية على سوريا، لأن هذين البلدين النزيهين من شأنهما الحيلولة دون استغلال سوريا من جانب الفرنسيين[٧٥].

وفي ١٣ فبراير/ شباط، نجد أن هوارد بليس هو أول من يأخذ الكلمة أمام

مجلس العشرة[٧٦]. وهو يستند إلى نقاط ويلسون الأربع عشرة وإلى التصريح الفرنسي ــ البريطاني الصادر في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨ لكي يطالب باستشارة شعب سوريا بحرية فيما يتعلق باختيار الدولة المُنتَدَبة. ويسأله بيشون عما إذا كانت الاستشارة يجب أن تخص سوريا وحدها أو ما إذا كان يجب أن تضاف إليها فلسطين وبلاد الرافدين وأرمينيا. فيجيب بأنه بالنظر إلى خبرته الشخصية فإنه لا يمكنه التحدث إلاّ عن سوريا وحدها. ويذكرُ بلفور بأن الأرمن في كل مكان أقلية وأن الاستشارة سوف تجعلهم تابعين للمسلمين. ويجب أن نلاحظ أنه، خلال مداخلته، لم يستخدم قط مصطلح "العربي"، لا اسمًا ولا صفةً. ويرى رستم حيدر أنه قد تكلم كپروفيسور يسأل أطفالاً عما يريدون[٧٧].

ووفد القوميين السوريين هو الوفد الوحيد الذي يضم ممثلين للديانات التوحيدية الثلاث (فالمسلم هو جميل مردم بك، رئيس الدولة السورية فيما بعد، والإسرائيلي هو الدكتور توفيق فارحي، من دمشق). ومداخلة شكري غانم جد طويلة وتخاطب جمهورًا معاديًا إلى حد بعيد. وهو يطالب بسوريا ناطقة بالعربية تمتد إلى سيناء وتقوم على وحدة مختلف الطوائف. ويرفض مطالبات بلاد العرب النائية ببلده ويرفض إجراء استشارة، لأن من شأنها، في سياق هياج المشاعر، أن تهدد بأن تؤدي إلى مواجهة عنيفة بين المسيحيين والمسلمين. وهو يؤكد أنّ فلسطين هي سوريا الجنوبية، ويقبل بهجرة حرة لليهود، لكنه يطالب بأن تحصل فلسطين على حكم ذاتي واسعٍ ضمن اتحاد سوري. فإذا كان اليهود فيها أغلبية، فسوف يكونون الحاكمين وإلاّ فإنهم سوف يشاركون في السلطة على أساس عددهم. ولا يجب تمزيق سوريا وتكوين دولة خاصة داخلها: ذلك أن الخطر الذي سوف يترتب على ذلك، فيما يوضح الخطيب، هو خطر خلق نزعة تحررية توحيدية تطالب بتوحيد جميع الأراضي السورية. وبما يشكل برهانًا على هامش المناورة النسبي الذي يتمتع به غانم قياسًا إلى حماته الفرنسيين، فإنه يشجب اتفاقات عام ١٩١٦. إننا بإزاء أغنية بجعة النزعة القومية السورية، على الأقل في شكلها المشرقي.

ويدرك أعضاء الوفد العربي بعد مداخلتهم أن السير بات حتميًّا صوب تعيين دولة منتَدَبَة. وإذ يعطون الأولوية المطلقة لصون الوحدة العربية، فإنهم

يتوجهون نحو انتداب بريطاني حصريًا على مجمل الشرق الأدنى. والحال أن رستم حيدر، واثقًا بنفسه، إنما يتكلم أمام الجلسة الموسعة للمؤتمر لكي يتساءل عن المعنى الذي يجب أن يعطى للفظ "الانتداب"[٧٨]، جد المشحون بالعواقب بالنسبة لمصير الأمم الماثل فيه. وهو يشدد على الضرورة المطلقة لترك السكان المعنيين يختارون الدولة المنتدَبَة.

ثم إن الوفد اللبناني، برئاسة داوود عمون، يتكلم بدوره أمام مجلس العشرة في ١٥ فبراير/ شباط. وهو يطالب بتوسيع جبل لبنان، وتكوينه على شكل دولة كما يطالب بالحماية الفرنسية[٧٩].

وتوضح المسألة السورية إلى أي مدى كانت الأفكار الويسلونية، في مواجهة واقع مطالب الفاعلين المحليين، بعيدة عن الإسهام في تبسيطٍ للوضع. ففي فبراير/ شباط ١٩١٩، يحدث تعريف واضح لثلاثة مشاريع متمايزة، مشروع عربي سوري ومشروع سوري غير عربي ومشروع لبناني.

الصهيونيون في باريس

في أواخر يناير/ كانون الثاني ١٩١٩، رأى الصهيونيون رفض البريطانيين لمطالبهم القصوية. ويستفيد ڤايتسمان من ذلك لكي يقدم نفسه إليهم على أنه معتدل يتعرض لضغوط من جانب زملاء له متطرفين، خاصة الزملاء الأميركيين. وهو يسعى إلى الحفاظ على ما هو جوهري متخليًا عن المطالبة بحاكم يهودي وبأغلبية يهودية في المجالس[٨٠]. وهو ينقل هذه المعلومة عن طريق هربرت صمويل[٨١] ويحصل على دعم اللجنة المشتركة التي توافق على الجانب الأعظم من البرنامج الصهيوني[٨٢]. وهو يشدِّد أمام السلطات العسكرية على الحصول على أقصى مدٍّ للأرض الفلسطينية في شرق الأردن وتكوين قوة مسلحة يهودية للسيطرة على تحركات البدو[٨٣].

وبالنسبة للقوميين السوريين والقوميين العرب والقوميين اللبنانيين والصهيونيين كما بالنسبة لقوميي أوروبا الشرقية، يعد الظهور أمام المجلس الأعلى للحلفاء اللحظة التاريخية التي سوف يكسبون فيها اعترافًا سياسيًا دوليًا. وقد رأينا بالفعل إلى أي مدى تعتبر مسألة الصفة التمثيلية جوهريةً. ومنذ

خريف عام ١٩١٨، حاول إدمون دو روتشايلد، بدعم من الكيه دورسيه، صياغة مشروع مضاد للصهيونية قوامه وضع يهود فلسطين تحت وصاية لجنة من المنظمات اليهودية الدولية الكبرى ولا تكون المنظمة الصهيونية غير واحدة من مكوناتها. وكان قد جرى إيفاد سيلڤان ليڤي سعيًا إلى هذا الهدف لإجراء اتصال مع اليهود الأميركيين. وقد فشل العالم الكبير في مسعاه، بسبب معارضة برانديز خاصةً[٨٤]. فتعززت من جراء ذلك عداوته للصهيونية وأدت الحالة الأخيرة للبرنامج الصهيوني إلى إثارة غضبه الشديد. وفي مذكرة بتاريخ ٣١ يناير/ كانون الثاني ١٩١٩، تحت عنوان **فلسطين اليهودية وعصبة الأمم**[٨٥]، يرى "بكل جلاء التعصب الطائفي وقد اتحد مؤقتًا بمصالح السياسة الإنجليزية". وهو يقترح أن يُعْهَدَ بفلسطين إلى عصبة الأمم القادمة وترك يهود فلسطين ينظمون أنفسهم بحرية دون أن يخضعوا لسلطة المنظمة الصهيونية. ويجب لفلسطين أن تكون مفتوحةً، ضمن إطار منظم بشكل دقيق، أمام اللاجئين اليهود المضطهَدين وأمام المتدينين الذين يريدون صون الأعراف القديمة والشعائر المقدسة، لكن هذا لا يعني "السماح [لهم] بتكوين دولة جديدة لأنفسهم فاسدة في مبدأها بالتباس الدين والعِرق، ومشحونة بالعواقب الوخيمة بالنسبة لمستقبل السياسة الدولية".

واليوم العظيم للصهيونيين هو ٢٦ فبراير/ شباط ١٩١٩. ومما يثير عظيم انزعاجهم، أن فرنسا قد توصلت إلى موافقة على اشتراك سيلڤان ليڤي في الظهور[٨٦]. وفي الصباح، يلتقي ڤايتسمان وسوكولوف وآرونسون، فيقلل أمامهم من أهمية الحدث ــ فهو "جلسة أكاديمية أمام أناس يغطون في النوم". ثم يتجه إلى الاجتماع بالبارون دو روتشايلد، الذي يتفق معه على استعادة مشروعه الخاص باللجنة الدولية.

وتنعقد الجلسة بعد الظهر. والحال أن پيشون، الذي يرأسها، إنما يعطي الكلمة في البداية لسوكولوف[٨٧] ــ وهو يتكلم بوصفه ممثلاً للمنظمة الصهيونية. ويطرح نفسه باعتباره لسان حال الشعب اليهودي ويطالب بحقه التاريخي في فلسطين. والحل الوحيد للمشكلة اليهودية إنما يتميز بطابع قومي. وبعد أن أغدق المديح على الدول العظمى، يحيل مشروع القرار المرسل إلى

مؤتمر الصلح والذي يطالب بفلسطين كبرى تشمل جزءًا لا بأس به من شرق الأردن والموارد المائية لحوضي نهر الليطاني ونهر الأردن. وهو يقترح أن تصبح فلسطين انتدابًا بريطانيًّا:

> سوف يتوجب وضع فلسطين في ظروف سياسية وإدارية واقتصادية من شأنها أن تكفل قيام "مقام قومي" يهودي وأن تتيح في نهاية المطاف خلق "كومونويلث" يحكم نفسه. ومن المفهوم بشكل واضح أنه لا يتوجب عمل أي شيء من شأنه إلحاق ضرر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة الآن في فلسطين، ولا أيضًا إلحاق ضرر بالحقوق والوضعيات السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر.

ثم يتكلم ڤايتسمان باسم اللجنة الصهيونية. فيتحدث عن الشقاء الذي أغرقت فيه الحربُ الجماهير اليهودية في أوروبا الشرقية: وهذا ليس من شأنه سوى تعزيز الهجرة بينما بلدان الاستقبال توصد أبوابها. ومثل هذا الوضع مشحون بالمخاطر. والصهيونية وحدها هي التي ستحول دون تحول الطاقة اليهودية إلى غايات تدميرية (تلميح إلى النزعة الثورية اليهودية):

> إننا نطرح هذا الحل في الوثيقة التي قدمناها إليكم. ونحن نرى أن هذا الحل هو الحل الوحيد الذي يمكنه منح السلم لليهود بينهم وبقية العالم. وهو الحل الوحيد الذي من شأنه أن يسمح باستخدام طاقتهم أخيرًا بكل ثمارها، بدلاً من أن تتبدد وتتحول إلى كرب وعنف، مثلما يحدث هذا بين أولئك الذين يحسون أنهم في حرب مع الوسط المحيط بهم.

وهذا إنما يتحقق عبر حرية الهجرة وإنشاء مجلس تمثيلي ليهود فلسطين وبقية العالم من شأنه أن يكفل تطور المقام القومي اليهودي. ويجب حفظ الأولوية له في جميع امتيازات الأشغال العمومية وتنمية الموارد الطبيعية.

ويليه أوسيشكين بوصفه ممثلاً ليهود روسيا الجنوبية. فيتحدث عن دعم يهود روسيا للبرنامج الصهيوني. ثم يتكلم أندريه سبير، أحد الصهيونيين الفرنسيين القلائل، فيعترف بأنه لا يمكنه التحدث باسم غالبية الإسرائيليين الفرنسيين. وهو يحاول إثبات أنه لا تنافر هناك بين البرنامج الصهيوني والمصالح الفرنسية في فلسطين.

والحال أن سيلڤان ليڤي قد وجد جميع هذه المداخلات تافهة. فيطلب برنلـــو وجو إليه أخذ الكلمة: "قالا لي: هذا عرض مسرحي فاشل، يجب شد الجلسة".

وهو يقدم نفسه بوصفه يهودي الأصل وفرنسي المشاعر. وهو لا يسعى إلاَّ إلى تقديم بعض الملاحظات المتعلقة بالمشكلة اليهودية منظورًا إليها قياسًا إلـــى فلسطين. فيوضح جاذبية فلسطين بالنسبة ليهود أوروبا الشرقية التعساء ويـــذكرُ بالعمل الذي تم إنجازه بالفعل في فلسطين من جانب المنظمات غير الصهيونية. لكنه يعدد الصعوبات بعد ذلك: ففلسطين بلد فقير لا يمكنه إعاشة غير جماعـــة سكانية صغيرة. وهو الوحيد الذي يتحدث عن وجود سكان عرب:

يُقَدَّرُ عدد السكان العرب الذين يحيون علـــى تلـــك الأرض بـــــــ٦٠٠٠٠٠ أو ٧٠٠٠٠٠ نسمة. ومن المؤكد، ولابد من الاعتراف بذلك، أن عددًا مماثلاً من اليهود لن يكون بوسعه التكيف مع الشروط المعيشية نفسها. فالواقع أن السكان اليهود قد استمدوا من الحياة الغربية، حتى وإن كان بالشكل الأولي الموجود ما يزال في الأجزاء الشرقية من أوروبا، بعض عادات التغذية ــ فأنا لا أتجاسر على قول الرفاهية، لأن هـــذه الكلمـــة ستكون هازئة ــ التي سيكون من المستحيل تحقيقها، بالنسبة إلى المعيشة المتقشفة والبائسة التي يرضى بها العرب.

وهو يحاول أيضًا استخلاص مشكلة "خامة بشرية": فالناس الخارجون من الجيتّو سوف يجازفون بارتكاب أخطاء في المجال السياسي؛ ولا يمكن ارتجال أمة بعناصر على هذه الدرجة من انعدام التجانس. وهـــو يعـــارض مـــشروع المجلس اليهودي العالمي: فهذا معناه خلق جنسية مزدوجة ــ سنقول اليوم ولاءً مزدوجًا ــ ليهود العالم بأسره. ويجب ترك يهود فلـــسطين ينظمـــون أنفـــسهم بأنفسهم. ولا يمكن الحديث عن منحهم حقوقًا مميَّزة:

بصرف النظر عما قد تكون عليه المشاعر، هناك شيء أعتقـــد أن مـــن واجـــبي، كفرنسي وكيهودي، أن أحتج عليه. لقد تحدثت للتوِّ عن روح الثورة. فالثورة قد حررتنا ونحن نهنئ أنفسنا على كوننا أبنائها الأوفياء. ولطالما طالبنا، لأجل أولئك من إخوتنـــا في الديانة الذين لم يحصلوا بعد على هذا السعد نفسه، بالمساواة في الحقوق، فإذا بنا نطالب ليهود فلسطين بامتيازات وبوضع استثنائي. لكن كل استثناء إنما ينتهي بالانقلاب على من

يطالب به وعلى من يستفيد منه.

وهو ينهي كلامه بالتذكير بعمل فرنسا في فلسطين.

والحال أن لانسنج، وزير الخارجية الأميركي، وهو معاد للصهيونية بالأحرى، يطلب إلى ڤايتسمان أن يحدد معنى كلمتي "المقام القومي". وستكون لإجابته أهمية قصوى بالنسبة لتاريخ الصهيونية بعد ذلك:

نحن لا نطالب بحكومة يهودية بالمعنى الخاص للكلمة. نحن نطالب بأن تنشأ في ظل حكومة المنطقة في البلد ظروف محدَّدَة وإدارة من شأنها أن تمكننا من إرسال مهاجرين إلى فلسطين. وهؤلاء قد يصل عددهم إلى ٧٠٠٠٠ أو ٨٠٠٠٠ في السنة الواحدة. ونحن نتمسك بإنشاء مدارس على أن يتم فيها تدريس اللغة العبرية ونتمسك بأن نطوِّر هناك [في فلسطين] تدريجيًا حياةً يهودية تكون عبرية بمثل ما أن الحياة في إنجلترا إنجليزية[٨٨].

وعندما تصبح هذه الجماعة القومية أغلبية السكان، تكون اللحظة قد جاءت عندئذ للمطالبة بحكم هذا البلد.

وإذا كان التذرع القومي يجب فهمه ضمن خط أفكار أحاد هاعام عن خلق روح قومية يهودية ــ حياة يهودية تكون عبرية بمثل ما أن الحياة في إنجلترا إنجليزية ــ، فإنه يوضح ضمنيًا أن مرحلة المقام القومي لابد أن تكون قصيرة: عشر سنوات تقريبًا إذا ما وصلت الهجرة إلى الأرقام المشار إليها. وهذا يوضح أيضًا إلى أي مدى يجهل المسئولون الصهيونيون، في ذلك الوقت، مصاعب العملية وإلى أي مدى يبالغون في تقدير إمكاناتهم.

وبعد انتهاء المناقشة، يقتنع سيلڤان ليڤي بأنه كان معتدلاً في كلامه. وهو يتلقى التهنئة من بيشون ويفاجئ تمامًا بمعاملة ڤايتسمان له على أنه خائن.

وفي الأيام التالية، يستعر السجال في الصحافة اليهودية بين أنصار ڤايتسمان وأنصار ليڤي. وفي ٣ مارس/ آذار، ينعقد في لندن مؤتمر لصهيونيي البلدان المتحالفة والمحايدة (لا تُوَجَّهُ الدعوة إلى صهيونيي إمبراطوريتي وسط أوروبا). وبحسب البلاغ الرسمي الصادر في ٦ مارس/ آذار ١٩١٩[٨٩]، فقد جرى الحديث عن وحدة الحركة

الصهيونية ونقل مقرها العام إلى لندن. وفي ٤ مارس/ آذار، تجري المطالبة بالاعتراف بالحقوق القومية ليهود أوروبا الشرقية (نظرية الحكم الذاتي القومي غير الترابي). وفي ٥ مارس/ آذار، يقدم ڤايتسمان تقريره عن الظهور أمام مجلس العشرة. وهو يستعيد مضمون مداخلته، لكنه يقول هذه المرة إن هدف الصهيونية هو أن تنشئ في فلسطين ظروفًا من شأنها أن تسمح للصهيونيين بتوطين ما بين ٥٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠ من اليهود فيها كل عام وإنماء مدارسهم الخاصة ولغتهم القومية، وتكوين نظام إداري مناسب سعيًا إلى التوصل في نهاية الأمر إلى جعل "فلسطين يهودية بمثل ما أن إنجلترا إنجليزية وأميركا أميركية"[٩٠].

وهذه الصيغة الواردة في البلاغ ليست بالضبط الصيغة التي استخدمها ڤايتسمان، بيد أنها جد قريبة منها[٩١]: "سوف يتعين أن تتوفر هناك في نهاية الأمر ظروف من شأنها أن توجب أن تكون فلسطين يهودية بمثل ما أن أميركا أميركية وإنجلترا إنجليزية"[٩٢].

ومن ثم فمن الواضح تمامًا أنه إذا كان ڤايتسمان لم يعلن أن هدف الصهيونية هو جعل فلسطين يهودية بمثل ما أن إنجلترا إنجليزية، في ٢٦ فبراير/ شباط، فإنه إنما يؤكد هذا الهدف في ٥ مارس/ آذار في لندن. وبما يشكل ظرفًا مُفاقِمًا بالنسبة لتتمة الأحداث، فإن محضر جلسة ٢٦ فبراير/ شباط كان سريًّا من الناحية النظرية (حتى وإن كان مضمون الكلمات كان قد جرى إفشاؤه على الفور، خاصة كلمة سيلڤان ليڤي)، في حين أن تصريح ٥ مارس/ آذار قد ظهر بحالته في بلاغ رسمي تقرر نشره في الصحافة. وإذا كان أحدٌ لم يلتقط آنذاك أهمية التباين فإن ذلك إنما يوضح أن الجميع كانوا قد فهموا بالفعل تعبير ڤايتسمان بالمعنى الذي أفصح عنه في ٥ مارس/ آذار وليس بالمعنى الذي ورد في كلامه في ٢٦ فبراير/ شباط.

والبرهان الأفضل على ذلك موجود في تبادل البرقيات بين الوفد الصهيوني في باريس ومؤتمر لندن. فالوفد الصهيوني يهلل لحدث ٢٦ فبراير/ شباط التاريخي ومؤتمر لندن يرد عليه في ٣ مارس/ آذار بأنه يعبر عن الأمل في أن

مؤتمر الصلح، باعترافه بمطالبة الشعب اليهودي بأن يكون له مقامه القومي في فلسطين، سوف يسهم في تحويل إيرتيز إسرائيل [أرض إسرائيل] إلى كومونويلث يهودي[٩٣].

"تفي فرانكفورتر"

كانت الصحافة الفرنسية قد ردت على الفور على ما حدث في يوم ٢٦ فبراير/ شباط. ففي ذلك اليوم، كان فيصل قد زار أناتول فرانس في سان ــ كلو. وقد تحدثا بالأخص عن الشعر، فعقدا مقارنةً بين المتنبي وفيكتور هيجو[٩٤]. وقد انتشى الكاتب الفرنسي الكبير وهو يستمع إلى الأمير وصحبه وهم يتلون عليه أشعارًا عربية، كان بعضها من تأليف فيصل نفسه. وفي ٢٨ فبراير/ شباط، يلتقي به صحافي من لو ماتان، هو المدعو نجار (ومن ثم فهو من أصل عربي)، في إطار إعداد مقال حول مواقف المسيحيين والمسلمين واليهود فيما يتعلق بالقدس.

> قال له الأمير إنه سيكون بوسع الأمة اليهودية أن تلجأ إلى فلسطين، التي هي المركز الديني لأفرادها، لكن أغلبيتها [أغلبية فلسطين] عربية، وأن على السلطة الانصياع لمصلحة الأغلبية مع احترامها بشكل أساسي لمبدأ المساواة[٩٥].

ويظهر المقال في الأول من مارس/ آذار. وهو يتضمن الشجب المطلق من جانب فيصل لأي مطالبة بدولة يهودية أو بحقوق سيادية لليهود في فلسطين. فهذا من شأنه أن يقود إلى صدامٍ بينهم والأجناس الأخرى[٩٦]. فينتشر الوجوم والذعر في الأوساط الصهيونية. ويسارع الصهيوني الأميركي، فيليكس فرانكفورتر، وهو حقوقي شاب ولامع، إلى الاجتماع بفيصل. وفي رواية سوف يقدمها بعد عشر سنوات من ذلك[٩٧]، يؤكد أنه قد التقى الأمير بحضور حاشيته يوم الاثنين ٣ مارس/ آذار، حيث قام لورانس بدور المترجم. ورستم حيدر لا يعرف شيئًا عن الحدث. أمّا عوني عبد الهادي فهو سينفي وقوعه أيضًا. بل إن فيصل سوف يفعل ذلك في عام ١٩٣٠. وعلى أي حال، يسفر عن هذا اللقاء نفي للحديث الصحافي، مكتوب بالإنجليزية بخط لورانس ويحمل توقيع

فيصل[٩٨]. ومن الغريب أنه مؤرخ في الأول من مارس/ آذار، وهو يوم سبت. ويتحدث فيه فيصل عن القرابة فيما بين اليهود والعرب وعن تعاطفه مع الحركة الصهيونية:

> وفدنا هنا في باريس على علم بالاقتراح الذي قدمته أمس المنظمة الصهيونية إلى مؤتمر الصلح ونحن نعتبره معتدلاً ومناسبًا. وسوف نبذل كل ما في وسعنا، فيما يخصنا، لمساعدتها على النجاح. ونتمنى لليهود موافاتنا على الرحب والسعة بحضور زعماء حركتنا، فمع الدكتور فايتسمان خاصة كانت لنا وسنستمر في أن تكون لنا أكثر العلاقات حميمية. لقد كان سندًا عظيمًا لقضيتنا وأتمنى أن يتمكن العرب سريعًا من أن يكون بوسعهم أن يردوا لليهود قدرًا من معروفهم. وسوف نعمل سويًا من أجل شرق أدنى يدخل عليه الإصلاح والإحياء، وحركتانا تتمم إحداهما الأخرى. والحركة اليهودية حركة قومية وليست إمبريالية، وهناك مكان في سوريا لنا سويًا.

ويعترف الأمير بوجود توتر بين اليهود والعرب في فلسطين، لكنه يتوقع التلاشي السريع لهذه الخلافات على الأمور الثانوية. وفي ٥ مارس/ آذار، يتلو فايتسمان هذا النص على مؤتمر لندن. وتقوم الصحافة الإنجليزية والأميركية بنشره على الفور. ولا يعلم به رستم حيدر إلاً في ١٦ مارس/ آذار[٩٩]. فيغضب لوصف الموقف الصهيوني بأنه معتدل في حين أنهم يريدون البلد برمته. وتنتابه الشكوك حول دور لورانس ويجد أن فيصل واهم فيما يتعلق بقوة الصهيونيين الفعلية. ومن ثم فمن المؤكد أن لورانس هو المحرض الرئيسي على الرسالة وأن فيصل قد اضطر بالفعل إلى أخذ بعض التعهدات على نفسه لأنه ظن أنه ملزم بعدم إطلاع مستشاريه عليها.

ومرة أخرى، نجد أنفسنا من جديد بإزاء اللغز الذي تمثله وساطة وترجمة لورانس.

المؤتمر الفلسطيني الأول

عبارة "جعل فلسطين يهودية بمثل ما أن إنجلترا إنجليزية" والنفي الذي سُلِّمَ لفرانكفورتر لم يكونا ضروريين لخلق التوتر في فلسطين، إلاً أنه عندما عُرفت

هذه الأنباء فإنها تسهم في سيرورة تجذر كانت قد بدأت تمامًا بالفعل.

وهذا التجذر يرتبط بموقف يهود فلسطين، الذين يميلون إلى برنامج قصوي. ففي اجتماعهم على شكل مؤتمر من ١٨ إلى ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨ في يافا بحضور چابوتينسكي، يحررون برنامج حكومة مؤقتة لفلسطين موجَّهًا إلى مؤتمر الصلح: إن فلسطين تتوجب إدارتها من جانب حاكم عام تعينه الدولة المنتدَبَة ومن جانب مجلس تنفيذي معين يتألف من خمسة من اليهود وعربي واحد. ويتوجب أن يتمتع الصهيونيون بالأغلبية في المجلس وأن يكون بوسعهم مراقبة الإدارة في المرحلة الانتقالية؛ وبمجرد تحقيق أغلبية يهودية، سيكون بالإمكان عندئذ خلق دولة يهودية ديموقراطية يجري الاعتراف فيها للعرب بحق الأقلية. وهذه الخطة يجدها جد معتدلة أناسٌ مثل بن جوريون، فهم يريدون دولة يهودية في التوِّ والحال. فيجري تعديلها. وبوجه خاص، فإن مصطلح "المقام القومي" تتم الاستعاضة عنه بمصطلح "الكومونويلث اليهودي".

وهذا المطلب الخاص بكومونويلث يهودي، وهو مصطلح يستخدمه اليهود الأميركيون أيضًا بشكل شائع، إنما يجري نقله عن طريق وفد لليشوف برئاسة ديڤيد يللين، يصل إلى بريطانيا العظمى في اللحظة التي كان فيها البريطانيون قد رفضوا بالفعل هذا النوع من المطالب(١٠٠).

ويتمثل عامل آخر من عوامل القلق في تصريحات زانجويل التي جاءت في غير أوانها. والحال أن هذا الترابي غالبًا ما برَّرَ برنامجه بواقع وجود مشكلة عربية في فلسطين. وقد حيًا نجاح منافسيه الصهيونيين، لكنه يتجه مباشرة إلى جوهر الأمور: إن المقام القومي اليهودي لن يتسنى تكوينه إلاَّ بالاتجاه إلى "ترانسفير" [نقل] السكان العرب. وهكذا يكتب في مارس/ آذار ١٩١٨ حول تصريح بلفور(١٠١):

> لقد جاء فيه أنه "لن يجري القيام بشيء من شأنه إلحاق الضرر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين". وهذا يشبه كما لو أن الحكومة تتخلى عن الساڤوي لإدارة جديدة بشرط عدم إزعاج نزلاء الفندق.

وهو يتحدث عن تنوع السكان وعدم تناسب العلاقات الديموغرافية. والحياة

القومية اليهودية لا يمكن لها أن تتحقق في هذه الظروف وسوف تؤول إلى قيام دولة عربية ذات صبغة يهودية.

على أن تصريحه في فبراير/ شباط ١٩١٩ هو الذي يثير الضجة الأعلى[١٠٢]:

> عندما يطالب اليهود بفلسطين، فإنهم لا يستندون إلى التاريخ وحده، بل يستندون إلى هذا الواقع المزدوج الذي يتمثل في أنهم الشعب الوحيد على كوكبنا الذي لا مقام قوميًا له وأن فلسطين بلد مهجور يتطلب إنهاضُهُ الكثير من الرساميل والكثير من العلم وهي أشياء لا يمكن أن يشعر بأنه قد حصل على ما يعوضه عن بذلها غير شعب متعلق بهذه الأرض باهتمامات روحية. والحال أن العرب الذين يصل عددهم إلى ٦٠٠٠٠٠ نسمة، والذين يعتبر وجودهم غير المتناسب أخطر عقبة في وجه تكوين الدولة اليهودية، لم يخلقوا شيئًا هناك. وكل ما فعلوه هو إحداث متاعب في المستوطنات اليهودية. وبشكل تدريجي ودون صدامات، سوف يتوجب نقلهم إلى المملكة العربية التي يُنوى إعادة تكوينها إلى الجوار تمامًا، والتي ستتعاون معها الدولة اليهودية عن طيب خاطر. وأنا أعتقد أن توزيعًا جديدًا للأجناس يتوخى السعادة العامة إنما يعد إحدى مهام عصبة الأمم، وضرورة ذلك تفرض نفسها في أوروبا على أكثر من محور.

وفي ١٥ أبريل/ نيسان، وبناءً على طلب من ڤايتسمان، يلتقي فيصل وفد البيشوف[١٠٣]. وهذه المرة يغيب لورانس عن اللقاء ــ فهو قد أضطر إلى الذهاب إلى بريطانيا العظمى بسبب موت أبيه. فيستعيد الأمير معزوفته المألوفة حول أخوَّة الجنسين الساميين ويشكو من مقالات زانجويل، الذي يريد إبعاد سكان فلسطين العرب بنقلهم على ظهر جمل. فيحتج محاوروه مؤكدين أن زانجويل لا ينتمي بأي شكل إلى حركتهم. ويواصل فيصل كلامه مؤكدًا، بحسب المحضر الصهيوني، أنه يحافظ على دعمه للصهيونية التي يمثلها ڤايتسمان. لكن رستم حيدر يسجل كلامًا مختلفًا[١٠٤]: "لقد التقيت الزعماء اليهود، خاصة الدكتور ڤايتسمان، ولم أر البتة ما قد يستدعي الحديث عن إقامة حكومة يهودية مستقلة ومن السخف أن يدور حديث عن ذلك"*.

---

* ترجمة عن الفرنسية. ـــ م.

وبعد مغادرة الأمير، يوضح لهم عوني عبد الهادي أن فيصل قال "كلام مجاملات"، أي كلامًا لا يساوي شيئًا. ويلاحظ يللين أن الأمير قد تكلم وكأن البلد يخصه...

وفي فلسطين، يتحول الاحتجاج على الصهيونية إلى حركة سياسية منظمة. فتقرّرُ الجمعيات الإسلامية ــ المسيحية عقد مؤتمر في القدس. والحال أن خليل السكاكيني، وهو مناضل قومي عربي، إنما يرصد في يومياته بتاريخ ٢٥ يناير/ كانون الثاني الاتجاهات الرئيسية للحركة(١٠٥):

> يقول الذين يعرفون أولئك الوفود إنهم يتقسمون إلى ثلاثة أفرقة: فريق مخلصٌ وطنيٌّ حر لا يراعي في وطنيته شيئًا، وفريق وطني ولكنه جبان ضعيف الرأي سهل القياد فإذا سألت هذا الفريق ماذا تطلب فإنه يراعي في ما يطلب ما يمكن لا ما يجب، وفريق مأجور أو أجنبي النـزعة يراعي في ما يطلب إمّا مصلحة الإنكليز أو مصلحة الفرنساويين أو مصلحة الصهيونيين.

وأعضاء الأندية السياسية ــ الأدبية يريدون وحدة سوريا وفلسطين (سوريا الجنوبية). ويقررون المشاركة في المؤتمر سعيًا إلى كسبه إلى آرائهم. وهم يتمتعون بدعم غير متوقع من عدد معين من المسيحيين، خاصة اللاتين، الذين يطالبون هم أيضًا بالاتحاد مع سوريا، وإن كان، هذه المرة، ضمن منظور وصاية فرنسية على سوريا كلها. وفحصنا للأرشيفات الفرنسية لا يشير إلى أي تحريض من هذا النوع من جانب عملاء فرنسيين في المنطقة. لكن السلطات البريطانية ترى أننا بإزاء مؤامرة فرنسية هدفها خلق مصاعب للدولة التي تحتل فلسطين(١٠٦).

وينعقد المؤتمر من ٢٨ يناير/ كانون الثاني إلى ٨ فبراير/ شباط ١٩١٩ تحت رئاسة عارف باشا الدجاني. والمدن الرئيسية في فلسطين ممثَّلة في المؤتمر فيما عدا بئر سبع والخليل. وتقدم أجهزة الاستخبارات البريطانية توزيعًا للآراء المفتَرَضة للمندوبين الحاضرين السبعة والعشرين: ١١ "يؤيدون بريطانيا"، ١٣ من "دعاة الوحدة العربية" أو "من المنحازين إلى العرب"، ٢ "يؤيدان فرنسا" و١ لا رأي له. وقد قامت السلطات البريطانية بحظر مشاركة

كبار الموظفين في الحدث وهي تترقب انحياز المؤتمر إلى بريطانيا العظمى[١٠٧]. فتخيب آمالها، لأن الاتجاه الذي يفوز هو الاتجاه الداعي إلى الوحدة مع سوريا. فيحتج البريطانيون طاعنين بوجود دسائس فرنسية وبانعدام الصفة التمثيلية للمؤتمر. والحال أن دخولية الشبان المتعلمين قد لعبت دورها بالكامل، فقد أجاز المؤتمر في ٥ فبراير/ شباط مشروع قرار، جرى إرساله إلى مؤتمر الصلح، يرفض المطالب الفرنسية في سوريا[١٠٨]. ثم إن مسيحيًا تم كسبه إلى صف النزعة القومية العربية، هو يوسف العيسى، هو الذي توصل إلى اعتراف المؤتمر بفلسطين بوصفها سوريا الجنوبية[١٠٩] ومطالبته بالاستقلال الكامل لسوريا وكذلك رفضه جميع المطالب الصهيونية[١١٠]. وسوف يجري إرسال وفد برئاسة عزة دروزه، الناشط النابلسي، إلى دمشق لإبلاغ الحكومة العربية بقرارات المؤتمر وسوف يجري تكليف وفد آخر بتمثيل فلسطين في مؤتمر الصلح.

وفور انتهاء المؤتمر، تحدث انشقاقات. وبحسب دروزه، فإن البريطانيين قد دسوا الجنرال حداد، المساعد السابق لستورس والذي انتقل إلى خدمة الحكومة العربية في دمشق. كما أن نصف المندوبين قد تم جمعهم بحضور موسى كاظم الحسيني لكي يقال لهم إنهم لهم الحق في أن يكونوا خصومًا للصهيونية، بيد أنه ليس من حقهم أن يكونوا أنصارًا للارتباط بسوريا. أمَّا چوسَّان، فهو يتحدث عن تدخلات من جانب ستورس. وعلى أي حال فإن برنامج سوريا الجنوبية إنما يتم التخلي عنه جزئيًا على أثر هذه الضغوط. وتجري إجازة مشروع قرار جديد من جانب فريق من المندوبين، في ١٠ فبراير/ شباط[١١١]:

> نتمنى أن تكون لفلسطين حكومة دستورية، مستقلة، ذات استقلال داخلي، قائمة على الاختيار من جانب السكان، مرتبطة بالوحدة العربية الشاملة. وسوف تعتمد هذه الحكومة على صديقتها بريطانيا العظمى، كما جاء في المادة ٥ بشرط أن تبعد هذه الدولة عن فلسطين الهجرة الصهيونية وألاَّ تمسَّ استقلالها بالمرة*.

وإلى تلك اللحظة، احتفظ البريطانيون بما اعتبروه جوهريًّا، ألاَ وهو

---

* ترجمة عن الفرنسية. ـــ م.

مطالبة الفلسطينيين بوصاية بريطانية، وإن كان مقابل تجذر للأعيـان، الـذين يرفضون الآن البرنامج الصهيوني برمته. ولم يعد من الـوارد الحـديث عـن مساواة في الحقوق أو عن حرية للهجرة كما في عام ١٩١٨.

والحال أن مفتي القدس، ردًا على سؤال صحافي أجنبي، إنما يتكلم بنبرة لم تكن مألوفة لديه البتة[١١٢]: نحن، العرب، نخشى من أن يسيطر علينا اليهـود؛ ونحن ضد هجرة الأجانب ولن نقبل غير الحجاج؛ وهذه الأرض ليست أميركـا التي يمكنها استقبال الآلاف من الأجانب؛ وإذا كانت فلسطين قاحلة، فإن تحويلها إلى واحة أمر يخصنا ولا يخص غيرنا، وليس هناك من تمييز تتوجب إقامتـه بين الأفندية والفلاحين.

وهذا الموقف الذي يتخذه واحد من آل الحسيني إنما يجد تأييدًا له في موقف واحد من آل النشاشيبي، وهو "مسلم متنفذ في القدس"، سـأله عميـل فرنـسي فأجاب[١١٣]:

> نحن العرب، ليس لدينا أي باعث لأن نطلب ولا لأن نقبل الـسيطرة الأجنبيـة في فلسطين، وبقدر ما أن ذلك يتوقف علينا، فإننا لن نتسامح أبدًا مع هذه السيطرة. لقـد رفضنا الحكم التركي، ومع ذلك فإن الأتراك قد سمحوا لنا بقدر من الحرية؛ وكان بوسعنا التفاهم معهم بشكل أسهل بكثير مما مع أي حكم أوروبي، ثم إن لنا مع الأتراك أواصـر الدين والتي لاوجود لها البتة مع الأوروبيين. فلماذا إذًا نطلب أو نقبل أجانب ليس لهم أي حق في السيطرة علينا ولا في السيطرة على بلدنا؟

وضمن الملف نفسه يحدِّد چوسَّان هو أيضًا ثلاثة اتجاهات سياسية: اتجـاه يريد استقلال سوريا رافضًا الأوروبيين والأشراف سواءً بسواء. ومن المؤكد أن هذا هو اتجاه كبار الأعيان: "إن الأوروبيين والأشراف من شـأنهم أن يقومـوا بتجريدهم من النفوذ الذي استأثروا به دائمًا على سير الأمور في القدس". واتجاه ثان ممالئ للأشراف باسم الإسلام والعروبة ومعاداة الصهيونية.

> وهناك فريق ثالث، وهو الفريق الأكثر عددًا، يطالب بضم فلسطين إلى سوريا.
>
> بيد أن هذا المصطلح، "الضم إلى سوريا" إنما ينطـوي علـى التبـاس، بالنـسبة للفلسطينيين على الأقل، من وجهة النظر السياسية:

١. سوريا هي البقعة التي سيحكمها الأمير فيصل، في استقلال وفي حمىً من أي تدخل أجنبي.

٢. سوريا هي البلد الذي سيسوده فيصل، تحت النفوذ الفرنسي، وإن كان هذا النفوذ سيتلاشى تدريجيًّا، بحسب كلام النشاشيبي، الذي يزعم أنه سمع عند الإنجليز "أنهم سيطردون الفرنسيين من سوريا".

٣. سوريا هي المنطقة التي سيُمارَسُ فيها نفوذ فرنسا، وهو نفوذ سوف يسود كل نفوذ آخر.

وإذا ما أردنا فهم كل مدارج تصويت المندوبين الفلسطينيين، فمن الضروري أن تكون حاضرةً في أذهاننا هذه المعاني المختلفة: فالمسلم الذي وافق على ضم فلسطين إلى سوريا كان ينشد حكومة الأشراف العربية المستقلة، في حين أن المسيحي الذي أبدى هذه الموافقة نفسها إنما يرغب في سوريا الفرنسية: والحال أن هذه الفكرة الأخيرة ليست مقبولة من جانب المسلمين: وقد قال لِيَ الشيخ ي. أ. "لو قلت إن فرنسا ستكون لها اليد العليا في سوريا لما صدقني أحد".

ويجد الفلسطينيون صعوبة في اتِّباع الموقف البريطاني. فهم يرون أن الإنجليز إنما يتصرفون بخبث. وهذا هو ما يوضحه فخري النشاشيبي لواحد من محاوريه الفرنسيين، في ٢٣ فبراير/ شباط[١١٤]:

إن الإنجليز في سعيهم إلى الانغراس في فلسطين، قد استخدموا الكثير من الخدع. ففي البداية أثاروا العرب على الأتراك. ثم، سرًّا، أثاروا اليهود على العرب. ثم نصحوا العرب بالقيام باحتجاجات على وصول اليهود إلى فلسطين. فقد قالوا للعرب: "اطلبوا منَّا كل ما تريدون، فسوف نقدمه لكم وهكذا سيتم تخليصكم من اليهود".

والإنجليز هم الذين طرحوا فكرة جمع مندوبين لفلسطين في مؤتمر. وقد ظنوا أنه في هذا المؤتمر لن يجري تناول شيء سوى المسائل المتصلة بالهجرة اليهودية؛ ومن ثم فقد فوجئوا بالقرارات المتخذة. ولم يسمحوا البتة لمندوبين بالسفر إلى باريس. وقد أفهموا رئيس المؤتمر، عارف باشا الدجاني، أن هذا القرار لا يمكن تنفيذه. وسعيًا إلى إرضائهم، أعلن عارف باشا أنه لم يوافق على هذا القرار. واستنادًا إلى هذا التصريح، قال الإنجليز إنهم لم يسمحوا بسفر المندوبين الثلاثة لأن رئيس المؤتمر لم يرد ذلك.

وقد غضب المسلمون على عارف باشا الذي جعل من نفسه بذلك أداة بيد السياسة الإنجليزية: وهم يتحدثون عن إرسال هؤلاء المندوبين الثلاثة إلى دمشق حيث سيكونون أكثر حرية في حفز سياستهم العربية.

والحال أن مطالبة المؤتمر بربط فلسطين بسوريا إنما تجري استعادتها في صحيفة شريف مكة **القبلة**[115]، مصحوبة بموافقة ملك الحجاز، الذي يسارع إلى الدخول في سجال مع صحيفة **المستقبل** العربية، الصادرة في باريس، والتي تعتبر السيطرة الهاشمية على سوريا انتصارًا للبربرية على التمدن وخطرًا على مستوى واحد مع الخطر المتمثل في الصهيونية[116].

اللجنة الدولية، الانتدابات، الأقليات والإسلام

في باريس، كان قد جرى إبلاغ المسئولين البريطانيين بصعود معاداة الصهيونية في فلسطين، بل وباستهلال الرفض للإدارة البريطانية. وفي ١٩ فبراير/ شباط، كتب بلفور إلى لويد جورج[117] لكي يوضح له أن مبدأ تقرير المصير (*self-determination*) لا يمكن تطبيقه على فلسطين، لأن السكان الحاليين لو استشيروا فسوف يصوغون دون أدنى شك رفضًا للصهيونية. ومن ثم يجب اعتبار فلسطين ذات وضعية استثنائية بأخذ مصالح جميع يهود العالم بعين الاعتبار.

والحال أن قراءتنا للأرشيفات البريطانية والفرنسية خلال أواخر فبراير/ شباط وأوائل مارس/ آذار إنما تكشف عن صورة جد كاريكاتورية للأمور. فالفرنسيون يشكون من الدسائس البريطانية في سوريا ويصفون افتقار الإدارة الإنجليزية المتزايد للشعبية في فلسطين. بينما يتحدث البريطانيون عن انعدام شعبية الفرنسيين في سوريا وعن دسائسهم في فلسطين. والواقع أن ما يحدث هو تجذر للمطالب العربية، وهو تجذر تتصدره الشبيبة المتعلمة التي تشن هجومًا قويًا على السياستين الإمبراطوريتين. ويبدأ عميل مثل كلايتون في استيعاب التطورات الجارية عندما يصف في برقية مؤرخة في ٢٨ فبراير/

شباط[١١٨] حركة مؤيِّدة للوحدة السورية تجمع الأعيان والأفندية، بل والفلاحين. وهكذا تتحقق وحدة الطبقات الاجتماعية حول برنامج استقلال كامل أو انتداب أميركي. ولا تعود الوصاية البريطانية واردة في جدول الأعمال. ويعلق كيرزون على هذا النص ويرى أن من الملح اتخاذ قرار في باريس حول مصير الشرق الأدنى.

وهو نفسه حائر لأنه يعرف للتوّ من مونتاجو بوجود اتفاق غير رسمي بين لويد جورج وكليمنصو يعيد النظر في اتفاق سايكس ــ بيكو. وقد تفاوض على مدار شهرين مع پول كامبون الذي، مثله، لم يسمع به البتة[١١٩].

والحال أن برقية كلايتون المؤرخة في ٢٨ فبراير/ شباط إنما تجد تأكيدًا لما ذهبت إليه في تقرير كتبه جوسّان في ٣ مارس/ آذار[١٢٠] ويتحدث باللغة نفسها عن صعود المشاعر المؤيدة للجامعة السورية. وفي القدس، لا يتوصل ستورس بعد إلى السيطرة على موجة العرائض والقرارات والنداءات المختلفة[١٢١]، في حين أن بداية الثورة المصرية ضد البريطانيين تضعف مواقعهم في المنطقة. وفي باريس، نجد أن كليمنصو، وقد أحنقه موقف لويد جورج، قد قرر انتهاج سياسة القنفذ والكف عن التحرك في الشئون السورية[١٢٢].

وبعد توقف قصير، يستأنف مؤتمر الصلح أعماله، حيث يصبح الآن جهازه القيادي مجلسُ أربعة. وفي ٢٠ مارس/ آذار ١٩١٩، يبلغه پيشون بمضمون اتفاق كليمنصو ــ لويد جورج[١٢٣]. فيعلن لويد جورج عزم بلاده على رفض أي انتداب على سوريا، وإن كان لكي يختلف بسوء نية بعد ذلك مع پيشون فيما يتعلق بمضمون التعهدات المتخذة خلال الحرب، أكان في مراسلات حسين ــ ماكماهون أم فيما يتصل باتفاق سايكس ــ بيكو على حدٍّ سواء. فيعبر ويلسون عن حنقه ويحيل إلى مبدأ الانتدابات الذي اعتمده مجلس العشرة. ويجري توجيه أسئلة إلى أللنبي، الذي دُعِيَ بصفة خبير.

والحال أن القائد العام، إنما ينزعج، في أعماقه، من عواقب التجذر العربي. وقد كاشف الممثل الفرنسي في القاهرة بذلك، في ١١ مارس/ آذار، عند مغادرته البلد إلى أوروبا: فنحن بإزاء "رهاب أجانب عربي" في سوريا مماثل

لرهاب الأجانب الذي ظهر من طرف المصريين خلال الثورة ضد البريطانيين[١٢٤]. لكنه، حين يتحدث أمام لويد جورج، يلقي بالمسئولية عن الوضع على مسلك الفرنسيين. وإذا ما أراد هؤلاء الأخيرون تنصيب أنفسهم في دمشق، فسوف يقود ذلك إلى حرب مع العرب. وهو يحصل بالمقابل على لقاء مع كليمنصو الذي يصغي إليه باهتمامٍ كبير. فيتفق الاثنان على ضرورة صلح قائم على الحق وليس على القوة[١٢٥].

وعندئذ يقترح ويلسون إيفاد لجنة تحقيق مشتركة بين الحلفاء مهمتها الاستماع إلى أماني السكان. ويقبل كليمنصو مبدأ إيفاد مثل هذه اللجنة بشرط ألاَّ يكون المجال الجغرافي لعملها هو سوريا وحدها، بل مجمل الشرق الأدنى، بما في ذلك فلسطين وبلاد الرافدين. ويوافق لويد جورج على ذلك.

وتصبح التعليمات الصادرة إلى اللجنة جاهزة في ٢٥ مارس/ آذار. فعلى اللجنة أن تهيئ لانتداب قائم على مضمون التصريح الفرنسي ـ البريطاني[١٢٦].

وقد رأى كليمنصو في هذا الملاذ وسيلة لكسب الوقت وللتفرغ لأمور حدود الراين خطيرة الشأن[١٢٧]. والحال أنه قد أحرز ضربة معلم، دون أن يدري، لأنه قد أرغمِ البريطانيين على أن يطرحوا على أنفسهم من جديد مسألة حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. على أن المدراء البريطانيين لبلاد الرافدين لا يريدون سماع شيء عن استشارة كهذه للشعوب. وفي ٢٧ مارس/ آذار، يحاول لويد جورج إقناع مجلس الأربعة بالعدول عن قراره[١٢٨]. ويجد كليمنصو متعة في إزعاجه بتأييد ويلسون.

ويرى الصهيونيون للحظة أن فلسطين لا تدخل في حقل عمل لجنة التحقيق، بيد أنهم يبدأون في الانزعاج. والشيء نفسه يحدث للأرمن، فهم أقلية في كل مكان. ويحاول بلفور منع إيفاد اللجنة لكنه يخبر هربرت صمويل في الوقت نفسه باستيائه من مسلك الصهيونيين الذين، من جراء مواقفهم وتصريحاتهم التي تأتي في غير أوانها، يفقدون أي تعاطفات لدى عناصر السكان الأخرى[١٢٩]. فيرد عليه هربرت صمويل بأن القادة الصهيونيين على علم بالمشكلة، لكنهم لديهم أيضًا شكايات مشروعة ضد إدارة تتصرف وكأن تصريح بلفور لا وجود له[١٣٠].

ويغتبط الوفد العربي. وتبدأ مفاوضات جديدة بين فيصل والفرنسيين. فتستغرق عدة أسابيع وتنتهي إلى فشل. على أنها إنما ترمز إلى خطوة ملحوظة نحو هجر الدعاوى البريطانية بتولي حكم سوريا. وفي ١١ أبريل/ نيسان، يؤكد لويد چورچ ذلك لكليمنصو خلال مداولات مجلس الأربعة(١٣١). ومن لندن، يكثر كيرزون من الرسائل التحذيرية: فهو يرى أن الشرق الأوسط كله، من مصر إلى الهند، بسبيله إلى الانجراف في العنف والمواجهة. ويتوجب بشكل ملح أن تتوصل الدول العظمى إلى تسوية فيما يتعلق بهذه المسائل. والشيء الأول هو هجر مشروع اللجنة الدولية(١٣٢). وفي ٢٥ أبريل/ نيسان، في مجلس الأربعة(١٣٣)، تتقارب مواقف لويد چورچ وكليمنصو، على حساب ويلسون. وسيصل الأمر برئيس الوزراء البريطاني إلى قول: "إن القرار البات فيما يخص الحكومة البريطانية هو عدم قبول انتداب على سوريا. فبالنسبة لنا، تساوي الصداقة مع فرنسا عشرة أمثال سوريا". فيوضح رئيس الولايات المتحدة أن بلاده لن تقبل انتدابًا، بل تقترح أن يكون هناك انتداب واحد لمجمل البلدان العربية.ومن أسبوع إلى آخر، تتقارب المواقف الفرنسية والبريطانية دون أن يدرك فيصل ذلك حقًا.

وفي الوقت نفسه، تتحدد فكرة الانتداب. وكان اعتماد ميثاق عصبة الأمم قد تأخر لرغبة اليابان في أن تسجل فيه المساواة فيما بين الأمم والأجناس، الأمر الذي أثار عظيم غضب الأميركيين. وفي ٢٨ أبريل/ نيسان، يجري اعتماد المادة ٢٢ الشهيرة والتي سوف يُشارُ إليها دائمًا إلى عام ١٩٤٨:

١. تنطبق المبادئ التالية على المستعمرات والأراضي التي لم تعد، على أثر الحرب، تحت سيادة الدول التي كانت تحكمها قبل ذلك، والتي تسكنها شعوب ليست قادرة بعد على حكم نفسها بنفسها، في ظروف العالم الحديث الصعبة صعوبة خاصة. إن رفاه وتقدم هذه الشعوب إنما يشكلان رسالة مقدسة للعالم المتمدن، ومن المناسب تسجيل ضمانات في هذا الميثاق لإنجاز هذه الرسالة.

٢. والوسيلة الأفضل للتحقيق العملي لهذا المبدأ هي أن يُعْهَدَ بالوصاية على هذه الشعوب إلى أمم متقدمة تعد، بالنظر إلى مواردها أو خبرتها أو موقعها، أفضل من يتولى هذه المسئولية مباشرة ويقبل تحملها: وهي ستمارس هذه الوصاية

كأمم منتَدَبَة وباسم العصبة.

٣. ولابد لطابع الانتداب من أن يتباين بحسب درجة تقدم الشعب والوضع الجغرافي للأرض وظروفها الاقتصادية وشتى الظروف الأخرى من هذا القبيل.

٤. إن بعض الجماعات، التي كانت تنتمي بالأمس إلى الدولة العثمانية، قد بلغت درجة من التقدم بحيث يمكن الاعتراف مؤقتًا بوجودها كأمم مستقلة، وذلك بشرط أن تُوَجَّه نصائح ومساعدةُ أمة منتَدَبَة إدارتَها إلى اللحظة التي تصبح قادرة فيها على توجيه أمورها بشكل مستقل. وأماني هذه الجماعات يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار بادئ ذي بدء عند اختيار الأمة المنتدبة(١٣٤).

والحال أن "الرسالة المقدسة للعالم المتمدن" أو "الانتداب ـــ النصيحة" أو "الانتداب ـــ الوصاية"، أو "القدرة على توجيه الأمور بشكل مستقل"، سوف تكون التيمات المستعادة بلا كلل على مدار نحو ثلاثة عقود.

كما يتضمن عمل مؤتمر الصلح عناصر حقوقية لها تأثير قوي على تطور الشرق الأدنى في فترة ما بين الحربين [العالميتين]. فمنذ موت هرتسل، كان الصهيونيون قد انضموا إلى المتمسكين الآخرين بالنزعة القومية اليهودية في مطالبة مشتركة بالحكم الذاتي القومي في أوروبا الشرقية. وتصبح المسألة متزايدة الأهمية لا سيما أنه في أراضي الإمبراطورية الروسية السابقة، أكان في بولنده الآخذه بالتشكل، أم في أوكرانيا التي وقعت فريسة للحرب الأهلية بين البيض والحمر، أخذت مذابح اليهود ـــ الدورة الثالثة للمذابح التي تستهدف اليهود ـــ في معاودة الظهور. وهي سوف تكون أكثر دموية بعشر مرات من المذابح السابقة، حيث يتراوح عدد الضحايا هذه المرة بين ٢٠٠٠٠٠ و٣٠٠٠٠٠ إنسان(١٣٥).

وعلاوة على المسألة اليهودية، فإن تفكك الإمبراطوريات وظهور الدول القومية إنما يجدان ترجمة لهما في نشوء أقليات جديدة، كألمان السوديت أو المجريين الذين يتواجدون من جديد بأعداد كبيرة خارج الدولة التي تحمل اسمهم.

وبالرغم من سوء العلاقات بين الصهيونيين والاستيعابيين، تحاول

المنظمات اليهودية الكبرى التوصل إلى موقف موحَّد خلال المناورات الدبلوماسية الكبرى المتصلة بمصير أوروبا الشرقية. فدعاة الحكم الذاتي اليهود في أوروبا الشرقية يشكلون، بالتعاون مع اليهود الأميركيين، لجنة وفود يهودية إلى مؤتمر الصلح. والمواقف من أكثر المواقف تبايناً: فبعض ممثلي يهود أوروبا الشرقية يطالبون بتكوين أمة يهودية أوروبية شرقية حقيقية، لها مجلس مركزي يكون عضوًا كامل العضوية من الناحية الشرعية في عصبة الأمم. لكن اليهود الأميركيين، الذين يرون في ذلك خطرًا على وضعيتهم في الولايات المتحدة، يرفضون هذا المشروع. ويتمثل موقف أكثر اعتدالاً في الاعتراف باليهود كأقلية قومية في داخل كل بلد ينتمي إلي الساحات الترابية الجديدة التي يقررها مؤتمر الصلح؛ وهذا من شأنه تفادي المشكلة الحرجة المتمثلة في تعدد الولاءات: فاليهودي المجري الذي يحيا في أرض جرى التنازل عنها لرومانيا، هل سيتوجب عليه تعريف نفسه على أنه يهودي أم على أنه مجري أم على أنه روماني؟ والشيء نفسه بالنسبة بالنسبة ليهود سيليزيا، الذين يتوجب عليهم تحديد ما إذا كانوا ألماناً أم بولنديين. وعلى أي حال، ألم تعترف أوكرانيا، خلال فترة استقلالها المحدودة، بالحكم الذاتي "القومي ــ الشخصي" لسكانها اليهود مع مشاركة سكرتير دولة يهودي في الحكومة المركزية[١٣٦]؟

والحال أن لوسيان وولف، وقد رصد مجريات أمور يهود أوروبا الشرقية، والذين يوجد الآن جزء ملحوظ منهم في بولنده التي جرى بعثها، إنما يحث على الاعتراف بالطوائف اليهودية بوصفها أقليات، على أن تتمتع، ضمن إطار المساواة في الحقوق، بحكم ذاتي يشمل إدارة مؤسساتها الدينية والتعليمية والخيرية والثقافية داخل الدول الجديدة المنبثقة من الحرب (يجري الحرص على تجنب المصطلح القومي). أمَّا سيلڤان ليڤي والتحالف الإسرائيلي العالمي فهما يطالبان، بما يتماشى مع مذهبهما الثابت، بالمساواة والحرية ولكن ليس بوضعية الأقلية. والحكومتان البريطانية والفرنسية لهما موقف أخف حيال هذه المسألة الحساسة.

ويجري طرح المسألة في مجلس الأربعة في الأول من مايو/ أيّار ١٩١٩[١٣٧]. فيقترح ويلسون إنشاء وضعية أقليةٍ قومية ودينية. ويطالب لويد

جورج بتطبيق هذا المبدأ أيضًا في البلدان الخاضعة لنظام الانتدابات، لكنه يرفض الحكم الذاتي للأقليات القومية: "هذا مطلب من مطالب اليهود، الذين يريدون تكوين نوع من الدولة داخل الدولة. وليس هناك ما هو أخطر من ذلك". ويتفق الجميع على إخضاعهم إينما كانوا لشروط القانون العام. فيجري الاتفاق على تشكيل لجنة مهمتها صياغة نص على أن يتم دمجه في معاهدات الصلح القادمة.

والحال أنه يجري تكليف الإنجليزي هيدلام ـ مورلي بهذه المهمة[١٣٨]. وهو مقتنع بأنه يجب تجنب إنشاء حق حماية للأقليات يخص جميع الدول الأعضاء في عصبة الأمم: فعندئذ قد نجد المنظمة الدولية وقد انشغلت بصينيي ليڤربول وبكاثوليك فرنسا وبفرنسيي كندا، ناهيك عن الأيرلنديين! وما سوف يسمى فيما بعد بالحق في التدخل يجب أن يقتصر على دول أوروبا الشرقية أو آسيا الغربية، التي تعتبر "غير ناضجة". ولابد من صون سيادة جميع دول العالم حتى لو كان الثمن الذي سيترتب على ذلك في نهاية المطاف هو وقوع مظالم وأعمال اضطهاد. وفي تسرع، يشكل هيدلام ـ مورلي فريقًا صغيرًا يمثل فيه فرنسا هنري فروماچو، الحقوقي الذي يعمل بالكيه دورسيه.

وفي ٣ مايو/ أيار، يجري اعتماد صيغة لا يجب بموجبها إجراء أي تمييز بين "سكان" پولنده بسبب جنسهم أو قوميتهم أو لغتهم أو ديانتهم. ويقع الاختيار على مصطلح "السكان" سعيًا إلى تفادي سابقة مؤتمر برلين، الذي كان قد سمح لرومانيا، بحديثه عن المواطنين، بالإفلات من وجوب تحرير اليهود، حيث جرى إعطاؤهم وضعية الأجانب[١٣٩]. أمّا مصطلح "الأقلية القومية" فقد جرى استبعاده عمدًا[١٤٠].

وتتواصل المناقشة في ١٧ مايو/ أيار. وهي تتصل بالحقوق السياسية لليهود في پولنده وباحترام ومراعاة يوم السبت[١٤١]. ويذكرُ ويلسون بالجسامة التي يعد بها اليهود، في نظره، شعبًا خطِرًا:

ما دفعني إلى اعتماده ليس مجرد إحساس بالعطف على اليهود بل الإيقان بالخطر الذي تتسبب فيه في مختلف أجزاء أوروبا المعاملةُ الظالمةُ لليهود. وليس هناك أدنى شك في أن دور اليهود في الحركة البولشفية إنما يرجع إلى الاضطهاد الذي عاناه جنسهم على مدار

زمن جد طويل. فالاضطهادات تحول دون بزوغ الشعور الوطني وتستثير روح التمرد. وما لم نوفر علاجًا لوضع اليهود، فسوف يظل خَطَرًا على العالم.

ويجري الاتفاق على نص ينشئ حق الأقليات. ويهرول فريق الحقوقيين الصغير إلى تقديم صيغته النهائية.

وهكذا ستجد رومانيا نفسها مُلْزَمَةً بقبول تحرير سكانها اليهود. وفيما عدا ذلك، فإن الرهان من القوة ـ وهو رهان استقرار الدول الجديدة، ومن ثم استقرار التسوية التي ابتدعها مؤتمر الصلح ـ بحيث أن المشكلة اليهودية سوف تختلط بالمشكلة الأعم والخاصة بجميع الأقليات في الدول الجديدة، وهي أقليات جرى تعريفها على نحو مجرد بالتباين في الجنس أو اللغة أو الديانة (المادة ٩٣ من معاهدة ڤرساي بالنسبة لپولنده والمادة ٨٦ بالنسبة لتشيكوسلوڤاكيا). ومن غير الوارد منح حكم ذاتي سياسي يهدد الاستقرار أو يشكل دولة داخل الدولة، بحسب التعبير المكرَّس.

وهكذا تكفل معاهدات ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ احترام الحقوق الأساسية وتحظر أي تفرقة بالنسبة لجميع الأقليات في أوروبا الشرقية. والمعاهدة المسماة بمعاهدة الأقليات، والتي وقعتها پولنده في ٢٨ يونيو/ حزيران ١٩١٩، تشير إلى اليهود بالاسم، خاصة فيما يتعلق بمؤسساتهم الدينية وحق مراعاة السبت دون أن يلحق بهم ضرر من جراء ذلك، بعد أن عالجت بشكل أعم مسألة الأقليات. وسوف تقوم عصبة الأمم بتجميع عرائض الاحتجاج وستتكفل بالسهر على التطبيق المناسب للمعاهدات. وسيكون لكل دولة من الدول الأعضاء في عصبة الأمم الحق في لفت انتباه مجلسها إلى الانتهاكات التي تطال المعاهدة وسيكون من الوارد إحالة الخلاف إلى محكمة العدل الدولية التي ستكون لها سلطة البت في الخلاف.

وسوف تصمد رومانيا وقتًا أطول في وجه ضغوط دول الغرب. لكنها سترضخ في ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٩، فتقبل الاعتراف بالمواطنة الرومانية لجميع اليهود عديمي الجنسية المقيمين على أراضيها (على أن البنود الخاصة باليهود في معاهدة الأقليات كانت،

بالمقابل، قد حذفت). أمّا اليونان فسوف تقبل بندًا يتعلق بالسبت ضمن إطار معاهدة سيفر (يتعلق ذلك بسالونيك بشكل أخص). ويرى المراقبون في ذلك العصر أن إنشاء قانون دولي حقيقي للأقليات إنما يمثل واحدًا من أهم مكتسبات معاهدات ١٩١٩ ـ ١٩٢٠، خاصة مع إنشاء ما سوف نسميه اليوم بحق التدخل ضمن إطار عصبة الأمم.

وهكذا فإذا كانت بريطانيا العظمى قد اعترفت بوجود شعب يهودي له حقوقه القومية، فإن ذلك الاعتراف لا يندرج إلاّ ضمن الإطار الصارم والمحدَّد لتصريح بلفور. وقد رفضت تطبيق هذا الاعتراف ما أن يتعلق الأمر بـ[يهود] الدول الأوروبية. ومن ثم تجد فلسطين نفسها موضوعة بالفعل في وضع استثنائي من الناحية الحقوقية، وهذه الاستثنائية ناشئة عن الجمع بين طابعها كأرض مقدسة والمصالح الإمبراطورية لبريطانيا العظمى.

وما أن تتم تسوية مسألة الأقليات، يتجه مجلس الأربعة إلى موضوع الإسلام، الذي يصبح من جديد عاملاً سياسيًا رئيسيًا اعتبارًا من منتصف مايو/ أيّار ١٩١٩. وفي جلسة ١٧ مايو/ أيّار نفسها، يقدم مونتاجو وفدًا يمثل مسلمي الهند، يعد أغا خان أبرز شخصية فيه. والحال أن الوفد يتولى الدفاع عن الخليفة العثماني ويطالب بأن تظل القسطنطينية مدينة مسلمة. وهو يرى أنه ما لم يجر تطبيق مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها على العالم الإسلامي فإن ذلك سوف يعني السماح بأن يحوم خطر نشوب انتفاضة من جانب هذا العالم.

ويوافق مونتاجو على كلام المندوبين[١٤٢]:

في ذلك يكمن خطر حقيقي على السلام العالمي. وقد التقيت قبل بضعة أيام أميركيًا كان سجين البلاشفة في طشقند وكان قد عاد إلى أوروبا بعد رحلة محفوفة بالمخاطر. لقد صدمه موقف المسلمين تجاه الحلفاء منذ الهدنة: فالشعور السائد بينهم هو أن المؤتمر قد اتخذ موقفًا ضد الإسلام.

ولست بحاجة إلى التذكير بالأحداث الأخيرة التي وقعت في مصر وفي أفغانستان. أمّا في البنجاب، فإن محرضين هندوكيين، مدفوعين من البلاشفة، قد دفعوا السكان إلى التمرد. والحال أن المساجد كانت مفتوحة أمامهم للدعوة إلى التمرد: ومما لا مثيل له أنه قد جرى بذلك فتح المساجد أمام دعاة أو أمام خطباء

لا ينتمون هم أنفسهم إلى الديانة الإسلامية.

فيرد ويلسون بأنه ما أن يتوفر للبلدان الإسلامية نظام ديموقراطي، فسيكون بوسعها دخول عصبة الأمم وبأن نظام الانتدابات يشكل تحضيرًا ممتازًا لهذا الوضع.

وهكذا تصبح البولشفية خطرًا تلتقي فيه من جديد المخاوف القديمة من اليهودية ومن الإسلام، بينما تبدأ في الظهور تيمة الكيل بمكيالين. ويجب أن نلاحظ أنه، في ذلك الوقت، لم تكن فلسطين قد ظهرت بعدُ كتيمة للاحتجاجات الإسلامية.

وتشير مناقشات مجلس الأربعة إلى أن الحلفاء ليست لديهم غير نظرة غائمة إلى مصير الأتراك والأناضول، بما يتعارض مع رؤيتهم الأكثر حسمًا فيما يتعلق بالشرق الأدنى. إذ يتمنى كليمنصو ولويد چورچ تحمل الأميركيين الانتداب على الأناضول، لكن ويلسون يبدو معاديًا لصيغة الانتداب بحد ذاتها على هذه المنطقة من العالم. وتجري العودة من ذلك إلى مسألة سوريا، حيث تنشب مواجهة جديدة بين لويد چورچ وكليمنصو — إذ تبدأ مناقشة مسألة حدود مختلف الانتدابات. وإذا كان بالإمكان رصد خط واضح في سديم المداخلات البريطانية، فإن هذا الخط يبدو أنه يسير في اتجاه توسيع جغرافي للانتداب على فلسطين وعلى بلاد الرافدين، بما يشكل اختزالاً للحصّة الفرنسية.

وفي ٢١ مايو/ أيّار ١٩١٩، يتم تحرير التعليمات الصادرة إلى اللجنة الدولية بشكل نهائي[١٤٣]. وبعد استعادة شروط المادة ٢٢ وشروط التصريح الفرنسي — البريطاني، تشير هذه التعليمات إلى أن:

> اللجنة سوف تتعرف أوفى تعرف ممكن على حالة الرأي العام في هذه المناطق فيما يتعلق بالحاجات وبالإدارة المحلية؛ وسوف تجمع حول الظروف الاجتماعية والعرقية والاقتصادية جميع المعلومات التي من شأنها تنوير المؤتمر عند اتخاذ قراره. وسوف تسعى إلى أن تكوِّن لنفسها رأيًا، بقدر ما تسمح لها بذلك الظروف والوقت المتاح لها، حول التقسيمات الترابية وحول تحديد الدول المنتَدَبَة الأقدر على حفظ النظام والسلم في هذه المناطق وعلى الأخذ بيد الشعوب على درب التمدن. [...]

وبالنظر إلى الطابع الهياب للسكان الذين تعرضوا للاضطهاد على أيدي الأتراك على مدار زمن طويل، فسوف يجري إصدار بيانات قبل وصول اللجنة إلى البلدان التي ستزورها لتوضيح أنه من غير الوارد المساس فيما بعد بأي إنسان، أكان من جانب السلطات الحالية أو من جانب أي سلطات أخرى بسبب الآراء التي سيجرؤ على التعبير عنها أمام اللجنة.

وسوف يحرر أعضاء اللجنة معًا تقريرًا على أن يجري عرضه على المؤتمر.

والحال أن كليمنصو إنما يُخضع إيفاد اللجنة لإحلال القوات الفرنسية محل القوات البريطانية في سوريا. وفي نهاية الأمر، يرحل أعضاء اللجنة الأميركيون إلى الشرق الأدنى، وقد ملوا من الانتظار. وسوف تكون اللجنة دولية بالاسم، لكنها أميركية بالفعل، وسينتهي الجميع من جهة أخرى إلى تسميتها باللجنة الأميركية.

اللجنة وفلسطين

بالنسبة للإدارة العسكرية في فلسطين، يعد إيفاد اللجنة الدولية طوق إنقاذٍ حقيقيًا. فهذه الإدارة قلقة بشكل متزايد باطراد من صعود التوتر وتخشى من أن يفضي إلى العنف. فالجمعية الإسلامية ــ المسيحية تريد تنظيم تظاهرة في ٣٠ مارس/ آذار[١٤٤]. فتصرِّح السلطاتُ بها في بادئ الأمر ثم تحظرها، لأن الجمعية تعترف بأنها لا تقدر على ضمان طابعها السلمي، "كونها غير مسئولة عن الوفود القادمة من المناطق المجاورة، وبشكل رئيسي الوفد جد المهم المقرر وصوله من الخليل، حيث الخواطر هائجة هياجًا خاصًا ضد اليهود". وتطلب الجمعية من الإنجليز أن يكفلوا هم أنفسهم حفظ النظام، بيد أنها تُواجَهُ برفضهم ذلك. ومن ثم لا تحدث التظاهرة، لكن البريطانيين يقومون، في اليوم المذكور، بتكثيف الاحتياطات العسكرية السافرة، الأمر الذي يثير عظيم سخط العرب، الذين يتهمونهم بالتواطؤ مع الصهيونيين[١٤٥]. فيتحدث ستورس عن إساءة فهم [العرب لهذه التدابير] ويزعم أنها ترتيبات عسكرية روتينية. وعلى المكشوف، يشرع العرب في التعبير على أسفهم على زوال الحكم التركي، بل سيصل بهم الأمر إلى حدِّ اتهام فيصل بأنه يريد تسليم فلسطين لليهود لقاء حفنة من الذهب.

وتتركز انزعاجات ستورس على الحج الإسلامي إلى النبي موسى. ففي فلسطين، كان الإسلام قد احتاز التراث التوراتي وأصبح كبار أنبياء العهد القديم أولياء أجلاَّء في نظر المسلمين، يتم تكريمهم بشعائر سنوية. وأهم هذه الشعائر هو الحج إلى النبي موسى، الذي يعد قبره قريبًا من القدس. وفي كل سنة، يجتمع سكان الأرياف حول القبر المفترَض ويسيرون في مسيرة جماعية إلى القدس.

ودلالة هذا الحدث مركبة. فدوام هذه الشعائر على مدار أكثر من ثلاث آلاف عامٍ قد يعبر عن استمرارية للسكان عبر تغييرين للديانة. ومن الواضح أن هذا المركبَ من العناصر التوراتية قد دخل إلى الديانة الإسلامية من خلال من أسلموا من اليهود والمسيحيين، وأن سكان مجمل الهلال الخصيب لم يختفوا فجأة في القرن السابع مخلين المكان لعرب شبه الجزيرة. وهكذا تشكَّل "إسلام ـ يهودي" حقيقي، من المؤسف أنه لم تجر دراسته دراسة وافية(١٤٦). وإلى القرن الثاني عشر، حارب رجال الدين المسلمون هذه الاتجاهات التهويدية التي قامت، مثلاً، بوضع القدس على مستوى واحد مع مدينتي الإسلام المقدستين الأخريين، مكة والمدينة. وبالمقابل، جرى تشجيع هذه الإسرائيليات اعتبارًا من زمن الحملات الصليبية. وأصبحت القدس، التي ضاعت [من المسلمين] ثم استعيدت، موضوع جنس أدبي، هو الثناء على المدينة المقدسة، وأصبحت في اللغة الدارجة "القدس" (أي المقدسة، بألف ولام التعريف).

وشأن كثير من الإسرائيليات الأخرى، فإن الحج إلى النبي موسى، زمن الحملات الصليبية، قد اتخذ دلالة سياسية: فالمأثورات تزعم أن إعادته ترجع إلى صلاح الدين [الأيوبي] بعد استرداد القدس من الصليبيين. كما تزعم أن موعده قد حُدِّدَ كذلك وفقًا للتقويم الشمسي كيما يتوافق مع أعياد الفصح المسيحية (ومن ثم مع عيد الفصح اليهودي نفسه)، بحيث تتسنى موازنة تدفق الحجاج المسيحيين بتدفق للحجاج المسلمين (كان هناك دومًا خوف من محاولة انقضاض مسيحي على المدينة المقدسة). وإلى هذه الوظيفة المزدوجة المتمثلة في الاحتفال بالاسترداد الإسلامي وفي حفظ المدينة المقدسة، يضاف تعريف فلسطيني خاص، لأن هذا العيد الديني يجتذب أساسًا جماعات سكانية مسلمة فلسطينية ولا

يهم مسلمي المناطق الأخرى.

والحاصل أن التزامن المقصود بين الأعياد اليهودي والمسيحي والإسلامي الثلاثة إنما يجعل من أواخر مارس/ آذار وأوائل أبريل/ نيسان فترة صعبة بالنسبة للسلطات الإدارية للمدينة المقدسة. ويوم الجمعة ٤ أبريل/ نيسان، يعلن ستورس أن الحج إلى النبي موسى سوف يجري كما هو منتظر يوم الجمعة التالي ويغتنم هذه الفرصة لكي يذيع رسالة من أللنبي تعلن للسكان قرب وصول اللجنة الدولية التي ستحقق رغباتهم[١٤٧]، وتود الأندية السياسية ــ الأدبية اغتنام الحدث للقيام بتظاهرة سياسية[١٤٨]. لكن ستورس يجتمع بقادتها ويوبخهم توبيخًا عنيفًا. وهو يهددهم بالقوة البريطانية وينصحهم بالتزام الهدوء ترقبًا لوصول اللجنة الدولية. لكنهم يرون أن التنازلات التي اضطر البريطانيون إلى تقديمها لمصر بإطلاق سراح سعد زغلول إنما تعد بشيرًا بانتصار المصريين على الإنجليز، ومن ثم فهي بشرى خير لهم[١٤٩].

وفي ١١ أبريل/ نيسان، يمر الاحتفال دون حوادث. فستورس، في تصرف يتميز بالدهاء، قد قدم جوقة عسكرية بريطانية قامت، مع مشاركتها في الاحتفال، بالسهر على حفظ النظام. بل إنه قد طلب مشاركة الوحدة الفرنسية في نهاية الأمر في هذه المهمة[١٥٠]. وقد حظر مشاركة وفود من خارج القدس في الاحتفال[١٥١]. وتقاطع الشبيبة المتعلمة التظاهرة تعبيرًا عن سخطها على الحاكم العسكري. وسوف يذهب هذا الأخير إلى تحية الحجاج والتظاهر بأنه لا يلحظ أن هتافاتهم كانت، على وجه الحصر، عبارة عن تعهدات ولاء لـ"السلطان فيصل" ولـ"الأمة العربية"[١٥٢].

وفي الوقت نفسه، قام الحاكم العسكري بحظر مدينة القدس العتيقة على جنود الكتيبة اليهودية التي لم يجر تسريحها البتة، الأمر الذي يستثير احتجاجًا عنيفًا من جانب اللجنة الصهيونية، التي تهدد بالشكوى من ذلك لدى الحكومة الأميركية (فعديدون من الجنود يحملون الجنسية الأميركية)[١٥٣]. وتبرر الإدارة العسكرية هذا الإجراء بسوء سلوك الجنود الذين، تحت تأثير الخمر على الأرجح، يتصرفون بشكل جارح للمسلمين[١٥٤]. وبعد ذلك ببضعة أيام، يبلغ فايتسمان وزارة الخارجية البريطانية[١٥٥] بضرورة تعزيز القوات اليهودية في

فلسطين، وذلك بسبب خطر نشوب قلاقل متأثرة بالمثل المصري وبالدسائس الفرنسية وبالنداءات اللهوب الصادرة عن سكرتير للأمير فيصل في باريس (لا يورد اسمه). فيرفض المسئولون البريطانيون هذا الطلب[١٥٦].

والحال أن الاستعداد لوصول اللجنة الدولية إنما يعيد إلى جدول الأعمال تباينات المؤتمر الفلسطيني الأول. فناشطون كالحاج أمين الحسيني أو عزة دروزه يحثون أعياناً كموسى كاظم الحسيني أو راغب النشاشيبي على الوقوف إلى صف صيغة سوريا الجنوبية ذات الحكم الذاتي الداخلي القوي، ومن ثم فهي صيغة حل وسط[١٥٧]. وفي الفترة نفسها، يجري تدشين حركة عرائض في الجليل تطالب بربط هذه المنطقة بسوريا تحت وصاية فرنسية[١٥٨].

وهذا ليس من شأنه إلاَّ أن يقلق الإدارة العسكرية. وفي ٢ مايو/ أيار[١٥٩]، يبلغ كلايتون رؤساءه بأنه بالنظر إلى عداء السكان العرب للصهيونية، فإنهم، إذا ما جرى استطلاع رأيهم، سوف يطالبون بحماية فرنسية أو أميركية. فنحن بإزاء رفض لأي برنامج صهيوني، متطرف أو معتدل. ثم إن هذا البرنامج، لكي يتسنى تطبيقه، إنما يحتم احتلالاً عسكريًا إلى أجل غير مسمى. أمَّا الصهيونيون فإنهم يكثرون من شكاواهم من الإدارة العسكرية، التي تعامل العرب بوصفهم العنصر الأوفر حظوة بين السكان.

وبعد فشل مفاوضات فيصل مع الفرنسيين، يرجع الأمير إلى سوريا في أواخر أبريل/ نيسان. إذ يجري حثه على سرعة الوصول بسبب مصاعب داخلية: فشقيقه الأمير زيد يجد صعوبة في احتواء الجذريين بينما يتصاعد التوتر في الحجاز بين الوهَّابيين والأشراف. ويعلق الأمير كل آماله على اللجنة الدولية ويقرر عقد مؤتمر سوري مهمته عرض أماني السكان. وهو يسعى، لدى وصوله إلى سوريا، إلى الظهور بمظهر من يريد التوفيق بين اليهود والعرب[١٦٠]. فهو يريد تنظيم مؤتمر يضم ممثلين للجماعتين السكانيتين. وسرعان ما يدرك أن ذلك غير ممكن ويشدِّد لدى محاوريه اليهود والعرب على ضرورة اتخاذ الموقف الأكثر اعتدالاً قدر الإمكان[١٦١].

وفي الأول من مايو/ أيَّار، يلتقي بأللنبي، الذي أصبح منذ عدة أسابيع مندوبًا ساميًا في مصر وإن كان قد ظل قائدًا عامًّا لقوات الحلفاء[١٦٢] وأصبح

ماريشالاً وفايكونت مجيدّو. وهو يشدد أمامه بقوة على حاجته إلى مستشارين بريطانيين، أكان ذلك في حالة انتداب بريطاني أم في حالة استقلال عربي. فيرد عليه أللنبي بأنه لا يعرف ما إذا كانت بلاده ستقبل الانتداب على سوريا. وفي لندن[١٦٣]، يلاحَظُ أنه لم يجر إبلاغ الماريشال بالرفض البريطاني لانتداب على سوريا، بيد أنه يجري تصور أن هذا الأخير لابد أنه قد خمن ذلك لأنه كان مكلَّفًا بالتحضير لحلول القوات الفرنسية محل القوات البريطانية. وهذه هي الفرصة لإعادة تأكيد أن بريطانيا العظمى ليست لديها تطلعات إلى الانتداب على سوريا. ويجري السعي إلى إفهام رجال الساحة ذلك، لكن هؤلاء الأخيرين يسدون آذانهم ويسعون دومًا إلى اختزال الحصة الفرنسية في شريط ساحلي بدعوى كلمة أعطيت للعرب لا تخص لا فلسطين ولا بلاد الرافدين. وبشكل أكثر جلاءً، يجس كلايتون عدة مرات نبض بيكو لكي يقترح عليه حلاً تصالحيًّا[١٦٤]: الحفاظ على وحدة إسمية لسوريا تشمل فلسطين وبلاد الرافدين تحت سلطة فيصل من الناحية النظرية، وعدم قيام حكومة مركزية بل الاكتفاء باجتماع سنوي عادي لمجلس استشاري موسَّع برئاسة الأمير ويضم ثلاثة ممثلين لكل مقاطعة من المقاطعات الاتحادية مع مندوب سامٍ فرنسي للأراضي الواقعة تحت انتداب بلاده ومندوب سامٍ بريطاني للانتداب الإنجليزي؛ وهكذا سيجري التنسيق فيما يتعلق بالمسائل ذات الاهتمام المشترك. فيبدو بيكو معاديًا لهذه المقترحات: فهي ستكون بمثابة تشجيع لنزعة الجامعة العربية وسرعان ما سيجد المندوبان الساميان نفسيهما واقعين في شرك دسائس السوريين الذين سيقومون بتأليب أحدهما ضد الآخر.

ويتبادل فيصل سلسلة برقيات مع أللنبي[١٦٥]. فالأمير ينزعج من انقسام الرأي العام السوري الذي قد يعبر أمام اللجنة سواءً بسواء عن مطلب انتداب بريطاني أو أميركي، بل وفرنسي، كما عن مطلب استقلال تام. وهو يعبر عن قلقه حيال خطر ألاّ تكون اللجنة غير ستار لقرارات جرى اتخاذها بالفعل ويطلب إصدار تصريح بريطاني يؤكد عكس ذلك. فيرد عليه أللنبي بأن اللجنة سوف تكون لها وظيفة استشارية بالنسبة لحكومات الحلفاء، وبأن الحكومة البريطانية قد أبدت نيتها في عدم قبول الانتداب على سوريا، إلاّ أنه في المجلس

الأعلى للحلفاء سوف يجري إعطاء الوزن الأكبر لاستنتاجات اللجنة.

وفي فلسطين، تتمثل استراتيجية جذريين كدروزه في الإحالة إلى ذلك المؤتمر، الذي سيجري تمثيل الفلسطينيين فيه، عندما يُسألون عن أمانيهم. والجميعات الإسلامية ـ المسيحية تريد أيضًا الاتحاد مع سوريا، تحت وصاية فرنسية في نهاية الأمر. فهذا هو ما تقوله لبيكو، الموجود في القدس في أوائل شهر يونيو/ حزيران(١٦٦).

وفي أواخر الشهر، بما أن اللجنة الدولية لم تصل بعد، يتصاعد التوتر تصاعدًا خطيرًا في فلسطين. فيقوم ماني(١٦٧)، وقد أصابه الانزعاج، بإبلاغ لندن بخطر نشوب انتفاضة مسلحة من جانب السكان العرب ضمن سياقٍ يحدث فيه تسريح القوات البريطانية بصعوبة.

وفي نهاية الأمر، ستبدأ اللجنة أعمالها بفلسطين قبل أن تذهب إلى سوريا. وهي في البداية رهان نزاع إنجليزي ـ إنجليزي. فالإدارة العسكرية، التي تسلك منعطفًا معاديًا للصهيونية بشكل حازم، إنما ترى أن اللجنة، حين تكتشف الواقع الفلسطيني بعيدًا عن خطابات الدعاية، لن يكون بوسعها سوى تقديم استنتاجات تتماشى مع اتجاهها. وتتمثل حقيقة مهمة في أن اللجنة قريبة بشكل طبيعي من مواقف العسكريين. فهذه اللجنة التي يرأسها السيدان كنج وكرين، تضم سبعة أعضاء (من تسعة) مرتبطين بأوساط المبشرين البروتستانت الأميركيين في بيروت، والذين رأينا تعاطفهم مع القضية العربية. والحال أن المبشرين معادون للصهيونية، وِ، من حيث كونهم جماعة ضغط، فإنهم يعدون مؤثرين إلى أقصى حد لأنهم يجندون من أوساط الأرستقراطية البروتستانتية في نيو إنجلند.

أمَّا العناصر البريطانية الممالئة للصهيونيين، بالمقابل، فإن الوضع يبدو لها حرجًا. فبلفور قد استبق الأمور منذ ٢٣ مارس/ آذار موضحًا لويلسون أن سكان فلسطين الحاليين إذا ما استشيروا فسوف يعبرون عن اعتراضهم على المقام القومي اليهودي، وهو ما يتعارض مع السياسة المعلنة لبريطانيا العظمى وللولايات المتحدة. والحال أن هاتين الدولتين لا يمكنهما التنصل من تعهداتهما تجاه الرأي العام اليهودي العالمي دون أن تترتب على ذلك صدمة ستكون

عواقبها وخيمة[١٦٨].

ويتوصل الممالئون للصهيونيين إلى الفوز باختيار أحدهم، هو ماينرتزهاجن، رئيس استخبارات أللنبي السابق خلال حملة فلسطين، ليكون مساعدًا ثم بديلاً لكلايتون كضابط سياسي. إلاَّ أن الأمر سيتطلب عدة أسابيع لكي يتولى مهامه. ويهيئ هربرت صمويل المستقبل أمامه بإدارة لجنة استشارية حول التنمية الاقتصادية لفلسطين. وهو يشن حملة ضد الإدارة العسكرية، غير القادرة على إفهام العرب أن تصريح بلفور أمرٌ مقضيّ[١٦٩] لا يمكن الرجوع عنه وأنهم سوف يستفيدون من التنمية الاقتصادية التي أوجدتها الاستثمارات اليهودية[١٧٠].

وتصل اللجنة إلى يافا في ١٠ يونيو/ حزيران ١٩١٩. فتبقى فيها ثلاثة أيام، ثم تذهب إلى القدس. وقد اتفق الناشطون على أن يقدموا لها برنامجهم الخاص باعتبار فلسطين سوريا الجنوبية[١٧١]. ويجتمع كلايتون بأعضاء اللجنة ويقدم لهم وصفًا للوضع مع تفاديه الحديث عن جميع المسائل السياسية[١٧٢]. وقد صدرت تعليمات إلى الموظفين البريطانيين بأن يتصرفوا بهذا الشكل إلاَّ أنه يبدو أيضًا أن بعضهم قد تجاوزوا هذه التعليمات وأشاروا إلى خطر العنف الذي يمثله بالنسبة للمنطقة تحقيق البرنامج الصهيوني. أمَّا فيما يتعلق بأعضاء اللجنة، فإنهم إنما يقدمون أنفسهم على أنهم ممثلون من حيث الجوهر للولايات المتحدة التي لا ترغب في التورط (*entangle*) في هذه المنطقة: فهم متواجدون هنا لكي يتأكدوا من رغبة السكان سعيًا إلى توصيلها إلى الرئيس ويلسون والشعب الأميركي اللذين سيكون بوسعهما التحرك فيما بعد ضمن إطار مؤتمر الصلح وعصبة الأمم.

وفي يافا، يطالب جميع السكان بالارتباط بسوريا، وإن كان بحسب ثلاثة اتجاهات متباينة[١٧٣]: وصاية واحدة بالنسبة للبلدين أو الاستقلال التام أو الوصاية البريطانية، إن لم تكن الأميركية. والمسيحيون اللاتين مؤيدون للارتباط بسوريا، وإلاَّ فلحماية إنجليزية على فلسطين؛ أمَّا الموارنة فهم مؤيدون للارتباط بسوريا تحت الوصاية الفرنسية؛ وأمَّا الروم الكاثوليك فهم منقسمون إلى أنصار للوصاية الفرنسية وأنصار للوصاية البريطانية. بينما يطالب الروم الأرثوذكس

بأن تعتبر فلسطين مستعمرة إنجليزية.

وفي قضاء الرملة واللد، يريد المسيحيون والمسلمون ارتباط فلسطين بسوريا، مع مطالبة الأغلبية بالاستقلال التام، بينما تطالب الأقلية بالوصاية الأميركية.

وبالنسبة لمنطقة الخليل، نجد أن السكان، وهم مسلمون أساسًا، يطالبون بربط فلسطين بسوريا مع الاستقلال التام. والنقب المأهولة بالبدو تطرح المطلب نفسه. أمّا سكان غزة فهم يبدون منقسمين. والجميع يعلنون مناصرتهم لربط فلسطين بسوريا. وقد طالبت الغالبية بالاستقلال المطلق. ويمضي بعض المسلمين والأرثوذكس في اتجاه الوصاية الإنجليزية. وأمّا رام الله، وهي مدينة ذات غالبية مسيحية، فهي تطالب بأن يظل البلد تحت الوصاية الإنجليزية. بينما نجد أن بيت لحم وبيت جالا، وهما مدينتان مسيحيتان أيضًا، تؤيدان الاتحاد مع سوريا، وإن كان تحت وصاية فرنسية.

وفي القدس، يفرض أعيان الجمعية الإسلامية ــ المسيحية خطهم: الارتباط بسوريا، مع انعدام ثقة بالأشراف. ويعلن المسلمون أنهم يريدون استقلالاً عربيًا تامًّا دون وصاية. ويؤكد الأرثوذكس مطالبتهم بوصاية إنجليزية، وإلاّ فأميركية. ويتمنى البروتستانت الوصاية الإنجليزية. أمّا اللاتين والروم الكاثوليك والموارنة فهم يفضلون فرنسا.

وإذا كنا نرصد خط انفصال واضحًا فيما بين المسيحيين والمسلمين فيما يتعلق بمسألة الوصاية، إلاّ أننا نجد من جديد في جميع الآراء المطلب الداعي إلى إدارة داخلية تتولى الحكم الذاتي وتتمتع بقدر كبير من الاستقلال، كما نجد رفضًا تامًّا للصهيونية ولمطالبها.

وقد توقع الصهيونيون(١٧٤) أن يجري سؤالهم عن إنجازاتهم وعن أمانيهم في الوصاية، لكن أعضاء اللجنة لا يهتمون إلاّ بمسألة العلاقات مع العرب، الأمر الذي يثير عظيم سخط الصهيونيين. والحال أن وفد البيشوف، الذي جرى الاستماع إليه في يافا، إنما يتحدث عن تكوين الدولة اليهودية بمجرد أن يصبح اليهود أغلبية: فهناك ما يكفي من المكان لشعبين وسوف تلقى الأقلية العربية معاملة حَسَنة. وعندما يجري سؤال الوفد عن ميل اليهود إلى الاعتماد على

أنفسهم فقط (اقتحام العمل)، فإنه يقلل من أهمية هذا الأمر مع تأكيده أنه سمة طبيعية للعلاقات فيما بين الطوائف في الشرق الأدنى. وتستعيد اللجنة الصهيونية في القدس التيمات نفسها وتتحدث عن علاقات الصداقة مع فيصل.

وبعد أسبوع من الإقامة في القدس، تتوصل اللجنة إلى قناعاتها. وفي ٢٠ يونيو/ حزيران، يلاحظ كنج وكرين، في مذكرة إلى ويلسون، أن فلسطين على وشك انفجار مسلَّح، وأنه أيًّا كانت الدولة المنتَدَبَة ــ بريطانيا العظمى أو الولايات المتحدة ــ فإنها [الدولة المنتَدَبَة] سوف يتعين عليها استخدام قوة مسلحة قوية إذا أرادت فرض البرنامج الصهيوني[١٧٥].

ثم يرحلان إلى سوريا، وما يجدانه هناك يرمز إلى زوال آخر الأوهام الصهيونية. وفي ٣ يوليو/ تموز، يلتقيان فيصل. وهذا الأخير جد منزعج. ففي ١٨ يونيو/ حزيران، التقى بيكو، الذي وجد سعادة كبرى في إبلاغه بالمفاوضات بين كليمنصو ولويد جورج والتي ظهر منها أن البريطانيين يريدون الآن فلسطين كبرى على حساب سوريا، في حين أن فرنسا قد دافعت عن فكرة سوريا كبرى[١٧٦]. كما أن حركة الرأي العام التي خلقها ما قامت به اللجنة من استطلاع للآراء إنما تدفع إلى تجذر متزايد يمضي في اتجاه وحدةٍ سوريةٍ واستقلال تام. وهذه الحركة إنما تعبر عن نفسها بشكل قوي قوة خاصة في صفوف السكان المسلمين، الذين يرفضون أي وصاية فرنسية، في حين أن سكان الساحل المسيحيين يتطلعون، على العكس من ذلك، إلى فرنسا. والحال أن فيصل، بتأسيس مجمل استراتيجيته على استشارة الشعب، إنما يضيِّق هامش مناورة فرنسا حيال المطالب اللبنانية. وفي حين أن باريس كانت إلى ذلك الحين جد متهرِّبة فيما يتعلق بتكوين دولة لبنانية، فإن قوة الأشياء سوف تقود الحكومة الفرنسية إلى قبول مبدأ تكوين هذه الدولة.

وأمام أعضاء اللجنة، في غير حضور لورانس، الذي انسحب من اللعبة السياسية في ذلك الوقت، سوف يعبر الأمير عن رأيه بوضوح فيما يتعلق بمسألة فلسطين[١٧٧]: هناك وحدة قومية بين سوريا وفلسطين، ولا يمكن قبول الفصل بينهما. وقبل بضعة أشهر، كان من الوارد أن يقبل برنامجًا محدودًا لهجرة مشروطة وتوسيع المستوطنات القائمة، أمّا الآن، فإن شطط المطالب

الصهيونية قد أخاف السكان، الذين يرفضون الحابل بالنابل.

والحال أن فيصل لا يفعل سوى أن يستعيد، بشكل ملطَّف، شروط القرارات التي اعتمدها المؤتمر السوري، البارحة، ٢ يوليو/ تموز ١٩١٩:

> إننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي من البلاد السورية ــ أي فلسطين ــ وطنًا قوميًّا للإسرائيليين، ونرفض هجرتهم إلى أي قسم من بلادنا، لأنه ليس لهم فيها أدنى حق، ولأنهم خطر شديد جدًّا على شعبنا، من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي. أمّا سكان البلاد الأصليون من إخواننا الموسويين فلهم ما لنا وعليهم ماعلينا(١٧٨).

ويجب أن نلاحظ أن مصطلح **الوطن** إنما يستخدم كترجمة لـ **مقام** و**كومونويلث** دون تمييز (وبهذا الشكل يترجمه إلى الإنجليزية تقريرُ اللجنة) وأننا نجد من جديد، مرة أخرى، القول المأثور حول المساواة في الحقوق والواجبات.

ومن المؤكد أن تقرير اللجنة النهائي(١٧٩)، المؤرخ في ٢٨ أغسطس/ آب ١٩١٩، سوف يتضمن بعض الثناء على الإنجازات الصهيونية، لكنه إنما يفعل ذلك لكي يستعيد على الفور ما جاء بمذكرة ٢٠ يونيو/ حزيران: إن تطبيق البرنامج الصهيوني لن يكون بالإمكان تحقيقه إلاّ ضد رغبات غالبية السكان وسوف ينطوي على استخدام القوة. فأكثر من ٧٢% من العرائض الموجَّهة إلى اللجنة بالنسبة لمجمل سوريا (وعددها الكلي ١٣٥٠ عريضة) موجهة ضد البرنامج الصهيوني. ويتوجب الحد من الأطماع الصهيونية بشكل لا تساهل فيه.

وبشكل عام، يتمثل توجه أعضاء اللجنة في تأييد انتداب أميركي على سوريا التي يجب أن يُعهد بها إلى الأمير فيصل. بيد أنهم إنما يتحدثون في الفراغ. ففي أواخر الصيف، تصبح هزيمة الويلسونية كاملة: فمجلس الشيوخ الأميركي قد رفض معاهدة فرساي والولايات المتحدة تنسحب من مؤتمر الصلح ومن المؤتمرات المشتركة بين الحلفاء. ولن يصل التقرير إلى البيت الأبيض إلاّ في ٢٧ سبتمبر/ أيلول، قبل خمسة أيام من إصابة ويلسون بالشلل. ولن تنشر الصحافة الأميركية النص الكامل للتقرير إلاّ في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٢.

ورد الفعل المعروف الوحيد من جانب ويلسون على مضمون التقرير فيما يتعلق بفلسطين هو أنه، بالنظر إلى مخاطر نشوب أعمال عنف، ليس من الحكمة أن يعبر عن رأيه علانية (١٨٠).

والحال أن الدور التاريخي للاستطلاع الأميركي دور مزدوج. فمن جهة، وكما يبين ذلك الوصف المتعلق بفلسطين، يقدم الاستطلاع صورة جد دقيقة للتطورات الجارية، بتوزيعها الجغرافي والطائفي. ومن جهة أخرى، أدى الاستطلاع إلى تسريع سيرورة الوعي السياسي في مجمل المنطقة بتوجيهه في اتجاه تجذر المواقف في لحظة أدت فيها الأحوال الأناضولية والمصرية إلى عودة ظهور شبح نزعة الجامعة الإسلامية في عملية اتخاذ القرار الفرنسية ـ البريطانية.

الفصل الثاني عشر

الـــOETA ضد الصهيونية

"حيال الإدارة، اعتمدوا موقف 'نريد الدولة اليهودية ولن ننتظر' ولم يتـــرددوا في عمل كل شيء، في هذا البلد كما في خارجه، لإرغام الإدارة ـــ التي كانـــت مرتبطـــة باحترام الوضع القائم ـــ على الانخراط، هي والإدارات التي ستليها، في سياسة لم يـــنص عليها تصريح بلفور. وليس هناك ما يدعو إلى العجب إذا ما اشتكى السكان العرب من تحيز من جانب الإدارة لصالح اليهود. فهم يرون الإدارة وقد سمحت للّجنـــة الـــصهيونية بالالتفاف حول قراراتها التفافًا منتظمًا؛ وهم يرون اللجنة الصهيونية تتـــدخل في جميـــع إدارات الحكم: القضاء، الصحة العامة، التشريع، الأشغال العمومية، وترغم الإدارة، كما في حالة امتيار فلهلمينا، على التصرف لصالحهم في صفقة تجارية خالصة؛ [...] وقد رأوا اللغة العبرية وقد وُضعت على قدم المساواة مع الإنجليزية والعربية؛ ورأوا هجرة ضخمة غير مشروطة من الناحية العملية؛ وهم يرون طوابع بريد صهيونية على الخطابـــات وشـــبّانًا صهيونيين يقومون بتدريبات عسكرية في الساحات المكشوفة في المدينة. وقـــد رأوهـــم، أخيرًا، يتجهون إلى انتخاب جمعية تأسيسية. والشيء الأكثر مشروعية هو أنهم لا يمكنهم تفهم المصاعب الجسيمة التي تواجهها الإدارة وأنهم يتوصلون من ذلك إلى اســـتنتاج أن المطالب التي يؤكدها اليهود على المكشوف قد مُنِحَتْ لهم وأن الضمانات التي يتـــضمنها تصريح بلفور ليست في واقع الأمر سوى حبر على ورق.".

تقرير يالين، يوليو/ تموز ١٩٢٠

معاداة الصهيونية ومعاداة السامية

بالنسبة للإدارة العسكرية (أوإيتا، إدارة أراضي العدو المحتلـــة)، ســـمحت اللجنة الأميركية بتهدئة حالة كانت تنذر بـــالتحول إلـــى المواجهـــة المـــسلحة. وبالرغم من التعليمات الصادرة بوجـــوب التـــزام الحيـــاد، فـــإن المـــسئولين البريطانيين قد باحوا لأعضاء اللجنة الأميركية بما يحسونه حول استحالة تحقيق

البرنامج الصهيوني، أللهم إلاّ إذا جرى استخدام القوة. وتقرير اللجنة النهائي واضح فيما يتعلق بهذه النقطة. فهذا التقرير، المؤرخ في ٢٨ أغسطس/ آب، يشير إلى أن جميع الضباط البريطانيين الذين جرى استطلاع آرائهم متفقون على ضرورة توافر جيش قوامه ٥٠٠٠٠ جنديًا على الأقل لتحقيق هذا البرنامج(١).

والحال أن عداوة كوادر الأوايتا إنما يمكن فهمها أولاً بالتحليل البراجماتي للوضع في الساحة. فهم على وعي كامل بالصعود المتواصل للتوتر السياسي منذ خريف عام ١٩١٨، وحبهم النسبي للعرب ــ وهو حب يتميز بطابع أبوي ــ إنما يستمد زاده من وعيهم بدورهم في حماية السكان أهل البلد، كما من أُخوة السلاح خلال الحرب العالمية. ومن ثم فإن شعورهم بالإحباط قويٌّ حيال تزايد المصاعب وتَبَدُّد الصداقة الأنجلو ــ عربية بسبب التنازلات المقدَّمَة للصهيونيين وللفرنسيين، في حين أن تدهور العلاقات يتسارع بين الجنود والسكان أهل البلد. فبعد المجهود الذي جرى بذله خلال الأسابيع الأخيرة للحرب، ما عاد الجنود البسطاء، خاصة من النيوزيلانديين والأستراليين، يريدون غير شيء واحد: تسريحهم الفوري والعودة إلى الوطن. ومنذ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨، وقع حادث جسيم في صرفند: ذلك أن بعض الجنود، سعيًا منهم إلى الثأر لمقتل أحدهم على يد لص عربي، قد أحرقوا القرية وهجموا على السكان، فقتلوا أو جرحوا ثلاثين شخصًا. وقد أراد أللنبي إنزال العقاب بالمذنبين، بيد أن الجيش البريطاني برمته قد تضامن معهم. والحال أن القائد العام، وقد وجد نفسه بلا حول ولا قوة، قد صب جام واحدة من أشرس غضباته(٢). وفي الشهور التالية، تقع حوادث من هذا النوع، وإن كانت أقل جسامة، في سوريا وفلسطين ومصر. وبما أن مخاطر العصيان تظل مقلقة، فإن السلطات إنما تقوم بتعجيل حركة التسريح. وفي حين أن خطر انتفاضة الأهالي، على غرار ما حدث في مصر، يظل مهمًا، فإن قوة الردع والقمع البريطانية تتآكل ــ وعندئذ يمكننا أن نفهم بشكل أفضل انزعاج مسئولي الأوايتا، الذين، شأن جمع العسكريين، يسارعون إلى رؤية يد البلاشفة الخفية، في هذه القلاقل، أكانت القلاقل التي ينخرط فيها الأهالي أم تلك التي ينخرط فيها الجنود.

والحاصل أنه في سياق كهذا بالتحديد، حيث تجري المسارعة إلى رؤية فعل القوى الخفية في كل مكان، تصل إلى الغرب، عن طريق الروس البيض، **بروتوكولات حكماء صهيون**.

وكانت ألمانيا أول المتأثرين بهذا الحدث. فمنذ غداة ثورة أكتوبر/ تشرين الأول، نشرت مجلات قومية مقتطفات من النص جرى استخدامها في "فهم" الأحداث الجارية[٣]. فيجري تحميل الموجة الثورية التي هزت البلدان المهزومة المسئولية عن الهزيمة النهائية: إننا بإزاء أسطورة "طعنة الخنجر في الظهر" والتي تذهب إلى أن دمار ألمانيا إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى المؤامرة اليهودية[٤]. ومن الواضح أن الدعاية الصهيونية حول المساعدة المهولة التي قدّمها يهود العالم لقضية الحلفاء إنما تغذي هذه الظاهرة[٥].

ومنذ غداة الهدنة، يصل النص الرهيب إلى البلدان المتحالفة. وفي أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٨، ترسل القنصلية البريطانية في نيويورك نسخة منه إلى وزارة الخارجية البريطانية ناسبةً إياه إلى الصهيونيين[٦]. وفي الشهور التالية، يجري تداول النص في أروقة مؤتمر الصلح، بيد أن توزيعه يتسع اتساعًا عظيمًا في النصف الثاني من عام ١٩١٩. وهكذا يستحق في ٤ يوليو/ تموز ١٩١٩ تحليلاً مستفيضًا من جانب أحد المحررين بوزارة الخارجية البريطانية، هو جورج كيدستون[٧]، الذي كان قد كتب بالفعل عددًا من الملاحظات حول القوة العالمية اليهودية. وتحليله الأخير عبارة عن ملاحظات على نسخة أخرى من الوثيقة جرى إرسالها إلى الوزارة.

والحال أن كيدستون مقتنع بأنها وثيقة صحيحة [غير مزيفة]: إنها تسمح، أخيرًا، بفهم نشاطات جماعة تركيا الفتاة والبلاشفة ومناضلي عصبة سبارتاكوس (الثوريين الألمان) وغيرهم ممن هم على شاكلتهم. ومن المؤكد أنها لا تخص الصهيونيين، لأن الصهيونية حركة قومية. وبالمقابل، تسمح هذه الوثيقة بفهم أفضل للعداء للصهيونية من جانب فريق من العالم اليهودي. وهدف الصهيونية شأن هدف معاداة الصهيونية هو السيطرة على العالم، لكن الأولى تسعى إلى تكوين مركز طبيعي في البداية قبل أن تمد نشاطاتها إلى بقية العالم، في حين أن معاداة الصهيونية تحرق المراحل وتعمل بجهاز دولي ناشط بالفعل...

وعندئذ نرى إلى أي مدى كان فاسدًا، في نهاية الأمر، استخدامُ ڤايتسمان للحديث المكرور عن معاداة السامية، في سعيه، في آن واحد، إلى التشهير بخصومه اليهود "الكوزموپوليتيين ورجال المال" وإلى اللعب بنفوذ الصهيونية المفترض على يهودية أميركية تجسد المال وعلى يهودية روسية تعبر عن الروح الثورية.

وتنبع قوة **البروتوكولات** التفجيرية من قدرتها على تقديم تفسير للزلازل السياسية الحادثة، مع الانتصار الظاهر لليبرالية على القوى المحافظة ــ وكثيرون من اليهود يماهون هم أنفسهم بين الليبرالية والأفكار اليهودية التي استحدثها الأنبياء ــ، كما على تقديم تفسير للتغيرات البنيوية التي مست النظام الأخلاقي التقليدي، والتي فرضها مجيء مجتمع الجماهير (ظهور كبرى وسائط الاتصال الجماهيري المعاصرة ــ الصحافة، السينما ــ، تحرير النساء).

ومن الصعب تحديد تاريخ ظهور **البروتوكولات** في فلسطين. ويؤكد ڤايتسمان في **مذكراته** أن ديديس قد أراه نسخة منها أثناء تواجد اللجنة الصهيونية في فلسطين[٨]، بيد أن رسائله في ذلك الوقت لا تذكر ذلك. وحتى إذا كان من الوارد أن ضابطًا قيصريًا قد جاء بها من جبهة القوقاز، فإن ذلك إنما يظل جد مبكر بالقياس إلى ما نعرفه عن تاريخ انتشار الكراس. ويمكننا افتراض أن الوثيقة يبدأ تداولها خلال النصف الثاني من عام ١٩١٩ وأنها قد أصبحت معروفة حقًا في الشهور الأولى لعام ١٩٢٠[٩].

ومن ثم فلا يمكننا أن نعزو إلى **البروتوكولات** موقف الكوادر البريطانية المعادي، والذي كان جد واضح بالفعل في منتصف عام ١٩١٩. وبالمقابل، يمكننا أن نرى أن النزعة الأبوية لدى هذه الكوادر إنما تقودها بشكل طبيعي تمامًا إلى الرغبة في حماية السكان العرب الفلاحين ــ غير القادرين على تصريف أمورهم بأنفسهم في العالم الحديث[١٠]ــ من الاضطهاد الذي قد تمارسه الأقلية اليهودية حيالهم، وأن هذه الكوادر تخشى في الوقت نفسه، حيال الفوضى العالمية، من التأثير السيئ للروح الحديثة ــ الرأسمالية والثورة ــ التي يعبر عنها اليهود.

وفي التحليل الأخير، فإن عداوة العسكريين البريطانيين إنما تعد عين نتاج

التمسك الجديد بما أكل عليه الدهر وشرب، وهو تمسك تولّده الظاهرة الاستعمارية: ففي حين أن التطور السياسي والاجتماعي في أوروبا يؤدي بشكل لا مفر منه إلى هدم النظام التقليدي للنظام القديم، فإن الاستعمار، في علاقة القوى التي يفرضها على السكان المستعمَرين، إنما يعيد قيمًا إقطاعية كالنزعة الأبوية والولاء والإنصاف، لأن المسألة لا يمكن أن تكون مسألة حريات وتحرير. وتلقائيًا، فإن المستعمِرين (ولكن ليس المستعمَرين) الأوروبيين، الفرنسيين والبريطانيين في المقام الأول، إنما ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أرستقراطيون جدد، يتكرمون بحماية السكان أهل البلد المستعمَر. فتكون بإزاء نبالة دولة تحوِّل كل مشكلة سياسية إلى مشكلة تقانية يتطلب حلها كفاءة إدارية. وهي تعتبر نفسها نزيهة لأنها خارجية بالنسبة إلى المجتمع ومتحررة من المؤثرات المرتبطة بمصالح خاصة.

والحال أن الطابع الاستثنائي للوضع الفلسطيني إنما ينبع من واقع أن هؤلاء الإقطاعيين الجدد البريطانيين يجدون أنفسهم في مواجهة أحدث عناصر العالم اليهودي، المتحرقة إلى الانخراط في عملية تحويل فلسطين إلى كومونويلث يهودي، في حين أن البريطانيين، في الساحة، يعتبرون أنفسهم الحماة المستنيرين للسكان أهل البلد. وعلاوة على ذلك، فإن الصهيونيين، مع قيامهم بالمطالبة بأكثر ما يمكن من الحقوق، إنما يطالبون هؤلاء المديرين بإرغام السكان العرب على قبول تصريح بلفور وعلى إخضاع مستقبلهم لتكوين مقام قومي يهودي. وعلى أفضل وجه، يرى الموظفون أن عليهم التزامًا متساويًا حيال العناصر التي يتألف منها السكان الفلسطينيون. وهم، بوجه عام، يعبرون عن تعاطفهم مع الأهالي المعرَّضين للضغوط التي يمارسها مثيرو القلاقل الصهيونيين، إلاّ أنهم، بما يتماشى مع أخلاقهم كموظفين ــ أرستقراطيين، إنما يظلون ضمن حدود واجب التحفظ، فيطبقون على مضضٍ التدابير التي لا يوافقون عليها مع قيامهم في الوقت نفسه بسلوك الدرب الهيراركي سعيًا إلى التوصل إلى تعديلات لها.

الاحتجاجات الصهيونية

بما أن المسئولين الصهيونيين يدركون أن المأزق السياسي فيما يتعلق

بمستقبل الشرق الأدنى يحول دون أي تسوية فورية، فإنهم يكثفون احتجاجاتهم على موقف الإدارة العسكرية. وعلاوة على الانتقادات المعتادة حول مسلك الكوادر البريطانية، يجري ذكر دعم الرئيس ويلسون للصهيونية والوضع متزايد الدرامية باطراد ليهود أوروبا الشرقية، الذين يتعرضون لأعمال اضطهاد جديدة[١١]. والأطماع الاقتصادية قوية دومًا. واعتمادًا على أعمال لجنة هربرت صمويل الاقتصادية، يخطط ڤايتسمان لمشاريع ضخمة كشراء سكة حديد يافا ـ القدس وحيازة الممتلكات الألمانية في فلسطين والحرية الكاملة للهجرة ونقل الأراضي البور إلى ملكية الصهيونيين، علاوة على امتيازات الخدمة العامة كالتليفون والإبراق اللاسلكي والموارد الهيدروليكية[١٢]. فيجابون بأن السياسة البريطانية لم تتغير إلاّ أنه من غير الوارد تناول مسألة بيع الأراضي ومسألة الامتيازات طالما لم يُعْهَد بالانتداب إلى البريطانيين[١٣].

كما يطالب ڤايتسمان وهربرت صمويل بسحب ستورس، بل وكلايتون[١٤]. ويجري استخدام فزاعة زيارة برانديز القريبة إلى فلسطين (ونفوذه المفترض على رئيس الولايات المتحدة). وفي ٩ يوليو/ تموز، يتعرض كلايتون، الذي كان في زيارة إلى بريطانيا العظمى، لامتحان نقل حقيقي في مكاتب المنظمة الصهيونية[١٥]. فتجري مطالبته بالتصريح بالأعمال التمهيدية لهجرة جماعية كحرية الحركة والتصرف للخبراء الصهيونيين. وهو يلام على أنه قد أنشأ نظام تسليف زراعي للفلاحين العرب، الأمر الذي يعد بمثابة انتهاك للوضع القائم. ويجري اتهام الإدارة العسكرية بأنها لا تتخذ موقفًا جد حازم حيال العرب، الأمر الذي من شأنه تشجيعهم على موقفهم السلبي وعلى رفضهم قبول الصهيونية.

ويرد كلايتون بأن الأولوية لديه هي لحفظ النظام العام، وبأن الإدارة العسكرية لا تحوز فلسطين إلاّ كوديعة، وبأنها لا يمكنها، دون تعليمات من لندن، اتخاذ مبادرات تستشرف فرض الانتداب، وبأنه يتوجب التوصل إلى تسوية سريعة لمصير الشرق الأدنى. وهو يرى أن ٧٥% من العرب سيقبلون بشكل سلمي الأمر الواقع الذي تمثله الصهيونية. ويجري الاتفاق على واقع أن أصل جميع المشاكل إنما يكمن في غياب تعليمات واضحة من لندن بشأن

مستقبل فلسطين. ويقبل كلايتون مبدأ إرسال خبراء صهيونيين.

ويسارع ڤايتسمان إلى مطالبة البريطانيين بالتصريح لروبين، وهو مواطن ألماني، بالعودة إلى فلسطين[١٦]. ويواصل معركته ضد القروض الممنوحة للمزارعين العرب، والتي من شأنها السماح بتوسيع المجال الزراعي العربي، دون مقابل لليهود[١٧].

ويتوصل الصهيونيون إلى نجاح مهم في أواخر يوليو/ تموز بتعيين ماينرتزهاجن كضابط سياسي رئيسي بدلاً من كلايتون. ويرى ڤايتسمان أن هذا إنما يعد علامة على أن أمر الصهيونية الواقع سوف يتجسد أخيرًا[١٨].

وفي ٤ أغسطس/ آب، يجري توجيه تعليمات جديدة إلى الإدارة العسكرية[١٩]: إن الحكومة البريطانية تدرس مسألة تكليف بريطانيا العظمى بالانتداب على فلسطين مع تطبيق تصريح بلفور؛ ولن يجري حرمان العرب من أراضيهم كما لن يجري طردهم من بلدهم؛ ومن غير الوارد إخضاعهم لسلطة الأقلية اليهودية، وهذا غير وارد في البرنامج الصهيوني. ويجب إفهام المسئولين العرب بأننا بإزاء **أمر مقضي**[٢٠] من المستحيل التراجع عنه.

ويتولى أللنبي الدفاع عن إدارته. فيستعيد معزوفة خطر نشوب قلاقل بسبب تصريحات صهيونيي أوروبا التي تجيء في غير أوانها[٢١]. وعندما يلتقي برانديز في مصر[٢٢]، يؤكد له إنه، خلال زيارته فلسطين، لم يلحظ موقفًا معاديًا للسامية من جانب الإدارة وأن السبب الرئيسي للتوتر صادر عن اللجنة الصهيونية، التي تخاطب المنظمة الصهيونية في أوروبا مباشرةً لكي تشكو بدلاً من تناول المسألة مع الأوإيتا.

وعلى مدار شهر يوليو/ تموز برمته، تنزعج وزارة الخارجية البريطانية من حملة الصحافة الفرنسية، والتي يخوضها بشكل خاص روبير دو كيه، ضد السياسة الإنجليزية في الشرق الأدنى. وهذه الحملة تؤثر على المسئولين البريطانيين الآخذين بإعادة دراسة استراتيجيتهم. وفي ١١ أغسطس/ آب[٢٣]، يوافق بلفور على أن كليمنصو محق في تمسكه بالاتفاق الشفاهي الذي تم في ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨. فمصدر جميع المشاكل نابع من سياسة تقرير المصير هذه التي جسدتها اللجنة الأميركية. وتجب العودة إلى روح اتفاق

سايكس ــ بيكو، الذي يجعل من سوريا فرنسية كتونس، ومن بلاد الرافدين إنجليزية كمصر. وفيما يتعلق بفلسطين، فمن غير الوارد استطلاع رأي السكان، أيًا كانت التصريحات التي تتجه في الاتجاه المعاكس. ولتشجيع أعظم هجرة يهودية ممكنة، من الضروري أن تدرج فيها المصادرُ المائية للمنطقة وكذلك الأراضي الزراعية لشرق الأردن (ما عدا منطقة سكة حديد الحجاز). ويتوجب أخيرًا ضمان التواصل الترابي بين بلاد الرافدين وشاطئ البحر المتوسط.

ويرى أنصار الإدارة العسكرية أن التوجه في هذا الدرب، والذي جرى توقعه بالفعل في مايو/ أيار ١٩١٩، إنما يعني عدم المراعاة الكافية لخطر نشوب أعمال عنف في فلسطين. والحال أن الكولونيل ووترز ــ تايلور، أحد مهندسي السياسة العربية في الساحة، إنما يلاحظ ذلك تمامًا في ١٢ أغسطس/ آب[٢٤]: إن الاحتداد العربي بعيد عن أن يكون مصطنعًا، والإدارة تتصرف بإنصاف إذ تأخذ بعين الاعتبار مصالح جميع العناصر التي يتكون منها السكان، ومن شأن الرغبة في إقامة المقام القومي اليهودي قبل الأوان استثارة إراقة للدماء من شأنها أن تجعل هذا المشروع مستحيلاً. وفي ١٨ أغسطس/ آب، يرسل الميجور ــ جنرال واطسون مذكرة تقود إلى الاستنتاجات نفسها[٢٥]، وفي ٢٦ أغسطس/ آب، يرسل الميجور كامب تقريرًا مستفيضًا حول الحركة العربية والصهيونية[٢٦]: فبعد أن وصف المنظمات الفلسطينية الرئيسية، يتهمها بالرغبة في التحضير لانتفاضة مسلحة في حالة إعلان تنفيذ البرنامج الصهيوني، حتى ولو كان هذا البرنامج معتدلاً. ورئيسه الأعلى، الكولونيل فرنش، يرى أنه يتوجب انتظار أول انتهاك للقانون لإنزال العقاب بهذه المنظمات.

وهذه المعلومات، التي نجدها أيضًا في الأرشيفات الصهيونية ــ ويمكننا افتراض أنه كان هناك تبادل للمعلومات بين الطرفين، وأن كل طرف كان يؤكد معلومات الطرف الآخر ــ، لا تجد تأكيدًا لها في المصادر العربية. وهذه المصادر نشرت في جانبها الأعظم بعد عدة عقود من "الأحداث، في زمن كان فيه النضال العربي والنضال الفلسطيني المسلح مُدْرَجًا في جدول الأعمال. ولو كان هناك تفكير في شن انتفاضة، لتفاخرت هذه المصادر بذلك. والحال أن كُتّابًا

كدروزه، أحد الناشطين الرئيسيين، إنما يشددون على الدعاية التي جرت لصالح الوحدة السورية وعلى الضغط الذي مورس على الأمير فيصل لكي يتخذ موقفا أكثر جذرية. والواقع أن الشبان الفلسطينيين إنما يلعبون دورًا رئيسيًّا داخل منظمة العربية الفتاة السرية التي، على غرار جمعية الاتحاد والترقي التي أنشأتها جماعة تركيا الفتاة قبل ذلك بعقد من الزمان، تتغلغل في المؤسسات والأحزاب السياسية في دمشق. والجانب الرئيسي من عملهم في صيف عام ١٩١٩ هذا هو جعل فيصل أداتهم سعيًا إلى الفوز بسوريا موحَّدة وذات استقلال كامل[٢٧].

نحو اقتسام الشرق الأدنى

فيما يتعلق بفيصل، فإنه يجري إبلاغه للتوّ بتقرير اللجنة الأميريكية، وهو يطالب بانتداب بريطاني، مخلصًا لسياسته المتمثلة في الإعلاء من شأن الوحدة العربية: فما دام عرب فلسطين قد حصلوا على هذا الانتداب، فلماذا لا يحصل عليه السوريون؟[٢٨] وفي دمشق، تروج شائعة مفادها أن الفرنسيين والبريطانيين قد اتفقوا على اقتسام سوريا. ويؤدي هذا إلى استثارة غضب مختلف الجماعات السياسية التي يتألف منها الحكم العربي، والتي ترفض كلها تقسيم سوريا كما ترفض قيام دولة يهودية[٢٩]. وفي لقاء مع ضابط الاتصال الفرنسي كوس، يشدِّد فيصل نبرته[٣٠]. فهو يتحدث عن مصالح الأمة العربية ويهدد بالاستعانة بالعالم الإسلامي: "الله وحده هو الذي يعلم كيف يمكن ردم الهوة التي سوف تؤدي، في هذه الحال، إلى الفصل، من جديد، بين المسيحية والإسلام". فهذا ستكون له عواقب سلبية بالنسبة لفرنسا في الشمال الأفريقي وبالنسبة للبريطانيين في الهند.

ويعبر الأمير بوضوح عن مواقفه فيما يتعلق بفلسطين:

> لقد جرى التأكيد من جهة أخرى على أن ترك فلسطين ليس له من هدف آخر سوى السماح بتحقيق المملكة الصهيونية وإتاحة الفرصة أمام الإنجليز للوفاء بالوعود التي قدموها لليهود. وأنا لا أصدق ذلك. وأنتم تعرفون في الواقع المعارضة الشرسة التي يبديها المسيحيون والمسلمون في فلسطين ضد هذا المشروع؛ وتعرفون أن الجميع قد أعلنوا هذه

المعارضة على رءوس الأشهاد، بصوت إجماعي. وإذا كان المشروع الصهيوني يجري بالفعل تحقيقه، وإذا ما جرت محاولة، مجرد محاولة، لتحقيقه، فسوف ترون ضد الإسرائيليين وضد إنجلترا حركة سيثير عنفها العجب، وسأكون أول من يدعمها.

ويؤكد له كوس أن فرنسا كانت مؤيدة دومًا للوحدة السورية. فيرد عليه فيصل بأن هذا مجرد كلام معسول: "من حيث الجوهر، أنتم تخشون من إثارة سخط الإنجليز، بل إنكم أنتم أنفسكم تخشون من إثارة سخط اليهود".

وهو لم يقف إلى جانب بريطانيا العظمى إلاّ بسبب قوتها في الساحة. والفرنسيون فعلوا ذلك أيضًا:

إذا وافقتم الآن على ترك فلسطين، إذا ما تركتم هذا الجزء الذي لا يتجزأ من سوريا في أيدي الإنجليز الذين يحوزون بلاد الرافدين بالفعل، فسوف أطالب، أنا نفسي، عندئذ بأن تصبح سوريا بدورها إنجليزية بالمثل. وبالنظر إلى غياب تجمعات ظننت أن من الوارد أن تتكون، فسأكون قد حققتُ على الأقل الوحدة العربية. والمستقبل هو الذي سيقول لنا ما إذا كان ذلك في صالح أم في طالح أمتنا، على أن هذه الأمة لن تكون على الأقل مجزأة وسوف تتقاسم هذه الأجزاء المختلفة مصيرًا واحدًا.

على أن فرنسا ما يزال بوسعها أن تلعب دورًا عظيمًا وأن تكسب الحق في الامتنان هنا، ليس فقط من جانب السوريين وإنما من جانب جميع الشعوب العربية وجميع المسلمين. فلتعلنوا على رءوس الأشهاد، جهارًا نهارًا، أنكم متمسكون بضمان وحدة أراضي سوريا، ولتعلنوا أن فلسطين لن يجري تسليمها إلى الصهيونيين؛ ولتعلنوا أنكم تعترفون بحقوق البلد. المعرَّف بهذا الشكل، في استقلال شرعي، امنحوني، باختصار، التأكيد الذي طلبته منكم والذي من شأنه أن يسمح لي بأن أتحدث بصوت عالٍ أنا الآخر، وسوف ترون البلد وقد أحرز الفوز، مستعدًا بأسره لقبول تعاون مخلص. وإلاّ فسوف تجدونني، أنا نفسي، ضدكم. إنني جد ضعيف في وجه إنجلترا. وإذا كنتم تحسون أنكم أنتم أنفسكم جد ضعفاء فلن يكون بوسعي بأي حال من الأحوال قبول تقسيم البلد على نحو ما أعلنت عنه الصحف للتوِّ.

وبعد ذلك ببضعة أيام، خلال اجتياز البحر المتوسط، يعترف، أمام ضابط

الاتصال الفرنسي تولا، بأنه قد يرضى بسيادة إسمية على الانتداب البريطاني على فلسطين[٣١].

والحال أن مصير سوريا الموحدة سوف يتوقف على الضعف البريطاني بأكثر مما على القوة البريطانية. فخلال صيف عام ١٩١٩، يبدأ المسئولون الإنجليز في إدراك الوزن جد الفادح للتعهدات التي أخذوها على أنفسهم. والمصاعب ليست بعدُ ذات طابع اقتصادي ـ فأزمة ما بعد الحرب تبدأ بالكاد ـ بل ذات طابع عسكري. فالظافرون قد حكموا الإمبراطورية بجيش ضعيف وأسطول قوي. أمّا الآن فالحالة لم يعد بالإمكان أن تكون كذلك: ففي ربيع عام ١٩١٩، ينشب في آن واحد تمرد في أيرلنده وآخر في مصر، وتمردات في جزر الهند الغربية، في حين أنه ما تزال هناك قوات في سوريا وفي فارس وفي روسيا. ثم إن الحركات الاجتماعية في المتروبول تفرض وجود قوات مسلحة مهمة. وهذا التلاحق للضربات غداة الانتصار إنما يبدو عصيًّا على الفهم، ومن هنا رواج أطروحة المؤامرة البولشفية والنجاح الهائل الذي تحظى به **بروتوكولات حكماء صهيون**. وفي سياق تسريح صعب، تتخلله أعمال عصيان في كل مكان من العالم تقريبًا، نجد أن بريطانيا العظمى تفتقر إلى الجنود[٣٢]. وتسوية مسألة الشرق الأدنى تأخرت كثيرًا وسوف يتعين قبول الانسحاب البريطاني من سوريا. وترجع الأفكار الأولى في هذا الاتجاه إلى مايو/ أيار ـ يونيو/ حزيران ١٩١٩، وقد سمحت مهلة الصيف بالتقدم في هذا الاتجاه.

وفي الأسبوع الثاني من سبتمبر/ أيلول، يجتمع لويد چورج بالمسئولين البريطانيين في دوڤيل. ويقبل أللنبي، متذمرًا، ترك سوريا لفرنسا[٣٣]. وسوف يتعين مناقشة الحدود بين سوريا وفلسطين. ويبدو خط سايكس ـ پيكو غير مقبول، فهو مفرط في امتداده إلى الجنوب. ويجري طرح نوعين من الحجج: من جهة، ضرورة إرضاء الصهيونيين ـ ومن ثم يهود العالم، الذين يحسن مراعاة جانبهم في السياق العالمي الجديد ـ، أي منحهم نصيب الأسد في الموارد المائية لأنهار الليطاني والأردن واليرموك؛ ومن جهة أخرى، ـ مادام من غير الممكن بعدُ الاستناد إلى رغبة السكان من أهل البلد ـ تحديدُ فلسطين استنادًا إلى مطابقة ناجزة مع الأرض المقدسة التوراتية. فيجري استخدام التعبير

التوراتي "من دان إلى بئر سبع"، والأطلس الذي رسمه عالم بروتستانتي، هو آدم سميث، والذي أعد خرائط تبين حدود الأرض المقدسة في مختلف العصور، إنما يصبح المرجع الحاسم. وبئر سبع موقع معروف، لأن مدينة حديثة تحمل اسمه. وعلى أي حال، فإن الحدود بين فلسطين ومصر كانت قد تقررت بشكل نهائي، عند معالجة أزمة طابا. وبالمقابل، نجد أن تحديد موقع دان، في قلب منطقة منابع الأردن، إنما يطرح مشكلات أكثر بكثير.

وفي ١١ سبتمبر/ أيلول، يبلغ لويد چورچ من ثم كليمنصو بضرورة سحب القوات البريطانية من سوريا، وفي اليوم نفسه يخبره رئيس المجلس الفرنسي بإحلال قوات فرنسية محل القوات البريطانية في قيليقيا، إلى الشمال من سوريا، سعيًا إلى حماية الأرمن[٣٤]. وفي ١٣ سبتمبر/ أيلول، يرسل البريطانيون إلى الفرنسيين مذكرةً مساعدةً تتضمن الترتيبات الرئيسية لخطتهم الخاصة بالانسحاب[٣٥]. والحال أن البريطانيين، حرصًا منهم على المستقبل، لا ينسحبون بالكامل إلى خط سايكس ــ بيكو؛ فهم يقيمون خطًا جديدًا أبعد شمالاً سوف يدخل التاريخ باسم "خط دوڤيل": فباسم الحدود المفترَضَة لأرض التوراة، وبالبرغم من المعلومات المضادة التي يقدمها أطلس آدم سميث، يجري تحديد خط توقف القوات البريطانية عند نهر الليطاني[٣٦]. ويقبل الفرنسيون المذكرة المساعدة بشرط أن لا يؤثر ذلك بأي حال على التسوية النهائية لمسألة الانتدابات والحدود، والتي سوف يجري تناولها ضمن الإطار الأعم للصلح مع تركيا.

وضمن الهدف نفسه، يلتقي ڤايتسمان في ١١ سبتمبر/ أيلول في باريس بروبير دو كيه. ويبدو هذا الأخير متشددًا فيما يتعلق بمسألة حدود سوريا، فيرفض جميع المطالب الصهيونية في مياه نهري الليطاني والأردن وفي جبل حرمون[٣٧]. على أن ڤايتسمان، إمّا لأنه لم يكن يفهم الفرنسية جيدًا، أو لأنه يتلاعب بهذه المعلومة، إنما يقول العكس تمامًا للبريطانيين. فهو يبلغ فيليب كير، سكرتير لويد چورچ، بأن انطباعه هو أن الحكومة الفرنسية سوف تقبل دون صعوبةٍ حدود الليطاني وأنه مع الدعم من جانب الأميركيين سيكون بالإمكان التوصل في نهاية الأمر إلى هذا الاتفاق فيما يتعلق بهذه النقطة الحيوية[٣٨].

ويجري استدعاء فيصل إلى لندن لكي يوافق على قرارات دوڤيل. وقد التقاه ماينرتزهاجن في دمشق في ٩ سبتمبر/ أيلول، في حضور الممثل الفرنسي لافوركاد، لكي يخبره برفض البريطانيين الحاسم تولي الانتداب على سوريا وبضرورة الاعتراف بالصهيونية في فلسطين: فتجري مناقشة مضمون التصريح الفرنسي ــ البريطاني الصادر في نوڤمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨. ويستنتج ماينرتزهاجن من ذلك أن الأمير سوف يعارض بشتى السبل انتدابًا فرنسيًا، وأن هدفه النهائي هو تكوين اتحاد عربي يشمل أيضًا فلسطين وفلسطين اليهودية تحت انتداب بريطاني[٣٩].

وشهادة لافوركاد تتمّمُ رواية الضابط السياسي:

فيما يتعلق بفلسطين، تمسَّك الأمير فيصل بتوضيح أنه سيفوض أمره لقرار المؤتمر؛ وانخال أن هذا التصريح كان على عكس التصريح الذي كان قد قيل مؤخرًا جدًّا للكولونيل كوس وصباح يوم ٩ نفسه للكولونيل تولا، حيث قال لهما إنه لن يقبل بأي حال فصل هدا البلد عن السوريين. وبما أن الكولونيل ماينرسهاجن [كذا] من جهة أخرى قد زعم لي أن الأمير فيصل غير مهتم بفلسطين، فقد حرصت على تبديد الالتباس و، بالنظر إلى تشديده في عدَّة مناسبات على عدم إمكان تقسيم سوريا، فقد انتهيتُ إلى التوصل إلى تعريفه لحدود ما يعتبره سوريا: إذ أعلن لنا رسميًّا أنه لن يكون بوسعه البتة قبول تقسيم سوريا، وهي المنطقة الطبيعية التي تبدأ من طوروس في الشرق مرورًا بالفرات وبشط العرب وتندرج فيها فلسطين. وقد رجانا أن ننقل هذا التصريح إلى حكومتينا.

وفي ١٩ سبتمبر/ أيلول، يتحادث الأمير في لندن مع المسئولين البريطانيين المعنيين (لويد چورچ، بونار لو، كيرزون، أللنبي، كورنواليس)[٤٠]. ويساعده كمترجم البريجادير ــ چنرال حداد، المساعد السابق لستورس في القدس، والذي دخل في خدمة الإشراف مع قيامه سرًّا بدور العميل المأجور للصهيونيين[٤١]. ويبلغه لويد چورچ بانسحاب القوات البريطانية إلى بلاد الرافدين وفلسطين. واستنادًا إلى مراسلات حسين ــ ماكماهون، يبلغه بأن الانسحاب سيتم إلى الغرب من خط دمشق، حمص، حماه، حلب لحساب الفرنسيين وإلى الشرق لحساب العرب. فيحيله فيصل إلى تصريح نوڤمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨.

وتعقب ذلك مناقشة حول معنى التعهدات البريطانية للشريف حسين وحول الآثار السياسية للانسحاب: فإدارتا أرض العدو المحتلة الفرنسية والعربية ستكفان عن التبعية لأللنبي. وسوف يتحمل الفرنسيون نصف اعتمادات الدعم الذي كان البريطانيون قد تحملوها إلى الآن. والحال أن نقطة الضعف الكبرى التي يواجهها فيصل هي اعتماده على المساعدة المالية الخارجية: فهي ضرورية له كيما تتمكن إدارته من العمل في سوريا حل بها الفقر ويجد صعوبة في فرض سلطته عليها.

وتنتهي المناقشة بفتور. إذ يذكِّرُ فيصل بأنه في العصر الوسيط كان من حق العبد أن يطلب بيعه إلى سيد آخر، وهو يأمل في أن يصان هذا الحق في القرن العشرين. وفي ٢١ سبتمبر/ أيلول، يرفض المذكرة المساعدة التي جرى إبلاغ الفرنسيين بها. أمّا رئيس هيئة أركان القوات العربية في سوريا، ياسين باشا الهاشمي، فيبدو أنه يهيئ لتعبئة جزئية. فيطلب الفرنسيون إلقاء القبض عليه. ويرفض البريطانيون ذلك مؤقّتًا[٤٢]، بيد أن تطور حركة التمرد التركي الذي يقوده مصطفى كمال في الأناضول إنما يبدأ في إثارة انزعاجهم، بالرغم من أنه يبدو من غير المرجح كثيرًا أن ينحاز العرب إلى الأتراك. وقد حدث لقاء ثان على مستوى عال في ٢٣ سبتمبر/ أيلول[٤٣]. وتجري فيه مناقشة معنى مراسلات حسين ـــ ماكماهون، وهو ما سوف يصبح، لعقود تالية، طقسًا من طقوس اللقاءات الأنجلو ـــ عربية. ويشرح لويد چورچ معنى المذكرة المساعدة المرسلة إلى كليمنصو ويعترف صراحةً بأن دافع الضرائب البريطاني لم يعد بوسعه تحمل عبء الالتزامات الخارجية التي تتحملها بريطانيا العظمى.

ويسعى فيصل إلى كسب الوقت. ففي ٢٥ سبتمبر/ أيلول[٤٤]، يقترح أن يظل أللنبي القائد الأعلى وأن يحتفظ البريطانيون رمزيًّا ببعض القوات في سوريا وأن يجري تكليف لجنة دولية جديدة بتحديد التدابير التي يتوجب اتخاذها قبل التسوية النهائية للمسألة التركية. وهو يهدد باللجوء إلى الرأي العام الدولي. وكان قد سعى إلى معاودة الاتصال بڤايتسمان في ٢٤ سبتمبر/ أيلول. وبحسب رستم حيدر[٤٥]، فإن الزعيم الصهيوني قد اقترح عليه دفع ٣٠ مليون جنيهًا على خمس سنوات في مقابل حقوق المساواة مع العرب. وقد قال إنه سيقدم

الناس الضروريين (الخبراء) وسيحارب فرنسا بالمال وفي الصحافة.

والواقع أننا بإزاء "كلام معسول". فمن الواضح أن ڤايتسمان لا يمكنه السير ضد اتجاه السياسة البريطانية، وكان قد دُفع إلى تشديد مواقفه بسبب مواقف نوردو وزانجويل المتطرفة كما بسبب بدء الصراع على السلطة والذي يضعه في مواجهة برانديز. وفي ٢١ سبتمبر/ أيلول، يرسم أمام الصهيونيين الإنجليز صورة عامة للوضع[٤٦]: إن تصريح بلفور لا يعني دولة يهودية بل إمكانية بنائها بدماء وعرق الشعب اليهودي، أي أن يجري في فلسطين خلق الظروف التي من شأنها أن تؤدي، بأسرع ما يمكن، إلى أن تصبح فلسطين يهودية بمثل ما أن إنجلترا إنجليزية وبمثل ما أن أميركا أميركية. وهو يكرر الصيغة مرة ثانية ويؤكد أن هذا أيضًا هو معنى تصريحه أمام مؤتمر الصلح. أمّا فيما يتعلق بالمسألة العربية القائمة منذ زمن، فلا يمكن اعتبار العرب أجانب على هذه الأرض: والشعب اليهودي، الذي طالما عانى من عمليات الطرد في تاريخه، لا يمكنه ارتكاب فعل كهذا (مايثبت أن الموضوع قد جرى التطرق إليه هو أن زانجويل هو المستهدف هنا بهذا الكلام). وسوف يحيا العرب بين اليهود مثلما يحيا اليهود في إنجلترا. أمّا التصرف بشكل آخر فسيكون حماقة. فبدلاً من تخصيص المال للتنمية، سوف يتعين استخدامه لمحاربة العرب.

وأخيرًا، يخشى ڤايتسمان من موقف وزارة الخارجية البريطانية التي يقودها كيرزون. وقد طلب إلى بلفور وإلى هربرت صمويل تولي الدفاع عن المصالح الصهيونية في مواجهة سكرتير دولة معروف بعداوته للصهيونية[٤٧]. وأخيرًا، فإن محاربة الفرنسيين لصالح العرب شيء لا معقول في اللحظة التي يبدو له فيها أن الفرنسيين مستعدون للتنازل للصهيونيين عن احتياطات نهري الليطاني والأردن المائية (هنا، يبدو أن ڤايتسمان يأخذ رغباته على أنها حقائق ملموسة).

أمّا لورانس فهو يكتب، من جهته، رسالة إلى كيرزون، في ٢٥ سبتمبر/ أيلول[٤٨]، دون أن يكون قد اتصل بفيصل. إنها الرسالة الشهيرة التي يؤكد فيها أن ما يطمح إليه هو أن يكون العرب أول دومينيون ذي بشرة سمراء لا آخر مستعمرة ذات بشرة سمراء. وهو يقترح التنازل للعرب عن المناطق الداخلية من الأراضي وأن يمنحهم الفرنسيون والإنجليز منفذًا إلى البحر على شكل ميناء

حر في حيفا وطرابلس (أو الإسكندرون). ومن الواضح أن هذا الاقتراح قد صيغ بالتنسيق مع فايتسمان، الذي يستخدم اللغة نفسها في رسالته إلى بلفور والمؤرخة في ٢٧ سبتمبر/ أيلول.

بيد أن هذا الحل لا يمكن أن يرضي فيصل و، على أي حال، فإن المسئولين البريطانيين لا يطرحونه. وعندئذ يوجه طلقة إنذار لكي يوضح إلى أين يمكن أن يقوده تجذرهُ. ففي حديث أدلى به لصحيفة **الجويش كرونيكل** في ٣ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٩، يرد بجفاء على الصهيونيين: إن فلسطين ليست أرضًا بلا شعب؛ ومن وجهة النظر العربية، فإن فلسطين ليست بلدًا، بل ولاية من ولايات الإمبراطورية العربية القادمة التي ستشمل في الحد الأدنى بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين. وموقف العرب إجماعي فيما يتعلق بهذه النقطة، الأمر الذي لا يبدو أنه كذلك في حالة اليهود فيما يتعلق بفلسطين. وقد ناقش مع فايتسمان حرية الهجرة والمساواة في الحقوق والشخصية الثقافية اليهودية، بيد أنه لم يناقش معه جعل بلد يهوديًا بمثل ما أن إنجلترا إنجليزية. وهو يحيل إلى الأندلس: ما الذي يمكن أن يقال اليوم إذا ما طالب العربُ بها؟ هذا من شأنه أن يكون نذيرًا باستثارة توترات قوية. وهو يعلن أن العرب مستعدون للحرب إلى النهاية صونًا لسيادتهم على فلسطين.

وهذا النص يزعج صمويل، الذي ينقل الملف إلى كيرزون. ويجد هذا الأخير أن من المؤسف أن **الجويش كرونيكل** قد نشرت وثيقة كهذه.

ويحاول البريطانيون دومًا إقناع فيصل بأن الوضع الجديد يُعَدُّ في صالحه تمامًا[٤٩]. ويرد الفرنسيون على المذكرة المساعدة مبدين حزمهم فيما يتعلق بمسألة الحدود[٥٠]:

إن الحدود بين فلسطين وسوريا كانت قد حُدِّدَت بموجب اتفاق عام ١٩١٦ بعد دراسة دقيقة أخذت بعين الاعتبار مصالح المنطقتين. وزحزحتها إلى ما فوق خط صور وإلى ضواحي دمشق تقريبًا من شأنه أن يحرم سوريا من عدد معين من مناطقها الأكثر خصوبة ومن سكانها الأكثر شجاعة، وذلك في ظروف لن يقبلها لا المسيحيون ولا العرب [كذا].

على أن بالإمكان الموافقة على بعض التصحيحات بعد دراسة ميدانية من جانب لجنة

مشتركة لتحديد الحدود مع مراعاة الاعتبارات الجغرافية والعرقية.

وفي ٩ أكتوبر/ تشرين الأول، يجري تعيين الجنرال جورو مندوبًا سـاميًا في سوريا بديلاً عن بيكو. وهذا هو التهديد باستخدام العصا. وعلى سبيل الجَزَرَة، يعلن الفرنسيون استعدادهم لانتهاج سياسة جد ليبرالية حيال فيصل إذا ما اتفق هذا الأخير معهم. ونجد الاثنتين مرة أخرى في تعيين روبير دو كيه سكرتيرًا عامًّا للمندوبية السامية. ثم يطلب كليمنصو أن يحضر فيصل للتفاوض مباشرة مع الفرنسيين. والحال أن الأمير، وقد فهم أنه لم يعد لديه من داعمين بريطانيين وأميركيين وصهيونيين، إنما يقبل ذلك.

المعضلة البريطانية

في ٢٦ سبتمبر/ أيلول ١٩١٩، يوجه ماينرتزهاجن، الضابط السياسي الجديد، إلى وزارة الخارجية البريطانية بيانًا سياسيًّا حقيقيًّا[٥١]. فهو يقدم نفسه على أنه معاد للسامية بالغريزة تحولَ إلى تأييد الصهيونية بفضل صلاته الشخصية، وأهمها صلاته بآرونسون، الذي مات قبل بضعة أسابيع في حادث طائرة. وتستعيد مرافعته الدعاوى العامة للصهيونيين غير اليهود: الاهتمام ذي الطابع الإنساني بيهود أوروبا، النزعة التوراتية التي تجعلهم ينظرون بعين الإيجاب إلى عودة هذا الشعب إلى الأرض المقدسة، الإيمان بأن المال والدماغ اليهوديين سيسمحان بتنمية اقتصادية للمنطقة، القيمة الاستراتيجية لفلسطين يهودية يجري تصنيعها في ظل التوجيه البريطاني، الفوز بامتنان جمهرة اليهود في الخارج. أمّا المعارضة المحلية للصهيونية فهي ترجع إلى عدم فهم لغايات ولعمل اليهود. ويفاقم من هذه المعارضة ثقلُ التعصب الإسلامي والدسائس الفرنسية والعربية التي أذاعت تصريحات صهيونيين متطرفين نشرتها الصحافة الأوروبية. وإلى ٤ أغسطس/ آب ١٩١٩، لم تفهم الإدارة العسكرية عزم الحكومة البريطانية على فرض تصريح بلفور. وهو يتوقع الكثير من زيارة ڤايتسمان القريبة إلى فلسطين، والتي سوف تبدد أشكال عدم الفهم. ويقترح قيام السلطة البريطانية بإصدار تصريح علني يحدد نواياها تحديدًا دقيقًا.

ويدعمه في هذا الاتجاه ڤايتسمان. ففي ٢٧ سبتمبر/ أيلول، يطلب هذا الأخير من بلفور أن يعهد بحكم فلسطين إلى ثلاثي من المسئولين المؤيدين للصهيونية، ماينرتزهاجن وديديس وهربرت صمويل(٥٢). وبعد ذلك ببضعة أيام، يقدم إلى وزارة الخارجية البريطانية مشروع قرار يسير في اتجاه مطلب ماينرتزهاجن(٥٣).

وفي ٦ أكتوبر/تشرين الأول، ترسم وزارة الخارجية البريطانية صورة عامة للوضع في الشرق الأوسط (بما يشكل علامة على أن هذا المصطلح الجديد نسبيًا يدخل في الاستخدام الجاري)(٥٤): إن نزول القوات اليونانية في الأناضول قد قاد إلى احتداد المقاومة التركية وقاد بشكل أخص إلى سخط عميق من جانب العالم الإسلامي، الذي يقدم دعمه الأدبي للحركة الكمالية. ويُشْتَبَهُ بأن مصطفى كمال قد دخل في علاقة مع فيصل، الأمر الذي يجعل الوضع في سوريا خطرًا. وفي فلسطين، يتحول سخط السكان العرب على الصهيونية إلى عداوة خَطِرة للبريطانيين. والحال أن فيصل، الذي تتكر لتعهداته حيال الصهيونية، قد يستفيد من ذلك إذا ما اختار طريق التطرف. وفي مصر، يبدو مرجَّحًا أن حركات الإضراب والقلاقل تستلهم البولشفية. وفي بلاد الرافدين، يقوم العراقيون المقربون من فيصل ــ وهم ضباط سابقون في الأغلب ــ بتحريض خطير إذ يطالبون على نحو خاص بمشاركة أوسع من جانب السكان أهل البلد في حكم بلدهم. وفرنسا لن تتخلى عن دعاويها في ولاية الموصل إلاّ إذا تم عقد تسوية نهائية. وفي كردستان، يكثف الكماليون والأفغان والبلاشفة من الأعمال العدائية. والعنصر الإيجابي الوحيد في المنطقة هو المقاومة التي يبديها مسلمو آسيا الوسطى في وجه زحف البلاشفة، بيد أن هؤلاء الأخيرين قد يتوصلون إلى تفاهم مع الأفغان. وقد غرق القوقاز في الفوضى بعد الجلاء البريطاني. والخطر العام هو أن يتفق البلاشفة مع الأتراك ويستغلوا سلاح الإسلام ضد المصالح البريطانية.

والخلاصة أنه، بعد عام من هدنة مودروس، يجد البريطانيون أنفسهم مهدَّدين أينما كانوا في هذه المنطقة الشاسعة. ومن ثم فإن سياسة بريطانيا العظمى تواجه معضلة: اتِّباع سياسة ممالئة للصهيونية تتماشى مع ميلها

الطبيعي أو مراعاة جانب الرأي العام الإسلامي، الأمر الذي من شأنه أن يضطرها إلى السير في الاتجاه المضاد. وهذا الوضع يفسر الطابع المضطرب للمبادرات المتخَذة.

وهكذا، فإن وزارة الخارجية البريطانية تُحَرِّرُ بالتشاور مع الصهيونيين مشروعًا أوليًّا للانتداب على فلسطين يتوافر نصه الأول في ٢٦ سبتمبر/ أيلول ١٩١٩[٥٥]: الاعتراف بالحقوق التاريخية لليهود في فلسطين، استعادة تصريح بلفور، إنشاء مجلس مؤقت يمثل يهود فلسطين ويهود بقية العالم (أمّا الصهيونيون فهم يطالبون بوكالة يهودية مهمتها التعاون مع البريطانيين)، السيطرة على الأوقاف الإسلامية من جانب حكومة فلسطين التي سوف تحترم الشريعة الإسلامية ومشيئة من أقاموا الأوقاف (إضافة صهيونية: "بقدر ما لا يتعارض ذلك مع مصالح البلد في عمومه")، قانون حول الجنسية الفلسطينية يسهل فوز المهاجرين اليهود بهذه الجنسية، إلغاء الامتيازات، صون الأحوال الشخصية للمسلمين (مطلب صهيوني: لجميع الطوائف الموجودة في فلسطين)، تشريع زراعي يحظر المضاربة العقارية (مطلب صهيوني: يجب لاستخدام جميع الموارد المائية أن يسهم في إنماء المقام القومي اليهودي)، إنشاء لجنة للأماكن المقدسة، عدم التمييز على أساس الديانة والعرق (إضافة صهيونية: "والجنس" [sexe])، صون الوضعيات الطائفية (المِلل)، حرية المبشرين في التصرف، والتي تنظمها ضرورات الحفاظ على النظام العام.

وفي ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول، يوجه ماينرتزهاجن إلى كيرزون مشروع التصريح الذي كتبه بشأن الصهيونية[٥٦]: فالمراد هو التعريف بالأهداف الحقيقية للصهيونية سعيًا إلى إنهاء احتدادٍ مصطنع راجع إلى عناصر عديمة المسئولية؛ الصهيونية أمرٌ مقضيٌ*[٥٧]؛ الحرية الدينية واحترام الأماكن المقدسة لكل ديانة؛ عدم إغراق فلسطين بجماهير من المهاجرين اليهود الفقراء بل القيام أولاً بتنمية اقتصادية من شأنها أن تسمح بعملية دمج منسجم للقادمين الجدد؛ عدم نهب أو طرد ملاّك الأراضي بل تسليم امتياز الخدمات العامة لليهود بما يسير في اتجاه المصلحة العامة؛ الأغلبية لن تخضع لحكم الأقلية لأن البريطانيين سوف يتولون حماية عموم السكان، الذين سيستفيدون من التنمية الاقتصادية التي تقوم بها

الصهيونية.

على أن ماينرتزهاجن يدرك المخاطر التي تهدد المنطقة. ففي ٢١ أكتوبر/ تشرين الأول[٥٨]، يبلغ كيرزون بالتهديد المتمثل في اجتماع ضروب السخط في سوريا وفلسطين وبلاد الرافدين ضد نظام فيصل في دمشق. وهو يتهم ياسين باشا الهاشمي بأنه محرك هذا السخط. ويوم ٢٧[٥٩]، يبدو أكثر انزعاجًا بكثير: فمع الانسحاب الوشيك للقوات البريطانية ومع التطبيق الفعلي لاتفاق سايكس ــ بيكو، فإن الثورة قد أصبحت على باب فلسطين. وهو يشكو بشكل منتظم من الدسائس الفرنسية. والحال أن الأرشيفات الفرنسية الخاصة بخريف عام ١٩١٩ إنما تؤكد وجود موجة جديدة من العرائض المطالبة بربط فلسطين بسوريا تحت وصاية فرنسية، وهو افتراض أصبح ذا مصداقية من جراء الانسحاب البريطاني ومن جراء زيارة فيصل إلى باريس[٦٠]. وممثل فرنسا في القدس يحلل هذه العرائض منذ مستهل سبتمبر/ أيلول[٦١]:

إن هذه الطلبات الصادرة في معظمها عن شخصيات مسلمة، إنما تعبر عن الرغبة الكبرى، التي غالبًا ما جرى التعبير عنها بالفعل من جانب السكان الفلسطينيين، في عدم فصل فلسطين عن سوريا، وذلك جنبًا إلى جنب مشاعرهم المناوئة للفكرة الصهيونية وخوفهم المتعاظم من أن يتحول وطنهم إلى مقام قومي يهودي.

وقد وَحّدَتْ هذه الرغبات بين المسيحيين والمسلمين، وكان قد جرى التعبير عنها بالفعل أمام اللجنة الأميركية من جانب ما يزيد عن ٨٠% من السكان الفلسطينيين.

ومنذ ذلك الحين، لم يتبدل الرأي العام فيما يتعلق بهاتين النقطتين، لكن الفريق الأعظم من المسلمين، الذين كانوا يحلمون آنذاك بالاستقلال، قد رأى انهيار حلمه ومال تينًا فشيئًا إلى صف فرنسا، الأمة التي تبدو أكثر اعتراضًا على المثل الأعلى الصهيوني. والحال أن النجاحات التي أحرزها اليهود مؤخرًا، وموقفهم وخطبهم، قد زادت من احتداد مشاعر المسلمين والمسيحيين، الذين يحسون بأن الخطر قد بات وشيكًا بما يحول دون الإفلات منه. وكثيرون من المسلمين يرغبون الآن في انتداب فرنسي وكثيرون منهم يجدون الجرأة لإعلان ذلك.

وقد طالب فريق كبير من السكان بربط فلسطين بسوريا، مدركًا أن سوريا ستكون فرنسية ومدركًا أنه يطالب هو أيضًا بالانتداب الفرنسي. وقد تم كسب هذا الفريق إلى

صف قضيتنا، وكل ما تعين عليه عمله هو أن يجد الجرأة لإعلان رأيه بالكامل. وقد فعل ذلك حيال خطر الصهيونية التهديدي وبالرغم من الخوف من التعرض لأعمال انتقامية إنجليزية.

[...] إن المسلمين المنحازين إلى صف الأشراف، والذين يشكلون أقلية من شبان المدن، هم الذين يعارضون فرنسا على المكشوف، على أن الشائعات التي راجت بشأن الاتفاقات التي تم توقيعها بين الأمير والصهيونيين قد أعادت إلينا البعض من أوسعهم تأثيرًا والذين يبدون الآن الأكثر إخلاصًا لقضيتنا.

وفي الجليل على الأقل، أسهم ممثلو قنصلية فرنسا في حفز العرائض الجديدة[٦٢].

وفي ٧ نوفمبر/ تشرين الثاني، يبلغ كيرزون أللنبي بأنه لا يمكنه الموافقة على مشروع التصريح الذي أعده ماينرتزهاجن[٦٣]: فهو يشكل مساسًا بقرار مؤتمر الصلح فيما يتعلق باختيار الدولة المنتدَبة. ويلزم الحكومة البريطانية إلزامًا مسرفًا بالانخراط في دعم الطموحات الصهيونية. ويجري اقتراح صيغة تؤدي إلى اختفاء الإشارات المباشرة إلى بريطانيا العظمى. ويقبلها ماينرتزهاجن بعد أن طلب بعض التعديلات.

وفي ١٠ نوفمبر/ تشرين الثاني، يقدم ماينرتزهاجن صورة متباينة الظلال للوضع[٦٤]: ففي سوريا، يسلك التطور السياسي منعطفًا معاديًا لأوربا بحزم ويجري الحديث عن التقارب مع الكماليين، بل مع الألمان، في حين أن المناخ السياسي في فلسطين يتحسن بفضل زيارة ڤايتسمان الذي تمكن من إلزام أناس كأوسيشكين حدودهم، فهم، بموقفهم المتطرف، كانوا قد استثاروا توترات مع البريطانيين والعرب. وليست معاداة الصهيونية غير شعور مصطنع سوف يتبدد بفضل اتخاذ الصهيونيين موقفًا معتدلاً. واستنادًا إلى هذا التحول، يقرر الضابط السياسي إرجاء نشر التصريح[٦٥].

كما يسعد ڤايتسمان بالعلاقات، التي باتت أفضل، مع الإدارة العسكرية، بفضل دور ماينرتزهاجن[٦٦]. وهو يحمِّل بعض الضباط الإنجليز المسئولية عن الوضع، لأنهم لا يفهمون أنه، عبر سياسة تنمية اقتصادية، سيكون هناك مكان

للشعبين في فلسطين. وهو يشكو من التواجد الطاغي لمرءوسين مشارقة في الإدارة، هم الأعداء الحقيقيون للصهيونيين. ويقترح المطالبة بإحلال شبان يهود محلهم. ويحدد برنامجًا فوريًا لحيازة الأراضي، خاصة الألمانية. ويلتقي بأللنبي في القاهرة ويخرج من اللقاء يخامره الانطباع بأنه قد أقنعه(٦٧).

وفي ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني، يتطرق ماينرتزهاجن إلى مشكلة حدود فلسطين(٦٨): إن خط سايكس ـ پيكو شأن خط دوڤيل غير مرضيين لأنهما لا يكفلان لفلسطين وصولاً كافيًا إلى الموارد المائية. وهو يقترح خطًا جديدًا، سوف يأخذ في التاريخ اسم خط مانزتزهاجن، يستوعب، بشكل أفضل من الخط السابق، الاحتياطيات المائية لنهري الليطاني والأردن. والحال أن ماينرتزهاجن وڤايتسمان على اتصال مستديم ويقومان بتنسيق تحركاتهما. وهما يبلغان هربرت صمويل بهذه التحركات بشكل منتظم. وهذا الخط الجديد يرفضه الفرنسيون، الذين لا يمكنهم قبول امتداد فلسطين إلى مشارف دمشق(٦٩). وبشكل يتميز بالدهاء، يصورون أنفسهم على أنهم حماة المصالح العربية ويعتمدون على تقدم المفاوضات مع فيصل لرفض مطالبة البريطانيين باحتلال منطقة صور(٧٠). بل إن الأمر سوف يصل بهم إلى حد الإشارة إلى أنهم مستعدون لدعم بعض مطالب فيصل في فلسطين. والحال أننا بإزاء عنصر من عناصر المساومة مع البريطانيين كما أننا بإزاء وسيلة للاحتفاظ بدور في الأراضي المقدسة. كما أنهم يسعون إلى الفصل بين مسألة السيادة ومسألة الموارد المائية، ويقترحون ترك ثلث مياه جبل حرمون للصهيونيين وذلك ضمن إطار ترتيب مع فرنسا(٧١). وفي المقابل، يصمدون فيما يتعلق بالإبقاء على خط سايكس ـ پيكو.

وفي نهاية المطاف، فإن الانسحاب البريطاني إنما يعد أوسع مما كان متوقعًا. فدون أن يمضي إلى خط سايكس ـ پيكو، يترك شمال الجليل خاليًا من الجنود البريطانيين، في حين أن الفرنسيين، الذين يقصرون حلولهم [محل البريطانيين] على ڤيليڤيا والبقاع، لا يمكنهم التواجد هناك. ومن ثم فإن المستوطنات اليهودية في شمال فلسطين (المطلّه، حمرا، كفار جلعادي وتل حي) إنما تجد نفسها في منطقة تسيطر عليها من الناحية النظرية قوات فيصل لكنها مجردة بالفعل من أي حماية. والحال أن القوميين العرب، في جميع المناطق

الواقعة بين الانتشار العسكري الفرنسي وانتشار قوات فيصل، إنما يحرضون العصابات المسلحة القروية على مهاجمة المواقع الفرنسية. وتلك بوجه خاص حالة جبل عامل (الجنوب اللبناني حاليًا)، حيث تجتمع عمليات قطع الطرق على مستوى واسع مع النضال القومي اجتماعًا لا فكاك منه.

وفي ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني[٧٢]، يصدر أللنبي الأمر بإلقاء القبض على ياسين باشا، المعتبر خارجًا على أوامره. فينصب له البريطانيون فخًا بدعوته إلى تناول الشاي في معسكراتهم في فلسطين ويحتجزونه في يافا. وهذه ضربة جد قاسية لسلطة فيصل، الذي يجري مفاوضات صعبة مع الفرنسيين في باريس[٧٣]. وعبثًا يحاول الاحتجاج، فالقرار المتخذ لا يجري تغييره[٧٤].

كما يشير الحادث أيضًا إلى التباعد المتزايد بين البريطانيين والحركة العربية: فالتحالف الذي صيغ خلال الحرب آخذ بالتفتت. ويفرض التقارب مع الصهيونيين نفسه. ففي ١١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٩[٧٥]، يجري الانتهاء من مشروع أوليٍّ جديد للميثاق، يشتمل على المطالب الصهيونية الرئيسية، كمطالبتهم بإعادة تكوين فلسطين كمقام قومي يهودي (إيريتز إسرائيل) وإنشاء وكالة يهودية ذات وضعية مميَّزة في امتيازات الخدمة العامة، وتسهيل حصول المهاجرين الجدد على الجنسية الفلسطينية، ومحو التفرقة بحسب الجنس (sexe) ومحو البند الخاص بالأوقاف. وبعد ذلك ببضعة أيام، تجري دعوة هربرت صمويل رسميًا إلى الحضور إلى فلسطين لدراسة الوضع ميدانيًا[٧٦].

وفي أواخر ديسمبر/ كانون الأول[٧٧]، لا يسع الجنرال بولز، المدير العام الجديد لفلسطين، إلاّ أن يسعد لنتائج زيارة ڤايتسمان: لقد قلل من التناحرات مع العرب والعسكريين بإلزامه الصهيونيين المتطرفين حدودهم. ويتسنى السماح بدخول المهاجرين اليهود الأوائل سرًا والتصريح بالصفقات العقارية، على الأقل الصفقات محدودة الأهمية. وما أن يُعْهَدَ إلى البريطانيين بالانتداب، سيكون بالإمكان الانخراط في سياسة تنمية مستندة إلى قروض تتراوح بين ١٠ و٢٠ مليون جنيهاً. والواقع أن العلاقات بين بولز وڤايتسمان ممتازة[٧٨]. ولا يدوم ذلك طويلاً. فماينرتزهاجن يحثه على نشر التصريح الذي كتبه ويهاجم موقف إنجليز فلسطين قليل الملاءمة حيال الصهيونيين، ويرفض بولز النشر ويطلب

منه تحديد اتهاماته ضد هؤلاء الإنجليز من بني وطنه[٧٩].

ويبقى مع ذلك أن المسألة السورية تنيخ بكلكلها على مصير فلسطين. فالعرب يواصلون المطالبة بالوحدة السورية، بينما يبدو الفرنسيون متشددين فيما يتعلق بمسألة الحدود. وفي ٢٩ ديسمبر/ كانون الأول، نجد أن ڤايتسمان، العائد إلى لندن، إنما يشكو للويد جورج من ذلك[٨٠]: إن خط سايكس ـ بيكو يحرم الصهيونيين من الموارد المائية لنهري الليطاني والأردن كما من إمكانية استيطان أراضي الجولان وحوران الثرية. وهو يزعم أن الممالك التوراتية قد امتدت إلى هذه المناطق وأن الأهلية الاقتصادية للمشروع الصهيوني تفرض، على أي حال، دمج هذه المناطق بفلسطين. وبوصفه رجلاً يجيد التلاعب بالكلام، فإن بوسعه التكلم بلغة مزدوجة، فيوضح تارةً أن هناك ما يكفي من المكان لشعبين في فلسطين ويوضح تارة أخرى أن الضرورات الاقتصادية تفرض توسيع أرض فلسطين إلى أبعد مدى ممكن.

كما أن البريطانيين يزعجهم تقدم المفاوضات بين الفرنسيين وفيصل. فبقدر ما يمد هذا الأخير سلطته إلى شرق الأردن (الأوإيتا ـ شرق) سيكون بمقدور الفرنسيين مد نفوذهم إلى داخل شبه الجزيرة العربية، ساحة الصيد التي يحتكرها البريطانيون. وترتأي وزارة الخارجية البريطانية اللجوء إلى تحكيم أميركي فيما يتعلق بحدود فلسطين ـ لكن باريس ترفض ذلك ـ أو التوصل إلى صفقة على أساس التناظر. فيوحي بيرتلو بأن فرنسا قد تخفف من موقفها على أساس تقديم تنازلات فيما يتعلق بوضعية طنجة وبأراضي أفريقيا السوداء (غامبيا)، لكن لندن لا تريد سماع شيء عن ذلك. ولا يعود أمام لندن إلاّ أن تتبنى بشكل سافر وجهة النظر الصهيونية بشأن الحدود الشمالية وإلاّ أن تفرضها على الفرنسيين[٨١]. فيشير كيرزون إلى أن تعليق الضمانة الأنجلو ـ أميركية بشأن الحدود الفرنسية ـ الألمانية يمكن استخدامه كأداة للضغط. وبعض المسئولين الفرنسيين يواصلون الحلم بحماية فرنسية على فلسطين. وهكذا فإن العميد البحري مورنيه، قائد الفرقة البحرية في سوريا، يزور القدس، حيث كان أعضاء الجمعية الإسلامية ـ المسيحية، بمن في ذلك المسلمون، قد حثوه على السير في هذا الاتجاه[٨٢]. وجورو محبذ تمامًا للقيام بعمل لصالح

العرب الفلسطينيين. وتستخدم الدعاية الفرنسية حسن صدقي، المحرِّك القديم لجمعية مقتطف الدروس، الذي كان قد التقى بالمندوب السامي الفرنسي في بيروت[٨٣]. بل يجري في بيروت التفكير في استخدام سلسلة من العرائض القادمة من حوران والمناطق المجاورة لها والتي تطالب بالوحدة السورية، وهي عرائض قدمها لطف الله، وهو ثري من أثرياء شوام مصر انتقل إلى تأييد النزعة القومية العربية ويقدم نفسه على أنه ممثل للأشراف وإن كانت له أطماعه الشخصية[٨٤].

والحاصل أن توقيع الاتفاق المرحلي في ٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٠ بين فيصل وكليمنصو والذي يعطي وضعية ليبرالية لدولة عربية سورية تحت الانتداب الفرنسي إنما يشغل البريطانيين لاسيما أن باريس تجد متعة خبيثة في عدم إبلاغهم بنص الاتفاق. وسوف يتعين الانتظار إلى ١٦ يناير/ كانون الثاني حتى يتمكن حداد باشا، ممثل فيصل في إنجلترا، من توصيل مضمون الاتفاق إليهم سرًّا[٨٥].

المملكة العربية

في ١٤ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٠، يصل فيصل بحرًا إلى بيروت، حيث يستقبله جورو استقبالاً بحرس شرف عسكري. والحاصل أن الكولونيل ووترز ـ تايلور، الذي فاجأ وصولُهُ الفرنسيين، إنما يحصل على لقاء مع الأمير[٨٦]. فيشكو هذا الأخير من البريطانيين الذين سلموه "للفرنسيين مربوط القدمين واليدين"، ويطلب إطلاق سراح ياسين باشا، "فهذه مسألة قومية بالنسبة للعرب". وفي الأيام التالية، يوضح الأمير ورفاقه لمحاورهم البريطاني أن الفرنسيين قد وعدوا إلى هذا الحد أو ذاك بدعم المطلب العربي في فلسطين. وبما أن الأمر ليس كذلك بالتأكيد، فبوسعنا افتراض أن الأمير إنما يسعى إلى اللعب على التنافس الفرنسي ـ البريطاني. ويشكو ووترز ـ تايلور لجورو ويطالب باحترام الفرنسيين لاتفاق سايكس ـ بيكو. فيجدد جورو التأكيدات التي كان روبير دو كيه قد قدمها بالفعل قبل ذلك ببضعة أيام: لا تدخل من جانب فرنسا في المنطقة البريطانية، وذلك، كما هو واضح، في مقابل المعاملة بالمثل فيما

يتعلق بمنطقة الفرنسيين. بيد أن أقوال فؤاد الخطيب، مدير الشئون الخارجية بالحكومة العربية، إنما تسير في الاتجاه المخالف: ففيصل في أيدي الفرنسيين الذين يمولون حركة عربية واسعة في سوريا وفلسطين وبلاد الرافدين؛ وقد تمتد القلاقل إلى مجمل أجزاء العالم الإسلامي المحتلة من جانب بريطانيا العظمى. والوضع على الفرات يجعل هذه التهديدات ذات مصداقية: ففي شهر ديسمبر/ كانون الأول، قامت وحدات عربية بطرد الحامية البريطانية الصغيرة من دير الزور وأرغمت الإنجليز على الانسحاب إلى ولاية الموصل. وبالمقابل، نجد أن الضعف الرئيسي الذي يشكو منه فيصل إنما ينبع من وضعه المالي: فالإيرادات التي ينجح في استخلاصها من سوريا إنما تعد جد هزيلة، وهو يعتمد، في صون سلطته، على إعانات فرنسية ـ بريطانية.

والحال أن ماينرتزهاجن، في تقريره المؤرخ في ٢٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٠، إنما يستعيد استنتاجات ووترز ـ تايلور[٨٧]. ويانج، وهو ضابط سابق ورحالة مستعرب كان قد خاض حملة بلاد الرافدين ثم حرب الحجاز[٨٨]، لا يخفي، في تعليقاته، حيرته: فالوعد الفرنسي بمنح فلسطين لفيصل لا يتماشى مع النص الذي قام حداد باشا بتوصيله سرًا. وبسبب ضرورة التزام الصمت حيال أصل المصدر، فإنه لم يكن قد جرى إخبار ماينرتزهاجن به. ويحلل يانج المسألة على أنها مناورة من جانب فيصل لتمرير الاتفاق لدى الرأي العام السوري مع وعده بفلسطين. وبما أن البريطانيين سوف يرفضون، فإن الخزي كله سيلحق بهم. وفي اللحظة المباشرة، فإن ذلك إنما يعني تجدد معاداة الصهيونية في فلسطين.

وعندما يصل فيصل إلى دمشق في ١٦ يناير/ كانون الثاني، يصطدم بعداء شامل لأي تصديق على الاتفاق مع الفرنسيين. فيجد نفسه معزولاً بالكامل: فالناشطون العراقيون لا يفكرون إلا في شن انتفاضة في بلاد الرافدين والفلسطينيون يرفضون أي انتداب بريطاني على فلسطين والسوريون لا يريدون سماع أي شيء عن انتداب فرنسي. وقد تغلغلت الجمعية العربية الفتاة في الإدارة كلها وهي تعارض بكل قواها اتفاق ٦ يناير/ كانون الثاني. وفي باريس، يتنحى كليمنصو، بعد فشله في الانتخاب إلى رئاسة الجمهورية. فيحل

محله ميللران، الأقرب بكثير إلى الحزب الاستعماري الذي يخوض المتحدث بلسانه، روبير دو كيه، وقد أصبح سكرتيرًا عامًّا للمندوبية السامية في بيروت، حملة تهدف إلى إعادة النظر في الاتفاق المرحلي.

وفي منتصف فبراير/ شباط، يمكن بالفعل اعتبار اتفاق فيصل ــ كليمنصو بمثابة اتفاق ولد ميِّتًا: ففيصل يبلغ أللنبي بأن أي قرار يتعلق بسوريا وفلسطين وبلاد الرافدين، يُتَّخَذ خارج حضوره، لن يعترف به العرب وسوف يؤدي إلى استثارة مصاعب لا يمكنه تحمل المسئولية عنها[٨٩].

وعلى مدار شهر يناير/ كانون الثاني كله، أبدت الحكومة الفرنسية حزمها فيما يتعلق بمسألة الحدود الفلسطينية. وفي مستهل شهر فبراير/ شباط، يحضر سوكولوف إلى باريس لكي يدافع عن الملف الصهيوني[٩٠]. ويلتقيه ميللران بمودة ويعطيه الانطباع بأنه يوافق على أطروحته. ويحدث الشيء نفسه من جانب رئيس الجمهورية الجديد بول دوشانيل[٩١]. أمّا المسائل ذات الأهمية فتجري معالجتها بين الفرنسيين والبريطانيين خلال مؤتمرات لندن. وفي ١٧ فبراير/ شباط ١٩٢٠، يمثل بيرتلو فرنسا فيها[٩٢].

وموقفه واضح:

> تقترح فرنسا الموافقة عبر اتفاق محدَّد على أن يحصل الصهيونيون على كمية من المياه تكفي لتلبية احتياجات الريّ. وعلاوة على ذلك، فسوف تبذل فرنسا كل ما بوسعها لتأييد نمو [مقام] في فلسطين، طالما أن هذا النمو لن يتعارض مع رغبات السكان الأولين.

وبما يشكل نتيجة مرجّحة لرحيل كليمنصو، تصبح الكيه دورسيه من جديد المدافع عن المصالح الكاثوليكية ويجعل بيرتلو من نفسه المدافع عن "الحقوق التقليدية لفرنسا" وعن سكان فلسطين الكاثوليك وعن المبشرين الفرنسيين. فيستعيد لويد جورج حجاج البريطانيين المعتاد. ويقترح بيرتلو حلاً وسطًا يؤدي إلى زحزحة الحدود إلى مستوى بحيرة طبرية. ولا يتم تقرير أي شيء ذلك اليوم.

ومن بيروت، يتحدث جورو عن جسامة قوة العداء للصهيونية في دمشق[٩٣]. فعندما عاد فيصل إلى عاصمته، جرى توزيع منشورات ذات

مضمون سافر: "سنحرر فلسطين بالسلاح أيًا كان رأي الإنجليز في ذلك. فلسطين تهب قلبها لأميرها فيصل. كفى". وقد رد فيصل على وفد فلسطيني جاء للترحيب به: "ستقوم في فلسطين قريبًا حكومة قومية، تمسكوا بالصبر، إن فلسطين سوف تُضَمُّ إلى سوريا". وتحاول بعض شخصيات الحكومة العربية كنوري السعيد اجتذاب اهتمام الفرنسيين بحركة عربية جديدة تكون هذه المرة مناوئة للبريطانيين(٩٤). فإذا ما دعمت فرنسا إنشاء إمبراطورية عربية موحَّدة، فسوف تفوز بمكانة ممتازة في اقتصاد الدولة الجديدة. والحال أن جورو، والذي يود من صميم فؤاده بالفعل إثارة مصاعب في كل مكان في وجه البريطانيين، لكنه يعرف أن تعليمات باريس صارمة فيما يتعلق بهذه النقطة، إنما يرد بأن الصداقة الفرنسية ـ البريطانية تكتل لا يمكن المساس به، وبأنها أساس من أسس سياسة فرنسا وبأن هذه المسائل الكبرى تتجاوز اختصاصاته.

وخلال شهر يناير/ كانون الثاني، تتدهور العلاقات بين الإدارة العسكرية والصهيونيين. فالموظفون البريطانيون يقدمون أنفسهم من جديد كمدافعين عن السكان العرب. ومن المرجح أننا بإزاء رد فعل على المنعطف الذي سلكته الحركة الصهيونية، التي، بعد أن أنجزت إعادة تنظيم الطائفة اليهودية في فلسطين وفرضت عليها هيمنتها، تسعى إلى الانتقال الآن إلى مرحلة الإنجازات العملية. ففي ٢ فبراير/ شباط ١٩٢٠، يرسل ڤايتسمان إلى كيرزون(٩٥) برنامجًا حقيقيًا لإنماء فلسطين انطلاقًا من الأعمال التحضيرية للجنة التي يرأسها هربرت صمويل. ويصل هذا الأخير في الشهر نفسه إلى فلسطين. ويطالب ڤايتسمان باستئناف الصفقات العقارية، حيث إن الصهيونيين قد أصبحوا الآن على استعداد للحركة، كما يطالب بحرية الهجرة (فيما عدا بعض موظفي المنظمة الصهيونية، فإن اليهود الوحيدين الذين جرى التصريح لهم إلى الآن بدخول فلسطين هم من كانوا قد طردوا خلال فترة الحرب). وهو يحث على اختزال عدد السوريين في الإدارة وعلى إحلال بريطانيين ويهود فلسطينيين محلهم.

وفي فلسطين، في ١٨ فبراير/ شباط، يتحدث بولز علانية للمرة الأولى عن اتجاه السياسة البريطانية. ونحن بإزاء صيغة جد معدّلة للتصريح الذي أعده

ماينرتزهاجن، خاصة فيما يتعلق بحقوق العرب السياسية وشروط الهجرة[٩٦]:

١. إن الحلفاء، خاصة الولايات المتحدة وفرنسا، قد وافقوا على منح اليهود بعض الحقوق في فلسطين. كما أنهم قد وافقوا على تصريح بلفور، والذي يهدف إلى إنشاء مقام قومي يهودي في فلسطين، بشرط أن لا يؤدي ذلك إلى المساس بالحقوق الدينية والمدنية والسياسية للسكان.

٢. سوف تقوم إنجلترا بإخضاع الهجرة اليهودية إلى فلسطين لقيود وشروط وضوابط صارمة، كيلا تلحق ضررًا بالوضع الاقتصادي للبلد. ولن يتم قبول غير اليهود الذين لهم مهنة أو المتعلمين أو من لديهم موارد، كيلا يكونوا عبئًا على السكان وكي يتسنى للسكان الاستفادة من معارفهم ومن خبرتهم الزراعية والتجارية والاقتصادية. وفي جميع الأحوال، فإن هذه الهجرة لن تحدث إلاّ عندما تسمح بذلك ظروف البلد.

٣. ستحمي الحكومة ملكية الفلاحين ولن تسمح للناس ببيع أراضيهم إلاّ في حالة الضرورة.

٤. سوف يجري حكم البلد من جانب دولة عظمى قوية ووصية، تقيم العدل وتحمي حقوق الناس كيلا يتعدى القوي على الضعيف.

٥. لا ينوي الحلفاء ولن يكون في نيتهم أبدًا إقامة حكومة يهودية في البلد. فالبلد سيحكمه أبناؤه هو وسوف تصدر الأحكام بموجب قوانين يصدرها مجلس منتخب بأغلبية الاقتراع العام. وتتخذ الحكومة في هذه اللحظة تدابير مفيدة لضمان حقوق السكان. وسوف تقوم من الآن بإعداد سكان البلد للحكم الذاتي [*self-government*]، عبر استدعاء عدد كبير من بينهم لتولّي وظائف تحت قيادة حكام على مستوى جيد من التعليم والنزاهة.

وهو يظن أنه قد نجح بذلك في تهدئة انزعاجات السكان العرب. بيد أن العكس هو ما يحدث. ففلسطينيو دمشق يجتمعون في مؤتمر عام يوم ٢٧ فبراير/ شباط ويدعون إلى اتحاد فلسطين وسوريا[٩٧]. وفي اليوم نفسه، تنظِّم الجمعيات الإسلامية ــ المسيحية في الاتجاه نفسه تظاهرات في مراكز فلسطين الحضرية الرئيسية. وهي تتم في هدوء، بالرغم من انزعاجات الصهيونيين من أن تهبط إلى أعمال عنف ضد اليهود. بيد أنهم هم أنفسهم لا يقومون بشيء من

أجل تهدئة الخواطر: فهم يرددون النشيد الصهيوني، الهاتيكفا، أمام المتظاهرين الذين يسيرون على مقربة من منشأة يهودية في القدس[٩٨].

- ويرى ماينرتزهاجن في الأمر اليد الخفية للفرنسيين[٩٩]، الذين استأنفوا نشاطاتهم الخطرة منذ وصول جورو. والحق أن المندوب السامي قد استدعى قنصل فرنسا العام في القدس، ريه، لكي يطّلع على الوضع، وأنه يجد إغراءً في استخدام المصاعب البريطانية كوسيلة للضغط سعيًا إلى التوصل إلى تسوية للمسألة الفلسطينية أكثر ملاءمة للنفوذ الفرنسي، فالحل الأنجلو ـ صهيوني لن يكون كذلك[١٠٠]. وهو يقترح أن تقبل الحكومة الفرنسية استقبال وفد فلسطيني سيزور باريس:

من المناسب ملاحظة أننا إذا لم نقم بتوجيه هذا الوفد، الذي يطلب رعايتنا، فسيكون ذلك نذيرًا بانضمامه في باريس إلى وفد الأشراف وبتضخيم عمله، وذلك بالنظر إلى أن حكومة دمشق مستعدة، كما أبلغتُ معاليكم بذلك بالفعل، [...] لأن تتبنى الاحتجاج الفلسطيني ولأن تقوم بتشجيع حركة ارتباطٍ بسوريا الكبرى.

وترقبًا لرد من باريس، يتعين على قنصل فرنسا أن يضع أنصار هذا الوفد وكذلك أعضاءه المحتملين في حالة تَنَبُّه. ولو كان الرد سلبيًا، فإن "مسألة الضمانات التي يجب تأمينها للطوائف المسيحية في فلسطين الصهيونية [...] سوف تكتسب أهمية أكبر مما في أيّ وقت مضى". وتتمسك باريس بموقف متحفظ حيال النزعة القومية الفلسطينية و، بما يشكل علامة على التوجه الجديد المتخذ منذ وصول ميللران إلى السلطة، فإنها تهتم أساسًا بالدفاع عن الحقوق التي حصلت عليها فرنسا في فلسطين بموجب الامتيازات.

ومصدر التجذر هو دمشق والعصابات، وهي عصابات مسلحة فلاحية أساسًا على هذا القدر أو ذاك من الارتباط بالمنظمات السياسية. وعملها، وهو عنصر أساسي في الحركات الريفية الكبرى في الشرق الأدنى بين الحربين العالميتين (١٩١٩ـ١٩٢٠ و١٩٢٥ـ١٩٢٧ في سوريا، ١٩٣٦ـ١٩٣٩ في فلسطين)، إنما يتكون من مبادرات محلية يتخذها زعماء يتمكنون، بفضل مكانتهم، من أن يحشدوا حولهم عددًا معينًا من الناس الذين يجمعهم أصل

جغرافي واحد ونسب واحد في الأغلب. والحال أن النضال القومي والديني الذي يخوضونه إنما يمتزج امتزاجًا لا فكاك منه بالعداوات الطائفية وبالميل إلى النهب.

وقد تكاثرت العصابات في المناطق التي انسحبت منها القوات البريطانية في خريف عام ١٩١٩. وهي تشكل قوة حرب عصابات حقيقية ضد القوات الفرنسية المرابطة في سهل البقاع. وفي فبراير/ شباط ١٩٢٠، تتجه عملياتها أيضًا إلى شمال الجليل الذي انسحب منه البريطانيون، حيث توجد مستوطنات المطلّه وتل حي وكفار جلعادي اليهودية. والحال أن مجموعة من المتطوعين الصهيونيين تحت قيادة چوزيف ترامبلدور، البطل اليهودي في الحرب الروسية ـ اليابانية، إنما تتحرك للدفاع عن هذه المستوطنات، بعد أن رفضت الانسحاب منها. وفي الأول من مارس/ آذار، فإن عصابة مسلحة قادمة من جبل عامل (الجنوب اللبناني الآن)، وتتألف من شيعة، تصل إلى تل حي وتطلب تمكينها من الدخول إلى المستوطنة بحثًا عن جنود فرنسيين. ويؤدي حادث إلى تبادل لإطلاق النار يصاب فيه ترامبلدور بجراح جسيمة. وهو يواصل قيادة المقاومة قبل أن يموت وهو يقول الكلمات التي سَجَّلها التاريخ: "جميل أن يموت المرء في سبيل بلاده". وفي الليل، يجري ترك المستوطنة وينسحب الناجون إلى جلعادي. فيصمدون دفاعًا عن الموقع لعدة أيام ثم ينسحبون بسبب خطر هجوم شامل[١٠١].

والحال أن هذا الحادث قليل الشأن، وهو ليس حادثًا فلسطينيًا في الأصل، حيث إن المهاجمين كانوا شيعة من جبل عامل يبحثون عن فرنسيين، سوف يصبح عنصرًا أساسيًا في الميثولوچيا الصهيونية الآخذة بالتشكل: إذ يجري اعتبار ترامبلدور المثال بامتياز لرفض الخضوع ولإرادة القتال إلى النهاية. ومبادرته البطولية وكلماته الأخيرة سوف تصبح نماذج سلوك بالنسبة للأجيال التي ستليه.

وقد أرغم الناشطون فيصل على تبني موقفهم. فالمؤتمر السوري المجتمع بمناسبة زيارة اللجنة الأميركية يعلن في ٧ مارس/ آذار استقلال سوريا، بما في ذلك فلسطين والساحل[١٠٢]:

رَأينا، بصفتنا ممثلين للأمة السورية في جميع أرحاء القطر السوري تمثيلاً صحيحًا، نتكلم بلسانها ونجهر بإرادتها، وجوب الخروج من هذا الموقف الحرج [...]. فأعلنا بإجماع الرأي استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية — ومنها فلسطين — استقلالاً تامًّا لا شائبة فيه، على الأساس المدني النيابي.

ويقترح بولز أن يعترف الحلفاء بوجود دولة عربية تتألف من جزء يديره فيصل مباشرة ومن جزء آخر (يشمل فلسطين) تحت سيطرة فرنسية وإنجليزية[١٠٣]. وفي ٨ مارس/ آذار[١٠٤]، يرد عليهم كيرزون بأنه بعد استشارة الفرنسيين الموجودين في لندن[١٠٥] ضمن إطار مؤتمر الحلفاء المشترك، جرى التوصل إلى الاتفاق على أن مصير سوريا سوف يسوّى خلال عقد المعاهدة مع تركيا والذي سيتم قريبًا. وضمن هذا الهدف، يتعين على فيصل المجيء بأسرع ما يمكن إلى أوروبا للتحدث مع ممثلي الحلفاء. والواقع أن فيصل إنما يجري إعلانه ملكًا على سوريا، من جانب المؤتمر، وسوف يرفض الذهاب إلى أوروبا. وترى الإدارة العسكرية أننا بإزاء مناورة جديدة من جانب الفرنسيين[١٠٦]. والواقع أن الملك الجديد قد قدَّمَ إليهم مقترحات محدَّدة: أن تكون بلاد الرافدين تحت النفوذ الإنجليزي، وأن تكون سوريا وفلسطين تحت النفوذ الفرنسي. وهو مستعد للتنازل عن ولاية الموصل في مقابل الحصول على فلسطين[١٠٧].

حدود فلسطين

في القدس، يتظاهر السكان مرة أخرى للمطالبة بالارتباط بسوريا[١٠٨]. وكان ممثل اللجنة الصهيونية قد طلب حظر التظاهرة، مؤكدًا أنه، بعد حادث تل حي، لم يعد بوسعه السيطرة على الشبيبة اليهودية في القدس[١٠٩]. ويتمسك بولز بسياسته: ترك الناس يعبرون عن أنفسهم سعيًا إلى توفير صمام للأمن. وهو يعتمد على الخبرة المكتَسَبَة في مصر منذ ثورة ١٩١٩. ويبدو الجمهور أكثر عصبية مما في ٢٧ فبراير/ شباط. ذلك أن حادثًا مع شاب يهودي يوشك أن ينحدر إلى أعمال عنف، لكن الشرطة تنجح في حفظ النظام. وفي ١١ مارس/ آذار، يقرر بولز، وقد أصابه الانزعاج، حظر القيام بتظاهرات جديدة. أمّا

فايتسمان، المتواجد في القدس، فهو يتهم الإدارة العسكرية بالمسئولية عن تدهور الوضع[١١٠]: فالجانب الأعظم من الضباط الإنجليز يتخذ موقف العداء لليهود، أولئك الدخلاء، أولئك البلاشفة الذين جاءوا لطرد السكان العرب ولجعل حياة البريطانيين مستحيلة. وقد أدرك العرب ذلك وهكذا يصبح بوسعهم أن يكونوا وقحين. ومن غير المقبول أن يكون بوسع عمدة القدس، وهو موظف، بإلقاء خطبة في المتظاهرين. والتعليمات الصادرة إلى القوات لحفظ النظام مهينة بشكل خاص: "فبالنظر إلى أن الحكومة مضطرة إلى انتهاج سياسة عديمة الشعبية في نظر غالبية السكان، فمن المرجح أنه سوف تكون هناك قلاقل بين اليهود والعرب...". ويرى الزعيم الصهيوني أن مثل هذه التعبيرات إنما تذكرُ على نحو مزعج بالتعليمات التي كان الجنرالات القيصريون يصدرونها عشية مذبحة تستهدف اليهود.

وفي لندن، ينصب النقاش بين الحلفاء كالعادة على مسألة حدود فلسطين. ويتمسك بيرتلو بخط سايكس ـ بيكو[١١١]:

الحكومة الفرنسية متعاطفة مع فكرة تسهيل حياة المستوطنات اليهودية في فلسطين وهي مستعدة لأن تقدم لها حصة من الطاقة المائية؛ بيد أنها لم توافق البتة على التعامل تعامل دولة مع دولة مع الصهيونيين الذين من غير الوارد البتة بالنسبة لهم خلق دولة فلسطينية على حساب السكان المسيحيين والمسلمين. ومن ثم فليس هناك أي سبب لأن يطالب الصهيونيون بأراضينا في سوريا: فبوسعهم أن ينشئوا فيها مستوطنات وأن يتمتعوا بالحماية على أرضها كما على أرض فلسطين حيث سيتولى الإنجليز حمايتهم. ومجموعات مستوطناتهم موجودة حول يافا وحيفا وليس البتة في الأراضي التي يطالبون بها. فليبدأوا باستيطان فلسطين قبل أن يرغبوا في الانتشار في سوريا: إن دعواهم الرامية إلى أن يدرجوا في فلسطين، تحت الانتداب الإنجليزي، أراضينا السورية هي دعوى لا سند لها. أمّا فيما يتعلق بتصريح بلفور، فهو من أكثر التصريحات التباسًا ولا يتضمن أي تعهد: ثم إنه لم يكن قد لقي تأييدًا من الحكومة الفرنسية كما أنه لم يكن قد جرى إبلاغها به. ويشكو اللورد كيرزون من أننا نتنازع بشكل بالغ الفظاظة على أراض جد محدودة وجد تافهة. وقد رددت عليه بأنني لا أفهم لماذا يتوجب علينا نحن دومًا أن نتنازل وأن نختزل حصتنا من الانتدابات، تارة للإنجليز، وتارةً للعرب، وتارة للأتراك، وتارةً للصهيونيين. وقد طلب

عندئذ تحديد الخط الحدودي وقد وعدت بأن أقَدِّمَ خطًّا، ألاَ وهو:

١. مسار خط سايكس ـــ بيكو؛

٢. مسار نهائي يشمل صفد، إذا ما وافقت الحكومة الفرنسية على ذلك.

والواقع أن بيرتلو قد قبل مبدأ فلسطين الممتدة من دان إلى بئر سبع مع دمج المستوطنات اليهودية القائمة: وهذا يعني استبعاد حوض الليطاني، لأنه سيجري اتباع خط تقسيم المياه بين حوض الليطاني وحوض الأردن، لكنه يعني مد فلسطين إلى شمال خط سايكس ـــ بيكو بسبب المستوطنات التي أنشأها إدمون دو روتشايلد وإيكا وبسبب الوزن المهم ليهود صفد. والواقع أن هذا الخط كان قد اقترحه روبير دو كيه ووافق عليه جورو، الذي يتخذ مظهر المدافع الصارم عن مصالح سكان المنطقة الفرنسية القادمة(١١٢). وفي ١٣ مارس/ آذار، يتم التوصل عمليًا إلى الاتفاق بين بيرتلو ولويد جورج(١١٣):

السيد روبير دو كيه مؤيد لهذه الحدود منذ البداية؛ وهو يرى أنها تستجيب للواقع. وقد قال لي السيد لويد جورج إنه لو حصل على هذه الحدود فإنه لن يدعم المطالب اليهودية بأبعد من ذلك. ولا يمكن التنازل عن أي شيء أبعد من ذلك، وإن كان اللورد كيرزون قد سأل ما إذا كان فيصل لن يقبل حدودًا أخرى: فأجبته بأنه، بعيدًا عن أن يقبل هذه الحدود، إنما يطالب بكل فلسطين وشرق الأردن كجزء من سوريا. وقد حافظتُ من جهة أخرى، كل الحفاظ، على قراركم، فقلتُ إن الإساس الإيجابي الوحيد المكتوب هو الحدود التي رسمها اتفاق سايكس ـــ بيكو في عام ١٩١٦.

وفي القدس، يستخلص هربرت صموئيل وبولز استنتاجين مختلفين من الوضع. فالأول، في تقريره الختامي عن البعثة(١١٤)، إنما يبدو متفائلاً بشكل خاص: إن فلسطين بلد قليل السكان وقليل التطور. ومن شأن سياسة أعمال ضخمة أن تمنحه نهوضًا اقتصاديًا قويًا. وتنبع معارضة السكان من عدم فهم لأهداف الصهيونية: فهم يظنون أن الأغلبية سوف يجري إخضاعها لسيطرة الأقلية اليهودية وأنه سيجري طردهم من أراضيهم ومن ممتلكاتهم وأنه سيجري النيل من الأماكن المقدسة. وعندما يدركون أن الأمر ليس كذلك وأنهم سوف

يستفيدون من ثمار المشروع الصهيوني، فعندئذ لن تعود هناك معارضة.

وبالمقابل، يرى بولز، في تقريره غداة اليوم التـالي، فـي ٢٧ مـارس/ آذار[١١٥]، أن الأوإيتا كانت دائمًا جد فقيرة وأن الإدارة قد وزعت أبواب نفقاتها على موارد هزيلة، ومن هنا نشوء وضع مؤسف: فسعيًا إلى إدارة البلد بـشكل أفضل، جرى استبعاد أهل البلد من الحكم، وهو ما يفسر حدة الحركة القوميـة. ويجب تعويدهم على التقاليد الإدارية البريطانية، وإلاّ فإن عداوة أهل البلد سوف تتعاظم أكثر. والخيار هو بين نظام أهلي سيئ من شـأنه أن يجعـل الوجـود البريطاني عديم الكفاءة والإبقاء على النظام الحالي، الذي لن يحتمله أهل البلد. ولم يعد من الوارد الحديث عن مقام قومي يهودي: فسوف يكون من قلة الحكمة ومن انعدام السياسة استبعاد الجماعة القومية والديانة السائدة من المشاركة فـي تسيير الأمور.

أمّا ماينرتزهاجن، في تقرير مؤرخ في ٣١ مارس/ آذار[١١٦] سيصل إلـى لندن بعد القلاقل، فهو يتخذ موقعًا بين المحللين الاثنين. فهو يرى أن التظاهرات المعادية للصهيونية قد جرت في هدوء وأنه لم يجر رصد أي عمل من أعمـال العنف. وقد أبدى اليهود قدرًا خاصًا من الصبر. وتنبع معاداة الصهيونية مـن الخوف من تفوق اليهود الفعلي في المجال الفكري والمالي. إنه خوف الفقير من الثريّ، خوف غير المتعلم من المتعلم. وقد أدركوا أنهم سيتم في الأمد الطويـل نزع ممتلكاتهم وأن دولة يهودية سوف تقام ليس فقط في فلسطين وإنما أيضًا في سوريا، بالرغم من أن اليهود يلتزمون إلى الآن ببرنامج المقام القومي اليهودي. لكن الشرعية تؤول إلى الصهيونيين، والأرض يجب أن تكون من نصيب مـن يحسن استثمارها، ومن غير الوارد أن تتراجع حكومة صاحب الجلالـة عـن تعهداتها. وينبع التوتر الحالي من إعلان فيصل ملكًا على سـوريا وفلـسطين: ومن الملح أن يسوي مؤتمر الصلح بشكل نهائي مسألة مستقبل الشرق الأدنى. وهو لا يتوقع حدوث قلاقل في فلسطين، أللهم إلاّ في أماكن معزولـة، وذلـك بالرغم من أن الشعور القومي العربـي المزعـوم (*so-called*)، ذي الأصـل المصطنع بالتأكيد، قد أصبح قوة فعلية.

وفي ٢ أبريل/ نيسان، في طريق العودة، يتبنى هربرت صـمويل موقفًـا

مشابهًا لموقف ماينرتزهاجن[١١٧]: إن الإدارة العسكرية إنما تبدو مسرفة في دق ناقوس الخطر إذ تأخذ مأخذ الجد البالغ خطر نشوب قلاقل من جــراء إعــلان فيصل ملكًا على سوريا وفلسطين. على أنه يجب مع ذلــك تقــديم تنــازلات، كتعزيز الروابط بين فلسطين وسوريا، خاصة في المجال الاقتصادي. وبالمقابل، يتوجب إبداء الرفض بصورة مطلقة لأي سيادة عربية على الأرض المقدســة، حتى وإن كانت سيادة شكلية بصورة خالصة كما تقترح الإدارة العسكرية. فهذا من شأنه أن يتعارض مع روح تصريح بلفور. وهو يقترح جعل دمشق مركزًا لاتحاد كونفيديرالي للدول الناطقة بالعربية في الشرق الأدنى تكون صــلاحياته اقتصادية بشكل حصري. وستكون فلسطين جزءًا من هذا الاتحاد. ولكــن دون أن يكون بوسع دمشق التمتع بأدنى درجة من درجات السيادة عليهــا. وهكــذا يعتبر هربرت صمويل واحدًا من أوائل من يقترحون نوع الحل الذي ســيكون مدرجًا في جدول الأعمال في الثلاثينيات.

أمّا فيما يتعلق بڤايتسمان[١١٨]، فهو يتهجم علنًا على عدد معين من موظفي الإدارة العسكرية، خاصة ووترز ــ تايلور، المتهم بانعدام النزاهة وبالكذب، كما يهددهم بأن يكشف للعالم مسلكهم الغادر، الأمر الذي مــن شــأنه أن يــستثير احتجاجات معمَّمة. وهو يطالب بأن يتم في التوِّ والحال فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية كما يطلب بإحالة منظمي التظاهرات المعادية للصهيونية إلــى القضاء.

النبي موسى عام ١٩٢٠

يمكننا من ثم أن نفهم انزعاجات، وإن كان أيضًا يقينيات، الإدارة العسكرية في هذه البداية لشهر أبريل/ نيسان ١٩٢٠، بما تحفل به من احتفالات دينيــة. فمنذ عدة شهور، نجد أن جهاز الاستخبارات، الذي أنشأه الصهيونيون اعتبــارًا من عام ١٩١٨، يكثر من التحذيرات المتعلقة بمؤامرات الناشطين العرب. وهذه المعلومات لم تلق أي تأكيد من جانب الاستخبارات البريطانية (أو الفرنــسية). والمصادر العربية اللاحقة توضح ذلك أيضًا: فلا أحد يتحدث عن تدبير متعمــد للأحداث، حتى بعد ذلك بعدة عقود.

ويبقى مع ذلك أن جورو يبلغ باريس في ٥ أبريل/ نيسان ١٩٢٠ بالتباسات موقف فيصل حيال فلسطين[١١٩]. فهو يطالب بأن تعترف باريس ولندن بشكل شبه رسمي بمملكته العربية السورية ــ وهذا شرط ضروري لقبوله الذهاب إلى أوروبا ــ دون ذكر فلسطين. ويمكن تفسير ذلك بالاتفاق السري الذي عقده مع ڤايتسمان.

إنني أجهل ما عسى أن يكون للإنجليز من دور في هذا الاتفاق لكنني أعاين، كما سبق لي أن أوضحت ذلك لمعاليكم، أن الأمير فيصل، الذي يعتبر نفسه مستعدًا لاستنفار العرب في انتفاضة مضادة لهم، قد اكتفى بأن يوجه إليهم مطلبًا بالاعتراف بتاجه بشكل معتدل ومتواضع.

وعلى أي حال، فإنه من الواضح أن أيًا من القلاقل، التي كان قد جرى الإعلان مؤخرًا في دمشق عن أنها سوف تنشب قريبًا في فلسطين، لم يحدث، في حين أن الجنرال نوري [السعيد] بنفسه كان قد آكد لي أنها سوف تتلو إعلان الاستقلال مباشرةً.

وإذا كان عدم نشوبها يترجم شيئًا آخر غير عجز الأمير فيصل عن دفع البلد إلى الثورة، فمما لا شك فيه أنه ناشئ عن رغبته المزدوجة في مراعاة جانب الإنجليز والصهيونيين، وذلك عبر انتهاج سياسة التأمين المضاد حيالهم، وهي سياسة مألوفة لديه. وأحيطكم علمًا من جهة أخرى بأن الدكتور ڤايتسمان سوف يغادر القدس هذا الأسبوع متوجهًا إلى دمشق وألفتُ انتباهكم إلى أن الصحف الصهيونية في فلسطين تواصل المطالبة بهذا البند بوادي الليطاني الأوسط.

ومن ثم فمن المؤكد أنه قد جرى في دمشق توقع نشوب أعمال عنف في فلسطين، لكن هذا لا يعني أنه كان هناك سعي إلى تنظيمها. وهناك بالفعل فرع للجمعية العربية الفتاة مكرَّسٌ لفلسطين ومكلَّف بالتحضير للنضال المسلح ويقوده الحاج أمين الحسيني وعارف العارف ومعين الماضي. بيد أن أول عمل عسكري له، بحسب عزة دروزه، لن يحدث إلاَّ بعد ذلك بكثير في يوليو/ تموز ١٩٢٠ على الحدود السورية ــ الفلسطينية[١٢٠]. وما هو مؤكد هو أن التوتر شديد جدًا في مستهل أبريل/ نيسان ١٩٢٠ وأن عدة ناشطين من دمشق كانوا آنذاك في القدس. وتروج شائعات بأن أعياد الفصح ستكون مناسبةً لأعمال

عنف، لكن هذا الوضع ليس فيه ما هو غير مألوف في القدس، حيث يشهد كل عام من الناحية العملية انتشار مثل هذه الشائعات.

وبحسب المأثور، تبدأ المسيرة إلى قبر النبي موسى يوم الجمعة المقدسة، ٢ أبريل/ نيسان ١٩٢٠. وبحسب تقرير ماينرتزهاجن المؤرّخ في ١٤ أبريل/ نيسان[١٢١]، فإن المسيرة قد اتخذت بالفعل طابعًا سياسيًا بشكل واضح. وذلك بالرغم من قرار الإدارة العسكرية بحظر أي تظاهرة سياسية. وعلى أي حال، فإن الحجاج، المصحوبين بالموسيقى العسكرية البريطانية بحسب العادة التي تقررت العام الماضي، إنما يهتفون، وهم على الطريق من أريحا إلى القدس، "يحيا الملك فيصل" و"تسقط الأمم التي تدعم اليهود". ويشهد ستورس ما يحدث دون أن يقول شيئًا.

وبما أن الاحتفال الأهم قد انتهى، فإن الإدارة إنما تشعر بالاطمئنان. فتسحب الجوقة العسكرية، بالرغم من طلبات ستورس والمفتي المتصلة. وحاكم المدينة يرى أن الموسيقيين لهم دور رادع غير تافه. لكن الطوائف الأخرى احتجت على هذا الامتياز الذي جرى منحه لأحد المكوِّنات الدينية للمدينة المقدسة، وهو أمر مميِّز للبيئة العامة المحيطة بالأماكن المقدسة، حيث يجري التمسك بالدفاع دون مساومة عن الوضع القائم[١٢٢].

ويوم السبت المقدس، من غير المتوقع القيام بأي مسيرة. ويمر اليوم في هدوء فيما عدا مشاجرة بين سائق بريطاني وعربي ظَنَّه يهوديًّا. ويتعرض العربي للضرب فتحدث تظاهرة احتجاج تلقائية أمام الحاكم العسكري.

وتفتقر الإدارة العسكرية إلى قوات الشرطة، ولم يكن ستورس قد طلب دعم الجيش تحسبًا لوصول حجاج الخليل، المنتظر يوم الأحد. وليس هناك توقع لمشكلات فيما يتعلق بحفظ النظام إلاّ فيما يخص يوم الثلاثاء، وهو آخر أيام الأعياد. والحال أن الحاكم العسكري نفسه إنما يقضي يوم الأحد المشؤوم مع أسرته. والواقع أن الحجاج لابد لهم من المرور بطريق يافا واجتياز منطقة مسلمة أساسًا لكي يصلوا إلى الحرم الشريف.

وينشب العنف مع مجيء الخليليين. وهم مستثارون لاسيما أن مسلمي مدينة الخليل لهم تراث عداء قوي لليهود وأن قدرًا من التوتر كان قد نشأ، منذ بعض

الوقت، حول الدخول إلى ضريح الأنبياء الذي صار مسجدًا. وفي هذا السياق، يقوم ناشطون كعارف العارف والحاج أمين بإلقاء خطب في الجمهور ويهتفون بحياة فيصل. ويحدث الانفجار في اللحظة التي كان جانب من الموكب قد دخل فيها بالفعل إلى المدينة العتيقة دخولاً يتميز بالهدوء. وسبب هذا الانفجار غير واضح. وبحسب شهادة، توصلت إليها قنصلية فرنسا، فإنه[١٢٣]:

في الساعة العاشرة من يوم الأحد، وصل القادمون من الخليل إلى الدائرة العربية. فألقى ولد خطبة مثيرة. وبعده، ألقى السيد خليل بيدس هو الآخر خطبة رفع في قلبها صورة فيصل قائلاً: هاكم ملك العرب. وبعده، ألقى عبد الفتاح درويش خطبة عظيمة الأثر. فقذف الشبان اليهود الصورة بالطوب وشتموه. وحينئذ بدأ شجار بين اليهود والعرب. وقد استمر هذا الشجار نحو ساعة. فتغلغل العرب في المدينة وقاموا بنهب بعض الحوانيت اليهودية. وأدى الشجار إلى مصرع ١٨ يهوديًا و٤ مسلمين.

وتتحدث رواية أخرى عن شجار بين عربي وشرطي يهودي، إلاّ أن هذا إنما يبدو خلطًا مع حادثة اليوم السابق. أمّا تقرير لجنة تقصي الحقائق البريطانية فهو يميل إلى أطروحة العميل الاستفزازي المندَس[١٢٤]. وتقول السيدة نيوتن، وهي مبشرة بريطانية موجودة في فلسطين منذ وقت بعيد، وجد قريبة من الأوساط العربية، إن يهوديًا قد بصق على علم من أعلام التظاهرة[١٢٥]. وهي لا تعتقد بوجود تعمد لإثارة القلاقل.

وعلى أي حال، فقد انتقل العنف إلى رأس التظاهرة وهجم الجمهور على يهود. وقد رد بعض من هؤلاء الأخيرين، كانوا مسلحين، بإطلاق النار. وتقع الأحداث كلها في المدينة العتيقة. أمّا قوات الشرطة الهزيلة فقد جرى التغلب عليها في التوّ والحال. ولا يشك اليهود ولا العرب في أن الطرف المقابل هو الذي هاجمهم. وفي نهاية المطاف، يجري تفريق الحجاج وإعادة تجميعهم في ساحة المساجد.

ومنذ بضعة شهور، كان چابوتينسكي، الموجود في القدس، قد نظم قوة دفاع يهودية قوامها ٢٠٠ رجل مسلّح. ولدى وصول الأنباء الأولى للأحداث، يحاول نقل رجال إلى المدينة العتيقة، حيث لا توجد قوات حماية. وهو يطلب

تصريحًا بذلك من السلطات البريطانية، التي لا تصغي إليه، إلى هذا الحد أو ذاك، وذلك بحكم أن هذه القوة المسلّحة غير شرعية.

وصباح اليوم التالي، يبقى إخلاء الحرم من الحجاج الذين تجمعوا فيه. فيخرجون محاطين بالشرطة ويتم كل شيء في البداية بنظام. ثم يقع الاضطراب في المدينة العتيقة: وبحسب تقرير لجنة تقصي الحقائق، فإنه إنما يرجع إلى انفلاتات للعنف من الجانبين؛ ذلك أن يهودًا مسلحين يعتدون على فلاحين عرب، بينما يسعى الجمهور العربي أيضًا إلى إطلاق سراح سجناء ألقى البريطانيون القبض عليهم. كما يجري اتهام العناصر العربية في الشرطة بالهجوم على السكان اليهود. وقد تم رصد العديد من حوادث السلب والنهب. ويجري إعلان الحكم العرفي بعد الظهر. ويوم الثلاثاء، تتم استعادة النظام، ويلجأ إلى الأحياء اليهودية جانب كبير من اليهود الذين يقيمون في الأحياء العربية. وتحدث أعمال عنف وأعمال سلب ونهب مرة أخرى. فيسارع بولز إلى إرسال تعزيزات عسكرية إلى الخليل سعيًا إلى حماية السكان اليهود من مذبحة محتملة(١٢٦). وتصل التعزيزات في الوقت المناسب، وتقوم بتفريق تجمهر كان آخذًا بالتشكل ولديه نوايا رؤيَ أنها خطِرة. وفي الأيام التالية، تحلق طائرات بريطانية فوق المدن الرئيسية في فلسطين لكي تؤكد وجود قوات الاحتلال.

وفيما يخص هذه الأيام، كانت الخسائر اليهودية ٥ قتلى و١٨ جريحًا جراحهم جسيمة و١٩٥ جريحًا جراحهم طفيفة. وغالبية الجراح ناتجة عن طعنات بالسكاكين أو عن قذف بالحجارة وبأشياء متنوعة. ومعظم الضحايا من الشيوخ والنساء والأطفال. أمّا على الجانب المسلم، فقد كانت الخسائر ٤ قتلى وجريحًا واحدًا إصابته جسيمة و٢٠ جريحًا جراحهم طفيفة. ومعظم الخسائر سببها الأسلحة النارية. ويجب أن نضيف إلى هذه الخسائر إصابة ٣ من المسيحيين بجراح أصيب اثنان منهم بالرصاص. ومن المؤكد أن هذه الأرقام الرسمية بعيدة عن الواقع، ذلك أن عديدين من المسلمين قد تكفلت عائلاتهم بعلاجهم(١٢٧).

وتأمر الإدارة العسكرية على الفور بإلقاء القبض على ناشطين عرب كالحاج أمين الحسيني. وينجح هذا الأخير في الهرب. ولموازنة الأمور، يجري

إلقاء القبض أيضًا على چابوتينسكي والحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا من جانب محكمة عسكرية، وذلك لأنه "قام بتسليح رعايا من رعايا الإمبراطورية بهدف ارتكاب مذابح وأعمال هدامة وعمليات سلب ونهب واغتصاب"[١٢٨].

ويكاد حادث جسيم أن يؤدي إلى إعادة تفجير العنف. ففي ٩ أبريل/ نيسان، تقوم الشرطة البريطانية بتفتيش بيت المفتي، بحثًا عن أخيه، فلا تصل إلى شيء. وبعد الظهر، يقوم أفراد يرتدون ملابس جنود بريطانيين بإطلاق النار على بيت الشخصية الدينية البارزة. والحال أن المفتي والجمعية الإسلامية ــ المسيحية إنما يتهمون جنودًا يهود بمحاولة اغتياله[١٢٩]. وتتعهد السلطات بإجراء تحقيق سوف لن يسفر عن شيء.

وفي ١٠ أبريل/ نيسان، تقدم الجمعية الإسلامية ــ المسيحية سلسلة من المطالب التي تعرض وجهة نظرها في أصل الأحداث[١٣٠]:

١. عزل ستورس، حاكم القدس وحامي الصهيونية.

٢. نزع سلاح القوات الصهيونية وإبعادها عن فلسطين.

٣. إلقاء القبض على قادة وأعضاء اللجنة الصهيونية التي أصبحت بمثابة حكومة مستقلة تحت حماية الحكومة الإنجليزية وكانت سبب هذه الأحداث.

٤. إلقاء القبض على مرتكبي محاولة اغتيال المفتي وعلى من حرضوهم عليها.

٥. إطلاق سراح السجناء من أهل البلد، لأن من الثابت أن الصهيونيين هم الذين أثاروا القلاقل.

٦. أكدت هذه الأحداث أن هناك لجنة صهيونية تقوم بتجنيد متطوعين مهمتهم قتل أهل البلد وقادتهم.

ونحن نشدِّدُ على المطالبة بإلقاء القبض على أعضاء هذه الجمعية وبمصادرة الأسلحة والقنابل الموجودة لديهم.

٧. نطلب تحقيق هذه المطالب في أقرب وقت ممكن، لأنه إذا ما استمرت هذه الحالة، فإن الخواطر سوف تهيج لدى الجميع: الأمر الذي لا مفر من أن يقود إلى عواقب وخيمة، يصعب التغلب عليها*.

---

* ترجمة عن الفرنسية. ــ م.

وفي الأيام التالية، يعاودون طرح هذه المطالب في عدة مناسبات. وهم يتوجهون بشكل خاص إلى قنصل فرنسا، الذي ينقل نصوصهم إلى جورو[١٣١].

ويبعث فيصل برسالة إلى البريطانيين حيث يتخذ مظهر الوسيط[١٣٢] بين المسيحيين والمسلمين من جهة واليهود من الجهة الأخرى. وهو يعلن عن عدم رضائه عن أعمال العنف، لكنه يطالب طمأنة المسلمين ـ المنزعجين من أن يجري طردهم من بلدهم من جانب حكومة يهودية ـ عبر ضمانات يمكنه هو والبريطانيون تقديمها. ومن الواضح أنه يحاول الاستفادة من الوضع لكي يستأنف الاتصال بالبريطانيين.

وعلى الجانب الصهيوني، لا يمكن عيش ولا تفسير الحاضر إلاّ من زاوية التراث التاريخي لأعمال الاضطهاد التي جرت مكابدتها. فمنذ ما قبل نهاية مارس/ آذار، كان ڤايتسمان قد اتهم العسكريين البريطانيين بإطلاق الحبل على الغارب أمام اقتراب مذبحة تستهدف اليهود. وقرار الاتهام وارد بالفعل في الشكاوي الصهيونية السابقة على وقوع الأحداث: إن القلاقل إنما ترجع أساسًا إلى مواقف الإدارة العسكرية، التي سمحت لمثيري الفتنة العرب بتكثيف الأعمال الاستفزازية والتظاهرات والتهيئة لأعمال التمرد ولم تحم السكان اليهود ومنعتهم من تزويد أنفسهم بوسائل الدفاع عن النفس. ويكثر ڤايتسمان من البرقيات المرسَلة إلى لويد جورج وبرانديز وشخصيات أخرى لكي يطالب باعتقال الناشطين العرب وبحظر منظماتهم السياسية وبعزل عمدة القدس وبتشكيل جندرمة يكون نصف جنودها من اليهود وبمشاركة الصهيونيين في لجنة تقصي الحقائق[١٣٣].

ويدعمه ماينرتزهاجن في هذا الاتجاه[١٣٤]: فهو يرى أن كوادر الإدارة العسكرية معادية للصهيونية ومعارضة لسياسة الحكومة البريطانية، ومن هنا سوء علاقات هذه الكوادر مع الصهيونيين والتشجيعات اللاّواعية التي تقدّمها للعرب. وهو يرى أن الأحداث نسخة مصغرة من مذبحة تستهدف اليهود: تكثيف التحذيرات، اعتقاد مثيري الفتنة بأن الإدارة تدعمهم. وموقف هذه الأخيرة هو سبب كل شيء. فهي لو كانت قد انحازت على المكشوف إلى صف الصهيونية، لمَا وقعت أعمالٌ عنف. وفي الأيام التالية، تكثر المنظمة الصهيونية

من مواقفها الهجومية على الإدارة وتطالب باستدعاء ماينرتزهاجن إلى لندن كي يتمكن من توضيح حقيقة الوضع للمسئولين البريطانيين(١٣٥).

كما تتعرض الإدارة للهجوم أيضًا من جانب اللجنة الصهيونية. ومن المؤكد أن ستورس، الذي يتعرض موقعه للتهديد، إنما يسارع إلى إعفاء موسى كاظم الحسيني، عمدة القدس، من وظائفه وإلى إحلال راغب النشاشيبي محله، خالقًا بذلك تناحرًا مقيمًا بين الفريقين العائليين المتنافسين. والواقع أن الموظف الكبير السابق لم يكن يتوقع أن تقبل شخصية عربية الحلول محله(١٣٦). ومنذ تلك اللحظة ستبدأ دعوى انعدام الشرعية، بل دعوى خيانة القضية القومية.

واستنادًا إلى احتجاج الجمعية الإسلامية ـ المسيحية في ١٠ أبريل/ نيسان، يطلب بولز على الفور حل اللجنة الصهيونية، التي تعتبر إدارة حقيقية داخل الإدارة، ويطلب أن يحل محلها مجلس استشاري من ثلاثة أعضاء(١٣٧). وهو يرى أن هذا الإجراء، جنبًا إلى جنب تسريح الكتيبة اليهودية في مصر، إنما يعد ضروريًا للسماح بعودة للسكينة العامة. لكن أللنبي، الذي كان قد التقى للتوّ ڤايتسمان الذي كادت تصيبه أزمة عصبية(١٣٨)، إنما يرد عليه ردًا سلبيًا من القاهرة: هذا ليس من اختصاصه. ويسارع المسئولون الصهيونيون إلى التهديد باللجوء إلى الرأي العام الأميركي إذا ما جرى اتخاذ مثل هذه التدابير(١٣٩). ويُرجع أللنبي المسئولية عن الفتنة إلى دسيسة فرنسية(١٤٠)، لكنه يكتب في الوقت نفسه إلى كيرزون(١٤١) لكي يعلن تنصله بالكامل من ماينرتزهاجن ولكي يدافع عن الإدارة العسكرية، التي تمسكت بالنزاهة الصارمة في تنفيذ مهمة تظل أكثر صعوبة بالنظر إلى تأخير تسوية مصير الشرق الأدنى. وهو يشكك في حق ماينرتزهاجن في الاتصال اتصالاً مباشرًا بوزارة الخارجية البريطانية(١٤٢). ويطالب بوجوب موافقة القاهرة على مكاتبات الضابط السياسي قبل إرسالها إلى لندن ويرى أن مما لا يطاق أن يجرؤ على انتحال الحق في توجيه النقد إلى الأولياء(١٤٣). وهو يعترض على مشاركة يهودي أو ماينرتزهاجن في لجنة تقصي الحقائق القادمة(١٤٤). ويؤكد جهارًا بأنه إذا ما قبلت حكومة صاحب الجلالة مطالب الصهيونيين المتطرفة، فإن ذلك سوف يؤدي إلى تعميم ضروب الفوضى في فلسطين، وهو يهاجم الاتهام السخيف الموجَّه إلى الضباط

البريطانيين، والذي يذهب إلى أنهم مشاركون في مؤامرة ضد السياسة التي حددتها حكومتهم[١٤٥].

والحال أن بولز، وقد شعر بأنه مدعوم من ألنبي، إنما يقدم قرار اتهام حقيقيًا ضد اللجنة الصهيونية[١٤٦]: فخلال زيارة هربرت صمويل، وليس قبل ذلك، تسنى له إدراك الثقل الضخم الذي اتخذته هذه المؤسسة، فهي قد قامت من الناحية العملية بخلق جهاز موازٍ لجميع الأجهزة الإدارية للأوإيتا ودوامت على الاعتراض على القرارات المتخذة. وهو يغضب بشكل خاص من طمع الصهيونيين في تزويد أنفسهم بقوة عسكرية دائمة ومن ممارستهم حق الرقابة المسبقة على تعيين الموظفين اليهود ومن تكوينهم منظومة من المحاكم الموازية المكلَّفة بتسوية الخلافات فيما بين اليهود، كما يغضب من الهجمات التي يتعرض لها اليهود الممتنعون عن سحب أبنائهم من مدارس الإرساليات. وهو يرى أن الوسيلة الوحيدة لتنفيذ سياسة تصريح بلفور إنما تتمثل في التصرف بحيادية صارمة حيال مختلف العناصر التي يتكون منها السكان، وهو ما يعني حل اللجنة الصهيونية وتذويب أجهزتها في أجهزة إدارة فلسطين.

سان ريمو[١٤٧]

تتمثل إحدى النقاط الرئيسية لمؤتمر الحلفاء المشترك في سان ريمو في وضع الصيغة النهائية لمعاهدة الصلح مع تركيا، أي التسوية النهائية لتركة الدولة العثمانية. وبعد رفض مجلس الشيوخ الأميركي لمعاهدة فرساي، لا تعود الولايات المتحدة شريكًا في المداولات. على أنها تحضر بصفة مراقب، ودون أن يكون لها حق أخذ الكلمة. وعندئذ، لا تعود هناك عقبة في وجه تعريف الانتدابات بحسب المبادئ التي تستلهم اتفاق سايكس ـ بيكو والتعديل الذي طرأ عليه بعد الاتفاق الشفاهي بين لويد جورج وكليمنصو. ومسألة تعريف أرض فلسطين نفسها كانت قد سويت من جانب مؤتمرات لندن: ففلسطين ليست سوى الأرض المقدسة التوراتية، ولابد لها من أن تمتد من دان إلى بئر سبع. وبالمقابل، فإن المعنى الذي يجب إعطاؤه للرسالة المقدسة للعالم المتمدن، ألا وهي الانتداب، مازال يتعين تحديده. وهو موضوع المناقشة الطويلة التي دارت

في ٢٤ أبريل/ نيسان ١٩٢٠.

وقد شدَّد جورو، في سلسلة من البرقيات[١٤٨]، على ضرورة الدفاع عن نظام الامتيازات والحفاظ على حماية فرنسا للكاثوليك. وقدَّم الأب لاجرانج إلى روبير دو كيه وثائق في هذا الاتجاه. ولا يرجع التخوف إلى السياسة البريطانية بقدر ما يرجع إلى عدم تسامح الصهيونيين، الراغبين في القضاء على أي وجود ثقافي أجنبي في فلسطين. والحال أن هذه العودة إلى السياسة الإكليريكية إنما تتعزز بالتحركات المؤدية إلى استعادة العلاقات الديبلوماسية بين الجمهورية الفرنسية والفاتيكان. وفي الساحة، فمن الوارد أن تعترض على ذلك بطريركية القدس الكاثوليكية، الراغبة في أن تكون المتحدث الوحيد بلسان الكاثوليك الفلسطينيين. والحال أنه ضمن هذا التوقع تحديدًا يقوم الوفد الفرنسي الذي يقوده ميللران وبيرتلو بمباشرة النقاش.

وتنصب استراتيجيتهما على إعادة صياغة تصريح بلفور، والتي يقدمانها ضمن مشروع تحديد الانتدابات:

> إن الأطراف السامية المتعاقدة تتفق، إعمالاً لأحكام المادة ٢٢ المذكورة، على أن يُعْهَدَ بإدارة فلسطين (ضمن الحدود الحالية) إلى بريطانيا العظمى بصفتها دولة منتَدَبَة. **وسوف تتحمل الدولة المنتَدَبَة المسئولية عن إنشاء "مقام قومي" للشعب اليهودي، في فلسطين، شريطة احترام الحقوق السياسية والمدنية والدينية للجماعات غير اليهودية في فلسطين وكذلك احترام الحقوق التقليدية القائمة، دون إلحاق ضرر بالحقوق أو بالوضعية السياسية التي يتمتع بها اليهود في البلدان الأخرى**[١٤٩].

والمقصود من ثم هو محورة النقاش على النقطة الضعيفة في الملف البريطاني (المادة ٢٢، حقوق الفلسطينيين السياسية) سعيًا إلى إدخال الحقوق التقليدية لفرنسا.

أمّا البريطانيون، فإنهم يتمسكون بالنص الأصلي لتصريح بلفور. وفي جميع مداخلاتهم، لن تكون هناك إشارة إلى شرعية الحركة العربية: وهذا يبين إلى أي حدٍّ، منذ سبتمبر/ أيلول ١٩١٩، فقدوا نفوذهم على العرب. ومن ثم فليس بيدهم ورقة يلعبون بها سوى الحركة الصهيونية. ومن حسن حظهم أن

الفرنسيين، بالرغم من بعض الغوايات في الساحة، قد تخلوا هم أيضًا عن اللعب بالورقة العربية وأصبحوا يتمسكون بإعادةٍ لعالم ما قبل ١٩١٤.

ويعترف بيرتلو بأن للبريطانيين الحق في انتهاج السياسة التي يريدون انتهاجها في فلسطين، لكنه يرى أنه سيكون من الخطأ وضع اليهود في وضع مختلف عن وضع الجماعات الأخرى، بما "يعادل إنشاء نوع من دولة يهودية، والتي لا يندرج قيامُها في تفكير الحكومة الفرنسية". ولايبدو له أن فرنسا قد وافقت على تصريح بلفور، وهو ينفي أن تكون لتصريح پيشون في فبراير/ شباط ١٩١٨ علاقة بتصريح بلفور.

وندخل في صميم الموضوع عندما يطلب البريطانيون تفسيرًا للمعنى الذي يجب إعطاؤه لـ"الحقوق التقليدية". ويطالب المندوب الإيطالي نيتّي بالاعتراف بانتهاء حماية فرنسا للكاثوليك وهي الحماية التي لم يعد لها مبرر منذ إدارة البريطانيين لفلسطين.

ويبدو لويد چورچ حازمًا فيما يتعلق بهذه النقطة:

> يجري الآن طرح مسألة امتيازات فرنسا كأمة حامية للدين الكاثوليكي. وكانت هذه الحماية ضرورية عندما كانت فلسطين في أيدي الأتراك، إلاّ أنها لم يعد لها أي مبرر في الظروف الحالية. فبريطانيا العظمى قد أبدت على الدوام نزاهة صارمة في صون المساواة بين أنصار مختلف الديانات ويمكنني القول بأنه قد لا يكون هناك أي بلد آخر في العالم يبدي ما تبديه بريطانيا العظمى من عظيم الاحترام لجميع المعتقدات الدينية. ولن يكون بوسعي قبول أن تواصل فرنسا، في المنطقة الموضوعة تحت العلم البريطاني، ممارسة حماية الكاثوليك. فهذا من شأنه أن يقود إلى ازدواج الجنسية وأن يلحق ضررًا أكيدًا بحسن سير شئون البلد.

ويقبل ميللران اقتراحًا إيطاليًا بتكوين لجنة تابعة لعصبة الأمم مهمتها حل الخلافات التي قد تنشأ في فلسطين، فيما يتعلق بمختلف الطوائف الدينية. لكن لويد چورچ يبدو معاديًا لهذه اللجنة مثلما يبدو معاديًا للحماية [الفرنسية] للكاثوليك:

> من الأنسب لنا أن نتجنب قيام انتدابين في فلسطين، انتداب يتعين عليه تحمل كل

الإزعاجات، وكل النفقات، دون أن يكون له أي حق عندما يتعلق الأمر بالمسائل الدينية، وانتداب آخر يتحمل المسئولية عن مصالح الكاثوليك المقيمين في فلسطين. فهذا من شأنه أن يقود إلى وضع متعارض تمامًا مع ظروف ومصالح بريطانيا العظمى. والحال أن الامتيازات التي تمتعت بها بعض الطوائف الدينية قد أدت إلى إعفاء أعضاء هذه الطوائف من الخضوع لسلطة المحاكم نفسها. وكان هناك بعض الأشخاص الذين لم يترددوا ولو في تغيير ديانتهم في غضون أربع وعشرين ساعة لكي يكفلوا لأنفسهم التمتع بالحماية الفرنسية. وسوف يكون من المستحيل حكم فلسطين إذا ما تعين استمرار هذا الوضع.

ويرد الفرنسيون بالمثل فيما يتعلق بمضمون تصريح بلفور: فهم يقبلون مقامًا قوميًّا يهوديًّا لكنهم لا يقبلون دولة يهودية. وهم يعيدون طرح النقاش حول مسألة الحقوق السياسية: إن اليهود لا يجب أن يتمتعوا بوضع أميز في فلسطين.

ويتلو ذلك نقاش رئيسي حول المعنى الذي يجب أعطاؤه للانتداب على فلسطين:

السيد ميللران: سوف أرد تباعًا على اللورد كيرزون إذا ما شاء الرد في الوقت نفسه على السؤال الذي طرحته الحكومة الفرنسية فيما يتعلق بحقوق الطوائف غير اليهودية. وأنا أطالب على وجه الإلحاح بأن نُدرج في هذه الحقوق كلاً من الحقوق السياسية والحقوق المدنية والدينية على حد سواء. وإذا ما تكرَّم اللورد كيرزون بالموافقة على فكرتي، فسوف نبت في المسألتين في وقت واحد.

اللورد كيرزون: بحسب رأيي، تندرج الحقوق السياسية في الحقوق المدنية. ويجب بالفعل الاحتراس من طرح مسائل قد تثير مصاعب، على سبيل المثال مسألة حقوق الامتيازات. وأنا أجد صعوبة كبرى في تغيير موقفي لأنني خلال محادثاتي مع الصهيونيين رفضتُ أن أقدم لهم بعض التنازلات، لكنني متعهد من هذه الناحية بعدم إدخال أي تعديل على التصريح الذي يولون له أهمية كبرى.

السيد ميللران: إن كلمات "الحقوق المدنية والدينية" لا تتضمن، في الفرنسية، "الحقوق السياسية". على أننا لا يمكننا تذليل الصعوبة إلاّ بالحديث عن "الحقوق" دون إشارة أخرى.

اللورد كيرزون: لا يمكنني قبول هذا الاقتراح لأن ذلك سيعني تغييرًا في لغة التصريح.

وسأقدم اقتراحًا آخر من شأنه أن يسمح بعدم تعديل الصيغة الحالية. فجميع المسائل ذات الصلة بانتداب سوف ترد في النقاش عند تحديد شكل الانتداب تحديدًا نهائيًّا. ويتعلق الأمر الآن بالقيام بمنح الانتداب إلى دولة أو أخرى. وفيما بعد، عندما يتوجب عرض جميع المسائل التفصيلية على عصبة الأمم، فإن الحكومة البريطانية سوف تتشاور مع الحكومة الفرنسية، بأعظم السرور، قبل تقديم مشروع نهائي.

السيد ميللران: إذًا فإنني أطلب أن يكون مفهومًا وأن يسجَّل رسميًّا في المحضر أن عبارة "الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية" تعني، في تفكير الحكومة البريطانية كما في تفكيرنا، الحقوق السياسية والمدنية والدينية.

اللورد كيرزون: أنا لا أفهم الفرق بين الحقوق المدنية والسياسية. ففي الإنجليزية، تشير كلمة "الحقوق المدنية" إلى الحقوق السياسية أيضًا. وليس لديَّ من جهة أخرى أي اعتراض على إدراج تصريح السيد ميللران في المحضر.

السيد نيتّي: وماذا ستكون الحقوق السياسية؟

السيد ميللران: الحقوق الانتخابية مثلاً.

السيد نيتّي: أعتقد أننا من حيث الجوهر متفقون على جميع المسائل، بيد أن من المناسب أن لا يبقى أي سوء فهم. ومن الواضح تمامًا أن تصريح السيد ميللران، ألا وهو أن زمن المزايا قد انتهى بشكل نهائي، يجب أن يفهم بمعنى أنه لن يعود من الوارد الحديث عن حماية الكاثوليك في الشرق من جانب أمة أو أخرى وأن الطوائف الدينية لن يعود بوسعها المطالبة بحماية حقوقها من جانب دولة بعينها وليس من جانب ممثلي دولة أخرى وأنه لن يكون هناك أي اعتراض على رجال الدين الذين لا يريدون تقديم "التحية" للأمة التي تطلب منهم تقديم هذه التحية.

السيد ميللران: موافق. إنني أقبل من جهتي النص الذي اقترحه الوفد البريطاني شريطة عدم إدخال أي تغيير على الوضع الحالي للجماعات غير اليهودية في فلسطين.

اللورد كيرزون: بالضبط.

ومن ثم يتم الاتفاق على صيغة غريبة حيث يجري التأكيد في آن واحد على أن الحقوق التي كانت تتمتع بها الجماعات غير اليهودية في الماضي سوف تظل قائمة وعلى أن فرنسا تعترف بتوقف الحماية

الممنوحة للكاثوليك عن الوجود.

وفي ٢٥ أبريل/ نيسان، يجري تحرير النص النهائي لمشروع القرارين اللذين سيصبحان المادتين ٩٤ و٩٥ من معاهدة الصلح مع تركيا والموقّعة في سيفر في ١٠ أغسطس/ آب ١٩٢٠:

المادة ٩٤

الأطراف السامية المتعاقدة موافقة على أن سوريا وبلاد الرافدين، بما يتماشى مع الفقرة ٤ من المادة ٢٢، الجزء الأول (ميثاق عصبة الأمم) سوف يجري الاعتراف بهما مؤقتًا كدولتين مستقلتين، شريطة أن توجِّه إدارتهما نصائحُ وعونُ الدولة المنتَدَبَة إلى أن يكون بمقدورهما تسيير أمورهما بنفسيهما [...].

المادة ٩٥

الأطراف السامية المتعاقدة متفقة على أن تعهد، إعمالاً للترتيبات التي تنص عليها المادة ٢٢، بإدارة فلسطين، ضمن الحدود التي سوف تقررها الدول المتحالفة الرئيسية، إلى دولة منتَدَبَة سوف تختارها الدول المشار إليها. وسوف تكون الدولة المنتَدَبَة مسئولة عن تنفيذ التصريح الأصلي الذي أصدرته الحكومة البريطانية في ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧، واعتمدته الدول المتحالفة الأخرى، لصالح إنشاء مقام قومي في فلسطين للشعب اليهودي، أخذًا بعين الاعتبار أنه لن يجري عمل أي شيء من شأنه إلحاق الضرر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية في فلسطين، ولا بالحقوق وبالوضعية السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر.

وتتعهد الدولة المنتَدَبَة بأن تقوم في أقرب وقت بتعيين لجنة خاصة لدراسة أي مسألة وأي شكوى تخص مختلف الطوائف الدينية، وتسويتها. وسوف تراعي، في تكوين هذه اللجنة، المصالح الدينية ذات الصلة. وسيتم تعيين رئيس اللجنة من جانب مجلس عصبة الأمم[١٥٠].

ولم يتصل مضمون عمل مؤتمر سان ريمو بالمسائل الترابية. وكان لويد جورج وميللران قد اتفقا على ذلك. فتسوية وضع فيصل لم تكن قد تمت بعدُ. فقد كان من المتوقع منه أن يأتي ويتحادث في أوروبا مع المندوبين الفرنسيين والبريطانيين. وقد أعرب فيصل عن نيته في الحضور، ولكن عندما يعترف

الحلفاء باستقلال سوريا. وبالنسبة لباريس، فإن هذا الموقف إنما يبدو عبثيًا، لأن فرنسا قد اعترفت بهذا الاستقلال بتوقيعها للاتفاق المرحلي في يناير/ كانون الثاني ١٩٢٠. ويجد البريطانيون صعوبة في فهم معنى كلمة "الاستقلال" وكان نوري السعيد، الحاضر في سان ريمو، قد عجز عن تقديم تفسير مقنع لهم. والحال أن أللنبي، بعد أن عرض الأمر على كيرزون(١٥١)، إنما يقوم من ثم بتوجيه دعوة عاجلة إلى فيصل للذهاب إلى أوروبا ويوضح له أن مؤتمر الصلح وحده هو الذي يملك سلطة اتخاذ القرار فيما يتعلق بتحديد مصير الشرق الأدنى(١٥٢).

والمسألة معقدة لاسيما أن فيصل يحكم في دمشق أرضًا لابد للجانب الأكبر منها أن يكون تابعًا للانتداب الفرنسي، لكن جزءًا منها، هو شرق الأردن، ينتمي إلى الانتداب البريطاني، وذلك بحسب التقسيم الذي أجراه أللنبي في مناطق الأوايتا في ١٩١٨ـ١٩١٩. وعلى هامش المؤتمر الرسمي، سَوَّى الفرنسيون والإنجليز موضوعات أخرى: فقد قبلت فرنسا أن يمتد الانتداب الفلسطيني إلى حدود بلاد الرافدين(١٥٣) وفازت فرنسا بحصة من بترول بلاد الرافدين، بما يشكل محصلة للسياسة التي انتهجتها حكومة كليمنصو. ويؤدي الإعلان عن قرارات سان ريمو إلى استثارة تجدُّد لهجمات العصابات القادمة من سوريا على شمالي فلسطين. ويرد البريطانيون بتعليق جميع العلاقات المباشرة بين فلسطين والمملكة العربية وبوقف دفع الإعانات المالية لحكومة دمشق والذي كان قد تأخر بالفعل(١٥٤). وبما أن الفرنسيين قد قاموا بالشيء نفسه، فإن فيصل لا تعود لديه الإمكانات المالية اللازمة لتطبيق سياسته.

والحاصل أن تقسيم الشرق الأدنى إلى انتدابات إنما يتماشى تمامًا مع منطق سياسات النفوذ، الذي جَسَّدَه اتفاق سايكس ــ بيكو. واختيار الشكل الجديد ذي التعبير السياسي، ألاَ وهو الانتداب، والمقصود به أن يصبح دولة باسم المادة ٢٢، إنما يبين بجلاء أن الأمر يتعلق هنا قبل كل شيء بمحاولة لإعادة الوضع الذي كان قائمًا قبل ١٩١٤، وإن كان مع تزحزح من وضع اشتراك الدول العظمى في السيطرة [الكوندومينيوم] إلى وضع الانتداب الذي يُعْهَدُ به إلى دولة واحدة مع القيام، في النهاية، ودون قول ذلك، بإلغاء نظام الامتيازات. وهنا

يكمن التفسير الأول الذي يجب أعطاؤه لأعمال المؤتمر، فهي شهادة وفاة المجتمع المشرقي بلعبة هوياته الغائمة وأشكال النفوذ المتضاربة الموجودة فيه.

وهكذا تجد الأرض المقدسة نفسها وقد وضعت في وضع غريب. فمضمون تصريح بلفور نفسه حول الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية إنما يجري إفراغه من معناه فيما يتعلق بالطوائف المسيحية: فهي تفقد ما تتمتع به من فوائد الامتيازات والحمايات الدينية التي كانت من حيث الجوهر حقوقًا مدنية ودينية. وهكذا جرى إعطاء الحافز في الوقت نفسه إلى انضواء نهائي من جانب المسيحيين، المحرومين من أي حماية أجنبية، تحت راية الهوية الفلسطينية، وهو تطور سمح به تراث القرن التاسع عشر (عدم وجود مواجهات بين المسيحيين والمسلمين مشابهة للمواجهات التي عرفتها سوريا ومر بها لبنان) وتجسَّدَ بالفعل في تكوين الجمعيات الإسلامية ـ المسيحية. وهكذا انفتح السبيل أمام نزعة قومية فلسطينية عربية تتجاوز التباينات الطائفية.

وفي الوقت نفسه، فإن المادة ٩٥، بالرغم من إشارتها إلى المادة ٢٢، إنما تنفي عن طريق الإغفال أهلية فلسطين لأن تصبح دولة مستقلة وتقترح لها تطورًا جماعاتيًّا، إمّا على شكل مقام قومي يهودي، أو على شكل طوائف دينية لها وضعية تكفلها عصبة الأمم.

ويرى الفرنسيون أن القرارات المتخذة لا لبس فيها. وهذا هو ما يذكره ميللران لجورو في ٧ مايو/ أيّار ١٩٢٠[١٥٥]:

> إن الحكومة الفرنسية ومندوبيها في مختلف المؤتمرات لم يقرّوا قط بأن فلسطين يمكن أن تصبح دولة صهيونية ولا بأن من الوارد إقامة نظام صهيوني في فلسطين.
>
> ولم يكن من الوارد قط سوى إنشاء مقام قومي يهودي، أي تيسير الإنشاء والنمو المزدهر لمستوطنات يهودية، زراعية، صناعية، في بعض مناطق الأرض الفلسطينية، حيث يمكن لليهود المجيء من مختلف أجزاء العالم ليجدوا مقامًا على أرض الوطن القديم.
>
> وقد جرى النص دومًا بالشكل الأكثر وضوحًا على أن الجماعات الإسرائيلية لن تتمتع بأي درجة بحقوق سياسية أو مدنية أو دينية أعلى من حقوق الجماعات السكانية الأخرى، أكانت مسيحية أم إسلامية، كما أنها لن يكون بوسعها إقامة العقبات في وجه التطور الحر لأي جماعة من الجماعات التي تحيا في

فلسطين ولا اختزال الضمانات الممنوحة لهذه الجماعات.

وفي المقام الأخير، فإن التوضيحات التي جرى تبادلها، في مؤتمر سان ريمو، بين اللورد كيرزون وبيني، لم تدع أي مجال للشك فيما يتعلق بهذه النقاط.

ويرى الصهيونيون أن مؤتمر سان ريمو يشكل انتصارًا تاريخيًا لأن المقام القومي اليهودي قد استند، لأول مرة، إلى قرار جماعي للحلفاء. ومن ثم فإن رسائل الشكر تتدفق على لندن من مختلف الفروع القومية للحركة الصهيونية(١٥٦). ويرى ڤايتسمان، الحاضر في أروقة المؤتمر، أن النجاح عظيم لاسيما أن لويد چورج قد وعده بحل الإدارة العسكرية وبتشكيل إدارة مدنية تحت قيادة هربرت صموئيل(١٥٧).

وفي ٢٨ أبريل/ نيسان، نجد أن الإدارة العسكرية، التي تجهل نهايتها القريبة، تبلغ السكان الفلسطينيين رسميًا بمصيرهم(١٥٨):

١. قَرَّرَ المجلس الأعلى قيام انتداب على فلسطين وأن تصريح السيد بلفور بشأن إيجاد مقام قومي يهودي في فلسطين سوف يتم إدراجه في معاهدة الصلح مع تركيا.

٢. سوف يُعْهَدُ بالانتداب إلى بريطانيا العظمى، وهو ما يعني أن البلد سوف يُحكَمُ من جانب الحكومة البريطانية لما فيه خير جميع السكان.

أما النقطة ٣ فهي تلاوة لتصريح بلفور، الذي يجري إبلاغ السكان به لأول مرة. ويضاف إلى هذا التصريح التعليق التالي والذي يسير في اتجاه مواقف الأوإيتا:

وترتيبًا على ذلك، فإن إدراج تصريح بلفور في معاهدة الصلح مع تركيا إنما يعني:

أ) أنه، شريطة حفظ النظام والأمن العام، لن يكون هناك أي تدخل في الأعراف الدينية ولا في الأماكن المقدسة، ولا أي اختزال لحرية العبادة.

ب) أن المهاجرين ليس مصرَّحًا لهم بدخول البلد إلاّ بقدر وجود حاجة إليهم في تنميته، وأن هذه الهجرة سوف تجري مراقبتها من جانب الحكم البريطاني للبلد.

ج) أن ملاك الأرض الحاليين لن يجري نزع حيازاتهم ولا نهبهم، وأنه لن يجري منح امتيازات مربحة لأفراد أو لمجموعات من الأفراد على حساب آخرين.

د) أن الحكومة البريطانية هي التي ستحكم وأنه لن يجري بأي حال تمكين أقلية من

السيطرة على غالبية السكان عندما يحين أوان إقامة أي شكل من أشكال الحكم النيابي.

٤. وبهذه الشروط، تتوافر آمال عظيمة في الرخاء المتزايد باستمرار لجميع سكان هذا البلد.

٥. لقد جرى اتخاذ القرار أخيرًا ومن الآن فصاعدًا سيتوجب إنهاء الصراع السياسي والقلاقل.

نهاية الأوإيتا

تتخيل الأوإيتا للحظة قصيرة أن إدارة الانتداب على فلسطين سوف يُعْهَدُ بها إليها. فتصوغ مشروعًا تفصيليًا لحكومة يرأسها رئيس أركان حرب تساعده كوكبة من الكولونيلات والميجورات المكلفين بتحمل المسئوليات الرئيسية في البلد[١٥٩]. والحق أن تسريح الجيش البريطاني إنما يؤدي إلى تخفيض حاد لعدد الضباط يترتب عليه تسريح لجانب مهم من الكوادر المحترفة...

وفي أواخر أبريل/ نيسان، يجري إبلاغ أللنبي بتعيين هربرت صمويل وبتشكيل إدارة مدنية. أمّا الإعلان الرسمي عن ذلك فيجري تأخيره ترقبًا لمجيء فيصل إلى أوروبا وتصديقه على قرارات الحلفاء[١٦٠]. والحال أن القائد العام كبادرة تشير إلى الرغبة في التهدئة، قد اقترح للتوّ تخفيضًا مهمًّا لعقوبات الحبس التي حلت بچابوتينسكي وبرفاقه، اقتداءً بنهج المحاكم العسكرية في مصر بعد انتفاضة ١٩١٩(١٦١). على أن وفد الحجاز إلى مؤتمر الصلح إنما يعبر، في ٣٠ أبريل/ نيسان، عن رفضه البات لقرارات سان ريمو[١٦٢]، فيبدو وصول ملك سوريا الجديد إلى أوروبا احتمالاً في مهب الريح بالفعل. وبالنسبة لهذه الفترة، تغص الأرشيفات البريطانية والفرنسية[١٦٣] بعرائض الاحتجاج السورية والفلسطينية الرافضة لقرارات الحلفاء. وعلى الجانب البريطاني، يطارد أللنبي بغضبه ماينرتزهاجن، الذي يطالب برحيله عن فلسطين. وتتولى وزارة الخارجية البريطانية الدفاع عن مراسلها الموجود في الساحة[١٦٤]. وعلاوة على دفاع الماريشال عن مرءوسيه، فإنه يدعم خط الأوإيتا ويرى أن تنفيذ البرنامج الصهيوني، ولو تحت إدارة مدنية، إنما يتوجب تأجيله. وذلك سعيًا إلى تهدئة الخواطر وإلى تجنب تجدد القلاقل[١٦٥]. وهو يرى أن الانتقال

إلى النظام المدني ليس من الضروري أن تترتب عليه مشكلات، في حالة إذا ما تم الإبقاء على الأحكام العرفية(١٦٦). وهو يعترض بقوة على تعيين يهودي في منصب المندوب السامي. فالسكان المسلمون سوف يعتبرون ذلك نهاية لأي حماية بريطانية، وسوف يؤدي [مثل هذا التعيين] إلى صب الزيت على النار، لاسيما أن جميع الطوائف المسيحية متضامنة مع المسلمين إلى درجة تجعل من المستحيل إدارة البلد بالشكل المعتاد.

وبالرغم من التعليمات الصادرة بكتمان السر، فإن نبأ تعيين هربرت صمويل في المستقبل كانت قد أذاعته الصحافة الأميركية، ومن هنا الجزع والانزعاج في فلسطين. وبولز مهموم بضعف القوات البريطانية. فهي سوف تجد صعوبة في التصدي لانتفاضة عربية محتملة مدفوعة بتحريض من حكومة دمشق، في حين أن الانتفاضة المصرية قد تنشب من جديد بشكل أنشط من ذي قبل(١٦٧).

وفي هذه السياق، فإن رغبة الجمعيات الإسلامية ـ المسيحية في عقد مؤتمر ثان، في منتصف مايو/ أيّار ١٩٢٠، بهدف الاحتجاج على قرارات سان ريمو، إنما تواجه الاعتراض بالطبع من جانب البريطانيين الذين يقومون بحظر عقد هذا المؤتمر. فتشكو الجمعيات من ذلك إلى فرنسا، التي لا تفعل شيئاً، كما هو واضح(١٦٨). على أن الجمعيات تتمسك مع ذلك بإبداء عزمها عبر الإيهام بأن المؤتمر قد تم عقده (وهكذا فإن المؤتمر القادم سوف يحمل اسم المؤتمر الفلسطيني الثالث). وبما أن شهر مايو/ أيّار جاء موافقاً لشهر رمضان، فإن الصهيونيين يكثفون من التحذيرات من موجة أعمال عنف واردة في ختام الصيام ويتهمون الإدارة العسكرية بالتواطؤ(١٦٩).

ومن الصعب الحكم، في ذلك الوقت، على تطور الحالة الذهنية في صفوف السكان العرب. أمّا رفض الصهيونية فمن الواضح أنه رفض تام. وإذا ما استندنا إلى بيانات الجمعية الإسلامية ـ المسيحية في القدس، فإن الاتجاه الأكثر وضوحًا هو اتجاه تأييد برنامج الوحدة السورية(١٧٠). والواقع أن فيصل قد اتخذ الآن موقفاً واضحًا حول وحدة سوريا وفلسطين ورفضَ أي فصل بينهما. وهو لن يذهب إلى أوروبا إلاّ إذا جرى الاعتراف مقدّمًا بوحدة المنطقتين(١٧١).

ويمكننا القول بأننا، من مايو/ أيّار إلى يوليو/ تموز ١٩٢٠، نكون بإزاء ذروة برنامج سوريا الجنوبية. ويتعلق الغموض بطبيعة السلطة في سوريا. ففي ٣٠ أبريل/ نيسان، نجد أن عارف باشا الدجاني، رئيس الجمعية الإسلامية ــ المسيحية في القدس، إنما يعبر أمام محاوريه الفرنسيين في بيروت عن عدم ثقته بفيصل وقبوله في النهاية لانتدابٍ فرنسي[١٧٢]:

إننا نعرف الأمير منذ وقت طويل، فهو لم يتحرك إلاّ لما فيه مصلحته الشخصية. ونحن مسلمي فلسطين لم نؤيده إلاّ لأنه قدَّم نفسه على أنه نصير الوحدة السورية وخاصة لأنه بدا أنه لابد من اتخاذه رمزًا مناسبًا يمكن الاحتشاد حوله في النضال ضد الصهيونية. وأضيفُ [...] بأن، الأمير لم يكن وكيلنا إلاّ بقدر عدم خروجه عن خط التصرف الذي حددناه له، وبأننا نرفض دفع تكاليف طموحه. ثم لا تنسوا أننا، حين طالبنا بالوحدة السورية، كنا نرمي إلى امتداد الانتداب الفرنسي على سوريا الموحَّدة لأننا ندرك جيِّدًا أننا لسنا قادرين الآن على حكم أنفسنا بأنفسنا وأن فرنسا هي التي نفضِّلها.

لكن باريس تأمر ممثليها في الشرق الأدنى بـ"التزام عدم الإصغاء لمقترحات المعادين للصهيونية" وبـ"الامتناع عن أي عرقلة للسياسة الإنجليزية في فلسطين"[١٧٣].

وفي شهر يونيو/ حزيران، تتمثل المبادرة الأخيرة للجمعيات الإسلامية ــ المسيحية في التحضير لإيفاد وفد فلسطيني إلى مؤتمر الصلح[١٧٤]. وهنا أيضًا يقوم البريطانيون بحظر أي محاولة للتعبير عن رغبات سكان فلسطين العرب. وبشكل موازٍ، تمارس الإدارة العسكرية تدابيرها الصارمة حيال اللجنة الصهيونية: إذ يجري الحد من الاتصالات الرسمية كما يجري إخضاع المكاتبات مع الخارج للرقابة، أمّا عقد جمعية تأسيسية يهودية فهو يتعرض هو أيضًا للحظر، بينما يجري القيام بحملات تفتيش ــ غير مثمرة ــ عن أسلحة يخفيها اليهود[١٧٥].

وحيال عدم انصياع محمي فرنسا وبريطانيا العظمى السابق، يدعو كيرزون إلى وحدة عمل من جانبهما للضغط على فيصل ولإفهامه ضعف موقفه[١٧٦]. ويقبل الفرنسيون هذه الدعوة عن طيب خاطر[١٧٧]، بل إنهم يكتبون

مشروع تصريح مشترك بالغ القسوة. وفي الساحة، يتعاون الجيشان الفرنسي والبريطاني في محاربة عصابات جبل عامل وحوران. ويحتل الفرنسيون تدريجيًا جزءًا من المنطقة الحدودية بين فلسطين وسوريا، متخلين عن العمليات في قيليقيا ضد القوات الكمالية (يتفاوض روبير دو كيه على هدنة مع حكومة أنجورا [أنقرة]).

وفي تلك الأثناء، يتبنى ملك سوريا مطالب العرب الفلسطينيين: رفض تعيين هربرت صمويل، الاحتجاج على تباين معاملة السجناء اليهود والعرب المحكوم عليهم بسبب قلاقل موسم الحج إلى قبر النبي موسى، والاحتجاج كذلك على السماح المفتَرَض بترك اليهود يسلحون أنفسهم بينما يجري تجريد العرب من السلاح[١٧٨].

وفي مستهل شهر يونيو/ حزيران، يتم الفوز بتعيين هربرت صمويل. وبهذه المناسبة يجري منحه رتبة الفارس، ومن هنا لقبه "السير". وبحسب بول كامبون[١٧٩]، فإن كيرزون:

> [...] قد لفت انتباه السيد هربرت صمويل إلى الاحتمالات المزعجة التي قد تظهر في الأفق. بيد أن المندوب السامي الجديد لم يجزع من ذلك وبدا مستعدًّا لتحمل جميع المسئوليات مرتاح البال[١٨٠]. والحال أن السيد لويد چورچ، الذي يؤمن صادق الإيمان بإمكانية إقامة دولة صهيونية، قد أغدق تشجيعاته على الرجل الذي اختاره دون أن يخامره شك في أنه في هذا الشرق المثقل بالفعل بالكثير من المصاعب قد خلق للتوِّ صعوبة جديدة وأنه ربما يكون قد أعَدَّ للصهيونيين مفاجآت غير سارة.

•

ويتابع أللنبي حملته ضد ماينرتزهاجن، الذي يضطر إلى أخذ كل أجازاته المتراكمة منذ سنوات، ومن هنا خروج الضابط السياسي في عطلة مدتها ستة شهور[١٨١]. وفي ٧ يونيو/ حزيران، يكتب بولز الوصية السياسية لإدارته[١٨٢]: إن تعيين هربرت صمويل قد تسبب في حالة من الجزع في صفوف السكان المسلمين والمسيحيين بينما تسبب في حالة من السرور في صفوف السكان اليهود. بيد أنه إذا ما حافظ على سياسةٍ قوامها التوازن بين العناصر التي يتكون منها السكان، كما فعلت ذلك الأوليتا، فقد يتسنى له كسب تأييد المعارضة

المسيحية والإسلامية. وليس هناك خطر نشوب لانتفاضة معمَّمَة، ما لم تقم دمشق بإطلاق الحركة.

ويأتي الخطر من الصهيونيين ـ الذين لا يفعلون شيئًا لتهدئة الخواطر ـ بأكثر مما يأتي من العرب. فبعد سان ريمو، راح أوسيشكين، نائب رئيس اللجنة الصهيونية، والحاخام كوك، مدعومين من جانب مجلس حاخامات الأرض المقدسة، يطالبان بحائط المبكى بوصفه ملكية يهودية. وبشكل غير مباشر، فإنهما إنما يريدان الحصول عل جبل الهيكل برمته. ومثل هذا الأمر قابل لإشعال العالم الإسلامي[١٨٣].

وخلافًا للتأكيدات الصهيونية، فإنه لا وجود في فلسطين لأراض مهملَة. فكل الأراضي الصالحة للزراعة يزرعها الفلاحون العرب، والبدو الرحل وأشباه الرحل يتمتعون بحقوق رعيٍ وتنقُّلٍ تستند إلى أعراف سحيقة في القدم. والحال أن برنامج الصهيونيين العقاري إنما ينطوي على تحويل جذري لوضعية الأرض (قيد الأراضي في السجل العقاري، إنهاء الاستغلال الجماعي للأراضي) وإلغاء حقوق مربّي الماشية. وسعيًا إلى تجنب نشوب توترات، يتعين التحرك ببطء، عبر تدابير قوامها تأكيد المودَّة، الأمر الذي يتعارض مع مشاريع الهجرة الجماعية التي يطرحها فايتسمان (٢٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ مهاجر في السنة الأولى، ١٠٠٠٠٠ في السنوات التالية). وفي مناطق كمناطق نابلس أو جنين أو طولكرم، حيث لا يوجد حاليًّا مستوطنون يهود، سوف يتطلب دخول المهاجرين حماية عسكرية لا محالة. والأمر كذلك في شرق الأردن.

ومن الناحية السياسية، سيأتي هؤلاء المهاجرون من روسيا خاصة. وهناك خطر أكيد في حدوث عدوى بولشفية. وتكفي قراءة بيانات أحزاب أقصى اليسار الصهيونية كحزب بوعالي زيون، والتي تحيي النضال المعادي للإمبريالية في مصر أو في الهند أو في أيرلنده، بل تحيي فعل السكان الروس في ثورتهم وتدعو إلى تضامن البروليتاريا العالمي ضد الإمبريالية.

لذا يجب على الإدارة أن تحتفظ بمراقبة الهجرة. وإلاَّ فإن عناصر بولشفية خطرة سوف تتغلغل في الشرق برمته، من البحر المتوسط إلى الهند. ولا يجب أن يقوم هربرت صمويل على الفور بتعيين يهود في مواقع الوظائف العمومية

العليا، بل يجب عليه أن يتحرك، هنا أيضًا، ببطء، وإلاّ فإن المسيحيين والمسلمين سيرون أن المسألة لم تعد مسألة حكم بريطاني.

وتسارع وزارة الخارجية البريطانية إلى تهدئة مخاوف بولز فيما يتعلق بهذه النقطة. فالموظفون الموجودون الآن سوف يبقون في مواقعهم، إلى أن يقرر المندوب السامي الجديد شيئًا آخر(١٨٤). ويوضح صمويل أنه يود الإبقاء على ستورس في مواقعه الوظيفية (في حين أنه كان بمثابة البعبع في نظر الصهيونيين) وتعيين بنتفيتش ــ وهو يهودي صهيوني بريطاني كان قد عمل بالفعل في فلسطين ــ في منصب رئيس إدارة العدل (*legal secretary*)(١٨٥). وقد اقترح عليه ڤايتسمان توظيف فيلبي، الذي بدا له أخصائيًا عظيمًا في الشئون العربية وأبدى تعاطفًا مع الصهيونيين(١٨٦). ولا يمكن القيام بذلك في التوّ والحال: فالموظف السابق في جهاز الهند سوف يبقى في بلاد الرافدين، حيث سيمضي من ارتكاب خطأ إلى ارتكاب خطأ آخر. أمّا انخراطه في مسألة فلسطين فسوف يحدث فيما بعد. وكان تدخل ڤايتسمان ضروريًا لتهدئة الخواطر في فلسطين: فالواقع أن أفراد الكتيبة اليهودية قد اعتزموا تنظيم عملية لإطلاق سراح چابوتينسكي(١٨٧). وقد أدرك المسئول الصهيوني جيدًا ضرورة مراعاة جانب المندوب السامي الجديد، وضرورة عدم الهجوم عليه بوابل من العرائض والاحتجاجات، فهذا من شأنه أن يجعله معاديًا للصهيونية لا محالة(١٨٨). ومايسعى إلى الحصول عليه من البريطانيين هو الإبقاء على القوة المسلحة اليهودية، بالرغم من عداء وزارة الخارجية البريطانية لذلك، فهي ترى أن هذه القوة لا معنى لها الآن لأن من المستحيل سياسيًا استخدامها ضد العرب. ويتحدث ڤايتسمان بنبرة قوية و، في رسالة إلى بن جوريون وإلى بيرل كاتزنيلسون، مؤرخة في ٨ يونيو/ حزيران، سيمضي إلى حد اتهام چابوتينسكي بالتطلع إلى الديكتاتورية وبجر الحركة الصهيونية إلى مواجهة انتحارية مع البريطانيين(١٨٩).

وفي ٧ يونيو/ حزيران، يعلن لويد چورج رسميًا تعيين السير هربرت صمويل. فيخوض أللنبي معركته الأخيرة في حربه الخاسرة معربًا عن استغرابٍ مصطنَعٍ إلى هذا الحد أو ذاك(١٩٠): إن تعيين هربرت صمويل مندوبًا

سامياً وإنشاء إدارة مدنية، دون انتظار عقد الصلح مع تركيا، إنما يتعارض مع المادة ٤٥ القسم ٣ الملحق ٦ من الفصل الرابع عشر من مدونة القانون العسكري. والحال أن هذه البرقية إنما ترغم دبيلوماسيي وزارة الخارجية على الانكباب على المدونة المذكورة كيما يتسنى لهم فهم رسالة الماريشال. وتنص الفقرة المقصودة على أن "من المحظور إرغام سكان بلدٍ محتلٍ على تقديم الولاء لدولة معادية"[١٩١]. واتفاقيات لاهاي تحظر أي تغيير في الوضع القائم في بلدٍ محتلٍ قبل التصديق على اتفاق صلح. ومن ثم فإن إدارة السير هربرت صمويل ستكون عديمة الشرعية تماماً[١٩٢]. على أن تحرجات الماريشال لا تؤخذ مأخذ الجد الكبير: فعلى أي حال، تم بالفعل تحرير معاهدة الصلح مع تركيا، وسوف يتم التوقيع عليها في سيڤر في غضون بضعة أسابيع[١٩٣].

وفي ١٢ يونيو/ حزيران، يصدر المندوب السامي تصريحه العلني الأول[١٩٤]: وهو يستعيد مواقفه السابقة. فهناك ما يكفي من المكان لشعبين في فلسطين وذلك بفضل برنامج التنمية الاقتصادية الذي سينفذه الصهيونيون. وسوف يَحكُمُ البلد بالعمل على إيجاد مقام قومي يهودي مع الاحترام الصارم لحقوق غير اليهود.

ويبدأ نقل السلطات في منتصف يونيو/ حزيران. فيبلغ أللنبي فيصل بأن التنظيم الجديد للاختصاصات يقضي بتوقفه عن أن يكون محاوره وبأنه سيتعين عليه التعامل مباشرةً مع السير هربرت صمويل[١٩٥]. وهو يرفض الاتهامات بمحاباة اليهود ويبلغه بالتصريح الذي أصدره المندوب السامي الجديد. أمّا فيما يتعلق بفيصل، فهو يزداد انزعاجاً بشكل مطرد[١٩٦]: فالهدنة بين الفرنسيين والكماليين إنما تسمح للأوائل بتركيز قواتهم تمهيداً لاحتلال دمشق في النهاية. ولا يعود هناك حديث في هذه الرسالة عن مصير فلسطين. ويتطرق كيرزون إلى المسألة مع بيرتلو خلال محادثات بولونيا في ٢١ و٢٢ يونيو/ حزيران ١٩٢٠ والممهدة لمؤتمر الحلفاء المشترك في سپا. ويرفض البريطانيون إرسال تصريح مشترك مع الفرنسيين ويتركون لهم الحرية الكاملة في تقدير الأمور وإن كانوا ينصحونهم بتجنب الاضطرار إلى اللجوء إلى الأسلوب العنيف[١٩٧]. كما تتصدى المحادثات لمسألة حدود فلسطين، فيرفض الفرنسيون بشكل قاطع

محاولة جديدة لاقتراح خط ماينرتزهاجن عليهم. كما يبلغهم البريطانيون بمشروع تمهيدي لميثاق الانتداب على فلسطين، وهو مشروع يرى الفرنسيون أنه مسرف في محاباة الصهيونيين. فيتولى بيرتلو إفهامهم أنه إذا كان البريطانيون يريدون توريط أنفسهم في مصاعب لا سبيل إلى الإفلات منها فهذا شأن لا يخصه...

وفي ١٩ يونيو/ حزيران[١٩٨]، ينقل كيرزون إلى صمويل رسالة من الملك إلى شعب (*people*) فلسطين يؤكد فيها بقوةٍ عزم البريطانيين على ممارسة مهام الدولة المنتدَبَة بالحيادية الأكثر صرامة: فالتكوين التدريجي للمقام القومي اليهودي لن يحلق ضررًا بالحقوق المدنية والدينية لسكان فلسطين (من الواضح تمامًا أنه لا يذكر الحقوق السياسية).

وقد بدأ هربرت صمويل رحلته إلى فلسطين بحضور محادثات بولونيا. وقد اغتنم هذه الفرصة لكي يتحادث مع ميللران وبيرتلو وقد دعا إلى علاقات أفضل مع فيصل[١٩٩]. ويشدِّدُ الفرنسيون على أن كل دولة من الدولتين المنتدَبتين يجب أن تهتم بانتدابها وأن لا تتدخل في شئون الأخرى[٢٠٠]:

> إن كل طرف منّا يجب أن يكون حرًّا في انتدابه الذي قرره له مؤتمر الصلح، ذلك أن التدخلات من جانب طرف في انتداب الطرف الآخر من شأنها خلق أفدح المتاعب ومخاطر إساءات الفهم والمصاعب. وسوف تلتزم فرنسا التزامًا صارمًا بالامتناع عن أي تدخل أو علاقة مباشرة في الانتدابات الإنجليزية وتتوقع الاحترام نفسه لحقوقها ولحريتها في التنظيم في منطقتها السورية.

وفي ٢٥ يونيو/ حزيران، يصل هربرت صمويل إلى روما، حيث يستقبله البابا. ويشدِّد هذا الأخير على ضرورة التمسك بالحياد الأكثر صرامة بين مختلف العناصر التي يتكون منها سكان فلسطين[٢٠١]. ثم يجري رجل الدولة البريطاني محادثات مع سكرتير الدولة، الكاردينال جاسپارّي، الذي يطرح المسألة الحساسة والخاصة بالتشريف القنصلي الذي تطالب به فرنسا: فما الذي سيحدث لو جاء يوم وكان فيه المندوب السامي البريطاني كاثوليكيًّا؟ وهو يوافق على إنهاء حماية فرنسا للكاثوليك، لكنه يقترح احتفاظ الأخيرة بوظيفة المحامي عن كاثوليك فلسطين. فيلفت هربرت صمويل نظره إلى قرب تشكيل اللجنة

الدولية المسئولة عن المسائل الدينية في الأرض المقدسة، والتي ستكون الكنيسة الكاثوليكية ممثّلةً فيها بالتأكيد.

وفي ٣٠ يونيو/ حزيران، يصل هربرت صمويل إلى يافا. فيمضي من فوره إلى القدس مخفورًا بحماية بوليسية وعسكرية قوية ــ فهناك خوف من محاولة اغتيال عربية. وفي اليوم نفسه، ينقل إليه بولز سلطاته. وعلى سبيل الدعاية، يطلب الرئيس الأخير للأوابتا من المندوب السامي التوقيع على الإيصال الذي أعده له ونصه: "استلمنا من الميجور ــ جنرال السير لويس بولز فلسطين بالتمام والكمال". فيقوم هربرت صمويل بالتوقيع على الإيصال مضيفًا التحفظ المألوف: "إلا ما سقط سهوًا وعن غير عمد"(٢٠٢).

والحال أن العمل الأخير للإدارة العسكرية هو قيامها، في اليوم التالي، الأول من يوليو/ تموز، بتسليم تقرير لجنة تقصي الحقائق بشأن أحداث أبريل/ نيسان ١٩٢٠، والمسمَّى بتقرير پالين(٢٠٣). وشأن جميع لجان تقصي الحقائق البريطانية اللاحقة، فإن هذه اللجنة لا تهتم بمجرد الوقائع المباشرة التي كانت دافعًا لتشكيلها. فتقرير پالين، شأن تقريري شو أو بيل فيما بعد، إنما يهتم خاصةً بالمشاكل الجوهرية: فهو يتتبع تاريخ ردود فعل السكان العرب منذ تصريح بلفور ويعرض مخاوفهم. وإلى حد بعيد، واستنادًا إلى مواقف علنية للمسئولين الصهيونيين من قبيل "جعل فلسطين يهودية بمثل ما أن إنجلترا إنجليزية"، يجد التقرير هذه المخاوف مشروعة. وتلي ذلك لائحة اتهام ضد اللجنة الصهيونية، وهي لائحة تستعيد التيمات الكبرى للأوابتا ضد هذه الدولة في داخل الدولة، وواقع أن فلسطين ليست صحراء مقفرة وأنه لا وجود لأراض شاغرة.

ولتفسير منطق أحداث أبريل/ نيسان وموقف السكان العرب، يستشهد التقرير ببيت من الشعر الذي كتبه لافونتين بنصه [الفرنسي] الأصلي:

هذا الحيوان شريرٌ آثمٌ ومجرمٌ ظَلومْ

فهو يدافع عن نفسه لو بوغت بالهجومْ.

وموقف الأوابتا إنما تبرره الضرورة القانونية والأدبية للحفاظ على الوضع القائم، والذي ينص عليه القانون العسكري، ووضعية الأراضي المحتلة. ويجري الاعتراف بوجود تحيزات فردية مناوئة لليهود لدى بعض الموظفين

البريطانيين، إلاّ أنه يجري التمسك بتأكيد الأخلاق الاستعمارية: إن الصهيونيين لا يمكنهم أن يفهموا أن من الوارد أن تكون لدى موظف إنجليزي مشاعر عداوة شخصية لكنه، بالرغم من ذلك، يؤدي واجبه بنزاهـة[٢٠٤]. وتلقى تصرفات ماينرتزهاجن لومًا خاصًا. وفي الختام، ترى لجنة تقصي الحقائق أنه إذا كان تصريح بلفور ــ أمرًا مقضيًا[٢٠٥]، فإن الوضع إنما يظل خطرًا خطورة خاصة ولابد لتحقيق المقام القومي اليهودي من أن يتم عبر التمسك بأقصى قدر من الأناة والتبصر.

والحق أن تقرير پالين تعبير عن رأي الإدارة العسكرية الراحلة، ولهذا فلم يجر الإصغاء إلى استنتاجاته. ومع أنه يعبر عن عداء الأوإيتا للصهيونية وعن الرؤية المشتركة لدى الاستعماريين البريطانيين الواقعين في المصيدة الفلسطينية، إلاّ أن أهميته إنما تكمن في شيء آخر. فهو يطرح للمرة الأولى طبيعة مسألة فلسطين ليس من زاوية تحليلٍ للخطاب ــ معاداة السامية في مقابل الصهيونية ــ، وإنما من زاوية منطق الوضع. فالنزاع بين العرب واليهود حتميّ، لأن عين طبيعة التعارض بين النزعتين القوميتين والاستحالة المادية لتجاوز الرهانات الترابية (النمو الديموغرافي للجماعتين السكانيتين وعدم وجود أراض شاغرة) إنما تجعلان من المستحيل التوفيق بين المطلبين. والحال أن البريطانيين في فلسطين أسرى لتناقض لا سبيل إلى التغلب عليه، هم أنفسهم المسئولون عنه.

والسير هربرت صمويل مدرك لمخاطر الوضع، لكنه واثق مع ذلك بإمكانية انطلاقةٍ جديدةٍ وبقدرته على التوفيق بين مواقف الفاعلين المختلفين.

الفصل الثالث عشر

صمويل، المشرِّع

"استقبلني، استقبالاً بين بين، السير هربرت صمويل الذي يمثل في فلسطين ما يحسن تسميته بالسياسة الأنجلو ــ يهودية. والحال أن هذا اليهودي المهذب، المتحرر من عيوب الجيتّوات، قد استعادته قبيلته في القدس استعادةً تامة، وهو يتردد على المعبد اليهودي ولا يقبل دعوات يوم السبت ولا يتحرك إلاّ ماشياً على قدميه في اليوم المقدس. وهذه ظاهرة غريبة إذا ما فكّرنا في الشناعة الواضحة التي يتميز بها يهود غاليسيا ومناطق أخرى مجاورة، والذين يغرقون فلسطين الآن وإن كانوا يُلزِمون أناساً كالسير هربرت بمساخرهم.

"إن هؤلاء الناس، قبل أن يكونوا قد قاموا بأي شيء جاد في البلد، إنما يحلمون بتوسيعه على حسابنا وبوسعكم أن تكونوا واثقين بأن يهود شطري الكرة الأرضية سوف يدعمون السياسة التي تتمثل في زحزحة حدودنا إلى شمال حوران وإلى ضفة نهر الليطاني. وسيكون من المفيد حسم مسألة الحدود بأسرع ما يمكن وتبديد أي نوع من الآمال في تقديم تنازلات لهم".

روبير دو كيه، ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢٠[١].

"سيكون من السهل علينا، إذا أردنا أن نرد للإنجليز مكائدهم، أن نعزز، على حساب السلطة الإنجليزية، حركات التململ في شرق الأردن وأن نحث أناس هذا البلد على تقديم عرائض ضد الانتداب البريطاني وأن نستثير في فلسطين حركة واسعة لتقديم العرائض ضد الصهيونية. إن السخط عظيم جدًّا في المنطقة الجنوبية بحيث إنه يكفي دفع قليل من المال للبدو الذين يطلبون عوننا، وتقديم بعض الأموال إلى الجمعية الإسلامية ــ المسيحية في القدس، والتي ترقد في سبات بسبب انعدام الموارد، أو حتى مجرد قيامنا باستقبال أعيان شرق الأردن، الذين يترددون على هذا المكان كثيراً، استقبالاً مختلفاً عن استقبالنا لهم بالعبارات التي تدل على تهربنا، فهم يمتنعون عن أي ارتباط بفلسطين ويتشبثون بتعليق آمالهم علينا وبإيمانهم بأن فرنسا ما يزال لها شأنها في المناطق التي كانت

تشكل بالأمس سوريا الجنوبية.

"ولابد أن نكون مقيدين هنا بإدراك بالغ الوضوح للضرورات العامة لسياسة بلدنا، بحيث ننتهز الفرص التي تتاح كل يوم لكي نثبت للإنجليز أن فلسطين وشرق الأردن يقدمان لنا الآن إمكانات لإزعاجهم أكثر بكثير من الإمكانات التي يجدونها في سوريا لإطلاق عقال العداوة التي لم تكف عن أن تكون مصدر إلهام جميع علاقاتهم معنا منذ دخول قوات الحلفاء فلسطين وسوريا".

روبير دو كيه، ٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠[٢].

بدايات السير هربرت صموئيل

المندوب السامي الجديد على قناعة صادقة بأن التعارض بين الصهيونية والسكان العرب راجع إلى سوء تفاهم. وهو يعتقد أنه بوجوده هو لا غير، سوف ينجح في تهدئة الخواطر: فبوصفه يهوديًا، لا يمكنه إلا أن يرضي إخوته في الديانة، وبوصفه بريطانياً، سوف ينجح في طمأنة العرب. ولا يخطر بباله أن العكس يمكن أن يحدث وأنه سوف يعتبر في نظر العرب يهوديًا بأكثر من اللازم بينما سيعتبر في نظر اليهود بريطانيًا أكثر من اللازم.

والحال أن الوظائف العامة العليا التي مارسها قد درَّبته على مقاربة المشكلات الإدارية مقاربة ملموسة. وهو يملك رؤية عامة لبرنامج واسع للإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية. والهدف من الناحية العملية هو صنع، أو إعادة صنع، بلد، و، بفضل الطموح إلى التنمية وإلى الرخاء، العمل على نسيان المصاعب السياسية الحالية. وبإرجاع هذه المصاعب إلى سوء فهم تَسبَّبَ فيها، فإن مقاربته إنما تعد بشكل أساسي مقاربة لا سياسية، فهي مقاربة اقتصادية وإصلاحية. وفي هذا، نجد أن فهمه لطبيعة النزاع على فلسطين هو من عين طبيعة الأخلاق الاستعمارية للمديرين البريطانيين والتي تتطلب النزاهة من جانبهم وانصراف أهل البلد عن السياسة، وكلاهما ضمن منظور تحقيق الصالح المشترك.

وينكب هربرت صمويل على المهمة فوراً. فغداة وصوله إلى القدس، يجمع الحكام العسكريين لمختلف المناطق الفلسطينية لكي يناقش معهم مضمون التصريح الذي سيصدره عن سياسته[٣]. وفي الأيام التالية، يواصل مشاوراته مع مختلف مسئولي الإدارة. وفي ٥ يوليو/ تموز، تحل محل الأوإيتا "حكومة فلسطين" (*Government of Palestine*)؛ وبما أن النظام المدني قد جرى تدشينه، فإن الحكام العسكريين يصبحون حكام مناطق. ويتولى ديديس مهام الـ *Civil Secretary* (السكرتير العام)، بينما يتولى بنتفيتش مهام الـ *Legal Secretary* (السكرتير القانوني)، ويظل ستورس حاكماً للقدس.

وفي ٧ يوليو/ تموز، في القدس، يخطب المندوب السامي في جمع من ٢٥٠ من أعيان مختلف الطوائف، كما يخطب يوم ٨ في جمع أوفر عدداً بكثير، في حيفا. ولا يقاطع هذه الاجتماعات سوى العناصر الأكثر جذرية. ويتجه هربرت صمويل إلى تلاوة الرسالة الملكية، ثم يضيف إليها تفسيره: فيشدّد على المساواة في التعامل مع مختلف عناصر السكان، وعلى حفظ النظام العام بصورة صارمة وعلى برنامج للتنمية الاقتصادية.

وكلامه موسوم بالرؤية الاستعمارية البريطانية. فهو يتحدث عن العدل، عماد عظمة الإمبراطورية، لكنه لا يتحدث بالمرة عن حقوق السكان. وهو يقول إنه لأجل غير مسمى سوف تجري ممارسة الوظائف العليا في الإدارة من جانب البريطانيين إلى أن يصبح فلسطينيون مؤهلين تماماً قادرين على الحلول محلهم. أمّا الوظائف الأدنى فسوف تكون متاحة فوراً لجميع الفلسطينيين دون تفرقة.

وهو يقول إن مجلساً استشاريًّا (*Advisory Council*)، ينضم رؤساء المصالح وعشرة أعضاء يتم اختيارهم من بين جميع عناصر السكان، سوف يجري تكليفه بتقديم رأيه في صياغة التعليمات التي يجري الإعداد لها. كما يعلن عن قرب تشكيل اللجنة المكلّفة بتسوية المسائل الدينية. بيد أن كلام المندوب السامي الطنّان عن المرحلة الأولى في طريق الحكم الحر (*self-government*) لا يجب أن يخدعنا. فمن حيث الحقوق السياسية، يشكل الانتداب تقهقراً لا جدال فيه قياساً إلى العصر العثماني.

والجانب الرئيسي للبرنامج ذو طبيعة اقتصادية، خاصة مع استئناف الصفقات العقارية والتي تتطلب إنشاء لجنة عقارية ومحكمة متخصصة، وبدء عمليات مسح وتسجيل الأراضي. ويجري الإعلان عن أعمال ضخمة في مجال المواصلات والاتصالات (سكك حديدية، طرق، شبكات التلغراف والتليفون). وسيجري إنشاء ميناء جديد في حيفا. أمَّا التخطيط الحضري فسوف يجري تطبيقه في المدن الرئيسية. بينما يذهب البرنامج إلى أن الهجرة سوف يجري تقييدها بحجم الوظائف والوحدات السكنية المتاحة.

وسيجري منح عفو عام عن مرتكبي قلاقل أبريل/ نيسان، وذلك سعياً إلى استعادة التوافق العام.

ويخرج المندوب السامي سعيداً من هذا الاتصال الأول. فهو قد نجح في تهدئة الانزعاجات. ولا يتردد مفتي القدس في أن يقول له بينه وبينه: "اليوم، لأول مرة منذ أسابيع، أشعر أن بوسعي الابتسام". والحق أن من واجبه التفكير في أخيه غير الشقيق، الحاج أمين، الذي سيكون من بين الأشخاص المشمولين بالعفو. أمَّا چابوتينسكي فهو غاضب من العفو عنه ويطلب تعديل الحكم الصادر ضده. فيحيله المندوب السامي إلى القضاء العسكري الموجود في مصر(٤). كما يتوصل هربرت صمويل إلى عدم نشر تقرير پالين، سعياً إلى الحفاظ على تهدئة الخواطر(٥).

وبالرغم من طموحات المندوب السامي الجديد في مجال التشريعات، فإن شاغله الأكثر إلحاحاً هو الوضع في سوريا. فعلى أثر ضغوط فرنسية، تعهدت بريطانيا العظمى بعدم التعامل بشكل مباشر مع فيصل إلاَّ فيما يتعلق بالمسائل الفلسطينية بشكل محدَّد(٦). وفي مسألة الحدود، بدا الفرنسيون متشددين، والبريطانيون يتركون الصهيونيين يحاولون وحدهم دفع باريس إلى تبديل مواقفها. وفيما يتعلق بالأماكن المقدسة، اتخذت لندن قراراً برفض تعيين أعضاء سوريين في اللجنة المكلَّفة بإدارتها. فالإسلام سوف يمثله مسلمون محليون. وهكذا فإن طموحات هربرت صمويل إلى لعب دور إقليمي إنما تصاب بالإحباط.

وفي منتصف يوليو/ تموز، تنشب الأزمة النهائية بين الفرنسيين وفيصل.

فيوجه جورو إلى ملك سوريا غير المعترف به إنذاراً يدعوه إلى قبول المطالب الفرنسية. ويوم ٢١، تبدأ القوات الفرنسية زحفها على دمشق. فيلجأ فيصل إلى المراوغة. ويوم ٢٤ يوليو/ تموز، تنجح القوات الفرنسية في تبديد شمل قوات الأشراف في ميسلون. ويوم ٢٧، يتلقى فيصل الأمر بالرحيل عن دمشق. وليس بوسع البريطانيين عمل شيء لإنقاذ حليفهم السابق. ويسارعون إلى مطالبة الفرنسيين بعدم تنصيب طامح آخر على عرش سوريا. وهم يخشون بشكل خاص من تنصيب أحد أفراد عائلة [الأمير] عبد القادر [الجزائري][٧]. والحال أن الفرنسيين، المفعمين بالروح الجمهورية، إنما يقومون بطمأنتهم فيما يتعلق بهذه المسألة.

وينسحب فيصل إلى درعا[٨] ويرسل جعفر باشا إلى القدس لكي يطلب العون. فيجيبه صمويل بأنه لا يمكنه غير ضمان مروره عبر فلسطين لكي يصل إلى الحجاز. وحيال خطر غارات القصف الجوي الفرنسية، يستسلم فيصل لفكرة مغادرة الأراضي السورية[٩]. وصمويل حريص على موقف سكان فلسطين المسلمين الذين يعبرون عن تعاطفهم مع المغلوب، ومن هنا قراره باستقباله استقبالاً كريماً[١٠].

وهو يستقبل فيصل في حيفا في الأول من أغسطس/ آب ويقوم بإفهامه أنه لا يمكنه البقاء طويلاً في فلسطين. والملك المخلوع يريد الذهاب إلى مصر لكي يقابل أللنبي، لكن الماريشال يرفض ذلك[١١]. ويرفض فيصل فكرة الذهاب إلى الحجاز، كما يقترح عليه أللنبي وصمويل، ويقرر الذهاب إلى أوروبا. فتطلب الحكومة البريطانية إلى الحكومة الإيطالية استقباله على أراضيها.

والحال أن سقوط المملكة العربية إنما يستتبع احتلال القوات الفرنسية لأراض في شمال خط سايكس ـــ بيكو. ويرى كيرزون أن مما لا جدال فيه أن المناطق في جنوب الخط تقع ضمن المنطقة البريطانية، بيد أن القطاعات الموجودة في الشمال بشكل مباشر يجب مناقشة مصيرها بين الفرنسيين والبريطانيين[١٢]. ويظل صمويل نصيراً لفلسطين كبرى ويتمنى ممارسة ضغط على الفرنسيين في اتجاه ضم مناطق الجولان وحوران إليه. وبالمثل، فيما يخص شرق الأردن (الأويتا العربية السابقة)[١٣]، يوضح أن زعماء القبائل

يطالبون بضمهم إلى فلسطين. وتعارض وزارة الحربية البريطانية ذلك متذرّعة بالتكلفة الباهظة لمثل هذا الاحتلال[١٤]. ويقترح كيرزون إرسال ضباط سياسيين إلى هناك مهمتهم العمل على تشجيع تكوين سلطات محلية. ويتخذ صمويل مظهر محامي زعماء قبائل الجولان وحوران الذين يسعون إلى الفوز بالحماية البريطانية[١٥]، لكنه يعرف أن لندن عازمة على التمسك بخط سايكس ـ بيكو. وهو يتبع مقترحات كيرزون فيما يتعلق بشرق الأردن ويطالب الفرنسيين بعدم دخوله[١٦]. ويبلغ بذلك فيصل، الذي يحتج على التنازل لفرنسا عن حوران ويطالب باحترام المعاهدات[١٧]. ولا يصل الملك المخلوع إلى إيطاليا إلاّ في أواخر الشهر. ويشتبه الفرنسيون بأن البريطانيين يريدون أن يجعلوا منه ملكاً على بلاد الرافدين ويحتجون على ذلك بقوة. ثم إنهم يبلغونهم بأن فيصل سبق له أن قدم إليهم عروضاً بالتعاون ضد البريطانيين[١٨]...

والحال أن قنصل فرنسا في القدس إنما يحتج رسميًا على نشاطات بعض الأشراف كالدرزي عادل أرسلان (شقيق شكيب أرسلان)، المشتبه بتشجيعهم لحركات الانشقاق في جنوبي المنطقة الفرنسية[١٩]. فيرد عليه صمويل بأن فيصل وصحبه قد التزموا بعدم القيام بنشاطات سياسية خلال إقامتهم في فلسطين. وسوف تجري مراقبة الأشراف بشكل دقيق. لكن جورو، الذي كان قد أصدر أحكاماً غيابية ضد عدد معين من الأشخاص المحيطين بفيصل، إنما يطلب تسليمهم. ويوحي المندوب السامي للحظة بأنه مستعد لتسليمهم، ثم يمتنع عن أي ترحيل للمحكوم عليهم من السياسيين[٢٠].

وفي ٢٠ أغسطس/ آب، يذهب صمويل إلى شرق الأردن تحرسه قوة من سلاح الفرسان[٢١]. وهو يخاطب السكان سعياً إلى طمأنتهم على مصيرهم: لا دخول للقوات الفرنسية، نظام إداري مبسَّط مختلف عن نظام فلسطين الإداري. وهو يستنتج من زيارته أن السكان كلهم يطالبون بإدارة بريطانية. ويضطر كيرزون إلى أن يشدِّد لصمويل على أنه: من غير الوارد إقامة إدارة بريطانية في شرق الأردن[٢٢].

أمّا جورو[٢٣] فيخامره الانطباع بأن هؤلاء السكان أنفسهم يطالبون بحماية فرنسية ويوضح للبريطانيين أنه قد رفض هذه المقترحات... وبالنسبة

للبريطانيين، تعد مسألة الحدود الشمالية لفلسطين مفتوحة كالعادة[٢٤]. لكن جورو يستحدث عملاً مثيراً بإعلانه في الأول من سبتمبر/ أيلول عن قيام دولة لبنان الأكبر مع توضيحه أن حدودها ستكون مع "الحدود الفلسطينية على نحو ما سوف تقرّرها الاتفاقات الدولية"[٢٥]. والواقع أن الفرنسيين إنما يتمسكون بمقترحاتهم التي تقدموا بها إلى مؤتمر لندن: خط حدود قائم على خط تقسيم المياه بين حوض نهر الليطاني وحوض نهر الأردن، مع دمج المستوطنات اليهودية الموجودة في الجليل بفلسطين، ومن هنا التزحزح إلى شمالي الأراضي الفلسطينية ("إصبع الجليل"). وهذا حل وسط بين خط سايكس ــ بيكو وخط دوڤيل.

إعادة تنظيم الإدارة

جاء السير هربرت صمويل إلى فلسطين تحدوه تطلعات عريضة: فالجماعات السكانية المتعارضة سوف يكون بالإمكان التوفيق بينها عبر برنامج طموح للتنمية الاقتصادية. وشأن عدد من خلفائه، فهو من السذاجة بحيث يتصور أن حل مسألة فلسطين سيكون ذا طبيعة اقتصادية وأن الرخاء سيكون بمقدوره تسوية جميع المشاكل. وعلاوة على أننا نادراً ما رأينا أن الرخاء يهدئ من حرارة المشاعر القومية، فإن هذا التصور إنما يعني عدم إدراك أن الإصلاحات الضرورية لبرنامج كهذا سوف تستتبع بالضرورة تغيرات اقتصادية وحقوقية واجتماعية من شأنها أن تهدد المواقع القائمة للجماعات وأن تحفز توترات جديدة سوف تترتب عليها قلاقل.

وهكذا فإنه منذ وصوله يعطي حرية كاملة للهجرة اليهودية تحت الإشراف الحصري من جانب المنظمة الصهيونية. ويصدر الأمر بذلك في الأول من سبتمبر/ أيلول ١٩٢٠[٢٦]. ومن سبتمبر/ أيلول إلى ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠، ستبلغ الهجرة اليهودية المشروعة ٥٥١٤ شخصاً، في حين أنها كانت شبه معدومة في الفترات السابقة[٢٧]. وبالمثل، فإنه يعد مشروع أمر عقاري ترفضه وزارة الخارجية البريطانية[٢٨] لما ينطوي عليه من مثالب من الزاوية القانونية[٢٩].

وبالرغم من أن هذا الفشل يزعج المندوب السامي، الحريص على إثبات أنه يتمسك بالوعود التي جاءت في خطابه الاستهلالي، فإن بوسعه التباهي بالهدوء الذي يسود في فلسطين منذ توليه منصبه(٣٠). وهو يخشى من أن يؤدي طرد فيصل من دمشق إلى تحرك سخط القوميين العرب الذين يلومون بريطانيا العظمى على عدم دعمها للمملكة العربية. وسرعان ما تدخل الطمأنينة على قلبه ويرى أن أحداث يوليو/ تموز قد أدت إلى شعور بالتشاؤم في أوساط القوميين، الذين باتوا محرومين من أي دعم خارجي واضطروا إلى اعتبار أن السلطة البريطانية في فلسطين مرغوبة أكثر من السيطرة الفرنسية في سوريا.

والواقع أن فلسطينيي دمشق، وبينهم عدد ممن حكم عليهم غيابيًا بالإعدام أو بعقوبات جسيمة من جانب المحاكم العسكرية الفرنسية، إنما يعودون إلى فلسطين. وفي مرحلة أولى، يصبون غضبهم بالأخص على أعيان دمشق، الذين عاملوهم كأجانب. وهذا لا يعني أنهم قد هجروا النضال السياسي، حتى وإن كان برنامج سوريا الجنوبية قد تم استبعاده بالكامل. والاستقبال الطيب نسبيًا للمندوب السامي من جانب العرب إنما يستند إلى العفو الذي وعد به كما إلى التطمينات التي قدمها فيما يتعلق بالتعامل مع مختلف عناصر السكان تعاملاً لا يعرف التفرقة، ولم تكن هناك مصادرة للسكان العرب ولا طرد لهم(٣١).

والحال أن الأعيان، الذين شهدوا صون دورهم الاجتماعي، إنما يعدون مرتاحين بالأحرى إلى الوضع الجديد. وموقف الإدارة المدنية يتمثل في نبذ أي مؤشر على التمييز السافر بين أهل البلد والبريطانيين، أكان ذلك في بنى الهيئات أم في مواقع ومناسبات الاختلاط الاجتماعي. ولم تكن الدراية بالإنجليزية شرطاً فوريًا لتولي الوظائف الإدارية.

وقد استثار تعيين صموئيل حركة طموح كبرى في صفوف السكان اليهود. فبرنامجه بشأن الهجرة الحرة واستئناف الصفقات العقارية إنما يتيح آفاقاً رائعة بالنسبة للمستقبل، وتخفيف التوتر في اللحظة المباشرة يبدو علامة واعدة. أمَّا الانزعاجات الآن فهي تتصل بالمصاعب ــ غير المتوقعة على ما يبدو ــ والتي تواجه جمع الأموال من أجل تنفيذ المشروعات الصهيونية الكبرى. فمنذ بداية استئناف الهجرة نجد أن عجز **الييشوف** الجديد عن استيعاب القادمين

الجدد وعن امتصاص البطالة الناشئة عن ذلك إنما يعد عجـزاً جليًـا للعيـان. ويفضل هربرت صمويل والمنظمة الصهيونية التزام التكتم على هذا الموضوع سعياً إلى عدم خلق إحباطٍ فيما يتعلق ببناء المقام القومي اليهودي.

وعلاوة على مسألتي سوريا وشرق الأردن، كرس المندوب السامي أسابيعه الأولى لإعادة تنظيم إدارته عبر تخفيض عدد المـوظفين البريطـانيين بنـسبة الربع، وذلك بموجب مشروع كان قد أمر به بالفعل سلفه. وفـي ٦ أكتـوبر/ تشرين الأول، يجتمع، لأول مرة، بمجلسه الاستشاري المكوَّن، عـلاوة علـى المديرين البريطانيين للمصالح الرئيسية، من أربعة مسلمين وثلاثـة مـسيحيين وثلاثة يهود[٣٢] معينين بحكم صفتهم التمثيلية الاجتماعية والجغرافية. ويتـرك صمويل لهم حرية واسعة في التعبير ويستفيد من انتقاداتهم البنّاءة.

ويشدِّد المندوب السامي في كلمته الافتتاحية على واقع أننا بـإزاء مرحلـة أولى على طريق الحكم الحر (*self-government*). وبالرغم من التأخير الـذي جرَّته لندن على صياغة أمر عقاري، فإن الصفقات كان قد جرى التصريح بها منذ مستهل الشهر. كما جرى البدء بالدراسات الضرورية لبرنـامج الأشـغال الكبرى. ويظل صمويل، في مجمل خطابه، ضمن مجال العمل الإداري ويمتنع عن الحديث عن الجوانب السياسية للموضوعات محل النظر.

والمناخ من أكثر المناخات وداداً. ويتبارى العرب واليهود سواء بسواء في الإشادة بالمندوب السامي. ويشدِّد ممثلو العرب على ضرورة الاتجاه بأسرع ما يمكن إلى تعيين فلسطينيين في مناصب مسئولية. لكن يللين، وهو أحد ممثلـي اليهود، يجادل في قدرة الفلسطينيين على الشروع فوراً بممارسـة مثـل هـذه الوظائف. وعلاوة على بعض النقاط فيما يتعلـق بمـسألة الهجـرة، تتـصل المناقشات من حيث الجوهر بمسائل تقانيـة تتعلـق بالـضرائب وصـادرات المنتجات الغذائية (فبالرغم من محصول جيـد، حظـرت الإدارة البريطانيـة الصادرات بسبب الارتفاع العالمي لأسعار السلع الغذائية، وذلك سعياً إلى تجنب حدوث ارتفاع في تكاليف المعيشة)، كما تتصل المناقشات بتمويـل المـدارس وبالتدابير الصحية وبمكافحة الملاريا.

وتتميز المناقشات كلها بارتفاع مستواها، ذلك أن كل عضو من الأعـضاء

كان حريصاً على تقديم مساهمة بنّاءة، ولا يملك المندوب السامي إلاّ أن يسعد بالنتيجة الطيبة لمبادرته. وهو يفكر في إقامة مجالس دوائر ينتخبها السكان، كما يفكر في نقل إدارة الأوقاف إلى المسلمين، فهي تدار بصورة مؤقتة من جانب الإدارة(٣٣). والحكام الذين جرى التشاور معهم يبدون معادين لمنح أي وظائف تنفيذية لأناس منتخبين من أهل البلد ولا يطالبون إلاّ بمجالس استشارية معينة بموجب الأسلوب نفسه الذي تشكل به المجلس الاستشاري لدى المندوب السامي(٣٤). وبالمقابل، سوف تجري دراسة قانون جديد بشأن البلديات سعياً إلى السماح بإجراء انتخابات (أمّا الآن، فإن الحكومة هي التي تعين المجالس البلدية). وسرعان ما يجري إدراك أن صدور قانون انتخابي إنما يفترض تعريفاً للجنسية الفلسطينية، الأمر الذي يتطلب، هو نفسه، تطبيق ميثاق انتداب تصدّق عليه عصبة الأمم. ونظل بعيدين عن ذلك.

أمّا العلاقات مع الانتداب الفرنسي فتجري مناقشتها خلال زيارة روبير دو كيه، سكرتيره العام، إلى القدس(٣٥). فيشكو الفرنسي من موقف الضباط السياسيين [الإنجليز] في شرق الأردن، والذين يغذون التوتر السياسي في سوريا الفرنسية. وهو يطالب بأن يتجه البريطانيون إلى احتلال عسكري سعياً إلى إنهاء الأعمال الاستفزازية التي تنطلق من شرق الأردن. كما أنه منزعج على مستقبل المؤسسات الثقافية الفرنسية في فلسطين حيث إنها تتعرض لضغوط مشتركة من جانب الصهيونيين والبريطانيين: وهذا خوف من صبغ البلد بالصبغة الإنجليزية ومن الهجمات على مدارس التحالف الإسرائيلي العالمي من جانب الصهيونيين الذين يتهمون هذه المدارس بخيانة القضية القومية. وصمويل مقتنع بأنه قد قدم التطمينات المطلوبة وبأن المحادثات قد دارت في مناخ ودّي. ويرجع روبير دو كيه إلى بيروت، مقتنعاً بأن استقباله كان استقبالاً بين بين وبأن مشاريع الصهيونية في مجال التوسع الترابي تشكل تهديداً لمستقبل سوريا(٣٦). وفي لندن(٣٧)، يحلل يانج المحادثات موضحاً أن هناك تنافراً بين رؤية بريطانية تذهب إلى إمكان تحقيق الانتداب، كما تبين ذلك حالة شرق الأردن، من خلال وجود خفيف دون احتلال عسكري، اكتفاءً بتقديم المشورة، ومفهوم فرنسي يفترض وجوداً إداريًا وعسكريًا قويًا. ويجب تجاوز كل ظروف

الاحتكاك بين الفرنسيين والبريطانيين. والواقع أن البريطانيين لا يريدون تحمل تكاليف إدارة شرق الأردن، لكنهم يخشون من تدخل فرنسي في هذه المنطقة في حالة نشوب اضطرابات في سوريا يتخذ محركوها من شرق الأردن ملاذاً لهم.

والحال أن التوافق بين صمويل والسكان إنما يبدأ في التلف اعتباراً من أواخر أكتوبر/ تشرين الأول. ويلقي ديديس بالمسئولية عن ذلك على الانتلجنسيا، التي تتميز في الشرق بهوة بين "اتساع مطالبـ[ـها]"(٣٨) والانعدام التام للكفاءة اللازمة لتطبيقها(٣٩)، وعلى تأثير نزعة الجامعة الإسلامية والنزعة القومية العربية القادمتين من الخارج وعلى حتمية إلى العودة إلى الواقع مع تطبيق البرنامج الصهيوني الذي يثير المسائل الأكثر إثارة للجدل.

وبالرغم من كون ديديس مفعماً بالشعور الاستعماري بعدم أهلية أهل البلد لممارسة وظائف المسئولية، فإنه يقدم تشخيصاً جديراً بالملاحظة لتطور حالة العرب الذهنية: فالعرب، بعد أن تأثروا لتعيين مسئول جد مهم كهربرت صمويل وأدهشهم ما أبداه من لباقة وحزم في إدارة البلد، قد عادوا إلى الشيء الجوهري. فتيار الأغلبية هو "فلسطين للفلسطينيين" (أي استبعاد الوجود اليهودي)، وهذا التيار مستعد للتحالف مع المتمسكين بنزعة الجامعة الإسلامية وبالنزعة القومية العربية. وقد تتمثل الشعارات المعبرة عن هذا التيار في الانتخابات ومنح العرب وظائف تنفيذية وتعريب الإدارة من حيث اللغة كما من حيث المناصب. وليس هناك في اللحظة الحاضرة تهديد بنشوء أي خطر، إلا أنه يتعين عدم الإفراط في التفاؤل فيما يتعلق بالمستقبل.

وديديس هو أول من يقول بأن التقدير الذي يذهب إليه لا يخص فلسطين وحدها وبأنه إنما يحلل وضعاً تواجهه السلطات البريطانية في عدد من البلدان المستعمَرة. فبعد سنتين من انتهاء الحرب العظمى، نجد أن الطبقة المثقفة التي أنتجها التحديث الاستعماري إنما تطرح نفسها كمنافس لمجموعة الموظفين البريطانيين وتتمتع، في هذه المعركة، بسلاح النزعة القومية الرهيب، الذي يسمح لها بأن تعبئ لحسابها فريقاً عظيماً من السكان. وهذا أمر محير للبريطانيين لاسيما أنهم يطرحون أنفسهم على وجه التحديد بوصفهم حماة للشعب من نُخَبِه. والحال أن رؤيتهم الإدارية الخالصة للأمور إنما تتركهم

حيارى حيال التسيس المتزايد للمجتمع المستعمَر.

وقد تتبع المصاعب السياسية في فلسطين من أمور تتصل بالتفاصيل. فمنذ الأول من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢٠، أصدرت الإدارة طوابع بريد تحمل كلمة "فلسطين" بالإنجليزية والعربية والعبرية؛ والكتابة العبرية مسبوقة بالحرفين الأوَّلين لإيريتز إسرائيل [أرض إسرائيل]، الأمر الذي يستثير احتجاجات العرب ويؤدي إلى شعور وزارة الخارجية البريطانية بالحرج[٤٠] على أثر استجواب من جانب عضو بالبرلمان. ويرد السير هربرت صمويل في ٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني[٤١] بأن كلمة "فلسطين" لا وجود لها بالعبرية وأن العادة قد جرت على ترجمتها بإيريتز إسرائيل في الوثائق الرسمية.

وقد تكون المسألة ذات طابع أعم[٤٢]: فقد صرح المندوب السامي بانعقاد مجلس تمثيلي يهودي، انتخب في الربيع، واعترف بوجوده بالرغم من تأكيده أنه لا يمنحه احتكار التمثيل السياسي اليهودي (قاطع اليهود الأرثوذكس المتشددون الانتخابات والمجلس التمثيلي). وهو يخشى من أن يزوِّد المسلمون والمسيحيون أنفسهم بمجلسين مماثلين و، بما أنهم إنما يمثلون الغالبية العظمى من السكان، فإن منازعتهم للسلطة البريطانية قد يصبح لها وزنها الجسيم. فيوضح للمجلس التمثيلي اليهودي أن حقل اختصاصاته تابع لحقل اختصاصات إدارة الانتداب التي تمثل عصبة الأمم وأن هذا المجلس لا يمكنه أن يعالج سوى المسائل الطائفية اليهودية وليس مسائل السياسة العامة.

والحال أن هربرت صمويل، في تقريره عن شهر أكتوبر/ تشرين الأول[٤٣]، إنما يقلل من أهمية الناشطين القوميين والناشطين المؤيدين لنزعة الجامعة الإسلامية، فهم ليسوا غير ذبابات سياسية كثيرة الحركة ولا جدوى من حركتها (*political busybodies*) ولا يمثلون غير أنفسهم. فالفريق الأعظم من السكان غير مهتم بالسياسة ولا يشعر بأنه معنيٌّ إلاَّ بتحسين رفاهيته المادية، وهذا سبب ثقة هذا الفريق بالإدارة البريطانية.

ڤايتسمان وميثاق الانتداب

غمَر تعيينُ مندوبٍ سامٍ يهوديٍ بالفرح قلبَ الزعيم الصهيوني، حتى وإن

كانت هناك خلافات في تقدير الأمور بين الرجلين. والحال أن حماسة ڤايتسمان لن تدوم طويلاً. ذلك أن سلسلة جديدة من المحن تنتظره، أكان في علاقاته مع البريطانيين ــ تحديد حدود الانتداب ــ أم في النزاعات الداخلية في الحركة الصهيونية.

فالصياغة الأولى لمشروع ميثاق الانتداب كانت قد عُدِّلت في اتجاه مؤات بالأحرى للأطروحات الصهيونية. ذلك أن الديباجة المكتوبة في يونيو/ حزيران ١٩٢٠ قد اعترفت بصلة الشعب اليهودي التاريخية بفلسطين وبحقه في إعادة صياغة فلسطين بحيث تصبح مقامًا قوميًا له. وكان بلفور هو الذي كتب هذه الصيغة. وخلال محادثات بولونيا، كان الفرنسيون شديدي الانتقاد لمضمون المشروع. وقد وجد لويد جورج أن ميثاق الانتداب فيما يخص بلاد الرافدين يعد مفرطاً في كوابحه، واعترض عدة وزراء بريطانيين على بعض بنود ميثاق الانتداب فيما يخص فلسطين. وقد قررت الحكومة البريطانية[٤٤]، على هامش مؤتمر الحلفاء المشترك في سپا (مستهل يوليو/ تموز ١٩٢٠)، إعادة صياغة مشروعي الميثاق باختزالهما في مبادئ عامة و، دون إلحاق ضرر بالمصالح الصهيونية، بإزالة ما قد يبدو استفزازيًا بالنسبة لعناصر السكان الأخرى. وفي مرحلة أولى، يقوم المحررون بإلغاء الفقرة التي تتحدث عن الصلة التاريخية، ثم يقومون بإعادتها، الأمر الذي يستثير عظيم سخط كيرزون، الذي لا يقبل الاعتراف بهذه الصلة والذي يلاحظ أن بريطانيا العظمى، استناداً إلى هذا المبدأ، سيكون بوسعها المطالبة بجزء لا بأس به من فرنسا، وذلك اعتماداً على حقوق أقوى من حقوق الصهيونيين في فلسطين... والحال أن كيرزون، الذي يلتقي ڤايتسمان في أواخر يوليو/ تموز، إنما يبدي له عداءه لمضمون الديباجة.

ويقوم المحررون بإبلاغ الصهيونيين بالنص الذي كتبوه. وهنا أيضاً، يبدي كيرزون تحفظه لكنه يرضخ لما حدث باعتباره شيئاً لا مفر منه، ذلك أن الصهيونيين، على أي حال، يتم إبلاغهم دوماً بالمشاريع البريطانية عبر إفشاءات تفتقر إلى التحفظ. وفي ١١ أغسطس/ آب، توجه المنظمة الصهيونية ملاحظاتها إلى وزارة الخارجية البريطانية[٤٥]: فيجري الإعراب فيها عن الأسف حيال غياب الإشارة إلى الوضعية النهائية للانتداب وإلى المكانة المميَّزة

التي يجب منحها للوكالة اليهودية القادمة. وفي الأسابيع التالية، تقرر لجنة الصياغة حذف الديباجة(٤٦). ومقصدها هو توضيح واقع أنه إذا كان للصهيونيين مكانهم في هذا البلد، فإن هذا الأخير لا يجب تحويله بأسره إلى مقام قومي يهودي(٤٧). وطبيعي أن كيرزون يوافق على ذلك. وهذه المرة، لا يتم إبلاغ ڤايتسمان على الفور بالصياغة الجديدة للنص. فيبدأ في الاشتباه بالأمور ويطلب إلى بلفور، الذي لم تعد له وظائف في وزارة الخارجية، أن يتدخل(٤٨). فينصاع حامي الصهيونية للطلب، ولكن دون أن ينجح في التوصل إلى نتيجة عملية. وفي الأول من أكتوبر/ تشرين الأول، يوجه ڤايتسمان نداء غوث حقيقيًّا إلى اللورد بلفور(٤٩). ثم يجدِّد هذا النداء في ١١ أكتوبر/ تشرين الأول(٥٠). ويظل كيرزون حازماً، حتى عندما لجأ ڤايتسمان إلى سلاحه المفضّل، استنفار مساندة من جانب الصهيونيين الأميركيين(٥١). ويتمسك سكرتير الدولة بصيغة سان ريمو. وفي ٢٣ نوڤمبر/ تشرين الثاني، بعد أن قام الزعيم الصهيوني بدفع چيمس روتشايلد إلى التدخل لدى لويد چورچ، يتوجه ڤايتسمان بالنداء إلى اللورد ملنر ذي النفوذ وإلى أورمسبي ــ جور سعياً إلى التوصل إلى إعادة الديباجة التي تم حذفها(٥٢). وفي نهاية الأمر، نجد أن بلفور، عشية سفره مندوبًا بريطانيًا لدى عصبة الأمم، إنما يقترح صيغة حل وسط يقبلها كيرزون: "بالنظر إلى الاعتراف الذي تم تقديمه بالفعل [بموجب معاهدة سيڤر] بصلة الشعب اليهودي التاريخية بفلسطين، وفيما يتعلق بإعادة تكوين مقامه القومي في هذا البلد...". وبالمقابل، لم يعترف البريطانيون بالوضعية الاقتصادية المميَّزة وتظل وضعية فلسطين في المستقبل غامضة (إنشاء مؤسسات حكم حر)(٥٣). ويظل المكسب الصهيوني الرئيسي هو إنشاء وكالة يهودية مهمتها تنظيم المقَام القومي والتعاون في عمل ذلك مع السلطات البريطانية. وتعتمد الحكومة البريطانية النص الجديد، الذي يجري إرساله إلى چنيڤ في ٧ ديسمبر/ كانون الأول.

وفي هذا الجدل، شدَّد كيرزون دوماً على ضرورة عدم إقرار حقوق جديدة للصهيونيين وعلى التقيد تقيداً صارماً بما جاء في تصريح بلفور. وبمجرد تواجد المقام القومي في فلسطين ــ وليس تقرير أن مصير فلسطين هو أن تصبح المقام القومي ــ، يمكنه أن يعتبر أنه قد نجح في وقف الأطماع

الصهيونية. وطبيعي أن ڤايتسمان، في مداخلاته مع مختلف محاوريه البريطانيين، قد تكتم على هذا الجانب من الأمور وشدَّد على ضرورة اتخاذ إجراء مهيب من شأنه أن يكون حافزاً قويًا ليهود العالم بأسره إلى تقديم عونهم المالي لتكوين المقام القومي. فمنذ شهر يوليو/ تموز، أدرك الضعف المالي للحركة الصهيونية التي تتبنى مشاريع ضخمة لا تتناسب مع إمكاناتها الفعلية.

وهذه العلاقة الصعبة مع وزارة الخارجية التي يرأسها كيرزون، وهذا الانعدام للتناسب بين الإمكانات والغايات إنما يتواجدان من جديد في التسوية المؤقتة لمسألة الحدود الشمالية لفلسطين.

تحديد الحدود الشمالية

في توازٍ مع مسألة ميثاق الانتداب، يتابع ڤايتسمان بانتباه سير المفاوضات الفرنسية ـ البريطانية حول تحديد الحدود بين الانتدابين. ومنذ أواخر عام ١٩١٩، لم تعد بريطانيا العظمى تحوز أوراقا عربية تلعب بها و، خلال مؤتمري لندن وسان ريمو، اضطرت إلى الحجة الوحيدة ـ التي لا يكل ڤايتسمان ولا يمل من تكرارها ـ والتي تذهب إلى ضرورة تأمين موارد مائية كافية لإنماء المقام القومي اليهودي، وهي حجة تتناقض تماماً مع الحجة التي تذهب إلى أن هناك مكاناً كافياً في فلسطين للشعبين العربي واليهودي. كما أن الفشل السياسي الذي مُنيَ به الرئيس ويلسون إنما يُبطل بالكامل الزعم الكلاسيكي بوجود نفوذ مفترض لليهود بشكل عام ولبرانديز بشكل خاص على الحكومة الأميركية.

وروتنبرج، بعد أن كان محافظاً لبتروجراد في عهد حكومة كيرينسكي وبعد أن كان واحداً من آخر المدافعين عن القصر، إنما يرجع إلى الصهيونية ويهاجر إلى فلسطين. وهذا الرجل، وهو مهندس بحكم دراسته الجامعية، يرتأي مشروعاً واسعاً للإنماء المائي والمائي ـ الكهربائي لحوض نهر الأردن، ويشرع على الفور في البحث عن تمويل لهذا المشروع. وبشكل لا مفر منه، يتجه ڤايتسمان إلى إدمون دو روتشايلد، الذي يلتقيه في باريس في ١٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢٠[٥٤]. وقد اضطر الزعيم الصهيوني إلى سماع مؤاخذات البارون: لقد

ارتكب الصهيونيون خطأً جسيماً بحديثهم المتواصل عن أمة يهودية، وسيلفان ليفي هو الوحيد الذي تحدث حديثاً صائباً في مؤتمر الصلح... وهو مستعد لدعم مشروع روتنبرج، ولكن بعد دراسة تمهيدية من جانب خبراء، وبشرط الحد من اتساع المشروع. ويراعي فايتسمان جانب الرجل العجوز، الذي يُكِنُّ له من جهة أخرى تقديراً عظيماً بسبب ما قام به من أعمال.

وفي سان ريمو، وافق الفرنسيون على مبدأ الاتصال الترابي بين الانتدابين البريطانيين في فلسطين والعراق، والذي يعد شكلاً جديداً لمشروع سكة الحديد الأصلي بين بغداد والبحر المتوسط والذي ارتآه اتفاق سايكس – بيكو. وبالمقابل، ظلوا متمسكين تمسكاً حازماً باقتراحهم الخاص بتحديد الحدود اللبنانية بحسب امتداد الحوض الهيدروجرافي لنهر الليطاني. وفي يونيو/ حزيران ١٩٢٠، شدَّد ميللران من الموقف الفرنسي بتنصله من الخط الذي ارتآه بيرتلو وبزحزحته إلى مسافة أبعد جنوباً انطلاقاً من راس الناقورة. وعلى هذا الأساس بالتحديد حدَّد جورو حدود لبنان الأكبر، وكانت المواقف الفرنسية قد تم إبلاغ لندن بها مع إرسال المشروع الفرنسي لميثاق الانتداب على سوريا وفلسطين إلى لندن.

وسرعان ما يؤدي الأمر الواقع الذي فرضه جورو إلى إقناع البريطانيين بأنه من غير الممكن إعادة النظر في مسألة نهر الليطاني. فيقبلون تحديد الحدود انطلاقاً من راس الناقورة ويقترحون استعادة خط ماينرتزهاجن فيما يتعلق بالحدود السورية[٥٥]. وهم يركزون كل جهودهم على مصادر نهر الأردن وروافده، وأهمها رافد اليرموك.

وسرعان ما يدرك ڤانسيتارت، المفاوض البريطاني في باريس، أن الفرنسيين لا يقيمون وزناً بالمرة لضرورات تأمين مستقبل اقتصادي عفيٍّ للمقام القومي اليهودي وأن خط ماينرتزهاجن لا يملك أي فرصة في أن تتم الموافقة عليه. وهو يرى أن هذا الموقف "غير معقول" لأنه يتعارض مع الالتزامات التي اضطرت بريطانيا العظمى إلى قبولها بناءً على طلب من عصبة الأمم[٥٦]... وڤانسيتارت على اتصال مستمر مع الصهيونيين، الذين يبلغهم بتطورات المفاوضات.

وتتصل المباحثات باستخدام خطوط السكك الحديدية القائمة ترقباً لبناء خط سكة حديد بغداد ــ البحر المتوسط في المستقبل. ويحصل البريطانيون على إمكانية الاستخدام الحر للمنشآت الموجودة في المنطقة الفرنسية وإمكانية التمكن من تحديد الحدود بما يسمح بأن يمر خط السكة الحديدية المستقبلي بالكامل في داخل المنطقة البريطانية.

وتؤدي الحالة في شرق الأردن إلى تعقيد الوضع. فالفرنسيون يطالبون بأن يقوم البريطانيون بإعادة النظام هناك، بينما تمتنع لندن عن أي نفقات عسكرية إضافية. والنتيجة أنه يصبح من المستحيل تحديد الفاصل بين فلسطين وبلاد الرافدين: وفي حين أن تكلفة احتلال هذه المنطقة، بسبب تمردها المعمَّم، من شأنها أن تكون شديدة الوطأة على الماليات الضعيفة، فإن حملات الصحافة تتعاقب مطالبة بالجلاء عنها بكل بساطة. ومن غير المناسب من الناحية السياسية توسيع حدودها علناً. ومن ثم يجد كيرزون أن من الأفضل عدم السعي إلى التوصل بسرعة إلى اتفاق[٥٧]. وهكذا تحث وزارة الخارجية البريطانية على التصديق المتزامن على ميثاقي الانتدابين الفرنسي والإنجليزي من جانب عصبة الأمم دون تقديم تحديدات ترابية لهذين الانتدابين[٥٨]. لكن الكيه دورسيه تعارض نهجاً كهذا. ويصبح بوسع ڤانسيتّارت أن يوضح لرئيسه أن جمود المفاوضات سيكون كارثيًا[٥٩]: فغياب حدود واضحة من شأنه أن يؤدي إلى تكاثر الصدامات بين الفرنسيين والبريطانيين في الساحة، وهناك خطر عودة إلى خط سايكس ــ بيكو. والفرنسيون لا يستجيبون بالمرة لنداءات الصهيونية، وقد وافقوا على مقام قومي ولكن ليس على دولة يهودية، وهم لا يريدون سماع أي حديث عن هذا الموضوع: "**بوسعكم أن تخوضوا في الوحل إذا ما كان ذلك يحلو لكم، لكنكم لن تخوضوا في الوحل على حسابنا**"[٦٠]. وهم يعتبرون مشروع روتنبرج "شططاً"[٦١]، ومن غير الوارد السماح للصهيونيين بالعمل "عندنا"[٦٢]. وربما أمكن التوصل إلى حل عن طريق تنازلات كولونيالية بريطانية في غامبيا في مقابل مياه نهري الأردن والليطاني علاوة على فتح وكالات تجارية فرنسية في الهند. وفي ١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني[٦٣]، يلاحظ ڤانسيتّارت أن من المستحيل سماع بريطانيين يقولون "*at home*" [عندنا] إذا ما

تحدثوا عن بلاد الرافدين في حين أن الفرنسيين يقولون "*chez nous*" [عندنا] إذا ما تحدثوا عن سوريا. وهم يرون أن الدولة اليهودية القادمة ستكون مستعمرة بولشفية على حدودهم. وتنبع صعوبة المفاوضات من أنهم يرون أنهم قد قدّموا الكثير من التنازلات من طرف واحد وأنهم لا يجدون أي فائدة في المقترحات البريطانية. والحال أن هذه المقترحات قد عرضها ڤانسيتّارت بإيجاز في تصريح شفاهي في ١٤ نوفمبر/ تشرين الثاني يلخص المواقف البريطانية(٦٤):

> إن الحكومة البريطانية ليست مستعدة لأن تعقد مع فرنسا اتفاقاً لا يتضمن ترتيبات ملائمة لاستخدام فلسطين في المستقبل لمياه نهري اليرموك والليطاني، وهو استخدام لا مراء في أنه يتميز بأهمية حيوية للتنمية الاقتصادية للبلد ولإيجاد مقام قومي للشعب اليهودي. وهي ترى أن وجهة نظر الحكومة الفرنسية في هذا الموضوع ليست معقولة بالمرة.

وترد الكيه دورسيه بأنه من غير الوارد تقديم أبسط تنازل. وهي أقل استعداداً للتراجع لاسيما أنها تشتبه بأن لندن تريد أن تجعل من فيصل الملك القادم على عرش العراق. وقد انتهزت وزارة الخارجية البريطانية فرصة اللقاء الوداعي مع پول كامبون ـ الذي يترك العمل الدبلوماسي بعد أن بلغ الثمانية والسبعين من العمر ـ لكي تبلغه بقرب مجيء ملك سوريا المخلوع، في زيارة قيل من الناحية الرسمية إن هدفها هو تقديم هدايا من والده إلى ملك إنجلترا(٦٥). وكان الفرنسيون يتمنون أن يبقى في منفاه الإيطالي. وفي مستهل ديسمبر/ كانون الأول، يصبح من المعروف أن عبد الله، شقيق فيصل، قد وصل للتوّ إلى شرق الأردن وأنه يعد، بشكل استعراضي، لحركة مسلحة ضد الفرنسيين. وعلى وجه السرعة البالغة، يوضح هؤلاء الأخيرون أنهم، في هذه الحالة، مستعدون للدخول عسكريًا إلى شرق الأردن عبر اجتياز خط سايكس ـ پيكو.

وفي المؤتمر الفرنسي ـ البريطاني في باريس، في ٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠، يسلّم لويد چورچ بأن المرجع لا يمكن أن يكون سوى ما ورد بالتوراة ـ فلسطين من دان إلى بئر سبع ـ وبأنه يتخلى عن دعم المطالب الصهيونية بتوسع ترابي خارج فلسطين التاريخية. وفي المقابل، يقبل بيرتلو تزويد فلسطين بالفائض من مياه نهر الأردن الأعلى ومن مياه نهر اليرموك،

ولكن ليس من نهر الليطاني. وسوف تدرس لجنة خبراء هذه المسألة دراسة أدقّ[٦٦]. وعلى هذا الأساس، يجري عقد اتفاق فرنسي ـ بريطاني في ٢٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠. ويحدد الاتفاق الخطوط العريضة للحدود الدولية الحالية على أساس مقترحات ميللران: ويجري إنشاء لجنة مشتركة لتحديد الحدود سعياً إلى دراسة الوضع في الساحة وإلى التحديد النهائي الدقيق لمسائل ترسيم الحدود واستخدام المياه.

ويدل الاتفاق بالدرجة الأولى على انتصار الحزم الفرنسي الذي أبداه منذ مستهل العام ميللران وبيرتلو، كما يدل على استحالة تعريف فلسطين إلاً بالرجوع إلى النص التوراتي. فمن الواضح أنها، بما في ذلك في تعريفها الجغرافي، الأرض المقدسة. وفشل الصهيونية في الحصول على ما هو أكثر إنما يرجع إلى عزلة البريطانيين والصهيونيين المزدوجة في نهاية العام هذه (فلم تعد هناك أوراق أميركية وعربية كما في عهد كليمنصو).

والحال أن هذا الوضع السياسي الكارثي المجتمع مع عبء تكاليف الاحتلال العسكري للشرق الأدنى ـ وهو عبء يجري النظر إليه على أنه لا يحتمل ـ إنما يستتبع ضرورة مراجعة عامة للسياسة البريطانية، لاسيما أن انتصارات مصطفى كمال إنما تؤدي إلى إضعاف المواقع الإنجليزية. وفي ٣١ ديسمبر/ كانون الأول، يقرر مجلس الوزراء البريطاني إنشاء إدارة الشرق الأوسط التي تتمثل مهمتها في إدارة مجمل منطقة كانت تتبع إلى ذلك الحين أربع وزارات: وزارة الحربية ووزارة الخارجية ووزارة المستعمرات ووزارة شئون الهند. أما الوزارة التي ستتولى الإشراف على اللجنة فهي وزارة المستعمرات. والحال أن وزيرها، اللورد ملنر، إنما يجد المهمة مرهقة ويقرر ترك الحكومة. فيطلب لويد چورچ إلى ونستون تشرشل، المكلف إلى ذلك الحين بوزارة الحربية، أن يخلف ميلنر. وهو يقبل، بعد بعض الترددات. ويشرع بالعمل منذ ٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٢١[٦٧].

ڤايتسمان وبرانديز[٦٨]

معركة ڤايتسمان الثالثة هي معركته مع برانديز على قيادة الحركة

الصهيونية. فمنذ انتهاء الحرب [العالمية الأولى]، تفرض مهمة إعادة تنظيم هذه الحركة نفسها، لأنه، منذ عام ١٩١٤، لم تعد هناك قيادة مركزية حقيقية. ويتوقف اليهود الروس تدريجيًا عن أن تكون لهم أهمية، وذلك بالنظر إلى التحول السوفييتي لبلدهم، بينما تظهر بولنده جديدة ويتمتع الصهيونيون الأميركيون بثقل أكثر أهمية بما لا يقارن مما في عام ١٩١٤. ومنذ عام ١٩١٧، كان ڤايتسمان قد نجح في استمالة سوكولوف الذي كان، بشكل ما، قد ربط مصيره بالعلاقات مع فرنسا. والحال أن اعتماد ڤايتسمان على السياسة البريطانية قد وضع الصهيوني المخضرم في المرتبة الثانية.

وغداة سان ريمو، تحين لحظة الإنجازات الملموسة. فإلى ذلك الحين، كان إدمون دو روتشايلد، كالعادة، هو الذي يتكفل بالجانب الأعظم من الاستثمارات. وڤايتسمان على وعي تام بضرورة اتخاذ الموقف الأكثر توحيداً [للصهيونيين] قدر الإمكان، بما يستوعب الاشتراكيين المتمركسين وصهيونيي مزراحي المتدينين، كما أنه على وعي تام بضرورة السعي إلى الحصول على تمويلات من كبار فاعلي الخير اليهود. والحال أن محاولة سيلڤان ليڤي وإدمون دو روتشايلد في عام ١٩١٩ تهميش المنظمة الصهيونية كانت بمثابة طلقة إنذار. ويتعين تأمين دور حقيقي للحركة على مستوى السيطرة والتنسيق، وهو دور غير ممكن إلاّ بالاستناد إلى تعبئة شعبية.

ولا يمكن لهذه التعبئة أن تتحقق إلاً بمراعاة التيارات الإيديولوچية الكبرى للدياسپورا المنبثقة من أوروبا الشرقية، والتي يعد ڤايتسمان أحد ممثليها. وفي الولايات المتحدة، بالمقابل، نجد أن برانديز، الذي لا يقود الصهيونية الأميركية إلاّ في وقت الفراغ، إنما يرتاب في هذه التيارات السياسية. فهو لا يريد السماع عن اتجاهات قومية مشينة في الوقت الذي تدخل فيه الولايات المتحدة، بعد هزيمة الويلسونية، في مرحلة رهاب للأجانب مصبوغ بشكل سافر أحياناً بمعاداة السامية، وذلك بشكل خاص في معاداة البولشڤية. ولايجب أن يكون بالإمكان اتهام اليهود بأنهم أجانب في الولايات المتحدة أو بأن ولاءهم مزدوج. وهو يقود الصهيونية الأميركية من بعيد معتمداً على قيادتها من جانب أناس يدينون له بكل شيء لكنهم لا يتمتعون بالهيبة التي يتمتع بها. وهو لديه جهازه

الذي يساعده، ويرى أن الصهيونيين القدامى لم يعودوا يشكلون الجهاز المناسب لمواجهة التحديات الجديدة. والصهيونية الأميركية ملكوته الخاص وهو يرفض الالتزام بقواعد الصهيونية الأوروبية. على العكس، إنه يريد فرض الهيمنة الأميركية على هذه الأخيرة. ومن ثم فإن المواجهة مع ڤايتسمان، والمستندة إلى خلافات في المنظورات والمناهج، كما إلى صراع على السلطة، إنما تعد حتمية.

وتنشب المواجهة في يوليو/ تموز ١٩٢٠ خلال مؤتمر لندن، والذي كانت مهمته تتمثل في إعادة توحيد الحركة بعد سنوات من المعاناة[٦٩]. وبرانديز وصحبه، الذين يريدون تناول المشكلة تناولاً براجماتيًّا (*businesslike*)، لا يخفون احتقارهم لميل الأوروبيين إلى المناقشات الإيديولوچية الكبرى. وينجح ڤايتسمان، بفضل قدراته على المناورة، في عزل منافسه سياسيًّا، وهو ما لن يغفره له أبداً. وهو يتهم برانديز وجماعته بأنهم ليسوا قوميين يهود حقيقيين بالمعنى الذي يجب فيه للصهيونية أن تكون رؤية كاملة للعالم وأفقاً محدَّداً لمستقبل اليهودية. فخصومه يريدون استيطان فلسطين، لكنهم لا يملكون أي رؤية يهودية لمستقبلها. وهو ما يعني أنهم قد فقدوا إلى حد بعيد يهوديتهم بحيث لا يمكنهم امتلاك مثل هذه الرؤية[٧٠].

ويجري تشكيل قيادة جديدة، يرأسها ڤايتسمان بينما يعد سوكولوڤ الرجل الثاني فيها. والقرار الرئيسي للمؤتمر هو إنشاء صندوق استثمار في فلسطين، متمايز عن ميزانية تسيير عمل المنظمة الصهيونية، وهذا الصندوق هو الكيرين هاييسود الذي يجري، بشكل جد متفائل، رصد مبلغ ٢٥ مليون جنيهاً له، على أن يتم تدبير جمع هذا المبلغ في غضون عام.

وبما أن برانديز قد فشل في محاولته ممارسة نفوذ مباشر على المنظمة الصهيونية، فإنه يشدِّد من موقفه ويسعى إلى تعزيز استقلالية الاتحادات القومية على حساب القيادة المركزية، التي لن يعود لها غير مهمة تنسيق لا وزن لها. وبما أن اليهود الأميركيين قد أصبحوا الممولين الرئيسيين للصندوق، فسوف يكون لهم بالفعل نفوذ رئيسي داخل الكيرين هاييسود ومن ثم على العمل الملموس في فلسطين. ويتخذ الجدل ملمحاً إيديولوچيًّا. فبرانديز، بوصفه أميركيًّا حقيقيًّا، إنما يسعى إلى إيلاء الأولوية للمشروع الخاص، في حين أن ڤايتسمان،

الذي يدرك المشكلات المحدَّدة لأي مشروع استيطاني، إنما يريد توجيه الأموال إلى الاستثمارات غير المربحة بشكل مباشر كالإدارة والتعليم والمرافق الصحية. وهو يعرف أن توطين يهود لا يملكون مالاً إنما يفرض إنفاقات ملحوظة دون أن تكون هناك إمكانية، على مدار وقت طويل، لاستخلاص عائد مالي مهم من وراء هذه الإنفاقات. وتعارض البرنامجين يعكس الاختلاف بين تنظيم استيطان أميركا الشمالية ومحاولات الاستيطان الأوروبي في العالم القديم. وليس من شأن نزعة ڤايتسمان التوجيهية الاستعمارية إلاّ أن تقوده إلى التقارب مع التجارب الاشتراكية التي تمناها روپّين وشجعها قبل الحرب [العالمية الأولى][٧١].

ويفرض برانديز أطروحاته على المنظمة الصهيونية الأميركية خلال مؤتمر بافالو، في ٢٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٠. والتبرعات المخصصة للكيرين هاييسود لن تكون تحت تصرف مسئوليه، وإنما سيجري تقديمها كل مرة من زاوية أهداف محدَّدة ومعيَّنة.

فيقوم ڤايتسمان بحملة لدى الصهيونيين الأميركيين لمواجهة تصرفات قيادتهم. وهو يعرف أن عناصر عديدة مستاءة من مسلك برانديز. فينخرط في حملة تستند من جديد إلى المباينة بين الجماهير البروليتارية القادمة من أوروبا الشرقية وأوليجاركية اليهود المستوعَبين. وفي ٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٢١، في رسالة إلى القيادة الصهيونية الأميركية[٧٢]، يشجب القرارات التي اتخذها برانديز ويتهمه بالرغبة في التحضير لانقسام في داخل الحركة الصهيونية. وهو يزور فلسطين في يناير/ كانون الثاني ١٩٢١ لكي يكسب تأييد **الييشوف** ثم يقوم، في فبراير/ شباط، بضم چابوتينسكي إلى قيادة الحركة. كما يحصل على التأييد من جانب شخصيات جد شهيرة كألبرت آينشتاين.

ويحاول برانديز ورجاله التصدي للحملة التي تستهدفهم. ويسعى معتدلون، كفرانكفورتر، إلى صيغ توفيقية. لكن ڤايتسمان، واثقاً بما يتمتع به من تأييد، إنما يتمكن من الرحيل إلى الولايات المتحدة في أبريل/ نيسان. ومستخدماً صلاحياته كرئيس، يتخذ مظهر قائد الكيرين هاييسود الأميركي دون أن يأخذ في حسبانه قرارات مؤتمر بافالو[٧٣]. كما يرفض الاعتراف باستقلالية عمل المنظمة

الأميركية ويخاطب شُعَبَ المناضلين المحلية بشكل مباشر[٧٤]. وهو يلعب على التباين الاجتماعي بين القيادة المنبثقة من الهجرة اليهودية الأوروبية الغربية في العقود الأولى من القرن التاسع عشر والمناضلين المنحدرين من أوروبا الشرقية والذين جاءوا [إلى الولايات المتحدة] بعد عام ١٨٨٠. وفي ٥ و٦ يونيو/ حزيران ١٩٢١، في المؤتمر الصهيوني في كليفلاند، يزاح برانديز إلى الأقلية بأغلبية ١٥٣ صوتاً في مقابل ٧١ صوتاً. فينسحب هو وأنصاره ويتركون الحركة. وسوف يواصلون العمل من أجل فلسطين اليهودية خارج الحركة الصهيونية الرسمية على مدار عدة عقود.

وقد انتصر ڤايتسمان على خصمه بفضل اعتماده على الجماهير. لكن الانتصار باهظ الثمن. فعلاوة على رحيل أنصار برانديز، نجد أن كثيرين من الأعضاء الذين فقدوا حماستهم، إنما يهجرون الحركة. وعلى مدار أكثر من خمسة عشر عاماً، تكف الصهيونية الأميركية عن أن تكون قوة فعلية. وفي لحظة يعد فيها الوضع المالي للصهيونية أكثر من هش، فإن تعبئة الموارد الأميركية ستكون بعيدة عن بلوغ المبالغ المتوقعة. فالجماهير لا يمكنها تقديم الكثير و، خلال فترة ما بين الحربين العالميتين، سوف يتعين على ڤايتسمان أن يتفاوض دوماً بشكل صعب مع فاعلي الخير اليهود الأقوياء غير الصهيونيين.

المؤتمر الفلسطيني العربي الثالث

في مستهل ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠، تتبدد حالة الرضى التي تمتع بها السير هربرت صموئيل. وعلى الجانب اليهودي، لم يكن عليه أن ينزعج إلا من نشاط دعائي بولشڤي يقلل على أي حال من أهميته[٧٥]. واجتماع المجلس الاستشاري، في ٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠[٧٦]، إنما يتصل بتحرير الأوامر المتعلقة بالتخطيط الحضري والصحة العامة والأمن والتعليم وموضوعات أخرى بما يوضح التقدم الذي أحرزه العمل التشريعي. والحال أنه في المسائل المفتوحة يجري تناول المشكلات السياسية. فالعرب يحتجون على وجود الحرفين الأولين لإيريتز إسرائيل على طوابع البريد: فهذا البلد كان يسمى أيضاً منذ ألفي عام بأرض كنعان وبالأرض المقدسة... ويرد يللين بأن إيريتز

إسرائيل، في العبرية، هي المصطلح المستخدم كترجمة لفلسطين وبأن الرقابة العثمانية كانت قد وافقت على هذا الاستخدام. ويعتقد هربرت صمويل أن وضع الحرفين الأولين محل الجدل إلى جانب فلسطين إنما يشكل حلاً وسطاً معقولاً.

وقد رفض المندوب السامي الاعتراف بالجمعيات الإسلامية ــ المسيحية وهو لا يخاطب غير محاورين عرب هو نفسه الذي قام باختيارهم. ويقرر الناشطون الفلسطينيون عقد مؤتمر في حيفا من ١٣ إلى ٢٠ ديسمبر/ كانون الأول. ويمثل المندوبون الـ٤٦ الجمعيات الإسلامية ــ المسيحية والأندية السياسية. وقد تم اختيار المندوبين على أساس المظابط الصادرة عن الجماعات المشار إليها[٧٧]. والواقع الأساسي هو أن جماعة الأعيان العثمانيين السابقين وجماعة الناشطين الشبان، الذين يمثلهم، بين آخرين، الحاج أمين، الذي حصل على عفو من المندوب السامي، قد قامتا بتوحيد عملهما. وفي جدول أعمال الجلسة الأولى، طُرحت الموضوعات الأساسية الثلاثة للمناقشة: تكوين حكومة وطنية، رفض الوطن القومي اليهودي، تنظيم لجان وطنية. ويرأس موسى كاظم النقاش بحكم كونه الأكبر سناً. ويتم التحقق من وثائق اختيار المندوبين ويجري اعتماد تنظيم داخلي.

وفي الأيام التالية، يجري استعراض مجمل حجاج المعاداة العربية للصهيونية: وعود الحلفاء التي تعترف بحق العرب في تقرير مصيرهم بأنفسهم، أولوية مراسلات حسين ــ ماكماهون على التعهدات الأخرى، انعدام مشروعية تصريح بلفور (يجب ملاحظة أنه إلى جانب استخدام مصطلح "تصريح" في المناقشات يجري استخدام مصطلح "وعد" وأن هذا المصطلح الأخير سوف تكون له الغلبة فيما بعد لعدة عقود)، ضعف وزن السكان اليهود في فلسطين (يجري ذكر نسبة ٧% من إجمالي السكان). ويدور نقاش طويل لمعرفة ما إذا كان يجب قبول الانتداب في حالة قيام حكومة وطنية تتمتع بسلطات تشريعية وتنبذ الدعاوى الصهيونية. ويجري تناول مسألة الأراضي العامة، مع رفض أي تنازل عنها لليهود. كما يجري الحديث عن ضرورة القيام بنشاط دعائي في أوروبا.

وفي جميع هذه المسائل، يفرض الإطار الفلسطيني نفسه: فلا يدور حديث

عن برنامج سوريا الجنوبية. والإشارة إلى العرب الآخرين لا ترد إلاّ في مطالبة بالتمتع بحقوق قومية مماثلة للحقوق التي منحها الإنجليز لهم. وليس في ما قيل من كلام ما هو معاد للغرب: على العكس، فهناك استخدام متواصل للأفكار الليبرالية. كما أن مصطلح وخطابات معاداة الإمبريالية لا وجود لها.

والحال أن مؤتمر حيفا لحظة رئيسية في تاريخ مسألة فلسطين: فهو اللحظة التاريخية التي تتغلب فيها الصيغة الفلسطينية للنزعة القومية على الصيغة العربية الجامعة. ولا يسعنا إلاّ أن نضعها على مستوى واحد مع تحرير الميثاق الأول لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام ١٩٦٤، والذي سوف يستعيد التوجه نفسه.

والتقرير السياسي الذي تمت الموافقة عليه في ١٨ ديسمبر/ كانون الأول إنما يقدم تركيباً لما تمخضت عنه المناقشات[٧٨]:

إن هذا المؤتمر الفلسطيني العربي الثالث الممثل قانوناً لجميع طبقات الشعب الفلسطيني العربي وعناصره المنعقد في مدينة حيفا منذ اليوم الثالث عشر من شهر كانون أول (ديسمبر) سنة ١٩٢٠ استناداً على العهد الذي عقدته دولة بريطانيا العظمى مع حليفها جلالة ملك الحجاز سنة ١٩١٥ [وعلى تصريحات رئيس الوزراء البريطاني في جلاسجو في ٢٣ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٧]* وعلى تصريحات سائر رؤساء الحكومات المتحالفة وساستها المؤيدة لضرورة منح الشعوب المحرَّرة المنفصلة عن السلطنة العثمانية، حق تعيين مصيرها واختيار شكل الحكومة التي ترضاها، هذا المؤتمر يطلب باسم الشرف الدولي وشرف الإنسانية، وباسم الدينين الإسلامي والنصراني إلى دولة بريطانيا العظمى، بذل المبادرة إلى تشكيل حكومة وطنية مسئولة أمام مجلس نيابي، ينتخب أعضاءه الشعب المتكلم باللغة العربية القاطن في فلسطين حتى أول الحرب إحقاقاً لمبادئها السامية التي ترغب في تطبيقها في العراق وشرقي الأردن المتكلمتين بالعربية وتأييداً وتوثيقاً للمودة المتأصلة بينها وبين الأمة العربية على الإطلاق. وهذا المؤتمر على يقين تام من أن طلبه هذا مصادف خير قبول وأسرع تلبية وأن التردد في إجابته استدامة لما لا ضرورة له ويمكن تجنبه من استياء الشعب العربي وتحميل الشعب البريطاني نفقات باهظة في سبيل الراحة الداخلية والخارجية.

---

* ما بين حاصرتين [] ترجمة عن الفرنسية. — م.

فإن هذا المؤتمر، متكلماً باسم الشعب غير راض عن شكل الإدارة الحالية لأنها مخالفة لرغائبه وحقوقه لأسباب أهمها:

١ــ اتخاذها صلاحية سن القوانين بنفسها أي بدون مجلس تشريعي نيابي منتخب وقبل صدور قرار جمعية الأمم النهائي.

٢ــ اعترافها بالجمعية الصهيونية كهيئة رسمية.

٣ــ شروعها بتنفيذ المآرب الصهيونية بإدخالها المهاجرين الصهيونيين واستعمالها العبرانية لغة رسمية وسكوتها على وجود راية صهيونية.

٤ــ تأليفها مجلساً استشارياً عينته تعييناً لتوهم أن في فلسطين مجلساً تشريعياً يمثل الأهالي.

٥ــ وجود زعماء صهيونيين في أعلى مراكزها مع أن فلسطين هذه هي البلاد المقدسة للعالمين النصراني والإسلامي ولا يجوز وصول أمرها إلى أيد غير إسلامية ونصرانية.

وإن هذا المؤتمر يرفع لبريطانيا العظمى شكره بنسبة ثقته في أنها تحل طلبه هذا محل النظر والتلبية والسلام.

ويجري إرسال هذه المذكرة إلى المندوب السامي كما يتم نشرها في الصحف[٧٩]. ويوضح المندوب السامي أنه لا يعتبر المندوبين العرب ممثلين وأن الحكومة البريطانية لا تنوي تعديل سياستها في فلسطين:

إن هذه السياسة سوف تكفل، بشكل مطلق، جميع حقوق السكان الفلسطينيين بعامتهم، فيما يتعلق بالأماكن المقدسة والملكية والثقافة وجميع المسائل الأخرى، مع تصرفها بحسب العدل[٨٠].

وقد اختار مؤتمر حيفا لجنة تنفيذية عربية وعُهِدَ بالرئاسة إلى موسى كاظم الحسيني. والحال أن الباشا العجوز بسبيله إلى أخذ ثأره السياسي من آل النشاشيبي إذ يجعل من نفسه المتحدث بلسان النزعة القومية الفلسطينية. وخلال شهري يناير/ كانون الثاني وفبراير/ شباط ١٩٢١، يخوض حملة دعائية على أساس قرارات حيفا. ويجري عقد اجتماع في ٨ يناير/ كانون الثاني، في نابلس،

بالرغم من الأحوال المناخية السيئة. أمّا التظاهرات الأخرى فيتم حظرها. وفي ١٦ يناير/ كانون الثاني[٨١]، يلتقي صامويل اللجنة التنفيذية العربية، ولكن بصفة شخصية، فهو لا يعترف بصفتها التمثيلية، ويوضح أنه من غير الوارد التراجع عن السياسة التي حدَّدها تصريح بلفور. وهو مستعد لقبول قيام مجلس تمثيلي عربي، ولكن بالشروط نفسها التي قام على أساسها المجلس التمثيلي اليهودي، أي دون أن يكون بوسع المجلس مساءلة شروط الانتداب. والمندوب السامي مستعد لتقديم عرض مكتوب في هذا الاتجاه، لكنه، أيًّا كان الأمر، سوف يعمل على فرض الاحترام الصارم للنظام العام.

وهو لا يكن كبير تقدير لهؤلاء المحرضين السياسيين المنتمين إلى طبقة الأفندية مُلاّك الأراضي الذين لا يتمتعون بدعم شعبي حقيقي. وبحسب الوهم المشترك لدى الاستعماريين البريطانيين، فإنه يتخيل أن الجمهرة العظمى من السكان غير مهتمة بما يتجاوز المشكلات المباشرة (في هذا الفصل، غزارة الأمطار) ولا يمكنها إلاّ أن تكون ممتنّةً للمساعي التي يبذلها من أجل راحتها. وهو يجهل أنه يجري في فلسطين تداول مستنسخات من صورة نشرتها صحيفة صهيونية تصدر في نيويورك تصوِّر مسجد عمر وقد ارتفعت عليه راية صهيونية[٨٢]. والصورة لمنشور من منشورات الدعاية الصهيونية جرى استخدامه في جمع التبرعات. وما يحدث في الأرض المقدسة هو اجتماع حقيقي للبارود القابل للاشتعال بعد المحاولات الصهيونية الرامية إلى الاستيلاء على حائط المبكى.

وتحتج الصحافة اليهودية على انعقاد المؤتمر العربي والحملة السياسية التي أعقبته وصبر البريطانيين حيال هؤلاء المحرضين الذين لا صفة تمثيلية لهم والذين يجازفون بإعادة خلق المناخ الوبيل الذي شهدته فترة الأوليتا[٨٣]. أمّا الصحافة العربية فهي تتخذ نبرة حادة وتعتبر البريطانيين "مستبدين"(٨٤) يقيدون السكان العرب بأغلال العبودية. وتقرر السلطات تعطيل المطبوعات الأكثر عنفاً، بما يسبب عظيم الارتياح للصحافة الصهيونية[٨٥].

ويبدو أن الأحداث تدعم موقف هربرت صمويل. فاجتماع المجلس الاستشاري في ٤ يناير/ كانون الثاني إنما يواصل التناول الدقيق والجاد

لتحضير أوامر المندوب السامي الكبرى(٨٦). وينطبق الشيء نفسه على دورة شهر فبراير/ شباط(٨٧). وبشكل دوري، يعاد طرح مسألة التشريف القنصلي. وبشكل متأخر، يدعم الڤاتيكان الموقف الفرنسي بالرغم من الاحتجاجات البريطانية والإيطالية. وقد سجّل الڤاتيكان انتهاء الحماية الدينية من جانب فرنسا، لكنه يرى أنه لابد لها من الاحتفاظ بالتشريف ما دامت معاهدة الصلح مع تركيا لم يتم التصديق عليها وما دام ميثاق الانتداب لم يتم التصويت عليه من جانب عصبة الأمم(٨٨). وبالمقابل، تقبل فرنسا وإيطاليا سحب حراس الشرف التابعين لهما من كنيسة القبر المقدس.

وفي فبراير/ شباط، يظل الموقف السياسي هادئاً. ومن المؤكد أن المندوب السامي لا مفر له من الاعتراف(٨٩) بأن نابلس ومنطقتها تظلان منطقة محظورة على اليهود وأن شجارات تنشب بين الاشتراكيين الصهيونيين ومناضلين بلاشفة يهود. وفي حيفا، تظل بعض الأوساط التجارية على حنينها إلى الاتحاد مع سوريا. وهو يرى أنه، مع نتائج الإدارة الجيدة، سوف تختفي مثل هذه التحسرات من تلقاء نفسها. وتتبع الانزعاجات من الوضع في شرق الأردن أكثر مما تنبع من أي شيء آخر. وفي بيروت، يرى روبير دو كيه(٩٠) يد ت. إ. لورانس خلف تحركات عبد الله.

والواقع أن الأشراف بسبيلهم إلى الظهور من جديد على المسرح السياسي في اللحظة التي يقوم فيها البريطانيون بإعادة تعريف عملهم داخل إدارة الشرق الأوسط.

ويقدِّمُ فيصل نفسه في لندن بوصفه مكلَّفاً من والده بمعالجة المسائل ذات الاهتمام المشترك. فقد رفض الملك حسين توقيع معاهدة سيڤر مع تركيا بسبب تكريس الانتدابات الذي تنص عليها. وشعر المسئولون البريطانيون بضرورة موافقة عربية على سياستهم في الشرق الأدنى سعياً إلى تأمين استقرار للوضع. وقد اتخذ حسين موقفاً معادياً للصهيونية وللانتداب على فلسطين. وعلى سبيل المثال، ففي يناير/ كانون الثاني ١٩٢١، قامت صحيفته، **القبلة**، والتي يعد المحررَ الرئيسي لها، بالسخرية من الوضع في فلسطين والذي "يفتح الشهية

للمزيد"[٩١]*: فالمهاجرون اليهود يتظاهرون علناً تأييداً للينين ولتروتسكي، إلى درجة أن السلطات العسكرية الإنجليزية غالباً ما تضطر إلى التدخل لاستعادة النظام. والسياسة الأنجلو ـ يهودية، إذ تبخس أهل البلد حقوقهم، قد حولت فلسطين إلى بؤرة للفوضى وللفتنة. وبريطانيا العظمى تحابي اليهود على حساب العرب المسيحيين كما المسلمين الذين ما زالوا على ولائهم لها بالرغم من أن الأحوال الراهنة ليست في صالحهم.

أمّا فيصل، فهو على إدراك كامل بأن مصيره إنما يتوقف على حسن نوايا البريطانيين. وفي لندن، يعدِّدُ شكايات الهاشميين مع إعرابه عن صداقته وعن ولائه للحكومة البريطانية[٩٢]. وهو يبين بجلاء أنه على استعداد للتخلي عن دعاوى أبيه في فلسطين ولعدم التحدث عن سوريا، مركِّزاً على شرق الأردن وبلاد الرافدين وعلى مشكلات شبه الجزيرة العربية[٩٣].

والحال أن سكرتيره، الفلسطيني عوني عبد الهادي، إنما يلتقي المندوب السامي في ١٢ فبراير/ شباط ١٩٢١ في القدس[٩٤]: لقد جاء ساعياً إلى الحصول على الدعم البريطاني لتحركات عبد الله المعادية في شرق الأردن للفرنسيين. فيعبر له صمويل فوراً عن عدم موافقته على ذلك. فيتحدث عوني عن السخط العربي ويطلب استخدام بريطانيا العظمى نفوذها على فرنسا لكي تغير هذه الأخيرة سياستها في سوريا، لصالح الهاشميين كما هو مفهوم ضمنيًّا. وهو يجري مقارنةً مداهنةً للمندوب السامي بين السياسة الفرنسية في سوريا والسياسة البريطانية في فلسطين: إن العرب لا يحبون الشكل الحالي للحكم، لكنهم يعتقدون أن البلد يدار إدارة جيدة. وهو يعبر عن الرأي الذي يذهب إلى أن المصاعب السياسية ترجع إلى سوء تفاهم مرتبط بترجمة المقام القومي إلى "وطن قومي" في العربية، الأمر الذي أدخل في روع السكان أنهم سوف يجري طردهم من ديارهم. وهو يدعو إلى التعاون العربي ـ اليهودي. وقد قام مؤخراً، من جهة أخرى، بمناقشة هذا التعاون مع ڤايتسمان في مصر.

والحاصل أن موضوع الاهتمام الرئيسي الذي يشغل هربرت صمويل إنما يظل مستقبل شرق الأردن الذي لم تتحدد بعدُ وضعيته

---

* ترجمة عن الفرنسية. ـ م.

وحيث يقوم عبد الله بأعمال تحريضية خطيرة.

بداية العاليًا الثالثة

بحكم مصادفة من مصادفات التاريخ، نجد أنه في عين يوم افتتاح المؤتمر العربي وفي المدينة نفسها تنتهي أعمال مؤتمر العمال اليهود الذي يؤسِّسُ الاتحاد العام للعمال اليهود، الهستادروت، والذي تتمثّل مهمته في تمثيل العمال اليهود وحدهم في جميع مجالات الحياة الاجتماعية. والجماعة الممثِّلة تصل إلى نحو ٤٤٣٣ شخصاً. وقد كانت المناقشات حادة بسبب وجود تيارات ومنظمات سياسية متنافسة. والحال أن بداية موجة جديدة للهجرة، **العاليّا** الثالثة، هي التي تحث هذه التيارات والمنظمات السياسية على هذا المسعى التوحيدي.

وقد جاء المكوِّنُ العمالي من المهاجرين من روسيا وكانوا جد متأثرين بالثورة [البولشڤية] الجارية. وقد دشنوا منظمة جديدة، "كتيبة العمل"، وهي منظمة ذات مصدر إلهام ثوري: فالفكرة تتمثل في تكوين كومينة عمال تمتد إلى مجمل البلد وتغطي كل النشاطات الاقتصادية. والحال أن مخضرمي **العاليّا** الثانية كبن جوريون معادون لذلك. فعلاوة على الصراع الواضح على السلطة، يتصل الأمر بما إذا كانت الأولوية يجب أن تعطى للبناء القومي مما للنضال الاجتماعي. وتكوين الاتحاد النقابي هدفه المباشر هو السيطرة على **العاليّا** الثالثة باختزال سيطرة الماركسيين الثوريين عليها وبناء أداة للاستيلاء على البلد عن طريق العمل. وبسرعة بالغة، يصبح التنظيم الوسيط الرئيسي بين المهاجرين العمال وأرباب العمل ـــ خاصة إدارة الانتداب، التي تنتهج سياسة أشغال عمومية لاحتواء البطالة. وهكذا يكتسب الهستادروت موقفاً مهيمناً في عالم العمل. وسرعان ما سيتولى بن جوريون قيادته وسوف يجعل منه أداة سلطة قوية في خدمة المشروع الصهيوني، فالاشتراكية لم تكن بالنسبة له غير وسيلة. وبالرغم من أن غالبية الأعضاء تنتمي إلى **العاليّا** الثالثة، فإن اللجنة التنفيذية سوف تتألف من أناس من **العاليّا** الثانية. ومن غير الوارد السماح للجذريين القادمين من روسيا بالإساءة إلى مهمة البناء القومي(٩٥). بل إن الأحزاب العمالية القائمة بالفعل إنما تستثير انزعاجات دائمة بسبب بياناتها ـــ التي تصدر

في غير أوانها ــ والتي تؤيد فيها الاتحاد السوفييتي. والحال أن تشرشل سوف يفكر، في أبريل/ نيسان ١٩٢٢، في حظرها[٩٦].

وكما أثناء موجة الهجرة السابقة، فإن العناصر المسيَّسة قد أضفت طابعها المميَّز على وضع اجتماعي أكثر تبايناً. ففي عام ١٩٢٠، دخل إلى فلسطين ١٠٠٠٠ يهودي، بمن في ذلك من كانوا غادروها ثم عادوا إليها[٩٧]. وتوزيعهم المهني كالتالي:

في يافا، يتواجد منهم ٢٥٠٠ بينهم ١١٠٠ من أرباب ومعيلي الأسر، ويعمل ٢٥٠ كعمال ويتواجد ٣٥٠ في الحرف الخاصة و٣٥٠ في التجارة والصناعة، وهناك أخيراً نحو ٢٠٠ بلا عمل.

ويتواجد ٢٠٠٠ في القدس بينهم ٨٥٠ من أرباب ومعيلي الأسر الموزعين على الحرف الرئيسية التالية: ١٥٠ عاملاً بلا خبرة، ٢٠٠ عامل متعلم و٢٠٠ بلا عمل.

وقد استوعبت المستوطنات اليهودية منهم ٦٥٠ بينهم ٥٥٠ من أرباب الأسر، بينهم ٤٥٠ يعملون كعمال زراعيين ويتواجد ٥٠ في التجارة المتخصصة و٢٠ في الأعمال والصناعة و٥٠ لا عمل لهم.

وقد انضم ٣٥٠ إلى التعاونيات الزراعية ويوجد ٥٠ في الحرف الخاصة. وتستخدم السكك الحديدية في فلسطين ٣٥٠ مهاجراً، بينهم ٢٥٠ من معيلي الأسر، ويعمل ٤٠٠ في مختلف مصالح الحكومة كعمال متعلمين أو غير متعلمين، دون أن نحسب الـ١٥٠٠ عامل الذين تستخدمهم وزارة الأشغال العمومية في بناء الطرق.

ووقت كتابة هذا المقال، كان ٦٠٠ مهاجر في مواقع استقبال مختلفة انتظاراً لتوزيعهم على أعمال مختلفة وما يزال ٢٠٠ غير مصنفين.

وربما كان الرقم الأعمق دلالة هو الرقم الذي يتمثل في إجمالي ٧٠٠ عاطل ــ مع استبعاد من يتوقعون عملاً محدَّداً ــ من إجمالي ١٠٠٠٠ قادم جديد. إلاَّ أنه لابد من ملاحظة أن الناس الذين بلا عمل يشملون ليس فقط المهاجرين الذين وصلوا مؤخراً وإنما يشملون أيضاً الأفراد الذين كانوا قد غادروا البلد ثم عادوا إليه والذين كان يرعاهم قبل الحرب أشخاص محسنون أو مؤسسات أجنبية.

وتبين هذه المؤشرات أنه، بعد عامين من انتهاء الحرب [العالمية الأولى]،

لا يحدث تغير محسوس في الملمح الاجتماعي والاقتصادي للييشوف قياساً إلى فترة ما قبل الحرب، فيما عدا الدخول الواسع في القطاع الاقتصادي للدولة، وذلك أساساً بسبب غياب إيجاد للوظائف يتماشى مع حجم الهجرة. وطبيعي، كما في فترات أخرى، أن الحياة الاقتصادية اليهودية إنما تقتات إلى حد كبير على المبالغ التي ينفقها القادمون الجدد أو المقدَّمة من الخارج لأجل استقبالهم. ويظل بناء المساكن هو النشاط العمالي الرئيسي. وبالرغم من إلغاء الامتيازات التي كانت تعرقل كل نشاط صناعي، فإن نمو قطاع إنتاجي موجَّه إلى مجمل السوق الفلسطينية، بل ومجمل سوق الشرق الأدنى، إنما يظل نموًّا جنينيًّا. وإذا كان بعض البريطانيين وبعض الصهيونيين يفكرون في الأمد الطويل في تصنيع للشرق الأدنى انطلاقاً من اليشوف الفلسطيني، فإن المشروع الملموس الوحيد هو مشروع روتنبرج، والذي يستثير العداوة من جانب العرب بينما يستثير ريبة الفرنسيين.

وفيما عدا المكوِّن الثوري الاشتراكي، تتميز العاليا الثالثة بالوجود القوي لدى أعضائها لحركة شبيبة، هي الهاشومير هاتزائير (الحرس الفتي)[٩٨]. وهذه الحركة، التي ولدت في غاليسيا النمساوية في عام ١٩١٣، تضم خاصة شباناً منبثقين من الأوساط البورجوازية حصلوا على تعليم ثانوي. وقد تلقوا تربية وثقافة بولنديتين خاصةً واتجهوا إلى الصهيونية بسبب فشل الاستيعاب الراجع إلى المعاداة البولندية للسامية. وقد استعدوا لهجرتهم إلى فلسطين في معسكرات الشبيبة حيث كان الارتباط حميمياً بين الحركة الكشفية والنزعة القومية (مرّ البولنديون الشبان المنحدرون من الوسط الاجتماعي نفسه بالتجربة نفسها). وقد دمرت الحرب غاليسيا، التي عادت لتصبح جزءاً لا يتجزأ من بولنده الجديدة. وفي معمعان التحولات التي تلت الحرب مباشرةً، امتد العنف والمذابح التي تستهدف اليهود إلى غاليسيا وإلى الأراضي التي كانت في السابق روسية وأصبحت جزءاً من بولنده الجديدة والتي لم تعرف موجتي المذابح السابقتين. ولا تضم حركة الحرس الفتي غير شريحة صغيرة من الشبيبة اليهودية البولندية: ففي أبريل/ نيسان ١٩١٩، كان عدد أعضائها ٧٧٣٦ موزعين على ١١٠ من الشعَب. والمتحدث الرئيسي بلسانهم وإيديولوجيهم الرئيسي هو الكاتب

مارتن بوبر، الذي دعا إلى العودة إلى اليهودية على شكل إعادة خلق لعالم أنبياء العهد القديم. وهم أنصار لاشتراكية ذات اتجاهات وعظية بأكثر من كونها اتجاهات ثورية، كما أنها اتجاهات رومانسية بشكل واضح.

وطبيعي أن أعضاء كتيبة العمل والحرس الفتي، بمثاليتهم وإيمانهم القومي والاجتماعي، إنما يشكلون الوسط الذي تقوم بتجنيد الأعضاء منه الكيبوتزات، وهي صيغة لاقتحام الأرض الزراعية آخذة في التعمم. ولمّا كانوا مدفوعين بروح تتميز بنكران الذات وبالتضحية، فإنهم إنما يعتبرون أنفسهم نخبة مهمتها اقتحام الأرض الزراعية ولديها ميل إلى المطلق. كما أنهم أصحاب تجارب اجتماعية: فتربية الأطفال يجب أن تكون جماعية ويجب لهم أن يناموا منفصلين عن آبائهم وأمهاتهم. وبما أن السلطة السياسية قد احتكرها مخضرمو العاليّا الثانية، فسوف يشكلون جماعات ستحتفظ على مدار عدة عقود بهوية خاصة، مع إسهامها بقوة في تكوين الثقافة الجديدة "الإيريتز – إسرائيلية".

وإذا كانت المستوطنات الزراعية للعاليّات الثلاث الأولى قد شكلت مختبرات سياسية واقتصادية وثقافية تصاغ فيها الصورة الجديدة للذات، والمستندة إلى أسطورة الرائد وأخلاقية أعماله، فإنه يبقى مع ذلك أن الغالبية جد العظمى من المهاجرين إنما تحتفظ بنشاطات حضرية. وفي مستهل العشرينيات، يظل التباين قويًّا جدًّا بين تل أبيب، المدينة الجديدة، التي ابتدعتها الصهيونية والتي تشكل ساحة التعبير عن جميع اتجاهاتها، والقدس، حيث الأغلبية لليهود، وإن كان وجود عناصرهم من الييشوف القديم واليهود السيفارديين من شأنه أن يجعل الصهيونيين فيها بعيدين عن السيطرة على جميع جوانب الحياة اليومية. أمّا فيما يتعلق بحيفا، المدينة ذات السكان العرب واليهود المختلطين، فإن المخططين البريطانيين إنما يعتزمون تحويلها إلى أن تكون مركز فلسطين الجديدة الصناعي بفضل بناء ميناء في المياه العميقة مهمته منافسة بيروت التي انتقلت تحت الانتداب الفرنسي وأصبحت الآن منفصلة بحاجز حدودي.

زيارة تشرشل

في لندن، جمع تشرشل حوله من جديد كل طاقم الحرب العظمى، وعلى

رأسه ت. إ. لورانس وهربرت يانج. وفي ١٣ فبراير/ شباط، يُعهد إليه رسميًا بتولي وزارة المستعمرات مع إدارة الشرق الأوسط التابعة لها والمعنية بآسيا العربية كلها الواقعة تحت النفوذ البريطاني. وهذا الانتصار لطاقم القاهرة القديم لا يتجاوب مع إشراقة فكرية هبطت فجأة على القيادة السياسية البريطانية أو، كما كتب ذلك البعض، مع الاستيلاء على السلطة من جانب حافري قبر الإمبراطورية البريطانية، بل يتجاوب مع الخيار السياسي الأكثر عقلانية. فقد حكم الظافرون الإمبراطورية بقليل من القوات وبتكاليف أقل. والتوسع الترابي الجديد يضغط بشدة كبيرة على الماليات البريطانية المستنزَفة. وكان الرأي العام مستعدًا لقبول جلاءات ملحوظة في مقابل تخفيضات للضرائب. وقد عرض لورانس وجماعته حفظ الأراضي بتكاليف أقل، وذلك بفضل جمع بين الوصاية والسيطرة على البلدان محل النظر، مع الاعتماد على بعض القوات في أغراض الحماية ومع استخدام دائم لسلاح الطيران. وفي المناقشة، ليست الأفكار عن "إمبريالية جديدة" قائمة على التعاون الحر بين الشعوب والبريطانيين هي التي كانت لها اليد العليا، بل النهج الملموس أكثر من سواه لتخفيض تكاليف الإمبراطورية. فقد جرى التخلي عن "عبء الرجل الأبيض" لأنه كان فادح التكلفة. وهذا لا يعني أن تشرشل كان ليبراليًا في مسألة الاستعمار. ففي المسائل المصيرية، بدا أكثر تشدُّداً بكثير من واحد ككيرزون أو كملنر، المشهورين بنزعتهما المحافظة.

وقد قرَّر تشرشل أن يعقد في القاهرة مؤتمراً لجميع المسئولين عن السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، سعياً إلى تحميلهم تبعات خط العمل الجديد القائم على أسرع سحب ممكن للجانب الرئيسي من القوات البرّية. وقد ارتاح ڤايتسمان إلى تعيين تشرشل، فهو مؤازر للصهيونية منذ البداية. والشيء الأكثر تشجيعاً أيضاً أنه يعرف الاحتقار العميق الذي يكنه سكرتير الدولة الجديد للعرب. وعشية سفر تشرشل إلى مصر، يوجه إليه الزعيم الصهيوني نداءً يطالبه فيه بضم شرق الأردن والنقب إلى فلسطين لكي يكونا جزءاً من المقام القومي اليهودي. وذلك تعويضاً عن فقدان منطقة الليطاني[٩٩]. لكن مشاعر تشرشل المؤازرة للصهيونية لا معنى لها إلاً عبر شواغله الإمبراطورية، وهو ما سوف

يكون مصدراً دائماً لسوء التفاهم بينه واليهود[١٠٠]. وضم شرق الأردن إلى فلسطين من شأنه أن يعني وجوداً عسكرياً كثيفاً، ومن ثم نفقات إضافية، وهو أمر ليس مطروحاً. والحل الأمثل هو الحل الذي اقترحه لورانس: تكوين إمارة شرق أردنية يتولى الإمارة عليها عبد الله، على أن يتم تنصيب فيصل ملكاً على عرش العراق، وطبيعي أن الأخوين سوف يكونان تحت وصاية محكَمَة من جانب البريطانيين.

ويستمر مؤتمر القاهرة من ١٢ إلى ٢٢ مارس/ آذار ١٩٢١[١٠١]. وقد جرى استعراض جميع جوانب السياسة العربية. وتم تأكيد اختيار عبد الله وفيصل. ويحاول هربرت صمويل وديديس معارضة تكوين إمارة شرق الأردن. لكن لورانس كان قد نجح في إقناع سيده [تشرشل] بأن عبد الله سيكون في تبعية محكمة للبريطانيين وبأنه سيمارس نفوذاً إيجابيًّا على عرب فلسطين بمعارضته الصهيونية التي، على أي حال، بفضل السياسة الصحيحة للسلطات، سوف تأفل، بل سوف تختفي في غضون أربع أو خمس سنوات. كما يقترح صمويل تجنيداً متساويًا من الناحية العددية لجنود يهود وعرب للتعويض عن ترحيل القوات البريطانية. ويعترض العسكريون على ذلك في التوّ والحال مذكِّرين بأن من المستحيل سياسيًّا استخدام جنود يهود ضد العرب، أكان في داخل فلسطين أم في خارجها.

وكانت اللجنة التنفيذية العربية قد حصلت على تصريح بإرسال وفد إلى القاهرة، برئاسة موسى كاظم[١٠٢]. وفي ذلك الوقت، يغتني الخطاب الفلسطيني بنبرة تستعيد تيمات المعاداة الأوروبية للسامية، التي تعد المفتاح التفسيري الوحيد الذي يحوزه الفلسطينيون لفهم ما يجري لهم. وهكذا يقول الباشا العجوز لدى وصوله إلى القاهرة[١٠٣]*:

> نحن واثقون ومتأكدون من أنه ليس من صالح إنجلترا نفسها أن تكون فلسطين الوطن القومي لليهود. لكن أولئك المتنفذين في إنجلترا، كالسيد بلفور ومن هم على شاكلته، قد تم شراؤهم وخلب لبهم بالذهب اليهودي، فأصدروا ذلك القانون الاستبدادي الذي ينص على أن فلسطين يجب أن تكون وطن بني إسرائيل.

---

* ترجمة عن العربية. ـــ م.

والواقع أننا علمنا أن شركة مالية كبرى، على رأسها بنك روتشايلد، قد قـررت صرف ١٠٠ مليون من الجنيهات الإسترلينية لبلوغ هذا الهدف. وبهذا الشكل، توصـل اليهود إلى كسب تأييد إنجلترا لقضيتهم المتمثلة في جعل فلسطين وطناً يهوديًّا.

أما فيما يتعلق بنا، فنحن فقراء. ومن المستحيل علينا منافسة اليهود في هذا الدرب، اللهم إلاّ إذا ساندتنا دولة قوية وأجنبية أو أعاد الله إنجلترا إلى سواء السبيل وفتح عيونهـا لترى مخاطر القانون الذي أصدرته. فبعدئذ سوف يكون من السهل عليها إلغاؤه.

وفي الحديث نفسه، يستكشف موسى كاظم الطريقين اللذين سيتوجب علـى الفلسطينيين اختيارهما في حالة رفض البريطانيين لمطالبهم؛ وهما اللجوء إلـى طلب العون من دولةٍ أجنبية أخرى والدعوة إلى التضامن العربـي، أي الخـط الذي سيجري اتباعه على مدار عدة عقود:

الأول، والرئيسي، هو مناشدة الدول الأوروبية، والمطالبة بتدخلها. فسوف نخاطب الدول التي لها مصالح في القدس. وهكذا سنتوجه بنداء العون إلى فرنسا وإلى إيطاليا وإلى بابا روما.

ومن المؤكد أنهم لا يريدون أن تكون القدس، حيث ولد يسوع المسيح، في أيـدي أعداء يسوع المسيح، في أيدي من لايكفون، حتى في أيامنا، عن أن يكونوا الأعداء، الذين لا يعرفون هوادة، لمن يعتنقون ديانة عيسى عليه السلام.

وفي حالة رفض الدول العظمى مساعدتهم، وعدم رؤيتها أي مصلحة في التـدخل، الذي لا مفر له من الاصطدام بخطة إنجلترا، حليفتها، فإننا، نحن المسلمين العرب، سنجد مصلحتنا وما ينفعنا في الاتحاد مع إخوتنا، العرب، حلفائنا المجاورين لنا. وبتوحيد قوانا مع قواهم، سنصبح عندئذ قوة، سيكون من المستحيل على إنجلترا سحقها أو خنقها لأجـل سواد عيون اليهود.

وإذا ما وصلنا بهذا التحالف إلى غايته، إذا ما وحَّدنا قوانا، فسيعرف الإنجليز أننـا متحالفون ومتحدون بالفعل مع إخوتنا العرب. سيعرفون أننا نجد دعماً كبيراً وقويًّا بـين صفوف القبائل التي تسكن في شرق الأردن، وكذلك في جنوب كما في شمال فلسطين.

وأنا أقول إنه عندما يعرف الإنجليز ذلك فإنهم سوف يؤثرون التراجع وإلغاء القـرار الذي اتخذوه بجعل فلسطين وطن اليهود.

والحال أن تشرشل يستقبل الوفد في لقاء قصير في ٢١ مارس/ آذار في القاهرة لمجرد التعارف، لأن تشرشل سيذهب بعد ذلك على الفور إلى فلسطين وسوف يلتقي الوفد في ٢٨ مارس/ آذار في القدس. ولم تكن زيارة الفلسطينيين عبثية، فقد اغتنموا فرصتها للاتصال بجماعة القوميين العرب بالقاهرة، حزب الاتحاد السوري الذي يقوده الإخوة لطف الله ورشيد رضا. وجرى وضع برنامج للعمل المشترك(١٠٤). ويجتمع موسى كاظم أيضاً بالزعيم القومي المصري إسماعيل صدقي الذي ينصحه بتشكيل حزب سياسي(١٠٥).

. ويصل سكرتير الدولة في ٢٤ مارس/ آذار إلى غزة، حيث يستقبله حشد من ١٥٠٠٠ شخصاً هاتفين بالعربية "يحيا الوزراء"، ولكن أيضاً "يسقط اليهود". والحال أن تشرشل وصمويل، اللذين لا يعرفان العربية، إنما يعتبران ما يقال ترحيباً، ويفضّل لورانس عدم إثابتهما إلى الرشد. لكن السلطات، وقد أدركت في النهاية ما يجري، إنما تحظر القيام بتظاهرات جديدة. وفي ٢٥ مارس/ آذار، تفتح الشرطة النار في حيفا على حشد يحتج على الاستيطان اليهودي، بما يؤدي إلى مصرع صبي مسيحي في الثالثة عشرة من العمر وامرأة مسلمة. ومن جميع أرجاء فلسطين، تتدفق على الوزير رسائل احتجاج على الصهيونية.

وفي ٢٨ مارس/ آذار، يلتقي تشرشل عبد الله في القدس لتحديد الأمور معه: ستكون هناك إدارة عربية في شرق الأردن تحت قيادته. وفيما يتعلق بسوريا، فإنه إذا ما قبلت فرنسا ترشيحه لأن يكون ملكاً عليها، فسوف تدعمه بريطانيا العظمى. ويتصور عبد الله أن هذا وعد ثابت من جانب البريطانيين سوف يحاول تحويله إلى واقع ملموس على مدار ثلاثة عقود، في حين أننا بإزاء عبارة جوفاء من جانب محاوره. ويسعى السيد الجديد لشرق الأردن إلى إقناع البريطانيين بتعيينه أميراً على فلسطين، فهذه هي الوسيلة الثابتة الوحيدة للمصالحة بين العرب واليهود. وهنا أيضاً، سوف يتابع هذا الحلم إلى مماته. ويوضح له صمويل وتشرشل أن هذا أمر غير وارد، وإن كان المقام القومي اليهودي لن يمتد إلى شرق الأردن. ويؤكد له المندوب السامي أنه من غير الوارد قيام حكومة يهودية في فلسطين وأنه سوف يجري احترام حقوق العرب وأن الإدارة البريطانية سوف تدوم هناك لأعوام، مع مشاركة متزايدة من جانب

الفلسطينيين في إدارة شئونهم.

وتوجِّهُ اللجنة التنفيذية العربية إلى تشرشل مذكرة مسهبة سوف يتم فيما بعد إرسالها إلى عصبة الأمم. والحال أن المذكرة إنما تطالب الإنجليز بالاختيار بين الصداقة اليهودية والصداقة العربية. وإلاَّ فإن*:

علاقة التركي بالعربي يجب أن تكون درساً لإنجلترا. فالعربي الذي خضع للتركي بحكم الاضطرار لحظة نشوب الحرب العظمى قد اغتنم الفرصة التي سنحت له وخَلَعَ النير. واليوم لم يعد إيمان العربي ببريطانيا مثلما كان. وهذا من دواعي الأسف، لأن العربي نبيل ويتميز برحابة الصدر، لكنه أيضاً يعرف الثأر لنفسه ولا ينسى أبداً إساءة إليه. وإذا لم تتبن إنجلترا قضية العرب، فإن دولاً عظمى أخرى سوف تتبناها. ومن الهند وبلاد الرافدين والحجاز وفلسطين يتجه النداء لإنجلترا الآن. وإذا لم تصغ لندائهم، فقد تستجيب له روسيا يوماً ما، أو ربما ألمانيا نفسها. لأنه مع أن صوت روسيا اليوم ليس مسموعاً في محافل الأمم، فإنه لابد من أن يجيء مع ذلك الوقتُ الذي سيفرض فيه [صوتُها] نفسه، وعندئذ فإن حق روسيا في توجيه شئون فلسطين قد يجد دعماً عظيماً بين صفوف مسلمي العالم.

وإذا كان اليهود قد ساندوا إنجلترا خلال الحرب، فمن الممكن لهم خيانتها من بَعد:

ولذا يجب على إنجلترا، لما فيه صالح السلام العالمي، إن لم يكن حبًّا للعربي، أن تعزف عن اتخاذ هذه الخطوة الباطلة. إن الصهيونيين لا يمكنهم أن يكونوا أوفياء لها، فهم ليسوا أوفياء لأحد، ويمكن أن يشهد على ذلك عملهم الخبيث في النمسا وألمانيا وروسيا. فليس لهم غير هدف واحد ووحيد في الحياة لا يمكن لشيء أن يجعلهم أن يحيدوا عنه.

وقد أخطأ العرب لعدم إصغائهم للتحذيرات التركية:

بالرغم من التحذيرات المتكررة من جانب الأتراك للعرب بألاّ يلقوا بأنفسهم بثقة مفرطة في أحضان بريطانيا العظمى التي، تحت الضغط المالي للحرب، باعت بلدهم للصهيونيين، فإن العرب قد ظلوا متعلقين بصديقتهم التقليدية، اعتقاداً منهم بأن هذه التحذيرات لم تكن مدفوعة إلاّ بالغيرة وبرغبة في بث الفرقة. وعندما شاعت، قبل

---

* ترجمة عن أصل المذكرة الإنجليزي. ـــ م.

فتوحات سوريا، المعلومةُ التي تتحدث عن تفاهم بين بريطانيا العظمى والصهيونيين، رفضوا تصديقها. ثم عندما جرى إعلان الصلح، ورأى العرب بأعينهم وسمعوا بآذانهم أن سوريا وفلسطين سوف يجري الفصل بينهما تمهيداً لتنفيذ تصريح بلفور، أدركوا أن الأتراك كانوا محقين على أي حال. كما فهموا عندئذ أن هذا قد جرى لتمكين الصهيونيين من أن يصبحوا تدريجيًا الأغلبيةَ في فلسطين من خلال الهجرة.

والمسألة ليست ذات طابع إنساني، بل ذات طابع سياسي:

لو كان الصهيونيون قد جاءوا إلى فلسطين كمجرد زائرين، أو لو كانت الأمور قد ظلت على نحو ما كانت عليه قبل الحرب، لما كانت هناك مسألة يهودي أو غير يهودي. فما يستاء منه العربي ويحاربه هو فكرة تحويل فلسطين إلى مقام لليهود. وواقع أن اليهودي يهودي لم يجعل العربي متحيزاً ضده قط. فقبل الحرب، تمتع اليهود بجميع امتيازات وحقوق المواطنة. والمسألة ليست مسألة دينية. لأننا نرى أن المسيحيين والمسلمين على حدٍّ سواء، وديانة كل طرف منهما تختلف عن ديانة الطرف الآخر، إنما يعدون متحدين في كراهيتهم للصهيونيين.

ويجري عرض الوجوه المختلفة لعدم مشروعية المشروع الصهيوني، أولاً على المستوى الحقوقي، ثم على المستوى التاريخي:

يتذرع الصهيونيون وبريطانيا العظمى بالتاريخ تأكيداً لزعمهم. إذ يقال إنه بما أن اليهود قد فتحوا هذا البلد وعاشوا فيه في فترة من التاريخ فإنهم يجب أن يملكوه إلى الأبد.

وهذه الحجة فيها من الخيال أكثر مما فيها من المنطق. ووفقاً لها، يجب للعرب أن يطالبوا بإسبانيا لأنهم فتحوها في وقت من الأوقات وطوروا فيها حضارة رفيعة. فلماذا يجب رد فلسطين لليهود بينما تظل إسبانيا في أيدي الإسبان. والأتراك أيضاً، فتحوا في وقت من الأوقات كل دول البلقان ووصلوا إلى أبواب فيينّا، فلماذا إذاً لا تردها أوروبا لهم؟

وحتى عندما كان اليهود ملاّكاً لفلسطين لنحو ٤٠٠ سنة، فإن جيرانهم قد نازعوهم دوماً حقهم فيها. والحروب والتمردات والفتن الدينية والسياسية والقلاقل الداخلية قد ملأت الفترة كلها؛ ولم يسد السلام إلاّ خلال عهد الملك سليمان. لكن حكم العرب في

فلسطين كان مستقرًا لزمن طويل إلى أن جاءت الحملات الصليبية ثم اشتروا البلد من جديد، للمرة الثانية، بعد أن كانوا قد اشتروها في وقت من الأوقات من الرومان، بإراقة أنهار من دمائهم. ثم إنهم كانوا دوماً في سلام مع جيرانهم — وهو إنجاز لا يسع الإسرائيليين ادّعاء تحقيق نظير له.

وقد يقال، أيضاً، إن مطالبة اليهود بفلسطين تستند إلى الصروح والبنايات التي أقامها أسلافهم وتركوها وراءهم. والحق أنه ما من أمة في التاريخ قد تركت وراءها أقل مما تركه اليهود؛ وتلك المعابد والصروح التي أقاموها في عصرهم الذهبي قد اختفت قبل أن تتبعثر الأمة.

ولكن إذا كانت الصروح القديمة تؤكد شرعية مطلب، فماذا عن الصروح العربية والتركية في أوروبا اليوم؛ وألاَ يشهد كل طلل في فلسطين على أصله العربي؟

من المثير للاستغراب أن يهتم دارسو التاريخ اليهودي القديم بديانة هذا الشعب ومجده الملكي مهملين ذلك الجانب الآخر منه والذي يتعلق بالتمردات والفتن والقلاقل الداخلية وجميع الحروب مع جيرانهم والتي أدت في النهاية إلى طردهم من البلد. فهل تحرّى الساسة في أي وقت من الأوقات أسباب عدم قدرة الإسرائيليين على التعايش مع جيرانهم، أو السبب في كل هذا المقت الذي أحست به نحوهم كل القبائل المجاورة لهم؟ إننا نعتقد أن مثل هذا التحرّي من شأنه أن يكشف أموراً قد يتأكد أنها جد مفيدة للديلوماسية والسياسة الحديثة.

وأخيراً يجري شجب الصهيونية على المستوى الأخلاقي في خطاب تمتزج فيه التصريحات الصهيونية من نوع تصريح إيرلان بقراءة بروتوكولات حكماء صهيون، التي وصلت الآن إلى أيدي العرب:

لقد كان اليهود من بين أنشط دعاة الهدم في كثير من البلدان، خاصة حيثما مكنتهم مواقعهم المؤثّرة من إلحاق ضرر أكبر. فمن المعروف جيداً أن انهيار روسيا راجع برمته أو في الجانب الأعظم منه إلى فعل اليهود ولابد أيضاً من تحميلهم المسئولية عن جانب كبير من هزيمة ألمانيا والنمسا. فعندما كان نجم دول وسط [أوروبا] في صعود تملقها اليهود، إلاّ أنه ما أن مالت كفة الميزان لصالح الحلفاء حتى سحب اليهود تأييدهم لألمانيا وفتحوا خزائنهم للحلفاء. وحصلوا في المقابل على ذلك الوعد الأكثر مجاوزة للمألوف.

وقد اطّلعنا على كتاب عنوانه "**الخطر اليهودي**" يجب أن يقرأه كل من لا يزال غير متيقن من نوايا اليهود الخبيثة تجاه الدول العظمى القائمة وتجاه الحضارة. وهو عبارة عن مجموعة محاضر لجمعية سرية من اليهود البارزين الذين يجتمعون من وقت إلى آخر لمناقشة أحوال العالم في صلتها باليهودية. والكتاب غاصٌ بكراهية طافحة للبشرية وللمسيحية خصوصاً. وهو يشير تفصيلاً إلى سبلٍ وأساليب للإطاحة بنظام الأحوال الحاضر كيما يصبح بوسع اليهود أن يخرجوا من الفوضى المترتبة على ذلك سادةً للعالم.

وإذا ما نظرنا إلى صفوف الاشتراكية فإننا نجد أسماء يهودية ككارل ماركس وباكونين وتروتسكي على رأس القائمة، إلى جانب حشد من آخرين على الدرجة نفسها من الخبث، وإن لم يكونوا على الدرجة نفسها من الشهرة.

ثم إن اليهودي عشائري ولا يميل إلى الاختلاط بالجيران، ولا يمكنه التمازج مع من يحيون حوله. وهو سيتمتع بامتيازات ومكاسب بلد لكنه لن يعطي شيئاً في المقابل. إن اليهودي يهودي في أي مكان من العالم. فهو يجمع ثروة بلد ثم يقود شعبه الذي أفقره بالفعل إلى حيث يختار. وهو يشجع الحروب عندما تملي مصلحته الذاتية ذلك، وهكذا يستخدم جيوش الأمم لتحقيق ما يريده.

وبهذا الشكل تكابد فلسطين من مستوطناتها اليهودية. فحيثما توجد هذه المستوطنات يضطر السكان الفلاحون المحيطون إلى بيع ما يملكون وإلى النزوح. وبسبب عشائرية اليهود فإنهم، بقدر ما يكون ذلك في استطاعتهم، لن يستخدموا أحداً من أهل البلد أو يشتروا من متجره أو يوفروا له فائدة بأي شكل من الأشكال؛ على العكس، إنهم سوف يتحينون أي فرصة لإلحاق الضرر به إذا كان بإمكانهم عمل ذلك دون أن يحل بهم عقاب.

وهم في التجارة وشئون المالية أعداء لا رحمة لديهم. فمنذ أن فتحت فلسطين أبوابها لهم، سقطت تجارتها تدريجيًّا في أيديهم. وهم يبخسون قيمة الأرض والممتلكات ويدبرون في الوقت نفسه أزمة مالية حتى يضطر ملاك الأراضي، تحت ضغط الحاجة، إلى بيع أراضيهم بأسعار تؤدي إلى خرابهم.

فهل يمكن لأوروبا والحال كذلك أن تنتظر من العربي العيش والعمل مع جارٍ كهذا؟ وألم يكن من الأجدر بإنجترا أن تجد لهم بلداً في المناطق الشاسعة غير المأهولة في إمبراطوريتها مترامية الأطراف.

وإذا كانت روسيا وبولنده بأقطارهما الشاسعة لم تتمكنا من تحملهم، فكيف يمكن لأوروبا أن تنتظر من فلسطين استقبالهم؟ وهل يمكن للعرب حمل العبء الذي تعجز أوروبا عن حمله؛ أم أن اليهودي لدى مجيئه إلى فلسطين، سوف يغير جلده ويتجرد من كل تلك الخصال التي جعلته إلى يومنا هذا موضع نفور من جانب الأمم؟

ويرد تشرشل بأن من المستحيل أن ترجع بريطانيا العظمى عن كلمتها وبأن تصريح بلفور يضمن مصالح العرب وبأنه يجب التحلّي بالصبر وعدم المصادرة على المستقبل:

ردًّا على الحجة التي تذهب إلى أن الصهيونية سوف تعود عليكم بفوائد جمَّة، سوف تقولون: وهل نبيع بلدنا لقاء مكسب مادي؟ وسوف أرد عليكم بأنكم محقون. ولكن لا تنسوا أن الهجرة اليهودية غير ممكنة إلاّ إذا تمت بأساليب شرعية. والمهمة التي يواجهها الصهيونيون صعبة، وشكل الحكم الحالي سوف يستمر قائماً لسنوات عديدة. وشيئاً فشيئاً، سوف نقوم بتطوير المؤسسات النيابية التي ستقود إلى الحكم الحر الكامل، لكن أبناء أبنائنا سوف يرحلون قبل أن يتم إنجاز هذه المرحلة. وهذا هو السبب في أنكم لا يجب أن تخافوا من إعطاء اليهود الأمل والتشجيع. وإذا لم تكن مبادئ تصرفاتهم وناسهم على استقامة فسوف يفشلون، أمَّا نجاحهم فسوف يجلب الرخاء وثروة عامة لجميع الفلسطينيين.

وإذا أصغيتم لرأيي، فإنكم لن تجدوا أي فارق في الحياة التي عشتموها في الماضي، سوى أنها سوف تكون أفضل، فسوف تتوفر حرية أوسع ورعاية صحية أفضل ومواد غذائية أوفر وسكان أوفر عدداً. وفوق كل شيء، سيتوافر احترام الديانات. ومع أن العرب هم الأغلبية في فلسطين ومع أن الإمبراطورية البريطانية قد قبلت الانتداب بالمعنى الأوسع، فإن فلسطين إنما تخص العالم كله، ومدينة القدس هذه مقدسة بدرجة واحدة تقريباً لدى المسلمين كما لدى المسيحيين واليهود، لأنها مدينة الإيمان المقدسة. وعرب فلسطين عليهم واجب عظيم ونحن نأمل في أنهم سوف يساعدون الحكومة البريطانية في الوفاء به. وبدلاً من تقاسم الشقاءات بالانغماس في المنازعات، سوف يتعين على الفلسطينيين تقاسم البركات بفضل تعاون مخلص. إن أمام بلدكم مستقبلاً عظيماً؛ والأرض، الأم السخية، سوف تنتج إنتاجاً وفيراً لأبنائها، إذا ما قاموا بفلاحتها في ظل الإنصاف والسلم.

ويخرج العرب غاضبين من لقائهم مع تشرشل. والحال أنهم قد شعروا بأن النبرة الاحتقارية التي تحدث بها قد جرحتهم جرحاً خاصًا. كما استقبل سكرتير الدولة وفداً يهوديًا قَدَّمَ له الشكر على السياسة البريطانية وتباهى بمنجزات المقام القومي اليهودي. ويهنأهم تشرشل على أعمالهم، لكنه يحذرهم من الخطر الذي يُعَرِّضهم له وجود بلاشفة في صفوفهم. وفي المساء، نجده ضيف الشرف في حفل استقبال نَظَّمه روبِّين. وفي ٢٩ مارس/ آذار، يزور عبد الله مسجد عمر، حيث تستقبله تظاهرة معادية للصهيونية. وفي اليوم نفسه، يذهب تشرشل إلى موقع الجامعة العبرية التي ستقام في المستقبل، ويعبر عن تعاطفه مع الصهيونية، وإن كان يطلب إلى اليهود تحسين علاقاتهم مع العرب. وهو يقطع هناك زيارته إلى القدس، مدفوعاً إلى العودة إلى لندن، حيث يجري القيام بتعديل وزاري.

نحو تغيير لاتجاه السياسة البريطانية

يرى ديديس، بعض مضي بضعة أسابيع[١٠٦]، أن زيارة تشرشل قد أدت بالأحرى إلى تشدد المعارضة بالرغم من حثها فريقاً معتدلاً على قبول تصريح بلفور والتعاون مع الانتداب. ويريد المتشددون شن حملة دعائية في بريطانيا العظمى وفي أوروبا. وقد أخذوا على أنفسهم عهداً بعدم خلق متاعب وبعدم معارضة الانتداب بحد ذاته، بل معارضة الصهيونيين وحدهم.

ومن المؤكد أن نشاط القوميين في شهر أبريل/ نيسان يتركز على جمع تبرعات لإرسال وفد إلى جنيف، بالاتفاق مع الاتحاد السوري في القاهرة[١٠٧]. وتشير التقارير البريطانية إلى وجود توتر قوي في حيفا بعد أحداث الشهر السابق: فالمسيحيون والمسلمون يكثرون من إبداء دلائل التضامن. و"السامرة"، كما يقول البريطانيون، متوترة هي الأخرى. وفي ١٢ أبريل/ نيسان، يضطر هربرت صمويل، خلال زيارة إلى وادي الأردن، إلى مشاهدة تظاهرة شعبية مهمة ضد بيع الأراضي لليهود. وهذه العداوة تفسر غياب الوجود اليهودي في هذه المنطقة المتمحورة حول نابلس، حيث توجد النواة التاريخية لسكنى المسلمين فلسطين.

و"المعتدلون" مهتمون خاصةً بمن يحل محل مفتي القدس، الذي مات في ٢١ مارس/ آذار. والحال أن الرأي الشعبي والعائلة يرشحان أخاه الأصغر غير الشقيق، الحاج أمين الحسيني، في حين أن آل النشاشيبي يشجعون فقهاء أكثر تقدماً في العمر سعياً إلى مزيد من الإضعاف لمنافسيهم. وكان القانون العثماني يرتأي عقد هيئة انتخابية تقوم بتسمية ثلاثة مرشحين، على أن يؤول الاختيار إلى رئيس الهيراركية الدينية الإسلامية، شيخ الإسلام الموجود في القسطنطينية. ومع الاحتلال البريطاني، آلت اختصاصات هذا الأخير إلى مفتي القدس، الذي أصبح رئيس جميع المؤسسات الدينية الإسلامية. وبالنظر إلى عدم وجود هيئة انتخابية، فإن البريطانيين إنما يقومون بتشكيل هيئة، تتألف من أعيان لا يرتاحون إلى ضعف ثقافة الحاج أمين الدينية إلى جانب كونهم خصوماً بالأحرى لعائلته. وفي المقابل، نجد الرجل الشاب مرشَّحَ المؤسسات الدينية، التي كان أعضاؤها قد عُيِّنوا من جانب آل الحسيني، المتولين للوظيفة منذ عقود، كما نجده مرشَّحَ الرأي العام القومي، الذي يتذكر دور الحاج أمين في عهد المملكة العربية.

وفي انتخابات ١٢ أبريل/ نيسان فإن الحاج أمين، وقد وصل إلى المستوى الرابع من حيث عدد الأصوات التي حصل عليها، إنما يجري من ثم استبعاده من الناحية النظرية. وعندئذ يشن آل الحسيني حملة حول عدم شرعية الهيئة الانتخابية، التي لا صفة تمثيلية لها بحسب القانون العثماني أو بحسب ما يراه الرأي العام المسلم. ويتدفق سيل من العرائض الاحتجاجية من كل أرجاء فلسطين، بما يوضح أن هذا الفضاء يبدأ في اتخاذ قدر من التجانس السياسي. بل إنه يجري اتهام آل النشاشيبي بالتواطؤ مع الصهيونيين سعياً إلى منع انتخاب المرشح القومي. ورجلهم "خائن" مستعد لبيع وطنه لليهود، وفي المقام الأول حائط المبكى. وقد بدأت بالفعل دعوى اتهام آل النشاشيبي بانعدام الشرعية، ويمكن للبريطانيين أن يدركوا أن الحاج أمين هو المرشح الوحيد الذي يتمتع بتأييد شعبي. وبالرغم من قيام الحاج أمين وذويه باتهام خصومهم بالخيانة، فإنهم يؤكدون في السرّ للمندوب السامي أنهم سوف يكونون ضامنين لحفظ النظام العام في حالة تعيينٍ في صالحهم.

والاختبار الأول هو الاحتفال بالنبي موسى، في ٢٥ أبريل/ نيسان ١٩٢١، والذي ينظمه آل الحسيني عادةً[١٠٨]. وقد أخذ الحاج أمين مكان أخيه غير الشقيق المتوفى. وهو يدعو المندوب السامي إلى حضور الاحتفال، و، بما أن الاحتفال يوافق عيد الفصح اليهودي، فإنه يقدم له وجبة معدَّة بحسب القواعد التقليدية اليهودية (يجب أن نذكِّرَ بأن الحاج أمين كان قد تعلم على يد ألبير عنتيبي والتحالف الإسرائيلي العالمي وبأنه، إذا كان معادياً للصهيونية، فإنه ليس معادياً للسامية). وبادرة المجاملة هذه تتخذ دلالة سياسية واضحة في سياق الانتخاب، لاسيما أن الاحتفالات تجري في هدوء، بما في ذلك عند وصول حجاج الخليل. على أن غياب الموسيقى العسكرية البريطانية، والتي جرى رفضها في آخر لحظة، إنما يستثير استياءً قويًّا لدى الحجاج.

والعمل الإداري خلال شهر أبريل/ نيسان ينصب على إعداد نص حول تجنيد قوة عسكرية محلية. وقد وافق هربرت صمويل على أن يتم تجنيد الرجال من كل عناصر السكان. وتنطرح على الفور مسألة النسبة العددية بين اليهود والعرب. ويرى المندوب السامي أن المتطوعين من اليهود سوف يكونون أوفر عدداً من المتطوعين العرب. والمشكلة الثانية هي ما إذا كانت الوحدات سوف تكون مختلطة، كما في الشرطة، أم منفصلة. ويتلخص الأمر كله في ما إذا كان الناس يفضلون أن يكونوا قبل كل شيء "فلسطينيين" أم يهوداً وعرباً. وفي ٢٦ أبريل/ نيسان، نجد أن جابوتينسكي، الذي جرى استقباله على رأس وفد يهودي في وزارة المستعمرات البريطانية، يقبل، على مضض، مبدأ الكتيبتين، واحدة عربية وأخرى يهودية، وكلاهما تحت قيادة ضباط بريطانيين[١٠٩].

وهذه القوة، المقصود بها أن تحل محل القوات البريطانية المنسحبة، سوف يبلغ قوامها ١٠٠٠ رجل. وسعياً إلى تحاشي ذكر مصطلح فلسطين محل الخلاف (ومن ثم مصطلح إيريتز إسرائيل المقابل له في العبرية)، فسوف يجري تسميتها بالقوة الوطنية، عند مخاطبة السكان المحليين، أمَّا عند مخاطبة الخارج، فسوف تسمى بـ"Palestine Home Force". وعلاوة على اختزال العبء الذي يضغط على دافع الضريبة البريطاني، فسوف يجري بذلك إشعار كل عنصر من عناصر سكان فلسطين بأن له مكانه في البلد[١١٠].

على أن ديديس منزعج بالرغم من ذلك. فهو يجيد التمييز بين مجـاملات مناظريه العرب ومايبدونه من تقدير للمندوب السامي، من جهة، والسخط العام على السياسة التي تتبعها الإدارة، من الجهة الأخرى. والعمل التشريعي الملحوظ الذي يقوم به المندوب السامي، بكل ما ينطوي عليه من وعود الهناء، لا يكفـي لوقف صعود التوترات. وإرسال وفد فلسطيني إلى چينيف يزعجه (مـن جهـة أخرى، يتساءل سوكولوف معه عن إمكانات منع الوفد من الذهاب إلى أوروبا).

وبالرغم من كونه شخصيًّا جد محبِّذ للـصهيونية، فإنـه يـدرك أن الـرد الاقتصادي ليس قادراً على تسوية المشكلة السياسية. وفي ٣٠ أبريـل/ نيـسان يُطلعُ المندوب السامي على تحليله للأمور[١١١]. وهو يرى أنه يجـب تـشجيع تكوين تعبير سياسي معتدل يخلق الثقة بالإدارة ويعزل الساخطين. ومن الملحِ، في نظره، القيام بـ"بادرة حسنة"[١١٢] ــ فالشرقيون حـساسون لـذلك ــ، وإلاّ فسوف يفوت الوقت لذلك كثيراً، ولن يتسنى التغلب على العداوة لتصريح بلفور إلاَ عندما تجري البرهنة على أنه لا يلحق ضرراً بمصالح الـسكان المعنيـين. وبالمقابل، فإن الاحتجاج على الأوتوقراطية البريطانية مشروع في جانب منه، وفي أماكن أخرى نجد جماعات سكانية أقل تمدناً من العرب الفلسطينيين تتمتع بتطور دستوري أكثر تقدماً. ويجب السير في الاتجاه نفسه كما في بلاد الرافدين أو في مصر، أو في الهند أو أيرلنده. فالناس لا يريدون إدارة تتميز بالكفاءة، بل حكماً يشاركون فيه. وإذا لم يتم خلق مؤسسات تمثيلية، فإن النزاع سوف يكون حتميًّا بين الشعب والإدارة، الأمر الذي سوف يزيد من صعوبة تطبيق تصريح بلفور.

وبالرغم من عداوة الصهيونيين المتوقَّعة، يوصي ديديس بالتكوين الفوري للبلديات ولمجالس المناطق ولجمعية مركزية نيابية، كما يوصي بتعجيل تعيـين فلسطينيين في البيروقراطية، مع تأمين حماية المصالح اليهودية.

والواقع أن الوقت قد فات لذلك كثيراً بالفعل. ذلك أن انفجاراً جديداً لأعمال العنف إنما يميز شهر مايو/ أيَّار ١٩٢١.

اضطرابات يافا

كانت المماهاة بين اليهود والثورة الروسية أحد أسباب تصريح بلفور. وكان بلفور أول من قال إن الصهيونية ترياق مضاد للبولشفية، وقد ثابر فايتسمان على اللعب على هذا الاستنتاج. وتعود شعبية **بروتوكولات حكماء صهيون** إلى ماكان قد أصبح رأيًا مشتركاً. والحال أن الأحزاب الاشتراكية الصهيونية قد أعربت علناً عن استحسانها لثورة أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٧(١١٣). وقد نُسِبَت المذابح التي استهدفت اليهود خلال الحرب الأهلية الروسية إلى القوات البيضاء [قوات الثورة المضادة]، الأمر الذي يعزز صورة البلاشفة الإيجابية في صفوف الحركة العمالية اليهودية الفلسطينية. والسلطة البولشفية الجديدة تناضل بشكل سافر ضد معاداة السامية. والمنظمات الاشتراكية الصهيونية، في بياناتها العديدة، تشجب تدخل الحلفاء في روسيا ضد "الحمر" ثم تشجب سياسة الكوردون الصحي. وقد اعتبرت السوفييتات نموذجاً للمستقبل. ويظهر مصطلح "الشيوعية" مرات عديدة في المعجم السياسي لبرامج العمل. وقد أزعجت هذه المواقف السلطات البريطانية أيما إزعاج. وكان على فايتسمان وهربرت صموئيل أن يتدخلا كثيراً لتجنب اتخاذ تدابير حظر.

وإذا كان الصهيونيون الاشتراكيون قد وجدوا أنفسهم مرة أخرى في روسيا لينين، فإنهم لم يقبلوا معاداتها الكفاحية للصهيونية. وخلال مؤتمر الأحزاب الاشتراكية الصهيونية في فيينا، في سبتمبر/ أيلول ١٩٢٠(١١٤)، لاحظ بن جوريون أن حزبه ما كان بوسعه دخول الأممية الثالثة ما دامت قد عارضت مشروع فلسطين اليهودية وساندت العرب. وقد هدّد موقف كهذا باستثارة انهيار للاشتراكية في فلسطين. لكن الخطر لم يكن يكمن في تخلٍ عن الاشتراكية بقدر ما كان يكمن في خيانة للصهيونية. وكان فصيل مهم من صهيونيي روسيا الماركسيين ومن الدياسبورا قد انتقل إلى صف الأممية الثالثة، واجتذبت اللينينية عمالاً عديدين في فلسطين نفسها. ثم إن المهاجرين القادمين من روسيا بعد الحرب كانوا متأثرين بالأفكار الثورية وكان كل شيء يوحي بأن الأممية قد سعت إلى تكوين منظمة شيوعية سرية في فلسطين، تكون رأس جسر إلى الشرق الأدنى. وكان المناضلون العماليون الصهيونيون يريدون القضاء على

هذا الخطر، و، بالرغم من إعلان إعجابهم بثورة أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٧، لم يترددوا في توجيه اللكمات إلى الشيوعيين. وقد وجد البريطانيون صعوبة في اكتشاف تماسك في هذا التشوش، لكنهم كانوا مقتنعين تماماً بالخطر البولشفي، الذي رأوه في كل مكان تقريباً في المنطقة (حتى عند وهابيي نجد!).

أمّا على الجانب العربي، فقد كان ما يزال من المبكر جدًّا أن تتمكن الدعاية الشيوعية من الفوز بتأثير حقيقي. ولم يميز العرب بين الخطاب الشيوعي الداعي إلى تضامن العمال ضد الملاك اليهود والعرب من جهة، وخطاب الصهيونيين الاشتراكيين الذي يشجب الاستغلال الذي يمارسه الأفندية العرب ويعلن الصداقة للعمال العرب الذين يرفضون، بالرغم من ذلك، أي مشاركة لهم في العمل، من الجهة الأخرى. ومن المعروف أن الإلحاد، وهو مفهوم مايزال محظوراً إلى اليوم في الشرق الأوسط، كان أحد مكوّنات البولشفية وأن البريطانيين كانوا على خوف متصل من البولشفية، خاصة بعد مؤتمر باكو الذي دعا شعوب الشرق إلى الثورة. وإذا كان الأعيان قد تحدثوا عن الاستعانة بروسيا، فقد كان ذلك بشكل مجرد ولأجل إزعاج سلطات الانتداب. ولم يكن من شأن وصول البروتوكولات في عام ١٩٢٠ سوى تعزيز قلقهم من الخطر اليهوي، الذي أصبح بالنسبة لهم واقعاً ملموساً. واعتباراً من مؤتمر حيفا، كان التوتر قد عاد إلى الصعود، و، كما في أبريل/ نيسان ١٩٢٠، ودون أن يكون من الضروري البحث عن وجود تعمد وتدبير مسبق، كان من شأن أبسط حادث أن يؤدي إلى انطلاق للعنف.

ومن الواضح أن المدن ذات الجماعات السكانية المختلطة كيافا كانت الموقع الأنسب لأمر كهذا، وقد ظلت الاحتفالات العمالية بعيد الأول من مايو/ أيّار عملاً ثوريًا لم تتوصل الحكومات بعد إلى تدجينه. وفي الأول من مايو/ أيّار ١٩٢١، يصطدم موكب للعمال الاشتراكيين اليهود، صرحت به السلطات البريطانية، بموكب شيوعي يهودي. ويعقب ذلك شجار، بشكل لا مفر منه. وبحسب رواية هربرت صمويل[١١٥]، فقد جرى صد الشيوعيين في الجزء العربي من المدينة. وبحسب ترجمان قنصلية فرنسا[١١٦]، فإن عربياً قد سقط تحت الأقدام في معمعان الاشتباك في حين أن السكان كانوا جد منزعجين بالفعل

من توزيع منشور شيوعي بالعربية[117]. وتطارد الشرطة الشيوعيين وينضم السكان إليها، مهاجمين كل ما هو يهودي، دون تمييز:

أيًا كان الأمر، سرعان ما أصبحت مدينة يافا برمتها مسرحاً لأعمال وحشية متطرفة. فقد ضرب المسلمون والمسيحيون بالعصي جميع اليهود الذين صادفوهم في طريقهم، وقد تصدى لهم الإسرائيليون مستخدمين الأسلحة النارية التي كانت السلطات البريطانية قد تركتها قبلاً في حيازتهم، عند نزع سلاح السكان أهل البلد.

[...] وقد بدأت على الفور أعمال سلب ونهب المحال والمخازن الإسرائيلية في غياب أي قوة بريطانية واستمرت هذه الأعمال إلى المساء. والحال أن غواية النهب والرغبة في إخفاء المنهوبات بعناية قد حالتا دون انخراط الطبقة الدنيا من أهل البلد في مذابح أوسع. ثم أن خفر البساتين والنوتية والفلاحين، الأكثر اشتهاءً للمنهوبات مما للدماء، قد انتزعوا من الأرياف محاصيل وسلعاً قيل لي بتأكيدٍ أن قيمتها تتجاوز مبلغ ٢٥٠٠٠٠ جنيهاً مصريًا.

وبحسب مراسل التحالف الإسرائيلي العالمي، فإن الشرطة تتحمل مسئولية جسيمة[118]:

عندئذ تدخلت الشرطة، بيد أنها لم تفعل سوى إفساد الأمور. فالجنود، الذين كانوا في غالبيتهم من المسيحيين والمسلمين، والذين لا مراء في أنهم كانوا جد سعداء بخلق حادث لا يمكن لليهود إلاّ أن يكابدوا منه، قد انهمكوا في إطلاق بعض الأعيرة النارية. وكان ذلك أشبه ما يكون بإشارة بدء لمعركة شاملة، لم يكن هناك مفر من أن يسقط فيها العديد من الضحايا، من بين اليهود كما من بين العرب. وقد وقعت الحوادث الأولى قرب الظهيرة. وبسرعة سحابة البارود، انتشرت الشائعات المتعلقة بهذه الحوادث في المدينة وشوهد عرب من جميع الأنحاء يخترقون الشوارع وهم ينادون على إخوتهم في الديانة: "أيها المسلمون، دافعوا عن أنفسكم، إن اليهود يقتلون نساءكم!". وعندئذ، وفي جميع أركان المدينة، يتسلح المسلمون بالهراوات أو بالأسياخ ويهاجمون اليهود الذين يصادفونهم فيجرحونهم ويقتلونهم. ومن الطبيعي أنهم يهاجمون عابرين مسالمين و، في غضبهم الميال إلى ارتكاب المذابح والقتل، يتصرفون بوحشية يتعذر وصفها.

والحال أن المشهد الذي دار في بعض المواقع لا يقل في شيء عن المشاهد التي أفرزتها

المذابح الأكثر دموية والتي استهدفت اليهود في روسيا. وفي حي النبي شالوم، فإن السرقة وأعمال سلب ونهب الحوانيت اليهودية والأعمال الوحشية المرتكبة ضد السكان إنما تتحدى أي وصف.

ويعلن البريطانيون الأحكام العرفية ويرسلون تعزيزات من القوات إلى المدينة المرفأية. فتعجز عن منع استئناف العنف، في اليوم التالي، في الأحياء ذات العناصر السكانية المختلطة حيث تدور مطاردات صيد حقيقية للبشر، كما يصفها على هذا النحو الترجمان الأول:

على أن وصول بعض القوات البريطانية ومصفحتين أو ثلاث مصفحات إنما يردع طرفي الخصومة في ما بعد ظهيرة ذلك اليوم، لكن مطاردة صيد للبشر تتواصل بالرغم من كل شيء في بيّارات البرتقال التي لاذ بها بعض الإسرائيليين.

إلاّ أنه، نحو الظهيرة، بعد صباح من الحمى والقلق، وبمناسبة دفن مسيحيٍ، هجم فجأة حشد من ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص على القنصلية، هاتفين "تحيا فرنسا، تسقط إنجلترا، الموت لليهود!". وحيال عنف خبطاتهم على باب بيتي، الذي لا مراء في أنه قد تحطم، اضطررت إلى إلقاء تحية الوداع على جثة الضحية مع امتناعي من جهة أخرى عن المشاركة في أي تظاهرات خطابية أو غير خطابية.

وفي نهاية النهار، نجح البريطانيون في إجلاء جميع سكان يافا اليهود إلى تل أبيب. وقد وصل الأمر بجنود الشرطة العرب واليهود عمليًا إلى حد الاقتتال. والحال أن السكان العرب إنما يتهمون البريطانيين بترك جنود الشرطة اليهود يطلقون النار على الحشد. وتتخذ الحركة منعطفاً معادياً للبريطانيين بشكل سافر، حيث يعاود المتظاهرون التجمع في ٣ مايو/ أيّار حول القنصليات الأجنبية. وسعياً إلى تهدئة الخواطر، يقوم الممثلون الفرنسي والإيطالي والإسباني بتحرك مهيب لدى السلطات البريطانية التي كانت قد قدمت موافقتها المسبقة. وفي ٤ مايو/ أيّار، يتم وقف زحف عربي على تل أبيب بحاجز من الجيش البريطاني، دون عنف. وفي ٥ مايو/ أيّار، تتمركز بارجة حربية بريطانية في مرسى يافا، مهدّدةً بذلك المدينة بمدافعها.

واعتباراً من ٥ مايو/ أيّار، يمتد العنف إلى المنطقة الساحلية القريبة من يافا. فيهجم القرويون العرب على المستوطنات اليهودية، لكن سلاح الفرسان البريطاني، الذي كان قد تم إشعاره مسبقاً بالهجوم، إنما ينتظرهم ويقتل عدداً كبيراً من المهاجمين، الذين يقصفهم سلاح الطيران من جهة أخرى. ويتم نهب ماشية مستوطنة يهودية. وفي ٦ مايو/ أيّار، يقام في الرملة الاحتفال بعيد النبي صالح، وهو نبي عربي هذه المرة (لكن موعد الاحتفال بالنبي صالح هو بعد أسبوعين من الاحتفال بالنبي موسى، الذي يتحدد هو نفسه بعيد الفصح المسيحي. وفي المناطق الساحلية، يتلو فوراً عيدُ النبي روبين، وهو نبي يهودي، عيدَ النبي صالح)[١١٩]. وقد أكد الأعيان أن كل شيء سيتم في هدوء، إلاّ أنه، في بداية ما بعد الظهيرة، يزحف ألف من الحجاج على مستوطنة، ريحوفوت اليهودية. فتقوم قوات النظام بتفريقهم، مدعومة من جانب سلاح الطيران. وفي المدينة نفسها، "لاتدين الأسر الإسرائيلية الثلاث أو الأربع بنجاتها [...] إلاّ لحماية أصدقاء مسلمين، أكدوا للحشد أن الإسرائيليين لا تخامرهم أي فكرة معادية ضد العرب"[١٢٠].

واعتباراً من ٤ مايو/ أيّار، اشتعلت بؤرة اضطرابات جديدة في منطقة نابلس ــ طولكرم[١٢١]. ونحن هنا بإزاء هجمات على المستوطنات اليهودية المجاورة. والحال أن السلطات العسكرية، التي استخدمت سلاح الفرسان، إنما تنجح في السيطرة على الموقف. وينزعج السامريون انزعاجاً وقتيًّا ويتطلب الأمر عدة أسابيع للتمكن من استعادة السكينة. وينجح عمر زعيتر، عمدة نابلس، في تهدئة الجمهور. والشائعات الأكثر انفلاتاً تعيد تدشين التوتر من حين إلى آخر.

ويرتفع إجمالي الخسائر البشرية إلى ٤٨ عربيًا و٤٧ يهوديًا قتلى وإلى ٢١٩ جريحاً.

وفي ١٢ مايو/ أيّار، تقدم اللجنة التنفيذية العربية روايتها للأحداث[١٢٢]*:

في الأول من مايو/ أيّار، أدت تظاهرة اليهود في يافا إلى صدام دموي بين أهل البلد واليهود. وقد تبين عندئذ أن هؤلاء الأخيرين كانوا مسلحين حتى الأسنان، بينما كانت

---

* ترجمة عن الأصل الفرنسي. ـــ م.

الحكومة قد جردت أهل البلد من كل سلاح. ويحصى عدد القتلى بالمئات وكذلك عدد الجرحى.

إن البلد في حالة غليان. وتكفي شرارة لإشعال الحريق. وقد وصل السخط إلى الذروة ما أن وزّع اليهود في البلد بيانات ينادون فيها بالمبادئ الأكثر هدماً للمجتمع وللبلد كما للأخلاق العامة.

فهل بهؤلاء الثوريين، أعداء الإنسانية والعمل، بهؤلاء الطفيليين، الذين صاروا عبئاً على البلد، تنوي بريطانيا العظمى إنهاض فلسطين! وجلب الرخاء والرفاهية إليها؟!! إن النار تكمن تحت الرماد! وقد أصبح الرأي العام بالغ الحساسية على أثر كل هذه الضربات المتكررة وتحت القوانين التي يجري تفصيلها كل يوم والتي تميل كلها إلى تشجيع التوسع اليهودي على حساب مصالح أهل البلد! ولو استمرت الحال على هذا المنوال فإننا نخشى أوخم العقبات.

إن أهل البلد، وقد يئسوا من عدالة العالم المتمدن، سوف يستخفون بالحياة وينتصبون كرجل واحد دفاعاً عن وطنهم ودينهم وشرفهم!

وهيهات! حاشا لله! أن يجعل المجتمع المتمدن من فلسطين، مهد الرسالات السماوية ووطن الأنبياء، قبراً للعدالة وللحق!!!

هيهات! إنه لن يسمح بأن تصبح هذه الأماكن المقدسة بالنسبة للمسيحيين وللمسلمين، والتي شعَّت منها على العالم مبادئ الإخاء والسلام السامية، مسرحاً للثورات وللمذابح.

ويلقي العسكريون البريطانيون المسئولية عن الاضطرابات على انحياز حكومتهم إلى الصهيونية، والذي أدى إلى قنوط العرب (كان الاستفزاز الأخير هو منح بدو شرق الأردن الحكم الحر الذي حُرِمَ الفلسطينيون منه)، وعلى الاستفزازات البولشفية. في حين أن الصهيونيين، كعادتهم، يتحدثون عن تدبير متعمد من جانب العرب وعن دسائس فرنسية[١٢٣].

سياسة هربرت صمويل الجديدة

إذا كان انفجار العنف قد فاجأ المندوب السامي وإدارته، فإنه لم يكن من

شأنه إلا أن يعجل استيعابهما لضرورة تغيير اتجاه سياستهما[١٢٤]. وهما يطمئنان نفسيهما بأن المتظاهرين ليسوا معادين للبريطانيين، بل معادون لليهود، ويريان أنه يجب التحرك فوراً لتجنب تكرار لمثل هذه الأحداث. وهما يدركان أنه من غير الممكن مواصلة السياسة القائمة، إللهم إلاّ عبر إرسال تعزيزات مهمة. وخارج قمع الاضطرابات، ينصب عملهما على الهجرة اليهودية: فيجري فوراً وقف نزول المهاجرين. وتحدث مطاردة للعناصر البولشفية التي يرى هربرت صمويل أنها لا تمثل غير نسبة ٢% من القادمين الجدد.

ووقف الهجرة ــ حيث يجري تحويل البواخر إلى مصر، الأمر الذي يثير عظيم سخط أللنبي ــ هو عملية مزدوجة الأهمية: تهدئة العرب وإقامة نظام جديد للرقابة يسمح باستبعاد البلاشفة وتنظيم تدفق المهاجرين من زاوية الوضع الاقتصادي؛ فالواقع أن القادمين الجدد الذين بلغ عددهم ١٠٠٠٠ منذ تولي هربرت صمويل مهام منصبه قد أدوا بشكل خاص إلى تضخيم حجم العاطلين اليهود. والصهيونيون لا يحوزون الإمكانات الاقتصادية اللازمة لتطبيق سياستهم وبما أنهم لا يريدون الاعتراف بذلك حتى لا يصيبوا قواعدهم في أوروبا وفي أميركا باليأس، فإنهم لم يتجهوا إلى أي تقييد للهجرة. والبطالة حتى إذا أمكن احتواؤها عبر برنامج أشغال عمومية تموله إدارة الانتداب، إنما تعزز موقف الشيوعيين. ومن جهة المؤسسات التمثيلية، يرتأي المندوب السامي انتخاب أعضاء غير موظفين ليكونوا أعضاء في المجلس الاستشاري.

وبالرغم من رأي لورانس المعاكس، والذي يعتقد أنه يجب في آن واحد قبول قيام مؤسسات نيابية وتسليح المستوطنين اليهود كيما يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، فإن تشرشل يرفض أي تطبيق للمبدأ الانتخابي في فلسطين، على الأقل إلى حين التصديق على ميثاق الانتداب، الذي يعتقد من جهة أخرى أنه بات وشيكاً[١٢٥]. وهو يحث صمويل بقوة على تطهير فلسطين من جميع عناصرها التخريبية لكنه لا يمكنه أن يعده بإرسال قوات عسكرية إضافية[١٢٦]. ويقترح صمويل عليه تكريس الأموال المخصصة لتكوين قوة عربية ــ يهودية مشتركة ــ والذي بات الآن مستحيلاً ــ لتعزيز للشرطة التي يقودها البريطانيون[١٢٧].

وفي منتصف مايو/ أيّار، يتسنى لديديس التوصل إلى رؤية أوضح للوضع[١٢٨]. فهو يرى أن الاضطرابات قد غذاها سيل متواصل من الشائعات التي تتهم اليهود بذبح العرب. وعدم وقوع هجمات على طرق المواصلات يثبت أنه لم يكن هناك من تدبير متعمد أو تنظيم. ولا يمكن اعتبار اللجنة التنفيذية العربية مسئولة، بالرغم من أن نشاطاتها قد غذت التوتر في الأسابيع السابقة. وبوجه عام، فإن السياسين العرب إنما يجرون نقاشات مع السلطات و، عند نشوب الاضطرابات، يتحركون في اتجاه حفظ النظام. والوضع كارثي: فالآن، ليس العرب معادين للبريطانيين، بيد أن هذا قد يتغير بسرعة. والحدود مع شرق الأردن خالية من القوات (ومن ثم فليست هناك حماية من الاختراقات البدوية)، ومصر قد تنتفض في أي لحظة. ولا يمكن اتهام الحكومة بالضعف، فهي تأخذ بالحسبان علاقات القوى مراعيةً جانب الجماعات السكانية الحضرية ومنزلةً العقاب القاسي بالقرى عن طريق الغرامات الجماعية. ويتمثل خط التحرك في السيطرة على المدن من خلال السياسيين مع ضرب الأرياف. وعلى أي حال، فإن عدة مناطق لم تتحرك، بينها القدس وغزة وحيفا والجليل. وفي الأمد المتوسط، لا يمكن للإكراه أن يحل شيئاً[١٢٩]. ويجب تقديم تفسير لتصريح بلفور يزيل جميع الالتباسات: فكل مهاجر يجب أن يكون له عمل ولابد من إقامة مؤسسات تمثيلية.

وكان المثال الأول لسياسة الأعيان الجديدة هذه هو تعيين الحاج أمين الحسيني مفتياً للقدس في منتصف مايو/ أيّار، بعد أن أقنع ستورس آل النشاشيبي بسحب مرشحهم. ومن الواضح أن هذا الاختيار إنما يرجع إلى الهدوء الذي ساد القدس خلال الأيام الخمسة عشر المضطربة هذه، حيث أثبت آل الحسيني بذلك قدرتهم على السيطرة على السكان.

وتعقد اللجنة التنفيذية على الفور مؤتمراً فلسطينيًا عربيًا رابعاً في القدس من ٢٩ مايو/ أيّار إلى ٣ يونيو/ حزيران[١٣٠]. وبعد التحقق من الصلاحيات وانتخاب مكتب جديد يرأسه موسى كاظم، يجري تناول نتائج الأحداث. والقرار الرئيسي المتخذ هو إرسال وفد إلى أوروبا، يجري انتخاب أعضائه. وتتعرض مسألة تمويله لنقاش طويل وكذلك مسألة صلاحياته. ومن المؤكد أن نموذج

الوفد المصري (الحزب القومي المصري) يؤثر على القرارات المتخذة.

وفي اللحظة التي ينهي فيها المؤتمر أعماله، يقدم هربرت صمويل شـرحاً لسياسته الجديدة في تصريح علني، يوم ٣ يونيو/ حزيران ١٩٢١[١٣١]. وهـو ينفي أي نية في الرغبة في طرد السكان العرب من أراضيهم ومـن أماكنهم المقدسة:

أقول، ردًّا على ذلك: إن الحكومة البريطانية، التي تضع العدل بالفعل فـوق كـل شيء، لم تقرِّر قط ولن توافق أبداً على سياسة من هذا النوع. كما أن ذلك ليس ما يعنيه تصريح بلفور. ومن المحتمل أن معناه الحقيقي لا يظهر بجلاء في الترجمة العربية. وعلى أي حال فإن معناه ما يلي: إن اليهود، وهم شعب مشتت في أرجاء العالم، وإن كان قلبهم لم يكف عن الحنين إلى فلسطين، سيكون من حقهم إيجاد مقام لهم فيها؛ وبعضهم ــ ضمن الحدود التي يقررها عدد ومصالح السكان الحاليين ــ سوف يجيئون إلى فلسطين للإسهام بمواردهم وبجهودهم في إنماء البلد، وهذا لما فيه الصالح الأعظم لجميع سكانه.

وإذا كانت هناك تدابير ضرورية لإقناع السكان المسلمين والمسيحيين بـأن هـذه المبادئ سوف يجري تطبيقها، وبأن حقوقهم سوف يتم الحفاظ عليها، فسوف يجري اتخاذ هذه التدابير. والحكومة البريطانية، المكلَّفة بانتداب لصالح جميع سكان فلسطين، لا تريـد أن تفرض عليهم نظاماً يجيز لهم اعتباره متعارضاً مـع مـصالحهم الدينيـة والـسياسية والاقتصادية.

وهو يركز شرحه على مسألة الهجرة:

تستثير الهجرة اهتماماً خاصاً تماماً. ومنذ العام الماضـي، في خطـابي الافتتـاحي، أوضحتُ أنها يجب أن تكون متناسبة مع إمكانية العمل التي يتيحها البلد وأنها يجب علاوة على ذلك أن ترتبط بأعمال جديدة وذات طابع مستديم. وقد أوقفتُ الهجرة خلال الوقت الضروري لدراسة الوضع؛ ووفقاً للائحة التي جرى وضعها، فإن الفئـات التاليـة مـن الأشخاص هي التي سيكون لها الحق في دخول فلسطين:

أ) السياح، أي الأشخاص الذين لا ينوون الاستقرار في فلسطين والذين لن يقيمـوا فيها لأكثر من ثلاثة شهور.

ب) الأشخاص الذين يمارسون حرفة أو مهنة ويبوسعهم العيش من عائدها.

ج) النساء والأطفال والأشخاص الذين يتكفل بالإنفاق عليهم ساكنون للبلد.

د) الأشخاص الذين يحوزون إمكانات الإقامة.

هـ) الأشخاص المضمون حصولهم على عمل لدى أرباب عمل في مشاريع والذين سوف يكون بوسعهم إثبات ذلك.

والبريطانيون وليس المنظمة الصهيونية هم الذين سيمنحون تأشيرات الدخول. وبصفة مؤقتة، سوف يجري السماح بدخول الأشخاص الذين أوشكوا على الوصول. بيد أن المهاجرين "المشرَّبين بمذهب البولشفية الخبيث" سوف يستبعَدون.

وهو يعلن تكوين مؤسسات تمثيلية:

تحدوني الرغبة في إشراك شعب فلسطين إشراكاً أوثق في الإدارة التي أقامتها الدولة المنتدَبة. وحكومة صاحب الجلالة تدرس في هذه اللحظة بأكبر قدر من الاهتمام السبل التي من شأنها أن تتيح للرأي العام إمكانية التعبير عن نفسه بحرية ومن خلال شخصيات مأذونة. وإلى أن يحدث ذلك، فإنني أقترح اعتماد تدابير فورية بهدف تأمين تفاهم أوثق، في المسائل الإدارية المهمة، بين الحكومة والأشخاص ذوي الصلاحيات من مختلف جماعات السكان. وعند دخول الانتداب حيز التنفيذ، سوف تنشئ حكومة صاحب الجلالة نظاماً خاصًّا لفلسطين سيظهر في وثائق عصبة الأمم. والانتداب لن يقوم فقط بحماية مصالح السكان غير اليهود حماية كاملة، بل إنه سوف يتضمن أيضاً ترتيبات معلَنة تحدد الدستور القادم للبلد. وكما أبلغناكم بذلك مؤخراً، فسوف يجري اتخاذ تدابير لاستعادة نظام الانتخابات البلدية.

ويجري تكليف لجنة لتقصّي الحقائق بتحديد أسباب اضطرابات يافا وتحديد ما جرى تحديداً بالغ الدقة.

وفي تلك اللحظة، يتم إبلاغ هربرت صمويل بأن التصديق على ميثاق الانتداب قد تأجل لعدة أسابيع بسبب العرقلة الإيطالية في عصبة الأمم (فروما تجعل التصديق على الانتداب مشروطاً بالتصديق المسبق على معاهدة سيفر) وبسبب اعتراضات فرنسية على البند الخاص بالجنسية الفلسطينية والذي يجعل

من جميع اليهود في فلسطين مواطنين فلسطينيين، وهو بند يتمثل هدفه في الحيلولة دون تشكل جماعة مهمة من المواطنين الروس في فلسطين. بينما فرنسا، التي توجد لها عدة آلاف من المحميين اليهود، لا تقبل التجنيس الجماعي، الذي يتعارض مع مبدأ الاختيار الحر[١٣٢]. ويرى المندوب السامي أن هذا التأجيل الجديد من شأنه أن يصيب بالشلل جميع مشاريع التنمية وأنه سوف يضعف سلطة الإدارة بينما يشجع التوتر المحلي[١٣٣].

وفي التوّ والحال، يثير تصريح هربرت صمويل سيلاً من الاحتجاجات من جانب المنظمات الصهيونية. والمندوب السامي مدعوم عموماً من وزيره، الذي يطلب إليه إبداء المزيد من الحزم في التعامل مع المسئولين عن اضطرابات مايو/ أيّار. وفي ١٤ يونيو/ حزيران، يلقي ونستون تشرشل خطاباً ضافياً في مجلس العموم يعالج فيه مجمل السياسة حيال الشرق الأدنى. وفيما يتعلق بفلسطين، يلقي المسئولية عن الانزعاجات العربية على تصريحات الصهيونيين المتطرفة[١٣٤]:

> إن سبب الاضطراب السائد في فلسطين، سببه الوحيد، إنما يجب رصده في الحركة الصهيونية وفي التطمينات التي قدمناها لها. إنّ وَعْدَنا بمقام قومي يهودي لَيَتَعارَضُ مع سياستنا المعتادة، والتي تستوجب أخذ رأي شعوب الأراضي الواقعة تحت الانتدابات، كما تستوجب تمتعها بمؤسسات تمثيلية فور تأهلها للحصول عليها.

وسوف تكون الحكومة البريطانية وفية للكلمة التي أعطتها، بيد أن الهجرة اليهودية، وقوامها ٧٠٠٠ شخص كل عام، لا تهدد السكان العرب:

> إن هذه الهجرة والدعاية التي رافقتها قد أزعجت السكان العرب وأثارت قلقهم الزائد عن الحد. وما أثار هذه الانزعاجات ليس عدد المهاجرين بقدر ما أنه التصريحات المتواصلة واللهوب الصادرة عن المنظمات الصهيونية في العالم بأسره ـــ وكان لها كل الحق في إصدارها ـــ والتي عبرت بها عن أملها ونيتها في جعل فلسطين بلداً ذا أغلبية يهودية، يسكنه يهود جميع البلدان.
>
> كما يرجع الانزعاج إلى الخوف من أن يكون هؤلاء اليهود منحدرين بشكل خاص من وسط أوروبا، ومن روسيا خصوصاً. وقد تصور العرب أنهم سوف يجري إغراقهم، في

الأعوام القادمة، بسيل من المهاجرين الذين سوف يطردونهم من أراضيهم ويحرمونهم من موارد البلد المحدودة ويستأثرون بالسيطرة على مؤسساته ويصبحون سادة لمصائره. والواقع أن هذه المخاوف لا أساس لها بالمرة. فالصهيونيون، سعياً منهم إلى استثارة الحماسة والمؤازرات التي يحتاجونها، قد حرصوا على دعم قضيتهم بأعظم حميّة، وذلك بهدف تعزيز قناعاتهم وتأكيد طموحاتهم؛ وهذه التصريحات هي التي تزعج العرب، وليس المقاييس الحالية للهجرة أو المقاييس التي قد تتخذها في الواقع العملي. وقد شرح السير هربرت صمويل لسكان فلسطين ما يجب فهمه بـ"المقام القومي". والحق أنه ليس هناك أي سبب لانزعاج العرب. فالهجرة اليهودية كلها سوف تجري مراقبتها والتحكم فيها من زاويتي عدد وطابع المهاجرين. ولن يتم السماح بدخول أعداد من اليهود تتجاوز موارد البلد.

وهو يشيد بنجاحات الاستيطان اليهودي ويؤكد أنه لا يمكنه منح العرب مؤسسات تمثيلية لها سلطة حقيقية. فهم سوف يستخدمونها لحظر الاستيطان اليهودي. ومجمل الخطاب يشكل نجاحاً خطابيًا هائلاً يعزز مركز الحكومة الذي تعرض للضرر جراء المصاعب التي أفرزتها شواغل النزاع مع تركيا.

وفي ١٥ يونيو/ حزيران، يحلل هربرت صمويل الوضع[١٣٥]. وكان خطابه في ٣ يونيو/ حزيران قد استثار سخط الصهيونيين، الذين رأوا فيه تعديلاً تامًّا للسياسة البريطانية. وبالمقابل، وافق عليه اليهود المتدينون والمنحدرون من العاليا الأولى. أمّا على الجانب العربي، خارج المتطرفين الذين يريدون نبذاً تامًّا لتصريح بلفور، فإن سياسته الجديدة قد قوبلت باستحسانٍ. ويتصل القلق الوحيد بمدى قدرة البريطانيين على التمسك بتعهداتهم. وهو مضطر إلى أن يأخذ بالحسبان عاملاً جديدًا: إن السياسيين لم يعودوا وحيدين؛ إذ يجب الاعتراف بوجود قدر من الوعي السياسي لدى الجماهير. ويرى العسكريون أنه لا مفر من الخوف من نشوب اضطرابات جديدة، بل وانتفاضة عامّة. والنتيجة أنه يجب التوصل إلى حل وسط مع خصوم الصهيونية، حتى ولو تطلب ذلك تضحيات جسيمة. وما لم يحدث ذلك، فإن البديل هو سياسة الإكراه، وهي سياسة سيئة من حيث المبدأ كما أن من الأرجح أن من المستحيل تطبيقها[١٣٦].

وتجذر الجماهير الشعبية هذا، في منطقة يافا على الأقل، إنما يجد تأكيداً له

في تحليلات ممثل فرنسا في يافا[١٣٧]:

أيًّا كان الأمر، فإن الأهالي الفلسطينيين، خاصة عناصر الطبقة الدنيا، لا يبدو البتة أنهم مستعدون لإلقاء سلاحهم وكبت روحهم الكفاحية. والأعيان، الزعماء الدينيون أو أعضاء العائلات الكبرى، والذين كانوا يمارسون في السابق قدراً من النفوذ عليهم، لم تعد لهم في عيونهم أي هيبة والكراهية التي يكنونها للإسرائيليين قد ترتد ضدهم بسهولة، لو سمحوا لأنفسهم بدعوتهم إلى الهدوء والتصالح.

والحال أن لجاناً صغيرة، ذات أفكار ثورية، إنما تتشكل بين بحارة الميناء وخفر بيارات البرتقال بل، كما سمعت، بين الفلاحين.

والحق أن هذه اللجان هي التي توجِّه الآن سياسة أهل البلد. فهي تستأثر بالحق في إصدار أوامر المقاطعة ضد اليهود، وتفرض أسلوبها في رؤية الأمور على أعيان البلد وترغمهم على عدم الاستجابة بالمرة للدعوات الصادرة عن السلطات البريطانية. [...]

كما يمتد هذا الوضع إلى كل منطقة من مناطق يافا، حيث يقوم رسل عديدون بالحفاظ على روح الثورة الكامنة، بدعوتهم السافرة إلى الجهاد ضد اليهود وحماتهم البريطانيين.

ومن ثم فإن هربرت صموئيل، في يونيو/ حزيران ١٩٢١، قد هَجَرَ ـــ أو رَدَّ إلى المرتبة الثانية على أي حال ـــ الحل الاقتصادي. فالمشكلة ذات طبيعة سياسية من حيث الجوهر، ويتوجب التوصل إلى التصالح ضمن إطار المناقشات الممهِّدة للتصديق على ميثاق الانتداب. وفي اللحظة المباشرة، سوف تحصل المستوطنات اليهودية على إمكانية تسليح نفسها، لكن الأسلحة سوف يجري حفظها في مخزن أسلحة مقفل، كي لا يتم استخدامها إلاّ في حالة تعرض هذه المستوطنات لهجمات، ولأجل هدف دفاعي تماماً ولحين وصول قوات حفظ النظام[١٣٨].

الفصل الرابع عشر

التوفيق المستحيل

"يعلن المندوبون العرب أن بلدهم إنما يجد نفسه، بعد عدة قرون من إدارة مخرِّبة وفاسدة، غير قادر على إعادة بناء نفسه واستعادة مكانته في العالم دون تعاون وثيق بين أهل البلد ورسل التمدن الذين ينقسمون إلى جماعتين:

"١. الشعوب الأوروبية المتَدَيِّنة، أي الدول الاستعمارية التي يشكل وجودها في البلدان المتأخرة نسبيًّا خطراً جسيماً جسامة خاصة على استقلال هذه البلدان وعلى وحدها السياسية.

"١. الأمة اليهودية المنبثقة من الشرق والتي تشكل عناصرها المنتشرة عبر العالم واحدة من أرقى القوى التي يستند إليها التمدن والرقي الحديثان.

"وأخذاً بعين الاعتبار الأصل القديم للأمة اليهودية التي لا جدال في أن لها طابعاً تاريخيًّا بحكم قرابتها مع العرب، وأخذاً بعين الاعتبار من جهة أخرى أن الاستيطان اليهودي لا يشكل أي خطر سياسي لأن اليهود الذين يقيمون في بلد ما إنما يتعلقون به ويعتبرونه وطنهم ولا يستوطنون من ثم لصالح دولة أجنبية بذاتها، فإن المندوبين العرب يعلنون أنهم، في سعيهم إلى السير ببلدهم نحو التمدن والرقي الحديث، يفضلون كل التفضيل اليهود، وسوف يسعدهم بشكل خاص أن يعملوا معهم بحيث يتسنى التوصل إلى أن يصبح اليهود، على أوسع نطاق، رسل التمدن القادم من الخارج والذي يحتاج إليه العرب.

"وتجاوباً مع هذا الإعلان، فإن المندوبين اليهود، وقد أسعدهم الثقة التي أُبديت لهم بهذا الشكل، وإذ يشدِّدون، من جهتهم، على القرابة القديمة، إنما يعلنون استعدادهم للتعاون في تدشين عصر سلم وعمل ولأن يكونوا عامل سلمٍ ورقيٍّ في البلدان المذكورة. ومن جهة أخرى، يلفتون انتباه المندوبين العرب إلى اهتمام اليهود [بفلسطين] وأمانيهم المشروعة الخاصة فيها بوصفها مهدهم التاريخي والقومي.

"ومع اعتراف المندوبين العرب بهذه الأماني، فإنهم يطالبون بألاّ تستند المفاوضات لا

إلى تصريح بلفور ولا إلى الاتفاق المعقود بين الإنجليز والملك حسين. فالاتفاق الذي يجب التوصل إليه بين الطرفين لا يجب أن يتأثر بأيٍّ من هاتين الوثيقتين السياسيتين. فالعرب واليهود يجب لهم التفاوض اليوم تفاوض أمة مع أمة، تتبادلان فيما بينهما تقديم التنازلات وتتبادلان فيما بينهما الاعتراف بما لكل منهما من حقوق"

محضر اجتماع ١٨ مارس/ آذار ١٩٢٢ بالقاهرة[١].

الوفد الفلسطيني[٢]

منذ أواخر شهر مايو/ أيّار ١٩٢١، يعتَبر هربرت صمويل ومستشاروه الوفد الفلسطيني وسيلة للخروج من المأزق. فهم يرون أنه سوف يتسنى له أن يفهم بشكل أفضل مقاصد بريطانيا الحقيقية وأن يتوصل إلى اتفاق مع الصهيونيين. على أن اللقاء الاول بين الوفد ــ ممثّلاً في موسى كاظم والحاج توفيق حمّاد ومعين الماضي وإبراهيم شمّاس ــ والمندوب السامي، في ٢٣ يونيو/ حزيران في القدس، إنما يشبه حوار طرشان[٣]. فهربرت صمويل يذكّر بالمبادئ المنصوص عليها في تصريحه الذي أدلى به في ٣ يونيو/ حزيران. وموسى كاظم يسأله ما إذا كان مصرَّحاً للوفد بالذهاب إلى لندن. والرد إيجابي، لكن أعضاءه لن يكون بالإمكان اعتبارهم ممثّلين للسكان العرب، لأنه لم تجر انتخابات ولن تجري إلاّ ضمن إطار دستوري يستند إلى مضمون تصريح بلفور.

وبعد مقابلة المندوب السامي مرة أخرى، يغادر الوفد القدس في ١٨ يوليو/ تموز متّجهًا إلى مصر[٤]، حيث يستأنف الاتصال بالقوميين السوريين في المنفى، الإخوة لطف الله ورشيد رضا وساطع الحصري وآخرين. وهؤلاء الأخيرون يرسلون بشكل موازٍ وفداً إلى جنيف سعياً إلى عقد مؤتمر سوري هناك[٥]. ويتم الاتفاق على وحدة العمل، بالرغم من أن الفلسطينيين يرتابون إلى حدٍّ ما في المخططات السورية (فهم الآن متمسكون تمسكاً حازماً بهويتهم الفلسطينية العربية). وفي ٢٤ يوليو/ تموز، يهبط الوفد في برنديزي ويصل إلى روما في اليوم التالي. وكانت البطريركية اللاتينية في القدس قد رتبت لهم لقاءً مع البابا وقد تم هذا اللقاء في ٢٨ يوليو/ تموز.

والحال أن البابا، في مجمع للكرادلة عُقد سرًّا، في ١٣ يونيو/ حزيران، كان قد أعرب عن انزعاجه على مصير المسيحيين الفلسطينيين، الذين يجري طردهم تدريجيًّا من مواقعهم من جانب اليهود، الذين أخذوا يتمتعون بمكانة متفوقة. ومستقبل الأماكن المقدسة يزعجه أيضاً. وقد قرر شن حملة لدى مختلف الحكومات كي تتم معالجة هذا الجانب من الأمور عند مناقشة الميثاق في عصبة الأمم[٦]. وحيال الفلسطينيين، يسرِّب الفاتيكان قدراً من التعاطف. وسوف يرد البريطانيون على ذلك بإرسال ستورس إلى روما، وسوف يستقبله البابا في ٢٥ أغسطس/ آب ١٩٢١[٧]. والحال أن هذا الأخير سوف يلفت انتباهه إلى أن السير هربرت صمويل، خلافاً لتعهداته، لا ينتهج سياسة غير متحيزة، بل يمنح اليهود صدارة لا مبرِّر لها. وسوف يبرر ستورس موقف إدارته بتوضيح أن الأمر إنما يتعلق بافتراءات صادرة عن البطريركية اللاتينية. وبعد شهر من ذلك، يستقبل جاسپارّي، سكرتير الدولة، حاكم القدس[٨]. والحال أن وزير الشئون الخارجية للباباوية، إنما يبدي له أيضاً انزعاجه من تهويد للإدارة الفلسطينية. وبالرغم من الطابع الوديّ للمحادثات، فسوف تواصل الباباوية حملتها ضد مشروع المقام القومي اليهودي.

وفي ٣٠ يوليو/ تموز، يصل الوفد الفلسطيني إلى باريس، حيث يلتقي الصحافة، لكنه لا يلتقي مسئولين سياسيين فرنسيين (فهو يخشى من رد الفعل البريطاني). ويجري أيضاً عدة لقاءات مع الكاردينال ديبوا. وفي ٢ أغسطس/ آب، يصل إلى لندن، حيث تستقبله جماعة من الإنجليز المعادين للصهيونية يقودها اللورد سيدنهام. والحال أن الآنسة نيوتن، المبشِّرة التي لا تكلّ والتي تعمل من أجل توفير الخدمات الاجتماعية في فلسطين كما من أجل تحسين أحوال المرأة العربية، إنما ترافق أعضاء الوفد كدليل. وبحسب تعبيرها الظريف، فإنها تشعر، وهي تقود المندوبين العرب في شوارع لندن، وكأنها جحش يقود قافلة من الجمال الأبية[٩]!

والأيام التالية مخصصة للصحافة. وفي ١٠ أغسطس/ آب، يستقبلهم أسقف كانتربري. وهم يوضحون له أن هدف الصهيونية هو إقامة دولة يهودية في فلسطين. وسوف يتخذ الزعيم الروحي للكنيسة الأنجليكانية بدوره موقفاً معادياً

لليهود (لابد أن الأسقفية الأنجليكانية في القدس قد لعبت دوراً في هذا التطور).

وفي اليوم التالي، عُقدَ اجتماعٌ مع مجموعة من اللوردات الذين اتخذوا موقفاً معادياً للصهيونية، إلى جانب اجتماع تمهيدي مع يانج[١٠]. ويطالب الفلسطينيون بمؤسسات تمثيلية وبالإلغاء الفوري لتصريح بلفور. وتنصب المحادثات على التناقض بين حقوق العرب ومضمون هذا التصريح. فيقترح عليهم يانج تنظيم اجتماع مشترك مع المنظمة الصهيونية. فيردون عليه بأنه ليس هناك ما يمكنهم تبادل الآراء فيه إذا كان مراد المنظمة بالفعل هو جعل فلسطين يهودية بمثل ما أن إنجلترا إنجليزية. وعندئذ يوضح لهم ممثل وزارة المستعمرات أن المهم هو كلمة بريطانيا العظمى لا كلام الصهيونيين. والشيء الذي يتعين استخلاصه من المناقشة هو تشديد البريطانيين المتزايد على البند الثاني من تصريح بلفور (الحقوق المدنية والدينية).

والحاصل أن ڤايتسمان، جد المنزعج من تبدل محتمل في الموقف البريطاني، قد آثر عدم انتقاد تصريح ٣ يونيو/ حزيران علانيةً. ومنذ عودته من الولايات المتحدة، قام بحملة إقناع جديدة لدى المسئولين البريطانيين. وفي منتصف يوليو/ تموز، تسنى له الاجتماع ببلفور ولويد چورج وتشرشل وسمتس واللورد روبرت سيسيل إلى جانب شخصيات أقل شأناً[١١]. والتباين قاطع مع نشاطات الوفد العربي. وقد أدرك أن السياسة البريطانية برمتها إنما تتوقف على ما تواجهه الميزانية من ضغوط. وفي رسالة إلى هربرت صمويل، يعبر ڤايتسمان عن شعوره بالمرارة[١٢]: إن المندوب السامي يرضخ دوماً للضغط العربي، وقبول إنشاء مؤسسات تمثيلية، حتى ضمن إطار تصريح بلفور، سوف يكون بمثابة اعتراف بأن بريطانيا العظمى مستعدة للتخلي عن فلسطين. وقد انعقد في ٢٢ يوليو/ تموز اجتماع آخر بين ڤايتسمان وتشرشل ولويد چورج وبلفور[١٣]. ويتخذ الزعيم الصهيوني موقف من يوجه الاتهام. فهو يرى أن تصريح ٣ يونيو/ حزيران إنما يعد تنصلاً من تصريح بلفور كما يرى أن من غير المعقول منح العرب مؤسسات تمثيلية. فيوافقه على ذلك لويد چورج وبلفور، بما يؤدي إلى عزل تشرشل. على أن هذا الأخير إنما ينجح في إحراج ڤايتسمان فيما يتعلق بمسألة الهجرة. فالزعيم الصهيوني لا يمكنه اقتراح حلول

عَملية حول هذا الموضوع المحوري ومن ثم يتشبث بصيغ عديمة الوضوح.

والحق أن يانج وتشرشل نصيران بالفعل لإقامة دولة يهودية في فلسطين. وهما يتفهمان حجج ڤايتسمان[١٤]. وفي ١١ أغسطس/ آب يدعوان، في مذكرة، إلى استبعاد الموظفين الفلسطينيين الكبار المعادين للصهيونية وإلى انتهاج سياسة حازمة حيال العرب. لكن سكرتير الدولة لا يمكنه ولا يريد تعزيز الحامية البريطانية في فلسطين...

وفي ١٢ أغسطس/ آب، يستقبل تشرشل الوفد الفلسطيني[١٥]، ويجري الاتفاق على سرّية المحادثات. ويشدّد سكرتير الدولة في التوّ والحال على استحالة تعديل تصريح بلفور. ويؤكد أن من غير المعقول إقامة مؤسسات تمثيلية من شأنها أن تملك سلطة إلغائه. فيشار إلى مراسلات حسين ـ ماكماهون. ويرى يانج أنها ليست معاهدة، بل مجرد رسائل عادية. أمَّا فيما يتعلق بتصريح بلفور، فهو يرى أن ترجمته إلى العربية ليست دقيقة. فالأمر لا يتعلق بإقامة دولة يهودية في فلسطين. والحال أن سكرتير الوفد الفلسطيني، إبراهيم شمَّاس، وهو مسيحي يعد الوحيد الذي يتكلم الإنجليزية بسهولة (تساعده الآنسة نيوتن، التي جاءت برفقة كاتبة اختزال مهمتها تسجيل مجمل المحادثات للجانب العربي)[١٦]، هو الذي يقود المحادثات ويثبت ما يتمتع به من نظر ثاقب: هل للهجرة اليهودية معنى سياسي أم لا؟ ويدعوهم تشرشل إلى مقابلة ڤايتسمان. بيد أن الوفد لا يريد محاورة أحد سوى الحكومة البريطانية.

وفي ١٨ أغسطس/ آب، تناقش الحكومة الوضع في فلسطين[١٧]. فالأنباء الأخيرة ليست طيبة. واليهود والعرب يتسلحون. وسوف يحدث انفجار جديد للعنف لو عاد الوفد الفلسطيني دون نتائج ملموسة. وهناك خطان ممكنانَ للعمل: إمّا التخلي عن الانتداب وتشكيل حكومة قومية عربية أو تسليح اليهود تسليحاً جماعيًّا بحيث يتسنى اختزال الوجود العسكري البريطاني. ويشدّد وزراء عديدون على ضرورة احترام الكلمة التي أعطيت لليهود. ويتقرر عدم اتخاذ قرار في اللحظة الحاضرة.

وفي ٢٢ أغسطس/ آب، يتحول لقاء جديد بين تشرشل والوفد الفلسطيني إلى حوار طرشان[١٨]. فتشرشل يريد أن يوضح للوفد أن تصريح بلفور أمر

واقع وأن اليهود لا يشكلون تهديداً بالنسبة للعرب (في أعماقه هو نفسه، لا يؤمن بما يقوله). والعرب يتوقفون عند مصدر جميع المشاكل، تصريح بلفور، ولا يتزحزحون عن مواقفهم. ويتجلى التناقض البريطاني المعتاد: إن الوفد ليس ممثِّلاً للسكان العرب، بيد أن عليه دفع الفلسطينيين إلى قبول السياسة البريطانية. أمّا فيما يتعلق بـالحقوق السياسية، في رأي تشرشل، فلا حق فيها لا لليهود ولا للعرب لأن البريطانيين موجودون في فلسطين بحق الفتح. ويركز الوفد حجاجه على المضمون المتناقض للتأكيد المزدوج لحقوق للعرب وحقوق لليهود. فهذا غير قابل للتوفيق بين طرفيه. فترجع الإحالة إلى المادة ٢٢. وينجح شمّاس في أن يوضح لتشرشل أن تصريح بلفور يحظر منح عرب فلسطين الحقوق الممنوحة لعرب سوريا وبلاد الرافدين، ومن ثم فإنه يلحق ضرراً بهم... فيغضب تشرشل وينهال عليهم بخطبة تحذيرية طويلة ويطلب منهم التوصل إلى اتفاق مع يانج على مضمون مؤسسات تمثيلية تتماشى مع تصريح بلفور. وينهي كلامه باتخاذ موقف من شأنه أن يذهل اليوم القائلين بتراث يهودي ـ مسيحي مشترك: لقد عاش اليهود والعرب دوماً معاً محتفظين بعلاقات طيبة فيما بينهم، "لا يمكنكم الادعاء بأنكم أقرب إلى المسيحيين مما إلى اليهود. هذا لا يمكن أن يكون. إن الهوة التي تفصلنا عنكم أعظم من الهوة التي تفصلكم عن اليهود. إنني أتحدث عن الجنس السامي [المشترك بينكم وبينهم](١٩).

وفي ٢٣ أغسطس/ آب، يعقد الوفد اجتماعاً بحضور يانج(٢٠). وتجري مناقشة دستور فلسطين القادم. ويوضح البريطانيون أن البلد إنما يُعامل معاملة مستعمرات التاج (لا معاملة الدومينيونات) و، من ثم، فإن السلطة التنفيذية هي من اختصاص المندوب السامي الذي يمثل وزارة المستعمرات والذي يملك حق الاعتراض على مشروعات القوانين. وفي هذا الإطار، يمكن تكوين جمعية تشريعية أو استشارية، منتخبة أو معيَّنة على أساس التمثيل الطائفي. ويطلب المندوبون العرب وقتاً للتفكير.

وفي الأول من سبتمبر/ أيلول(٢١)، يردون بأن المقترحات البريطانية، في جميع صورها، لا تعهد بالسلطة التنفيذية إلى الشعب وبأن السلطة التشريعية لا هي تمثيلية ولا هي قادرة على إصدار قوانين. وهم يعبرون عن أملهم في أن

يعيد البريطانيون النظر في مواقفهم بشكل يتيح حماية مصالح وحقوق الفلسطينيين.

الخطوات الأولى نحو الحكم الحر

في تلك الأثناء، يحاول هربرت صمويل غرس بداية للحكم الحر. فيعقد اجتماعاً للمجلس الاستشاري في ١٩ يوليو/ تموز ١٩٢١ لمعالجة مسائل ذات طبيعة سياسية[٢٢]. وفي المقام الأول، يتعلق الأمر بقانون حول البلديات. وما دام الانتداب لم يتم التصديق عليه من الناحية القانونية، فإن الناخبين لا يمكن أن يكونوا غير الناخبين في العصر العثماني (والجنسية الفلسطينية لا وجود لها بعدُ). ومن الواضح أن الممثلين اليهود يحتجون على ذلك. والعرب مستعدون للتساهل فيقبلون منح الحق الانتخابي لدافعي الضرائب (أولئك الذين يدفعون ضرائب بلدية، وهو ما يفعله غير العثمانيين منذ إلغاء الامتيازات)، لكن اليهود يريدون منح الحق الانتخابي لذوي المواهب (التعليم) الذين لا يدفعون ضرائب (من كان فرنسيو عهد عودة الملكية [١٨١٥ــ١٨٣٠] يسمونهم بــ"الكفاءات"). ويلخص المندوب السامي مواقف الطرفين ويرى أن القانون الخاص بالجنسية الفلسطينية يجب أن يصدر قبل صدور القانون الخاص بالبلديات، وأنه مشروط بالتصديق على ميثاق الانتداب، والذي لا يجب له أن يتأخر. وفيما يتعلق بالمبلغ الضريبي الذي يتيح ممارسة الحق الانتخابي، فيجري تخفيضه بشكل ملحوظ (٢٥ قرشاً في السنة للناخب والضعف للمرشح). والمسألة الأكثر حساسية والخاصة بالتمثيل الطائفي إنما تقرر مستقبل الكيان الفلسطيني. وهربرت صمويل معاد لتكوين هيئات انتخابية طائفية (مسلمة، مسيحية، يهودية) على غرار ما هو حادث في قبرص، ويميل إلى انتخاب بالقائمة. ولا أحد يهدد هذه الخطوة نحو تطبيق نظام طائفية سياسية، يعد إرثاً عثمانيًا بسبيله إلى اكتساب دينامية متزايدة في مجمل الشرق الأدنى في ظل الانتداب.

وبقدر ما أن الطائفة اليهودية تتمتع بنظام تمثيلي، فإن المندوب السامي إنما يسعى إلى تعميمه فيعقد، في ٢٥ أغسطس/ آب، جمعية استشارية إسلامية ــ مسيحية مكوَّنة من ست وأربعين شخصية. وهذه المرة، لا يوجد تمييز بين

مسيحيين ومسلمين. والمبادرة محدودة الأهمية بسبب احتجاجات الوفد الفلسطيني في أوروبا[٢٣]: إذ لا يمكن أن توجد هيئتان للنقاش حول المستقبل الدستوري لفلسطين. ويوضح المندوب السامي أن هدفه هو أن يتيح للمسيحيين والمسلمين إمكانيات تمثيل مشابهة للإمكانيات التي يتمتع بها اليهود بالفعل. والاستجابة جد فاترة: فالمسئولون، المسيحيون والمسلمون في رأي المندوب السامي، بينما هم، في رأيهم هم، ممثلون للشعب الفلسطيني، إنما يتركون الأمر لمناقشات لندن. والمحادثات تصبح ودية أكثر عندما يتعلق الأمر بمسائل غير سياسية.

وأهم مبادرة يتخذها هربرت صمويل في تلك الفترة إنما تتعلق بإدارة الشئون السياسية[٢٤]. وكان كامل الحسيني، إلى وفاته، متعاوناً مع البريطانيين يتمتع بتقديرهم، وقد تكفل الحاج أمين الحسيني بحفظ النظام. وفي مناخ فلسطين المضطرب سياسيًّا، كان المندوب السامي مدركاً لواقع أن إدارة المؤسسات والممتلكات الإسلامية، التي آلت إليهم بحق الفتح، كانت صعبة بحد ذاتها، وأن واقع أنه هو نفسه يهودي، وكذلك بنتفيتش، رئيس إدارة العدل التابع له، إنما يشكل استفزازاً حقيقيًّا. وسعياً منه إلى السير في اتجاه التوفيق، اجتمع برجال دينٍ وأعيانٍ مسلمين في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٠. وقد قرر هذا الاجتماع أن الحكومةَ البريطانية سوف تحتفظ بالإشراف المالي على الأوقاف، بيد أن هيئة إسلامية هي التي ستتولى تعيين قضاة لمحاكم الأحوال الشخصية.

ولأجل هذا الهدف، جرى تشكيل لجنة للشئون الدينية الإسلامية من سبعة موظفين بريطانيين وتسعة مسلمين. وقد فرض مشروع الهيئة الإسلامية إشرافاً صارماً على التعيينات، وهو الأمر الذي سوف يستثير احتجاجات. وفي ٢٤ أغسطس/ آب، يجتمع هربرت صمويل مرة أخرى بالأعيان المسلمين، الذين اختارهم الناخبون العثمانيون في الدرجة الثانية، ويبدو منفتحاً في اقتراحاته: فالمقصود هو تكوين هيئة مهمتها تمثيل الطائفة الإسلامية في فلسطين بحيث يتسنى لها إدارة ممتلكاتها ومحاكمها. وخلافاً للأتراك، ليس البريطانيون مسلمين ولا يمكنهم التدخل في هذه المسائل.

وعلى الفور، نجد أن الحاج أمين الحسيني، الذي لقَّب نفسه بالمفتي الأكبر[٢٥]، إنما يطرح نفسه بوصفه المتحدث بلسان المسلمين ويوجه الشكر إلى

المندوب السامي. وفي اليوم التالي، يتم الفوز بالموافقة على مبدأ تكوين لجنة من سبعة عشر شخصاً مهمتهم إعداد نص نهائي، ولن تحتفظ الإدارة إلاّ بسلطة مراجعة الحسابات وتأييد أو رفض التعيينات والاستقالات.

والحال أن انتقال السلطة الذي بدأ بهذا الشكل إنما يعد ملحوظاً. فضمن المنطق المميِّز لنظام الانتداب، والمكلَّف من الناحية النظرية بالسهر على تأسيس دولة حديثة، سوف يعزز المستعمرون النظام الطائفي باعتبارهم السكان المسلمين المحرومين من سلطان ــ خليفة طائفة إسلامية وفق نموذج الملل المسيحية واليهودية. وبشكل لا مفر منه، سوف يصبح المفتي الأكبر نظيراً لبطريرك أو لوالٍ مسيحي. وحتى مع أن الفرنسيين يتصرفون بالشكل نفسه في سوريا ــ لبنان، فإن بالإمكان افتراض أن النموذج الذي استلهمه هربرت صموئيل لابد بالأحرى أن يكون نموذج قبرص التي كانت تحت الإدارة البريطانية منذ عام ١٨٧٨ وأصبحت مستعمرة من مستعمرات التاج منذ عام ١٩١٤. والمنطق المتبع هنا ليس منطق "فَرِّق تَسُد" بل هو منطق ينبثق بالأحرى من المواجهة مع واقع مجتمع الشرق الأدنى واستحالة تكوين دولة حديثة في وضع إعمار سكاني ثنائي. وبالنسبة للمندوب السامي، الواثق باحتمال نشوب انتفاضة دموية في أي لحظة، فإن المقصود هو تهدئة الخواطر بتهدئة انزعاجات المسلمين وبإبداء أن الحكومة البريطانية تشجع التطور نحو "الحكم الحر" عن طريق مؤسسات تمثيلية. وعندئذ فإن استمرار المأزق الدستوري والسياسي سوف يجعل سيرورة "التبلور الطائفي" سيرورة حتمية.

مؤتمر كارلسباد

يُكِنُّ ڤايتسمان احتقاراً عميقاً للوفد العربي، فهو يقول بصورة منتظمة أنه يتألف من "أناس من الدرجة الخامسة". وهو جد منزعج بحيث إنه يهدد بالتنحي، أي بالتخلي عن دوره كداعيةٍ إلى الاعتدال في صفوف الحركة الصهيونية، بل في صفوف يهود العالم. وشاغله الأكثر إلحاحاً هو المؤتمر القادم للمنظمة الصهيونية، والتي سوف تقوم بإعادة توحيد صفوفها وبإعادة تأسيس نفسها بعد محن الحرب العالمية [الأولى].

ومؤتمر كارلسباد، في تشيكوسلوفاكيا حديثة التكوين، إنما ينعقد من الأول إلى الرابع عشر من سبتمبر/ أيلول ١٩٢١[٢٦]. وهو يكرِّسُ زعامة ڤايتسمان. ويحضر المؤتمر أكثر من ٤٠٠ مندوب. ويلقي ڤايتسمان الخطبة الافتتاحية، حيث يعرض النتائج الكبرى التي تم التوصل إليها مع تذكيره بأن تصريح بلفور ليس غير بداية. فكل شيء إنما يتوقف على العمل الذي ما يزال من الواجب القيام به. وبما يدلُّ على ذكائه، لا يذكر الدولة اليهودية ولا يتحدث إلاّ عن المقام القومي. ويحل سوكولوف محل نوردو في مهمة تقديم تقرير عن حالة العالم اليهودي. فيتحدث عن المذابح "التي أدت، في أوكرانيا، إلى اجتثاث وتواصلِ اجتثاث آلاف الحيوات، تحت أعين أوروبا وعصبة الأمم التي لا يرفُّ لها جفن".

وما أن تبدأ المناقشة العامة حتى ينشب جدل عنيف يهاجم فيه أنصار برانديز قيادة الحركة. كما أن التباسات تصريح بلفور ومراوغات هربرت صمويل بواعث للانزعاج. ويؤدي تصويت إلى الموافقة بأغلبية ساحقة على سياسة ڤايتسمان وسوكولوف، بينما يؤدي إلى التبرؤ من نقادهما.

ويأخذ ڤايتسمان الكلمة من جديد ويعرض روايته لمنشأ تصريح بلفور[٢٧]. فهو راجع إلى توافق بين المصالح اليهودية ومصالح بريطانيا العظمى. وهذا التوافق لا يرجع إلى الإمبريالية البريطانية، لأن الإنجليز يعرفون جيِّداً أن فلسطين ليست لها قيمة استراتيجية عظيمة وأنهم ليسوا بحاجة إلى اليهود للدفاع عن قناة السويس. فالتوافق الحقيقي ينبع من إدراك البريطانيين لضرورة الفوز بحسن نوايا الشعب اليهودي. فقد أدركوا قبل الآخرين ــ وبشكل أفضل منهم ــ أن المسألة اليهودية، التي يضغط ظلها على العالم، يمكن أن تصبح قوة بناءة جبَّارة أو أداة هدم قوية[٢٨].

وهو يهاجم أنصار برانديز ويذكِّرُ بالضرورة المطلقة لجمع أموال كافية لتأمين تنفيذ البرنامج الواسع الخاص بتحويل فلسطين. وهو يتذرعٍ بذرائع الرواد. وإذا ما وصل إلى الحديث عن المسألة العربية، فما ذلك إلاّ لكي لا يتحدث إلاَ عن فيصل والبلدان العربية خارج فلسطين.

ثم يتولى الدفاع عن هربرت صمويل:

لنتحدث الآن عن هربرت صمويل. لقد عمل معنا، منذ البداية، من صميم فـؤاده. فبناءً على طلبنا، ومدعوماً بسلطتنا الأدبية، قبل منصباً جسيم المسئوليات. وإلى يومنا هذا يتهمه المندوبون العرب بأنه أحد زعماء الصهيونية. ومن ثم فهو في وضع تلقي الضربات من الجانبين. وقد ارتكب أخطاء جسيمة وأنا مستعد لاطلاعكم على الرسائل المتبادلـة بيننا. وسوف تجدون في هذه الرسائل أننا قد استخدمنا معه لغة قاسية، لكنه ابن اليهودية. ولا تنسوا أن إسرائيل وفلسطين ليستا متطابقتين و، منذ زمن طويل، لن تكونا متطابقتين. إن صمويل هو المندوب السامي لفلسطين، أمَّا نحن، فنحن المندوبون الـسامون لإيريتـز إسرائيل. وسوف يجيء وقت قد تضطر فيه المندوبيتان الساميتان إلى العمل إحداهما ضـد الأخرى. لكننا نحن الذين أوصلنا صمويل إلى هذا المنصب، وقد أضعفنا، بشكل جزئي، نشاطه، بعدم تعاوننا معه. فلا تمدو أيديكم عليه، فأنتم لا تعرفون مـا قـد يكـون في انتظاركم بعده. وسوف يكون من الضروري أن يقوم الأكثر حكمة والأنشطُ بيننا بزيارة صمويل بعد هذا المؤتمر، وبإطلاعه على مطالبنا وبعرض سبل تحقيقها عليه.

وهو يبدو، كالعادة، جد متفائل فيما يتعلق بتهويد فلسطين:

سأقول بضع كلمات أخرى عن مسألة فلسطين. فوفقاً لرأي خبرائنا، هناك إمكانية لتوطين ٣٠٠٠٠٠ شخص هناك؛ والأقل تفاؤلاً يقولون ١٠٠٠٠٠. وإذا مـا وطنـتم ١٠٠٠٠٠ شخص في هذه الأرض، فإن عصب فلسطين، الأردن والساحل، ومن ثم كل فلسطين، ستكون يهودية. وهذا مربط الفرس. وسواء كلَّفنا ذلك ٣ ملايين أو ٨ ملايين، فلابد من تحقيق ذلك في غضون السنوات الثلاث أو الخمس القادمة، وهو شيء بمقـدور الشعب اليهودي العظيم.

والجلسات التالية مكرَّسة لمسائل عملية: نمط الاستيطان، سياسة الهجرة، تمويل التعليم. ويجري اتخاذ قرارات أساسية بالنسبة للمستقبل: فأنصار اليِّدية، الذين يطالبون بمساواة لغتهم بالعبرية، إنما تلحق بهم الهزيمة. والشيء نفسه يحدث مع متديني مزراحي الذين يريدون عدم منح أي إعانة لمؤسسات لا تلتزم التزاماً صارماً بالشريعة الدينية. وهم يهددون بإحداث انقسام ويتم التوصل إلى صيغة توفيقية، تشترط عدم اقتراف المؤسسات لأي عمل يتعارض مع الشريعة.

ويتحدث اليسار عن الإكليريكية اليهودية.

وتتم الموافقة على ميزانية للعام القادم تتميز بالطموح الزائد عن الحد:

١. أموال قومية: شراء أراض وتحسينات عقارية.	٣٠٠٠٠٠ جنيه
٢. نفقات قابلة للاسترداد: قروض ائتمانية لبناء عمارات صغيرة في المدن؛ قروض ائتمانية تجارية وصناعية؛ قروض ائتمانية زراعية.	٥٥٠٠٠٠ جنيه
٣. الميزانية العادية لفلسطين:	
أ) العمل المدرسي، بناء وصيانة منشآت التعليم	١٢٨٠٠٠ جنيه
ب) أعمال الرعاية الصحية	١٠٠٠٠٠ جنيه
ج) أموال لمساعدة المهاجرين المستقرين في البلد	٥٠٠٠٠ جنيه
د) نفقات بمناسبة وصول المهاجرين الجدد	٩٠٠٠٠ جنيه
هـ) الاستيطان الزراعي	٢٢٥٠٠٠ جنيه
و) مراكز البحوث	١٠٠٠٠ جنيه
ز) نفقات متنوعة وإدارية	٣٥٠٠٠ جنيه
الإجمالي:	٦٥٦٠٠٠ جنيه

"وقد تقرر، علاوة على ذلك، أنه، خلال السنة المالية القادمة، سوف يتم تخصيص نسبة ٧٠% من أرصدة الكيرين هاييسود للعمل المبذول في استعادة فلسطين".

وتتم الموافقة على مقترحات هدفها خدمة الدعاية: توجيه الشكر على تصريح بلفور وقرارات سان ريمو والتصديق السريع على ميثاق الانتداب.

كما يبدي المؤتمر ارتياحه إلى دمج شرق الأردن في فلسطين، فالشعب اليهودي قد اعتبره دوماً جزءاً من إيريتز إسرائيل. وهو يرصد بأسف أن مسألة الحدود الشمالية لم تتم تسويتها بعد على نحو مرض، ويعبر عن أمله في أن لا تمانع فرنسا في عدم السير ضد مصالح الشعب اليهودي.

ويرى المؤتمر أن من الواجب المقدس الاحتجاج بمهابة على أعمال العنف وأعمال القتل التي اقترفها الرعاع العرب منفلتو الأعصاب ضد سكان يافا اليهود وضد

المستوطنات في يهودا والسامرة في شهر مايو/ أيّار الماضي. وهو يعرب عن أسفه إذ يعاين أنه، إلى يومنا هذا، لم تلق هذه الجرائم العقاب العادل عن اقترافها. كما يحتج بالشكل الأكثر حزماً على إغلاق أبواب فلسطين في وجوه المهاجرين والذي جرى فرضه على أثر تجاوزات شهر مايو/ أيار و لم يتم التخلي عنه إلاّ بقدر هزيل. إن الهجرة الحرة إلى فلسطين حق مطلق للشعب اليهودي ولا يجب، بأي ذريعة، حرمانه منه. وأي ترتيب داخلي يتعلق بالهجرة وفقاً لطاقة البلد الاستيعابية إنما هو من اختصاص المنظمة الصهيونية.

وقد واجه الشعبُ اليهودي أحداث هذه الفترة الأخيرة في فلسطين بشعور من الحزن كما من السخط. والموقف المعادي الذي اتخذه السكان العرب، الذين حرضتهم عناصر عديمة الضمير، لن يتمكن من زعزعة عزم الشعب اليهودي الراسخ على إقامة مقام قومي ولا من زعزعة رغبته في التوصل إلى علاقات حسن التفاهم والاحترام المتبادل مع الشعب العربي والتعاون معه في تحقيق رخاء المقام المشترك والذي ستكفل نهضته لكل من الشعبين اللذين يسكنانه تطوراً قوميًّا طبيعيًّا. إن الشعبين الساميين العظيمين اللذين وحدهما في الماضي أواصر الثقافة سوف يتمكنان، في لحظة نهضتهما القومية، من العمل متعاونين لما فيه صالح رخائهما المشترك. وسوف يتوجب على اللجنة التنفيذية تكريس جهودها لتحقيق الوفاق مع الشعب العربي في هذه الروح ودون التضحية بتصريح بلفور بأي شكل من الأشكال. فمن المنصوص عليه بشكل واضح أن عمل الاستيطان اليهودي لا يجب أن يلحق ضرراً بحقوق واحتياجات الشغيلة العرب.

وليس في هذا الكلام ما يرضي عرب فلسطين، الذين يعرّفون أنفسهم الآن على أنهم الشعب الفلسطيني في حين أنهم تجري إحالتهم إلى أمة عربية عظمى لا يمثلون غير واحد من مكوناتها.

وعلى المستوى المؤسسي، يقسّمُ المؤتمر اللجنة التنفيذية الصهيونية إلى لجنتين: لجنة تنفيذية فلسطينية مقرها القدس ولجنة تنفيذية لندنية لها السلطة العليا. ويُعْهَدُ بقيادة اللجنة الثانية إلى ڤايتسمان يساعده سوكولوف وچابوتينسكي وموتزكين وكوڤِنْ وسولوڤيتشيك. وقد صرّحت مناقشات سرِّية بإنشاء قوة دفاع مسلحة سرِّية، الهاجاناه.

مؤتمر جنيف[٢٩]

بينما كان الصهيونيون مجتمعين في كارلسباد، كان العرب مجتمعين في جنيف. ولم يكن سوريو مصر قد حذوا حذو التجذر الإيديولوچي لدعاة الجامعة العربية المنتمين إلى الجمعية العربية الفتاة، فيما عدا رشيد رضا، والذي يشكل استثناءً شهيراً. ومع دعمهم لفيصل، فقد كانوا حريصين على عدم القطيعة مع البريطانيين. وبعد أفول الناشطين على أثر سقوط المملكة العربية، فإنهم هم الذين يستأنفون حمل المشعل السياسي و، بدفع من آل لطف الله، يؤسسون حزب الاتحاد السوري، خَلَفَ حزب اللامركزية السابق. والتوجه العام قومي سوري بأكثر من كونه عروبيًا لأن برنامجهم إنما يطالب بوحدة واستقلال البلاد السورية، لبنان وسوريا وفلسطين، بينما يجري تعريف العروبة على أنها عروبة لغة وثقافة سوريا.

وبفضل اتصالات اتخذت خلال زيارة تشرشل، وافق الإسلاميون ــ المسيحيون على المشاركة في مؤتمر جنيف، المنعقد من ٢٥ أغسطس/ آب إلى ٢١ سبتمبر/ أيلول ١٩٢١، والذي يهدف إلى إطلاق مبادرة سياسية جديدة. وقد ذهب فريق من الوفد الفلسطيني في لندن إلى جنيف ورفض بقوةٍ تذويب فلسطين في سوريا، ومن هنا الاسم الذي اتخذه التنظيم الجديد للمؤتمر السوري ــ الفلسطيني (في النصوص الفرنسية الأولى: syrio-palestinien). ورئيسه هو ميشيل لطف الله ونائب الرئيس هو رشيد رضا، بما يمثل توازناً هشاً بين الأول، وهو نصير حازم للهاشميين، والثاني، الذي يعد خصماً سافراً لهم. ويحضر الوفد الفلسطيني اجتماع الجمعية العامة لعصبة الأمم.

ويرجع اختيار جنيف إلى وجود هذه الأخيرة فيها. ويهدف المؤتمر السوري ــ الفلسطيني إلى الاضطلاع بنشاط دعائي مستديم لدى المنظمة الدولية، خاصة عند مناقشة مضمون مواثيق الانتدابات.

وقد جرى التعبير عن الأهداف السياسية تعبيراً واضحاً في نداءٍ موجَّهٍ إلى الجمعية العامة الثانية لعصبة الأمم[٣٠]*:

بناءً عليه، أيها السيد الرئيس والسادة، يطلب إليكم المؤتمر السوري ــ الفلسطيني،

* ترجمة عن الفرنسية. ــ م.

١. الاعتراف باستقلال وسيادة سوريا ولبنان وفلسطين.

٢. حق هذه البلدان في الوحدة فيما بينها بحكومة مدنية ونيابية، وفي الاتحاد اتحاداً فيدراليًّا مع الدول العربية الأخرى.

٣. إعلان وقف الانتداب فوراً.

٤. الجلاء عن سوريا ولبنان وفلسطين من جانب القوات الفرنسية ــ البريطانية التي تحتلها.

٥. إلغاء تصريح بلفور، الخاص بمقام قومي يهودي في فلسطين.

ويخاطب وفد فلسطين العربي، من جهته، رئيس عصبة الأمم مؤكداً عدم مشروعية الانتداب البريطاني، الذي يتعارض مع الرغبة التي أعربت عنها نسبة ٩٣% من السكان. والمرجع الرئيسي هو المادة ٢٢ التي اعترفت لبعض المجتمعات، المنتمية سابقاً للدولة العثمانية، بدرجة من التطور تجيز الاعتراف بوجودها كأمم مستقلة*:

إن فلسطين لتحوز جميع المؤهلات التي تسمح باعتبارها من بين هذه المجتمعات. فتطورها ليس أدنى من تطور سوريا وبلاد الرافدين: إن ٤٥% من سكانها يجيدون القراءة والكتابة، كما أن مئات من الشبان قد حصلوا في كليات تركية وفي جامعات غربية على دبلوماتهم كمعماريين ومهندسين وأطباء ومحامين وأساتذة مدرسين. ثم إن كثيرين منهم إنما يشغلون وظائف إدارية مهمة في أميركا ومصر والسودان، حيث شكلوا عاملاً بارزاً من عوامل التطور.

والمطلب المباشر هو تكوين حكومة وطنية:

إن شروط الانتداب على فلسطين والمعروضة الآن على نظر جمعيتكم العامة الموقرة إنما تحرمنا من حق تقرير مصيرنا بأنفسنا؛ والأنكى من ذلك أنها تجرِّدنا من أبسط الحقوق السياسية التي تمتعنا بها على مدار قرون والتي يجري منحها لشعوب يعد تطورها الاجتماعي أدنى من تطورنا. ثم إنها تتعارض في مفهومها نفسه مع الغايات النبيلة التي خاض الحلفاء الحرب في سبيلها. وفي الفقرة الثالثة من مقدمة شروط الانتداب والتي

* ترجمة عن الفرنسية. ــ م.

نوقشت فيها مسألة مقام قومي لليهود، يجري الحديث عن حماية حقوقنا المدنية والدينية، بينما يتم السكوت تماماً عن حقوقنا السياسية في حين أن المادة ٢ من هذه الوثيقة نفسها يشار فيها بشكل واضح إلى حقوق سياسية لليهود في فلسطين. وهذا يقودنا إلى استنتاج أن كلمات "تطوير ممارسة الحكم الذاتي" والواردة في الوثيقة لا يراد تطبيقها إلاّ لليهود.

وبما أن استقلال بلدنا قد تم الاعتراف به، فمما لا معنى له، مع وضع شروط الانتداب المتعلقة به، إعلان أنه سيتم تشجيع وتطوير ممارسة الحكم الذاتي؛ ولهذا السبب نفسه، فإن الإشراف على السلطة التنفيذية لا يجب أن يؤول إلى المنتَدَب لأن مهمة هذا الأخير إنما تنحصر في تقديم نصائح ومساندة؛ كما أنه ليس من الإنصاف، لهذا السبب عينه، منح المنتَدَب سلطة وضع قوانين تتعلق بالجنسية، كما تنص على ذلك المادة ٧، لأن هذه السلطة التشريعية إنما تندرج ضمن صلاحيات الحكومة الوطنية، التي ينشئها السكان. ولهذا السبب عينه أيضاً، فلا يجب أن يكون هناك أي جيش على الأرض، كما نصت على ذلك المادة ١٧ والفقرتان الأخيرتان من المادة ١٨، إن لم يكن الجيش الذي تنشئه الحكومة الوطنية. وأخيراً، لا نفهم كيف يمكن أن تكون فلسطين دولة مستقلة في حين أن المنتَدَب، بحسب المادة ١١ من شروط الانتداب، يحوز الملكية الكاملة والسيطرة الكاملة على الموارد الطبيعية للبلد وعلى جميع الأشغال والخدمات العمومية. إننا هنا بإزاء تناقض صارح مع الفقرة ٤ من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم. فالحكومة الوطنية هي التي يجب أن تسيطر على هذه الموارد والخدمات العمومية.

أمّا المساهمة الأهم لمؤتمر جنيف فهي تكوين ممثلية دائمة في جنيف سوف يُعْهَدُ بها إلى شكيب أرسلان وإحسان الجابري، وهما مقربان من رشيد رضا. والحال أن نشاطهما الدعائي الذي لا يكل سوف تكون له نتائج ملحوظة، خاصة في المغرب. بيد أن الضعف الخِلْقي للحركة سوف يتمثل في انقسامها بين أنصار وخصوم للهاشميين. وهذا الاتجاه الأخير، الذي يقوده رشيد رضا، سوف يجتذب إليه كثيرين من جذريي الجمعية العربية الفتاة القدماء. وهكذا، ففي فلسطين، سوف ينحاز الحاج أمين، الذي كان رضا أستاذه في القاهرة، إلى صف الفريق المعادي للهاشميين، ومن هنا انتقال آل النشاشيبي شبه التلقائي إلى صف الفريق الآخر.

مداولات بريطانية جديدة

يطلب الوفد الفلسطيني من الأعضاء العرب في المجلس الاستشاري الامتناع عن حضور جلساته، وذلك في سعي من الوفد إلى إثبات صفته التمثيلية وإلى إبداء نفاد صبره. والبعض يستجيبون لهذا الطلب على مضض[٣١]. وفي ذلك الوقت، تهتم الإدارة الفلسطينية اهتماماً خاصاً بشرق الأردن. فقد شكَّل عبد الله حكومة في عمَّان ــ وهي مدينة يقل عدد سكانها عن ٥٠٠٠ نسمة ــ تتألف من سوريين وفلسطينيين، كانوا في السابق أعضاء في الجمعية العربية الفتاة. وهي تتصرف كحكومة عربية حقيقية في المنفى[٣٢]. ويبقى أمير شرق الأردن، بدهاء، في الخلف، مراعاةً منه لجانب الغربيين مع إرضائه للقوميين العرب[٣٣]. وبشكلٍ لا مفر منه، تتكاثر الحوادث بين الضباط السياسيين البريطانيين والقوميين. ويسعى طاقم السير هربرت صمويل إلى اللعب على العداوة بين أهل شرق الأردن المتحلين بجميع الفضائل والمنفيين السوريين. وعلاوة على ذلك، ففي ٢٣ يونيو/ حزيران ينجو الجنرال جورو من محاولة اغتيال يلقى مصرعه فيها أحد ضباطه. ويتهم الفرنسيون سوريي شرق الأردن بأنهم المحرضون على المحاولة[٣٤]، ويكثرون من الاحتجاجات لدى لندن.

ويسعى البريطانيون المؤيدون للصهيونية إلى انتهاز الموقف لخلع عبد الله وإحلال حاكم عربي محله يكون تحت سيطرة ضابط سياسي. وهكذا تجري العودة إلى المشروع الأول لهربرت صمويل[٣٥]. ويرجع لورانس من الحجاز ــ حيث سعى بلا طائل إلى الحصول على موافقة الملك حسين على معاهدة تعترف بمشروعية الترتيبات البريطانية ــ لكي يدرس الوضع في الساحة. وهو يصل في أكتوبر/ تشرين الأول يلازمه تحيز غير إيجابي حيال عبد الله. لكنه سرعان ما يغير رأيه[٣٦]، لاسيما أن الأمير مستعد لتوقيع المعاهدة التي رفضها والده. وهكذا ينقذ عرشه ويفلت من وصاية القوميين. وفي مستهل ديسمبر/ كانون الأول، يغادر لورانس شرق الأردن ــ والمسرح السياسي. وقد نقل سلطاته إلى الضابط السياسي الجديد في عَمَّان، فيلبي، الذي نجا من مغامراته العراقية. وإذا كان المغامر الأول يكف عن كل فعل سياسي اختياراً منه لـ"محو للذات" سوف يجعل منه إحدى أعظم الأساطير الأدبية في القرن العشرين، فإن

الثاني، على العكس من ذلك، إنما يدخل مسرح مسألة فلسطين، الذي سيعاود الظهور فيه دوريًّا على مدار عدة عقود[٣٧].

وفي مستهل أكتوبر/ تشرين الأول، وخلافاً لما حدث مع تقرير پالين، يجري نشر تقرير هايكرافت حول قلاقل شهر مايو/ أيَّار[٣٨]. وبحسب القاعدة الثابتة لتقارير لجان تقصي الحقائق في فلسطين، فإن التقرير لا يقتصر على تحليل الأسباب المباشرة للقلاقل ، بل يعاود النظر في المسألة منذ منشأها الأصلي. وهو يرفض الأطروحة الصهيونية التي تتحدث عن مؤامرة حاكها الفرنسيون والأفندية. فمن الواضح أن السبب الرئيسي هو عداوة السكان الشاملة للمشروع الصهيوني، الذي ولَّدَ مشاعر معادية للبريطانيين. ولم يكن هناك تدبير متعمد، بل كان هناك انفجار للعنف ساعدت الشائعات على مده إلى جزء من البلد. وقد قامت السلطات البريطانية بواجبها في ظروف صعبة صعوبة خاصة. وقوات الشرطة غير كافية، والسكان العرب لا يثقون بالبريطانيين ما أن يتعلق الأمر باليهود. ويتحمل الصهيونيون جانباً من المسئولية لعدم احترامهم لعادات السكان العرب ولإصرارهم على طرد اليد العاملة العربية من القطاع الاقتصادي اليهودي. والعرب على علم تام بالتصريحات الصهيونية الصادرة في أوروبا، خاصة التصريحات التي تدور حول تيمة "جعل فلسطين يهودية بمثل ما أن إنجلترا إنجليزية". والدكتور إيدر، رئيس اللجنة الصهيونية، وهو رجل معتدل، لم يتردد في أن يعلن أمام لجنة تقصي الحقائق أنه من غير الممكن أن يوجَد في فلسطين سوى مقام قومي واحد، هو مقام اليهود، وهو ما يعني "صدارة" اليهود على العرب. وفي النهاية، يجب على المسئولين الصهيونيين التقيد تقيداً صارماً بالحدود التي حدَّدتها تصريحات السير هربرت صمويل ونستون تشرشل، ويجب على الأعيان العرب إفهام شعبهم أن أعمال القتل والعنف والنهب لا يمكن اغتفارها.

والمحيطون بهربرت صمويل وبتشرشل يتقاسمون استنتاجات واحدة: لقد فقد السكان العرب الثقة بالعدالة البريطانية وليس من شأن التصريحات الصهيونية سوى مفاقمة الوضع. ومن الضروري إفهام الطرفين جيداً أن السياسة المحدَّدة في ٣ يونيو/ حزيران سوف يجري

اتباعها بصرامة. والشيء الأمثل هو دفـع ڤايتـسمان إلـى أن يعلـن قبولـه لتصريح ٣ يونيو/ حزيـران[٣٩]. وقـد زار يـانج فلـسطين للقيـام بجولـة تفتيشية هدفها خفض التكاليف المدنيـة والعـسكرية لـلإدارة[٤٠]. وفـي ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول، يكتب هربرت صـمويل إلـى تـشرشل[٤١] موضـحاً أن مثل هذا الخفـض مـستحيل مـادام الوضـع مـا يـزال جـد متفجـر. ومشاريعه الخاصة بالإصلاح السياسي (المؤسـسات التمثيليـة) إنمـا يـشلها غياب قانون حـول الجنـسية فهـو يتطلـب التـصديق أولاً علـى ميثـاق الانتداب من جانب عصبة الأمم. والحال أن الولايـات المتحـدة، مـع أنهـا ليست عضواً في العصبة، إنما تعترض علـى هـذا الميثـاق باسـم الـدفاع عن حقوق الامتيـازات التـي تتمتـع بهـا. والأمـر كـذلك فـي المجـال الاقتصادي: فما دامت وضعية فلسطين لم يتم تحديدها بـشكل نهـائي، فمـن غير الممكن إصدار قروض. وفيما يتعلق بالعلاقات بـين اليهـود والعـرب، فإن تصريحات كارلسباد لم تساعد على حل شـيء، إذ قـال ڤايتـسمان مـن جديد إن فلسطين سوف تـصبح يهوديـة، وهـو تـصريح نقلتـه الـصحافة العربية على الفور. ومن غير الممكـن التوصـل إلـى اتفـاق إلاَّ إذا تخلـى الصهيونيون علناً عن فكرة دولة يهودية ووافقـوا علـى فكـرة كومونويلـث ديموقراطي وإلاَّ إذا تخلوا عن المشروع الذي يهـدف إلـى جعـل فلـسطين يهودية بمثل ما أن إنجلترا إنجليزيـة، بمـا يـسمح بإقامـة وطـن مـشترك (*common home*). ولا يمكن لهم التمتع بمواقـع متفوقـة، وسـوف تتوقـف الهجرة بشكل صارم على طاقة الاستيعاب الاقتصادية.

ويجد تشرشل[٤٢] أن يانج قد تأثر إلى حد بعيد بآراء الموظفين البريطانيين في فلسطين، وهم، عادة، معادون للصهيونية، وأن صمويل يطلب ببساطة من ڤايتسمان أن ينتحر. وهو يرى أنه يجب التصرف بحزم في مجال الأمن: ذلك أن موجة ثالثة من الاضطرابات سوف تكون كارثية بالنسبة للبريطانيين والصهيونيين.

ويحسب المندوب السامي[٤٣]، فإن الطائفة المسلمة قد اعتبرت التقرير منصفاً ومتوازناً، بينما استقبله المسئولون الصهيونيون بهدوء وإن كانوا قد

ذهبوا إلى أن واضعي التقرير قد تجاوزوا صلاحياتهم. ومن ثم فقد كان الأثر إيجابيًا، بيد أن دعوات حقيقية إلى العنف إنما تواصل الانتشار بالرغم من جهود الشرطة.

اضطرابات نوفمبر/ تشرين الثاني

ينقل ڤايتسمان معلومات واردة من فلسطين تؤكد مخاطر حدوث انفجار في الأسابيع القادمة(٤٤). والموعد الحساس هو ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني، ذكرى صدور تصريح بلفور. وتحظر السلطات البريطانية أي تظاهرة يهودية أو عربية. وفي اليوم المذكور، لا تفتح المحال العربية في القدس أبوابها، بما يشكل علامة على الحداد، وذلك بناءً على طلب من الجمعية الإسلامية ـ المسيحية وسكرتيرها في القدس هو جمال الحسيني، أحد أبناء عم المفتي والباشا(٤٥). ويفعل التجار اليهود الشيء نفسه(٤٦).

وبحسب مراسل التحالف الإسرائيلي العالمي(٤٧):

نحو الساعة العاشرة، تحركت في الشارع الرئيسي بالقدس مجموعات من الأوباش الذين بلغ عددهم مائة وخمسين فرداً تسلحوا بالهراوات وبالسكاكين وبدت عليهم أمارات سوء النية فراحوا يهتفون: "البلاد بلادنا واليهود كلابنا، شرع محمد شرع السيف والحكومة مجرد زيف" وأخذوا يقذفون بالحجارة شرفات المنشآت اليهودية الرئيسية: ولم يتوقفوا إلاّ عند مدخل المدينة العتيقة، جهة باب يافا. وهناك، نجد أن خمسة عشر شرطيًا، غير مسلحين وتحت قيادة نائب مدير الشرطة، لم يشاءوا أو لم يكن بوسعهم تفريق هؤلاء المسعورين الذين قاموا، لدى ظهور السيد ستورس، حاكم القدس، بالتهليل له بهتافات فرِحَة حيث صرح لهم بالذهاب إلى مسجد عمر. ولم يكن ذلك من الحكمة بالمرة، فسرعان ما انحدرت التظاهرة إلى درك القتل. فبما أن الأشرار كانوا يريدون اجتياح الحي اليهودي، فقد دافع بعض الشبان الإسرائيليين عن مدخله بجسارة. وجرى تبادل طلقات نارية من الجانبين تفادت رجال الشرطة غير المسلحين. وتعباً من الاقتتال، فإن العرب، الذين سارع طلاب كلية الشرطة المسلحون إلى ردهم على أعقابهم، قد غادروا مدخل الشارع الرئيسي للحي اليهودي وتفرقوا في الشوارع العَرْضية حيث أخذوا يصيبون المارة بجراح ويقتلونهم. وقد دارت هذه المشاهد إلى الساعة الثالثة بعد الظهر؛ وعندئذ تدخلت

القوات وأنهت المذابح والنهب. وفي نهاية النهار، وصل عدد القتلى إلى خمسة وعدد المصابين بجراح إلى اثنين وثلاثين من اليهود، بعضهم جراحه خطيرة. كما سقط عدد من القتلى والجرحى بين العرب.

وقد أمكن هذه المرة احتواء الشغب، وأدت الشرطة واجبها بلا تحيز، وهو ما أدخل السرور على قلوب البريطانيين. لكن الأعيان خاصة، وأولهم الحاج أمين الحسيني، قد بذلوا كل ما في وسعهم لوقف الاضطرابات:

أمّا أعيان المدينة فقد حرصوا على شجب هذه الأعمال النكراء التي كانت المدينة المقدسة مسرحاً لها، للمرة الثانية في هذه السنة. وباسمهم، قام الزعماء الدينيون المسلمون ورئيس الجمعية الإسلامية ـــ المسيحية ورئيس البلدية والشخصيات المسلمة والمسيحية بتوقيع الرسالة التالية الموجّهة إلى المندوب السامي*:

"باسم موكلينا، يهمنا الإعراب عن شديد احتجاجنا على أحداث ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني، والتي راح ضحيتها أبرياء. إننا نتوجه بالنداء إلى مشاعر السكينة والسلم لدى السكان، اقتناعاً منّا بأننا لا يمكننا نيل ضمان لحقوقنا إلاّ بالسبل السلمية. ومن المؤكد أن الحكومة سوف تفي بواجبها وتكفل السكينة العامة، ونحن نطلب إلى موكلينا مساعدتها في تحقيق مهمتها".

وقد استقبل المندوب السامي وفداً من الأعيان المسلمين برئاسة المفتي. فأكد له الوفد أن أي مسلم لا يوافق على أعمال ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني النكراء، والتي يتحمل المسئولية عنها أناس عديمو الأخلاق؛ فالدين الإسلامي يستنكر صراحةً أعمال العنف من هذا النوع.

وقد شكر المندوب السامي الوفد على موقفه. وقال إنه مقتنع بأن الممثلين الشرعيين للسكان يشجبون بشكل حازم مثل هذه الأعمال الإجرامية، وقد شكر المندوبين على التدابير التي اتخذوها لاستعادة النظام. وأضاف أن مثل هذه الأعمال إنما تسيئ إلى سمعة فلسطين الطيبة ومن شأنها إعطاء فكرة مغلوطة عن طابع سكانها؛ ثم إنها تعرقل تقدم البلاد. وأردف أن الديانات الكبرى الثلاث تعلن شريعة السلم والنوايا الحسنة. والحال أن القدس، وهي المدينة المقدسة لهذه

---

* ترجمة عن الفرنسية. ـــ م.

الديانات الثلاث، إنما يجب عليها أن تقدم التأييد العملي لتطبيق هذه المبادئ.

والخسائر البشرية ٣٨ جريحاً (٢٧ يهودياً، ٨ مسلمين، مسيحي واحد) و٨ قتلى (٥ يهود و٣ مسلمين).

والقمع فوري ونموذجي. كما أنه يزعم عدم التحيز. فعند دخول المهاجمين الحي اليهودي قوبلوا بقنابل متفجرة أطلقتها جماعات الدفاع الذاتي اليهودية، وهو ما تسبب في الجانب الرئيسي من الخسائر بين العرب. وقد ألقت الشرطة على أفراد من الجانبين وأنزلت المحاكم عقوبات بالطرفين. على أن العرب لم يفهموا عندئذ السبب في أن من كانوا يحملون أسلحة دون قيامهم باستخدامها قد نزلت بهم عقوبات أقسى من العقوبات التي نزلت بمن أطلقوا القنابل، بينما يحتج اليهود باسم الدفاع المشروع عن النفس(٤٨). وقد طلبت لندن إنزال عقوبات نموذجية، لكن هربرت صمويل يجد أن من شأن القمع الإبقاء على مناخٍ قوامه التوتر الشديد بين الطرفين وهو يحاول إنهاء الموضوع بأسرع ما يمكن.

وتتهجم الصحافة اليهودية بقوة على حاكم القدس الذي يغطيه رؤساؤه وتدافع عنه الصحافة العربية.

وهذه المرة، تسنت السيطرة على الوضع، فلم تتعلق الاضطرابات إلاَّ بالقدس وشارك الأعيان المسلمون في حفظ النظام. وقد نجح الإسلاميون ــ المسيحيون في خلق حركة منظمة وقادرة بما يكفي على احتواء العنف الذي كان منفلتاً إلى ذلك الحين. والحال أن دور الإسلاميين ــ المسيحيين التمثيلي هذا والاستخدام الأفضل لقوات الشرطة، التي التزمت بقواعد الانضباط، إنما يفسران هذه العودة إلى النظام.

وترى الإدارة البريطانية أن كل شيء مرهون بالتطورات في لندن. وفي رسالة إلى شاكبيرج (رئيس إدارة الشرق الأوسط)، مؤرخة في ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني، يتساءل ديديس: كيف يمكن للعرب أن يثقوا بحسن نوايا البريطانيين في الوقت الذي يرون فيه أنهم لا يفعلون شيئاً لدفع الصهيونيين إلى قبول تصريح ٣ يونيو/ حزيران؟ إن مصدر المتاعب هو التحالف بين حكومة فلسطين واللجنة الصهيونية. وسوف يتعين حل هذه الأخيرة والبدء من الصفر

بالاعتماد على جمعية استشارية يتم تمثيل كل عنصر من السكان فيها تمثيلاً مناسباً[٤٩].

أما تشرشل فهو يسعى إلى اختزال النفقات العسكرية في فلسطين (٣,٥ مليون جنيه في السنة). وهو ليس بحاجة إلى وحدات ثقيلة لحفظ النظام. فمن شأن قوة جندرمة مكونة من جنود بيضٍ أن تكون كافية لأداء هذه المهمة. وهو يميل إلى أن يرسل إلى فلسطين رجالاً من قوة "*Blacks and Tars*"، تلك القوة شبه العسكرية الرهيبة التي استخدمتها حكومة لويد جورج في الحرب الأهلية الأيرلندية. وقد اشتهرت بوحشيتها وبإعداماتها الفورية للرهائن المدنيين ردًا على عمليات القوميين الأيرلنديين[٥٠].

وخفض الأعباء المالية هو الدافع الرئيسي لسكرتير الدولة في هذا الاتجاه. كما أنه يعرف أن العسكريين البريطانيين في فلسطين ليسوا سعداء بالمهام المفروضة عليهم. والحال أن قائدهم، الجنرال كونجريف، قد اعترف علناً، في أمر يوميٍ[٥١]، بأنه إذا ما اتجه تعاطف الجنود إلى أحد الطرفين الموجودين، كما في أيرلندا، فإن تعاطفهم، في فلسطين، سوف يتجه إلى العرب، الذين يبدون في عيني المراقب المحايد ضحايا لسياسة غير عادلة فرضتها الحكومة البريطانية[٥٢]. وحيال هذا التصريح، نجد أن تشرشل، بالرغم من تحريضات ماينرتزهاجن المتكررة، إنما يمتنع عن الرد كيلا يتسبب في حدوث توترات إضافية بين وزارة المستعمرات ووزارة الحربية[٥٣].

ڤايتسمان والعرب

بعد أن استرد الوفد العربي أعضاءه الذين كانوا قد ذهبوا إلى جنيڤ، قام بالإكثار من البيانات الموجهة إلى السلطات وإلى الصحافة البريطانية معيداً طرح مجمل الحجاج العربي. وفي ١٢ نوڤمبر/ تشرين الثاني، أخبرته وزارة المستعمرات بأنه سوف يجري استقباله مرة أخرى، وإن كان بحضور ڤايتسمان ووفد صهيوني. والحال أن أيًا من الطرفين ليس متحمساً لهذه الفكرة.

وقد حرص الصهيونيون بادئ ذي بدء، وذلك وفقاً لمنطقهم الخاص بالانفتاح على عرب غير فلسطينيين، على مقابلة شخصية لبنانية كانت قد لعبت

بالفعل دوراً مهمًّا في عهد المملكة العربية وسوف يكون لها وزنها الملحوظ في السياسة الإقليمية على مدار ثلاثة عقود، أعني رياض الصلح. وبالنسبة للقوميين السوريين الذين يمثلهم ــ دون أن يكون مكلفاً من جانبهم بالضرورة ــ، فإن الهدف هو استخدام نفوذ اليهود سعياً إلى الحيلولة دون التصديق على ميثاق الانتداب على سوريا وفلسطين. وقد انعقد الاجتماع في ٧ نوفمبر/ تشرين الثاني في لندن[٥٤]. ونوقش فيه نص كان قد جرى تحريره مسبقاً بالتشاور مع رياض الصلح. وهو ينطلق من تصريح مؤتمر كارلسباد ومن ضرورة العمل على تبديد أشكال سوء الفهم المترتبة على تصريح بلفور: فاليهود لهم الحق في أن تكون لهم وحدة قومية متمايزة في فلسطين؛ وسوف يحيا اليهود والعرب في ظل مساواة صارمة في الحقوق، وحيثما تكون الأغلبية في مكان ما لأحد الطرفين، فإن حقوق الأقلية سوف يجري الحفاظ عليها؛ وسوف يقدم الطرفان الموظفين الذين سوف يحلون في المستقبل محل المديرين البريطانيين؛ وستكون الهجرة اليهودية مشروطة بالطاقة الاستيعابية للبلد وحدها ودون أن يحدث تكدير لحياة العرب في ممتلكاتهم وأعمالهم؛ وسوف يصبح الجميع فلسطينيين عند دخول القانون الخاص بالجنسية حيز التنفيذ.

ويجري استكمال هذه البنود بما يعد موضوع اهتمام القوميين السوريين الرئيسي: الدعم الأدبي والمادي من جانب المنظمة الصهيونية للشعب العربي في مساعيه الرامية إلى التوصل إلى تحقيق تطلعاته القومية المشروعة. ويدور النقاش حول تعديل النص. فيطلب رياض الصلح النص على نبذ فكرة الدولة اليهودية. فيرد عليه ڤايتسمان بأن من الأفضل عدم إيقاظ كلب نائم وبأنه لا يمكنه التعهد بشيء نيابة عن أبنائه وأبناء أبنائه. ويفهمه رياض الصلح كل الفهم ويؤكد له أنه على قناعة بأنه يخطط بالفعل لقيام دولة يهودية وأنه، شخصيًّا، ما كان ليحترمه لو لم يكن الأمر كذلك. ويجري الاتفاق على مواصلة المفاوضات مع اعتبار هذا النص أساساً لها.

وكان من المقرر أن ينعقد الاجتماع في وزارة المستعمرات في ١٦ نوڤمبر/ تشرين الثاني، بيد أن مشكلات صحية مر بها ونستون تشرشل أدت إلى إرجائه. وفي ٢٥ نوڤمبر/ تشرين الثاني، يتم استقبال ڤايتسمان في وزارة

المستعمرات حيث يجري إبلاغه، لما فيه عظيم سعادته، بتخفيفٍ لقيود التشريع الخاص بالهجرة من شأنه السماح للمنظمة الصهيونية بالإشراف على دخول العمال.

وفي ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني، ينعقد الاجتماع، الذي طال انتظاره، تحت رئاسة شاكبيرج، وإن كان في غياب تشرشل[٥٥]. وينبه البريطاني إلى أن هذا اللقاء ليست له أي قيمة رسمية ويحث محاوريه على الاهتمام بالجانب الملموس للأمور وليس بجانبها النظري. ثم يعرض الخطاب المألوف المصاغ منذ ٣ يونيو/ حزيران. ويعقبه موسى كاظم معبراً من جديد عن مطالب العرب المعتادة. ويأخذ ڤايتسمان الكلمة بدوره: فيذكرُ بمحاولاته الرامية إلى الاتفاق مع العرب (تصريحه في القدس، محادثاته مع فيصل وعوني عبد الهادي)؛ فيسأله العرب مع أي فلسطينيين مفوَّضين تحادث. فيعجز عن ذكر اسم أحد سوى اسم المفتي السابق الميت. وهو يؤكد أنه ليس هناك البتة ما يدعو العرب إلى الخوف من الهجرة الصهيونية وأنهم لن يجري طردهم أبداً من أراضيهم. وسوف يجري الحد من الهجرة، في الأعوام القادمة. وهو ينظر في حلول. ويرفض أي فكرة تدعو إلى فلسطين مقسَّمة بين قطاع يهودي معزول بستار حديدي (*iron wall*) عن بقية البلد وقطاع عربي. فهذا من شأنه أن يكون بمثابة تطبيق لحكم سليمان بقسمة الطفل إلى نصفين. وهو يقترح سياسة قوامها التعاون فيما بين الطرفين ويهاجم أعمال الشغب: لقد أدت المذابح التي استهدفت اليهود إلى دمار روسيا وليس إلى دمار اليهود الروس... ويقبل التفاوض على أساس المواقف البريطانية. ويعبر شاكبيرج له عن موافقته. ويطلب إليه موسى كاظم تحديد معنى تصريح بلفور. فيرد عليه شاكبيرج بأنه طلب عدم التوقف عند التعريفات والمجرَّدات. ويتلو اقتراح مؤتمر كارلسباد. ويتحدث ڤايتسمان عن تكوين مقامين قوميين في فلسطين: وربما يتمكن أبناء الطرفين، بمرور خمسين عاماً، من إعادة التفاوض على شروط الوضع. فيرد عليه موسى كاظم بأنه لا مجال هناك إلاّ لمقام قومي واحد، هو مقام العرب. فيتساءل شاكبيرج: هل سيقبل العرب التفاوض، في حالة توضيح تصريح بلفور؟ فيبدي الباشا اهتمامه بذلك، شريطة ألاّ يتعلق الأمر بالنص المتضمن في مشروع ميثاق الانتداب.

ويلاحظ سكرتير الاجتماع أنه بالرغم من أن كلام ڤايتسمان كان تصالحيًا، فإن موقفه كان موقف فاتح يملي ما يريد على مغلوبين. ولا يسع المندوبون العرب التخلي عن تشددهم كيلا يلحق بهم العار في بلدهم. ولا يمكن التوصل إلى اتفاق بين الطرفين ما دام البريطانيون يحوزون سلطة اتخاذ القرار. ويمكن توقع أن الوفد العربي سوف يرحل، لافتقاره إلى المال، أو أن الحل سيجري فرضه بالغصب إذا ما جرى التصديق بسرعة على الميثاق، حتى وإن اقتضى الأمر إخراس الجذريين العرب واليهود.

وفي الأول من ديسمبر/ كانون الأول، يكرر ڤايتسمان خطابه المعتاد: إن البريطانيين هم الذين يتوجب عليهم إفهام العرب أن تصريح بلفور لا يمكن الرجوع عنه. وقد أثبت موقف الوفد أنه بسبيله إلى التضعضع. والواقع أن بعض أعضاء الوفد العربي، بينهم معين الماضي، إنما يحاولون الاتصال اتصالاً مباشراً بڤايتسمان لدراسة مقترحات عملية. ويرى ڤايتسمان في ذلك بداية لتحقيق مشروع يدعمه إيدر وكالڤاريسكي، من اللجنة الصهيونية: مساعدة وتمويل حزب عربي معتدل من شأنه اختزال أهمية الإسلاميين ــ المسيحيين ويمكن التعامل معه[٥٦].

وفي ١١ ديسمبر/ كانون الأول، يرسل إلى شاكبيرج تقريراً[٥٧] للاستخبارات الصهيونية يميط اللثام عن مؤامرة عربية واسعة هدفها التحضير لمذابح تستهدف اليهود في فلسطين مع الامتناع عن محاربة البريطانيين. والحال أن مشروع العمليات الإرهابية هذا مشكوك فيه، بالرغم من أن من الوارد أن بعض العرب قد راودتهم النية في القيام بمثل هذه العمليات. ومن الصعب معرفة ما إذا كان هذا التقرير نتاج استمرارٍ للأوهام من جانب الاستخبارات الصهيونية (بما أن عملاءها العرب مأجورون، فإنهم إنما يقدمون لها مثل هذه التقارير في مقابل أموالها) أو ما إذا كان ڤايتسمان يستخدم هذه المعلومات، دون أن يصدقها حقًا، لكي يضغط على البريطانيين.

وفي ١٣ ديسمبر/ كانون الأول، يصرح ڤايتسمان لديديس بما يجول في خاطره[٥٨]: إن قوة العرب إنما تكمن في ضعف البريطانيين، كما أوضح ذلك تصريح كونجريف. وعدم تفهمه المتعمد للموقف البريطاني واضح تماماً: فهو

يرى أن تصريح ٣ يونيو/ حزيران لا يمثل السياسة البريطانية الحقيقية؛ ذلك أنه يرتأي مقاماً قوميًّا عربيًّا يمكن أن يكون فيه مكان لبعض اليهود. أمّا السياسة الحقيقية فيمثلها مشروع ميثاق الانتداب. وكل محاولة للتفاوض مع العرب من شأنها جعلهم متغطرسين ومتشدّدين. وهو يخشى من أن تقوم وزارة المستعمرات بالتخلي عن البند الذي يجعل من المنظمة الصهيونية الوكالة اليهودية المكلّفة بتسيير شئون المقام القومي. ويخوض حملة حول هذا الموضوع في الأسابيع التالية.

ويكمن فشل لقاء ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني في استحالة توفيق الأخلاق السلطوية والإدارية للموظفين الاستعماريين البريطانيين، الذين يحللون الملف الفلسطيني من الزاوية العقلانية للمكاسب والخسائر، مع التفسيرات اليهودية والعربية التي تراعي دوماً المبادئ الأساسية، استناداً إلى الحدس الصحيح الذي يذهب إلى أن ما له الغلبة، في الأمد الطويل، هو مسألة الشرعية. وهكذا، فإن الرفض العربي لتصريح بلفور والرفض الصهيوني لتصريح ٣ يونيو/ حزيران إنما يبدوان لا عقلانيين ومثيرين للحنق في نظر المديرين البريطانيين الذين يعتبرون أنفسهم، بشكل ما، لا سياسيين لأنهم يمتنعون عن الاعتراف بأن من حق اليهود والعرب أن تكون لهم رؤية سياسية للأمور. وهذا التباين في الخطاب ليس خاصاً بالملف الفلسطيني وحده: فهو يميز الأوضاع الاستعمارية في كل مكان في عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى هذا، وذلك في لحظة تصبح فيها النزعة القومية لشعوب المستعمرات قوة لا مفر من التعامل معها.

نحو انتهاء أعقاب الحرب المباشرة

دعا البريطانيون الطرفين إلى التوجه صوب إنجازات عملية سعياً، إن لم يكن إلى تجاوز المشكلات، فعلى الأقل إلى التحايل عليها وتفاديها. واعتباراً من أواخر عام ١٩٢١، يتخذ الوضع المحلي عدداً من الخصائص التي سوف تميز عقود عهد الانتداب.

فخلال شهر ديسمبر/ كانون الأول، في فلسطين، تمثلت الأحداث الرئيسية[٥٩] في تكوين مجلس إسلامي أعلى مكلّف بالشئون الإسلامية وفي

اكتشاف عمليات تهريب أسلحة لصالح الصهيونيين. وقد غمر الحدث الأول المسلمين بالارتياح، في حين أن الحدث الثاني قد استثار موجة جديدة من الانزعاجات. وفي المستوطنات اليهودية، تجدَّد النزاع حول استخدام اليد العاملة العربية: فالرواد يطالبون بطرد جميع العمال العرب، وهو ما يرفضه الملاَّك بسبب فارق التكاليف. ويلتقي رياض الصلح بهربرت صمويل ويطلعه على المحاولات التي بذلها من أجل التوفيق بين اليهود والعرب، دون أن يبدو متفائلاً. وقد قدَّم نفسه باعتباره عضواً في اللجنة التنفيذية لمؤتمر جنيف مكلَّفاً بإطلاع الأشخاص المهتمين بالمناقشات على ما دار فيها.

ويتمسك هربرت صمويل بخطه السياسي. وهو يشكو للندن(٦٠) من أن السلطات القنصلية تمنح تأشيرات هجرة إلى فلسطين بسخاء، دون مراعاة للكلمة التي أعطتها الحكومة البريطانية. وشأن جميع حكومات الشرق الأدنى في فترة ما بين الحربين، تنهمك حكومة الانتداب في تكوين شبكة مدرسية تابعة للدولة، غير كافية قياساً إلى الطلب، وإن كانت تمثل عبئاً جسيماً بالفعل بالرغم من أن الإنفاق الأهم يتجه، بالطبع، إلى حفظ النظام. وبسبب التباين عينه في التطور فيما بين الطوائف، فإن غالبية المدارس اليهودية والمسيحية إنما تنتمي للقطاع الخاص، بينما الشبكة التابعة للدولة تعد، من الناحية العملية، حكراً على السكان المسلمين السنة، وهي تدشن تحركهم إلى اللحاق بالآخرين على المستوى المدرسي. وفي فلسطين، حيث يتمثل هدف المقام القومي [اليهودي] في أن يصبح الدولة بالرغم من تخبطه في مصاعب مالية جسيمة، فإن سياسة المندوب السامي إنما تستثير احتجاجات حامية باسم مساواة في المعاملة(٦١) تتم المطالبة بها عندما يجد المرء نفسه في منزلة ثانية.

وفي ٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٢(٦٢)، ينظم ديديس انتخابات المجلس الإسلامي الأعلى، من الهيئة الانتخابية العثمانية إلى الدرجة الثانية. والحال أن آل النشاشيبي، الذين يعرفون أنهم أقلية، إنما يرفضون المشاركة في الانتخابات. ويتم انتخاب الحاج أمين الحسيني رئيساً للهيئة الجديدة، وهو ما يرتاح إليه هربرت صمويل. وسوف يأخذ أنصار آل الحسيني اسم "المجلسيين" في حين أن أنصار آل النشاشيبي سوف يصبحون "المعارضين".

والحاصل أن كالفاريسكي، الذي يعمل لحساب إيكا واللجنة الصهيونية إلى جانب كونه عضواً في الجمعية اليهودية المنتخبة (والتي اتخذت اسم فاعاد ليومي)، قد نجح في إقناع هذه الهيئات بالاضطلاع بعمل سياسي بين العرب[٦٣]. وبتشجيع من فايتسمان وإيدر، يسعى إلى حفز انبثاق حزب عربي معتدل مستعد للتصالح مع الصهيونيين: الجمعية الإسلامية الوطنية. ولاشك في نزاهة هذه الجمعية، بيد أن عملها إنما يعتمد أساساً على إعانات تتولى توزيعها بسخاء إلى هذا الحد أو ذاك. وفيما عدا بعض أنصار آل النشاشيبي، فإن الحركة إنما تجند أنصارها أساساً من عناصر غير مهتمة إلاّ بالمال الذي يتم توزيعه عليها. والجميع يعرفون منشأ هذه الحركة ويفضّل البريطانيون الابتعاد عنها.

وعلاقات العمل مجال آخر قد يكون موقعاً للتقارب. والقطاع الخاص موقع مستديم للمواجهات باسم "اقتحام العمل" الذي يقود إلى انفصال متزايد بين الاقتصاد اليهودي والاقتصاد العربي في المجال الذي يتنافسان فيه، ألاَ وهو الزراعة. ومن المؤكد أن إيكا تنتهج عملاً يراعي المصالح والحساسيات العربية مراعاة أكبر بكثير من مراعاة الأعمال التي يتم الاضطلاع بها تحت رعاية المنظمة الصهيونية، بيد أن أهميتها تميل إلى التضعضع حيال صعود قوة المنظمة المنافسة. خاصة أن إيكا تقدم نفسها على أنها جمعية غير سياسية، بما يتماشى مع الخط الذي حدَّده إدمون دو روتشايلد. والأشغال العمومية كبناء الطرق إنما تستخدم بالأخص اليد العاملة اليهودية بسبب بطالة المهاجرين الجدد، ومن هنا الاحتجاجات العربية. وبالنسبة للحركة العمالية اليهودية، فمن غير الوارد تكوين نقابات تجمع عرباً ويهوداً. وكما يلاحظ مؤتمر الهستادروت في يناير/ كانون الثاني ١٩٢٢، فإن التعاون وحده هو المقبول[٦٤]:

يُفَوِّضُ المؤتمرُ اللجنة التنفيذية الصهيونية في التوصل إلى التعايش فيما بين العمال اليهود والعرب العاملين في السكك الحديدية والبريد والبرق، كما في إيجاد المساعدة المتبادلة ومنظمة عامة. ولابد أن تستند هذه المنظمة إلى مبدأ جناحين قوميين [جناح قومي يهودي وجناح قومي عربي]. وسوف تشكل المنظمة القائمة للعمال اليهود العاملين في السكك الحديدية جزءاً من المنظمة العامة.

وفي فبراير/ شباط ١٩٢٢، يزور فلسطين اللورد نورثكليف، قطب الصحافة البريطانية الكبير وصاحب صحيفة التايمز، بين صحف أخرى. وهو يتبنى علناً موقفاً معادياً للصهيونية بشكل حازم، الأمر الذي يجرح الموظفين البريطانيين الذين لا يجهلون قوته[٦٥]: "ما لم يجر استخدام أعظم قدر من حسن التصرف، فإن بريطانيا العظمى سوف تنقل كاهلها بأيرلنده أخرى ولن يكون بوسعها مواجهة ذلك".

ويغتنم الحاج أمين الحسيني الفرصة لكي يقدم نفسه بوصفه المتحدث بلسان المصالح العربية في خطاب موجّه إلى الشخصية البارزة[٦٦]:

بعد أن رحب بالزائر باسم السكان المسلمين الذين يمثلهم المجلس من الناحية القانونية، ذكّرَ بالمصالح الضخمة لإنجلترا في الشرق وخاصة في البلدان الإسلامية والعربية. وقال إن العرب، الذين يتمتعون بتأثير عظيم على العالم الإسلامي، يرون أن إنجلترا تملك الكثير من الإمكانات الاقتصادية وأن الأراضي المقدسة جزء لا يتجزأ من أراضيهم وأهم منطقة بين مناطقهم.

وقال إن المسألة الصهيونية المستندة إلى تصريح بلفور لها تأثير مؤسف على العلاقات بين المسلمين وإنجلترا وتلحق ضرراً عظيماً بهذه الأخيرة. وسوف يكون هذا الضرر أعظم بكثير إذا ما استمرت هذه الدولة في سياستها التي تعود عليها بمغارم جسيمة وتنال من سمعتها وتضر بتجارتها.

وأضاف أن الصهيونية لا تستند لا إلى العدل ولا إلى الصدق. ثم إنها تتعارض مع طبائع الأمور ومصيرها الفشل لهذا السبب عينه، فالعرب يشكلون غالبية أهل البلد ويملكون الجانب الأعظم من الأراضي. وحقوقهم في فلسطين لا تقبل الجدل.

ثم قال إن الإسرائيليين، بالرغم من كونهم أقلية في البلد، إنما يهيمنون على السلطة ولهم نفوذ كبير على وضع القوانين، وهي قوانين تتعارض مع مصالح البلد وتصدر ضد إرادة السكان.

وأضاف أن سكان البلد قد أحسوا بالاضطهاد وبالحرمان من حقوقهم السياسية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية.

وأردف أن عرب البلد ليسوا، كما يجري الزعم، بدواً أو رُحَّلاً. على العكس، فغالبية إيرادات الحكومة إنما تأتي من المزارعين والتجار والصناعيين العرب وهم قادرون

على إحياء البلد وتأمين ازدهاره القادم لو أتيح لهم الوقت لذلك لا أكثر واطمأنوا إلى المستقبل. ويعتقد أهل البلد أن مصالحهم مرتبطة بمصالح إنجلترا، الذين يعتبرونها صديقتهم وسندهم خاصة في حالة الحرب.

وسوف تسمح هذه الصداقة لهذه الأمة بأن تحقق وفورات عظيمة في مساعيها الرامية إلى تأمين المواصلات بين مختلف أجزاء الإمبراطورية.

والحال أن اليهود الأرثوذكسيين المعادين للصهيونية الذين يستلهمون رؤى الدكتور هان، أحد أساتذتهم، إنما يتوجهون أيضاً إلى القطب البريطاني محتجين على الصهيونيين. فيوصف هذا المسلكُ بالخيانة، ويهدِّدُ رجالٌ من الهاجاناه المحتجين بارتكاب أعمال عنف بدني ضدهم(٦٧).

وتنفجر قضية أخرى خاصة بتهريب السلاح لصالح هذه المنظمة(٦٨)، ومن هنا انزعاج السكان العرب من جديد. فتحتج الجمعيات الإسلامية ــ المسيحية بعنف وتتهم البريطانيين بعدم احترام التعهدات التي أخذوها على أنفسهم في ٣ يونيو/ حزيران ١٩٢١. فتجاب بأنه سوف يكون من المناسب أن تشارك [هذه الجمعيات في] الجمعية الاستشارية، وبأن الشرطة تكافح التهريب بيد أن أعمال العنف العربية هي سبب هذا الوضع.

وفي مارس/ آذار، تهيج الخواطر هياجاً خاصاً مع اقتراب الأعياد الدينية الكبرى في الربيع. ويسعى الأعيان العرب والمسئولون اليهود إلى تهدئة الخواطر، لكن أبسط حادث ــ انفجار موقد كيروسين في القدس ــ إنما يستثير تحركات دافعُها الذعر(٦٩) ويتابع الرأي العام العربي باهتمام خاص تطور الأحداث في الهند وفي مصر، حيث قام البريطانيون للتوِّ بمنح استقلال مشروط، وفي شبه الجزيرة العربية، حيث كان وهَّابيو ابن سعود بسبيلهم إلى أن يصبحوا القوة السائدة. ويظل التسيس قويًّا، بما في ذلك في المناطق الأقل تطوراً كمنطقتي غزة وبئر سبع. وتراهن السلطات البريطانية على تعاون الأعيان وعلى تعزيز قوات حفظ النظام للسيطرة على البلد. ولاتخامرها أي أوهام فيما يتعلق بسخط السكان العام. فبشكل يكاد يكون يوميًّا، تحافظ حوادث طفيفة على إبقاء التوتر(٧٠).

والحال أن عمر البيطار، رئيس الجمعية الإسلامية ـــ المسيحية في يافا، وهو نصير لآل النشاشيبي، قد قبل تلبية دعوة عمدة تل أبيب بمناسبة عيد بوريم[٧١]:

في هذه المناسبة، تصرف السيد عمر البيطار بمبادرة خاصة منه، دون أن يتشاور مع الجمعية.

وقد أوضح أنه رأى أن حضوره هذه المأدبة لا يعني بالضرورة تقارباً مع الصهيونيين؛ فالمقصود ببساطة هو القضاء على الشائعات التي صوَّرت الجمعية الإسلامية ـــ المسيحية على أنها منبر تحريض على ذبح اليهود.

وبما أن الصهيونيين قد اتخذوا من حضور السيد البيطار حجة سياسية لصالحهم، بالرغم من التطمينات التي كانوا قد قدموها إليه، فقد قررت الجمعية إعلان جميع التوضيحات المفيدة في هذا الصدد.

وقد عم الصخب هذه الجلسة إلى درجة أن السيد البيطار قدم استقالته.

والأرجح أن هذا كان النتيجة التي سعى إليها الصهيونيون ودفعت السيد عيسى العيسى إلى الظهور أمام الاجتماع مؤكّداً للسيد عمر البيطار أنه إذا ما تمسك بقراره فإنه إنما يلعب بذلك لعبة خصومه ويتحمل من جراء ذلك مسئولية جد جسيمة.

وقد قررت الجمعية توجيه برقية إلى الوفد الفلسطيني في لندن كما إلى اللورد نورثكليف لشجب التصرفات الصهيونية وما يكمن وراءها من سوء نية ولإشهاد السياسي الإنجليزي على عدم جدوى أي مسعى واستحالة أي تقارب مع اليهود.

وفي ٢٥ مارس/ آذار، يقرر تجار وحرفيو يافا الامتناع عن العمل في أيام الجمعة. "وقد اتخذ هذا القرار من جانبهم إغاظة لليهود الذين اعتادوا شراء حاجياتهم ليوم السبت صباح الجمعة". والأرجح أن هذا ليس السبب الوحيد: ففي ذلك الزمن، يصبح يوم الجمعة، في البلدان الإسلامية، يوم عطلة، على غرار الأحد المسيحي والسبت اليهودي:

عند صلاة الظهر في المسجد الكبير، وقع حادث ترتبت عليه عواقب بالنسبة للمفتي الشيخ توفيق الدجاني.

فقد أعلن هذا الأخير على المؤمنين، أثناء خطبته، أن دينهم يدعوهم إلى الذهاب إلى

المسجد يوم الجمعة. لكنه لا يرغمهم على إغلاق حوانيتهم والتوقف عن العمل.

وما أن تفوه المفتي بهذا الكلام حتى قاطعه المراكبية والشيالون والبسطاء. فأراد فرض الصمت عليهم؛ وعندئذ تعالت صيحات الاستنكار ضده وجرى اتهامه بأنه عميل مأجور لليهود. وانقض عليه أحد المراكبية وضربه، فاضطر إلى الاختباء في غرفة الإمام انتظاراً لمجيء الشرطة كي تقوم بإخراجه.

ولم يجر إلقاء القبض على الجاني الذي حماه الجمهور وكان اللوم من نصيب المفتي بوجه عام.

وهذا الحادث له دلالته[٧٢].

وتفسر السلطات البريطانية الحادث بوصفه علامة على تزايد التلاحم الطائفي الإسلامي[٧٣]. وقد مر عيد النبي موسى في هدوء، بيد أنه لم يسبق قط أن شوهد مثل هذا العدد من الحجاج المسلمين[٧٤]. ويلعب الحاج أمين دوراً لا يقدر بثمن كداعية إلى الاعتدال. والأعيان المسلمون شأنه يخشون من أن يؤدي فشل مفاوضات لندن إلى انفجار للعنف يقوض العمل البنّاء الذي قاموا به.

ويتمثل واحد من كبرى إخفاقات إدارة الانتداب في أنه طوال سنوات ما بعد الحرب هذه كلها تواصلت عمليات لصوصية خطيرة في الأرياف. وبدلاً من أن تضمحل، فإنها إنما تكتسب اتساعاً جديداً في الشهور الأولى من عام ١٩٢٢[٧٥]:

إن انعدام أمن المناطق المجاورة ليافا والرملة وغزة آخذ في التعاظم.

فلا يكاد يمر يوم دون أن تحدث فيه سرقات محدودة للخرفان أو الماعز أو الأبقار، كما تصل جرأة اللصوص أحياناً إلى حد تنظيم عصابات حقيقية تهاجم القرى أو منشآت منعزلة. ومؤخراً، كان مقر بطريرك الروم [...] قد هوجم من جانب عصابة من البدو الذين تنكروا في ملابس عسكرية إنجليزية.

وفي مناسبات عديدة، يسعد الفرنسيون لشعبية فرنسا في صفوف السكان العرب بسبب موقفها المؤيد للكماليين في تركيا. والحال أن تصريحاً صادراً عن بريان، القائم بأعمال رئيس المجلس، قد استثار قدراً من الاستياء[٧٦]، بيد أن قنصل فرنسا قام بالتذكير بموقف فرنسا المعارض لقيام دولة يهودية[٧٧]. وتؤدي

اضطرابات نشبت في سوريا في أبريل/ نيسان ١٩٢٢ إلى انطلاق تظاهرات تضامنية في فلسطين. ويرى الممثلون الفرنسيون في هذه التظاهرات يد عملاء الهاشميين[٧٨].

وفي مايو/ أيّار، تنزعج السلطات من كمية الأسلحة المنتشرة بأيدي الناس. فقد مدت الهاجاناه نشاطاتها إلى عموم البلد بينما يحوز الفلاحون العرب أسلحة وفيرة متخلفة عن الحرب العظمى [الأولى]: وخلال خصومة عادية بين قريتين في منطقة الجليل ظهر ما يزيد عن ٢٠٠ بندقية[٧٩]. ومن جديد، يصبح حائط المبكى موضع قلق: فاليهود يريدون إقامة دكك هناك، والمسلمون يعترضون على ذلك باسم الحفاظ على الوضع القائم. وتتوتر أعصابهم لاسيما أنه يجري توزيع منشورات دعائية صهيونية في فلسطين تشير إلى أن حائط المبكى ليس غير مرحلة أولى في استرداد[٨٠] الممتلكات اليهودية.

وقد بذلت الماسونية المصرية مسعى للتوفيق بين اليهود والعرب، بيد أن هذا المسعى قد حدث من دون علم مسئولي المحفل واستثار احتجاجات حامية. ويحاول آل النشاشيبي تكوين حركة تتبرأ من الوفد الموجود في أوروبا، لكنهم لن ينجحوا في ذلك. وتقدم الجمعية الإسلامية ـــ المسيحية في يافا إعانات لمهاجرين يهود عاطلين يودون مغادرة فلسطين[٨١]. وقد مر الأول من مايو/ أيّار [عيد العمال] في يافا تحت سيطرة بوليسية محكمة ودون وُقوع حادث مهم[٨٢]. ويتجه مسلمو فلسطين إلى إرسال وفد إلى الحجاز سعياً إلى الاستفادة من موسم الحج القادم في تعبئة العالم الإسلامي إلى صفهم.

وهكذا، فخلال الشهور الأولى من عام ١٩٢٢، تدخل فلسطين تدريجيًّا فترة ما بين الحربين العالميتين. ويظل التوتر قويًّا، لكن انفجار العنف الذي يوجد خوف شديد منه لا يقع. والأمر الرئيسي على الجانب العربي هو إعادة تنظيم السكان المسلمين الآخذين بالتحول إلى جماعة طائفية، منخرطة في لحاق عام [بالآخرين] على المستوى الثقافي كما على المستوى الديموغرافي: ففي عام ١٩٢٢، نجد أن معدل نمو السكان المسيحيين (٢,٢٢%) يظل أعلى بدرجة طفيفة من معدل نمو السكان المسلمين (٢,١٥%)[٨٣]، لكن المتوسط بالنسبة لأعوام ١٩٢٢ ـــ ١٩٢٥ قوامه ٢,٣٧% بالنسبة للمسلمين و٢,٠٦% بالنسبة

للمسيحيين[٨٤]. وبما أن المسيحيين قد أصبحوا ضعفاء من جراء اختفاء الحمايات الأجنبية ومن جراء النزوح عن البلد، فقد انحازوا إلى المشروع القومي الفلسطيني، حيث لايمكنهم أن يشغلوا سوى مواقع ثانوية لكنها ليست عديمة الأهمية.

والرجل الذي سوف يجسد هذا التأكيد للإسلام الفلسطيني ومطالبته بممارسة قيادة الحركة القومية رجل موجود بالفعل. فهو الحاج أمين الحسيني: وبحكم انتمائه العائلي وبحكم وظائفه، فإنه إنما ينتمي إلى عالم الأعيان الموروث من العصر العثماني. أمّا بحكم شبابه وتعليمه، فإنه ممثل بورجوازية الكفاءات الناشطة التي حملت راية النزعة القومية العربية خلال أعوام الحرب العالمية الأولى وفترة الأعقاب المباشرة للحرب. وهكذا فإنه إنما يحتفظ بموقع رئيسي في مجمل المشهد السياسي، مشكّلاً حلقة الوصل بين القدماء والجدد، وبين العرب والبريطانيين. ومنذ مستهل عام ١٩٢٢، أوضح ما سيكون عليه نهجه: التشدد فيما يتعلق بالمبادئ القومية والتعاون مع سلطة الانتداب، وهو موقف سوف يحافظ عليه إلى عام ١٩٣٦.

استئناف المحادثات

بعد فشل اجتماع ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني، يرسل الوفد الفلسطيني في عدة مناسبات مذكرات إلى وزارة المستعمرات دون أن يغير مبدأً واحدًا من مبادئه[٨٥]. ويبدو له أن قضيته قد كسبت قدراً من الشعبية في إنجلترا. وصحافة نورثكليف تدعمه، وغالبية اللوردات تبدي تعاطفاً جليًّا.

وفي ٤ فبراير/ شباط، يرسل تشرشل إلى الوفد الفلسطيني مشروع دستور فلسطيني. ويتضمن المشروع تذكيراً بتصريح بلفور وينص على تكوين مجلس تشريعي من ستة وعشرين عضواً (بمن فيهم المندوب السامي)، سيكون أحد عشر عضواً منهم موظفين وخمسة عشر ممثلين للسكان. ومن بين الخمسة عشر هؤلاء، ستتم تسمية واحد من جانب الغرف التجارية واثنين من جانب المندوب السامي؛ وسيتم انتخاب الاثني عشر الآخرين، على أن يكون بينهم يهودي ومسيحي كحدٍ أدنى. ويتبجح سكرتير الدولة بأنه قد استلهم المبدأ اللينيني

الخاص بالانتخاب غير المباشر (فالناخبون في الدرجة الأولى ينتخبون أربعمائة ناخب في الدرجة الثانية ينتخبون الاثني عشر عضواً المنتخبين)[٨٦]. ويرسل الوفد الفلسطيني مذكرة تجري فيها محاولة توضيح استحالة تطبيق تصريح بلفور. فالتصريح ينص على حماية الحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود بينما تعد الهجرة الأجنبية التي لا يشرف عليها السكان انتهاكاً لهذا النص. وبوجه عام، واستناداً إلى المادة ٢٢، يواصل الوفد المطالبة بجمعية تشريعية منتخبة كليًا وذات سلطات حقيقية[٨٧]. وتنشر الصحافة البريطانية مشروع الدستور فتتهم وزارة المستعمرات الوفد بأنه مسئول عن تسريبه[٨٨]. لكن الوفد ينفي ذلك بقوة[٨٩]. فنصبح عندئذ قاب قوسين من قطع المفاوضات.

وفي ٢١ فبراير/ شباط، يرسل الوفد ملاحظاته على مشروع الدستور[٩٠]: إن من غير الممكن قبول أي دستور لا يعطي شعب فلسطين الحق في السيطرة على شئونه الخاصة. والمندوب السامي يحوز بالفعل جميع السلطات، وهو نفسه صهيوني. وفلسطين، التي هي انتداب من الفئة ألِفْ، إنما تُعامَل كمستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني. ويطالب الوفدُ بدستور يحمي المصالح المدنية والسياسية والاقتصادية للشعب، مع قيام حكومة مستندة إلى المادة ٢٢ تحمي الحقوق القانونية للأجانب وحقوق الأقليات وحقوق الدولة المنتَدَبَة، وضمان المساواة الدينية للجميع.

ويدرك تشرشل أن مسألة الهجرة هي أم جميع المشاكل[٩١]: فيرتأي تكوين لجنة عربية ــ يهودية مختلطة مهمتها تنظيم الهجرة، مع تمتع المندوب السامي بسلطة اتخاذ القرار في حالة انعدام الاتفاق بين الطرفين المعنيين. وفي الأول من مارس/ آذار[٩٢]، يرد من خلال شاكبيرج بأن الوفد لا يتمتع بطابع رسمي لإجراء مفاوضات. وهو يؤكد أنه من غير الممكن التراجع عن تصريح بلفور وأن فلسطين قد استُبعدت من حقل تطبيق المادة ٢٢ بموجب المادة ٩٥ من معاهدة سيڤر، وهو ما يعد تأويلاً وقحاً. ثم يرفض كل الاعتراضات الأخرى.

وفي ٥ مارس/ آذار، يرسل الوفد الفلسطيني نداء غوث إلى البابا[٩٣]. وتلتقي رسالته مع رسالة الكاردينال جاسپارّي، سكرتير دولة الڤاتيكان، إلى الحكومة البريطانية، والمؤرخة في ٦ مارس/ آذار، والتي تبدي اعتراض

الكنيسة الكاثوليكية على مشروع ميثاق الانتداب[٩٤]:

لا يعترض الكرسي الرسولي على أن يتمتع اليهود في فلسطين بحقوق مدنية مساوية للحقوق التي تتمتع بها القوميات والطوائف الأخرى، بيد أنه لا يمكنه قبول:

١. منح اليهود مكانة متفوقة وذات صدارة على القوميات والطوائف الأخرى.

٢. عدم حماية حقوق الطوائف المسيحية حماية كافية.

فمشروع ميثاق الانتداب يعطي صدارة اقتصادية وإدارية وسياسية مطلقة للعنصر اليهودي على حساب القوميات الأخرى[٩٥]، وهو ما يتعارض مع المادة ٢٢. أمّا فيما يتعلق بالأماكن المقدسة، فإن مشروع لجنة "خاصة لدراسة وتسوية جميع المسائل والمطالبات المتصلة بمختلف الطوائف الدينية" ليس واضحاً بما يكفي: فالكنيسة تجهل مكانها في هذه اللجنة التي تتبع سلطة الانتداب تبعية زائدة عن الحد. ثم يجري إرسال هذه الرسالة إلى مجلس عصبة الأمم في ١٥ مايو/ أيار ١٩٢٢ ضمن إطار حملة الفاتيكان ضد التصديق على الميثاق بصورته الراهنة.

وينشغل بال فايتسمان بمعارضة الكرسي الرسولي هذه. وفي ٢ أبريل/ نيسان ١٩٢٢، سيتوصل إلى لقاء مع الكاردينال جاسبارّي في روما. وسيكون جوّ اللقاء مهذّباً ووديًّا، لكنه لن يؤدي إلى أي تغيير في موقف الفاتيكان[٩٦].

وفي ١٦ مارس/ آذار، يرد الوفد العربي على تشرشل بأن تصريح بلفور باطل لأن مراسلات حسين ــ ماكماهون التي تجعل من البحر المتوسط حدًّا للدولة العربية إنما تسبقه بعامين، وبأن المادة ٢٢ مهتمة بهناء عيش وتطور الشعوب الواقعة تحت الانتداب، وبأن اليهود شعب غريب عن فلسطين. وتشديد سكرتير الدولة على تصريح بلفور سعياً إلى الحد من الحقوق السياسية للشعب الفلسطيني إنما يعد بحد ذاته دليلاً على أن هذا التصريح يلحق ضرراً بهذا الشعب. ومعاهدة سيفر لم يتم التصديق عليها ومن المؤكد أنه سوف يستعاض عنها بمعاهدة أخرى. واتفاقية لاهاي تحظر على الدولة التي تحتل أرضاً تعديل وضعية هذه الأرض قبل التوصل إلى تسوية نهائية، إلخ.

ويلاحظ تشرشل أن الوفد العربي لم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه منذ

مجيئه إلى إنجلترا[٩٧]. فيرى أن مما لا طائل من ورائه مواصلة المحادثات، وإن كان يجب انتظار انقضاء أعياد الفصح لتجنب نشوب اضطرابات في فلسطين. وقد صدمته الحجة الخاصة بمراسلات حسين ـ ماكماهون: هل وَعَدَ ماكماهون حسين بفلسطين، نعم أم لا؟ وقد أصرت وزارة المستعمرات على الإجابة بالإيجاب. أمّا وزارة الخارجية فهي أقل جزماً فيما يتعلق بهذا الأمر[٩٨]. وقد طُرح السؤال مؤخراً على ماكماهون الذي رد عليه بأن نيته كانت تتمثل بالفعل في استبعاد فلسطين من دولة العرب المستقلة[٩٩]. ووزارة الخارجية معادية لنشر المراسلات (بسبب مسألة الخلافة أساساً).

محادثات القاهرة

في اللحظة نفسها، ينجح القوميون السوريون المنتمون إلى حزب الاتحاد السوري في تنظيم لقاء على مستوى عالٍ مع الصهيونيين، سعياً إلى التوصل إلى اتفاق. ويريد الأوّلون الحيلولة دون التصديق على ميثاق الانتداب على سوريا ولبنان بينما يريد الأخيرون الإسراع بالتصديق على ميثاق الانتداب على فلسطين. والحاضرون، من الجانب العربي، هم رياض الصلح والشيخ كامل القصّاب وإميل خوري؛ والحاضرون، من الجانب الصهيوني، هم إيدر وفيليكس دو منشّه (وهو مصرفي يهودي قاهري) وآشر سافير (وهو صحافي)[١٠٠]. وتدور المحادثات بالفرنسية.

وقد عُقدَ الاجتماعُ الأول في ١٨ مارس/ آذار. وبحسب المحضر، فإن الطرفين قد اجتمعا لأجل تبادلٍ للآراء، سعياً إلى تدشين عهد جديد قوامه السلم والتعاون. ويقبل الممثلون العرب مبدأ تعاون فيما بين اليهود والعرب من أجل إنماء الشرق الأدنى[١٠١]، وإن كان على أساس جديد لا يأخذ في الحسبان مراسلات حسين ـ ماكماهوُن وتصريح بلفور. ولا يطلب المندوبون العرب من اليهود اتخاذ موقف ضد حكومات أجنبية (فرنسا). ويوافق المندوبون اليهود على هذه المقترحات ويطالبون بالسلم والسكينة وبحرية الهجرة إلى فلسطين، وذلك بقدر ما يتمتع به البلد من قدرات اقتصادية، كما يطالبون بإنهاء الدعاية المعادية للصهيونية. ولا

شيء يتميز بالوضوح فيما يتعلق بمسألة طبيعة الدولة الفلسطينية:

في مقابل ذلك، سوف يضع اليهود في خدمة العرب جميع الإمكانات السياسية والاقتصادية والدعائية التي يتمتعون بها. والخلاصة أنهم سوف يتعاونون مع العرب مخلصين في تحقيق الهدف النهائي المحدَّد بالفعل. وفيما يتعلق بالضمانات التي يجب أن يكفلها العرب لليهود، تركز شاغل الوفد اليهودي بشكل خاص على الاضطرابات التي قد تنشب في فلسطين في شهر أبريل/ نيسان القادم بمناسبة الأعياد على أثر تأجيج للخواطر بين صفوف الجماهير.

وتعبيراً عن صدق الجانب العربي، فإنه يعد بإرسال مبعوثين إلى فلسطين للعمل على عدم وقوع اضطرابات خلال أعياد الفصح.

وينعقد الاجتماع الثاني في اليوم التالي. فيدور نقاش حول صوغ برنامج مشترك:

لا يطلب المندوبون العرب من اليهود الاعتراض على الانتداب الإنجليزي في فلسطين، لكنهم يشددون على أن تمتنع المنظمة الصهيونية عن تقديم مساندتها للفوز بانتدابات أخرى في بلدان عربية أخرى في شبه الجزيرة العربية. أمّا فيما يتعلق بالموقف الذي سوف يتعين على العرب اتخاذه فيما يتعلق بالانتداب على فلسطين، فسوف يكون موضع تفاهم بين الطرفين عبر تكوين اللجنة المختلطة.

وهذه اللجنة المختلطة التي اقترح المندوبون العرب تكوينها سوف تضم أعضاء اللجنة التنفيذية العربية وأعضاء يهود مساوين من حيث العدد يتم تفويضهم لهذا الهدف من جانب المنظمة الصهيونية (بحد أقصى ٤، أي بما يساوي عدد المندوبين العرب).

وسوف تصوغ هذه اللجنة المختلطة برنامج التنفيذ في جميع تفاصيله وسوف تتفق على السبل التي يجب انتهاجها لتوجيه مساعي الطرفين صوب الهدف المشترك. وقد أعلن المندوبون العرب أنهم يتمتعون بالفعل بالصلاحيات الضرورية لتوقيع أي اتفاق ولصوغ أي برنامج كما لتكوين اللجنة المذكورة.

ويعلن المندوبون اليهود، مع قبولهم باسمهم الشخصي جميع المبادئ المشار إليها بالفعل، أن عليهم الرجوع إلى القيادة المركزية لمنظمتهم قبل التوقيع النهائي على الاتفاق.

وقد انعقد الاجتماع الثالث في ٢ أبريل/ نيسان ١٩٢٢. فيتلو المندوبون الصهيونيون برقية من ڤايتسمان توافق على فحوى المحادثات مع تجميل شروطها. ويتصل النقاش بمصداقية الوفد العربي في غياب المعنيين الرئيسيين، الفلسطينيين. ويعد المندوبون العرب بالعمل على إحضار شخصيات فلسطينية إذا ما أراد الصهيونيون النقاش مع هذه الشخصيات.

وانعقد الاجتماع الرابع في ٤ أبريل/ نيسان في حضور مبعوث من طرف ڤايتسمان يحث على تشكيل اللجنة المختلطة. وسوف يحاول ڤايتسمان زيارة القاهرة لتوقيع الاتفاق: وفي حالة عدم تمكنه من المجيء، فسوف يتم عقد الاتفاق في مكان ما في أوروبا. ويختتم رشيد رضا الاجتماع:

> يرد رئيس اللجنة التنفيذية العربية بتوجيه الشكر إلى الدكتور ڤايتسمان معلنًا أنه لا يشك في صدق رغبته في التعاون مع العرب. ونحن على علم بمفاوضاته مع صاحب الجلالة الملك فيصل. إن درب الاتفاق والتعاون قد صار اليوم مفتوحاً. ويجب أن نسلكه بكل صراحة وثقة.
>
> هناك بعض المسلمين والعرب الذين يزعمون أن المُلك اليهودي محكوم عليه بألاّ يعاود الميلاد مرة أخرى. ونحن نؤمن بعكس ذلك ونرغب فيه. وفيما يتعلق بي أنا شخصيًا، فقد عبرت عن هذه الرغبة في تفسيري للقرآن.

والواقع أن لا أحد يحوز إمكانات تسليم ما وعد الآخر به. فالقوميون السوريون إنما يتعرضون في التوّ والحال للنقد من جانب الصحافة الفلسطينية بمجرد انتشار خبر اللقاء. والصهيونيون لا يمكنهم التحرك دون موافقة بريطانيا العظمى؛ والحال أن وزارة المستعمرات إنما تلحظ أنها بإزاء اتجاه إلى الدخول مباشرة في مواجهة جديدة مع فرنسا حول موضوع مستقبل سوريا، كما حدث في ١٩١٨ــ١٩١٩. وإذا ما جرى السير في هذا الاتجاه، فهناك خطر توجيه الاتهام إلى اليهود بالاستيلاء على ثمرة الانتصار الذي حققه الحلفاء[١٠٢]. باختصار، لم يكن بوسع الصهيونيين التأثير البتة على السياسة الفرنسية ولم يكن بوسع السوريين التأثير البتة على السياسة الفلسطينية. على العكس، إن الصهيونيين يدركون أن التصديق على الانتداب على فلسطين مشروط بالتصديق

على الانتداب على سوريا ومن ثم فهم يتحركون في هذا الاتجاه في الولايات المتحدة. وبعد أن كانت المحادثات قد تمهلت وحتى دون إعداد نص للاتفاق، جرى التخلي عنها. وسوف يجري استئنافها عبر محاورين آخرين في سبتمبر/ أيلول ١٩٢٢. والحال أنها سوف تنتهي بإزعاجٍ كافٍ للفلسطينيين، الذين سينسحبون عندئذ من المؤتمر السوري ـ الفلسطيني، ليقتصر على مكوِّنه السوري. وهكذا فإن هذه المسألة، جرَّاء تباين المصالح الذي تكشفُ عنه، سوف تعزز الانفصال بين النزعتين القوميتين السورية والفلسطينية.

وبما يدل على السذاجة، راود القوميين السوريين الأمل في استخدام النفوذ اليهودي لإصابة السياسة الفرنسية في سوريا بالفشل. وبشكل يتمايز بالتحايل، سوف يتحرك ڤايتسمان عبر أصدقائه الفرنسيين ـ السياسيين الثلاثة الوحيدين الذين لهم تعاطفات فاعلة مع الصهيونية، ليون بلوم وأناتول دو مونزي وماريوس موتيه ـ بالإيحاء من خلالهم بأن الصهيونيين سوف يكون بوسعهم تمكين فرنسا من الحصول على رئاسة لجنة الأماكن المقدسة[١٠٣]. وهو يلعب بعد ذلك على الخوف من اتحاد الإسلام واليهودية للضغط على الفرنسيين عبر رسالة موجَّهة من السياسيين الثلاثة إلى بوانكاريه[١٠٤]:

> بما أن الاتفاق قد تم التوصل إليه كإمكانية، فإنه يبدو أن من الوارد تسوية المسألة الفلسطينية في دورة يوليو/ تموز. ومن واجبنا تنبيه رئيس الحكومة الفرنسية إلى أنه سوف يترتب على أي إرباك جديد خطر لا مفر منه على السلم في الشرق الأدنى، بل وعلى أمن شمالي أفريقيا: فنحن لسنا بحاجة إلى التشديد على التهديد الكامن الذي يمثله المؤتمر العربي العام في القاهرة بقواعده المستقرة ومداولاته السرية؛ إلاّ أنه قد يكون من المناسب عدم ترك الصهيونيين المحبطين يستجيبون لمقترحات المحرضين العرب الذين سوف يسعدهم، في النهاية، أن ينجحوا في تحويل إحباطات اليهود والمسلمين المشتركة ضدنا.

والحال أن لقاءات القاهرة مهمة بقدر ما أنها تدشن، لعدة عقود، لقاءات سرية للمصالحة سوف تفضي إلى لقاءات أوسلو.

چنيــف

بانقضاء الفترة الخطرة الخاصة بالأعياد الدينية في القدس، يرد تشرشل على الوفد الفلسطيني، في ١١ أبريل/ نيسان ١٩٢٢، بأنه يأسف لموقف الوفد التعويقي. وهو يقترح على الوفد المشاركة في المشاورات الهادفة إلى إنشاء لجنة مهمتها تسوية مشكلات الهجرة.

والتفكير في مستقبل فلسطين يتم عبر دراسة التوقعات الديموغرافية. وما نزال بعيدين عن الأرقام التي طرحها فايتسمان خلال مؤتمر الصلح أو خلال مؤتمر كارلسباد. والحال أن دراسة أجريت بناءً على طلب من وزارة المستعمرات إنما تؤدي إلى إدخال تعديل على التوقعات التي كانت موضع الأخذ في الحسبان إلى ذلك الحين[١٠٥]: إن العرب لهم المعدل الأعلى في كل من المواليد والوفيات، خاصة بالنسبة للأطفال. ومن الممكن افتراض أنه مع التقدم السريع في توافر العلاج وشروط الصحة العامة سوف تنخفض وفياتهم انخفاضاً ملحوظاً دون أن يتأثر معدل مواليدهم تأثراً حقيقيًّا. والمسيحيون يتمتعون بتوازن أفضل بين المعدلين وسوف يواصلون الحفاظ على معدل نموهم الحالي. أمّا اليهود، جرّاء أشكال عدم التوازن بين الجنسين والراجعة إلى الهجرة (من يصلون من الرجال يزيدون مرتين عمن يصلون من النساء) وظروفهم المعيشية القاسية، فإن معدل نموهم الطبيعي، على العكس من ذلك، سوف يهبط.

ويبدو أن هذا التفكير إنما يستند إلى معطيات زائفة قياساً إلى إعادات التركيب اللاحقة التي قام بها الديموغرافيون (فالتعداد الأول للسكان الفلسطينيين في عهد الانتداب لم يكن قد تم القيام به)، فهو يتحدث بالنسبة لعام ١٩٢١ عن نمو طبيعي نسبته ١,٢% بالنسبة للمسلمين و١,٣% بالنسبة للمسيحيين و١,٥% بالنسبة لليهود[١٠٦]. وإذا ما أخذنا كافتراض عالٍ هجرة يهودية بمتوسط ١٠٠٠٠ نسمة (أو بشكل أدق رصيد هجرة متوسط)، فسوف يصل بنا ذلك في ختام ثلاثين سنة إلى ٨٠١٠٠٠ مسلم و١٠٥١٥٠ مسيحيًّا و٤٨٥٤٠٠ يهوديٍ. وسيتطلب الأمر انقضاء اثنتين وسبعين سنة لكي نصل إلى ١٥١٣٠٠٠ عربيٍ و١٤٨٧٠٠٠ يهوديٍ. والنتيجة أن اليهود لن يتوصلوا أبداً إلى أن تكون لهم الأغلبية. ويرى هربرت صمويل أن الحد الأقصى الذي يمكن أن تستوعبه طاقة

فلسطين لا يزيد عن ٦٠٠٠ مهاجر. ثم إن الدروز وكذلك البدو لم يجر إدراجهم في الحساب.

وسوف يتكشف أن هذه الأرقام زائفة، خاصةً لأنها تقلل إلى حد بعيد، وفي آن واحد، من وزن النمو الديموغرافي العربي ومن الأهمية التي سوف تتخذها فيما بعد ــ ضمن سياقات تاريخية أخرى ــ الهجرةُ اليهودية. بيد أن التفكير، بحد ذاته، دقيق نسبيًا. وإذا ما أخذنا تقديرات السكان بالنسبة لعام ١٩٩٥ (أي بعد انقضاء السنوات الاثنتين والسبعين التي تحدث عنها الديموغرافي الإنجليزي)، فسنجد أن لدينا نحو ٦٢٠٠٠٠٠ عربي فلسطيني غير إسرائيلي و ٨٤٠٠٠٠ عربي إسرائيلي، ومن ثم ٧٠٤٠٠٠٠ فلسطيني في مقابل ٤٦٦٠٠٠٠ يهودي إسرائيلي(١٠٧). إن نمو الجماعتين السكانيتين المعنيتين هو أكثر من مفاجئ.

والشيء الأكثر أهمية هو أن المسئولين البريطانيين، آخذين كإطار مرجعي وجود القوة المنتدَبَة، لوقت غير محدَّد، لكنه طويل جدًا، إنما يمكنهم اعتبار أن الدولة اليهودية ليست واردة بعدُ فِي جدول الأعمال لأنها، ضمن رؤيتهم الليبرالية، لن يكون بوسعها أن تقوم إلاّ عندما تكون الأغلبية لليهود...

وضمن هذا المنظور يتصدرون للمفاوضات النهائية، في لندن كما في جنيف. ويتم التغلب على مسألة العرقلة الأميركية. ذلك أن البريطانيين، بعد أن ناقشوا هذه المسألة مع الفرنسيين، قد اقتنعوا بضرورة أن يعقدوا مع الولايات المتحدة معاهدات منفصلة بخصوص كل انتداب، يعلقون بموجبها الامتيازات خلال مدة الانتداب ويرجئون المسألة إلى لحظة نيل الاستقلال(١٠٨). وتقبل الولايات المتحدة هذا الحل الذي يدل على حسن التصرف(١٠٩). وسوف يجري تعديل الميثاق ضمن هذا الاتجاه.

وكما هو معهود، تتمثل العقبة الرئيسية في موقف الڤاتيكان، فهو يطلب من الدول الكاثوليكية إرجاء التصديق على الانتداب ما دامت مسألة لجنة دراسة المشكلات الدينية لم تسوَّ(١١٠). وتحذو فرنسا حذو هذه الخطوة لكي ترغم البريطانيين على منح رئاسة اللجنة لكاثوليكي فرنسي (كان الڤاتيكان يفضل أن يكون الرئيس بلچيكيًا). ويتذرع بوانكاريه بضرورة تسوية المسائل التي طرحها

مؤتمر جنوة قبل التصدي للتسوية النهائية لمسائل الشرق الأدنى، والتي تبدو له سابقة للأوان بسبب صروف الحرب اليونانية ـ التركية[١١١]. على أن بلفور، ممثل بلاده في عصبة الأمم، يحاول نقل التصديق إلى جدول الأعمال[١١٢]. ويعترض الممثلون الفرنسيون والإيطاليون على ذلك. وتنبع العرقلة التي تقوم بها إيطاليا من استيائها من استبعادها من التسوية الخاصة بالشرق الأدنى. وتتمنى فرنسا تجنب المضي إلى حد الصدام مع بريطانيا العظمى حول هذا الموضوع[١١٣].

أمّا الوفد الفلسطيني فهو يتوجه بالخطاب إلى عصبة الأمم مباشرةً لكي يحتج على عدم مشروعية الانتداب وتصريح بلفور[١١٤]. وبحسب العادة، جرى نقل الاحتجاج إلى الدول الأعضاء. والحال أن وزارة المستعمرات البريطانية إنما ترسل إلى الوفد البريطاني حجاجاً كاملاً للرد على هذا الاحتجاج[١١٥]. فيجري إخراج الحجة التي ابتدعها يانج، في مستهل عام ١٩٢١، خلال محادثاته مع فيصل: إن ماكماهون لم يدرج فلسطين ضمن الأراضي التي وُعِدَ بها الشريف حسين وقد أوضح ذلك بحديثه عن الأراضي الواقعة إلى الغرب من ولاية دمشق. وبما أن ولاية دمشق تمتد إلى العقبة وتشمل مجمل شرق الأردن في تمايز عن ولاية بيروت وسنجق القدس، فإن فلسطين لا دخل لها من ثم بما جاء في مراسلات حسين ـ ماكماهون. ومن المؤكد أن فيصل قد رد في التوّ والحال بأن ماكماهون قد تحدث عن ولايات حماه وحمص ودمشق، في حين أن حمص وحماه ليستا ولايتين. إلاّ أنه لا مجال للشك في نوايا ماكماهون. والحال أن البريطانيين، الذين فقدوا اتجاه ١٩١٥ على أثر تتابع الأحداث، سوف يتمسكون إلى نهاية الانتداب بهذا التفسير الأعرج. أمّا فيما يتعلق بالتصريح الفرنسي ـ البريطاني الصادر في ٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨، فهو لا يذكر فلسطين ولا يتصل إلاّ بتكوين حكومة من أهل البلد، وهو مهمة طويلة الأمد. ومشروع دستور فلسطين هو المرحلة الأولى في تحقيق هذه المهمة. وفي هذا الوضع، فإن تصريح بلفور لا يتعارض مع المادة ٢٢. وحقوق اليهود التاريخية والدينية في فلسطين أمر مقضي لم يعد بالإمكان التراجع عنه. وقد استبعد تصريح ٣ يونيو/ حزيران ١٩٢١ خلق دولة يهودية في فلسطين.

ومن الواضح أن ڤايتسمان موجود في جنيف. وهو جد منزعج من خطر التأجيل. فيستأنف تاكتيكه المعتاد والخاص بنفوذ اليهود في العالم. وهكذا يتحدث في ١٢ مايو/ أيار أمام المندوب الفرنسي(١١٦):

ألمح إلى أن تأييد حكومة الولايات المتحدة للمشروع البريطاني إنما يجب أن يعزى إلى يهود أميركا، وهو يضيف بنبرة حزينة بأن هذا الإحباط قد يثنيهم عن التدخل مرة أخرى لدى واشنطون، دعماً لانضمام الولايات المتحدة إلى عصبة الأمم، بعد إعادة النظر في المادة ١٠. ولا مراء في أن نفوذهم على الحكومة الاتحادية أضعف مما يقبل السيد ڤايتسمان الاعتراف به. بيد أنه قد يكون من المفيد إشعار السيد چيسران بما ورد على لسانه من مزاعم.

ويدفع ڤايتسمان بلوم ومونزي وموتيه إلى إقناع الفرنسيين بأن الصهيونيين موافقون على رئاسة فرنسية للَّجنة المسمَّاة بلجنة الأماكن المقدسة(١١٧):

بما أن مسألة تعيين رئيس لجنة **الأماكن المقدسة** لم يكن قد جرى التصدي لها، فإن السيد ليون بورچوا لم ير داعياً للتحدث عن البرقية التي تلقاها هذا الصباح حول موضوع استعداد السيد ڤايتسمان لتأييد ترشيح فرنسي. إلاّ أنني لم أتخلف عن إعلان ثقتي أمام هذا الأخير بأنه سوف يكون بوسعنا الاعتماد، عندما تجيء لحظة الترشيح، على دعمه وعلى دعم الصهيونيين للترشيح الذي ستقوم به الحكومة.

وقد قدَّم لي في هذا الصدد أفضل التأكيدات، بل إنه قال لي إنه على أثر اتصال هاتفي مع السيد مونزي أوضح للورد بلفور كما للكابتـــن ملز ممثل وزارة المستعمرات الفوائد التي يراها الصهيونيون في وقوع الاختيار على رئيس فرنسي [للَّجنة].

ويبدو أن اللورد بلفور قد مال إلى تسجيل هذه التوصية مع الوعد بعرضها على حكومته. وقد تذكرتُ من جهة أخرى أن تفضيلات هذه الأخيرة كانت تتجه إلى تعيين أحد البروتستانت، وبالأخص أحد الكالڤانيين، وذلك لتجنب المؤثرات الدينية التي تفرض نفسها على [رئيس] كاثوليكي [للَّجنة] |.

وأخيراً، نجد أنه يستعيد، أمام لجنة الانتدابات، الحجة التي تذهب إلى أن الصهيونية ترياق مضاد لميول اليهود التدميرية(١١٨):

يرى السيد ڤايتسمان بشكل خاص أن المشكلة اليهودية لن تتخلف عن طرح نفسها يوماً ما، وربما في أمد قصير نسبيًّا، في الولايات المتحدة، وخاصة في ولاية نيويورك. ولتجنب هذا الخطر، فإنه يراهن على الجاذبية التي ستمارسها فلسطين على جميع اليهود الذين استقروا مؤخراً في الولايات المتحدة، كما على جميع اليهود الآخرين الذين استقروا منذ عهد قريب في بلدان التمدن المتقدم والذين لم يجر استيعابهم بالكامل. وهو يرى، بالمقابل، أن فشل الحركة الصهيونية لن يتخلف عن خلق شعور تململ في العالم من شأنه التسبب في وقوع اضطرابات جسيمة. ولذا فهو يرى أنه لا يجب لأحد أن يستاء من الحركة الصهيونية، التي لا تهدد أحداً.

وفي ١٧ مايو/ أيّار ١٩٢٢، أمام مجلس عصبة الأمم(١١٩)، يلقي بلفور خطبة لافتة بشكل خاص: إن مسألة الانتداب إنما تتمايز عن مسألة معاهدة سيڤر. والتصديق ملح حتى يتسنى إرساء الأسس الضرورية للتنمية الاقتصادية ولرفاهية السكان. وهو يقدم تعريفه للانتداب: إنه قيد يفرضه الفاتحون على أنفسهم ضمن السيادة التي يتمتعون بها على الأراضي التي تم فتحها(١٢٠)، وهذا لما فيه صالح الإنسانية. وعصبة الأمم ليست مبتكرة الانتداب: فمهمتها هي التأكد مما إذا كانت مبادئ الانتداب وتطبيقها في تماشٍ مع المبادئ التي حدَّدتها الدول المتحالفة والمشاركة. وهو لا يمكنه أن يفهم كيف يمكن لنقل سلطة دولة مسلمة إلى دولة مسيحية أن يلحق ضرراً بالمصالح المسيحية! لقد بدت بريطانيا العظمى دوماً عادلة في إدارة الشئون الدينية. فهي بلد بروتستانتي قدَّم للديانة الكاثوليكية أكرم وأعدل معاملة! وجميع الشئون الدينية المتعلقة بفلسطين سوف تدار في رائعة النهار، تحت إشراف لجنة الأماكن المقدسة ولجنة الانتدابات وجمعية ومجلس عصبة الأمم. وهو لا يطلب إلاّ أن تجري المناقشة النهائية في غضون فترة لا تزيد عن ستة أسابيع.

ويقبل المجلس الاقتراح ويحدد موعد بدء مناقشات التصديق بـــ١٥ يوليو/ تموز ١٩٢٢. وقد طالبت فرنسا وإيطاليا بمهلة أطول لاستكمال التنسيق مع البلدان المعنية(١٢١). وينزعج بعض مسئولي عصبة الأمم من عواقب القرار الذي سيتعين اتخاذه(١٢٢):

حدثني السيد مونّيه، السكرتير العام المساعد لعصبة الأمم، عن مخاوفه من مسألة الانتدابات من الفئة ألِف، وخاصة بالنسبة لفلسطين. فهو يخشى من تصوير عصبة الأمم وكأنها تسلّم فلسطين للصهيونيين.

وقد قلت له إن من الصعب على الحكومة الفرنسية التراجع عن الدعم الذي وعدت به الحكومة البريطانية، وهذه الأخيرة، بالمقابل، ستكون على جانب كبير من الفطنة إذا ما قامت، سعياً منها إلى تبديد اعتراض الفاتيكان والدول الكاثوليكية (إسبانيا، البرازيل، إيطاليا، بلجيكا) بتكوين لجنة **الأماكن المقدسة** على شكل دولي، بمطالبتها بعض الدول المعنية بأن يكون لها تمثيل فيها، بينما تقوم عصبة الأمم بتعيين رئيس [اللجنة].

وقد شدت هذه الفكرة اهتمام السيد مونّيه وسيرى ما إذا كان يمكن اقتراحها على اللورد بلفور عن طريق السير إيريك دورموند. والواقع أن اللورد بلفور منـــزعج من المسار الذي تتخذه المسألة الصهيونية بعد احتجاج الكرسي الرسولي.

الكتاب الأبيض الصادر عن تشرشل

فيما عدا شهرين من النقاش المنبئ بما ستؤول إليه الأمور، يبقى إعطاء الشروح الأخيرة للميثاق لاستكمال ترتيبات الموقف البريطاني. ويزور السير هربرت صمويل لندن لينجز مع تشرشل هذه المهمة. وفي ٣٠ مايو/ أيّار، يجري إبلاغ الوفد الفلسطيني بالعناصر الرئيسية لهذا الموقف. وفي ٣ يونيو/ حزيران ١٩٢٢، وهو موعد تذكاري أجيد اختياره، نجد أن التصريح السياسي، الذي سيأخذ في التاريخ اسم كتاب تشرشل الأبيض، إنما يجري إبلاغ المنظمة الصهيونية به. وبعد تلقي الحكومة البريطانية ردود الطرفين، تقوم بنشره في ١٨ يونيو/ حزيران ١٩٢٢.

والحال أن هذه الوثيقة الأساسية إنما يتوجب اعتبارها ذات قيمة مساوية لقيمة ميثاق الانتداب الذي تقوم بشرحه. وهي تقدم صيغة متماسكة للسياسة التي نص عليها تصريح ٣ يونيو/ حزيران ١٩٢١[١٢٣].

وهي تقدم نفسها بوصفها خلاصة لمناقشات "بين الوزير ووفد للجمعية الإسلامية ـــ المسيحية في فلسطين مكث في إنجلترا لبعض الوقت". وتذهب إلى أن مخاوف مجموعات معينة من العرب إنما تستند إلى تأويلات لتصريح بلفور

تتميز بالشطط:

لقد أُعلن، دون مسوغ لهذا الإعلان، أن الهدف هو خلق فلسطين يهودية بالكامل. وقيلت عبارات كالعبارة التالية: "إن فلسطين يجب أن تصبح يهودية بقدر ما أن إنجلترا إنجليزية". وترى حكومة جلالة الملك أن أي أمل من هذا النوع غير قابل لأن يتحقق وهي لا ترنو إلى أي هدف كهذا، كما أنها لم تفكر، وهو ما يبدو أن الوفد العربي يخشى منه، في إزالة أو إخضاع السكان العرب في فلسطين أو لغتهم أو ثقافتهم. وهي ترغب في لفت الانتباه إلى واقع أن عبارات التصريح التي سلفت الإشارة إليه لا تنص على تحويل فلسطين بكاملها إلى مقام قومي يهودي، بل تنص على أن مقاماً كهذا ستتم إقامته في فلسطين. وفي هذا الصدد، لاحظنا بارتياحٍ أنه في اجتماع للمؤتمر الصهيوني الذي هو الجمعية التنفيذية الأعلى للمنظمة الصهيونية، وهو اجتماع عقد في كارلسباد في سبتمبر/ أيلول ١٩٢١، صدر قرار يقدم تعبيراً رسميًا عن الهدف الذي يتوخاه الصهيونيون.

واللجنة الصهيونية، التي أصبحت اللجنة التنفيذية الصهيونية في فلسطين، لم تخامرها قط الرغبة في أن يكون لها نصيب في الإدارة العامة للبلد. والمادة ٤ من مشروع الميثاق (الوكالة اليهودية):

[...] لا تنص من جهة أخرى على قيامها بمثل هذه الوظائف. وهذا الوضع الخاص إنما يتصل بالتدابير التي سيتعين اتخاذها في فلسطين فيما يتعلق بالسكان اليهود. ومن المتصور أن المنظمة الصهيونية سيكون بوسعها الإسهام في الإنماء العام للبلد بيد أنها لن يكون لها أي حق في المشاركة في حكومته.

وسيكون جميع مواطني فلسطين فلسطينيين، ولن تكون هناك وضعية حقوقية متمايزة لجزء من السكان. والمعنى الذي يجب إعطاؤه للمقام القومي اليهودي هو ما يلي:

على مدار الجيلين أو الأجيال الثلاثة الأخيرة، أعاد اليهود تكوين جماعة بشرية في فلسطين تتألف الآن من ٨٠٠٠٠ نسمة، يتألف نحو ربعهم من مزارعين أو عمال زراعيين. وهذه الجماعة لها أجهزتها السياسية الخاصة؛ ولها جمعية منتخبة لرعاية حاجاتها المحلية؛ ومجالس منتخبة في المدن ومنظمة لتوجيه مدارسها. كما أن لها حاخامها الأكبر

المنتخب ومجلسها الحاخامي المكلّف بتوجيه شئونها الدينية. وتدار شئونها بالعبرية، التي تعتبر لغة قومية، وتحت تصرفها صحافة عبرية. كما أن لها حياتها الثقافية المتمايزة تماماً، ثم إنها تبذل نشاطاً اقتصادياً كبيراً جدًّا. ومن ثم فإن هذه الجماعة بجماعاتها السكانية المدينية والريفية، وبمنظماتها السياسية والدينية والاجتماعية، وبلغتها الخاصة وعاداتها التي تخصها، وبحياتها التمايزة، إنما تتميز في واقع الأمر تماماً بخصائص "قومية". وعندما يتساءل المرء عن المقصود بإنماء مقام قومي يهودي في فلسطين، فمن الممكن إجابته بأن المقصود ليس فرض الجنسية اليهودية على جميع سكان فلسطين وإنما بالأحرى إنماء الجماعة اليهودية الموجودة هناك بالفعل، وذلك بمساعدة من جانب اليهود الموزَّعين في أجزاء العالم الأخرى. وهكذا فإن هذه الجماعة سوف تصبح مركزاً من شأنه، على ساحة الدين والجنس، أن يصبح بالنسبة للشعب اليهودي بأسره موضع اهتمام وفخر. إلاّ أنه، كيما تحوز هذه الجماعة أفضل آفاق النمو الحر وكيما تتاح للشعب اليهودي كل التسهيلات الممكنة للتعبير عما يحوزه من طاقات، فمن الضروري أن يعرف أنه موجود في فلسطين بحكم حق يتمتع به وليس بحكم منَّة من أحد. ولهذا يتوجب لوجود مقام قومي يهودي في فلسطين أن يكون مكفولاً دوليًّا وأن يتم الاعتراف رسميًّا بأن وجوده يستند إلى أسس تاريخية.

وما سلف هو التفسير الذي تقدمه حكومة جلالة الملك لتصريح ١٩١٧ و، بفهمه على هذا النحو، فإن الوزير يرى أنه لا يتضمن ولا ينطوي على أي شيء يمكنه إزعاج السكان العرب أو إحباط اليهود.

وسوف يجري تنظيم الهجرة من زاوية طاقة الاستيعاب الاقتصادية:

من المهم بشكل رئيسي ألاّ يكون المهاجرون عبئاً على سكان فلسطين في مجموعهم وألاّ يحرموا أي فريق من السكان من عمله. وقد أوفت الهجرة إلى الآن بهذه الشروط، فعدد المهاجرين منذ الاحتلال البريطاني إنما يصل إلى نحو ٢٥٠٠٠ نسمة.

ومن الضروري أيضاً التأكد من عزل الأشخاص الخطرين من الناحية السياسية عن فلسطين وقد اتُّخذت وسوف تُتَّخذ من جانب الإدارة كل التدابير الاحتياطية الضرورية، لتحقيق هذا الهدف.

وتتجه النية إلى تكوين لجنة خاصة في فلسطين مكونة على وجه الحصر من أعضاء مجلس تشريعي جديد منتخب لتبادل الآراء مع الإدارة في موضوع الشئون المتصلة بتنظيم

الهجرة. وفي حالة حدوث خلاف في الرأي بين هذه اللجنة والإدارة، سوف يجري عرض المسألة على حكومة جلالة الملك التي ستقوم بدراستها بشكل خاص تماماً. ثم إن المادة ٤ من مشروع الميثاق تنص على أن كل طائفة دينية أو كل فئة مهمة بما من يكفي من سكان فلسطين سيكون لها الحق العام في مخاطبة عصبة الأمم من خلال المندوب السامي وسكرتير الدولة، وذلك في جميع الحالات التي ترى فيها أن حكومة فلسطين لا تتقيد بما نص عليه الانتداب.

وفيما يتعلق بالعرب، يكرر تشرشل أن البريطانيين لم يتعهدوا لهم قط خلال الحرب بإقامة حكم قومي مستقل. وهو يستعيد التفسير الذي قدّمه يانج لمراسلات حسين ــ ماكماهون. وسوف يجري تزويد البلد تدريجيًّا بمؤسسات حكم ذاتي: فقد شهدنا المجلس الاستشاري المعين، ومشروع الدستور يشتمل على قيام مجلس تشريعي سيتم انتخاب جزء من أعضائه عن طريق اقتراع جد واسع.

ومن ثم فسوف يضم المجلس التشريعيُ المندوبَ السامي كرئيس له واثني عشر عضواً منتخباً وستة أعضاء ينتمون إليه بحكم وظائفهم. ويرى سكرتير الدولة أنه قبل أن يتسنى الانتقال في فلسطين إلى درجة أخرى في الحكم الذاتي وقبل أن يتسنى وضع المجلس فوق السلطة التنفيذية، سيكون من الحكمة السماح بانقضاء بعض الوقت. وفي تلك الأثناء، ستكون مؤسسات البلد قد توطدت وستكون مكانتها المالية قد استندت إلى أسس راسخة وسيكون الموظفون الفلسطينيون قد أصبحوا على مستوى كسب الخبرة فيما يتعلق بمناهج الحكم السديدة. وبعد ذلك ببضع سنوات، ستجري دراسة الوضع الجديد، وإذا ما سمحت نتائج تطبيق الدستور الذي سيجري اعتماده بمنح ممثلي الشعب المنتخبين حصة من السلطة أوسع فسوف يتم عمل ذلك.

وقيام الحكم الحر إنما يتحقق عبر توسيع الإدارة من جانب الطوائف وتوسيع اللجان التمثيلية:

يلفت سكرتير الدولة الانتباه إلى ما خولت الإدارة الحالية أموره للمجلس الأعلى المنتخب من جانب الطائفة المسلمة في فلسطين: الإدارة الكاملة للأوقاف والإشراف على

المحاكم الشرعية الإسلامية. وقد قامت الإدارة بالفعل عن طيب خاطر بتسليم هذا المجلس إيرادات ملحوظة متأتية من الأوقاف القديمة التي كانت الحكومة التركية قد وضعتها تحت الحراسة. وإدارة المعارف العمومية تستشير أيضاً لجنة تمثل جميع أقسام السكان وتتمتع إدارة التجارة والصناعة بميزة التعاون مع الغرف التجارية التي كانت قد أنشئت في المراكز الرئيسية. وتنوي الإدارة إشراك اللجان التمثيلية المماثلة بشكل متزايد باطراد في عمل مختلف إدارات الحكومة.

وإذ يدرك فايتسمان علاقة القوى ويطمئن إلى الفوز بوكالة يهودية، فإنه إنما يقبل الكتاب الأبيض دون تحفظ، باسم المنظمة الصهيونية، ويؤكد للبريطانيين على تعاون الصهيونيين معهم(١٢٤). وهو يؤكد لديديس، في ٢٩ يونيو/ حزيران، على خيبة أمل العالم اليهودي، كما يؤكد على أن الكتاب الأبيض إنما يشكل آخر تنازل يمكن للصهيونيين تقديمه(١٢٥). والواقع أنه يعطي الأولوية المطلقة للتصديق على الميثاق. وفيما بعد، في علاقة قوى أفضل، سيكون من الوارد يوماً العودة إلى فكرة الدولة اليهودية. وسوف يفكر في ذلك دوماً دون أن يتحدث عنه البتة. فالمهم، الآن، هو العمل على بناء المقام القومي.

والحال أن الوفد الفلسطيني العربي إنما يرفض بالكامل الكتاب الأبيض(١٢٦) الذي وصفه بأنه وفد للجمعية الإسلامية ــ المسيحية وليس ممثلاً لمسيحيي ومسلمي فلسطين: إن العلاقات فيما بين العرب واليهود، قبل ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧، كانت مثالية. والصهيونية هي سبب جميع الشرور. فهي قد فصمت الأواصر فيما بين الجماعتين السكانيتين. ومجرد الاعتراف بأن الوجود اليهودي في فلسطين له طابع قومي إنما يشكل عدواناً على الحقوق القومية لنسبة ٩٣% من سكان فلسطين. ومن السهل تفنيد الحجاج الخاص بمراسلات حسين ــ ماكماهون. ولا يمكن فهم التأخير في منح الحكم الذاتي إلاّ بالرغبة في ترقب قيام جماعة سكانية يهودية لها وزنها. واللجان الحكومية ذات طابع استشاري بشكل خالص. ولا تسمح طبائعُ الأمور بقيام روح تعاون بين شعبين على هذه الدرجة الكبيرة من التباين ولا يمكن توقع أن العرب سيقبلون ظلماً

كهذا ولا أن الصهيونيين سوف ينجحون بهذه الدرجة من السهولة في تحقيق أحلامهم(١٢٧). إن الحكومة البريطانية إنما تنخرط في سياسة لا يمكن للعرب قبولها لأنها تعني زوالهم في هذا الأمد أو ذاك. وإذا لم يجر تغيير هذه السياسة، فإن ذلك سوف يعني قيام مقام قومي يهودي سيقود إلى محو أو إلى إخضاع السكان العرب ولغتهم وثقافتهم في فلسطين(١٢٨).

وفي ١٨ يونيو/ حزيران، يُنشرُ الكتاب الأبيض في فلسطين(١٢٩). والجو فيها جد متوتر. ويدور حديث عن انتفاضة عربية. لكن القيادة الإسلامية ـ المسيحية تنجح في احتواء سخط السكان(١٣٠). وتجتمع اللجنة التنفيذية العربية من ٢٤ إلى ٢٧ يونيو/ حزيران في مسعىً لتنظيم حركة احتجاج أخيرة موجَّهة إلى عصبة الأمم. فيجري الإعلان عن القيام في يومي ١٣ و١٤ يوليو/ تموز بإضراب عام عند بدء مناقشات جنيف. وسوف يجري إرسال وفد إلى مكة وآخر إلى روما. وسيحمل الوفد الأول منشورات صهيونية تتضمن صورة الحرم الشريف وصوراً للمساجد. والمقصود هو كشف الأطماع الصهيونية في المكان الإسلامي المقدس أمام أعين العالم الإسلامي(١٣١). ويجري إرسال سلسلة من برقيات الاحتجاج إلى جنيف(١٣٢). والوفد الموجود في لندن يكثر من النداءات الموجّهة إلى الرأي العام الإنجليزي وإلى عصبة الأمم وإلى "العالم المتمدن".

ويدعم آمال العرب وجود تيار كامل في صفوف الرأي العام في بريطانيا العظمى يتميز بالعداء لتصريح بلفور(١٣٣). وتخوض صحف نورثكليف حملة حامية ضد امتياز روتنبرج (لهيدرو ـ كهرباء فلسطين). وفي ٢١ يونيو/ حزيران، يهاجم اللوردات المؤازرون للعرب الانتداب على فلسطين، والذي يتعارض مع مشاعر وأماني الغالبية العظمى من السكان المعنيين. فنجد أن بلفور، الذي يلقي خطابه الأول أمام مجلس اللوردات (*maiden speech*)، يحاول قلب كفة الميزان، ولكن دون طائل. إذ يجري رفض تصريح بلفور بأغلبية ٦٠ صوتاً في مقابل ٢٩ صوتاً.

والقرار النهائي من اختصاص مجلس العموم، الذي يناقشه في ٤ يوليو/ تموز. فيهاجم عدة خطباء بقوَّةٍ سياسة سكرتير الدولة لوزارة المستعمرات.

ويعيد هذا الأخيرُ الموقفَ إلى ما كان عليه، وذلك عبر واحدةً من خطبه البارعة، منكِّراً بأن معارضي هذه السياسة اليوم كانوا في السابق مؤيدين لها. وهو يبرر المنجزات الصهيونية ويؤكد أن فلسطين لو تُركت للعرب فسوف تظل صحراء. ويعلن أن الحكومة البريطانيةَ لا تحوز الإمكانات اللازمة لإنماء فلسطين، شأن غيرها من المستعمرات. وهذا هو السبب في أنه يجب تأييد امتياز روتنبرج، الذي سيخلق ثروات جديدة وسيسمح لليهود بالتقدم دون إلحاق ضرر بالعرب. وهو يبين أن أفضل برهان على كفاءة سياسته هو أن فلسطين التي كلفت الميزانية البريطانية ٨ ملايين من الجنيهات في عام ١٩٢٠، لم تكلفها في عام ١٩٢١ غير ٤ ملايين، ومن الأرجح أنها لن تكلفها في عام ١٩٢٢ إلا مليونين. وهذه الحجة الحاسمة تعود على سكرتير الدولة بنجاح برلماني هائل. فهو يلقى التأييد بأغلبية ٢٩٢ صوتاً في مقابل ٣٥ صوتاً.

التصـــديق

بعد التأييد الذي قدمه مجلس العموم، لا يبقى هناك بعدُ سوى قرار عصبة الأمم. فيجري تعديل مشروع الميثاق مرةً أخرى فيما يتعلق بلجنة الأماكن المقدسة، والتي تقتصر مهامها بشكل خاص على مسألة العتبات المقدسة[١٣٤]. وفي ١٩ يونيو/ حزيران، يحيط بوانكاريه بلوم ومونزي وموتيه علماً بأن فرنسا لم تعد لديها اعتراضات على التصديق[١٣٥]. ويجري نشر المراسلات بين وزارة المستعمرات البريطانية والوفد الفلسطيني والمنظمة الصهيونية.

وفي الأول من يوليو/ تموز، ينقل الوفد البريطاني مجمل الملف إلى عصبة الأمم، مضيفاً إليه ردًّا على الكاردينال جاسپاري[١٣٦]. وهو تكرار لما جاء في الكتاب الأبيض. وفيما يتعلق باللجنة الشهيرة الخاصة بالأماكن المقدسة، يجري تقديم التدقيقات التالية:

> علاوة على ذلك، ولأجل ضمان حيادية مطلقة بشكل أفضل، فإن حكومة جلالة الملك سوف تكون مستعدة، إذا ما وافق مجلس عصبة الأمم على هذا الإجراء، لاختيار أعضاء اللجنة بحسب قائمة يتم إعدادها في المقام الأول، بما يتماشى مع إجراء دولي، إمّا من جانب جمعية أو مجلس عصبة الأمم، أو من جانب رئيس محكمة العدل الدولية، وذلك

مع احتفاظها [أي حكومة جلالة الملك] بالحق في تقديم أسماء أخرى، مصحوبة بتوضيحات لأسباب تقديمها، سعياً إلى الحصول على موافقة مجلس عصبة الأمم عليها. وترى حكومة جلالة الملك أن هذه القائمة يجب أن تتألف من شخصيات ذات سمعة عالمية، يتم اختيارها بشكل يسمح بأن تشكل اللجنة بالفعل منظمة دولية تمثيلية بصورة مطلقة ولا تُستبعد منها أي دولة من الدول العظمى التي لها مصالح في فلسطين ولا أي ديانة من الديانات الثلاث، أي المسيحية والمحمدية واليهودية. كما أن حكومة جلالة الملك ستدعو مجلس عصبة الأمم إلى اختيار واحد من أعضاء اللجنة لكي يكون أول من يتولى مهام الرئيس، وذلك بما يتماشى مع الإجراء الذي يرى المجلس أنه الإجراء المفضَّل.

ونحن بإزاء شكل جديد للحق في التدخل والذي يتذرع بحقوق الأقليات:

إن الدافع الذي دفع حكومة جلالة الملك إلى اقتراح اختيار الأعضاء بالتوصية، وفقاً لإجراء دولي وليس من جانب السلطات السياسية أو الهيراركية، هو ما يلي: فهي [أي حكومة جلالة الملك] ترى أن المفضَّل ألاّ تتألف لجنة سيُعهدُ إليها بمسئولية من هذا النوع، من أشخاص قد يجري اعتبارهم ممثلين لدولة أو لطائفة ما، قد تكون مصالحها معنية بشكل مباشر. فالمصالح السياسية مكفولة بما يكفي عبر الترتيبات التي تنص على أن تعيين اللجنة سيخضع لموافقة مجلس عصبة الأمم عليه كما تنص على أن جميع التقارير المقدَّمة من جانب اللجنة سيتوجب حصولها على موافقة المجلس. كما أن المصالح الدينية مكفولة بما يكفي عبر الترتيبات التي تنص على أن اللجنة سيتوجب عليها أن تكون على اتصال بممثلي الطوائف المعنية كما تنص على أن كل طائفة دينية ترى أن الدولة المنتَدَبة لا تنفذ ترتيبات التقرير يمكنها اللجوء إلى مجلس عصبة الأمم الذي يمكنه، بدوره، مطالبة الدولة المنتَدَبة بعقد اللجنة من جديد.

ويرى الفرنسيون أن اللجنة يجب أن تكون "لجنة حقوقيين" مهمتها تحرير تسوية نهائية لمسألة الأماكن المقدسة تعمل الدولة المنتَدَبة على احترامها بعد ذلك. وتريد فرنسا لجنة حقيقية يرأسها فرنسي، ومستقلة عن الدولة المنتَدَبة ولها سلطة تسوية المنازعات بشكل نافذٍ يدل على ما تتمتع به من سيادة. وهكذا، فإن مصير فلسطين إنما يتوقف من جديد على وضعيتها كأرض مقدسة. وسوف

ينعقد مجلس عصبة الأمم في لندن، وسوف يمثل فرنسا فيه ڤيڤياني.

ويسارع السير هربرت صمويل إلى الذهاب إلى روما ويجتمع بالبابا(١٣٧) الذي يعلن ارتياحه إلى التطمينات البريطانية الجديدة. وكذلك يفعل الكاردينال جاسپارّي، الذي يطلب بعض التوضيحات الإضافية. هذا على الأقل ما يرويه المندوب السامي. أمّا الڤاتيكان فهو يعزف لمحاوريه الفرنسيين نغمة أخرى للجرس: لقد تركت زيارة هربرت صمويل انطباعاً سيئاً. والڤاتيكان لا يريد لجنة حقوقيين، بل لجنة دولية تكون الأغلبية فيها للدول الكاثوليكية. وهو مستعد لقبول رئاسة فرنسية، لكنه يعتقد أن الدول الكاثوليكية الأخرى سوف تطالب بتناوب للرئاسة(١٣٨).

وفي فلسطين، يتصاعد التوتر تصاعداً خطيراً. ويكثف البريطانيون احتياطاتهم العسكرية(١٣٩):

> ما أن علم الصحافيون في ٣ يوليو/ تموز ببلاغ الحكومة وأذاعوه على الجمهور، لدى خروجهم من مقر الحاكم، حتى حدث غليان عظيم في المدينة.
>
> ويجري الحديث على المكشوف عن ذبح اليهود للتخلص منهم. ومنذ وصولي، لم يحدث قط أن عاينتُ هذا القدر الهائل من توتر الأعصاب في الأوساط الإنجليزية والمسلمة واليهودية.

بيد أن التقديرات تذهب إلى أنه لن يحدث شيء قبل عودة الوفد الفلسطيني(١٤٠).

وفي ١١ يوليو/ تموز، نجد أن مصلحة الاستخبارات الفرنسية، التي حلت للتوّ محل مصلحة المعلومات التابعة لسلاح البحرية في المشرق، إنما تقدم التصور التالي لما آلت إليه خواطر السكان(١٤١):

> إن حالة من التوتر العصبي البالغ تهيمن بين السكان ومن شأن أبسط حادث يمكن اعتباره غير عادي أن يؤدي إلى حالات من الذعر. وتذهب الشائعات الرائجة إلى أنه سيحدث يوم ١٣ والأيام التالية تحرك قد يكون معادياً ليس لليهود وحدهم وإنما للأوروبيين أيضاً. ولا تخفي السلطات الإنجليزية أن العرب قلقون إلى حد بعيد جدًّا من الأفق الذي سوف يجابههم به التصديقُ على الانتداب الإنجليزي الذي يتضمن قيام المقام

اليهودي، كما تعترف [هذه السلطات] بأن توتر الخواطر من شأنه تحويل أبسط حادث إلى أعمال شغب واضطرابات. لكنها تعلن أنها قد اتخذت جميع احتياطاتها وأنها تحوز القوات الضرورية لإحباط أي محاولة للتمرد إحباطاً بالغ السرعة. وهي تثق ثقة كبيرة بالجندرمة الجديدة المؤلَّفة كلها من إنجليز والتي يصل عدد أفرادها إلى ٧٠٠ جندي جاءوا عبر اختيار قامت به قوة الــ*Blacks and Tars* في أيرلنده.

والمستوطنات اليهودية مسلَّحة ومستعدة للتصدي لأي هجوم.

ويمر يوما الإضراب، ١٣ و١٤ يوليو/ تموز، بهدوء، وذلك بفضل تعاون الجمعيات الإسلامية ــ المسيحية[١٤٢]. وتوزيع منشورات تتهم الصهيونيين بالرغبة في الاستيلاء على الحرم الشريف إنما يزعج السلطات. ويغتنم صمويل فرصة اجتماع المجلس الاستشاري في ١٧ يوليو/ تموز لكي يوضح أن الحكومة البريطانية وميثاق الانتداب نفسه يكفلان ملكية المسلمين للحرم الشريف[١٤٣]. وهو يقول إن الانتداب، بعيداً عن أن يكون تهديداً، إنما يعد حماية إضافية. ويعاود مرة أخرى شرح السياسة البريطانية والضمانات التي توفرها للسكان. وهكذا، فإن مسألة الأماكن المقدسة إنما تدار بشكل موازٍ بين لندن (الأماكن المقدسة المسيحية) والقدس (الأماكن المقدسة الإسلامية واليهودية).

وقد أبدى پوانكاريه، في ١١ يوليو/ تموز، معارضته للشكل الذي اتخذته لجنة الأماكن المقدسة[١٤٤]. فالمشروع غير مقبول لأنه يتعارض مع الوضع القائم. وهو يقترح مشروعاً حرَّرَهُ فروماچو، الخبير الحقوقي بالكيه دورسيه:

تعترف الحكومة الفرنسية من جهة أخرى بأن هناك ما يدعو، خاصة في بلدان الشرق، إلى مراعاة هيبة وسلطة الدولة المنتَدَبة، وذلك بالاعتراف لها بحق تعيين أعضاء اللجنة استناداً إلى ترشيحات الحكومات المعنية. على أن الرئيس وحده، سعياً إلى تأكيد طابع **الأماكن المقدسة** المجاوز للحدود، هو الذي سيتم تعيينه من جانب مجلس عصبة الأمم، بناءً على ترشيح من جانب الحكومة الفرنسية، التي ستتحرك بالطبع بعد التوصل إلى تفاهم مسبق مع الحكومة البريطانية، وذلك لما بينهما من علاقات ودية، باكثر مما لما لهما من مصالح مشتركة في الشرق الأدنى.

ويمكن لحكومتي إسبانيا وإيطاليا الكاثوليكيتين أن تقترح كل منهما اسماً،

وبالنسبة للأرثوذكسية، فإن اليونان وإثيوبيا هما اللذان يمكن لكل منهما أن تقترح اسماً. فيبقى عضوان على الدولة المنتَدَبة القيام بتعيينهما. وترى فرنسا أن اللجنة ليست مختصة إلاّ بالأماكن المقدسة المسيحية، حيث إن الأماكن المقدسة اليهودية والإسلامية ليست موضع نزاعات خاصة(١٤٥). وهذا المشروع لا يُرضي الفاتيكان، الذي يرى أنه يؤدي لا محالة إلى إلغاء الوضع القائم(١٤٦). فوفقاً للتفسير الذي قامت به الكورية الرومانية، يتألف هذا الوضع القائم من إعطاء ملكية الأماكن المقدسة للكاثوليك، شريطة الاعتراف ببعض الحقوق للأرثوذكس والأرمن والأقباط والأحباش. والدور التقليدي لفرنسا هو حماية الكاثوليك من تعديات غير الكاثوليك.

في هذه الظروف، يرى السيد فروماجو أنه ستكون هناك ميزة للاعتراف بأن مسألة الأماكن المقدسة، وهي أماكن مقدسة مجاوزة للحدود ولا قومية، يجب فصلها فصلاً جذريًا عن مسألة الانتداب على فلسطين وأن دراسة هذه المسألة يجب أن يُعهَدَ بها إلى مؤتمر خاص يتم فيه تمثيل جميع المعنيين، بما في ذلك الكرسي الرسولي.

ويرى بوانكاريه ضرورة تأجيل التصديق، بيد أنه سيكون من مثالب هذا التأجيل تأخير التصديق على الانتداب على سوريا ولبنان(١٤٧). وفي ١٨ يوليو/ تموز، يحاول ڤيڤياني القيام بتحرك أخير لدى بلفور: إن أعضاء اللجنة، والرئيس الفرنسي بينهم، يستحسن ألاّ يتم تعيينهم من جانب الدول وإنما من جانب مجلس عصبة الأمم. والحال أن بلفور، الذي يجهل نوايا بوانكاريه، يقترح عليه أيضاً الفصل (١٤٨).

وفي ١٩ يوليو/ تموز، يتناول مجلس عصبة الأمم مسألة الانتدابات في دورة خاصة عقدت في لندن. وتطالب فرنسا بالنظر في الانتداب على سوريا ولبنان قبل النظر في الانتداب على فلسطين(١٤٩). ويقترح بلفور النظر في الانتدابين خلال الدورة نفسها. فيعرب ڤيڤياني عن موافقته(١٥٠). ويوضح المندوب الإيطالي أنه ما تزال لديه بعض الإيضاحات التي يجب على الفرنسيين تقديمها فيما يتعلق بالمصالح الإيطالية في سوريا وفي لبنان. ويقدم بلفور دعمه للفرنسيين في مواجهة المناورة الإيطالية. بيد أن العرقلة الإيطالية توقف

الإجراء. فيجري السعي إلى تسوية. فيوم سريان مفعول الانتداب على سوريا ولبنان سيكون هو نفسه يوم سريان مفعول الانتداب على فلسطين. أمّا فيما يتعلق بالأماكن المقدسة، فإن البريطانيين يؤكدون أن الفاتيكان قد وافق على مقترحاتهم. وبشكل بالغ الإلحاح، تطلب الدبلوماسية الفرنسية إيضاحات من روما[١٥١] وترتأي تدويل القبر المقدس وبيت لحم. فيقدم الكاردينال جاسپارّي موافقته على ذلك[١٥٢]. ويتفق الفرنسيون والبريطانيون سرًّا على الفصل[١٥٣] ويتفقان على التعجيل بالمناقشة النهائية[١٥٤]. ثم إن الإيطاليين يتخلون عن اعتراضاتهم، بعد أن حصلوا على تطمينات من جانب فرنسا[١٥٥].

وبمجرد تسوية هذه المسائل، يتسنى استئناف العمل في ٢٢ يوليو/ تموز[١٥٦]. فيجري اعتماد صيغة الفصل الواردة في المادة ١٤ (لجنة الأماكن المقدسة). وسوف يجري النص على ذلك في الميثاق، لكن الحل سوف يتم التوصل إليه فيما بعد. وسوف يجري التصديق على الانتدابين في وقت واحد وسيظلان مرتبطين إلى حين دخولهما حيز التنفيذ، والذي سوف يتحدد عبر إعلان تفاهم بين فرنسا وإيطاليا. كما جرى تعديل بنود شكلية تتعلق بمجمل الانتدابات من الفئة ألف. وتم اتخاذ القرار النهائي:

> يقرر المجلس أن من المفهوم أن الانتداب لفلسطين قد تمت الموافقة عليه بالمادة ١٤ المعدَّلة وأن الانتداب لسوريا يدخل حيز التنفيذ بشكل تلقائي ما أن تتوصل الحكومتان الفرنسية والإيطالية إلى اتفاق نهائي. ومن المفهوم، علاوة على ذلك، أن الانتدابين سوف يدخلان حيز التنفيذ متزامنين.

وفي ٢٤ يوليو/ تموز، يجري إعلان قرار عصبة الأمم رسميًّا. وقد تم تحديد الأول من سبتمبر/ أيلول ١٩٢٣ موعداً لسريان مفعوله.

وباسم اللجنة التنفيذية الفلسطينية العربية، يوجِّه عمر البيطار الرد الفلسطيني[١٥٧]*:

> إن ما كانت تتخوف منه الأمة منذ مستهل هذا الشهر قد صار أمراً واقعاً. فقد صدقت عصبة الأمم من حيث المبدأ على الانتداب على فلسطين وتوصلت الدول العظمى

---

* ترجمة عن الفرنسية. ــ م.

الغربية إلى ما كانت تريده ضد أي حق، وغير آخذة بالحسبان سوى مصالحها المادية.

وكانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني قد أوضحت في بيان سابق أن قرارات الدول العظمى لو تعارضت مع حقوق الأمة الفلسطينية لن يكون من شأنها سوى زيادة تمسكنا بهذه الحقوق التي لن نحيد عنها قيد شعرة وبمطالبنا القومية المتمثلة في حماية تراثنا الأدبي وممتلكاتنا وحريتنا الفردية إلى جانب وجودنا القومي.

وهذه اللجنة نفسها تؤكد لكم اليوم من جديد هذا التمسك نفسه وتعبر علناً عن رفض الأمة الفلسطينية القطعي قبول أي انتداب. وهي تقرر مواصلة النضال السياسي بتنظيم أفضل وبحماسة وعزيمة أكثر حزماً. وهي تتخذ هذه القرارات عليمةً بأنها مدعومةً من الأمة التي تتحلى مشاعرها الوطنية في أروع وأنقى ما ورثه رجال ونساء وفتية هذه الأمة عن آبائهم، على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية.

إن كل فرد من أفراد هذه الأمة إنما يستشعر في صميم فؤاده على المستوى الفردي بشاعة أن يحيا حياة ذل وهوان.

لقد بذلت المنظمات الصهيونية بالاتفاق مع الحكومة البريطانية كل جهودها، سعياً إلى التصديق على الانتداب بأسرع ما يمكن، متصورةً إضعاف وشق صفوف بل وقتل أي حركة قومية، لتجعل منها لقمة سائغة جرَّاء عدم انصياعنا.

وواجب الأمة هو أن تثبت للعالم، عبر تضامنها وتنظيم صفوفها وامتلاكها عزيمة دفاع أكثر حزماً، ما وقعت فيه هذه المنظمات من زيغ وضلال.

إن على كل رجل وكل امرأة شهد وشهدت الأيام التي نحياها أن يدرك وتدرك اليوم المسئولية التي تقع على كل واحد والتي سوف يتوجب عليه أن يقدم الحساب عنها لأطفاله الذين سيحاسبونه عليها يوماً ما كما لأرواح آبائه وأجداده الذين دُفنوا في هذه الأرض مشيَّعين بغار العزة والكرامة.

فليف كل واحد منَّا بهذه المسئولية في هذه الفترة الحرجة نازعاً من قلبه كل تردد ومؤمناً راسخ الإيمان بأن البلد بلدنا وحدنا وبأن الإصرار هو الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يحقق لهذه الأمة الاعتراف بحقوقها المهضومة. [...]

ولتعرف الأمة أيضاً أن الشعوب الغربية، بعيداً عن حكوماتها، تعترف بحقوقنا وتدعم قضيتنا فتساعدنا بذلك على دفع الخطر الصهيوني الذي يهدد بلدنا. إنني شخصيًّا لعلى ثقة بأننا سنجد في العالم الإسلامي والمسيحي الدعم الأعظم. ولنكن على ثقة بأن المصاعب

التي تُوقعنا فيها الدول العظمى الأوروبية هي الأسس التي ستبني عليها أمتنا عليها حياتها القومية وأمنها القادم.

ومهما كان الخطر، وأيًا كانت الركيزة الصهيونية، فإن الانتداب نفسه لن يتسنى تطبيقه بالرغم من أنوفنا، ما دام الشعور القومي هو الذي يحرك فؤادنا وما دام هدف كل فرد هو حماية الصالح العام بالنواجذ.

لنثق بالله ولنمض قُدُماً.

عاشت فلسطين العربية، حرة ومستقلة.

فلسطين بحسب الميثاق[١٥٨]

هذا النص الذي ترقبه البعض بمزيد من اللهفة بينما ترقبه البعض الآخر بمزيد من الخوف إنما يمثل صياغة لعدة سنوات من الصراعات السياسية والمجادلات الديبلوماسية. وحيثياته تحيل إلى حدٍّ سواء إلى المادة ٢٢ وإلى تصريح بلفور، الذي يجري اعتباره، للمرة الأولى، ذا قيمة حقوقية دولية:

مجلس عصبة الأمم:

حيث إن الدول العظمى المتحالفة الرئيسية قد وافقت، سعياً إلى تنفيذ أحكام المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، على أن تعهد إلى دولة منتَدَبة تختارها هذه الدول العظمى بإدارة أرض فلسطين، التي كانت في السابق جزءاً من الدولة العثمانية، ضمن حدودٍ على الدول المذكورة أن ترسمها؛

وحيث إن الدول العظمى المتحالفة الرئيسية قد اتفقت، علاوة على ذلك، على أن تكون الدولةُ المنتَدَبَة مسئولة عن تنفيذ التصريح الذي صدر أصلاً في ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧ من جانب الحكومة البريطانية واعتمدته الدول العظمى المذكورة، لصالح إنشاء مقام قومي في فلسطين للشعب اليهودي، على أن يكون مفهوماً بشكل جيد أنه لن يجري عمل أي شيء من شأنه إلحاق ضرر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية في فلسطين، ولا بالحقوق والوضعية السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر؛

وحيث إن هذا التصريح يتضمن الاعتراف بروابط الشعب اليهودي التاريخية بفلسطين وبأسباب إعادة تكوين مقامه القومي في هذا البلد؛

وحيث إن الدول العظمى المتحالفة قد اختارت بريطانيا العظمى دولة منتَدَبة لفلسطين؛

وحيث إن شروط الانتداب على فلسطين قد صيغت بالشكل التالي وعرضت على مجلس العصبة للموافقة عليها؛

وحيث إن بريطانيا العظمى قد قبلت الانتداب لفلسطين وتعهدت بممارسته باسم عصبة الأمم، بما يتماشى مع الأحكام الواردة أدناه؛

وحيث إنه بحسب شروط المادة ٢٢ المشار إليها أعلاه (الفقرة ٨) قد جرى النص على أنه إذا لم تكن درجة السلطة أو السيطرة أو الإدارة التي يتوجب على الدولة المنتَدَبة ممارستها موضع اتفاقية سابقة بين أعضاء العصبة، فإنه سوف يجري النص على هذه النقاط بشكل معلن من جانب المجلس؛

وتأييداً للانتداب المذكور، نص [المجلس] على هذه الشروط على النحو التالي.

وتحدد المواد الأولى اختصاصات الدولة المنتَدَبة وتستعيد مرة أخرى تصريح بلفور:

المادة الأولى: تتمتع الدولة المنتَدَبة بكامل السلطات في مجالي التشريع والإدارة، إلاّ حيثما قد تفرض شروط الانتداب حدوداً.

المادة ٢: تتولى الدولة المنتَدَبة المسئولية عن إيجاد حالة سياسية وإدارية واقتصادية في البلد من شأنها ضمان إقامة مقام قومي للشعب اليهودي، على نحو ما جرى النص عليه في الديباجة، وكذلك ضمان تطور مؤسسات للحكم الحر [بالإنجليزية: *self-governing institutions*]، وكذلك حماية الحقوق المدنية والدينية لجميع ساكني فلسطين، أيًا كانت أجناسهم أو دياناتهم.

المادة ٣: يتوجب على الدولة المنتَدَبة أن تشجع أشكال الحكم الذاتي المحلي بكل قدر ما تسمح الظروف بذلك.

الوكالة اليهودية:

المادة ٤: يجب الاعتراف رسميًا بجهاز يهودي مناسب ومنحه الحق في تقديم آراء إلى إدارة فلسطين والتعاون معها في جميع المسائل الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من

المسائل، التي قد تمس إقامة المقام القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين، وذلك دوماً شريطة سيطرة الإدارة والمساعدة والمشاركة في إنماء البلد.

ويجب الاعتراف بالمنظمة الصهيونية بوصفها الجهاز المقصود أعلاه، وذلك ما دامت الدولة المنتَدَبة ترى أن تنظيم وتكوين [هذه المنظمة] يعدان مناسبين. وفي اتفاق مع حكومة بريطانيا العظمى، يتوجب على [المنظمة الصهيونية] اتخاذ جميع التدابير الضرورية لضمان تعاون جميع اليهود المستعدين لإقامة المقام اليهودي.

المادة ٥: تضمن الدولة المنتَدَبة فلسطين ضد أي ضياع أو تأجير لكل أو لجزء من الأرض وضد فرض أي سيطرة من جانب دولة عظمى أجنبية.

أما مسألة حقوق السكان غير اليهود فهي تعاود الظهور خارج نص تصريح بلفور مصحوبة بالالتباس الناشئ عن غياب مصطلح [الحقوق] "السياسية":

المادة ٦: على إدارة فلسطين، مع السهر على عدم إلحاق ضرر بحقوق وبوضع الأجزاء الأخرى من السكان، أن تسهل الهجرة اليهودية ضمن ظروف مناسبة وتنسيق مع الجهاز اليهودي المشار إليه في المادة ٤؛ وعليها أن تشجع استيطان اليهود الكثيف في أراضي البلد، بما في ذلك في الأراضي المملوكة للدولة والأراضي الموات غير المستخدمة في الخدمات العمومية.

المادة ٧: يجب على إدارة فلسطين تولي المسئولية عن إصدار قانون خاص بالجنسية. ويجب لهذا القانون أن يتضمن بنوداً تهدف إلى تسهيل حصول اليهود الذين سيقيمون في فلسطين بصورة مستديمة على الجنسية الفلسطينية.

والبند الخاص بالامتيازات يتماشى مع المطالب الأميركية:

المادة ٨: امتيازات وحصانات الأجانب، بما في ذلك المحاكم والحماية القنصلية، على نحو ما كانت تُمارسُ سابقاً في الدولة العثمانية، بحكم الامتيازات والأعراف، لن تكون سارية المفعول في فلسطين.

وما لم تكن الدول التي كان رعاياها يتمتعون بهذه الامتيازات والحصانات في الأول من أغسطس/ آب ١٩١٤ قد تخلت بصورة مسبقة عن استعادة هذه الامتيازات

والحصانات أو وافقت على عدم سريان مفعولها خلال فترة محدَّدة، فإن هذه الامتيازات والحصانات سوف تعاد عند انتهاء الانتداب بتمامها دون تأخير، أو بإدخال تعديل عليها تكون الدول المعنية قد اتفقت عليه.

ثم يجري تحديد الحقوق المدنية والدينية:

المادة ٩: يجب أن تتولى الدولة المنتَدَبة المسئولية عن السهر على إقامة نظام قضائي في فلسطين يكفل، للأجانب كما لأهل البلد [بالإنجليزية: *natives*]، الضمان الكامل لحقوقهم.

ولابد من توفير جميع الضمانات لاحترام الأحوال الشخصية لمختلف الجماعات السكانية والطوائف ولمصالحها ذات الطابع الديني. وبوجه خاص، يجب على الدولة المنتَدَبة ممارسة الرقابة على إدارة الأوقاف، بما يتماشى كل التماشي مع القوانين الدينية ورغبة من أوقفوا الأوقاف.

وبعد بند تقاني يتعلق بإجراءات تسليم المطلوبين، تجري العودة إلى الإصلاحات الاقتصادية المرتبطة بالمقام القومي اليهودي:

المادة ١١: يتوجب على إدارة فلسطين اتخاذ جميع التدابير الضرورية لحماية مصالح الجماعة فيما يتعلق بإنماء البلد. وسوف تكون لها السلطة الكاملة في اتخاذ القرار فيما يتعلق بوضع اليد أو السيطرة العامة على جميع الموارد الطبيعية للبلد، أو على الأشغال والخدمات ذات النفع العام والموجودة بالفعل أو التي ستوجد في البلد فيما بعد، وذلك بشرط مراعاة الالتزامات الدولية التي تقبلها الدولة المنتَدَبة. ويجب عليها إقامة نظام زراعي مناسب لاحتياجات البلد يراعي، بين أمور أخرى، المزايا التي قد تترتب على تشجيع الاستيطان الكثيف والاستغلال الزراعي الكثيف للأرض.

ويجوز للإدارة، حيثما لا تتولّى الأمر مباشرةً، أن تتفق مع الجهاز اليهودي المشار إليه في المادة ٤ على القيام، وفق شروط عادلة ومنصفة، بتنفيذ أو استثمار جميع الأشغال أو الخدمات ذات النفع العام وإنماء جميع الموارد الطبيعية للبلد. وفي هذه الاتفاقات، يجب أن يكون من المفهوم أن أي أرباح يتم توزيعها من جانب هذا الجهاز بشكل مباشر أو غير مباشر لا يجب أن تتجاوز نسبة فائدة معقولة على رأس المال وأن أي فائض في الأرباح

يجب أن يستخدمه هذا الجهاز لصالح البلد وبأسلوب توافق عليه الإدارة.

وتتعلق المادة ١٢ بالحماية الديبلوماسية والقنصلية لرعايا فلسطين من جانب الدولة المنتَدَبة. بينما تتعلق المادتان ١٣ و١٤ بالأماكن المقدسة:

المادة ١٣: مع حفظ النظام والآداب العامة، تتولى الدولة المنتدَبة المسئولية الكاملة فيما يتعلق **بالأماكن المقدسة** والمنشآت والمواقع الدينية في فلسطين، بما في ذلك المسئولية عن صون الحقوق القائمة وضمان حرية الوصول إلى **الأماكن المقدسة** والمنشآت والمواقع الدينية وحرية ممارسة العبادة. ولن تكون [الدولة المنتَدَبة] مسئولة، فيما يتعلق بكل المسائل المتصلة بذلك، إلاّ أمام عصبة الأمم، وعلى أساس أن من المفهوم أنه ليس من شأن شيء في هذه المادة أن يمنع الدولة المنتَدَبة من التوصل مع الإدارة إلى الترتيب الذي تراه [الدولة المنتَدَبة] ضروريًّا، سعياً إلى تنفيذ أحكام هذه المادة، وعلى أساس أن من المفهوم أيضاً أنه لا يجوز تفسير شيء في هذا الانتداب على أنه يجيز المساس ببنايات أو التدخل في إدارة الأماكن المقدسة الإسلامية بصورة خالصة والتي تعد امتيازاتها مصونة.

المادة ١٤: يجب على الدولة المنتدَبة تعيين لجنة خاصة، هدفها دراسة وتعريف وتسوية جميع الحقوق والمطالب المتعلقة بالأماكن المقدسة، وكذلك مختلف الطوائف الدينية في فلسطين. أمّا أسلوب تعيين أعضاء اللجنة وقوامها ووظائفها فيجب عرضها على مجلس عصبة الأمم للحصول على موافقته، ولا يجب تعيين اللجنة وقيامها بممارسة وظائفها إلاّ بعد هذه الموافقة.

المساواة في المعاملة للجميع وتقدم الطوائف:

المادة ١٥: يتوجب على الدولة المنتدَبة أن تكفل لجميع الطوائف أكمل حريات العقيدة، وكذلك حرية ممارسة جميع أشكال العبادة بما يتماشى مع النظام العام والآداب. ولا يجب أن يكون هناك أي انعدام للمساواة في المعاملة بين سكان فلسطين، بسبب الاختلاف في الجنس أو الديانة أو اللغة. ولا يجب استبعاد أحد من فلسطين، لمجرد معتقداته الدينية.

ولا يجب إلحاق أي ضرر بحق الطوائف في الاحتفاظ بمدارسها الهادفة إلى تعليم وتربية أفرادها بلغاتهم الخاصة، وذلك شريطة التماشي مع التعليمات العمومية بشأن التعليم

العام والتي يجوز للإدارة إصدارها.

المادة ١٦: يجب على الدولة المنتدَبة أن تكفل الإشراف على المؤسسات الدينية أو الخيرية لجميع الطوائف في فلسطين والذي قد يكون مطلوباً لحفظ النظام العام وحسن الإدارة. وبشرط توافر هذا الإشراف، لا يجوز اتخاذ أي تدبير في فلسطين من شأنه عرقلة عمل هذه المؤسسات أو من شأنه أن يشكل تدخلاً في هذا العمل ولا يجوز التمييز بين ممثلي أو أعضاء هذه المؤسسات على أساس ديانتهم أو جنسيتهم.

وبعد ذلك، يجري الانتقال من جديد إلى مسائل ذات طابع تقاني أكثر: التنظيم العسكري لفلسطين، المساواة في المعاملة، فيما يتعلق بالمصالح الأجنبية، في المسائل الضريبية والجمركية، إمكانية عقد اتفاقات تجارية مع "أي دولة كانت أراضيها تشكل في عام ١٩١٤ جزءاً لا يتجزأ من تركيا الآسيوية أو من بلاد العرب"، الانضمام إلى الاتفاقيات الدولية العامة، الآثار [الأركيولوجيا].

ثم يرجع الميثاق إلى مسائل سياسية أكثر:

المادة ٢٢: تكون الإنجليزية والعربية والعبرية اللغات الرسمية لفلسطين وجميع الإشارات أو العبارات العربية على الطوابع أو العملات يجب أن تظهر أيضاً بالعبرية وبشكل تبادلي.

المادة ٢٣: تعترف إدارة فلسطين بالأيام المقدسة لمختلف الطوائف كأيام عطلات قانونية لهذه الطوائف.

المادة ٢٤: يجب على الدولة المنتدَبة أن توجه إلى مجلس عصبة الأمم تقريراً سنويًا، يتجاوب مع ما يرجوه المجلس، حول التدابير المتخذة خلال العام لأجل تطبيق الانتداب. ويجب إرفاق نصوص جميع القوانين وجميع الترتيبات الصادرة بالتقرير المذكور.

والمادة ٢٥ لها أهمية خاصة لأنها تحدد مستقبل شرق الأردن:

المادة ٢٥: في الأراضي الممتدة بين نهر الأردن والحدود الشرقية لفلسطين، على نحو ما سوف يتم تحديدها بشكل نهائي، سيكون من حق الدولة المنتدَبة، بموافقة من مجلس عصبة الأمم، تأجيل أوتعليق أحكام هذا الانتداب التي ترى أنها غير قابلة للتطبيق بسبب الظروف المحلية والقائمة ، وأن تتخذ بهدف إدارة هذه الأراضي التدابير التي ترى أنها

مناسبة، وذلك شريطة ألاّ يكون أي من هذه التدابير متعارضاً مع أحكام المواد ١٥ و١٦ و١٨.

أما الخلافات بين الدولة المنتدَبة وعضو آخر في عصبة الأمم والمتصلة بالانتداب فيجب عرضها على محكمة العدل الدولية الدائمة.

تعديل وانتهاء الانتداب:

المادة ٢٧: تُعدُّ موافقةُ مجلس عصبة الأمم ضرورية لأي تعديل مقترح لشروط هذا الانتداب.

المادة ٢٨: في حالة انتهاء الانتداب المعهود به إلى الدولة المنتدَبة بموجب هذا الميثاق، يجب على مجلس العصبة اتخاذ جميع الترتيبات الضرورية للحماية المستديمة، بضمان من العصبة، للحقوق المكفولة بموجب المادتين ١٣ و١٤، كما يجب عليه استخدام كل ما لديه من نفوذ لكي تتولى حكومة فلسطين، بضمان من عصبة الأمم، التحمل الكامل لجميع الالتزامات المالية التي تعاقدت عليها إدارة فلسطين تعاقداً شرعيًا خلال مدة الانتداب، بما في ذلك حقوق الموظفين في معاشات أو مكافآت.

والحاصل أن ميثاق الانتداب، في هاجسه الأساسي، إنما يعد بالفعل تطبيقاً لتصريح بلفور، كما يثبت ذلك مجرد استخدام مصطلح "غير اليهود". فإنكار وجود واقع فلسطيني عربي إنما يعد إنكاراً ماثلاً بشكل واضح، كما هي الحال في الكتاب الأبيض الصادر عن تشرشل والرسالة المرسلة إلى جاسپارّي. وقد جرى إدخال التباس إضافي بين "الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية" في الحيثيات "و"حماية الحقوق المدنية والدينية لجميع ساكني فلسطين، أيًا كانت أجناسهم أو دياناتهم" في المادة ٢ و"عدم إلحاق ضرر بحقوق وبوضع الأجزاء الأخرى من السكان" في المادة ٦.

أمّا مصطلح "الشعب" فلا يجري استخدامه إلاّ للإشارة إلى الشعب اليهودي الذي تحدث عنه تصريح بلفور. وذلك في حين أن مصطلحات "السكان" و"ساكني" و"أهل البلد" تمثل الإحالات التي تشير إلى الناس الذين يحيون في فلسطين وتشير إلى غياب الحقوق السياسية بالرغم من المادة ٢٢: فالجنسية

الفلسطينية واقع عملي لا يحيل إلى وجود أمة فلسطينية.

وفيما يتعلق بالحقوق، نجد أن العناصر الحاسمة هي "الجماعات غير اليهودية"، "المقام القومي اليهودي"، "مؤسسات الحكم الحر"، "أشكال الحكم الذاتي المحلية"، "الأحوال الشخصية"، "السكان اليهود"، "أجزاء من السكان"، "الطوائف الدينية". ومثل هذا التعداد يوضح ماهية الفلسفة العميقة لمجمل النصوص (الكتاب الأبيض، الرسالة المرسلة إلى جاسپارّي، الميثاق). فبالرغم من التأكيد على وجود كيان فلسطيني يجمع مجمل السكان، نجد أن السياسة البريطانية، آخذةً في الحسبان واقع الوضع في الساحة وآخذة في الحسبان أيضاً مصدر إلهامها التمييزي التقليدي، قد اختارت طريق التطور الطائفي.

وضمن منظور وزارة المستعمرات البريطانية، فإننا بإزاء منظومة ضمانات: فالمقام القومي اليهودي مجمل طائفي مزود بمؤسسات حديثة (مؤسسات الحكم الذاتي) أو تقليدية (المجلس الحاخامي). وهو يتماشى تماماً في آن واحد مع الحكم الذاتي القومي غير الترابي الذي تحدث عنه منظرو أوروبا الشرقية ومع شكل، يظل أوسع، من أشكال الملة العثمانية. وعبر وجود الشعب اليهودي الذي اتخذ طابعاً مؤسَّسيًّا (الوكالة اليهودية) وعبر حق التدخل من جانب الدول العظمى (محكمة العدل الدولية) والمراقبة من جانب لجنة الانتدابات، نجد أن هذا المقام إنما يجري تزويده بأدوات لمراقبة تطبيق تصريح بلفور.

وعلى الجانب الإسلامي، نجد أن الكتاب الأبيض قد ارتأى بأكثر مما ارتأى الميثاق تحويلاً طائفياً سريعاً للسكان المسلمين الذين خابت آمالهم في توحدهم مع الدولة. وتأتي الضمانات دوماً من حق التدخل ومن لجنة الانتدابات. وفي حين أن اليهود يعلون المسلمين على مستوى الملة الذي يُعدُّ مستوى أعلى، فإن هؤلاء الأخيرين إنما يصعدون إلى هذا المستوى بالكاد.

وبالنسبة للجماعات السكانية المسيحية، نجد أن التعددية الطائفية والتعارضات التاريخية قوية إلى درجة يتعذر معها تصور أسلوب تمثيل واحد مماثل لأسلوب تمثيل الطائفتين الأخريين. والمادة ١٤ الشهيرة حول لجنة الأماكن المقدسة موجودة لكي تقدم ضمانة إضافية قياساً إلى الضمانات الأخرى

المقدمة بالفعل. والحال أن بلفور، مستبقاً الأمر إلى حدّ ما، سوف يقوم، في خريف عام ١٩٢٢، بتخريب تطبيق هذا الجزء من الترتيبات جاعلاً من المستحيل تكوين اللجنة الشهيرة، التي كان من شأنها أن تتسع أكثر من اللازم لدول غير منتدَبة.

وتتماشى مع منطق التناول الطائفي لا سياسية وأبوية إدارة الانتداب، التي لا تعرِّف المشكلات إلاّ من زاوية التقانات البيروقراطية بعد التشاور مع المعنيين دون أن يكون لهؤلاء سلطة في اتخاذ القرار، الأمر الذي يشكل مثالاً ناجزاً للرؤية الاستعمارية. والحكم الحر مسألة وقت، و، دون أن نرغب في رسم صورة كاريكاتورية مسرفة للأمور، يمكن تصور أن الأهالي لن يصلوا إلى النضج [اللازم للفوز بالحكم الحر] إلاّ عندما يقبلون الوجود البريطاني عن طيب خاطر. وفي عام ١٩٢٢، كانت هذه المقاربة بالية بالفعل، وكان البريطانيون قد دخلوا بالفعل في سيرورات أخرى في مصر والعراق، بل وفي الهند.

وكما تثبت ذلك وثائق الأحكام، فإن هناك وجوه خلل في البنيان الذي صيغ على هذا النحو. والخلل الأهم هو طرح فلسطين كرهان بين شعب عربي (الكتاب الأبيض) وشعب يهودي (الميثاق)، وأن الشعب العربي لا يحوز أي إمكانية لأن يكون ممثَّلاً في الملف.

والعيب الخِلقي للبنيان البريطاني هو كونه نتاج حرب عالمية ولا يمكنه العمل إلاّ في عالم يستعيد الاستقرار. وهكذا فإن مُسلَّمَتَهُ هي دوام الإمبراطورية البريطانية وغياب انقلابات كبرى في أوروبا كما في الشرق الأدنى. والحال أن بلفور أو تشرشل أو هربرت صمويل أو لويد چورج لا يؤمنون بعدُ، في عام ١٩٢٢، بإمكانية قيام دولة يهودية قبل عدة أجيال، وذلك لأسباب ديموغرافية، ومن ثم يمكنهم الأمل في أن تجربة حياة مشتركة قد تخلق التعايشات الضرورية. بيد أنهم يدركون وجود قوى قادرة على زعزعة الاستقرار وهي قوى يعزونها بسهولة إلى العناصر اليهودية الثورية. أمّا كيرزون فهو أكثر تشاؤماً بشكل واضح ويرى أن طبيعة الرهان نفسها، والمتمثلة في أرض شديدة الفقر، هي التي تجازف بإدخال انزلاقات خطرة. ففلسطين جد فقيرة بحيث لا

يمكنها إعاشة شعبين متنافسين، ومن الطوباوية تصور أن التنمية الاقتصادية يمكنها تحقيق معجزة القضاء على ما في الوضع من تنافرات.

ومن منظور العلوم السياسية، نجد أن الرهان إنما يتميز، في الواقع، بخاصيتين مزعجتين إزعاجاً خاصًا. الأولى هي كونه لعبة حاصلها صفر: فلئن كانت هوامش التنمية موجودة بالفعل فإنها ثانوية بالقياس إلى الهدف المنشود. وكل نمو لطرف إنما يتم على حساب الطرف الآخر. ولو كان الحل اقتصاديًا، لما هجر الاستيطان اليهودي صيغة اقتصاد المَزَارِع الذي لا يستهلك الأرض إلاَّ بشكل ضعيف والذي من شأنه أن يخلق تضامنات اقتصادية بين اليهود والعرب ولما وقع اختيار هذا الاستيطان على زراعة متعددة المحاصيل تتطلب مساحات أوسع بكثير وتعزل القطاع اليهودي عن بيئته العربية. إن اقتحام العمل [الاعتماد على العمل اليهودي وحده] لا يمكن فصله عن اقتحام الأرض [استئثار اليهود بها].

وهكذا نصل من ذلك إلى الخاصية الثانية: العامل القومي. فالصهيونية، بما أنها لا تحوز في البداية أي انغراس مسبق، وبما أنها لا تحوز من أساسٍ غير حقوق تاريخية وبما أنها راغبة في خلق إنسان جديد من خامة بشرية كان انحطاط العيش في الدياسپورا قد جعلها خامة بشرية تشكو من العيوب، إنما تُعدُّ [الصهيونية] نزعة قومية مطلقة في رفضها لأي توفيق. وهي، في فلسطين، لا شيء وتزيد كل شيء. وفي كل مرحلة، لا ينفصل الاستيلاء على الأرض عن صياغة الإنسان الجديد، ففي هذا الاستيلاء على الأرض تصاغ الشخصية الجديدة. وهكذا فإن الاستيلاء والتحرر إنما يشكلان واقعين لا يمكن الفصل بينهما.

وبما يشكل أثراً حتميًا وقاسياً هو أن منطق الاستيلاء على الأرض من جانب طرف إنما يعني تجريد الطرف الآخر من الأرض لأن السكان العرب ليسوا راسباً عاجزاً، بل هم مجموع يشهد حركة سافرة، حيث يأخذ الدافع القومي، هو أيضاً، في التشكل، وحيث يشير الواقع الديموغرافي وحده، منذ ما قبل الصهيونية، إلى أن الفوز بالأرض الزراعية بسبيله إلى أن يتحقق. والحال أن خارطة الانغراس الصهيوني إنما تستنسخ فراغات خارطة ١٧٩٩ التي يأخذ

العرب في معاودة سكناها انطلاقاً من مزدحمات الخارطة نفسها. أمّا فيما يتعلق بهذه المزدحمات، قرى المرتفعات، فإنها ستبقى، إلى نهاية الانتداب، عصية على كل استيطان صهيوني. إن فلسطين ليست قفراً ولا وجود هناك لمكان خالٍ.

أكان بالإمكان، في عام ١٩٢٢، تفادي المواجهة؟ كان السير هربرت صمويل يعتقد ذلك. لكن العسكريين لم يتصوروا ذلك. بيد أن تطور المندوب السامي حافل بالدروس بالفعل. ففي عام ١٩٢٠، تصورً حلاً من أعلى بفضل التنمية الاقتصادية. وفي عام ١٩٢٢، رأى أن طاقة الاقتصاد الاستيعابية لن تسمح بإيجاد كتلة يهودية كافية للتمكن من السماح بإقامة دولة يهودية. وقد رأى بشكل صائب أن الهجرة تنطوي على تكاليف باهظة بحيث إن الحركة الصهيونية، وقد انتهت غبطة أعقاب الحرب المباشرة، لن تحوز أبداً الإمكانات اللازمة لتحقيق طموحاتها الأعلى، ومن هنا منطق نصوص عام ١٩٢٢. ولم يكن بوسعه أن يعرف أن متغير الهجرة ـــ الاستيطان سوف يشهد تغيراً كليًّا في طبيعته واتساعه مع الكارثة التاريخية التي سوف تتمثل في صعود هتلر إلى السلطة في يناير/ كانون الثاني ١٩٣٣.

لكننا ندنو هنا من تتمة القصة...

خاتمـــة

في نهاية زمن الأصول هذا، أيمكن السعي إلى إعمال الفكر في مسألة فلسطين؟ إن مشروعاً كهذا إنما يتضمن إعادة فحص الظروف التي جرى فيها الانتقال من الأنظمة القديمة إلى عالم المساواة الاجتماعية الجديد، كما يتضمن إمعاناً للنظر في توافق الأزمنة في التاريخ.

إن تحول القيم الذي حدث في أوروبا الغربية في الشطر الثاني من القرن الثامن عشر لا يمكن فهمه ضمن منظور اقتصادي صرف. وقد بَيَّنَ المؤرخون المتأخرون للثورة الفرنسية أن الفاعلين فيها كانوا بعيدين عن تجسيد منطق رأسمالية صاعدة وأنهم، من كثير من النواحي، كانوا نتاج بورجوازية متوسطة من الحقوقيين المنبثقين من بنادر صغيرة في الأقاليم تنتمي إلى عالم اقتصادي ما يزال جد بعيد عن عالم الثورة الصناعية. على أنهم هم الذين قاموا بتحرير يهود فرنسا.

والتفسير الأوسع انتشاراً والأكثر إراحةً هو التفسير بالاتساق الفكري: فبقدر الاتجاه إلى الإلغاء الجذري لمجتمع الطوائف، صار وجود اليهود ككيان منفصل أمراً غير معقول. ولم يكن بوسع هذا الكيان أن يظل دولة داخل الدولة.

وإذا ما توقفنا، في التفسير، عن إخضاع ما هو إيديولوجي لما هو اقتصادي أو لمنطق المصالح البسيط، فإن خطابنا إنما يكون عندئذ خطاب الحتمية المطلقة، وهو ما يعني السقوط في شَرَك التفسيرات الأحادية. والحال أن الانتقال من قيم الجماعات إلى قيم الفرد المواطن، في الخطاب كما في الواقع الاجتماعي، ليس غير جانب من جوانب سيرورة أوسع تستوعب جميع أبعاد ما هو اجتماعي واقتصادي وثقافي. وهو ما تبينه عالمية الظاهرة، في أوروبا أولاً، ثم في العالم، وأهميةُ التنويعات في كل بلد وفي كل حضارة. والحاصل أن المؤرخ، في كل مقاربة من مقارباته، لا يتعامل إلاّ مع واقع واحد ولابد من أن

يكون مدركاً لذلك حتى لا يدخل ترتيباً هيراركيًّا مصطنعاً في وصفه أو في سرده.

ومن المساواة تنبثق الأمةُ. وهي [المساواة] في صياغتها الأولى ــ إعلان حقوق الإنسان لعام ١٧٨٩ــ، تعد نفسها عالمية، شريطة عولمة النموذج الفرنسي. والحاصل أن فرنسا الثورية، وقد أصبحت "الأمة العظمى"، إنما تضفي بُعداً ترابيًّا على معطى كان التفكير فيه إلى ذلك الحين يتم بالإحالة إلى العقل وحده. والردُّ المضاد للثورة هو الإحالة إلى التاريخ، وإن كان بتنويعات مهمة: فالمؤئل الأنجلو ــ ساكسوني ينطلق من غابات چرمانيا لكي يعثر على مولد ليبرالية براجماتية تقود، مروراً بالــ*common law* [قانون العرف والعادات] والميثاق العظيم والــ*Bill of rights* [إعلان الحقوق القانوني]، إلى وضع قليل الاختلاف عن الممارسات الفرنسية. أمَّا المسيرة الألمانية، المنطلقة من غابات چرمانيا نفسها، فهي تفضي إلى وحدة عرقية وثقافية ترفض العالمية الفرنسية ولا تتضمن الليبرالية الإنجليزية.

ومنذ مستهل القرن التاسعِ عشر، تتوافر تعددية لنماذج الانتقال إلى الحداثة. وسواء لم يكن التاريخ مرجعاً، في نظر البعض، أو كان، على العكس من ذلك، يبرر التحولات الجارية، في نظر البعضِ الآخر، فإن النتيجة واحدة: إن مجتمعات النظام القديم ذات الطوائف المرتَّبة ترتيباً هيراركيًّا مقضي عليها. وحتى في هذا الشرق الذي سيجري تعريفه بأنه قريب من أوروبا سوف يجري التذرع برؤية مفارقةٍ زمانيًّا لتاريخ أصول الإسلام سعياً إلى إضفاء الشرعية على التحولات التي طبَّقها الغرب الذي لا مفر منه. والحال أن حركة صوغ العالم نفسها لعمل أوروبا على نفسها هي التي تسمح لها بفرض هيمنتها على بقية العالم القديم.

والتغيرات الجارية تلهم وتبرر إيديولوچيات التقدم. وبالنسبة للمراقبين كما بالنسبة للفاعلين، فإن المسيرة إنما تمر عبر تحرر حتمي للعالم من الأوهام: إن أنواراً قديمة تخبو بينما تسطع أنوار جديدة في القبة السماويّة. على أن هذا مفرط البساطة. والقيم الجديدة تزعم أنها قائمة على العلم، أي على علوم الإنسان. وحل المسائل الدينية يمر عبر استخدام العقل التاريخي المسلح بترسانته

من العلوم الفيلولوجية والآركيولوجية. ولأجل إعطاء معنى للظاهرة الدينية مع حصرها في الوقت نفسه في مجال الحياة الخاصة أو اختزالها إلى رموز للحياة الجماعية، فإنه تجري إزاحة الظاهرة الدينية إلى مجال التاريخ.

وهذا التعامل التاريخاني مع الديانات الأوروبية معاصر لاحتياز المجال العثماني عبر الامتيازات والبوارج الحربية. ويعيد الغرب اختراع الأرض المقدسة، بعد أن كان قد أهملها على مدار خمسة قرون. وبدلاً من أن تكون أثراً من آثار الماضي يُنظر إليه بحنان أو بلا مبالاة، فإنها تصبح موضع منافسة شرسة، أكانت على شكلٍ إنساني خيري (تدفق الإحسانات على القدس) أم على شكل حربي (حرب القرم). وكلما تعلمنت فرنسا، كلما دافعت عن حقوقها في الأماكن المقدسة المسيحية، حتى وهي جمهورية راديكالية سافرة (اتفاقات ميتيلين، التي تعتبر اليوم من جانب فرنسا ودولة إسرائيل نافذةً ما تزال).

والحاصل أن نشدان التقدم، أو فهمه على الأقل، إنما يتحقق عبر البحث عن الأصول، والشرق لا يتشكل إلاّ من الأصول. وقد رأى رجال عصر التنوير أن مصر قد لعبت هذا الدور (اعتبرت الحملة الفرنسية على مصر بين عامي ١٧٩٨ و١٨٠١ نفسها ردًّا للعلوم والفنون إلى الأرض التي كانت قد ولدت فيها)، والولع بمصر محتدم في أواخر قرننا العشرين هذا. أمّا رجال الثورة الصناعية فقد اعتبروا تفوقهم نابعاً من جنس آري أسطوري قادم من وسط آسيا كان وجوده مجهولاً قبل ذلك بنصف قرن. وبالنسبة للمسيحيين كما بالنسبة لليهود، عادت أرض الكتاب المقدس لتصبح من جديد مكاناً محسوساً تمكن زيارته ومساءلته. وسعيا إلى فهم الديانات الإبراهيمية، اليهودية والمسيحية والإسلام، جرى صوغ الافتراض السامي كافتراضٍ مُناظرٍ للتفسير الهندو ـ أوروبي.

وهكذا فإن فلسطين الصغيرة، التي لا يزيد حجمها عن حجم محافظة أو محافظتين فرنسيتين، قد أخذت مكانة في المخيالات لم تكن لها من قبل قط، أللهم إلاّ في زمن الحملات الصليبية. وكلما مضينا في اتجاه التقدم، كلما انطرحت مسألة الأصول. والحال أن الآرية والسامية قد أصبحتا محددتين أساسيتين لهويات جديدة، بعد أن كانتا مجرد فرضين علميين.

والحاصل أن صعود الليبرالية بجميع أشكالها، والذي كان إلى ذلك الحين صعوداً ثابتاً، إنما يتوقف فجأة نحو عام ١٨٨٠. والتفسير الاقتصادي لهذا التوقف (بداية الكساد الذي شهدته أواخر القرن التاسع عشر) إنما يعد بعيداً عن أن يكون كافياً. والأدق أن نرى أن الأمر يتعلق بعتبة دخول إلى عصر الجماهير، مع امتداد محو الأمية إلى الجزء الأعظم من الجماعات السكانية. وأول من يستفيد من ذلك هو الأحزاب الاشتراكية التي اعتبرت نفسها ثورية، ولو في خطاباتها على الأقل. وهي تريد تجاوز مكتسبات الليبرالية مع الاحتفاظ بما تمثله من حريات شكلية ومع رفض الأساس الفردي لليبرالية.

لكن الشيء الجوهري لا يكمن هنا: ففي مواجهة إيديولوچيات التقدم السياسية تنبثق نزعة ثورية يمينية تعتبر نفسها معادية للرأسمالية ومعادية للاشتراكية على حد سواء. فتكتسب الأصولُ عندئذ قيماً كانت تعزى حتّى ذلك الحين إلى الآفاق المستقبلية الهازجة. وهذا اللجوء الهجومي إلى الماضي إنما يتأسس على قيمةٍ مركزية مصيرها أن تهدد فكرة التقدم: الأصالة. وباسم هذا المرجع الجديد، لم تعد الأَنظمة القديمة المشرفة على الموت موضع شجب. إذ تجب العودة إلى تلك المجريات الواقعية القديمة التي، لسوء الحظ، جرى هجرها. والواقع أن تبرير العوالمِ الضائعة زائف، إذ يُعاد النظر إليها ويعاد صوغها ضمن منظور كان غائباً عنها تماماً، هو منظور الجماهير والأمة. والحال أن لا أهمية تذكر لهذا الانعدام للاتساق في هذا المجمل، الحداثة الرجعية، الذي يريد الاستناد إلى أساس عاطفي.

وصدام الحداثات ــ الليبرالية والاشتراكية والرجعية ــ إنما يبدأ نحو عام ١٨٨٠. وفي المجال الذي تغلب عليه الليبرالية (أوروبا الغربية وأميركا الشمالية)، يعبر هذا الصدام عن نفسه في حريات الرأي أو في المعارك الانتخابية أو، عند الضرورة، في المعارك الاجتماعية. ويبقى مع ذلك أن الحداثة الرجعية (الأرض والموتى، العِرق) تجد وسيلة تعبير جبارة في معاداة السامية، وهي شجب مفارق واستيهامي للطائفة القديمة الوحيدة التي نجت من الغرق مع الأنظمة القديمة مع كونها في الوقت نفسه الرمز الأعلى للحداثة الليبرالية أو الاشتراكية: اليهودية. وهكذا فإن إعادة إدخال الفصل بين الطوائف

عن طريق التفرقة إنما تعد مرحلة أولى نحو الإعادات المصابة بالحنين إلى ما كان. والحال أن الرجعيين باعتبارهم اليهوديَّ الأجنبيَ بامتياز، إنما يثبتون أن عودتهم إلى الماضي تستند إلى عدم فهم لهذا الماضي، لأن اليهود كان لهم مكانهم في مجتمعات الأنظمة القديمة ولأنهم لم يكونوا فيها أجانب. وبالمقابل، فإن الرجعيين إنما يجعلون من هذا الشيء الذي يعتبرونه بديهياً، ألاَ وهو الأمة المبنية على توافق عناصرها، سلاحاً هجوميًا موجَّهًا إلى الأعداء الداخليين بأكثر من كونه موجَّهًا إلى الأعداء الخارجيين. ومن الأصالة يُستَمدُّ التطهير ومرادفة الحداثة بالفساد.

وفي هوامش أوروبا، يعد الوضع أكثر خطورة. فكلما توغلنا في اتجاه الشرق الأوروبي، كلما كانت الليبرالية أضعف وكلما كانت الأنظمة القديمة ما تزال قوية. وتجد الحداثة الرجعية هنا ترحيباً أقوى لاسيما أن الماضي بعيد عن أن يكون قد مات: ففي رومانيا والإمبراطورية الروسية اعتباراً من عام ١٨٨٠، يظل بالإمكان إصدار تشريع قوامه التفرقة، وهو تشريع يصبح من المستحيل في الغرب إصدار مثيل له. واستيعاب اليهود في المجتمعات المسماة بمجتمعات الاستقبال يواجه عقبات لا يمكن التغلب عليها في حين أنهم يستوعبون ثقافة البلد الذي يحيون فيه ويستوعبون الأفكار القادمة من الغرب. والحاصل أن النزعة القومية الهويَّاتية، والأصالة التي تجب إعادة بنائها ونشدان أرض الأصول وإضفاء الطابع التاريخاني على الدين، إنما تولِّد الرغبة [لدى اليهود] في أن يصبحوا أمة في لحظة يسمح فيها تطور المواصلات ونظام الامتيازات بزيارة أرض الأسلاف والاستقرار فيها. وهكذا فإن الصهيونية هي نتاج هذه الدراما الإنسانية، هذا الانعدام لإنجاز الحداثات الأوروبية، كما أنها نتاج ما بين الحداثات من صدام. ونشدان الأصول هو العنصر المحوري في المشروع: فمهما كان ما يكابده سكان أوروبا الشرقية اليهود من شقاء فعلي، فإنهم ما كان يمكن لهم أن يذهبوا إلى الأرض المقدسة لو لم يجدوا قوة الجاذبية هذه التي من شأنها أن تسمح لهم بأن يقوموا هناك [في الأرض المقدسة] بما لا يمكنهم القيام به في مكان آخر. والحاصل أن الصهيونية، بعيداً عن أن تكون نزعة إنسانية خيرية، إنما تعد نزعة إرادوية لا يمكن أن تتحقق إلاَّ في العودة إلى الأصول.

وفي الشرق الأدنى، فرضت أوروبا، بسيطرتها لا غير، ضرورة إدخال الإصلاحات تجنباً للموت. والنظام القديم العثماني ربما يكون موته أسهل من موت الأنظمة القديمة الغربية. وقد أدى مشروع بناء دولة قوية مع الخضوع في الوقت نفسه لسيطرة مشتركة من جانب الغرب إلى حفز لجوء مستديم إلى قيم وإلى إيديولوجيات أوروبية. لكنها لم تؤخذ إلاّ كأدوات لا كأهداف في حد ذاتها. وفي مرحلة أولى، تبدو الليبرالية السلطوية علاجاً شافياً من جميع الأمراض لأنها تتضمن وعد النمو الاقتصادي، والذي يشكل مرحلة لا غنى عنها في طريق التحرر. وتترتب عليها نتائج لا جدال فيها، وتطور هذا الجزء الصغير من الدولة العثمانية الذي هو فلسطين إنما يثبت ذلك بجلاء اعتباراً من عام ١٨٦٠. ففي العصر الحميدي، يخلق نظام الامتيازات والحمايات القنصلية فضاءات حرية أكيدة تتمثل ثمرتها في الانبثاق العابر لتمدن مشرقي على ضفاف البحر المتوسط، وهو تمدن يمثل نتاجاً فرعيًّا لِلقاء بين التحديث العثماني والإمبريالية الأوروبية. لكن هذه التوازنات هشة: فتحرير غير المسلمين، بدلاً من أن يتم على أساس الأفراد، قد عجل بسيرورة تكوّن الطوائف واكتسابها لطابع مؤسسي. وقد أدى السعي إلى الحداثة، في مرحلة أولى، إلى انبثاق هويات عرقية، ثم أدى، في مرحلة ثانية، إلى تحول هذه الهويات العرقية إلى هويات قومية: فالنزعة القومية السورية والنزعة القومية العربية، والنزعة القومية اللبنانية والنزعة القومية الفلسطينية موجودة منذ ما قبل عام ١٩١٤، حتى وإن كانت لم تحز بعدُ قواماً مذهبيًّا حقيقيًّا (وهو قوام سوف يتكون بين عامي ١٩٢٠ و١٩٤٠). وهكذا أدى التحول الكبير في المجال العثماني إلى إيجاد الفاعلين الذين سوف يصنعون التاريخ في القرن العشرين: التدخلات الإمبريالية الخارجية، الطوائف، الأمة أو الأمم، الدولة أو الدول. والحال أن تاريخ الشرق الأدنى، بحُلوهِ ومرّهِ، هو تاريخ لا ينفصل عن المصير الغربي. فمن المستحيل جعل البحر المتوسط، وهو طريق التبادلات والمواجهات، حاجزاً يفصل إلى الأبد بين شعوب ضفتيه. والحال أن إنكار هذه العلاقة إنما يعني استحالة أي فهم لمسألة فلسطين.

وفي أفق عام ١٩٠٠، كانت جميع الشروط المحدِّدة لهذه المسألة موجودة:

جماعتان بشريتان تتشكلان على شكل شعبين يطالب كل منهما بأرض واحدة، مع دور مستديم لفاعلين إمبراطوريين خارجيين عن المنطقة ومع الخاصية المزدوجة المتمثلة في نزعة قومية مطلقة في رفضها لأي توفيق ولعبة حاصلها صفر. ومن ثم يجب التمييز بين منطق خطابٍ يبرر المطلب الترابي ومنطق وضع يقود بشكل ملموس إلى المواجهة. والحال أن الطرفين سوف يقاتل كل منهما من أجل امتلاك الحق في الوجود كما من أجل كسب أو حماية بضعة أمتار مربعة على حدٍّ سواء. وكانت المواجهة السابقة، مواجهة الحملات الصليبية، قد حركت في صفوف المسلمين إعلاءً من قيمة الأرض المقدسة مماثلاً للإعلاء من قيمتها الذي كان موجوداً أيضاً في الغرب. وهذا الحضور الكلي للأرض المقدسة سوف يتكشف في اعتبار حائط المبكى/ الحرم الشريف موقع تعبير رمزي عن نزعتَين قوميتَين ومن ثم موقع تعبير عن المواجهة الملموسة بينهما، فيحل بذلك محل موقع التعبير عن المواجهة التي عرفها القرن التاسع عشر حول القبر المقدس أو نجمة بيت لحم.

والاستقرار الظاهري لعصر الإمبراطوريات إنما يقلل ما يزال من خطورة هذه المواجهة. بيد أن الحرب العظمى [الأولى]، بإطلاقها للعنف المطلق، إنما تبدل كل أبعاد المواجهة. فثقافة الحرب المنبثقة من الحرب العظمى سوف تسمح بتبرير أسوأ لجوء إلى العنف في سبيل تحقيق المشاريع أو في سبيل الدفاع عن وجودٍ يجري تصوُّرُ أنه مهدَّد، وهو تصور يأخذ شكلاً استيهاميًّا في أغلب الأحوال. وحتى إذا كانت العناصر البراجماتية، المتمثلة في المواقع الجيوسياسية وتوزيع القوات العسكرية، ضرورية لفهم القرارات المُتَخذَة، فإنه يبقى مع ذلك أن معاداة السامية وترياقها الظاهري، الصهيونية، وكذلك الخوف من الإسلام، أي من انتفاضة الشعوب المسودة، هي العوامل الأعلى التي يلعب فيها المخيالُ الدورَ الأهمَّ في الخيارات التي اختيرت بين عامي ١٩١٤ و١٩٢٢.

وفلسطين هي الموقع، الذي تلتقي فيه كل هذه النتاجات للحداثة ولنشدان الأصول. وفي هذا الموقع، توجد من جديد إعادة قراءة الماضي كلها التي جرت في القرن التاسع عشر ضمن إطار تقويض الأنظمة القديمة ـــ بناء الأمم

وتكوين مجتمع الجماهير في أميركا الشمالية وفي أوروبا الغربية كما في أوروبا الشرقية وفي العالم الإسلامي. ويرجع الطابع الاستثنائي للنزاع إلى الهوية التحتية لهذه الأرض التي يسميها أحد الطرفين فلسطين بينما يسميها الطرف الآخر إيريتز إسرائيل، وهي ليست سوى الأرض المقدسة وقد أعيدت إلى صدارة المخيالات العالمية خلال زمن الروح الإبداعية الجبارة تلك في القرن التاسع عشر. وكما أن معاداة السامية مختلفة اختلافاً جذريًا عن جميع الأشكال الأخرى للعنصرية (ومن ثم تعد إبادة اليهود في الحرب العالمية الثانية مختلفة عن جميع الإبادات الأخرى) لأنها تستهدف جزءاً من الذات يجري تعريفه على أنه غريب (التراث الإبراهيمي في عصر مجتمع الجماهير)، فإن مسألة فلسطين إنما تعد فريدةً فرادةً كليَّةً بالقياس إلى جميع المواجهات الأخرى في القرن العشرين وعلى الأرجح في القرن الحادي والعشرين ــ حتى وإن كانت هذه المواجهة أقل دموية بكثير من مآس رهيبة معاصرة ــ لأنها تحيل، لدى المنتمين إلى التراث اليهودي أو المسيحي أو الإسلامي، إلى تلك الأرض التي كانت مقدسة في نظر الديانات وأصبحت مقدسة في نظر الأمم خلال القرنين الماضيين.

المختصرات

AIU: Alliance israëlite universelle

MAE: Ministère des Affaires étrangères (Paris)

MAE, Nantes: Ministère des Affaires étrangères (Nantes)

PRO: Public Record Office (Londres)

الكتاب الثاني
أصل فلسطين ما تحت الانتداب
١٩١٤ـ١٩٢٢

الفصل الثامن
الفرنسيون والإنجليز في الشرق الأدنى

(1) Traduction de Maurice Larès, T.E. Lawrence, T.I, Robert Laffont Bouquins, 1992, p.67.

(2) Ètude essentielle sur la question de l'entrée en guerre de l'Empire ottoman, Feroz Ahmad, « Ottoman Armed Neutrality and Intervention August-November 1914 » in Studies on Ottoman Diplomatic History, T. IV, Isis Press, Istanbul, 1990, pp. 41-70.

(٣) حكومة الهند هي التي تقدمت بالطلب وقد نوقشت المسألة في مستهل سبتمبر/ أيلول في بوردو، التي انتقلت إليها الحكومة الفرنسية:

2 septembre 1914,MAE, Guerre 1914-1918, 867, 1, Sir Francis Bertie, Ambassadeur d'Angleterre à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères.

ونجد تفصيلات المفاوضات في الأيام التالية.

(4) Sur la vision anthropologique des sociétés occidentales, voir Emmanuel Todd.

Le destin des immigrés, Assimilation et ségrégation dans les démocraties occidentales, Paris, Le Seuil, 1994.

(5) Lord Cromer, *Modern Egypt*, Londres, Macmillan, 1908, T. II, pp.236-244.

(6) Anthologie particulièrement édifiante dans Elie Kedourie, *England and the Middle East. The Destruction of the Ottoman Empire, 1914-1921*, Londres. 1956, pp.73-85.

(7) 17 août 1914, MAE, Nouvelle série, Turquie Palestine, CXXXV. 262-263. Le Consul général de France à Jérusalem à Son Excellence M. Doumergue, Ministre des Affaires étrangères à Paris, La situation à Jérusalem.

(٨) عزة دروزة، **مذكرات، مصدر سبق ذكره**، المجلد الأول، ص ص ٢١٤-٢١٥.

(٩) كان مصير الأرمن المريع معروفاً في فلسطين بفضل وصول بعض اللاجئين الناجين، عزة دروزة، **مذكرات، مصدر سبق ذكره**، المجلد الأول، ص ص ٢٥٣-٢٥٤.

(10) Sur Albert Antébi, l'important travail d'Elisabeth Antébi, *l'Homme du sérail*, Paris, Nil éditions, 1996.

(١١) عزة دروزة، **مذكرات، مصدر سبق ذكره**، المجلد الأول، ص ص ٢٤٠-٢٤١.

(12) MAE, Guerre 1914-1918. 867, 40. Note Bordeaux le 18/11/1914.

(13) A.L. Tibawi, *Anglo-Arab Relations and the Question of Palestine, 1914-1921*. Londres, Luzac and Company, 1978, pp. 42-43.

(١٤) احتل كلايتون مكانة مهمة في الترتيب لأنه كان، في آن واحد، في خدمة المندوب السامي والقائد العام للقوات البريطانية في مصر، ماكسويل، وريجينالد وينجيت، الحاكم العام للسودان وقائد الجيش المصري.

(١٥) مشروع الإسكندرون هو المشروع الذي يشار إليه في الأغلب، لكن وزارة الحرب، التي خلفت لجنة الدفاع الإمبراطوري، تستعيد الفكرة الموجودة منذ ما قبل الحرب والخاصة بإنزال على الساحل الفلسطيني،

cf. Hankey, *The Supreme Command*. I, pp. 242-243. Londres. 1961.

(16) 11 février 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 868, 19, M. A. Defrance, Ministre de France en Egypte à Son Excellence M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères à Paris, Campagne anti-française au sujet de la Syrie.

(17) 31 décembre 1914, MAE. Guerre 1914-1918, 867. 138, Au sujet du mouvement panislamique créé par l'Allemagne pour soulever le monde musulman, [fait parti d'un ensemble de notes sur une intervention en Syrie].

(18) 5 janvier 1915. MAE. Guerre 1914-1918. 867, 176, Le Ministre de la Guerre à M. le Ministre des Affaires étrangères: Entente franco-anglaise au sujet des affaires musulmanes.

(19) 28 février 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 868, 81 et suivante. Maucorps: note sur une conversation avec le capitaine Lloyd, député au Parlement anglais.

(20) Georges-Henri Soutou. *L'or et le sang, Les buts de guerre économiques de la Première Guerre mondiale*, Paris, Fayard, 1989. p.175.

(21) Martin Gilbert, *The Challenge of War, Winston S. Churchill, 1914-1916*, Londres, Minerva, 1990, pp. 332-334 et pp. 343-344.

(22) 13 mars 1915, MAE. A Paix, 170. 1, Delcassé à Paléologue:

" من بين طموحات فرنسا في الشرق، والتي أعلنت روسيا استعدادها للمشاركة في العمل على تحقيقها، بحسب ما جاء في برقيتكم رقم ٣٦٧، أرجو أن تذكروا منذ الآن للسيد سازونوف سوريا، بما في ذلك منطقة خليج الإسكندرون والمناطق القيليقية حتى سلسلة جبال طوروس".

(23) MAE, A Paix, 177, 40-44. M. Paléologue. Ambassadeur de la République française à Pétrograd à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères. Pétrograd, le 17 mars 1915.

(24) Ensemble du dossier dans PRO FO 371/2768.

(25) Publié pour la première fois dans *l'Arab Bulletin* du 12 mars 1917 avec pour référence début 1915; il a été repris en 1939 dans les *Secret Despatches from Arabia*, dont la meilleure édition est celle de Malcom Brown en 1991 (Londres,

Bellew Publishing). Il en existe une excellente traduction française de Maurice Larrès dans le Tome I des oeuvres de T.E. Lawrence, Paris, Bouquins, Robert Laffon, 1992, *op. cit.* pp. 63-71.

إن جيريمي ويلسون، في السيرة التي كتبها عن ت. إ. لورانس (الطبعة الفرنسية، باريس، دار نشر دينويل، ١٩٦٤)، هو الذي كانت له مأثرة توضيح أن هذه الوثيقة كانت أساس مراسلات حسين ــ ماكماهون، فسمح بذلك بتحقيق اختراق حاسم فيما يتعلق بفهم هذه المسألة.

(26) Textes anglais et arabe de la correspondance dans le très précieux recueil d'Antoine Hokayem et Marie Claude Bitar, *L'Empire ottoman, les Arabes et les grandes puissances, 1914-1920*, Éditions universitaires du Liban, Beyrouth, 1981.

(27) 25 mai 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 869, 14 et suivant, Mission militaire française en Ègypte, note de renseignements n°34.

(٢٨) ظل تحديد خط دمشق ــ حمص ــ حماه ــ حلب لغزا بالنسبة للمؤرخين لوقت طويل. وفي عام ١٩٦١، أومأ مارمورشتاين (*St Antony's Papers* n°11) إلى أنه ناشئ عن تذكر لفقرة وردت عن جيبون (الفصل ٥٨ من كتابه: *The Decline and Fall of Roman Empire*) يرسم فيها حدود الممالك الفرنجية ومن ثم حدود النفوذ الفرنسي بناءً على ذلك وعزا هذا التحديد إلى سايكس؛ وفيما بعد، عزاه إيلي قدوري إلى ستورس، مستنداً إلى واقع أن سايكس لم يكن قد وصل بعد إلى مصر. والحال أن ج. ويلسون هو الذي قدم العزو المناسب إلى ت. إ. لورانس (*cf. supra*) معتمداً على نص معروف منذ وقت طويل. على أن ذلك لا يستبعد الإحالة الواعية أو اللاواعية إلى زمن الممالك الصليبية، لأن لورانس كان قد كرس بالفعل أطروحته لنيل درجة الدكتوراه للحملات الصليبية. ويتمثل تحليل لمراسلات حسين ــ ماكماهون يقترب، بالرغم من جهله تأثير لورانس، من التفسير المستخلص هنا في التحليل الذي قام به:

Ronald Sanders, *The High Wall of Jerusalem, A History of the Balfour Declaration and the Birth of the British Mandate for Palestine*, Holt Rinehart Winston, New-York, 1984, pp. 243-253.

خاصة ص ٢٤٩: "إلاّ أنه يبدو أنه لم تكن هناك انتقادات أخرى فيما يتعلق بهذه النقطة.

ومن المؤكد أنه لم تكن هناك انتقادات من جانب وزارة المستعمرات البريطانية لأن المسئولين فيها كانوا يعتقدون أن اللغة التي توصل إليها ماكماهون ومستشاروه في القاهرة ــ بالرغم من كونها مشوّهَة ومضلِّلة إلى حدٍّ ما ــ قد تناولت فلسطين بشكل مناسب. ألم تنطو الصيغة المحيِّرة "يمكن أن يقال إنها عربية بصورة خالصة" بالنسبة لــ"أجزاء من سوريا" على الساحل الشرقي للبحر المتوسط على أن فلسطين إنما يجري استبعادها من الكيان العربي الذي يجري التخطيط لقيامه؟ ففلسطين، على أي حال، كانت أقل "نقاءً في عروبتها" من أي منطقة أخرى على الساحل". أمّا:

David Fromkin, *A Peace to end all Peace. Creating the Modern Middle East 1914-1922*, André Deutsch, Londres, 1989, pp.178-179.

فهو أقل اقتناعاً: فهو يرى أن الخط الشهير قد جاء من طبعة عام ١٩١٠ من **الموسوعة البريطانية**، ذلك أن دمشق وحمص وحماه وحلب هي مدن الداخل الوحيدة المبيَّنة على خارطة سوريا وهي تتماشى مع الخط (الفرنسي) لسكة حديد دمشق ــ حماه وامتداداتها. وعندئذ فإن استبعاد فلسطين كان من شأنه أن يصبح مستحيلاً وكان من شأنه أن يعني إشارة مماثلة إلى سكة حديد الحجاز.

(٢٩) النص الإنجليزي: *in them both*، والنص العربي: فيهما.

(٣٠) يظهر هذا بوضوح في المذكرة الخاصة بالمسألة العربية والتي حررها المكتب العربي في أبريل/ نيسان ١٩١٦، حيث لا يظهر مصطلح فلسطين في تناول تعهدات الطرفين. PRO FO/371/2768

(31) 3 septembre 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 870, 78-82, Cambon à Delcassé, Affaires de Syrie.

(32) 25 octobre 1914, MAE, Guerre 1914-1918, 870, 198, Secret télégramme Defrance; 30 octobre 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 870, 204; MAE, A Paix, 170, 46: Le contre-amiral Hugueur, commandant la division navale d'Extrême-Orient et la division navale détachée en ̈ gypte à M. le ministre de la Guerre.

(33) 16 juin 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 869, 45-53, Le général de division Lyautey, Commissaire Résident Général de la République française au Maroc à Son Excellence M. le Ministre des Affaires étrangères. La question du Khalifat.

(34)19 septembre 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 870, 105, Note sur le Khalifat rédigée par le Résident général à Tunis.

(35) 5 août 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 870. 11, Etat-Major de l'armée, section de l'Afrique, Note au sujet du Califat.

(36) 28 octobre 1915, MAE, A Paix, 177, 89-95, Note pour le Président du Conseil: Du projet anglais de constitution d'un État arabe sous l'autorité du Chérif de La Mecque.

(37) 28 octobre 1915, MAE, A Paix, 177, 101-104, M. A. Defrance, Ministre de France en Égypte à Son Excellence M. Viviani, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères à Paris: La question arabe et le Khalifat. 2 novembre 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 871, 1, M. Defrance, Ministre de France en Égypte à Son Excellence M. A. Briand, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères à Paris: La question arabe.

(38) 2 novembre 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 871, 32-36, Le Président du Conseil Ministre des Affaires étrangères à M. Georges Picot, chargé du Consulat général de France à Beyrouth: Pourparlers avec les Anglais concernant les limites de la Syrie.

(39) 5 novembre 1915, Aristide Briand, Président du Conseil, Ministre des Affaires Étrangères à l'Ambassadeur de Grande-Bretagne à Paris .

(40) 28 juillet 1915, Note n°63, MAE, Guerre 1914-1918, 869, 132-139, Visées anglaises sur la Syrie.

(41) 14 novembre 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 871, 56, Télégramme de Moudros.

(42)15 novembre 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 871, 59, Télégramme de Moudros.

(43) 15 novembre 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 871, 58, télégramme de Cambon à la suite d'entretiens avec Grey.

(44) Hankey, *The Supreme Command*, II, pp. 460-461, Londres, 1961

(45) 23 novembre 1915, MAE, A Paix, 178, 9-14, Procès-verbal la réunion franco-britannique.

(٤٦) يتحدث بول كامبون عن "اندفاع" البريطانيين "المحموم":

26 novembre 1915, MAE, Guerre 1914-1918, 871, 92, Paul Cambon à Briand.

(47) 14 décembre 1915, MAE, A Paix, 178, 42-46, Le Président du Conseil, ministre des Affaires étrangères, à M. Paul Cambon, Question de Syrie.

(48) MAE, Guerre 1914-1918, 871, 117-120. A Paix 178, 59-65.

(49) Ronald Sanders, *The High Wall of Jerusalem, A History of the Balfour Declaration and the Birth of the British Mandate for Palestine*, Holt Rinehart Winston, New-York, 1984, pp. 281-283.

(50) 21 décembre 1915, MAE, A Paix, 178, 53-55, Paul Cambon au Président du Conseil.

(51) Raymond Poincaré, *Au service de la France*, VIII, Verdun, Paris, Plon, 1931, pp. 8-9.

(52) MAE, A Paix, 178, 67-71.

(53) 3 janvier 1916, MAE, A Paix, 178, 87-93, Picot à Cambon

(54) 5 février 1916, MAE, Guerre 1914-1918, 872, 1 et suivantes, Paul Cambon, ambassadeur de la République française à Londres, à M. Briand, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères.

(55) A.P. Wavell, *The Palestine Campaigns*, Londres, Constable, 1933, pp. 38-50.

(56) 26 avril 1916, MAE, A Paix, 174, 101-102, Sazonov à Paléologue.

(57) 16 avril 1916, MAE, Guerre 1914-1918, 872, 137 et suivantes, Paul Cambon, ambassadeur de la République française à Londres, à M. Briand, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères: Informations données par Sir Mark Sykes au sujet de la situation de l'armée russe au Caucase et des mesures à prendre pour lui prêter secours.

(58) PRO FO 371/2768. Sykes à McMahon, 14 avril 1916.

(59) 23 avril 1916, MAE, A Paix, 174, 74, Briand à Ambassadeur Pétrograd; 23 avril 1916; 26 avril 1916; MAE, A Paix, 174, 75: Paléologue à Briand:

"لقد وقّعتُ للتوّ الاتفاق الخاص بسوريا وأرمينيا. وقد وعدني السيد سازونوف بأن يساند لدى الحكومة البريطانية مخططات حكومة الجمهورية فيما يتعلق بفلسطين. وسوف يتلقى سفير روسيا لدى لندن تعليمات في هذا الصدد بمجرد ما أن تعبروا عن رغبتكم في ذلك".

(60) MAE, A Paix, 174, 89-90 .

(61) MAE, A Paix, 174, 96.

(62) Vue d'ensemble dans François Charles-Roux. *Souvenirs diplomatiques, Rome-Quirinal*, Paris, Fayard, 1958.

(٦٣) هناك أدبيات بالعربية جد غزيرة حول هذا الموضوع، منذ كتاب أمين سعيد الكلاسيكي المنشور في الثلاثينيات من القرن العشرين، **الثورة العربية الكبرى** إلى أعمال سليمان موسى المستندة إلى الأرشيفات الهاشمية، **الحركة العربية والمرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة** (١٩٠٨-١٩٢٤)، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٧. وسيضاف إلى ذلك نشره لأوراق الأمير زيد، **مذكرات الأمير زيد، الحرب في الأردن**، ١٩١٧-١٩١٨، مركز الكتاب الأردني، ١٩٩٠. و**مذكرات جعفر العسكري**، وهو واحد من أهم القادة العرب الذين انضموا إلى التمرد (**مذكرات جعفر العسكري**، دار السلام، لندن، ١٩٨٨).

(64) Synthèse documentaire sur ces différents projets dans Eliezer Tauber, *The Arab Movements in World War I*. Londres, Frank Cass, 1993.

(65) Ètude très précieuse, L. Schatkowski, « The Famine of 1915-1918 in Greater Syria », in John P. Spagholo (ed.), *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective, Essays in Honour of Albert Hourani*, St. Antony's College Oxford, Ithaca Press, 1992. pp. 229-258.

(66) Guy Rousseau, « Le conseil des ministres en 1916 d'après les notes d'Ètienne Clémentel », *Guerres mondiales et conflits contemporains*, n°171, juillet 1993, p. 153.

(٦٧) مذكرة بتاريخ ٣ مايو/ أيّار ١٩١٦، استشهد بها:

Jeremy Wilson, *Lawrence d'Arabie..*, p. 318.

(٦٨) لا نعرف المحتوى الدقيق للمحادثات بين لورانس وفيصل. وعبر تحقيقات متنوعة، نجح ج. ويلسون في تقديم مضمونها العام. ومن الواضح أن الأمر يتعلق، من جهة، بالحد من الأطماع الفرنسية في لبنان، بينما يتعلق، من الجهة الأخرى، بـالتحرك مـن زاويـة الشرط الشهير المفروض على العرب والخاص بالاستيلاء على المدن السورية الأربـع: وخصوم لورانس هم الفرنسيون، لكنهم أيضاً إنجليز الهند. فهو يحارب على جبهتين.

(69) 17 janvier 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 875, 115, Le Ministre de la Guerre (Lyautey) à M. Le lieutenant de Saint-Quentin, Mission Militaire française, Le Caire.

في هذه المذكرة، يشدّد ليوتي على خطر استيلاء الأتراك على مكة: فأصداء ذلك سوف تكون خطيرة في كل العالم الإسلامي، خاصة في الهند ومصر وتونس والمغرب الأقصى، "خاصة بعد بعث الحج والعون الذي قدمته حكوماتنا إلى الشريف بشكل علني". ومن ثم يجب وجوباً مطلقاً قطع سكة حديد الحجاز، "فمثل هذا العمل سوف تكون له أهمية حقيقية من الزاويتين الاستراتيجية والسياسية، على حدٍّ سواء". ويمكن استخدام سنغاليي جيبوتي في عملية العقبة هذه.

كما يبين ليوتي أن سقوط مكة من شأنه أن يجبر فرنسا علـى تخـصيص فيلقـين عسكريين لحفظ السكينة في الشمال الأفريقي:

(23 juillet 1917: cf. 23 juillet 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 878, 84-85. Notes pour la onference de la onference de Paris).

(70) A.P. Wavell, *The Palestine Campaigns..* p.59.

(71) 9 décembre 1918, MAE, Guerre 1914-1918, 875, Paul Cambon à Ministère des Affaires étrangères; 24 décembre 1916, MAE, Guerre 1914-1918, 875, 64; Affaires étrangères Le directeur politique: Régime de la Palestine.

(72) 28 décembre 1916, MAE, Guerre 1914-1918, 875, 73-74.

(73) 23 janvier 1917, MAE, A Paix, 174, 150-153, Paul Cambon à Son Excellence Aristide Briand, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères: Accord

franco-britannique relatif à l'Arabie et à la Syrie. Projet britannique de poser un tuyau de transport de pétrole des gisements de Perse à la Méditerranée.

(74) 27 janvier 1917, MAE, A Paix, 174, 172-173, Margerie à Paul Cambon: Accords sur la Syrie et l'Arabie.

(75) 12 mars 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 876, 31.

(76) MAE, Guerre 1914-1918, 876, 137-142.

(77) Pierre-Jean Luizard, *La Formation de l'Irak contemporain*, Paris, édition du CNRS, 1991, pp. 499-500.

(78) Robert Adelson, *Mark Sykes: Portrait of an Amateur*, Londres, 1975, p. 224.

(79) 25 avril 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 876, 259. Télégramme de Defrance sur la bataille de Gaza.

هذا واحد من أول الاستخدامات لهذا السلاح الجديد في الحرب العالمية [الأولى].

(80) 19 mai 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 877, 105-106, Defrance, Ministre de France en Égypte à Son Excellence M. A. Ribot, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères à Paris.

(81) Hankey, *The Supreme Command*, II, pp. 637-638.

(82) Stephen Roskill, *Hankey, Man of Secrets*, Vol. I, 1877-1918, Londres Collins, 1970, pp. 434-435.

(83) Sur les entretiens de Djeddah, voir Gérard Khoury, *La France et l'Orient arabe. Naissance du Liban moderne 1914-1920*, Paris, Armand Colin, 1993, pp. 93-98; Jérémy Wilson, *Lawrence d'Arabie..*, pp. 472-474.

(84) 24 mai 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 877, 128 et suivantes, télégrammes de Picot à Aden.

عندما تثار مسألة سوريا، يلتزم سايكس موقف التحفظ لكي يوضح للشريف جيداً أن بيكو هو الذي يجب ان يكون محاوره الرئيسي.

(85) 29 mai 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 877, 150-151, Ribot à Defrance pour Picot.

(86) 8 juin 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 877, 186-187, Le Caire, Picot à Paris.

(87) 11 juin 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 877, 208, Margerie à Picot.

(88) 18 juin 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 877, 229, Margerie à Brémond (chef de la mission militaire française au Hedjaz).

(89) 27 juin 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 877, 261-262, Ribot à Defrance.

(90) 26 juillet 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 878, 105-106, Defrance, Ministre de France en Égypte à Son Excellence M. A. Ribot, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères à Paris.

(91) 30 août 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 878, 173-181, Defrance, Ministre de France en Égypte à Son Excellence M. A. Ribot, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères à Paris.

وهو يستعيد التحليلات التي قام بها ر. ب. جوسَّان حول هذا الموضوع في ١٣ أغسطس/ آب: "مما يتميز بأهمية أولى ألاّ يقوم الشريف، أيًّا كان توسعه في اتجاه سوريا، بطرح أي مطالب في فلسطين والمنطقة الواقعة إلى الغرب من خط نهر الأردن ـ البحر الميت ـ وادي عربه". ويضيف جوسَّان: "إن أحد سكان القدس، من عائلة الحسيني الكبيرة، قد حاول عقد صلات مع الشريف ناصر، عندما كان هذا الأخير موجوداً في بير بائير مع الكابتن لورانس. وقد كشف عن لقبه كشريف ووجَّه النداء إلى ملك الحجاز، إلاّ أنه جرى صرفه". وربما كان المقصود هو الحاج أمين الحسيني الذي كان في القدس اعتباراً من ٢٦ فبراير/ شباط ١٩١٧،

Taysir Jbara, Palestinian *Leader Hajj Amin al-Husayni, Mufti of Jerusalem*, The Kingston Press, Inc. Princeton, New Jersey, 1985, p.25.

(92) 23 juillet 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 878, 84-85, Notes pour la préparation de la conférence de Paris.

(93) Hankey, *The Supreme Command*, II, pp. 687-688.

(94) Raymond Poincaré, *Au service de la France*, IX, *L'année trouble*, Paris, Plon, 1932, p.215.

(95) Hankey, *The Supreme Command*, II, pp. 689-690.

(96) 23 septembre 1917, MAE. Guerre 1914-1918, 878, 242-245, Defrance, Ministre de France en Égypte à Son Excellence M. A. Ribot. Président du Conseil. Ministre des Affaires étrangères à Paris.

(97) A.P. Wavell, *The Palestine Campaigns*, Londres, Constable, 1933, pp. 106-107.

بحسب ڤون پـــابن (*Mémoires*, Paris, Flammarion. 1953. pp. 53-54) ، فـــإن الألمـــان والأتراك قد أذهلتهم الحيل البريطانية لكنهم ظلوا يتساءلون إلى النهاية عما إذا لـــم يكـــن الأمر خدعة.

الفصل التاسع

المسألة اليهودية في الحرب العالمية

(1) Chargé de la propagande allemande aux États-Unis.

(2) Cité par Léon Poliakov, *Histoire de l'antisémitisme, L'Europe suicidaire, 1870-1933*, Paris, Calmann-Lévy, 1977, pp. 212-213.

(3) *Ibid*, p.217

(4) *Ibid*, p.218.

(5) Leonard Stein, *The Balfour Declaration*, Londres, Valentine-Mitchell, 1961. p. 98.

(6) C.C. Aronsfeld, «Jewish Enemy Aliens in England during the First World War», *Jewish Social Studies*. Vol. XVIII, 1956. pp. 275-283.

(7) Sur la vie de Brandeis, voir Ben Halpern, *A Clash of Heroes. Brandeis, Weizmann and American Zionism*, Oxford University Press, 1987.

(8) Isaiah Friedman, Germany, *Turkey and Zionism, 1897-1918*, Oxford. Clarendon Press, 1977, p.227. (ouvrage fundamental).

(9) *Ibid.*, pp. 228-267.

(10) Cité par Marius Schattner, *Histoire de la droite israélienne*, Éditions complexe,

Bruxelles, 1991, p. 38.

(11) Shabtai Teveth. *Ben Gurion and the Palestinian Arabs*..., pp. 26-31.

من الغريب أن بار زوهار، الكاتب الرسمي لسيرة بن جوريون، لا يذكر أن جيش الشغيلة يجب أن يكون في خدمـــة العثمـــانيـــن.(Ben Gourion... pp. 60-64.) . ويؤكـــد بن جوريـــون نفســـه، في مذكــراته، (Israël, années de luttes, p. 13) ، أنه دعا إلى إنشاء وحدة عسكرية يهودية مهمتها خوض النضال ضد الأتراك والمشاركة في تحرير بلدنا". وهذا صحيح، ولكن بعد تصريح بلفور.

(12) 5 novembre 1915. SS Marine, Q 85. Lettre de l'Intelligence Office Port-Saïd (Woolley) à chef d'Etat-Major 3e escadre Jaureguiberry.

(13) Son frère Alexandre rédigera un petit livre contre les Turcs, *With the Turks in Palestine*. Londres. Constable. 1917.

(14) sur Sir Herbert Samuel. voir Bernard Wasserstein. *Herbert Samuel, a Political Life*. Clarendon Press. Oxford, 1992.

(15) Livre fondamental sur la question, Mark Levene, *War, Jews and the New Europe. the Diplomacy of Lucien Wolf*, Oxford University Press. 1992.

(16) 6 janvier 1915. - Note de Jean Gout: 06.01.1915; vue par le ministre; MAE. guerre 1914-1918, sous-série Turquie, Vol. 966. Ottomans en France, fol. 40.

(17) Nombreuses allusions dans *La roue Rouge, Octobre 1916*. d'Alexandre Soljénitsyne, Paris, Fayard/Seuil, 1985.

(18) Catherine Nicault, *La France et le sionisme 1897-1948*, Paris, Calman-Lévy, 1992, pp. 59-60.

(19) MAE, guerre 1914-1918, 1197, 180-185.

(20) Sur Victor Basch et son séjour aux États-Unis , voir Françoise Basch. *Victor Basch, de l'affaire Dreyfus au crime de la milice*, Paris, Plon, 1994, pp. 139-148. MAE, guerre 1914-1918, 1197, 148-154. 21 février 1916, M. Octave Homberg, délégué financier du Gouvernement français à M. A. Ribot. Ministre des Finances à

Paris, Séjour à New-York de M. Victor Basch.

(21) MAE, guerre 1914-1918, 872, 40-41. Margerie à Cambon.

(٢٢) يرى Ronald Sanders, *The High Wall of Jerusalem*, pp. 342 et suivante أن جراي لا دخل له بهذه الإضافة التي ستكون من عمل اللورد كروي، سكرتير الدولة السابق لشئون الهند (١٩١٤ــ١٩١٥) والذي كان آنذاك اللورد الرئيس للمجلس (مايو/ أيار ١٩١٥ ــ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٦). وكانت حماته ابنة خالة اللورد روتشايلد الأول وكانت زوجته على ارتباط وثيق بحلقة دوروثي وجيمس روتشايلد، وقد كانت تعرف فايتسمان. ولم يكن اللورد كروي قد التقاه بعد. وفي عام ١٩١٧، سوف يبدو مؤازرا للصهيونيين مؤازرة شديدة.

(23) Robert Adelson, *Mark Sykes: Portrait of an Amateur*, Londres, 1975, pp. 206-207.

(24) 10 mai 1917, MAE, Nantes, Jérusalem B. 113, Le Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères à M. Georges Picot, Commissaire du Gouvernement français dans les régions occupées de Palestine et de Syrie: De la situation de la Palestine dans les accords entre Alliés sur l'Asie mineure.

عبارة عن مذكرة تعيد عرض المفاوضات المختلفة بشأن فلسطين.

(25) Ouvrage fondamental sur la question qui tranche en faveur de Weizmann: Jehuda Reinharz, *Chaim Weizmann, The Making of a Statesman*, Oxford University Press, 1993. Vision plus mesurée dans le livre de Ronald Sanders, *The High Wall of Jerusalem*.

(٢٦) رسالة إلى أحاد هاعام بتاريخ ١٤ــ١٥ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٤ (الأصل بالروسية): "أوضحتُ له أننا نحن أيضاً على اتفاق مع المعادين الثقافيين للسامية، وذلك بقدر ما أننا نعتقد أن الألمان ذوي الديانة الموسوية يشكلون ظاهرة غير مرغوب فيها وتؤدي إلى التفسخ، لكنني [أوضحت له] أننا لا نتفق بالمرة مع فاجنر و[هوستون ستيوارت] تشامبرلين فيما يتعلق بالتشخيص والتنبؤ"، *Letters*, VII, p.40.

(27) Rapport soumis aux membres de l'Exécutif de l'Organisation sioniste internationale, Londres et Manchester, 7 janvier 1915, Original en anglais aux

Archives Weizmann; repris dans *Letters* Vol. VII, pp. 108-118..

يبدو أن التقرير كان موجّهاً إلى العضوين الروسيين في اللجنة التنفيذية اللذين كانا آنذاك في إنجلترا، تشيلنوف وسوكولوف.

(28) *Ibid*.

(29) Remarquable dossier sur cette affaire dans Reinharz, *Chaim Weizmann. The Making of a Statesman*....pp. 40-72.

(30) MAE, Guerre 1914-1918, sionisme, vol. 1199, 2-4. MAE, Nantes, Jérusalem. B, 93. 5 mai 1917, François Georges Picot, Commissariat de la République française dans les territoires occupés de Palestine et de Syrie, à Son Excellence M. Alexandre Ribot, Président du Conseil, Ministre des Affaires Étrangères. A.S des négociations avec les chefs du mouvement sioniste.

(31) Leonard Stein, *The Balfour Declaration*..., pp. 289-290.

(32) Isaiah Friedman, Germany. *Turkey and Zionism*,..., pp. 275-277.

(33) Sur l'organisation du Cabinet de Guerre sous Lloyd George, voir Hankey, *The Supreme Command*, II, pp. 582-511.

(34) Isaiah Friedman, *The Question of Palestine. British-Jewish-Arab Relations*, Londres, Routledge and Kegan Paul, 1973, pp. 125-126.

(35) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 42, pp. 332, Princeton University Press, 1983.

(36) Texte dans Weizmann, *Letters*.., VII, pp. 543-544.

(37) L'article essentiel sur ce débat est celui de Mayir Vereté, « The Balfour Declaration and Its Maker », *Middle Eastern Studies*, 6 (1970), pp. 48-76.

(38) 9 décembre 1918, MAE, Guerre 1914-1918, 875, Paul Cambon à Ministère des Affaires étrangères.

(39) 24 décembre 1916, MAE, Guerre 1914-1918, 875, 64, Affaires étrangères. Le directeur politique, Régime de la Palestine.

(40) Lettre de Weizmann à Sieff, le 3 février 1917, *Letters*, VII, p. 325.

(41) Reinharz, *Chaim Weizmann, The Making of a Statesman*....pp. 116-117. Ronald Sanders, *The High Wall of Jerusalem*, 1984, pp. 456-462.

(42) Compte-rendu de la réunion dans Renée Neher-Berheim, *La Déclaration Balfour*, Paris, Archives, Julliard, 1969, pp. 232-240.

(43) Robert Adelson, *Mark Sykes*...p. 226.

(44) 28 février 1917, MAE, Nantes. B, 93, Sykes à Picot sur le sionisme (original en anglais).

(45) D. Z. Gillon, « The Antecedents of the Balfour Declaration », *Middle Eastern Studies*, V, 1969, pp. 131-150.

(46) *Le peuple juif* du 1-15 mars 1917

(47) Weizmann, *La révolution russe et le sionisme*. Londres, mai 1917, *Papers*... I. pp. 149-153.

(48) 14 avril 1917, Archives AIU France IG 1-6. Résumé des déclarations faites le 14 avril 1917 par M. Nahum Sokolow dans l'entretien qu'il a eu, 45 rue La Bruyère. avec quelques membres de l'Alliance.

(49) Dans son rapport du 5 mai 1917 déjà cité.

(٥٠) أرسلت البرقيات إلى برانديز وتشيلنوف.

(51) Stein. *Balfour Declaration*..., p.401.

(52) Robert Adelson, *Mark Sykes*..., p. 228.

(53) Mayir Vereté. « *The Balfour Declaration* ... p. 62».

(54) 22 mai 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 877, 116. Affaires étrangères. le directeur politique. Note: sionisme.

(55) Renée Neher-Berheim, *La Déclaration Balfour*, Paris, Archives, Julliard, 1969, pp. 254-255

(56) Weizmann à Scott, le 20 mars 1917, *Letters*.., VII, pp. 343-345.

(57) Weizmann à Scott, le 23 mars 1917, *Letters*.., VII, pp. 346-347

(58) Voir les notes de la p. 351 des *Letters*, VII.

(59) Voir les notes de la p. 355 des *Letters*, VII.

(60) 22-23 avril 1917, Weizmann à Sacher, *Letters*, VII, pp. 367-369; à Ker, pp. 370-371

(61) 23 avril 1917, Weizmann à Brandeis, *Letters*, VII, pp. 371-373.

(62) Note of interview with Lord Robert Cecil at the Foreign Office, *Letters*.., pp. 375-378.

(63) En français dans le texte.

(٦٤) يبدو أن فايتسمان، في رسالته إلى سكوت بتاريخ ٢٦ أبريل/ نيسان، أكثر وضوحاً بكثير فيما يتعلق بنزعته القومية الرافضة لأي مساومة: إذا ما تم منح الجليل للفرنسيين، فسوف يتم العمل على مدار أجيال لجعل يهودا يهودية، لأنه، بفضل العمل الشاق ونجاح الاستيطان، سوف يجري التمدد في اتجاه الشمال، "في المستقبل، سوف تعيد لنا محكمة عادلة ما هو من حقنا" *Letters*, VII, pp. 380-381.

(65) *Le Peuple juif* 1-15 mai 1917.

(66)Isaiah Friedman, "German intervention on Behalf of the Yishuv, 1917", *Jewish Social Studies*, XXXIII, janvier 1971, pp. 23-43.

(67) 7 mai 1917, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 93 (manuscrit) dactylo: MAE, Guerre 1914-1918, 877, 41. Picot (Le Caire) à Ribot.

(68) Reinharz, *Chaim Weizmann, The Making of a Statesman*,...., p.134:

"طرح ويليام أورمسبي – جور المسألة طرحاً محدّداً وصريحاً: "أعتقد أن علينا استخدام المذابح التي تستهدف اليهود في فلسطين كدعاية. إن أي حكايات مثيرة عن أعمال فظيعة سوف تلقى ترحيباً حماسيًا من جانب رجال الدعاية هنا – وبوسع آرون أرونسون أن يرسل إلى الصحف اليهودية بعض القصص المثيرة المفزعة".

(69) 6 mai 1917, A mémorandum by Jacob Judah Aaron de Haaas (a leader of the Zionist movement and editor of the Boston Jewish Advocate). *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 42, Princeton University Press, 1983.

(70) Weizmann à Sokolow, le 10 mai 1917, *Letters*, VII, p.407.

(71) Toute l'affaire est traité avec précision dans Mark Levene, *War, Jews*..

(72) MAE, Guerre 1914-1918, sionisme, vol. 1199, 14-19.

(73) Reinharz, *Chaim Weizmann. The Making of a Statesman*....pp. 128-129.

(٧٤) مع التوصل إلى القرار الخاص بفرض حماية بريطانية، يقل الحديث كثيراً في الوثائق البريطانية عن تهديد الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني وينصب الاهتمام بدرجة أكبر على المسألة الروسية، ومن هنا الوهم النسبي الذي يؤدي إلى اختفاء العامل الفلسطيني بشكل محدَّد (الدفاع عن مصر وإيجاد خط مواصلات جديد للمواصلات الإمبراطورية إلى الهند، عبر فلسطين وبلاد الرافدين، عن طريق سكة حديد ثم خطوط جوية) لصالح العامل الروسي. وبشكل مميَّز، لا يبدو أن هناك مراعاة لواقع أن اتفاقات سان ـ چان ـ موريين قد عززت شرعية الاتفاقات الفرنسية ـ البريطانية لعام ١٩١٦ بشأن الشرق الأدنى وذلك بضمها الإيطاليين إليها.

(75) En français dans le texte.

(76) 13 juin 1917, Weizmann à Sir Ronald Graham, *Letters*... VII, pp. 438-442.

(77) Sur la mission Morgenthau, voir: William Yale, "Ambassador Henry Morgenthau's Special Mission of 1917", *World Politics*, I (1949), pp. 308 ss; Richard Ned Lebow, «The Morgenthau Peace Mission of 1917", *Jewish Social Studies*, XXXII n°4 octobre 1970, pp. 267-285; F.W. Brecher, "Revisiting Ambassador Morgenthau's Turkish Peace Mission of 1917", *Middle Eastern Studies*, XXIV, n°3, juillet 1988, pp. 357-363; *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 42-43, Princeton University Press, 1983.

(78) MAE, A Paix 162, 184, Jusserand (Washington) à Paris, entretien avec Morgenthau le 8 juin 1917:

"قرأ لي رسالة كلَّف أنور باشا الملحق العسكري الأميركي في القسطنطينية الذي غادر هذه المدينة لدى قطع العلاقات بنقلها إليه. فأنور باشا يؤكد للسفير السابق بعبارات حارة حرارة خاصة الثقة التي يحتفظ بها العثمانيون نحوه ويضيف أنه إذا ما أمكنت له العودة فسوف يلقى الترحيب الأكثر وداداً".

(79) MAE, A Paix 162, 190-191, Jusserand à Paris:

"سألته عما إذا لم يكن مهتماً فعلاً بالمسألة اليهودية. فأجابني بأنه قد يطرح على بساط البحث هذه الفكرة المتعلقة بـ "بيع" فلسطين والتي حدثه الأتراك عنها، بشكل افتراضي مسرف والحق يقال. وقال لي إن ذلك سيكون بقصد التوصل إلى تنظيم يوضع تحت

حماية الدول الأوروبية المعنية بشكل رئيسي دون أن تشارك فيه الولايات المتحدة، على أن تحتفظ تركيا بسيادة إسمية. وقد أضاف أنه فيما يتعلق بسوريا فإن مصيرها إنما يعنيكم أنتم وحدكم".

(80) MAE, A Paix 162, 188. Ribot à Jusserand.

(81) MAE, A Paix 162, 189, Jusserand à Paris, le 12 juin 1917.

(82) 26 juin 1917. Weizmann à Scott, *Letters*.., VII, pp. 450-451.

(83) 6 juillet 1917. Weizmann à sir Ronald Graham, *Letters* .., VII, 461-465 et procès-verbal de la réunion pp. 461-465. Le même procès-verbal se trouve en MAE, Paix, 162 , 212-217.

(84) MAE, A Paix, 162, 229-232. Note concernant la réunion de Gibraltar (porte en rajout manuscrit sur la première page « M. Weyl».

(85) MAE, A Paix 162, 218-221. Cambon à Son Excellence M. Ribot, Président du Conseil, Ministre des Affaires étrangères.

(86) Sur l'évolution du texte durant l'été 1917 voir Reinharz, ، *Chaim Weizmann, The Making of a Statesman*,...pp. 178-182 et Ronald Sanders, *The High Wall of Jerusalem*, pp. 562-613.

(87) Traduction française de Renée Neher Berheim remaniée et modifiée en fonction du texte anglais, *La déclaration Balfour*, Paris, Julliard, 1969, pp. 289-290

(88) Traduction française de Renée Neher Berheim remaniée et modifiée en fonction du texte anglais, *La déclaration Balfour*.. p.293

(89) Traduction française de Renée Neher Berheim remaniée et modifiée en fonction du texte anglais, *La déclaration Balfour*.. p.294.

(90) Robert Adelson, *Mark Sykes*.. pp. 238-240.

(91) David Vital, *Zionism: the Crucial Phase*..., p.281.

(92) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 44, pp. 150. Princeton University Press, 1983.

(93) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 44, pp. 165 et 186. Princeton University

Press, 1983.

(94) Weizmann à Brandeis, 12 septembre 1917, *Letters..*, VII, pp. 505-507.

(95) Isaiah Friedman, Germany, *Turkey and Zionism*, ..pp. 325-327.

(96) Weizmann à Philipp Kerr, 16 septembre 1917, *Letters..*, VII, pp. 511-512.

أعلن مونتاجو في أغسطس/ آب ١٩١٧ التغيير الأساسي للسياسة البريطانية فـــي الهنـــد: إشراك الهنود التدريجي في تسيير عمل مختلــف فــروع الإدارة والتطــوير التــدريجي لمؤسسات الحكم الذاتي سعياً إلى التوصل إلى تكوين حكومة مسئولة في الهند تحت رعاية التاج البريطاني.

(97) Weizmann à Balfour , 3 octobre 1917, *Letters..*, VII, pp. 521-522.

(98) Leonard Stein, *The Balfour Declaration...*, pp. 512-513.

(99) Reinharz, , *Chaim Weizmann. The Making of a Statesman*,...p. 196; Traduction française de Renée Neher Berheim remaniée et modifiée en fonction du texte anglais, *La déclaration Balfour..* p.298.

(100) Leonard Stein, *The Balfour Declaration...*, pp. 516-517; Friedman, Question of Palestine... p. 267.

(101) Earl of Ronaldshay, *The Life of Lord Curzon*, Londres, 1928, T.III, pp. 156-160.

(102) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 44, pp. 371.

(103) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 44, pp. 390-391.

(104) Weizmann à Hankey, le 15 octobre 1917, *Letters...* VII, pp. 533-534.

(105)Leonard Stein, *The Balfour Declaration....*, pp. 480-483.

من الصعب، على ما يبدو، معرفة الدورالمحدَّد الذي قام به سمتس في مناقشات خريــف ١٩١٧.

(106) David Vital. *Zionism: the Crucial Phase....*, pp. 291-293.

(107) En anglais. "communities."

(108) Sur Balfour voir Kenneth Young, *Arthur James Balfour*, Londres, G. Bell and Sons, Ltd. 1963.

(١٠٩) الأرجح أن:

Léon Poliakov dans son *Histoire de l'antisémitisme, l'Europe suicidaire, 1870-1933*, Paris, Calman-Lévy, 1977,

كان أول من بين هذا التعميم لمعاداة السامية، خاصة في معسكرات الحلفـاء، فـي عـام ١٩١٧.

(110) *Letters*, VII, p. 305.

(١١١) هذه هي العناصر الثلاثة التي حددها بولياكوف كإطار مرجعي لمعاداة السامية في معسكر الحلفاء خلال عام ١٩١٧.

الفصل العاشر

الاحتلال العسكري البريطاني

(1) in Jeremy Wilson, *Lawrence d'Arabie*, Paris, Denoël, p. 485.

(2) Wavell. *Palestine Campaigns*... p.156.

(3) Stephen Roskill, *Hankey. Man of Secrets*, Vol. I, 1877-1918, Londres Collins, 1970, pp. 466-467.

(4) PRO FO 371/3390. Extract from Minutes of War Cabinet Proceedings n°308 of December 31, 1917, Palestine's Political Future.

(5) PRO FO 371/3061 Egypt. Military Decypher Cairo november 19th 1917.

(6) 20 novembre 1917PRO FO 371/3061, Foreign Office à Wingate.

(7) 21 novembre 1917, PRO FO 371/3061, Foreign Office à Sir R. Wingate.

(8) PRO FO 371/3061, Secret, to G.O.C in C. GHQ Egypt, from C.I.G.S. War Office

(9) 22 novembre 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 880, 22, Le Caire, Defrance.

(10) 23 novembre 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 880, 30.

(11) 23 novembre 1917 PRO FO 371/3061. Wingate au Foreign Office.

(12) MAE, Nantes, Jérusalem, B, 113, Balfour à Cambon.

(13) PRO FO 371/3061 Defrance à Wingate.

(14) PRO FO 371/3061, Wingate à Defrance.

(15) PRO FO 371/3061, Defrance à Wingate.

(16) PRO FO 371/3061, Wingate.

(17) 25 novembre 1917, MAE, Nantes, Beyrouth 2364, Saint-Quentin à Maugras.

(18) PRO FO 371/3061, Foreign Office à Wingate.

(19) MAE guerre 1914-1918. 880. 60

(20)27 novembre 1917. MAE. Guerre 1914-1918, 880, 66, Sykes à Goût.

(21) 28 novembre 1917, MAE. Guerre 1914-1918, 880, 83, Margerie à Picot.

(22) 30 novembre 1917, MAE, Nantes, Jérusalem, B 113, Diplomatie à M. Georges Picot.

(23) Chapitre LXXXII.

(24) 1er décembre 1917, MAE. Guerre 1914-1918, 880, 120-122.

(25) 4 décembre 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 880, 128-132: MAE. Nantes. Jérusalem B, 113 (manuscrit) Picot à Paris.

(26) 3 décembre 1917, MAE. Nantes, Jérusalem B, 113 , Massignon à Haut-Commissaire.

(27) 12 décembre 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 880, 181.

(28) 12 décembre 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 880, 186, Pichon à Résident général Tunis, Rabat Gouverneur général Alger

(29) 11 décembre 1917. MAE. Guerre 1914-1918, 880. 170.

(30) 30 décembre 1917. MAE. Nantes, Beyrouth 2364, Picot à Paris. N° 140.

(31) Ronald Storrs, *Orientations*, Londres, 1937, p. 334.

(32) 2 novembre, 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 879, 171 M. A. Defrance. Ministre de France en Egypte à Son Excellence M. Barthou, Ministre des Affaires étrangères à Paris, Du *Moustakbal*.

(33) 9 novembre 1917, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 93. Extrait du Journal du Caire.

(34) 11 novembre 1917, MAE, Nantes, Le Caire, 521, Télégramme du Caire.

(٣٥) قراءة مشكوك فيها.

(36)12 novembre 1917, MAE, Nantes, Le Caire, 521, De la communication de M. Balfour relative aux Juifs en Syrie.

(37)13 novembre 1917, MAE, Nantes, Le Caire, 521, Le Consul général de France à Alexandrie à M. Defrance, Ministre de la République française, Le Caire, Manifestation sioniste à Alexandrie. Voir aussi SS Marine Q 78, Service d'information de la marine dans le Levant, Port-Saïd, le 15 novembre 1917. Bulletin n°1, *Le sionisme tel qu'on le voit en Ègypte*.

(38)15 novembre 1917, MAE, Nantes, Le Caire, 521, Des projets attribués aux sionistes en Syrie.

(39)16 novembre 1917, MAE, Nantes, Le Caire, 521, Les juifs en Palestine Opinion musulmane.

(40) 29 novembre 1917, MAE, Guerre 1914-1918, 880, 98-103, Picot à Pichon.

(41) Georges Samné, *La Syrie*, Paris, 1920, pp.417-425.

(42) 18 décembre 1917, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 113, M. Barrère, ambassadeur de la République française à Rome à M. Le Ministre des Affaires étrangères L'Italie et la prise de Jérusalem.

(43) 7 décembre 1917, MAE, Nantes, B, 93, Rome, le 7 décembre 1917, Le Vatican et le sionisme.

(44) Friedman, *Germany, Turkey and Zionism*, Oxford, 1977, p. 377.

(45) [non daté entre le 10 et le 22 décembre], MAE, Nantes, Jérusalem B, 113, Note Prise de Jérusalem. Impressions au Vatican.

(46) PRO FO 371/3383, Report on *Mission to Jeddah* , 15 . 1. 18.

(47) Ensemble du discours du 8 janvier 1918 in Pierre Renouvin, *L'armistice de Rethondes*, Paris, Gallimard, 1968, pp. 353-359.

(48) PRO FO 371/3388, traductions de la presse allemande.

(49) N. M. Geller, «The Problem of the Rumanian Jews at the Bucharest Peace Conference, 1918» *Jewish Social Studies*, XII (1950), pp.223-246.

(50) 26 janvier 1918, MAE, Nantes, Jérusalem B, 93, Le Ministre des Affaires étrangères à M. Tardieu, Haut-Commissaire New-York. Sionisme.

(51) 1er mars 1918, MAE, guerre 1914-1918, 1201, 5-6. Stephen Pichon à Georges Picot.

(52) MAE (Ministère des Affaires Ètrangères), E Levant Palestine 1930-1940, LXIV, 2.

هذا النص على الحقوق السياسية ما يزال يزعج الكتابة التاريخية الـصهيونية: فرونيـه نيهير ـــ بيرهايم، مثلاً، لا يتحدث إلاّ عن تصريح مماثل لتصريح الفرنسيين والبريطانيين

(*La Déclaration Balfour*, Paris, Julliard, 1969, p.323).

(53)The *Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 42 à 45. Princeton University Press, 1983-1984; Richard Ned Lebow, "Woodrow Wilson and the Balfour Declaration", *The Journal of Modern History*, vol. XL, n°4 décembre 1968, pp.501-523.

(54) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 46, pp.493 et 516-517, Princeton University Press, 1984.

(55) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 49, pp. 363-364, Princeton University Press, 1985.

(56) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 49, pp. 402, Princeton University Press, 1985.

(57) Historique des premiers mois de l'administration militaire. PRO FO 371/3889, From: The Commander-in-Chief, Egyptian Expeditionary Force to the Secretary, War Office, London. General Headquarters, 2nd March 1918.

(58) Ouvrage fondamental sur ces questions, Wasserstein, *The British in Palestine, The Mandatory Government and the Arab-Jewish Conflict 1917-1929*. Londres Royal Historical Society 1978.

(59) 20 décembre 1917, PRO FO 371/3061, Foreign Office à Bertie, 21 décembre

1917, MAE, Nantes, Jérusalem B, 113, Note de l'ambassade britannique en anglais ; 25 décembre 1917, MAE, Nantes, Jérusalem B, 113, Son Excellence le Ministre des Affaires étrangères à M. Georges Picot, Haut-Commissaire de la République en Palestine.

(60) 20 décembre 1917, MAE . guerre 1914-1917, 881, Picot à Pichon.

(61) 30 décembre 1917, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 113, Picot à Diplomatie Paris.

(62) 2 janvier 1917, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 113, Picot à Diplomatie Paris.

(63) PRO FO 371/3388, Decypher. sir Wingate (Cairo) January 4th.1918.

(64) 13 janvier 1918, MAE, Nantes, Beyrouth 2364, Picot à Diplomatie.

(65) 16 janvier 1918, MAE, Nantes, Beyrouth 2364 MAE Guerre 1914-1918, 882, Picot à Diplomatie.

(66) 15 janvier 1918, PRO FO 371/3389.

(67) 25 janvier 1918, PRO FO 371/3388, Secret,Operations From : G.O.C. in Egypt.

(68) 26 janvier 1918, MAE Guerre 1914-1918, 882, 223, Picot à Diplomatie. Les télégrammes de Picot se trouvent en double dans les archives britanniques (PRO FO 371/3383)...

(69) PRO FO 371/3398, General Head Quarters 26th January 1918.

(70) Voir son message du 30 décembre 1917 PRO FO 371/3061 via Le Caire.

(71) MAE, Guerre 1914-1918, 882, 275, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 113, Paris le 30 janvier, Jérusalem le 31 janvier, Son Excellence le Ministre des Affaires étrangères à M. Georges Picot Haut-Commissaire de la République en Palestine.

(72) 1er février 1918, MAE, Guerre 1914-1918, 882, 2.

(73) 2 février 1918, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 113, Picot à Diplomatie Paris.

(74) 4 février 1918, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 113, A Paix 883, 33, Paris à M. Picot, Haut-Commissaire Palestine.

(75) PRO FO 371/3397, Military, Cypher Telegram to General Clayton (Cairo)

Foreign Office, February 8th. 1918.

(76) 25 février 1918, MAE, A Paix, 884, 45, Note de M. Wiet pour M. Goût.

(77) 27 février 1918, MAE. Guerre 1914-1918, 884, 76, Cambon à Pichon, Protectorat français en Terre-Sainte.

(78) 28 février 1918, MAE, Guerre 1914-1918, 884, 87-90.

(79) PRO FO 371/3391, Decypher of telegram from General Clayton (Jerusalem). March 28th. 1918.

(80) 30 janvier 1918, PRO FO 371/3399, The Future of Palestine, Syria & Arabia.

(81) 16 février 1918. PRO FO 371/3399.

(82) 29 janvier 1918, PRO FO 371/3391,

كلايتون: "بوجه عام، ما تزال الاعتبارات الاقتصادية تشغل السكان المحليين، بما يـؤدي إلى استبعاد المسائل السياسية".

(83) 9 mars 1918, PRO FO 371/3391Decypher. General Clayton (Jerusalem).

(84) 20 mars 1918. MAE, Nantes. Beyrouth 2364, Bols à l'attaché militaire français.

(85) 12 mars 1918, PRO FO 371/3391/283 Foreign Office à Clayton.

(86) 14 mars 1918, PRO FO 371/3391/286 Clayton.

(87) PRO FO 371/3388. MILITARY. Decypher from Sir Wingate (Cairo) January 14th. Following from Clayton.

(88) 19 janvier 1918, PRO FO 371/3394, Réunion du Middle East Committee.

(89) 6 février 1918, PRO FO 371/3392. Foreign Office à Military Intelligence.

(90) 19 février 1918, PRO FO 371/3392, Lord Reading Washington.

(91) 28 février 1918. PRO FO 371/3392. Reading to Foreign Office.

(92) 25 février 1918, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 93.Pichon à Picot.

(93) 1er mars 1918. MAE, guerre 1914-1918, 1201, 5-6. Stephen Pichon à Georges Picot.

(94) MAE. Guerre 1914-1918. sionisme, vol. 201, 134-140.M. A. Defrance.

Ministre de France en Égypte, à Son Excellence Monsieur S. Pichon, Ministre des Affaires étrangères, à Paris.

نحن بإزاء ملاحظات جرى تسليمها إلى دوفرانس ويمكن افتراض أنها قد كتبت بالفرنسية من جانب أعضاء اللجنة السورية.

(٩٥) المقصود هو هوفيين، مدير الأنجلو ــ باليستاين بنك.

(96) MAE, Guerre 1914-1918, sionisme, vol. 201, 176-182.

(97) *The letters...*, VIII, pp. 45-53. 14 janvier 1918 à Brandeis.

(98) En français dans le texte.

(99) *The letters...*, VIII, pp. 58-60, 16 janvier 1918 à Brandeis.

(100) *The letters...*, VIII, pp. 62-64, 16 janvier 1918 à Sykes.

(101) Premier rapport d'Orsmby-Gore à Balfour,PRO FO 371/3394, Tel-Aviv. Jaffa. 7th April 1918.

(102) 23 mars 1918, PRO FO 371/3394/500, Wingate.

(103) *The letters...*, VIII, pp. 106-109 à Vera Weizmann, voir aussi le rapport déjà cité d'Ormsby-Gore.

(104) 1er avril 1918, MAE Guerre 1914-18, vol. 1201.

(105) 3 avril 1918, MAE Guerre 1914-18, vol. 1201, 85, Defrance à Pichon.

(106) 31 mars 1918, PRO FO 371/3383, Personal and Confidential, Ormsby Gore à Sykes.

(١٠٧) يسميهم أورمسبي ــ جور بـ"من يسمون بالقادة العرب". والمذكرات ملحقة بتقرير أورمسبي ــ جور المؤرخ في ٧ أبريل/ نيسان.

(108) *Papers*, I, pp.179-182.

(109) Reinharz, *The making of...*, pp. 236-237.

(110) 12 avril 1918, MAE, Nantes, Jérusalem B, 93, MAE, Nantes. Le Caire 521, Activité de la délégation sioniste.

(111) Rapport d'Ormsby-Gore du 19 avril, PRO FO 371/3395. Se trouve aussi dans MAE Nantes Jérusalem, B 113.

(112) *The letters*..., VIII, pp. 131-133 à Vera Weizmann, le 18 avril 1918.

(113) *The letters*..., VIII, pp. 128-131. A Ormsby-Gore le 16 avril 1918.

(114) 22 avril 1918, PRO FO 371/3398.

(115) 2eme rapport d'Ormsby-Gore. 19 avril 1918, PRO FO 371/3395.

(116) 27 avril 1918, PRO FO 371/3391, Clayton.

(117) 27 avril 1918, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 93. Picot à Paris.

(118) Texte dans *Papers*, I, pp. 182-186.

(119) *Letters*, VIII, pp. 170-173. A Vera Weizmann, le 30 avril 1918.

(120) En français dans le texte.

(121) 7 mai 1918, PRO FO 371/3391, Clayton.

(122) 8 mai 1918, PRO FO 371/3383, *Future of Palestine*.

(123) 9 juin 1918. MAE. Nantes. Le Caire, 521. Les nouveaux comités à Jaffa d'après le journal *Palestine*.

(١٢٤) يرد النص العربي في وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٩، ص ٣.

(125) 17 mai 1918, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 114, Jaussen N°17 Délégation arabe à Jérusalem.

(126) 15 juin 1918, MAE Levant Palestine 1918-1929, X, 34 .Defrance, Comité pan-arabe du Caire.

(127) 22 mai 1918, MAE, Nantes, Jérusalem B 113. Picot à Diplomatie française.

(128) 24 mai 1918, PRO FO 371/3391, Clayton.

(129) 25 mars 1918, MAE, A Paix, 885, 185-186, Picot à Pichon.

(130) 1er août 1918, MAE. Palestine, 1918-1940, I, 70, Coulondre à Pichon .

(131) 20 mai 1918, SS Marine Q86, MAE, Nantes, Jérusalem B, 113 Jaussen n°21, Sentiments des Musulmans à Jérusalem et aux environs.

(132) 27 mai 1918, PRO FO 371/3383, Clayton.

(133) *Letters*, VIII, pp. 176-178, à Ormsby-Gore, le 1er mai 1918.

(134) 3 juin 1918, SS Marine Q86, Jaussen n°34 :

لم يكن المفتي قد دُعي إلى مكان جلوس يليق بمكانته الرفيعة وقد آثر الانسحاب بدلاً من تحمل هذه الإهانة. "إن هذا الحادث الذي وقع مع المفتي قد أثار عظيم سخط مسلمي القدس الذين يزداد سخطهم باطراد على موقف الإنجليز حيال اليهود والذي يتباين بشكل فريد مع موقفهم حيال المسلمين".

(135) *Letters*, VIII, pp. 197-206.

(136) *Papers*, I, pp. 187-188.

(137) 12 juin 1918, PRO FO 371/3398, Clayton.

(138) 23 mai 1918, MAE, Arabie Hedjaz, 1918-1929, I, 55, Analyse du journal *La Kibla*.

(139) *Letters*, VIII, pp. 209-211.

(140) *Letters*, VIII, pp. 228-232, à Balfour, le 17 juillet 1918.

(141) PRO Foreign Office 371/3398.

(142) 15 juin 1918, MAE, Nantes, Jérusalem, 99. SS Marine Q 78, Service des informations de la marine dans le Levant, Le sionisme et les Arabes.

(١٤٣) جمعية أدبية أخرى.

(١٤٤) جمعية خيرية إسلامية.

(١٤٥) جمعية خيرية أرثوذكسية.

(146) 16 juin 1918, PRO FO 371/3395. Clayton au Foreign Office.

(147) PRO FO 371/3398.

(148) Lord Hankey, *The Supreme Command*, 1914-1918, Londres, II, 1961, p. 820-821.

(149) 4 juillet 1918 PRO FO 371/3409. 4 juillet 1918 MAE. Arabie Hedjaz. 1918-1929 I, 145, Coulondre au Ministre des Affaires étrangères, Recrutement de volontaires en Palestine pour l'armée du Grand Chérif.

(150) 13 juillet 1918, PRO FO 371/3409, Clayton.

(151) 22 juillet 1918, SS Marine Q86, Jérusalem, n°49.

(152) 21 juillet 1918, PRO FO 371/3381/145.

(153) 26 juillet 1918, SS Marine Q86, Jérusalem n°51, Pose de première pierre de l'Université israélite.

(154) Neil Caplan, *Palestine Jewry and the Arab Question 1917-1925*, Londres, Frank Cass, 1978, pp. 18-20.

(155) 15 août 1918, PRO CAB 23/7.

(156) PRO FO 371/3389.

(157) PRO FO 371/3389. FO 406/40.

(158) En français dans le texte.

(159) En français dans le texte.

(160) Voir par exemple le 21 septembre 1918, PRO Foreign Office 371\3384, Clayton au Foreign Office.

(161) Texte original in Ligue des Amis du Sionisme, tract n°5, novembre 1918, repris dans André Chouraqui, *L'Alliance Israélite Universelle et la renaissance juive contemporaine*, Paris, Presses Universitaires de France, 1965; ici il s'agit de la conclusion du texte pp.467-468.

(162) 22 juillet 1918, MAE Levant Palestine 1918-1929 X 140.

(163) 4 août 1918, MAE Levant Palestine 1918-1929 I, 74....

(164) PRO FO 371/3388/280.

(165) Le Caire 3 juillet 1918, MAE, Arabie Hedjaz, 1918-1929, I, 139.

(166) 7 septembre 1918, PRO FO 371/3388.

(167) 3 octobre 1918, MAE Levant Palestine 1918-1929 XI, 3 et PRO FO 371/3388.

(168) 28 octobre 1918, MAE Levant Palestine 1918-1929 XI, 70...

(169) 18 septembre 1918, SS Marine Q86, Jérusalem n°73, Jaussen.

(170) 1er octobre 1918, PRO FO 371/3395, Clayton au Foreign Office.

(171) 21 septembre 1918, MAE Levant, Syrie, II, 18...

(172) 23 septembre 1918, MAE Levant, Syrie, II, 44, Paul Cambon à Pichon.

(173) 27 septembre 1918, MAE Levant, Syrie, II, 66, Paul Cambon à Pichon.

(174) 30 septembre 1918, MAE Levant, Syrie, II, 81.., Paul Cambon à Pichon.

(١٧٥) أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، بلا تاريخ (ثلاثينيات القرن العشرين)، الجزء الثاني، ص ص ٢ ـــ ٣.

(176) 28 octobre 1918, PRO FO 371/3384, memorandum de Sir Robert Cecil sur son entretien avec T.E. Lawrence.

(177) 3 novembre 1918, PRO FO 371/3384.

(178) 4 novembre 1918, PRO FO 371/3385, récit de Storrs.

(179) 5 novembre 1918, MAE Levant Palestine 1918-1929 XI 100, Durieux ; 6 novembre 1918, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 114, N°85 Nouvelles de Jérusalem.

(180) 8 novembre 1918, PRO FO 371/3385, Clayton au Foreign Office.

(181) 4 novembre 1918, Doreen Ingrams, *Palestine papers 1917-1922, Seeds of Conflict*. Londres, John Murray, 1972, pp. 33-34.

(182) PRO CAB 27.36 , PRO FO 371/3411 :

"فيما يتعلق بفلسطين، فإن حكومة صاحب الجلالة ملتزمة برسالة السير هـ. ماكماهون المتعلقة بإدراجها ضمن حدود الاستقلال العربي".

(183) PRO FO 371/3395/348.

(١٨٤) بحسب برقية من ماني بتاريخ ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني، كان ذلك بناءً على طلب من وزارة الخارجية البريطانية PRO FO 371/3386.

(185) 14 novembre 1918, MAE. Nantes, Jérusalem. B. 114. SS Marine Q86, N°86 Jérusalem La réunion au Mouktataf ed-Durous à Jérusalem le 13 novembre 1918.

(186) Voir le récit de Storrs, 19 novembre 1918, PRO FO 371/3386.

القــدس وباريــس

(1) Texte original in Ligue des Amis du Sionisme, tract n°5. novembre 1918. repris dans André Chouraqui, *L'Alliance Israélite Universelle et la renaissance juive contemporaine*, Paris, Presses Universitaires de France, 1965; ici il s'agit de la conclusion du texte pp.467-468.

(2) 15 novembre 1918. PRO FO 371/3386.

(3) 15 novembre 1918. MAE. Nantes. Jérusalem, B, 114, SS Marine Q86, n°87 L'état des esprits à Jérusalem.

(4) MAE. Nantes. Jérusalem. B, 114 : Rapport sur la manifestation joyeuse [....] et sur le meeting de protestation du comité national islamo-chrétien à Jaffa.

(5) MAE, Nantes, Jérusalem, B, 114 : Rapport sur la Manifestation qui a eu lieu à Jaffa, le 16 novembre 1918 à l'occasion de l'entrée du 2eme anniversaire de l'occupation de la ville de Jaffa par l'armée de S.M. Britannique.

(6) PRO FO 371/3386, Moslem-Christian Committee, Jaffa. the 16.11.18.

يرد النص العربي في وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكــرم زعيتــر، ص ص ٧ــ٨.

(7) Muhammad Muslih, *The origins of Palestinian nationalism*, Columbia University Press, 1988, p. 160.

(8) 20 novembre 1918, PRO FO 371/3386.

(9) 24 novembre 1918, PRO FO 371/3386.

(10) MAE Nantes Jérusalem B 113.

(١١) للوقوف على المؤشرات التفصيلية للمعونات الفرنسية، انظر:

Eliezer Taubers, *The Formation of Modern Syria and Iraq*, Londres. Frank Cass. 1995, pp. 99 et suivantes,

لكن مصادر الكاتب صهيونية وبريطانية بشكل حصري. والحال أن جهاز الاستخبارات الفرنسية الرئيسي، وهو جهاز سلاح البحرية في المشرق، كان قد ألغى آنذاك موقعه في القدس:

SS Marine Q 77. Port Saïd, le 10 décembre 1918, Rapport du Commandant Sarrou sur l'Organisation actuelle du SIL.

"قطاع القدس؛ جرى صرف جميع العملاء، لكن جهاز الاستخبارات في المشرق يتابع، من خلال الأب جوسّان، جميع التحركات السياسية ــ الدينية التي تحدث في فلسطين".

(12) Muslih, *The origins..*, p.164...

(١٣) خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ١٩٨٢، ص ١٦٦.

(١٤) عزة دروزة، **مذكرات**، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٣١٩ــ٣٢٠.

(15) Biographie essentielle, Philip Mattar, *The Mufti of Jerusalem, Al-Hajj Amin al-Husayni and the Palestinian National Movement*, Columbia University Press, 1986.

(16) Elisabeth Antébi. *L'homme du Sérail..*, p. 563.

(17) 6 décembre 1918. MAE Levant Palestine 1918-1929 XI 236, MAE, Nantes. Le Caire, 521. L'officier français près le Gouvernement chérifien à M. Le Haut-Commissaire de la République française en Palestine-Syrie. Texte arabe dans MAE. Nantes, Mandat Syrie-Liban 24-29 papiers Mercier.

(١٨) علاوة على الأعمال التي أشرنا إليها بالفعل، انظر عمل بيان نويهض الحوت الذي لا غنى عنه: **القيادة والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧ــ١٩٤٨**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

(19) Copie envoyée par le Ministère de la Marine au Ministère des Affaires étrangères, service des informations de la Marine dans le Levant, note n°173: MAE. Levant, 1918-1929, Syrie-Liban, vol.7, fol. 44-46, daté de Port Saïd, le 18 décembre 1918.

(20) MAE, Nantes, Le Caire, 521, Service des Informations de la Marine dans le Levant, Port Saïd, 19 février 1919, Note N° 208. (Renseignements de Jérusalem), Nouvelle réponse des Arabes de Palestine à la « lettre ouverte » aux Arabes du

sioniste E. Eberlin.

(21) Pour tous ces événements le grand livre est celui de Gérard D. Khoury, *La France et l'Orient arabe, Naissance du Liban moderne, 1914-1920*, Paris, Armand Colin, 1993.

(22) PRO FO 371/3385, Eastern .November 27. Confidential. [195439], Section 3. No. 1.Note communicated by M. Cambon, November 27, 1918.

(23) 10 octobre 1918, MAE Levant Palestine 1918-1929 XI, 33 ; Pichon à Londres.

(24) 30 novembre 1918, PRO FO 371/3385, Memorandum communicated by M. Cambon.

(25) Stephen Roskill. *Hankey, Man of Secrets*. Londres, Collins, Vol. II, 1972, p. 28-29.

(26) Général Mordacq (chef du cabinet militaire de Clemenceau), *Le Ministère Clemenceau, journal d'un témoin*, Paris, Plon, 1930, T. I, pp. 42-45. Voir aussi Guy Pedroncini, « l'armée française et le pétrole du Moyen-Orient dans les années 1920 », in Jacques Thobie, Roland Perez et Salgur Kançal, *Enjeux et rapports de force en Turquie et en Méditerranée orientale*, IFEA L'Harmattan, 1996, pp.321-332.

(27) Le débat qui s'échelonne sur plusieurs mois, est donné in-extenso dans les numéros de *l'Asie française* de février à juillet 1920.

(28) André Tardieu, *La paix*, Paris, Payot, 1921, pp. 445-449.

(29) *Ibid*, p. 81 et p. 117.

(30) Livre essentiel sur ce sujet, Erik Goldstein. *Winning the Peace, British Diplomatic Strategy, Peace Planning, and the Paris Peace Conference 1916-1920*, Clarendon Press, Oxford, 1991.

(31) Sur ce sujet la remarquable biographie de Curzon par David Gilmour Papermac, *Curzon*, Londres, 1995, en particulier pp. 480-482 et pp. 520-521.

(32) PRO CAB 27/24.

(33) 31 décembre 1918, *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 49, pp.363-364, Princeton University Press, 1985.

(34) PRO FO 371/3386

(٣٥) سليمان موسى، **المراسلات التاريخية**، عمان، ١٩٧٣، المجلد الأول، ص ٢٥٠.

(٣٦) **المصدر السابق**، ص ص ٢٥٠-٢٥٣.

(37) *Papers*, I, pp. 218-220.

(38) 17 décembre 1918, PRO FO 371/4170.

(٣٩) من الطبيعي أن رسالة فايتسمان قد مرت عبر الرقابة البريطانية وقد استثارت رد فعل قويًا من جانب كلايتون، الذي يذكّر بضرورة تحقيق جد تدريجي للبرنامج الصهيوني كما يذكّر بخطر نشوب اضطرابات إذا ما جرى السعي إلى مصادرة ملاك الأراضي العرب في فلسطين 31 décembre 1918, FO 608/98.

(40) Weizmann, *letters*, IX, p. 79, le 22 décembre 1918, à Aaron Aaronsohn.

(41) *L'Univers israélite*, 74e année, n°21, 31 janvier 1919.

(42) Gérard Khoury, *op. cit.* pp. 155-157.

(43) PRO FO371/4162.

(44) Texte anglais dans Antoine Hokayem et Marie-Claude Bitar, *L'Empire Ottoman, les Arabes et les Grandes Puissances, 1914-1920*, Beyrouth, 1981, pp. 102-105.

(45) Fac similé du document dans Caplan, *Futile Diplomacy*.. et Weizmann, *Letters*, IX., pp. 86-87؛

(46) Voir le chapitre CVI des *Sept Piliers*..

(47) 20 janvier, PRO FO 608/98 voir aussi le journal *la Renaissance du Peuple juif* du 14 février 1919.

(48) *Futile Diplomacy*..., I, p.36.

(49) PRO FO 608/98.

(50) En français dans le texte.

(51) MAE, Nantes, Le Caire, 521, Le Ministre des Affaires étrangères à M. Paul Cambon, ambassadeur de la République française à Londres, Paris, le 15 janvier 1919, Juifs de Palestine.

(52) MAE Levant Palestine 1918-1929 XII 59, Paul Cambon (Londres) à Pichon, le 18 janvier 1919.

(53) Le télégramme de Weizmann est en PRO FO 371/4170.

(54) PRO FO 608/ 98.

(٥٥) كان توينبي قد أُبلغ به من جانب ت. إ. لورانس،

voir le dossier du 30 janvier 1919 in PRO FO 608/98.

(56) PRO FO 608/98.

(57) PRO FO 371/4153.

(٥٨) مذكرات، قدم لها نجدة فتحي صفوة، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٨، ونشير إليها في الهوامش التالية بذكر اسم رستم حيدر.

(59) Sur l'importance de cette discussion voir Lord Hankey, *The Supreme Control at the Paris Peace Conference 1919*, Londres, George Allen and Unwin Limited, 1963, pp. 32-39.

(٦٠) رستم حيدر، ص ٢١٧.

(61) Howard Elcock, *Portrait of a Decision, The Council of Four and the Treaty of Versailles*, Londres, Eyre Methuen, 1972, pp. 72-79 .

(٦٢) رستم حيدر، ص ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٦٣) رستم حيدر، ص ٢٣٠.

(64) Texte dans Neil Caplan, *Futile Diplomacy*, I, pp. 148-149.

(65) PRO FO 608/98, Relations between Jews & Arabs in Palestine.

(66) « The Lebanon should, he says, form part of Syria, while opposed to a Jewish Palestine, he also thinks it would be unwise to have an Arab government there. He would prefer to see it an international state, preferably ruled by the Great power interested in the Arab states».

(٦٧) رستم حيدر، ص ٢٣٥.

(68) Général Mordacq, *Le Ministère Clemenceau, journal d'un témoin*, Paris, Plon. 1931, T. III, p.118.

(٦٩) رستم حيدر، ص ٢٣٩.

(70) Hankey, *The Supreme Control at the Paris Peace Conference 1919*, Londres George Allen and Unwin Limited, 1963, p. 64.

(71) Voir Roger Adelson, *Mark Sykes : Portrait of an Amateur*, Londres, 1975.

(72) Chapitre VI.

(73) PRO FO 371/4170.

(74) Dernière mise au point sur les syrianistes qui ont provoqué un intérêt récent des historiens, le livre de Gérard Khoury, *la France et l'Orient arabe*, pp.181-186.

(75) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 54, pp.551-552, Princeton University Press, 1986. Lettre du 7 février 1919.

(76) Compte-rendu anglais de la séance in *Papers relating to the Foreign Relations of the United States, The Paris Peace Conference, 1919*, Vol. III, pp. 1015-1038. Washington. 1943.

(٧٧) رستم حيدر، ص ٢٤٧.

(78) Compte-rendu anglais de la séance in *Papers relating to the Foreign Relations of the United States, The Paris Peace Conference, 1919*, Vol. III, pp. 229 ,

ورستم حيدر، ص ٢٥٠.

(79) Compte-rendu anglais de la séance in *Papers relating to the Foreign Relations of the United States, The Paris Peace Conference, 1919*, Vol. IV, pp. 2-5., Washington, 1943.

(80) *Letters*, IX, pp. 107-108, à Vera Weizmann le 31 janvier 1919.

(81) 3 février 1919, PRO FO.608/98.

(82) 4 février 1919, PRO FO 371/4217.

(83) *Letters*, IX, pp. 110-112, à sir Henry Wilson, le 4 février 1919.

(84) Le journal de voyage de Sylvain Lévi se trouve en MAE Levant Palestine 1918-1929 XII.

(85) MAE, Nantes, Jérusalem, B 94.

(٨٦) قدّم سيلڤان ليڤي رواية الحدث إلى اللجنة المركزية للتحالف الإسرائيلي العالمي في الأول من مارس/ آذار ١٩١٩، Archives, AIU France II D8، وأنا أشكر السيدة عنتيبي على تزويدها لي بهذه الوثيقة الثمينة.

(87) Le procès-verbal a été édité par André Chouraqi, *Cent ans d'histoire, L'Alliance Israélite Universelle et la renaissance juive contemporaine (1860-1960)*, Paris, Presses Universitaires de France, 1965, pp. 472-481.

(٨٨) المحضر الإنجليزي (وإن كان مترجماً عن الأصل الفرنسي):

«We shall make it our task to create schools where the Hebrew language would be taught and gradually to develop there a Jewish life as Hebraic as the life in England is English » (*Papers*, I, p. 231).

(89) PRO FO 371/4170, Zionist Organization London Bureau.

(90) « he meant the creation of such conditions in Palestine as would enable the Zionists to settle from 50.000 to 60,000 Jews every year on the land, to develop their own schools and national language, to develop an administrative system suitable for the purpose, so that they could ultimately make « Palestine as Jewish as England was English and as America was American ».

(91) *Papers*, I, p. 235.

(92) « there should ultimately be such conditions that Palestine should be just as Jewish as America is American and England is Jewish ».

(93) « "The Zionist Conference in London has received your telegraphic message and rejoice to hear that the leaders of the Zionist movement have placed their demands before the Council of Ten and are able to express the hope that the Peace Conference, recognising the claim of the Jewish people to their National home in Palestine, will help to transform Erez Israel into a Jewish Commonwealth ».

(٩٤) رستم حيدر، ص ٢٦٤-٢٦٨.

(٩٥) رستم حيدر، ص ٢٦٩.

(٩٦) أعيد نشر المقال في **القبلة** في ١٢ مايو/ أيار ١٩١٩؛

MAE, Arabie Hedjaz, 1918-1929. IV, 189.

(97) MAE Levant Palestine 1918-1929. XXIX.

يبدو أن هذه الرواية بلاغ رسمي من المنظمة الصهيونية، بتاريخ ٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٩، لتأكيد صحة الوثيقة.

(98) Fac similé photographique dans Caplan, Futile Diplomacy, I.

(٩٩) رستم حيدر، ص ص ٢٨١-٢٨٢.

(100) Neil Caplan, *Palestine Jewry and the Arab Question 1917-1925*. Londres. Frank Cass, 1978, pp. 23-29.

(101) Israël Zangwill, *La voix de Jérusalem*, Paris, 1926, recueil de textes. pp. 214-218, «l'Avenir de la Palestine ».

(102) Le sionisme et la société des Nations, *Ibid*, pp. 229-230.

(103) Caplan, *Palestine Jewry*...., pp. 31-32

(١٠٤) رستم حيدر، ص ٣٤٨.

(١٠٥) خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا، مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٤.

(106) 2 février 1919, PRO WO106/189, G.S.I. Advanced G.H.Q., French Propaganda In Jerusalem.

(107) 15 février 1919, PRO FO 608/98, Clayton.

(108) SS Marine Q87. Note 116 Jérusalem le 19 février 1919.

(١٠٩) قدم محمد عزة دروزه في مذكراته، **مذكرات، مصدر سبق ذكره**، المجلـد الأول، رواية كاملة لوقائع المؤتمر وسيراً لأعضائه (ص ص ٣٢٧-٣٤٣، انظر أيضاً ص ٣٢٠ [نبذة بيوجرافية عن الحاج أمين].

(١١٠) النصوص العربية للقرارات موجودة في **وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية مـن أوراق أكرم زعيتر**، ص ١٤-١٧.

(111) SS Marine Q87 , N°117. Jérusalem le 20 février 1919.

(112) PRO FO 608/98 , COPY Palestine Censorship, Extract from Article dated 10-2-19 in English.

(113) MAE, Nantes, Jérusalem, B, 114; SS Marine Q87; n°115, Jérusalem le 15 février 1919.

(114) MAE, Nantes, Jérusalem, B, 114, n°121 Jérusalem le 23/2/19, Résumé des derniers agissements politiques à Jérusalem .

(115) MAE, Arabie Hedjaz, 1918-1929, III, 187. *Kibla* du 10 mars 1919.

(116) MAE, Arabie Hedjaz, 1918-1929, IV, 37. *Kibla* du 13 mars 1919.

(117) FO 371/4179.

(118) PRO WO 106/189

(119) Howard Elcock, *Portrait of a Decision, The Council of Four and the Treaty of Versailles*, Londres, Eyre Methuen, 1972, p. 114.

(120) SS Marine Q 79, Service d'information de la marine dans le Levant Port-Saïd 3 mars 1919, n°236 (transmis par le R.P. Jaussen), Nouvelles politiques.

(121) MAE Levant Palestine 1918-1929 XIII, 158 : Durieux Jérusalem Le 12 mars 1919.

(122) Raymond Poincaré, *Au service de la France*, XI, *A la recherche de la paix*, Paris, Plon, 1974, pp. 244-245. Journal du 14 mars 1919.

(123) Compte-rendu anglais de la séance in *Papers relating to the Foreign Relations of the United States, The Paris Peace Conference, 1919*, Vol. V, pp. 1-14, Washington, 1946.

(124) MAE K-Afrique 1918-1929, Egypte n°12: Le Caire, le 15 mars 1919, Lefèvre Pontalis à Pichon, lettre n°59,a.s. des troubles en Ègypte.

(125) Général Mordacq, *Le Ministère Clemenceau, journal d'un témoin*. Paris, Plon, 1931, T. III, p. 177.

زيارة الجنرال أللنبي (١٩ مارس/ آذار). "في يوم ١٩، عقد الرئيس اجتماعاً طويلاً مع الجنرال أللنبي، القائد العام للقوات الإنجليزية في سوريا، والذي، لدى مروره بباريس،

وجد أنه من الكياسة أن يطلب لقاء رئيس الحكومة الفرنسية ليوجه إليه التحية. وقد قَدَّم إليه معلومات مهمة إلى أقصى حدٍّ بشأن الوضع العام السابق والحاضر على حدٍّ سواء في هذه المناطق.

"وقد اغتنم السيد كليمنصو هذه الفرصة السعيدة لكي يسأل الجنرال عن رأيه في حل المسألة جد الحساسة وجد المهمة وجد الجسيمة والتي سوف تُطرَحُ على المؤتمر: التنظيم الجديد لسوريا ولبلاد الرافدين ولفلسطين.

"فهذه المسألة، التي أفرزت من جانب الحلفاء وسكان هذه المناطق آراء مــن أكثــر الآراء تباينا، بل والمختلفة اختلافا كاملاً، كانت تشغل بال الرئيس بشكل خاص.

"وقد قدّم الجنرال أللنبي حلاً شدَّ انتباه محاوره بقوة وكشف له أن القائد العام للجيوش الإنجليزية في سوريا تناول هذه المسألة برحابة أفكار وسعة آراء تلبي تحديداً الهدف الذي يتوخاه الحلفاء: عقد صلح قائم على الحق وليس على القوة.

"وقد باح لي السيد كليمنصو بأنه، خلال المباحثات القادمة في مؤتمر الصلح، سوف يأخذ في اعتباره إلى أبعد حد هذا الرأي وبأن الجنرال أللنبي، على أي حال، قد ترك لديه الانطباع بأنه ليس مجرد جنرال داهية، كما أثبت ذلك خلال الحرب كلها، بل بأنه أيــضاً رجل يملك رؤية واضحة حيال الوضع السياسي الراهن".

(126) *The Papers of Woodrow Wilson*. Vol. 56, pp. 274, Princeton University Press, 1987.

(127) Raymond Poincaré, *Au service de la France*. XI, ...p.261. Le 21 mars 1919.

(128) Paul Mantoux, *les délibérations du Conseil des Quatre*, Paris. CNRS, 1955, p.49.

(129) 7 avril 1919, PRO FO 800/215.

(130) 7 avril 1919, PRO FO 800/215 .

(131) Paul Mantoux, *les délibérations* .. pp.228-229.

(132) PRO FO371/4180/35, Eastern Confidential April 22 1919, Note respecting the Middle Eastern Question by Earl Curzon.

(133) Paul Mantoux, *les délibérations* ... I, pp.378-379.

(134)Antoine Hokayem et Marie-Claude Bitar, *L'Empire Ottoman, les Arabes et les*

Grandes Puissances, 1914-1920, Beyrouth, 1981, pp.304-305. Les clauses suivantes concernent l'Afrique.

(135) Peter Kenez, «Pogroms and White ideology in the Russian Civil War», in John D. Klier et Shlomo Lambroza (ed.), *Pogroms*: , pp.290-313.

(136) James Parkes, *The Emergence of the Jewish Problem, 1878-1939*, Royal Institute of International Affairs, Oxford University Press, 1946, pp.113-114.

(137) Paul Mantoux, *les délibérations* ..., I, 440...

(138) Voir ses souvenirs, *A Memoir of the Paris Peace Conference 1919*, Londres, Methuen, 1972, pp. 133-137.

(139) Paul Mantoux, *les délibérations* ..., I, 474...

(١٤٠) مع كون هيدلام ــ مورلي مؤازراً للقضية الصهيونية، إلاّ أنه كان يرتاب في دعاوى المتطرفين الصهيونيين وقد أسعده تحركه في اتجاه إلغاء الإشارة إلى حقوق قومية.

(141) Paul Mantoux, *les délibérations* ...II, 92-94،

(142) Paul Mantoux, *les délibérations* ...II, 102-103.

(143) MAE, A Paix, 170, 68-73.

(144) 1er avril 1919, Rapport du lieutenant de Ganay, (détachement de cavalerie de Jérusalem) à M. le général Hamelin, commandant les troupes françaises du Levant à Beyrouth), MAE Nantes Beyrouth 2349.

هذا التقرير مهم لاسيما أنه يعلن عن الاحتفال بعيد النبي موسى في العام القادم: "من الجهة الأخرى، يقال إن بعض المتعصبين اليهود قد اعتزموا الوقوف على امتداد مسار التظاهرة آملين في أن يحل بهم التوبيخ أو حتى أن يصابوا بجراح وذلك رغبةً منهم في اتخاذ مظهر الشهداء وجعل قضيتهم أكثر إثارة للاهتمام".

(145) Dossier dans la dépêche de Durieux à Picot du 6 avril 1919. MAE Nantes Beyrouth 2349.

(١٤٦) علاوة على الإسهامات التي قدّمها من اعتنقوا الإسلام من اليهود والمسيحيين، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار واقع أن المسلمين قد استعادوا عدداً كبيراً من الموروثات

الشفاهية التي استبعدتها الشرائع التوراتية اليهودية والمسيحية. والأرجح أن ذلك هو منشأ الاتهام الذي وجَّهه المسلمون إلى اليهود والمسيحيين بأنهم "حَرَّفوا" نصوصهم المقدسة.
وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٨، كان بوسع تشارلز د. ماتيوز، وهو واحد من العلماء الغربيين النادرين الذين درسوا المسألة، أن يكتب في تقديمه لنشر نصين إسلاميين حـــول الأرض المقدسة يرجعان إلى أواخر العصر الوسيط،

(Charles D. Matthews, *Palestine-Mohammedan Holy Land*, New-Haven, Yale University Press, pp. xxix-xxx.).

«Palestine will remain what it has been for these thirteen centuries a holy land of three great world religions. despite the present resumption of strife over its political control. Because the view is often held and expressed by sincere people that the " Arabs are mere interlopers in Palestine " and ought to give way to the " return" of the rightful and historic Jewish " owners " of the land of the Bible, a further word may be said regarding the ethnology of the land. The simple fact is that the majority of the " Arab " people of Palestine are not descendants of those " new arrivals " who intruded with the Islamic-Arab conquest in the seventh century. The majority of native Palestinians, both Christian and Moslem Arabs, are of a mixed race whose connection with the land reaches back into very early history. There is a natural tendency for history to be simplified by the concept that all the Moslems of the conquered lands came in, and assumed control, from the outside; and it is an understandable fancy for most of the Moslem population to believe that their ancestors were of the conquering race. Of course considérable numbers of real Arabs from Arabia did settle in the new possessions, and there are in the voluminous general and local histories of history-minded Islamic peoples records of such settlement. But the conquerors and the settlers who followed in the wake of military success and political control were only a small minority compared to the masses of the continuing, historic population. The désignation of " Arab " was gradually accepted by the majority along with the new religion, and the Arabic language was

adopted by all. The change in religion was in most cases volunta for the sake of preferment and advantage, to escape the higher taxes on non-Moslems, and in a natural process of following the predominant environmental influence and practice. The simplicity and the virility of the new faith, in contrast with the often violent theological controversies over complex philosophical-religious doctrines of Christianity, also had their influence. Therefore the " Arabs " of Palestine are the historic people of the land, and the country has always been theirs: but Palestine still is, and will remain, the holy land of three religions.»

ومن جهة أخرى، فإن هذا النص قد عاد عليه بتصدير من جانب عضو آخر بجامعة يال يؤكد أننا لا يجب أن نرى فيه موقفاً متحيزاً، وإنما ضرورة مراعاة التـداخل فيمـا بـين الديانات التوحيدية الثلاث (PP.v-vi).

(147) MAE. Nantes. Jérusalem. B, 114, note 132, Jérusalem 5 avril 1919 Nouvelles locales.

(148) MAE, Nantes, Jérusalem, B. 114, note 133, Jérusalem 8 avril 1919 Nouvelles locales.

(149) MAE, Nantes, Jérusalem. B. 114. note 134. Jérusalem 12 avril 1919 Nouvelles locales.

(150) Rapport déjà cité du lieutenant de Ganay.

(151) Rapport de Ganay du 26 avril.

وهذا يستبعد من ثم أهل الخليل، خلافاً لما سوف يحدث في العام التالي.

(152) MAE, Nantes, Jérusalem, B, 114, note 136. Jérusalem 19 avril 1919 Nouvelles locales.

(153) PRO FO 371/4171. The Zionist Commission, Jerusalem. April 13. 1919..

(154) Money à la Commission sioniste, le 15 avril 1919. PRO FO 371/4171.

(155) 29 avril 1919, PRO FO 371/4180, Peterson rencontre avec Mr. Landman.

(156) 19 juin 1919, War Office to Foreign Office. Woodward et Butler, *Documents on British Foreign Policy, 1919-1939*, First Series, Volume IV, 1919, Londres,

1952, p. 300.

(١٥٧) خليل السكاكيني، كذا أنا يا دنيا، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥، السبت ١٢ أبريل/ نيسان ١٩١٩. انظر أيضاً، بخصوص الجلسة نفسها على الأرجح، وإن كان دون ذكر تاريخ، دروزه، مذكرات، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٧.

(158) 4 avril 1919, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 113, M. Durieux, délégué du Haut-Commissaire de France en Palestine à M. Le Haut-Commissaire de la République française en Palestine. Syrie et Arménie à Beyrouth et du même le 16 avril MAE Levant Palestine 1918-1929 I, 223-224.

تحمل العريضة أختام ١٢٥ مختارًا وعينًا.

(159) PRO WO 106/190 ; PRO FO 371/4180

(160) 11 mai 1919, PRO WO 106/191, Clayton.

(161) 16 mai 1919, FO 371/4181, Report by British Liaison Officer on Political Situation in Arabia.

(162) 14 mai 1919, PRO FO 608\92.

(163) 14 mai 1919, PRO FO 371/4180 .

(164) Le Caire 4 juin 1919, MAE, Arabie Hedjaz. 1918-1929. V, 46.

(165) 12 juin 1919, PRO WO106/192.

(166) 8 juin 1919. Picot à Paris, MAE Nantes Beyrouth 2349.

(167) 31 mai 1919, PRO FO 371/4181

(168) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 56, pp.203-204, Princeton University Press, 1987.

(169) En français dans le texte.

(170) 5 juin 1919, PRO FO 371/4181, Herbert Samuel à Sir William Tyrrell.

(١٧١) دروزه، مذكرات، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٣٤٥-٣٤٦.

(172) 20 juin 1919, PRO FO 371/4181, Egypt Political.

(173) Dossier de synthèse sur les activités de la Commission MAE Nantes Beyrouth 2349.

(174) Caplan, *Palestine Jewry*..., pp. 36-38.

(175) *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 61, pp.44, Princeton University Press, 1989.

(176) Memorandum by colonel Cornwallis, non daté. Woodward et Butler, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 278-279.

(177) French à Curzon, le 10 juillet 1919, Woodward et Butler. Documents .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 311-313.

(178) Texte arabe dans Antoine Hokayem et Marie-Claude Bitar, *L'Empire Ottoman, les Arabes et les Grandes Puissances. 1914-1920*, Beyrouth, 1981, p. 27 de la partie arabe.

حول المؤتمر السوري والمشاركة الفلسطينية، انظر دروزه، مذكرات، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٣٤٨-٣٦٢.

(179) Texte complet dans Hokayem et Bitar, *op. cit.*, pp. 145-192.

(180) 1er setembre 1919, Lettre de Wilson à Joseph Patrick Tumulty. *The Papers of Woodrow Wilson*, Vol. 62, pp.609, Princeton University Press, 1990.

الفصل الثاني عشر

الـOETA ضد الصهيونية

(1) Hokayem et Bitar, *op. cit.*, p.185.

(2) Lawrence James, *Imperial Warrior, the Life and Times of Field-Marshall Viscount Allenby, 1861-1936*, Londres, Weidenfield and Nicolson, 1993, pp. 182-185.

(3) Norman Cohnn, *Histoire d'un mythe. La « conspiration » juive et les protocoles des sages de Sion*, Paris, Folio Histoire, Gallimard, 1992, p.136.

(4) Sur ces questions, voir Pierre Sorlin, *l'antisémitisme allemand*, Paris, Flammarion, 1969.

هذا ما أكده هتلر نفسه للحاج أمين الحسيني في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤١: "لم أكن أجد أي فارق بين مسيحي ويهودي ألماني، حتى ولو كان نمساويًا. وهذا هو السبب في أنني ذهلت حيال التغير المفاجئ في موقف اليهود في ألمانيا بعد صدور تصريح بلفور. لقد تهجموا على المؤسسات الألمانية وقاموا بتخريب الأجهزة الإدارية للدولة والجيش وشنوا حملة ضخمة تأييداً لنقاط ويلسون الأربع عشرة التي زعموا أنها لا تفرّق بالمرة بين الغالب والمغلوب.

"وقد أدت هذه المؤامرة إلى هزيمة ألمانيا. وأفسدت المنظمات اليهودية إمدادات الجيش، وهو ما جعلنا نخسر الحرب". [ترجمة عن الفرنسية. ـ م.]. زهير ماريني، **فلسطين والحاج أمين الحسيني**، بيروت، ١٩٨٦، ص ص ١٧٧ ومابعدها.

(6) 19 octobre 1918, PRO FO 371\3414\54.

(7) PRO FO 371/ 4230.

(8) Weizmann, *Trial and Error*, Londres, 1949, pp. 273-74.

بوجه عام، لا تعتبر **مذكرات** فايتسمان وثيقة يمكن الركون إليها.

(٩) يتحدث نورمان وهيلين بنتفيتش، في مذكراتهما، عن عداوة فريق مهم من الإدارة العسكرية حيال الصهيونية مع عدم ذكرهما **للبروتوكولات** إلاّ في أبريل/ نيسان ١٩٢٠،

Mandate Memories, 1918-1948, Londres, Hogarth Press, 1965

أمّا Wasserstein, *The British in Palestine* فهو يقدم التاريخ نفسه (الشهور الأولى من عام ١٩٢٠).

(10) Wasserstein, *The British in Palestine*..., pp. 10-14.

(11) Weizmann à Philip Kerr, Paris le 19 mai 1919, *Letters*, IX, p.143.

(12) Weizmann à Louis Mallet, Paris le 18 juin 1919, *Letters*, IX, pp. 161-164.

(13) Mallet à Weizmann, le 1er juillet 1919, PRO FO 406/41.

(14) Graham à Curzon, 2 juillet 1919, PRO FO 371/4181.

(15) PRO WO106/194 et PRO FO 371/4226.

(16) Weizmann à Graham, le 12 juillet 1919, *Letters*, IX, p.176.

(17) Weizmann à Graham, le 13 juillet 1919, *Letters*, IX, pp. 177-181. PRO FO 371/4225.

(18) **Weizmann à Bella Berligne**, le 15 août 1919 *Letters*, IX, pp.195-197.

(19) Foreign Office à French (Le Caire) PRO FO 371/4181.

(20) En français dans le texte.

(21) 30 juillet 1919, Allenby à Curzon, Woodward et Butler, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 324-325.

(22) 6 août 1919, Allenby à Churchill. 6 août, FO371/4171/170, FO 406/43 ; Woodward et Butler. *Documents* .... First Series. Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 338-339.

(23) Mémorandum de Balfour sur la Syrie, la Palestine et la Mésopotamie. PRO FO 371/4183. Woodward et Butler, *Documents* .... First Series, Volume IV. 1919, Londres. 1952, pp. 340-349 .

(24) PRO FO 371/4226.

(25) PRO FO 371/4171.

(26) 26 août 1919. PRO FO 371/4182. Woodward et Butler. *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 360-365.

(٢٧) هذا واضح بشكل خاص في شهادة دروزه، الذي كان آنــذاك سـكرتير المنظمـة، مذكرات، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٣٦٣ ومابعدها وص ص ٣٩٠ وما بعدها.

(28) 29 août 1919, French à Curzon, PRO FO 371/4182, Woodward et Butler, *Documents* .... First Series. Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 365-366.

(29) MAE Nantes Beyrouth 2325, Cousse à Haut-Commissaire, Damas le 3 septembre 1919:

"كالعادة، قادت الإدارة والنادي العربي الحركة التي يجري الـسعي الآن إلــى توسـيعها لتشمل جميع السكان.

"ويتعلق الأمر من حيث المبدأ بالاحتجاج على قرار من شأنه إجازة تمزيق لـسوريا يدينه الجميع هنا ويبدو أنه يجعل من المرجح إقامة مملكة إسرائيلية في فلـسطين، تلقـى المعارضة، على الأقل، هي أيضاً".

(30) MAE, A Paix, 176. 87-94. MAE, Arabie Hedjaz, 1918-1929, VI, 171.

(31) *MAE, Arabie* Hedjaz, 1918-1929, VI, 223 19 septembre 1919

نبذة حول حديث مع فيصل خلال رحلته إلى أوروبا: "ألمح الأمير فيما تقدم إلى مشاعره المعروفة فيما يتعلق بالعون من جانب فرنسا. وهذا يعني أنه يقبل هذا العون بكل ترحيب، وذلك شريطة احترام استقلال سوريا ووحدة أراضيها بما في ذلك فلسطين. وأنا أعود إلى هذه المسألة. د: من الوارد، وفقاً لما قرأته أو سمعته، أنه قد حدث، خلال المحادثات بين فرنسا وانجلترا، نقاش بل تفاهم على ألاّ تعارض فرنسا انتداباً إنجليزيًّا في فلسطين. ألاَ تعتقد أنه سوف يكون بالإمكان توفيق هذه المساعدة الإنجليزية في فلسطين مع صون وحدة سوريا: بحيث تكون فلسطين، بالرغم من وجود مستشارين إنجليز فيها، تابعة لك؟ يجيب الأمير بأن هذا الأمر لا يبدو له عصيًّا على التحقيق".

(32) Voir les chapitres correspondants dans le livre de Lawrence James, *The Rise and Fall of the British Empire*, Abacus, Londres. 1995.

(33) Doreen Ingrams, *Palestine papers 1917-1922. Seeds of Conflict*. Londres. John Murray, 1972, pp.75-78.

(34) Woodward et Butler, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp.379-380.

(35) *Documents on British Foreign Policy 1919-1939*. First series VOL I . Londres 1947, pp. 685-700. PRO FO 371/ 4182.

(36) Frederic C. Hof. *Galilee Divided, the Israel-Lebanon Frontier, 1916-1984*. Westview Press, Boulder and London, 1985, pp. 9-10 (avec carte).

(37) 11 septembre 1919, MAE Levant Palestine 1918-1929 XIV 13...

(38) Weizmann à Philipp Kerr, le 11 septembre 1919. *Letters*. IX, p. 213.

(39) 11 septembre et 12 septembre 1919. Meinertzhagen à Curzon, Woodward et Butler, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 381-383.

(40) Woodward et Butler, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 395-404.

(41) Voir Weizmann à Sokolow, le 21 août 1920, *Letters*, X, p.22.

(42) 22 septembre 1919, Meinertzhagen à Curzon, Woodward et Butler. *Documents*.... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 409-410.

(43)Woodward et Butler, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919. Londres, 1952, pp. 413-419.

(44) Note by colonel Cornwallis of conversations with the Emir Faisal, Woodward et Butler, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 421-422.

(٤٥) رستم حيدر، ص ٤٧٢.

(46) *Papers*, I, pp. 250-275.

(47) À Herbert Samuel, le 26 septembre 1919 ; à Balfour le 27 septembre ; *Letters*, pp. 227-230.

(48) Lawrence à Curzon, le 25 septembre 1919. *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 422-424. Se retrouve dans les différentes éditions de la correspondance de Lawrence.

(49) 9 octobre 1919, Curzon à Faysal, PRO FO 371/4183, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 444-449. 10 octobre 1919, Lloyd George à Faysal, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 451-452.

(50) 10 octobre 1919, PRO FO371/4184, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 452-454.

(51) PRO CO 733/10, PRO FO371/4184. *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 425-428.

(52) *Letters*, pp. 229-231.

(53) 14 octobre 1919, PRO FO 371/4184

(54) PRO FO 371/ 4215.

(55)Mémorandum de Forbes Adam, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 428-439.

(56) *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 472-473.

(57)En français dans le texte.

(58) *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres. 1952, p. 495.

(59) Meinertzhagen à Curzon, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 499-500.

(60) Par exemple, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 94. Requête du vice-président du comité islamo-chrétien de Naplouse datée du 1er novembre 1919 constituant un réquisitoire contre le sionisme. MAE Nantes Jérusalem B 114 : Note sur la situation politique de la Palestine par des membres du comité islamo-chrétien de Jérusalem datée du 15 novembre 1919. MAE Levant Palestine 1918-1929 II, 115. nouvelle requête du comité islamo-chrétien de Naplouse datée du 16 novembre .

(61) MAE Levant Palestine 1918-29. II, 68. M. de Ganay, délégué du Haut-Commissariat de France à Jérusalem à M. de Laforcade, gérant du Haut-Commisariat de France en Palestine, Syrie et Arménie à Beyrouth, le 9 septembre 1919.

(62) MAE Nantes Beyrouth 2349, 15 août 1919, Ganay à Picot, Rapport voyage Galilée :

"السكان الذين أغضبهم النظام الإنجليزي يطالبون أكثر مما في أي وقت سابق بارتباط فلسطين بسوريا لكي يكونوا تحت الحماية الفرنسية.

"وعدة أعيان مستعدون للذهاب إلى مؤتمر الصلح للتعبير عن مطالبهم. ويشعر المسلمون بالندم على طلبهم وصاية إنجليزية أو أميركية من اللجنة. والحال أن عدداً كبيراً من أنصار الاستقلال إنما يحملون على الشريف بسبب سياسته التي تميل إلى الإنجليز ويرغبون فرنسا.

"وسوف أوافيكم عما قريب بمظبطة تحمل توقيعات جد مهمة".

(63) PRO CO 733/10, PRO FO 371/4184, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919. Londres, 1952. pp. 507- 508.

(64) Meinertzhagen à Curzon, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919.

Londres, 1952, pp. 522-527.

(65) 9 décembre 1919, Meinertzhagen à Curzon, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, p. 571.

(66) Le Caire, 7-9 novembre 1919, Weizmann au Zionist Bureau, *Letters*, IX, pp. 235-251, compte-rendu de son séjour en Palestine.

(67) Jaffa, le 15 novembre 1919, Weizmann au Zionist Bureau, *Letters*, IX, pp. 254.

(68) Meinertzhagen à Curzon, *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 533-535.

(69) Mémorandum de Berthelot du 12 décembre 1919, PRO FO 371/4239. *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 577-587.

(70) MAE Nantes Beyrouth 2330, Paris le 2 décembre 1919, Son Excellence M. Stephen Pichon à M. le Haut-Commissaire de France en Syrie et en Arménie, Occupation de la Bekaa et délimitation de la Palestine.

(71) Compte-rendu de la rencontre franco-britannique du 23 décembre 1919. *Documents* .... First Series. Volume IV. 1919. Londres. 1952, pp. 595-603.

(72) PRO FO 371/4185.

(73) Voir le livre essentiel de G. Khoury, *La France et l'Orient arabe*..

(74) PRO FO 371/4185, Papers submitted Dec 5 th 1919.

(75) *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 571-577.

(76) 20 décembre 1919, PRO FO 371/4226.

(77) 21 décembre 1919. FO371/4187, General Bols to the Chief of the Imperial General Staff.

بعد رحيل ماني، في وقت واحد مع كلايتون، تولى الجنرال واطسون الإدارة الانتقالية.

(78) Voir la lettre de recommandation de Bols pour Weizmann datée du 24 décembre 1919. PRO FO 371/4187 .

(79) Bernard Wasserstein, *The British in Palestine*..., pp. 58-59

(80) *Letters*, IX, pp. 265-267.

(81) Mémorandum de Forbes Adam, le 30 décembre 1919, PRO FO 371/4215. *Documents* .... First Series, Volume IV, 1919, Londres, 1952, pp. 607-609.

(82)10 janvier 1920, Beyrouth, SS Marine Q87, Situation actuelle de la Palestine.

هذا النص موجود أيضاً في عديد من السلاسل الفرعية، الأمر الذي يبين أهمية انتشاره.

(83) Dossier dans MAE Nantes Beyrouth 2350.

الإمكانات المالية جد متواضعة. وقد أنفق ريه في غضون بضعة شهور ٥٥٩ جنيهاً مصريًا على دعايته (Rais à Picot, Jérusalem le 18 novembre 1919).

ويتعهد جورو بدفع ٥٠٠ جنيه لحسن صدقي الدجاني باسم الجمعية الإسلامية ــ المسيحية، وبتقديم مبالغ شهرية قدرها ٣٠٠ جنيه لمندوبي الدعاية و١٠٠ جنيه شهريًا لحسن صدقي الدجاني لأجل جريدته. وهذا نسبةً إلى ٣٠٠٠٠ جنيه يحوزها كوس في دمشق. وفي الأعوام التالية، سوف يحتفظ حسن صدقي بعلاقات طيبة مع الفرنسيين. والحال أن هذا الخصم للحاج أمين، سوف ينحاز إلى صف الاضطراب العام في عام ١٩٣٦، وسيتخذ بعد ذلك موقفاً أكثر تحفظاً دون أن يكون معادياً خلال انتفاضة ١٩٣٧ــ١٩٣٨. ويجري اغتياله في عام ١٩٣٨. وسوف تعزى هذه الجريمة إلى الحاج أمين أو أنصاره. أمّا عزة دروزه، الذي كان يكن التقدير لحسن صدقي، فهو يفضل الاعتقاد بأن مصرعه إنما يرتبط بمسألة شخصية وبأن الصراع السياسي كان مجرد ذريعة. عزة دروزه، **مذكرات**، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٣٤٠-٣٤١.

(84) MAE Nantes Beyrouth 2332, Note personnelle Beyrouth 9 février 1920 (non signé) :

"على المستوى الشخصي، فإن وظائفي السابقة في مصر قد مكنتني من أن أكون مزوّداً تزويداً قويًا بالمعلومات فيما يتعلق بلطف الله الذي قدم هذه الوثائق: إنه عدو لدود للفرنسيين ومن ثم فتلك هي الحالة التي يتذكر عندها المرء بيت الشعر الشهير:

Timeo Danaos et dona ferentes

"وعلى أي حال، فقد يكون بالإمكان استخدام الوثائق ضد الإنجليز والصهيونية".

(85) PRO FO 371/4186.

(86) 21 janvier 1920, PRO FO 371/5032.

(87) PRO FO 371/4186.

(88) Il a laissé ses souvenirs, *The Independent Arab*, Londres, John Murray, 1933.

(89) Woodward et Butler, *Documents ... , op. cit.*, vol. XIII, Londres, 1963, p. 218.

(90) 7 février]920, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, XIV, 79; 9 février 1920, PRO Fa 371/5113/20.

(91) 14 février 1920, PRO FO 371/5113.

(92) Archives nationales, papiers Millerand, n° 470, AP carton 60. Texte anglais dans Woodward et Butler, *Documents ... , op. cit.*, vol. VII, 1920, Londres, 1958, pp. 99-119.

(93) 26 janvier 1920, MAE, Levant, Palestine, 1918-29, II, 149. Beyrouth.

(94) 9 février 1920, MAE, Nantes, Beyrouth, 2330. Haut-Commissaire à Diplomatie Paris:

"لقد أدرك فيصل وجماعته منذ وقت طويل أن الأمر كان يتمثل بالنسبة للإنجليز في إيجاد حائل عربي بين الساحل والطريق إلى الهند المشمولة دوماً على نحو غيور بالحيطة البريطانية وعلى مسافات أطول.

"إلاّ أنه، بحسب ما ذكره ممثل الأمير، فإن هذه الحيطة قد تكون عديمة الشأن دون الولاء، الذي قرر فيصل اليوم أن يبديه لنا، وذلك، بلا مراء، نظراً لغياب العون الأميركي أو الدعم الإنجليزي، وإن كان ينوي بالفعل استثماره أفضل استثمار. وهو يتساءل "لماذا لا تسمح لنا فرنسا بأن يمتد نشاطنا، الذي لا نريد ممارسته ضدها، إلى فلسطين وبلاد الرافدين العليا والسفلى، التي قد يتمكن سكانها من إبداء استعدادات مؤاتية؟".

(95) *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. IX, pp. 296-311.

(96) *Correspondance d'Orient*, 1920, I, pp. 359-360.

(97) PRO FO 371/5035.

(98) PRO FO 371/5121/79. Rapport de la commission Pallin.

(99) 3 mars 1929, Colonel Meinertzhagen (Cairo) to Earl Curzon, Woodward et Butler, *Documents ... , op. cit.*, vol. XIII, pp. 219-220.

(100) 22 février 1920, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, II, 151. Beyrouth.

(101) Récit donné par *Haaretz* et traduit pour les services britanniques, FO 371/

5117/89.

(102) *Correspondance d'Orient,* 1920,1. pp. 306-308.

(103) 7 mars 1920, Allenby à Curzon, Woodward et Butler, *Documents .... op. cit.*, vol. XIII. pp. 223.

(104) *Ibid.*, pp. 233 et suivantes.

(105) *Ibid.*, vol. VII. p. 432-449,

يذكر ثلاثة لقاءات في ٨ مارس/ آذار، بيد أن أيًّا منها لا يتصل بفلسطين.

(106) 10 mars 1920. PRO FO 371/5032. Situation in Syria.

(107) 15 mars 1920, MAE, Nantes. Beyrouth, 2358. Cousse à Gouraud.

(108) 12 mars 1920, télégramme de Meinertzhagen, PRO FO *371/5033.*

(109) PRO FO 371/5121/79. Rapport de la commission Pallin. Voir aussi MAE. Nantes. Beyrouth, 2350. Dossiers sur les manifestations de février et mars en Palestine.

(110) Weizmann à l'exécutif sioniste, Jérusalem. le 25 mars 1920, *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. IX, pp. 325-330.

(111) 9 mars, Archives nationales. papiers Millerand. n° 470. AP carton 60.

(112) 16 mars 1920, MAE, Nantes. Beyrouth, 2330. Gouraud à Diplomatie Paris:

"لقد أحطتكم علما في برقيتي بأن التعديل الطفيف للحدود والذي أعلنه معاليكم فيما يتعلق بفلسطين إنما يؤثر على حوران أو صور. ويجب أن أضيف أن الحوله، وادي الأردن إلى الشمال من بحيرة ميروم، يضم عدة آلاف من الهكتارات من الرواسب الغرينية سهلة الري ويشكل المنطقة الأغنى بكثير على حدود سوريا وفلسطين. وسوف يكون من المرغوب فيه جدًا ألاّ يتجاوز التعديل المعلن عنه شمال قضاء صفد المندرج في منطقتنا المنصوص عليها في عام ١٩١٦ وإن كنا لا نحتلها".

(113) Millerand.

(114) 25 mars 1920, PRO FO *371/5114/69.* FO 371/5139/11.

(115) PRO FO 371/5203.

(116) PRO FO 371/5034.

(117) PRO FO 371/5139/10. Woodward et Butler. *Documents ...• op. cit.*, vol. XIII, pp.241-246.

(118) 29 mars 1919. à Véra Weizmann. *The Letters and Papers, op. cit.*. vol. IX. pp. 330- 331.

(119) MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, XIV, 165.

(١٢٠) دروزه، **مذكرات**، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٤٢٢-٤٢٤.

(121) PRO FO 371/5118/146.

(١٢٢) يتحدث تقرير ماينرتزهاجن عن وجود فرقة الموسيقى العسكرية يوم الجمعة، أمّا تقرير لجنة پالن فهو مشوش فيما يتعلق بهذه النقطة ويبدو أنه يشير إلى أن فرقة الموسيقى قد سُحبت بالنسبة لمسيرة يوم الأحد. ويشير ستورس في مذكراته إلى أنه قد تمكن في نهاية الأمر من الحصول على تصريح باستخدمها *Orientations, op. cit.*, p. 386، لكنه لا يقدم تفاصيل ما دار في الأيام المختلفة.

(123) 8 avril 1920, MAE. Nantes. Jérusalem. B, 94. M. Rais. Consul de France délégué du Haut-Commissariat. à M. le général Gouraud. commandant en chef. Haut-Commissaire de la République française en Syrie et en Cilicie.

(١٢٤) تقرير پالن:

«The exact incident which caused the explosion has not been clearly ascertained - possibly there were more than one. The attempt to fix the responsibility on a Jewish Chemist employed at Christaki's did not satisfy the Court, the evidence being contradictory and unreliable. There is some evidence to show that the attitude of the Jewish spectators was in certain cases provocative. but it appears much more likely that the mine was deliberately fired by some *agents provocateurs* raising the cry of an insult to the banner by a Jew. On the other hand the evidence of Messrs. Russell and Perralt points to the origin of the affair being in an attack by a pilgrim on some person in the crowd whose part was taken by a Jewish soldier. This man was not produced. but it is interesting to note that such a man is described by Mr. Abrahams as being in flight from the mob immediately after the trouble broke out. It is quite

evident, however, that in the excited condition to which the pilgrims round the Nadi el Araby Club had been wrought by the speeches of the political orators and the exhibition of Emir Feisal's portrait, the most trivial incident would be sufficient to cause an outbreak. »

(125) Elle a écrit ses Mémoires, *Fifty Years in Palestine*, Londres, 1948; sur l'affaire, pp. 133-135.

(126) Rapport de Bols du 14 avril 1920, FO 371151119/109 à 112.

(127) 16 avril 1920, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 94. Rais à Gouraud.

(128) Marius Schattner, *Histoire de la droite israélienne*, Bruxelles, Éditions Complexe, 1991, p. 60.

(129) 16 avril 1920. MAE, Nantes, Jérusalem, B, 94. Mr. Rais, Consul général, Délégué du Haut-Commissariat, à Mr. le général Gouraud. Incidents antisionistes.

(130) MAE, Nantes. Jérusalem, B, 94.

(131) MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, XIV, 179; MAE, Nantes, Jérusalem, B, 94.

(132) 10 avril 1920, PRO FO 371/5117/157.

(133) *The Letters and Papers*, *op. cit.*, vol. IX, pp. 333-335.

(134) Rapport du 14 avril. PRO FO 371/5118/146.

(135) 16 avril 1920, PRO FO 371151117/170.

(136) Récit de Storrs dans *Orientations*, *op. cit.*, pp. 390-391.

(137) 12 avril 1920, FO 371/5117/121.

(138) 12 avril 1920, FO 371/5117/115. Allenby au Foreign Office.

(139) 12 avril 1920, PRO FO 371/5117/131. Entretien de Sokolow au Foreign Office.

(140) 15 avril 1920, PRO FO 371/5117. Allenby au Foreign Office.

(141) FO 371/5118/162.

(142) 15 avril 1920, PRO FO 371/5203. Allenby au Foreign Office.

(143) 17 avril 1920, P.RO FO 371/5119. AJienby au War Office.

(144) 17 avril 1920, PRO FO 371/5117. Allenby au Foreign Office.

(145) 17 avril 1920, PRO FO 371/5117/181.

(146) 21 avril 1920, FO 371/5119/91.

(١٤٧) لقد نشرت المحضر الفرنسي غير المنشور لجلسة ٢٤ أبريل/ نيسان مع مقارنتــه بالنص الإنجليزي في:

« 1917-1920: les Alliés et la question de Palestine ». *Revue d'études palestiniennes*. n° 50. hiver 1994, pp. 125-138. et n° 51, printemps 1994. pp.117-133.

(148) MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, II, 199 et suivantes.

(١٤٩) التشديد في الأصل.

(150) Georges Sam né. *La Syrie*. Paris. 1920, p. 694.

(151) 27 avril 1920. Allenby à Curzon, PRO FO 37115035.

(152) 27 avril 1920, Woodward et Butler, *Documents* ... , *op. cit.*, vol. XIII. pp. 252-253.

(153) 25 avril 1920. MAE. Y, International. DCLXX, 71-72.

(154) 27 avril 1920, PRO FO 371/5118. From GHQ Egypt to War Office.

(155) MAE. Levant. Palestine, 1918-1929, XIV, 197.

(156) PRO FO 371/5113. 5114, 5115.

(157) 26 avril 1920, Weizmann à Véra Weizmann. *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. IX, pp. 340-341.

(158) *Correspondance d'Orient*. 1920, 1, p. 519. Texte anglais dans PRO FO 371/ 5114/58.

(159) StOITS. *Orientations* ... , *op. cit.*, p. 391.

(160) 29 avril 1920, PRO FO 37115203. Foreign Office à Allenby.

(161) 29 avril 1920, PRO FO 37115118. Allenby à Churchill.

في الأسابيع التالية، يرى أن التخفيفات المقترحة جد مهمة وتدل على عدم توازن قياساً إلى المعاملة التي كانت من نصيب المحكوم عليهم من العرب.

(162) 30 avril 1920, MAE, A Paix, CLXXVI, 164.

(163) PRO FO 371/5113, 5114, 5115. MAE, Nantes, Beyrouth, 2350.

(165) Mai 1920, PRO FO 371/5118.

(165) 4 mai 1920, PRO FO 371/5139/132. Allenby à Curzon.

(166) 5 mai 1920, PRO FO 371/5203. Allenby à Curzon.

(167) 7 mai 1920, PRO FO 371/5119/37. Military Situation in Palestine.

(168) 13 mai 1920, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, III, 40.

(169) 29 mai 1920, PRO FO 371/5119.

(170) 16 mai 1920, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, II, 223.

(171) 13 mai 1920, PRO FO 371/5035. Faysal à Allenby.

(172) MAE, Nantes, Beyrouth, 2350.

(173) 5 mai 1920, MAE, Nantes, Beyrouth, 2350.

(174) Dossier dans MAE, Nantes, Beyrouth, 2350. Beyrouth à Jérusalem.

(175) Bernard Wasserstein, *The British in Palestine*, *op. cit.*, pp. 67-68.

(176) 18 mai 1920, Woodward et Butler, *Documents ...*, *op. cit.*, vol. XIII, pp. 270-273. Note from Earl Curzon to the French Ambassador.

(177) Réponse de Millerand datée du 25 mai et communiquée le 1ᵉʳ juin 1920, Wood ward et Butler, *Documents ...*, *op. cit.*, vol. XIII, pp. 278-282.

(178) 29 mai 1920, PRO FO 371/5120/110. Faysal à Allenby (en français).

(179) MAE, Levant, Palestine, II, 51.

(١٨٠) هل يعد ذلك إشارة ضمنية من جانب كامبون، الذي عاش الأحداث، إلى موقف إميل أوليفيه في عام ١٨٧٠؟

(181) PRO FO 371/5119.

تعقب ذلك ارتباكات إدارية: فقد اختفى ماينرتزهاجن في كريت، بينما هو مطلوب في لندن.

(182) PRO FO 371/5114/58-71.

(١٨٣) كانت مسألة حائط المبكى قد أُعيد طرحها للتوّ بسبب رغبة المفتي في إجراء ترميمات هناك، الأمر الذي أدى إلى احتجاجات من جانب اللجنة الصهيونية: فهي تطالب بأن يُعهد بمثل هذا النوع من العمل إلى اليهود.

Voir la lettre de Weizmann à Samuel, le 2 juin 1920, *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. IX, p. 351.

(184) PRO FO 371/5203.

(185) PRO FO 371/5204.

(186) Weizmann à Herbert Samuel, le 27 mai 1920, *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. IX, p. 349 .

(187) Weizmann à la commission sioniste, le 6 juin 1920, *ibid.*, vol. IX, pp. 352-353.

(188) Weizmann à Eder, le 8 juin 1920, *ibid.*, vol. IX, pp. 354-338.

(189) *ibid.*, vol. IX, pp. 362-365.

(190) 7 juin 1920, PRO FO 371/5204. Allenby au Foreign Office.

(191) Le 17 juin 1920, PRO FO 371/5204. War Office au Foreign Office.

(192) 14 juin 1920, FO 371/5204/48.

(193) 10 juin 1920, FO 371/5205/5.

(194) PRO FO 371/5120.

(195) 16 juin 1920, PRO FO 371/5120/182.

(196)19 juin 1920, Faysal à Curzon par l'intermédiaire d'Allenby, Woodward et Butler, *Documents ... , op. cit.*, vol. XIiI, pp. 289 et suivantes. ---

(197) Woodward et Butler, *Documents ... , op. cit.*, vol. XIII, pp. 290 et suivantes.

(198) FO 371/5205/129.

(199) 26 juin 1920, Samuel à Curzon, Woodward et Butler, *Documents ... , op, cit.*, vol. XIII, p. 297.

(200) 29 juin 1920, MAE, Levant, Palestine, ID, 54. Millerand à Gouraud.

(201) 26 juin 1920, PRO FO 371/5205/56. Samuel à Curzon.

(202) Bernard Wasserstein, *Herbert Samuel, a Political Life*, Oxford, Clarendon

Press, 1992, p. 247.

(203) PRO FO 371/5121/79.

(204) « It does not seem to have occurred to the Zionists that it is possible for an English official to have a personal dislike for a type and yet do his duty conscientiously in spite of it».

(205) En français dans le texte.

الفصل الثالث عشر
صمــويل، المُشرّع

(1) MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, III.

(2) MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, m. 165.,

(3) 12 juillet 1920. PRO FO 371/5121/24. Curzon à Samuel.

(4) 15 juillet 1920. PRO FO 371/5121. Samuel au Foreign Office.

(5) *Ibid.*

(6) 11 juillet 1920, PRO FO 371/5205/164. Curzon.

(7) 28 juillet 1920. Curzon à Graham, entretien avec Berthelot à Boulogne, Woodward et Butler. *Documents ... , op. cit.*, vol. XIII, pp. 320-322. 29 juillet, Curzon à Derby, entretien avec Paul Cambon, *ibid.*, pp. 322-323.

(٨) حول رحيل فيصل عن دمشق، انظر رواية دروزه الذي يرافقه، مذكرات، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٤٨١–٤٨٣.

(9) 31 juillet 1920, télégrammes de Samuel dans PRO FO 371/5038 et PRO FO 371/5036.

(10) 2 août 1920, PRO FO 371/5039. Samuel au Foreign Office.

(11) 2 août 1920, Allenby à Curzon, Woodward et Butler, *Documents ... , op. cit.*, vol. XIII. pp. 325-326.

(12) 6 août 1920. Curzon à Samuel. *ibid.*, p. 331.

(13) 7 août 1920. Samuel à Curzon, *ibid.*, pp. 333-334.

(14) 11 août 1920. Curzon à Samuel, *ibid.*, pp. 337-338.

(15) 12 août 1920, Samuel à Curzon, PRO FO 371/5039, PRO FO 371/5121/208.

(16) 14 août 1920, Samuel au Foreign Office. PRO FO 371/5122.

(17) 16 août 1920, Faysal à Samuel, PRO WO 106/199.

(18) 30 août 1920. *Record by Lord Hafdinge of a conversation with the French Chargé d'Affaires.* Woodward et Butler, *Documents ...*, *op. cit.*, vol. X III, pp. 344-345.

(19) 12 août 1920. PRO FO 371/5039, WO 106/1971. Samuel à Curzon ..

(20) MAE. Nantes, Beyrouth, 2329, sans date. Note sur l'attitude des autorités anglaises de Palestine.

(21) 22 août 1920, PRO FO 371/5122. WO 106/1971, Samuel à Curzon, Woodward et Butler. *Documents ... op. cit.*, vol. XIII. pp. 342-343.

(22) 26 août 1920. PRO FO 371/5122, Curzon à Samuel. *ibid.*, p. 344.

(23) 26 août 1920, PRO FO 371/5122. Chargé d'affaires français au Foreign Office.

(24) 31 août 1920, PRO WO 106/1971. Foreign Office à Samuel.

(25) Arrêté du 31 août 1920 entrant en vigueur le 1er septembre. Antoine Hokayem et Marie-Claude Bitar, *L'Empire ottoman. les Arabes et les Grandes Puissances, op. cit.* pp. 354-355.

(26) Livre essentiel sur ce sujet: M. Mossek. *British Immigration Policy under Sir Herbert Samuel,* Londres. Frank Casso 1978.

(27) *A Survey of Palestine prepared in December* 1945 *and January* 1946 *for the information of the Anglo-American Committe of Inquiry*. Washington, Reprint Institute of Palestinian Studies. 1991,1. p. 185.

(28) 3 septembre 1920, PRO FO 371/5139. Samuel au Foreign Office.

(29) 7 septembre 1920, PRO FO 371/5139. Foreign Office à Samuel.

(30) 1,3 septembre 1920, PRO FO 371/5123/59. Rapport politique n° 2 de sir

Herbert Samuel.

(31) 27 septembre 1920. FO 371/5123/59. Deedes à sir J. Tilley: « The immediate inauguration of the new regime with Sir Herbert as High Commissioner was not followed by a wholesale expropriation of rights and interests of one section of the population for the sake of another and all Sir Herbert's statements and actions have shown that it is not the intention that there should be».

(32) Compte-rendu le 10 octobre dans PRO FO 371/5123/212. Samuel à Curzon.

إن انعقاد جمعية لا يمثل المسلمون فيها غير نسبة ٤٠% من الأعضاء في حين أنهم يشكلون نسبة ٧٠% على الأقل من السكان إنما يثير احتجاج مونتاجو، من باب العداء للصهيونية كما من باب الحرص على السياسة الإسلامية على حدّ سواء. ويعلق هربرت يانج منكِراً بأن المجلس ليس نيابيًا وبأن تصريح بلفور يلزم بريطانيا العظمى بجعل فلسطين مقاماً قوميًا يهوديًا. فيتولى كيرزون تصويب زعمه، مشيراً إلى أن التصريح إنما يتحدث عن إيجاد مقام قومي في فلسطين، وهو ما لا يعني الشيء نفسه بالمرة:

26-29 novembre. PRO FO 371/5124

أمّا الفاتيكان فهو يحتج على تقسيم السكان إلى مسلمين ويهود ومسيحيين. فضمن هذا الإطار، يجري التضحية بالكاثوليك على نحو منهجي لصالح الأرثوذكس عندما يكون ممثل المسيحيين فرداً واحداً.

13 septembre 1920, Gasparri à Salis. PRO FO 371/5123.

(33) 10 octobre 1920. PRO FO 371/512~/2. Deedes à Tilley.

(34) 25 octobre 1920, PRO FO 371/5124, Deedes à Tilley.

(35) 12 octobre 1920. Samuel à Curzon, Woodward et Butler. *Documents ... , op. cit.*, vol. xm. pp. 356-358.

(36) 19 octobre 1920, MAE. Levant. Palestine. 1918-1929. III. 122, voir texte en exergue du chapitre.

(37) 20 octobre 1920. PRO FO 371/5123/175.

(38) En français dans le texte.

(39) 1er novembre 1920. PRO FO 371/5124. Deedes à Tilley.

(40) 8 novembre 1920, PRO FO 37 1/512~/50, Foreign Office à Samuel.

(41) PRO FO 371/5124.

(42) 20 novembre 1920. PRO FO 371/5124/101. Samuel à Curzon.

(43) 8 novembre 1920. FO 371/512~/115.

(44) 2 août 1920. Vansittart à Curzon. Woodward et Butler, *Documents ... , op. cit.*, vol. XIII, pp. 327-330,

(45) Weizmann'à Curzon, *The Letters and Papers. op. cit.*, vol. X. pp. 14-16.

(46) 7 septembre. Forbes Adams à Tilley, Doreen Ingrams. *Palestine Papers 1917-1922. Seeds of Conflict.* Londres. John Murray. 1972. p. 100.

(47) *Ibid* . pp. 98-100.

(48) 24 septembre 1920. Weizmann à Balfour, *The Letters and Papers. op. cit.*, vol. X. p.43.

(49) 1er octobre 1920, Weizmann à Balfour. *ibid* .• vol. X. pp. 52-53.

(50) II octobre 1920, Weizmann à Balfour. *ibid.*, pp. 57-59.

(51) 14 octobre 1920, Geddes à Curzon. Woodward et Butler. *Documents ... op. cit.*, vol. XIII. p. 358.

(52) *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. X. pp. 91-95.

(53) Doreen Ingrams. *Palestine Papers ... op, cit.*, pp.1 02-1 03.

(54) 17 octobre 1920, Weizmann à Simon. *The Letters and Papers, op. cit* . vol. X, pp.64-65.

(55) 30 septembre 1920. Curzon à Vansittart. Woodward et Butler. *Documents ... . op. cit.*, vol. xiii, pp. 349-352.

(56) 16 octobre 1920. Curzon à Vansirtart. *ibid.*, pp. 359-363.

(57) 8 novembre 1920, Curzon à Weizrnarm, *ibid.*, vol. xiii, pp. 381-382.

(58) 9 novembre 1920, Curzon à Vansittart. *ibid.*, p. 382.

(59) 13 novembre 1920. Vansittart à Curzon, *ibid.*, pp. 384-387.

(60) En français dans le texte.

(61) En français dans le texte.

(62) En français dans le texte.

(63) Vansittart à Curzon, Woodward et Butler, *Documents* ... , *op. cit.*, vol. xiii, pp 390- 391.

(64) 14 novembre 1920, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, III, 159 .

(65) 16 novembre 1920, Curzon à Derby, Woodward et Butler, *Documents* ... , *op. cit.*, vol. XIII, pp. 388-390.

(66) John J. McTague Jr., « Anglo-French Negotiations over the Boundaries of Palestine. 1919-1920 », *Journal of Palestine Studies*, vol. XI, n° 2, winter 1982, issue 42, pp. 100-112.

(67) Martin Gilbert, *World in Torment, Winston S. Churchill*, 1917-1922, Londres, Minerva, 1990, pp. 507-510.

(68) Source principale, le livre déjà cité de Ben Halpern, *A Clash of Heroes. Brandeis, Weizmann and American Zionism.*

(69) Voir aussi l'introduction au volume X des *Letters* de Weizmann par Bernard Wasserstein.

(70) 8-10 août 1920, Weizmann à Samuel, The *Letters and Papers*. *op. cit.*, vol. X, pp. 7-10.

(٧١) انظر رسالة فايتسمان البرنامجية إلى أبراهام تـولين بنيويـورك والمؤرخـة فـي ٢٢-٣١ أغسطس/ آب ١٩٢٠، حيث يبين أوجه الخلاف بين استيطان كنـدا واسـتيطان فلسطين. *Ibid.*, vol. X, pp.24-35.

(72) *Ibid.*, vol. X, pp. 128-137.

(73) 21 avril 1921, To the Jews of America, *ibid.*, vol. X, pp. 177-79 ..

(74) 25 avril 1921, To Zionist Organizations in the USA, *ibid.*, pp. 185-186.

(75) 6 décembre 1920, PRO FO 371/5125/23. Rapport pour le mois de novembre.

(76) PRO FO 371/5125. PRO WO 106 205.

(٧٧) المحضر بالكامل بالعربية للجلسات التسع في وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر، مصدر سبق ذكره، ص ص ٤٢-٥٨.

(٧٨) وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية، ١٩١٨-١٩٣٩، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٦.

(79) 1er janvier 1921, PRO WO 106/205. Rapport pour le mois de décembre.

(80) SS Marine Q 84, janvier 1921, les Palestiniens et les sionistes.

ترى أجهزة الاستخبارات الفرنسية بلاشفة في الصفوف العربية كما في الصفوف الصهيونية على حدّ سواء.

(81) 1er février 1921, PRO WO 106205. Rapport politique pour le mois de janvier 1921.

(82) 12 février 1921, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, XV, 24.

(83) Exemple dans MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, XV, 62. *Haaretz* , le 30 janvier 1921, « Notre situation ».

(٨٤) هذا المفهوم جد قوي في اللغة السياسية آنذاك. وكان ذلك هو المصطلح الذي استخدم ضد عبد الحميد ثم ضد جماعة تركيا الفتاة.

(85) SS Marine Q 82, Beyrouth le 15 mars 1921, Service d'information de la marine dans le Levant, *Bulletin politique* n° 5.

(86) PRO WO 106/205.

(87) PRO WO 106/208.

(88) Dossier sur ces questions en PRO CO 733/10.

(89) PRO WO 106/208 et PRO CO 733/1/242. Rapport sur la situation politique du mois de février.

(90) 11 février 1921, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, III, 234.

(91) 16 janvier 1921, MAE, Arabie, Hedjaz, 1918-1929, XII, 27.

(92) 23 décembre 1920, rencontre Tilley-Faysal au Foreign Office, Woodward et Butler, *Documents ... , op. cit.*, vol. XIII, pp. 422-424.

(93) 17 janvier 1921, T. E. Lawrence à Churchill, Martin Gilbert. *World in*

Torment..., *op. cit.*, pp. 515-516.

(94) Samuel à Curzon, PRO CO 733/13/349.

(95) Zeev Sternhell, *Aux origines d'Israël, entre nationalisme et socialisme*, Paris, Fayard, 1996; Ze'ev Tzahor, «The Histadrut», in Jehuda Reinharz and Anita Shapira, *Essential Papers on Zionism*, Londres, Cassel, 1996, pp. 473-508.

(96) 3 avril 1922, Churchill à Samuel. PRO CO 733119/559.

(97) SS Marine Q 82, Beyrouth le 15 mars 1921, Service d'information de la marine dans le Levant, *Bulletin politique* n° 5.

(98) Elkana Margalit, « Social and Intellectual Origins of the Hashomer Hatzair Youth Movement, 1913-1920 », in Jehuda Reinharz and Anita Shapira, *Essential Papers on Zionism*, *op. cif.*, pp. 454-472.

(99) Martin Gilbert, *World in Torment ...*, *op. cit.*, pp. 540-541.

(100) Sur ces questions, Michael J. Cohen, *Churchill and the Jews*. Londres, Frank Cass, 1985.

(101) Aaron S. Klieman, *Foundations of British Policy in the Arab World: the Cairo Conference of 1921*, Baltimore et Londres, The Johns Hopkins Press, 1970.

(١٠٢) فيما يتعلق بالوفد الفلسطيني، انظر دروزه، مذكرات، مرجع سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٤٩٦-٤٩٧.

(103) Mars 1921. SS Marine Q 84, SIL n° 169. La délégation palestinienne au Caire.

(104) SS Marine Q 84, SIL, nO 192. Entre la delegation palestinienne et le parti de l'Union syrienne.

(105) PRO WO 106/205, PRO CO 733/2/43. Rapport politique pour le mois de mars 1921.

(106) 15 avril 1921, PRO CO 733/17A1281. Deedes à Young.

(107) PRO CO 733/3/164. Rapport politique pour le mois d'aHiI 1921.

(١٠٨) حول موقع آل الحسيني في تنظيم عيد النبي موسى، انظـر، دروزه، مـذكرات، مرجع سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٧٦٤-٧٦٦. وكان آل الدجاني (الذين كـانوا يسمون أيضاً بالداوودية) ينظمون عيد النبي داوود، بينما كان آل العلمي ينظمـون عيـد النبي شموئيل (ص ص ٧٦٣-٧٦٤)، أي صمويل. والحال أن كون العـائلات الـثلاث الكبرى في القدس الحائزة التقليدية لهذه الأدوار إنما يسمح بفهم السهولة التي تمكنت بهـا من مد نفوذها إلى مجمل فلسطين. وهذا كاشف لأهمية التـراث اليهـودي فـي الثقافـة والشخصية الفلسطينيتين.

(109) 28 avril 1921, PRO CO 733/17A1285. Young à Deedes.

(110) 29 avril 1921, PRO CO 733/17A1288. Deedes à Young.

(111) PRO CO 733/17A1319.

(112) En français dans le texte ..

(113) Anita Shapira, « "Black Night - White Snow" : Attitudes of the Palestinian Labor Movement to the Russian Revolution, 1917-1929 », in Jehuda Reinharz et Anita Shapira, *Essential Papers on Zionism, op. cit.*, pp. 509-543.

(114) PRO FO 371/5115. Secret Intelligence Service Political Reports.

(115) 2 mai 1921, PRO CO 733/3/33.

(116) 5 mai 1921, MAE, E Levant, Palestine, XV. 148 et suivantes. Le premier drogman de la Chancellerie de Jaffa à M. Rais, Consul général de France en Palestine à Jérusalem. Troubles et massacres de Jaffa ..

(١١٧) قدّم الترجمان فحواه: "تجري دعوة كل العمال، في البيان، إلى الإضـراب العـام بمناسبة الأول من مايو/ أيّار؛ كما يجري الثناء على التضامن مع الثورة الروسية والثورة العالمية: "أيها العمال والفلاحون العرب؛ مضى على الشرق زمن طويل وهو في سـبات عميق يستثمره الممولون المحليون والأجانب. وقد صحا من سباته وهب من يقظتـه. لأن الثورة الروسية قضت على جميع المخاوف وتألفت الجمهوريات الكثيرة في بلاد الجركس والتتر والأرمن والترك والعجم وكلها حرة بعيدة عن كل المؤثرات. وقد لا يمضي وقـت طويل حتى يخرج الشعب الهندي ظافرا من معركته مع انكلترا المستبدة ويؤلف جمهورية اشتراكية.

"جميع الشعوب التي تحررت والتي تتحرر الآن تدرك أن الصديق الحقيقي الذي يساعدهم ولا يخونهم قط هو الجمهورية الروسية الحالية.

"وقد أظهر مؤتمر باكو الذي اشترك فيه ألفا مندوب من جميع البلاد الشرقية هذه الحقيقة الناصعة. وفي هذا المؤتمر أقسم الجميع على الحرب في جانب روسيا إلى أن يتحرر الشرق وتتحرر جميع بلاد العالم.

"[...] إنكم تموتون جوعاً وشقاءً، وحياتكم لا قيمة لها لأن أغنياءكم يسبحون في دمائكم وينعمون في شقائكم وأنتم ساكتون. يعيش معكم العمال اليهود الذين لم يأتوا لاضطهادكم بل كي يعيشوا معكم وهم مستعدون للجهاد بجانبكم ضد هؤلاء الأعداء الماليين من اليهود والعرب والانكليز.

"إن البلاد معطلة، لا زرع فيها ولا عمل. ولكن إذا كانت ملكاً للذين يحرثونها ويزرعونها ويستثمرونها، فإنها تكفي الجميع.

"وإذا كان أصحاب الأموال يدفعونكم ضد العمال اليهود حتى يأمنوا من تعديكم عليهم فهل تبقون على خطئكم هذا؟ إن هذا العامل اليهودي، جندي الثورة، جاء يمد يده إلى أيديكم كزميل لكم لمقاومة الماليين الانكليز واليهود والعرب. ومصيركم واحد في الحرية أم في الاضطهاد. ولا تنتهي عذابات العمال والفلاحين إلاّ إذا تحرروا جميعاً من هذه العبودية الضاغطة عليهم". [عن الأصل العربي للبيان. م.]".

(118) *Paix et Droit*, mai 1921, Jaffa le 8 mai 1921.

(١١٩) دروزه، **مذكرات، مرجع سبق ذكره**، المجلد الأول، ص ص ٧٦٨-٧٦٩. انظر أيضاً **موسوعة المدن الفلسطينية**، دمشق، دائرة الثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٩٠، مقال "الرمله"، وخاصة ص ٣٦٠ (وصف مزاري النبيّين). ولا تتماشى التواريخ المقدّمة مع التواريخ التي أشار إليها دروزه، بيد أن هذا الأخير كان مسئولاً عن الأوقاف خلال عهد الانتداب ولديه دراية مباشرة بالموضوع.

(120) *Paix et Droit*, mai 1921. 15 mai 1921.

(121) 11 mai 1921, PRO CO *733/17N334*. Rapport sur la situation dans le district de Tulkarem.

(122) MAE, Levant. Palestine, 1918-1929. IV, 48. Appel au monde civilisé imprimé en français.

(123) 13 mai 1921, PRO CO 733/13/599. Rapport du capitaine Brunton des renseignements, communiqué au gouvernement le 9 juin ..

(124) 8 mai 1921. PRO CO 733/3/153. samuel à Churchill.

(125) PRO CO 733/3/151.

(126) 12 mai 1921, PRO CO 733/13/557. Churchill à Samuel.

(127) 13 mai 1921, PRO CO 733/3/137. Samuel à Churchill.

(128) 18 mai 1921, PRO CO 733/17N307. Deedes à Young.

(129) Le rapport du lieutenant général Congreve commandant les troupes de Palestine, daté du 31 mai, va dans le même sens. PRO CO 733/3/494.

(130) Procès-verbal anglais en PRO CO 733/13/606.

المحضر بالعربية موجود في وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر، ص ص ٧٦-٨٦. دروزه، مذكرات، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٥١٠-٥١٣.

(131) *L'Asie française*, 1921, pp 385-386. *Paix et Droit*, juin 1921. Texte anglais dans FO 406/46.

(132) Correspondance à ce sujet entre Churchill et Curzon, CO 733/10, PRO CO 733/ 12/150.

(133) 4 juin 1921, Samuel à Churchill.

(134) *Paix et Droit*, juin 1921, texte anglais PRO IO 733/13.

(135) 15 juin 1921, PRO CO 733/4/623. Samuel à Churchill.

(136) «The conclusion is that a serious attempt must be made to arrive at an understanding with the opponents to the Zionist Policy, even at the cost of considerable sacrifices. The only alternative is a policy of coercion, which is wrong in principle and likely to prove unsuccessful in practice. »

(137) 5. juin 1921, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 94. Premier drogman chargé de la chancellerie de Jaffa à M. Rais, Consul Général et délégué du Haut Commissariat de France en Palestine et à Jérusalem.

(138) 23 juin 1921, PRO CO 733/4/61. Samuel à Churchill.

الفصل الرابع عشر
التوفيق المستحيل

(1) PRO CO 733/30/30.

(٢) حول مجمل إقامة الوفد في أوروبا، انظر دروزه، **مذكرات**، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٥٤٧-٥٥٧.

(٣) تقرير في **وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر**، ص ص ٩٤-٩٧.

(٤) تقرير بالعربية عن نشاطات الوفد، **المصدر السابق**، ص ص ٨٨-٩٤ و ١٠٥-١١٧.

(5) 20 juillet 1921. PRO CO 733/17 *A/535*. Note de Lawrence.

(6) 15 juin 1921. PRO CO 733/10. Count de Salis ..

(7) PRO CO 733/11.

(8) Le 16 septembre.

(9) *Fifty Years in Palestine. op. cit.*, p. 178.

(10) Compte-rendu en PRO CO 733/14/81.

(11) À Shmarya Levin, le 15 juillet 1921. *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. X, pp. 214217.

(12) Le 19 juillet 1921, *ibid.*, vol. X, pp. 218-222.

(13) Weizmann à Deedes, le 31 juillet 1921, *ibid.*, vol. X, pp. 234-239.
يجهل فايتسمان أن ديديس واحد من أنشط الداعين إلى فكرة المؤسسات التمثيلية.

(14) Martin Gilbert, *World in Torment ... , op. cit.*, pp. 623-624.

(١٥) تقرير في **وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر**، ص ص ١٢١-١٢٦. من الغريب أن چلبير يقدم تاريخ ١٥ أغسطس/ آب.

(16) *Fifty Years in Palestine. op. cit.*, pp. 178-180.

(17) PRO CO 733/14/158.

(١٨) تقرير في وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، من أوراق أكرم زعيتر، ص ص ١٢٨-١٣٦.

(19) « The Jews are people whose history from immemorial time has been very closely intermingled with that of the Arabs, and often in the most amicable manner. All history shows the relationship of these two races. It is no good pretending that you are more closely united to the Christians than to the Jews. That is not so. A wider gulf separates us from you than separates you from the Jews. I am talking of the Semite race ».

(٢٠) تقرير في وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، من أوراق أكرم زعيتر، ص ص ١٣٦-١٣٩.

(٢١) النص موجود في وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، من أوراق أكرم زعيتر، ص ص ١٤١-١٤٢.

(22) Réunion du 19 juillet 1921 en PRO CO 733/4/558.

(23) PRO CO 733/6. Rapport politique pour le mois d'août 1921.

(24) Ouvrage de référence pour toute la période du mandat, Uri M. Kupferschmidt, *The Supreme Muslim Council, Islam under the British Mandate for Palestine*, Leiden, E.J. Brill, 1987.

(25) Terme anglais dont le choix vient d'Égypte, où le français et non l'anglais était langue administrative.

يرمز اتخاذ هذا اللقب إلى القطيعة مع الهيراركية الدينية العثمانية.

(26) Procès-verbal en PRO CO 733/36. Voir aussi les différents numéros de *L'Univers israélite*.

(27) *Papers ... , op. cit.*, vol. I, pp. 324-333.

(٢٨) الترجمة الإنجليزية (الأصل بالألمانية):

« England with her comprehensive far-sightedness, perhaps for reasons which I will indicate, understood sooner and better than any other nation that the Jewish

question, which hangs like a shadow over the whole world, can become a gigantic force of construction or a mighty instrument of destruction. And England understood - perhaps we contributed a little to her understanding - that the utilisation of Jewish goodwill and diversion of Jewish contructive force to Palestine would be of enormous use. » *L'Univers israélite* omet l'expression «instrument de destruction»...

(٢٩) مجمل الملف حول مؤتمر جنيف وجود في وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر، ص ص ١٤٠-١٧٠.

(30) Henry Laurens, *L'Orienr arabe, arabisme el islamisme de 1798 à 1945. op. cit.*, p.287.

(31) 29 septembre 1921. PRO CO 733/6. Samuel à Churchill.

(32) Sur Abdallah, l'ouvrage de référence est celui de Mary C. Wilson. *King Abdullah. Britain and The making of Jordan.* Cambridge. Cambridge University Press, 1987.

(٣٣) حول العلاقات مع عبد الله والقوميين، انظر دروزه، مذكرات، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٥٠٣-٥٠٦.

(٣٤) محقين من جهة أخرى، انظر دروزة، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ص ٣٧١-٣٧٢.

(35) 30 septembre 1921, PRO CO *733117B/673.* Young (qui séjourne en Palestine) à Shuckburgh.

(36) 24 octobre 1921, PRO CO 733/7/197. Rapport de Lawrence sur la situation en Transjordanie.

(37) Sur Lawrence, en dehors de la grande biographie déjà cité de Jeremy Wilson. voir Henry Laurens, *Lawrence en Arabie*, Paris. Gallimard, coll. « Découverte », 1993; pour Philby, Elisabeth Monroe, *Philby of Arabia*, Londres, 1973.

(38) Original en PRO CO 733/5.

(39) 5 octobre 1921. PRO CO 733/17B/688. Young à Shuckburgh. 7 octobre 1921,

PRO CO 733/17BI705. Le même au même.

(40) 11 octobre 1921, PRO CO 733/ 17B/ 712. Young à Shuckburgh.

(41) CO 733/6.

(42) 21 octobre, PRO CO 733/17B/685. Churchill à Shuckburgh.

(43) PRO CO 733/7/206. Rapport sur la situation politique du mois d'octobre 1921

(44) 27 octobre 1921, Weizmann à Meinertzhagen, *The Letters and Papers, op. cit.* vol. X, p. 269.

(45) 29 décembre 1921, PRO CO 733/8/557. Samuel à Churchill.

نبذة بيوجرافية في دروزه، مذكرات، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ص ٥١٤-٥١٧.

(46) MAE, Levant, Palestine. 1918-1929, XVI, 79. Consul de France à Jérusalem. Notes sur les événements du 2 novembre 1921.

(47) *Paix et Droit,* novembre 1921, « Les troubles de Jérusalem.»

(48) PRO CO 733/8/127. Rapport sur la situation politique au mois de novembre 1921.

(49) Doreen Ingrams. *Palestine Papers* , *op. cit.*, pp. 154-157.

(50) Martin Gilbert, *World in Torment* , *op. cit.*, pp. 634-635, sur les exactions des *Blacks and Tars.* voir pp. 458-464.

ثابر ونستون تشرشل على الدفاع عن هؤلاء البلطجية وثابَر على توفير غطاء لأعمالهم عندما كان مسئولاً عن وزارة الحربية. وكان يعتبر الانتفاضة الأيرلندية عنصراً من عناصر مؤامرة دولية ضد بريطانيا العظمى تتجلى أيضاً في الهند كما في مصر على حدٍّ سواء.

(51) Doreen Ingrams. *Palestine Papers ...* , *op. cit.*, pp. 157-159.

(52) « In the case of Palestine these sympathies are rather obviously with the Arabs, who have hitherto appeared to the disinterested observer to have been the victims of an unjust policy, forced upon them by the British Government.»

(53) Martin Gilbert, *World in Torment ...* , *op. cit.*, p. 641.

(54) PRO CO 733/16/532.

(55) Neil Caplan, *Futile Diplomacy, op. cit.*, يقدم التقارير الثلاثة، البريطاني والصهيوني والعربي؛ وهذا الأخير هو الأوفى (I, pp. 168-190). والنص العربي الأصلي موجود في وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر، ص ص ١٨٤-١٨٦.

(56) Weizmann à Eder, le 8 décembre 1921. *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. X, pp.317-320.

(57) PRO CO 733/17B/656. Texte non signalé dans la correspondance.

(58) *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. X, pp. 327-333.

(59) PRO CO 733/8/614. Rapport sur la situation politique au mois de décembre 1921.

(60) 15 décembre 1921, PRO CO 733/8/296. Samuel à Churchill.

(61) 16 décembre 1921, MAE. Levant, Palestine, 1918-1929, XVI, 129.

(62) 20 janvier 1922, PRO CO 733/18/181. Samuel à Churchill.

(63) Neil Caplan, *Palestine Jewry ... , op. cit.*, pp. 98-133.

(64) 30 janvier 1922, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, XVI, 190.

(65) 1[er] février 1922, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, V, 30-31.

(66) 9 février 1922, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, XVI, 16.

(67) PRO CO 733/19/588. Rapport sur la situation politique au mois de février 1922.

(68) 15 février 1922, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 94. Le Consul de France à Caïffa à M. le Haut-Commissaire de la République en Syrie et au Liban.

(69) PRO CO 733/20/517. Rapport sur la situation politique au mois de mars 1922.

(70) 14 mars 1922. MAE. Nantes, Jérusalem, B, 94. Premier drogman chargé de la chancellerie de Jaffa à M. Rais, Consul Général et délégué du Haut-Commissariat de France en Palestine et à Jérusalem.

(71) 17 mars 1922, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 94. Drogman chargé de la chancellerie de Jaffa à M. le Consul Général de France en Palestine, Jérusalem.

(72) MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, V, 260.

(73) PRO CO 733/21/423. Rapport sur la situation politique au mois d'avril 1922: « One of many symptoms of a general tendency noticeable in all field of activity, religious, educational, economic as well as political, towards the attainment of an increased measure of cohesion and solidarity particularly among the Moslems. In the religious and educational fields, the establishment of the Supreme Moslem Council has both stimulated effort and made it effective. »

(74) PRO CO 733/21/428. Rapport sur le Nabi Musa de 1922.

(75) 12 avril 1922, MAE, Nantes, Jérusalem, B. 94. Premier drogman chargé de la chancellerie de Jaffa à M. le Consul Général de France en Palestine, Jérusalem.

(76) 11 janvier 1922, MAE, Nantes, Jérusalem, 100.

(77) 15 janvier 1922, MAE, Nantes, Beyrouth, 2499. Consul Général, Jérusalem, à Haut- Commissaire, Beyrouth.

(78) 26 avril 1922, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, V, 174.

(79) PRO CO 733/22/385. Rapport politique pour le mois de mai 1922.

(80) « On one a design was depicted of this portion of the Sanctuary which, with the neighbouring ground, was indicated as the first piece of former Jewish property to be reoccupied by the Jews. »

(81) 24 mai 1922, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, V; MAE, Nantes, Jérusalem, B, 94.

(82) 2 mai 1922, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 94.

(83) Youssef Courbage et Philippe Fargues, *Chrétiens et Juifs dans l'islam arabe et turc*, Paris, Fayard, 1992, p. 269.

(84) *Survey* of *Palestine*, I, p. 144.

(85) Par exemple 6 janvier 1922, PRO CO 733/29.

(86) Martin Gilbert, *World in Torment ...* , *op. cit.*, p. 643.

(87) 4 février 1922, PRO CO 733/36/7.

(88) 8 février 1922, PRO CO 733/33.

(89) 11 février 1922, PRO CO 733/36/38.

(٩٠) وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر، ص ص ٢١٦-٢١٨.

(91) 21 février 1922, PRO CO 733/36/39. Churchill à Samuel.

(٩٢) وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر، ص ص ٢١٨-٢٢٢.
كما يوجد الردّ في المطبوعة الرسمية:

Palestine. Correspondence with the Palestine Arab Delegation and the Zionist Organisation. Presented to Parliament by Command of His Majesty, juin 1922.

(٩٣) وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر، ص ص ٢٢٢-٢٢٣.

(94) PRO CO 733/30/236. PRO FO 406/49; MAE, SDN, DCXVI, 87.

(٩٥) النص الإنجليزي "people".

(96) 3 avril 1922, Weizmann à Joseph Cowen, *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. XI, pp. 76-77. Voir aussi 13 avril 1922, Salis à Curzon, PRO. CO 733/30/233, FO 406/49.

(97) 16 mars 1920, PRO CO 733/36/81.

(98) « The question is, does this definition cover Palestine or does it not? This Department has always taken the view that it does. The Foreign Office are rather less positive on the point. »

(99) « He emphatically declares that it was his intention "to exclude Palestine as from independent Arabia"; and that he meant so to word his letter of October 1915 as to make this as sufficiently clear for all practical purposes. »

(100) Le dossier se trouve dans Neil Caplan *Futile Diplomacy, op. cit.*, 1, pp. 54-61 et pp. 191-203; Ascher Saphir, *United or Partition*, Jérusalem, 1937; MAE, Nantes, Jérusalem, B, 129; PRO CO 733/30/30.

(١٠١) انظر النص الذي يتصدر الفصل.

(102) 13 avril 1922, PRO CO 733/30/186. Shuckburgh à Weizmann. Voir aussi Shuckburgh à Deedes, même date, PRO CO 733/30/190.

(103) 16 mai 1922, lvlAE, Levant, Palestine, 1918-1929, IX, 183. Poincaré à délégué français à la Société des Nations:

"يؤكد لي السادة مونزي وبلوم وموتيه أن السيد ڤايتسمان والصهيونيين عازمون تماماً على تعيين رئيس فرنسي لـــ [لجنة] الأماكن المقدسة.

(104) 15 juin 1922, MAE, SDN, DCXVI, 130.

(105) 105. 21 avril 1922, PRO CO 733/21/185 .

(١٠٦) يقدم *Survey* عام ١٩٤٦ بالنسبة لأعوام ١٩٢٢-١٩٢٥ نسبة ٢,٣٢٧ % [بالنسبة للمسلمين] ونسبة ٢,٠١٦% [بالنسبة للمسيحيين] ونسبة ٢,٠٤٤% [بالنسبة لليهود]

(1. p. 144.)

(107) Sources: Bassma Kodmani-Darwish, *La Diaspora palestinienne*, Paris, PUF. p.251; Youssef Courbage et Philippes Fargues, *Chrétiens et Juifs ... , op. cit.*, p. 273.

(108) 3 mai 1922, PRO CO 733/30/317. Hurst à Malkin.

دار النقاش على هامش مؤتمر جنوه مع فروماجيه، الخبير الحقوقي لدى الكيه دورسيه.

(109) 10 mai 1922, PRO CO 733/30/396. Harvey (Washington) à Curzon.

(110) 9 mai 1922, PRO CO 733/30/391. Ambassade de France.

(111) 10 mai 1922. PRO CO 733/30/416. Poincaré à lord Hardinge (Paris).

(112) 11 mai 1922, PRO CO 733/30/428. Balfour au Cabinet.

(113) 12 mai 1922, MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, V, 207. Poincaré à Bourgeois.

(114) 26 avril 1922, PRO CO 733/34/93.

(115) 12 mai 1922, PRO CO 733/34/100.

(116) 13 mai 1922, MAE, SDN, DCXVI, 81. Clauzel à Goût.

(117) 17 mai 1922, MAE, SDN, DCXVI:100. Clauzel à Goût.

(118) 3 juin 1922, MAE, SDN, DCXVI, 120. Note sur une conversation de M. Weizmann avec des membres de la Commission des mandats.

(119) CO 733/30/440.

(120) « Remember that a Mandate is a self-imposed limitation by the conquerors on

the sovereignty which they exercise over conquered territories. »

(121) 17 mai 1922, MAE. SDN, DCXVI, 100. Clauzel à Goût.

(122) 27 mai 1922,MAE, SDN, DCXVI, 111. Jean Goût.

(123) MAE, Levant, Palestine, 1918-1929, XXI. MAE, Nantes, Jérusalem, B, 101.

(124) 17 juin 1922, Weizmann au Colonial Office, *The Letters and Papers, op. cit.*, vol. XI, pp. 117-118.

(125) *Ibid.*, pp. 126-128.

(126) PRO CO 733/36/170.

(127) «Nature does not allow the creation of a spirit of co-operation between two peoples so different, and it is not to be expected that the Arabs would bow to such a great injustice, or that the Zionists would so easily succeed in realising their dreams.»

(128) « The fact is that His Majesty's Government has placed itself in the position of a partisan in Palestine of a certain policy which the Arab cannot accept because it means his extinction sooner or later. Promises avail nothing when they are not supported by actions, and until we see a real practical change in the policy of His Majesty's Government we must harbour the fears that the intention is to create a Jewish National Home to the "disappearance or subordination of the Arabic population language, and culture in Palestine" ».

(129) MAE, Levant, Palestine, IV, 81. Jérusalem, le 18 juin 192·2, M. Rais, Consul Général de France.

(130) PRO CO 733/23/128. Rapport sur la situation politique au mois de juin 1922.

(١٣١) ٢ يوليو/ تموز ١٩٢٢، رسالة من الوفد الموفد إلى الحجاز إلى الوفد الموفد إلى لندن، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر، ص ٢٩٦.

(١٣٢) المصدر السابق، ص ص ٢٩٨-٣٠٠

(133) Martin Gilbert, *World in Torment ...* , *op. cit.*, pp. 648-662.

(134) 19 juin 1922, PRO CO 733/30/583.

(135) MAE, SDN, DCXVI, 134.

(136) PRO CO 733/31/27. MAE. SDN. DCXVI, 156.

(137) 6 juillet 1922, PRO CO 733/39/694. Samuel à Churchill.

(138) 7 juillet 1922, MAE, SDN, DCXVI, 240. Jonnart (Rome) à Paris.

(139) 4 juillet 1922, MAE, Nantes, Jérusalem B. 94. Jaffa, n° 254, Bertrand. communiqué à Beyrouth.

(140) 7 juillet 1922, MAE, Nantes, Jérusalem, B, 94. Premier drogman.

(141) Il juillet 1922, MAE, Nantes, Jérusalem, 101. Bulletin de Renseignements n° 2.

(142) PRO CO 733/24/64. Rapport sur la situation politique du mois de juillet 1922.

(143) PRO CO 733/23/289.

(144) MAE, SDN, DCXVI, 244.

(145) 13 juillet 1922, PRO CO 733/31/103. Ambassade de France en Angleterre à Sa Seigneurie le comte Balfour.

(146) 17 juillet 1922, MAE, SDN, DCXVII, 11. Poincaré à Rome et Londres.

(147) 17 juillet 1922, MAE, SDN, DCXVII, 13. Poincaré à Viviani.

(148) 18 juillet 1922, MAE, SDN, DCXVII, 15.

(149) PRO CO 733/35/99.

(150) 19 juillet 1922, MAE, SDN, DCXVII, 28.

(151) 19 juillet 1922, MAE. SDN, DCXVII. 37. Poincaré à Londres et Rome.

(152) 20 juillet 1922, MAE, SDN. DCXVIL 44. Jonnart à Poincaré.

(153) 20 juillet 1922, MAE, SDN, DCXVII. 42.

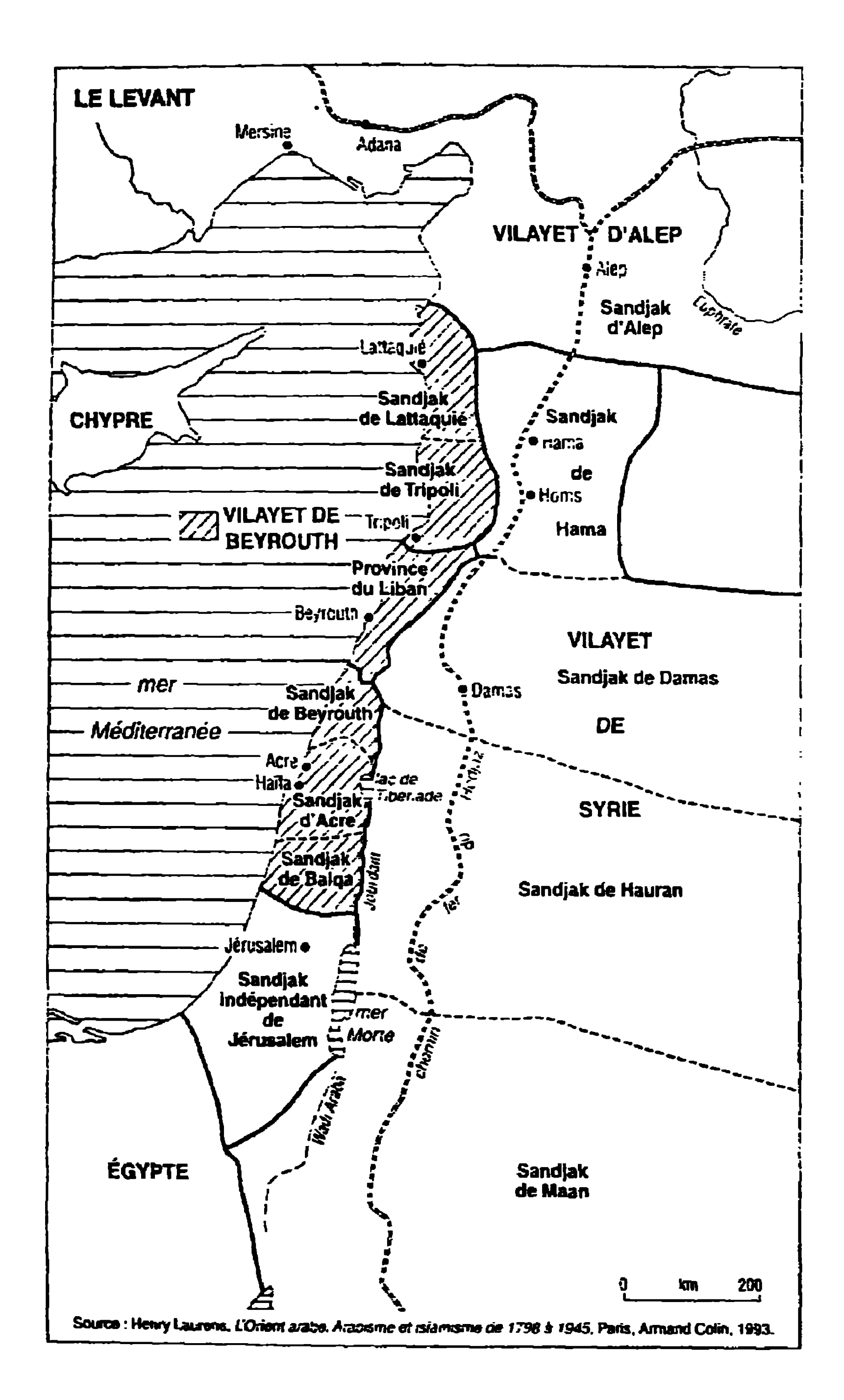
(154) 21 juillet 1922, MAE, SDN, DCXVII, 48. Viviani à Paris.

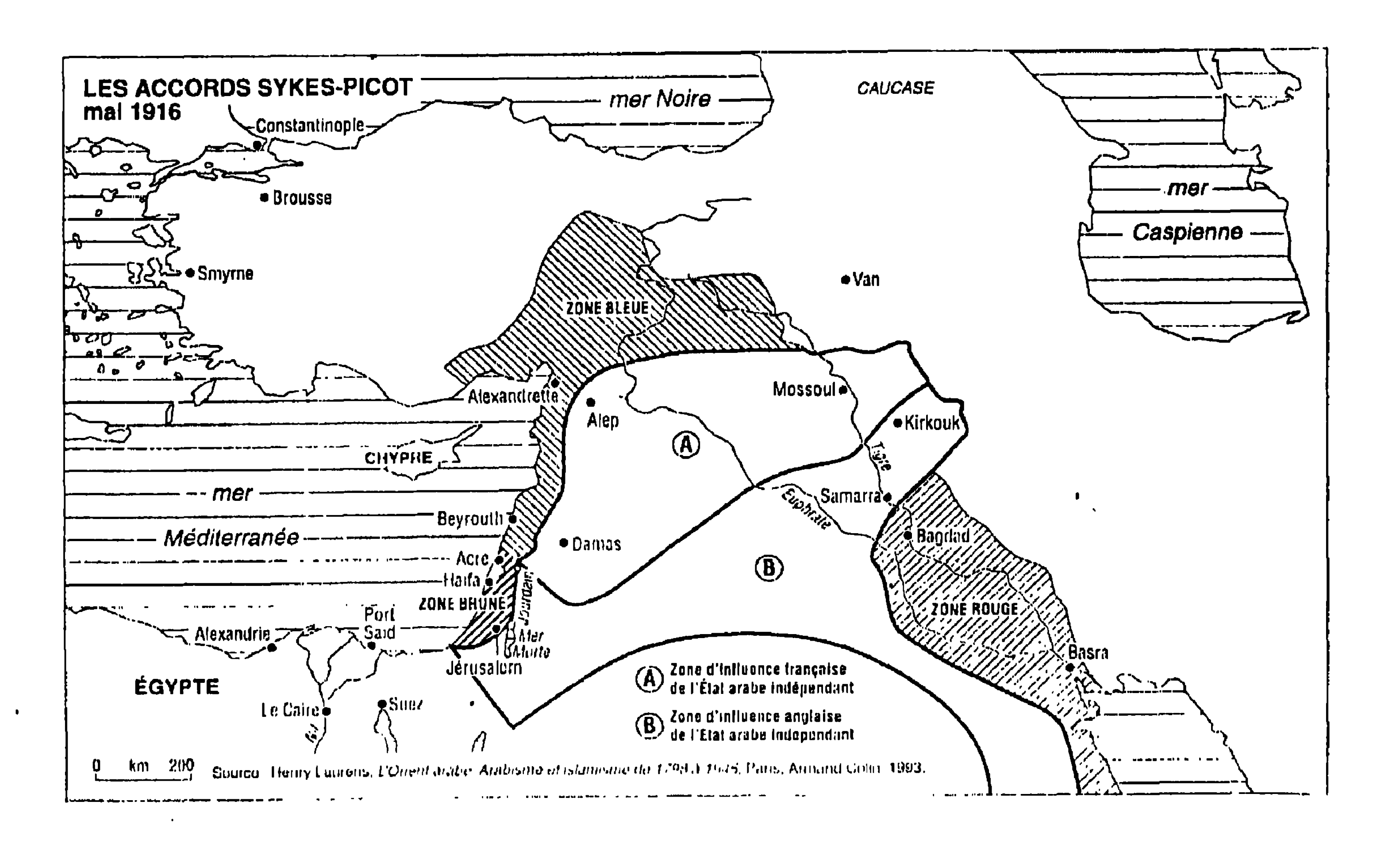
(155) 21 juillet 1922, MAE. SDN, DCXVII, 50. Viviani à Paris.

(156) PRO CO 733/31/418. MAE, SDN, DCXVII, 54.

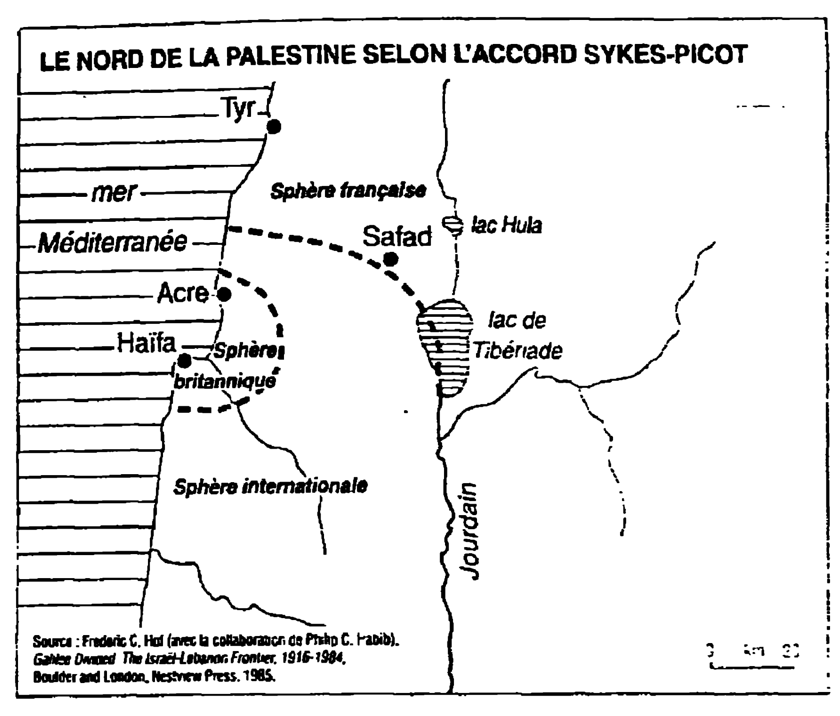
(157) MAE, Nantes, Jérusalem, B. 94; MAE, Levant, Palestine, 1918-1929. XXI.

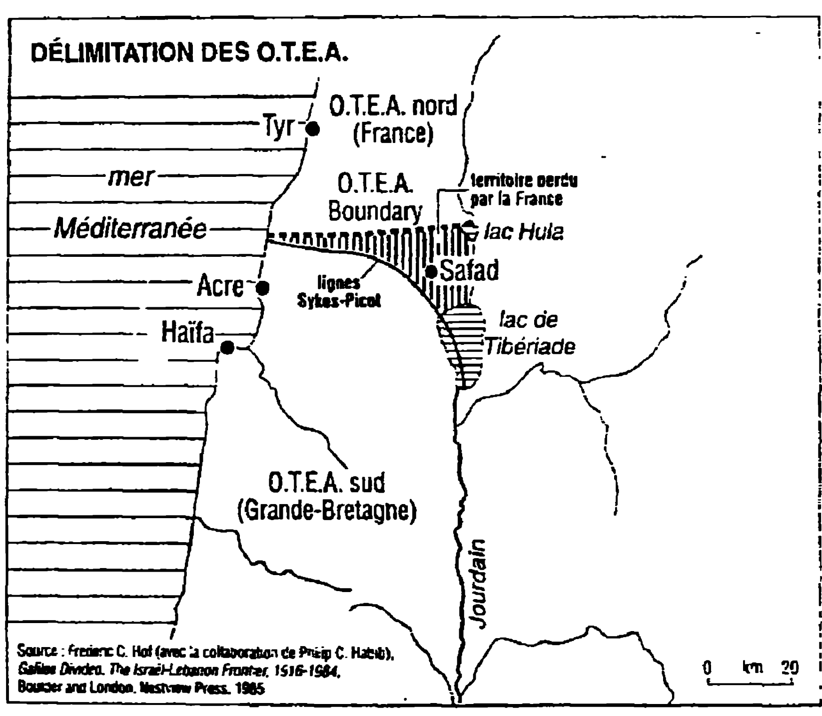
(158) Texte français dans *L'Asie française*, 1923, pp. 269-272.

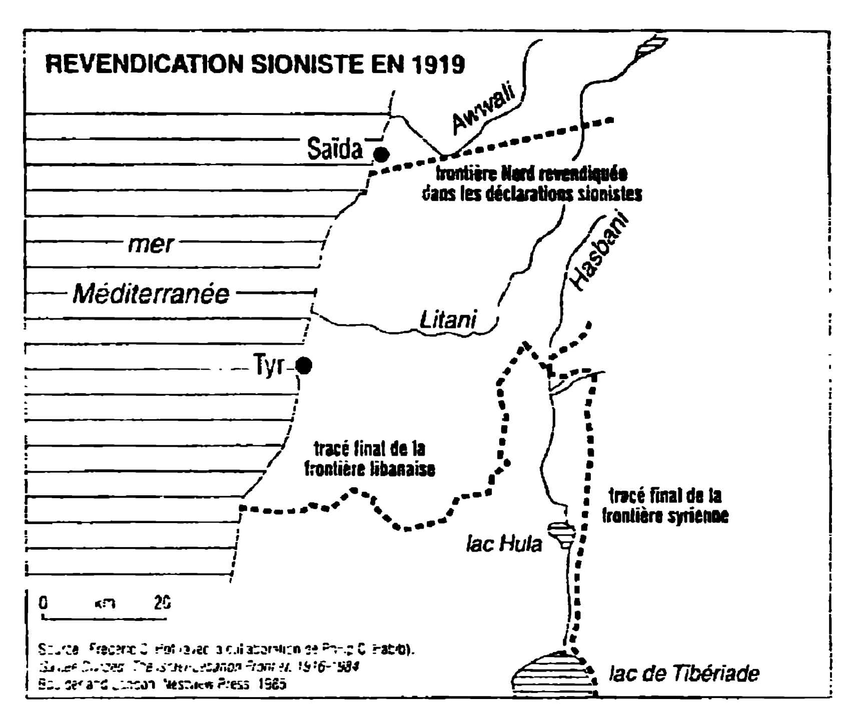

LE LEVANT
Mersine
Adana
VILAYET D'ALEP
Alep
Sandjak d'Alep
Euphrate
Lattaquié
Sandjak de Lattaquié
CHYPRE
Sandjak de Tripoli
Sandjak Hama de Homs Hama
Homs
VILAYET DE BEYROUTH
Tripoli
Province du Liban
Beyrouth
VILAYET DE SYRIE
Sandjak de Damas
Damas
mer Méditerranée
Sandjak de Beyrouth
Acre
Haïfa
lac de Tibériade
Sandjak d'Acre
Sandjak de Balqa
Jourdain
chemin de fer du Hedjaz
Sandjak de Hauran
Jérusalem
Sandjak indépendant de Jérusalem
mer Morte
Wadi Araba
ÉGYPTE
Sandjak de Maan
0 km 200
Source : Henry Laurens, L'Orient arabe. Arabisme et islamisme de 1798 à 1945, Paris, Armand Colin, 1993.

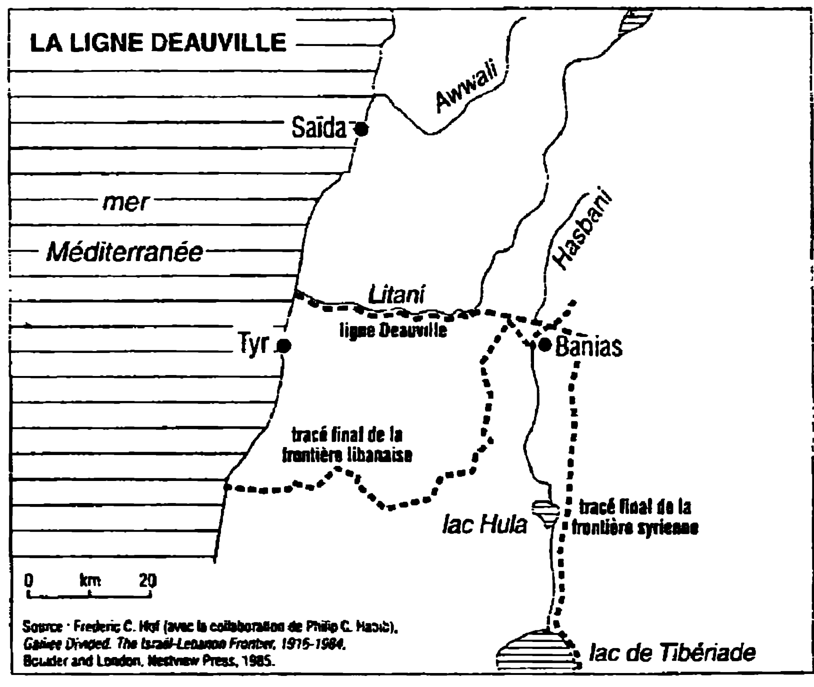


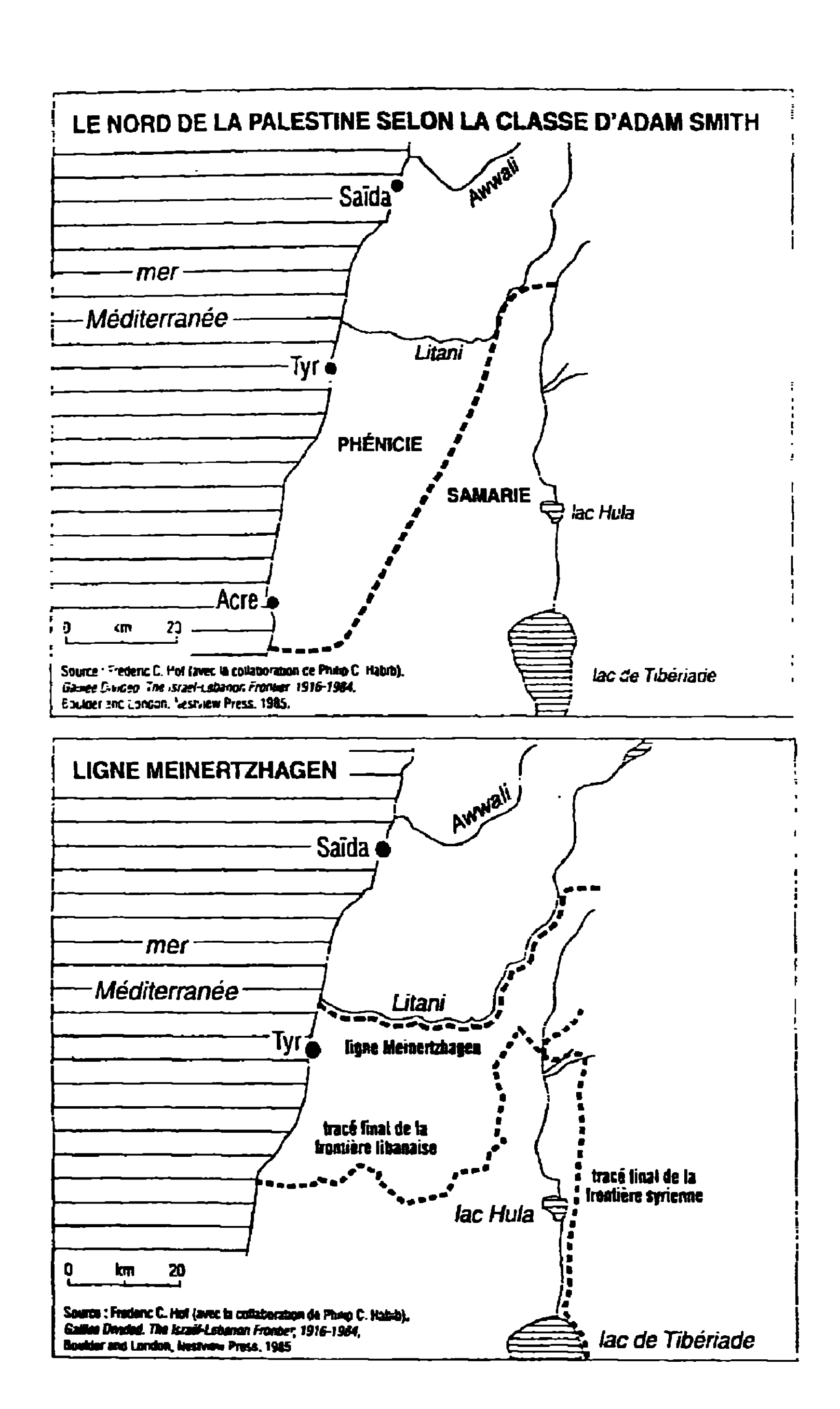
LES ACCORDS SYKES-PICOT
mai 1916
mer Noire
CAUCASE
mer
Caspienne
Constantinople
Brousse
Smyrne
Van
ZONE BLEUE
Alexandrette
Alep
Mossoul
Kirkouk
Tigre
Samarra
Euphrate
Bagdad
ZONE ROUGE
Basra
CHYPRE
mer
Méditerranée
Beyrouth
Damas
Acre
Haïfa
ZONE BRUNE
Jourdain
Mer Morte
Jérusalem
Port Saïd
Alexandrie
ÉGYPTE
Le Caire
Suez
Nil
Ⓐ Zone d'influence française de l'État arabe indépendant
Ⓑ Zone d'influence anglaise de l'État arabe indépendant
0 km 200
Source Henry Laurens, L'Orient arabe. Arabisme et islamisme de 1798 à 1945, Paris, Armand Colin 1993.


LE NORD DE LA PALESTINE SELON L'ACCORD SYKES-PICOT
Tyr
mer
Méditerranée
Sphère française
Safad
lac Hula
Acre
Haïfa
Sphère britannique
lac de Tibériade
Sphère internationale
Jourdain
Source : Frederic C. Hof (avec la collaboration de Philip C. Habib).
Galilee Divided. The Israël-Lebanon Frontier, 1916-1984,
Boulder and London, Westview Press, 1985.


DÉLIMITATION DES O.T.E.A.
Tyr
O.T.E.A. nord
(France)
mer
Méditerranée
O.T.E.A.
Boundary
territoire perdu
par la France
lac Hula
Safad
Acre
lignes
Sykes-Picot
Haïfa
lac de
Tibériade
O.T.E.A. sud
(Grande-Bretagne)
Jourdain
0 km 20
Source : Frederic C. Hof (avec la collaboration de Philip C. Habib).
Galilee Divided. The Israël-Lebanon Frontier, 1916-1984,
Boulder and London, Westview Press, 1985


REVENDICATION SIONISTE EN 1919
Awwali
Saïda
frontière Nord revendiquée
dans les déclarations sionistes
mer
Méditerranée
Hasbani
Litani
Tyr
tracé final de la
frontière libanaise
tracé final de la
frontière syrienne
lac Hula
lac de Tibériade
0 km 20


LA LIGNE DEAUVILLE
Awwali
Saïda
mer
Méditerranée
Hasbani
Litani
ligne Deauville
Tyr
Banias
tracé final de la
frontière libanaise
tracé final de la
frontière syrienne
lac Hula
lac de Tibériade
0 km 20
Source : Frederic C. Hof (avec la collaboration de Philip C. Habib),
Galilee Divided. The Israel-Lebanon Frontier, 1916-1984.
Boulder and London, Westview Press, 1985.


LE NORD DE LA PALESTINE SELON LA CLASSE D'ADAM SMITH
Awwali
Saïda
mer
Méditerranée
Litani
Tyr
PHÉNICIE
SAMARIE
lac Hula
Acre
lac de Tibériade
LIGNE MEINERTZHAGEN
Awwali
Saïda
mer
Méditerranée
Litani
Tyr
ligne Meinertzhagen
tracé final de la frontière libanaise
tracé final de la frontière syrienne
lac Hula
0 km 20
Source : Frederic C. Hof (avec la collaboration de Philip C. Habib).
Galilee Divided. The Israel-Lebanon Frontier, 1916-1984,
Boulder and London, Westview Press, 1985
lac de Tibériade

المحتويات

شكر وتقدير ٧

استهـــــلال: العام ١٧٩٩ ٩

الكتاب الأول

أوروبا تصوغ العالم وشرقٌ آخذٌ بالتحول

١٧٩٨ـ١٩١٤

الفصل الأول: تحرير يهود أوروبا ٢٣

الثورة الفرنسية واليهود٢٤، الخصائص العامة للتحرير٣٠، تحرير يهود أوروبا الغربية: الحالتان الإيطالية والألمانية٣٧، تشكل اليهودية الأميركية٣٩، اليهودية البريطانية٤١، يهودية أوروبا الشرقية٤٣، لمحة ديموغرافية موجزة٤٧

الفصل الثاني: فلسطين والتحولات العثمانية ٤٩

فلسطين في مستهل القرن التاسع عشر٥٠، الاحتلال المــصري٥٣، التـدخل الأوروبي٥٥، عودة النزعة الألفية البروتستانتية إلــى الظهــور٥٧، قـضيـة دمشـــق٥٩، رهان القدس٦٢، مسألة الأمـــاكن المقدســة٦٧، تحريـــر غيـــر المسلمين٦٩، التحـــالف الإســـرائيلي العـــالمي٧٤، تحـــولات فلـــسطين٧٨، الأوروبيون في فلسطين٨٧، شارل نيتّر ومدرسة يافـــا الزراعيـــة٩١، يهـــود فلسطين٩٥، فلسطين في مستهل العصر الحميدي٩٧، حصاد عصـــر١٠٣

الفصل الثالث: التضامن اليهودي ومعاداة السامية والصهيونيةً ١٠٥

مؤتمر برلين١٠٥، الأزمة المعادية للسامية في ثمانينات القرن التاسع عـــشر: أوروبا الغربية١٠٧، الأزمة المعادِية للسامية في ثمانينيات القرن التاسع عشر: أوروبا الشرقية١١٨، الهجرة الكبرى١١٩، تحولات اليهوديـــة الروســـية١٢٥، بدايات الصهيونية١٢٨، أحاد هاعام والصهيونية الروحية١٣٥

الفصل الرابع: فلسطين زمن العاليًا الأولى ١٣٩
بدايات العاليًا الأولى وعمل الإسرائيليين الفرنسيين١٣٩، ظهور إدمون دو روتشايلد على خشبة المســـــرح١٤٣، رد فعل السلطات١٤٧، المستوطنات الزراعية للعاليا الأولى١٥٢، تنظيم البيشوف١٦٠، استيطان دون استعمار؟١٦٥، المشرق الحميدي١٦٦، عبد الحميد والدول العظمى١٧٠، فلسطين الحميدية١٧٣، فلسطين الحميدية في العلاقات الدولية١٨٤

الفصل الخامس: تيودور هرتسل ونشأة الصهيونية السياسية ١٩٣
الفــرد والتــاريخ١٩٣، بحثًا عــن مُحَـاور١٩٥، دولـــة اليهـــود١٩٨، الاتصالات السياسية الأولى٢٠٢، مؤتمرا بال الأوّلان٢٠٦، هرتسل وألمانيـا الإمبراطورية٢١٥، لندن والقسطنطينية٢١٩، مذابح ١٩٠٣ ـ ١٩٠٦ والمسألة الأوغندية٢٢٩، المؤتمر الصهيوني السادس٢٣٤، أيام هرتسل الأخيرة٢٣٦

الفصل السادس: نشأة المسألة العربية ٢٤١
شرق أم غرب؟٢٤٢، ردود الفعل العربية الأولى والمواقف الصهيونية الأولى٢٤٤، توضيح أهداف الصهيونية٢٤٩، الترابيـــون٢٥٥، الصهيونية بعد موت هرتسل٢٥٨، العاليّـا الثانية وفلسطـين٢٦٢، حوادث يـافا٢٦٩، ثورة تركيا الفتـاة وفلسطين٢٧٤، استئناف التوتـرات٢٨٠

الفصل السابع: نشأة الرهـان الفلسطيني ٢٩١
جماعة تركيا الفتاة والصهيونيون٢٩٢، ابتكار نمط جديد للاسـتيطان الريفـي والمنجـزات الحضــــرية الأولى٣٠٠، الصهيونية الثقافيـة بـين فرنـسا وألمانيا٣١١، العرب والصهيونيون٣١٩، أثر حروب (١٩١١ـ١٩١٣)٣٢٦، تفاهم أم نزاع، ١٩١٣ـ١٩١٤؟٣٣٦، حصـاد عصـر٣٤٤

المحتويات

الكتاب الثاني
أصل فلسطين ما تحت الانتداب
١٩١٤ ـ ١٩٢٢

الفصل الثامن: الفرنسيون والإنجليز في الشرق الأدنى ٧

الفرنسيون والبريطانيون في مواجهة الحرب٨، فلسطين في الحرب١٣، نحو اقتسام الدولة العثمانية١٧، مراسلات حسين ـ ماكماهون٢٢، الفرنسيون والإنجليز٢٨، سايكس وبيكو٣٣، التمرد العربي٣٩، بدء فتح فلسطين٤٣.

الفصل التاسع: المسألة اليهودية في الحرب العالمية ٥٣

الصهيونية والمسألة اليهودية٥٤، الصهيونية الأميركية وألمانيا وفلسطين٥٨، إدراك الحلفاء للعامل اليهودي٦٣، دخول الصهيونية المسرح: فايتسمان٧٢، الاتصال بالصهيونيين٨٠، سوكولوف والفرنسيون٨٧، دخول الأميركيين المسرح٩٣، هزيمة اللجنة المشتركة٩٦، بعثة مورجنتاو٩٩، تصريح بلفور١٠٣، أصول تصريح بلفور١١٠.

الفصل العاشر: الاحتلال العسكري البريطاني ١١٥

دخول القدس١١٦، ردود الفعل الأولى على تصريح بلفور١٢٣، إيطاليا والفاتيكان وتصريح بلفور١٢٩، رسالة هوجارث١٣٠، ردود فعل جديدة على تصريح بلفور١٣٣، بدايات الإدارة العسكرية١٣٩، اليهود والعرب١٤٣، بدايات اللجنة الصهيونية١٤٩، اللجنة في القدس١٥٤، اللقاء الأول بين فايتسمان وفيصل١٥٨، منظورات بريطانية جديدة١٦٢، مستقبل فلسطين١٦٦، الانهيار العثماني١٧٣، نشأة الحياة السياسية في فلسطين١٧٦.

الفصل الحادي عشر: باريس والقدس ١٨١

القدس١٨٢، لويد جورج وكليمنصو١٩٠، تحديد السياسة البريطانية١٩٦،

فيصل في لندن٢٠١، كامبون وبلفور وكيرزون٢٠٨، سوريا في باريس٢١٣، الصهيونيون في باريس٢١٩، "نفي فرانكفورتر"٢٢٥، المؤتمر الفلسطيني الأول٢٢٦، اللجنة الدولية، الانتدابات، الأقليات والإسلام٢٣٣، اللجنة وفلسطين٢٤٣.

الفصل الثاني عشر: الـOETA ضد الصهيونية
معاداة الصهيونية ومعاداة السامية٢٥٥، بروتوكولات حكماء صهيون٢٥٧، الاحتجاجات الصهيونية٢٥٩، نحو اقتسام الشرق الأدنى٢٦٣، المعضلة البريطانية٢٧١، المملكة العربية٢٧٩، حدود فلسطين٢٨٦، النبي موسى عام ١٩٢٠ــ٢٩٠، سان ريمو٢٩٨، نهاية الأوإيتا٣٠٧. ٢٥٥

الفصل الثالث عشر: صمويل، المشرّع
بدايات السير هربرت صمويل٣١٨، إعادة تنظيم الإدارة ٣٢٣، ڤايتسمان وميثاق الانتداب٣٢٨، تحديد الحدود الشمالية٣٣١، ڤايتسمان وبرانديز٣٣٥، المؤتمر الفلسطيني العربي الثالث٣٣٩، بداية العاليًا الثالثة٣٤٦، زيارة تشرشل٣٤٩، نحو تغيير لاتجاه السياسة البريطانية٣٥٩، اضطرابات يافا٣٦٣، سياسة هربرت صمويل الجديدة٣٦٨. ٣١٧

الفصل الرابع عشر: التوفيق المستحيل٣٧٧
الوفد الفلسطيني٣٧٨، الخطوات الأولى نحو الحكم الحر٣٨٣، مؤتمر كارلسباد٣٨٥، مؤتمر جنيف٣٩٠، مداولات بريطانية جديدة٣٩٣، اضطرابات نوفمبر/ تشرين الثاني٣٩٦، ڤايتسمان والعرب٣٩٩، نحو انتهاء أعقاب الحرب المباشرة٤٠٣، استئناف المحادثات٤١١، محادثات القاهرة٤١٤، جنيف٤١٨، الكتاب الأبيض الصادر عن تشرشل٤٢٣، التصديق٤٢٩، فلسطين بحسب الميثاق٤٣٦. ٣٧٧

خاتمة ٤٤٧

للمترجم

تأليف:

ــ **تروبادور الصمت**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤.

ــ **مرايا الانتلجنتسيا**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٥.

ــ **مبدأ الأمل**، دار حور، القاهرة، ١٩٩٦.

ترجمة:

ــ ز. أ. ليفين: **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر**، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨.

ــ ط٢ تحت عنوان: **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر والشام**، شرقيات، القاهرة، ١٩٩٧.

ــ ز. أ. ليفين: **التنوير والقومية. تطور الفكر الاجتماعي العربي الحديث**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٧.

ــ چورج حنين، **لا مبررات الوجود**، أصوات، القاهرة، ١٩٨٧ (بالاشتراك مع أنور كامل).

ــ تيموثي ميتشل، **استعمار مصر**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٠ (بالاشتراك مع أحمد حسان).

ــ ك. پ. كاڤافي: **قصائد**، دار إلياس، القاهرة، ١٩٩١.

ــ تيموثي ميتشل، **مصر في الخطاب الأميركي**، مؤسسة عيبال، نيقوسيا، ١٩٩١.

ــ ترڤيتان تودوروف، **فتح أمريكا، مسألة الآخر**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٢.

ــ ط٢، دار العالم الثالث، القاهرة، ٢٠٠٣.

ــ روبير مانتران (إشراف): **تاريخ الدولة العثمانية**، جزءان، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣.

ــ فيليب فارج ويوسف كرباج: **المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤.

ـ ادواردو جاليانو: **الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية. تاريخ مضاد**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤ (بالاشتراك مع أحمد حسان).

ـ توماش ماستناك: **الإسلام وخلق الهوية الأوروبية**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٥.

ـ ط٢، الملتقى، مراكش، ٣، ١٩٩٩.

ـ هنري لورنس وآخرون: **الحملة الفرنسية في مصر. بونابرت والإسلام**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥.

ـ توماش ماستناك: **أوروبا وتدمير الآخر. الهنود الحمر والأتراك والبوسنويون**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٥.

ـ چورچ حنين: **أعمال مختارة**، منشورات الجمل، كولونيا، ١٩٩٦.

ـ ط٢ (مزيدة) تحت عنوان: **منظورات**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.

ـ تيموثي ميتشل: **الديموقراطية والدولة في العالم العربي**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٦.

ـ زكاري لوكمان: **خطاب الأفندية الاجتماعي، ١٨٩٩-١٩١٤**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٧.

ـ چان-كلود جارسان: **ازدهار وانهيار حاضرة مصرية: قوص**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧.

ـ هنري لورنس: **المملكة المستحيلة. فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧.

ـ هنري لورنس: **بونابرت والإسلام. بونابرت والدولة اليهودية**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٨.

ـ چويس منصور: **افتح أبواب الليل**، منشورات الجمل، كولونيا، ١٩٩٨.

ـ عبد الله الشيخ موسى: **الكاتب والسلطة**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ فرنان برودل: **هوية فرنسا**، المجلد الأول: **المكان والتاريخ**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ فرنان برودل: **هوية فرنسا**، المجلد الثاني: **الناس والأشياء**، المجلس الأعلى للثقافة، الجزء الأول ٢٠٠٠، الجزء الثاني ٢٠٠٠.

ـ صفاء فتحي: **إرهاب**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ هنري لورنس: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم في فرنسا (١٦٩٨-١٧٩٨)**، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ برنار نويل: **لسان أنّا**، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ هنري لورنس: **كليبر في مصر، المواجهة الدرامية مع بونابرت**، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ چاك دريدا وصفاء فتحي: **دريدا... من جهة أخرى**، فيلم تسجيلي، أخبار الأدب، القاهرة، ٢٠ فبراير/ شباط ٢٠٠٠.

ـ برنار نويل: **حالة جرامشي**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

ـ أندريه ريمون: **المصريون والفرنسيون في القاهرة (١٧٩٨-١٨٠١)**، عين، القاهرة، ٢٠٠١.

ـ نوربرت إيلياس وآخرون: **التمدن بين الاجتماع والتاريخ**، متون عصرية في العلوم الاجتماعية، ٢، القاهرة، ٢٠٠١، (بالاشتراك مع إيمان فرج).

ـ شارل بودلير: **سأم باريس**، الكتابة الأخرى، القاهرة، ديسمبر، ٢٠٠١.

ـ ميشيل بالار: **الحملات الصليبية والشرق اللاتيني**، عين، القاهرة، ٢٠٠٣.

ـ آلان جريش وطارق رمضان: **حوار حول الإسلام**، دار العالم الثالث، القاهرة، ٢٠٠٣.

ـ هنري لورنس: **المغامر والمستشرق**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

ـ توماش ماستناك: **السلام الصليبي**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

ـ چاك بيرك: **أيّ إسلام؟**، دار العالم الثالث، القاهرة، ٢٠٠٤.

ـ ريشار چاكمون: **بيْنَ كَتَبَةٍ وكُتّاب، الحقل الأدبي في مصر المعاصرة**، دار المستقبل العربي، القاهرة، ٢٠٠٤.

ـ هنري لورنس: **المشرق العربي في الزمن الأمريكي. من حرب الخليج إلى حرب العراق**، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٥.

ـ هنري لورنس: **مسألة فلسطين، الكتاب الأول، ١٧٩٨-١٩١٤**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦.

ـ أيف ميشو (إشراف) **جامعة كل المعارف: ما المجتمع؟**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦ (بالاشتراك مع آخرين).

ـ أيف ميشو (إشراف) **جامعة كل المعارف: ما الثقافة؟**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦ (بالاشتراك مع آخرين).

ـ ميكائيل لووي وأوليفييه روا وموريس باربييه: **حول الدين والعلمانيـــة**، دار ميريـت، القاهرة، ٢٠٠٦.

ـ تيموثي ميتشل: **دراستان حول التراث والحداثة**، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٦.

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية:

١ــ الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

٢ــ التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية.

٣ــ الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب.

٤ــ ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين.

٥ــ العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة.

٦ــ الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة.

التصحيح اللغوى : صـــفـــاء فـــتـــحى
إشـــراف فنى : حـــســن كـــامل